الدُّرَرُ المَنْثُوْرَة

فِيْ تَنْزِيْهِ اللهِ عَنِ الصُّوْرَة

الأُسْتَاذُ الدُّكْتُوْر

عَلِيْ عَايِدْ المِقْدَادِيْ الحَاتِمِي الأَشْعَرِي

۞۞ المُقَدِّمَة ۞۞

الحَمْدُ للهِ الأَحَدِيِّ الذَّاتِ، الْعَلِيِّ الصِّفات الجَلِيِّ الآيَاتِ الْوَفِيِّ الْعِدَاتِ، رَافِعِ السماوات وَسَامِعِ الأَصْوَاتِ، عَالِمِ الْخَفِيَّاتِ وَمُحْيِي الأَمْوَاتِ، تَنَزَّهَ عَنِ الآلاتِ وَتَقَدَّسَ عَنِ الْكَيْفِيَّاتِ، وَتَعَظَّمَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، جَلَّ عَنِ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ وَالْبَنَاتِ، ثَبَّتَ الأَرْضَ بِالأَطْوَادِ الرَّاسِيَاتِ، وَأَحْيَاهَا بَعْدَ مَوْتِهَا بِالسُّحُبِ الْمَاطِرَاتِ، فَإِذَا أَرْخَتْ عَزَالِيَهَا ضَحِكَ بِاخْضِرَارِهِ النبات، وقال الْمُبْتَدَعَاتُ بِأَلْسُنِ الإِشَارَاتِ: **﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ﴾** .

إِذَا بَسَطَ بِسَاطَ الْعَدْلِ تَزَلْزَلَتْ أَقْدَامُ أَهْلِ الثَّبَاتِ، وَإِذَا نَشَرَ رِدَاءُ الْفَضْلِ غَمَرَ الذُّنُوبَ الْمُوبِقَاتِ، **﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾** .

حَيٌّ بِحَيَاةٍ تَنَزَّهَتْ عَنْ طَارِقِ الْمَمَاتِ، عَالِمٌ بِعِلْمٍ وَاحِدٍ جَمِيعَ الْمَعْلُومَاتِ، قَادِرٌ بِقُدْرَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى جَمِيعِ الْمَقْدُورَاتِ، أَرَادَ فَلانَتْ لِهَيْبَتِهِ صِعَابُ الْمُرَادَاتِ، وَسَمِعَ فَلَمْ يَعْزُبْ عَنْ سَمْعِهِ خَفِيُّ الأَصْوَاتِ، وَأَبْصَرَ سَوَادَ الْعَيْنِ فِي أَشَدِّ الظُّلُمَاتِ، اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ لا كَاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَيَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيا مَرْوِيٌّ بِنَقْلٍ عَنِ الثِّقَاتِ، وَيَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الجنَّة بِالْعُيُونِ النَّاظِرَاتِ، نَصِفُهُ بِالنَّقْلِ الْمُبَايِنِ بِصِحَّتِهِ سَقِيمُ الشُّبُهَاتِ، مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ فِي الأَوْصَافِ وَلا تَشْبِيهٍ فِي الذَّوَاتِ، فَهَلْ عَلَيْنَا مَلامٌ أَمْ هُوَ طَرِيقُ النَّجَاةِ، أَحْمَدُهُ عَلَى جَمِيعِ الْحَالاتِ حَمْدًا يَدُومُ بِدَوَامِ الأَوْقَاتِ، وَأُقِرُّ بِوَحْدَانِيَّتِهِ كَافِرًا بِاللاتِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالأَدِلَّةِ الْوَاضِحَاتِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ النَّاهِضِ يَوْمَ الرِّدَّةِ عَلَى أَقْدَامِ الثَّبَاتِ، الْقَائِمِ بِنَصْرِ الإِسْلامِ وَقَدْ قَعَدَ أَهْلُ الْعَزَمَاتِ، الْقَائِلِ: أُقَاتِلُهُمْ وَلَوْ لَمْ أَجِدْ غَيْرَ الْبَنَاتِ، وَعَلَى عُمَرَ الْعَادِلِ فِي الْقَضِيَّاتِ، كَانَ إِذَا مَشَى فَرَقَ الشَّيْطَانُ مِنْ تِلْكَ الْخَطَوَاتِ، وَعَلَى عُثْمَانَ الْمُتَهَجِّدِ بِالْقُرْآنِ فِي الظُّلُمَاتِ، الصَّابِرِ عَلَى الشَّهَادَةِ بِأَيْدِي الْعِدَاةِ، وَعَلَى عَلِيٍّ ذِي الْمَنَاقِبِ الْعَالِيَاتِ، الْمَخْصُوصِ بِأُخُوَّةِ الرَّسُولِ دُونَ ذَوِي الْقَرَابَاتِ، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الَّذِي بِالسُّؤَالِ بِهِ سَالَتْ عَزَالِي السُّحُبِ الْمَاطِرَاتِ . التبصرة لابن الجوزي(٢/ ٨٠) .

نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا ، من يَهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أَنَّ محمَّداً

عبده ورسوله ، وصفيُّه وخليله ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾﴿آل عمران :١٠٢﴾ ، ﴿يا أَيُّهَا النَّاس اتَّقُوا ربّكم الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ إِنَّ اللهَّ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾﴿النساء : ١﴾ ، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾﴿الأحزاب : ٧٠﴾ .

أمَّا بعد : فقد قامت عقيدة أهل الحقِّ على أنَّ الله تعالى منزَّه عن الهيئة والصُّورة والحلول ، والاتِّحاد والاتِّصال والانفصال ، ومنزَّهٌ عن الانتقال والحركة والحدِّ والـمكان والجسميَّة ، فلا يقال : يمينٌ أو شمالٌ أوخلفٌ أو أمامٌ ، ولا هو فوقَ العرش ولا تحته ، ولا عن يمينه ولا عن شماله ، ولا هو داخلٌ في العالـم ولا خارجٌ عنه ، ولا يقال : لا يَعْلَـمُ مكانه إلَّا هو ، لأنَّه تعالى ليس في مكان ...

كما لا يقال : له صورة أو شكل وكذا سائر ما يتَّصف به المخلوق من المحدثات المخلوقات ... فالله سبحانه منزَّه عن الصُّور والتَّخطيط والتَّركيب ، لأنَّ الله تعالى هو المصوِّر وجلَّ المصوِّرُ أن يكون مُصَوَّرَاً ، وتعالى عن ذلك علوَّاً كبيراً ، لأنَّ الهيئة والصُّورة والتَّركيب والتَّأليف كلُّ ذلك إنَّما يصحُّ على الأجسام المحدودة والجواهر المخلوقة.

كما أنَّ الصُّور لا تنتج إلَّا عن تأليف وتركيب والتَّركيب يستحيل على الله تعالى ، وصاحب الصُّورة لا يختصّ بصورة إلَّا بمخصِّص ، والمخصِّص هو الله تعالى المصوِّر ، وهو تعالى يصوِّر مخلوقاته كيف شاء ، وكلُّ ما له صورة فهي علامة على كونه مخلوق مصوَّر صوَّره خالقه ، والله تعالى هو (المصوِّر) خالق الصُّوَر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .

ومن المعلوم بالضَّرورة أنَّ الله تعالى لا تسري عليه قوانين والمادَّة والأجسام ، لأنَّ الذي خلق المادَّة والجسم هو الله تعالى ، وهو الذي قهرها بالصُّور والأشكال ، والله تعالى ليس كمثل خلقه وليس كمثله شيء ، ولا تسري عليه مفاهيم المواد والأجسام ، ولا الصُّور والأشكال ، لأنَّه ليس كمثله شيء ، وكلُّ ما خطر بالبال فالله خلافه.

فالصُّورة تقتضي الكيفيَّة ، وهي عن الله تعالى وعن صفاته منفيَّة ، لذلك فإنَّ الذي يجب علينا وعلى كلِّ مسلم أن يعلمه أن ربّنا ليس بذي صورة ولا هيئة. انظر : موقع د. محمود صبيح .

وقد اتَّفق جمهور أهل العلم على أنَّ جميع الظَّواهر الواردة في الكتاب والسُّنَّة التي يوهم ظاهرها المشابهة بين الله تعالى وخلقه ليست على ظاهر معناها ، بل مفوَّضة أو متأوَّلة عند جميعهم ، ، لأنَّ الله منزَّه عن مشابهة خلقه ، وكذا التَّحيُّز والجهات والحدود ... لأنَّها صفات الأجسام ...

فهو سبحانه لا يحويه مكان ، ولا يُشبه خلقه بأي وجه من الوجوه ، ولا يوصف بالتَّغيُّر والانتقال ، وليس هو بجسم فلا يحتاج إلى مكان يستقرُّ ويتمكَّنُ فيه ... **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**﴿الشورى:١١﴾ ...

ومع هذا كلِّه نبتت نابتة من الرُّعاع وسفهاء الأحلام من أبناء المسلمين وصفوا الله تعالى بالعديد من صفات الخلق ، مع أنَّ الكثيرين ممَّن يَسألون مثل هذه الأسئلة لو سُئلوا عن الكثير من مسائل الحيض والنُّفاس وغيرها ما استطاعوا أن ينبسُّوا ببنت شفه ...

وممَّا يدعو للاستهجان : أنَّ هؤلاء جعلوا من السَّلف الصَّالح شمَّاعة لهم ، علَّقوا عليها مصائبهم وطامَّاتهم وعجائبهم وترَّهاتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان ، تلكم المصائب والتُّرَّهات والخزعبلات التي حادت بهم عن طريق تنزيه الله تعالى عن مشابهة الخلق بأيِّ وجه من الوجوه ... ذلكم التَّنزيه الذي كان عليه الصَّحابة ومن جاء بعدهم ممَّن تبعهم إلى يومنا هذا ، حيث فهموا من قوله تعالى : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** ﴿الشورى:١١﴾ ، وقوله عزَّ وجلَّ: **﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾**﴿النحل:٧٤﴾ ، وقوله تعالى: **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾**﴿مريم:٦٥﴾ ، **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾**﴿الإخلاص:٤﴾ أنَّ الله لا يشبه شيئاً من خلقه بأيِّ وجه من الوجوه ...

وعلى كلِّ حال فمن حمل الألفاظ المتشابهة كـ : الصُّورة ، والاستواء ، والنُّزول ، والوجه ، واليد ... على ظاهر معناها فقد خالف السَّلف والخلف، وأتى بما لم يقله الْمُنزِّهون ، فليس في هذه المسألة إلَّا تفويض الكَيْفَ وَالمعْنَى أو التَّأويل ... فلماذا السَّعي الحثيث لتفريق الأمَّة من خلال الإصرار على تحريم وتجريم التَّأويل مطلقاً مع الزَّعم بأنَّ السَّلف لم يؤولوا البتَّة ، ورمي المؤولة بالتَّجهُّم والتَّعطيل ؟!!!...

مع العلم أنَّه ثبت عن بعض السَّلف الصَّالح التَّأويل التَّفصيلي ، وقد ذكرت ذلك موسَّعاً في كتابي :"إعلامُ الخلف بتأويلاتِ السَّلف"...

فالله تعالى لا تجوز بحقِّه الكيفيَّة والأينيَّة، فلا يُقال لمن لا شبيه له ولا مِثال : كيف هو ؟ كما لا يقال لمن هو غنيٌّ عن المكان : أين هو ؟

فالمطلوب من المكلَّفين نفي الكيفيَّة والأينيَّة عنه البتّة. فإذا مررنا بآيات الاستواء – مثلاً – يجب علينا بداية أن نُبادر إلى تنزيه الله تعالى عن كلِّ معنى من المعاني التي تجوز على البشر ، كالجلوس أو القعود ... أو غيرها من الكيفيَّات والتَّخاطيط والتَّخييلات والتَّشكيلات التي لا تليق إلَّا بالأجسام كالتَّحيُّز والمماسَّة والافتقار إلى الأماكن، لأنَّ ذلك ينتهي إلى التَّجسيم ...

ولقد أبدع الشَّافعي – رحمه الله – عندما قال :"من انتهض لمعرفة مدبِّره فانتهى إلى موجود ينتهي إليه فكره فهو مشبِّه، وإن اطمأنَّ إلى العدم الصِّرف فهو معطِّل، وإن اطمأنَّ لموجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحِّد"...

وفي كتابنا هذا سنلقي الضّوء على عقيدة المسلمين بالأحاديث التي أوهمت أنَّ لله تعالى صورة ...

وقد جاء الكتاب عبر مُقدِّمة وستَّة فصول ، هي :

الفَصْلُ الأَوَّلُ : بَعْضُ المَسَائِلِ المُسَلَّمَة وَالمَعْلُوْمَة بِالضَّرُوْرَة فِي دِيْنِ الله تَعَالَى التِي لَا يَجُوْزُ البَحْثُ فِيْهَا .

الفَصْلُ الثَّانِي : مِنْ أَسْمَاءِ الله تَعَالَى : المُصَوِّر .

الفَصْلُ الثَّالِثُ : الإِلَهُ المُصَوِّرُ لَا يَكُوْنُ مُصَوَّرَاً .

الفَصْلُ الرَّابِعُ : خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ فِي أَعْدَلِ خَلْقٍ وَأَحْسَنِ صُورَةٍ .

الفَصْلُ الخَامِسُ : تَنْزِيْهُ الله تَعَالَى عَنِ الصُّورة .

الفَصْلُ السَّادِسُ : أَقْوَالُ العُلَمَاءِ فِي الأَحَادِيْثِ الَّتِي تَضَمَّنَت الكَلَامَ عَنِ الصُّوْرَة .

والله تعالى أسأل أن يرزقنا سُبُل الهُدى ، وأن يُجنِّبنا موارد الهوى والرَّدى ، وسُبُل الغواية والعَمى ، ونسأله تعالى أن يعلِّمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علَّمنا ، وأن يزيدنا علماً ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، في السرِّ والعلن ، إنَّه أهل ذلك والقادرُ عليه ...

وَسُبْحَانَكَ اللَهُمَّ وَبِحَمْدِكَ نَشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ نَسْتَغْفرُكَ وَنَتُوْبُ إِلَيْكَ ،

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْن

الفَصْلُ الأَوَّلُ

بَعْضُ المَسَائِلِ المُسَلَّمَة وَالمَعْلُوْمَة بِالضَّرُوْرَة فِي دِيْنِ الله تَعَالَى التِي لَا يَجُوْزُ البَحْثُ فِيْهَا

قبل مناقشة موضوع تنزيه الله تعالى عن الصُّورة ولوازمها ، لا بدَّ من الإشارة إلى بعض المسائل العقديَّة المسلَّمة والمعلومة بالضَّرورة في دين الله تعالى ... ومن أهمِّ تلكم المسائل المُسَلَّمَة :

أَوَّلَاً : أَنَّ الفِكْرَ فِي ذَاتِ الله تَعَالَى مَمْنُوْعٌ وَلَا يَجُوْزُ البَتَّة :

فعَنِ ابْنِ عبَّاس (٦٨هـ) رَضِيَ الله عَنْهُمَا ، قَالَ :"فَكِّرُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تُفَكِّرُوا فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَى". أخرجه أبو الشَّيخ الأصبهاني في كتاب العظمة (١/ ٢٤٠ برقم ٢٢) ، البيهقي في الأسماء والصِّفات (٢/ ٤٦ برقم ٦١٨) ،(٢/ ٣٢٣ برقم ٨٨٧) ، ابن بطة في الإبانة الكبرى (٧/ ١٥٠ برقم ١٠٨) ، وقال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني :"مَوْقُوفٌ ، وَسَنَدُهُ جَيِّدٌ". انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٣٨٣)

وروي مثله عن مالك ...

وقال ابن أبي زيد القيرواني (٣٨٦هـ) في رسالته :" لا يبلغ كُنْهَ صفته الواصفون ، ولا يُحيط بأمره المتفكِّرون ، يعتبر المتفكِّرون بآياته ، ولا يتفكَّرون في مائيَّة ذاته". انظر : الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/ ٩) .

والمائيَّة هي الماهيَّة، والمقصود : حقيقة الذَّات .

قال القرطبي (٦٧١هـ) :"وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ :

وَلَا تُفَكِّرَنَ فِي ذِي الْعُلَا عَزَّ وَجْهُهُ ... فَإِنَّـكَ تُرْدَى إِنْ فَعَلْتَ وَتُخْذَلُ

وَدُونَكَ مَصْنُوعَـــــاتُهُ فَاعْتَبِرْ بِهَا ... وَقُلْ مِثْلَ مَا قـال الخليلُ المبجَّلُ

انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١١٦) .

وقال الباجوري (١٢٧٧هـ) :

لا يعــــرفُ اللهَ إلَّا اللهُ فاتَّئدوا ... والدِّين دينـــان إيمانٌ وإشراكُ

وللعقول حدودٌ لا تجـــــاوزها ... والعجـــز عن درْك الإدراك إدراكُ

انظر : كفاية العوام (ص٨٧) .

وقال إبراهيم بن عبد العزيز أبو المجد الدَّسوقي (٦٩٦هـ) :

يَا أَيُّهَا المُدَّعِي للهِ عِرفَــــــــــاناً ... وَقَد تَفَوَّهَ بِالتَّوحِيــــــــدِ إِعلانَا

وتَطْلُبُ الحَقَّ بِالعَقلِ الضَّعِيفِ فَهَل ... أَدرَكتَ وَيحَكَ تحقيقــاً وَتِبيَانا

ظَنَنْتَ جَهْلاً بِأَنَ الله تُدرِكَــــهُ ... ثَوَاقِبَ الفِكْـرُ أَو تُحصِيهِ إِتقَانَاً

أَوْ العُقُول أَحَــاطَتَهُ بَديهَتهَا ... أو هل أَقَـامَت بِهِ لَولاهُ بُرهَانَاً

إِذْ العُلُــومِ وَمَا سَطَّرْنَ مِن كُتُبٍ ... هَـل هُنَّ إِلَّا عَلَىَ التَّحقيقِ عِرفَاناً

اللهُ أَعظَــمُ شأناً أَن يُحِيطَ بِهِ ... عِلمٌ وَعَقلٌ ورَأيٌ جَلَّ سُلطَانا

إدرَاك عَقلَكَ إِن عَطَّلتَــهُ عَدَمَاً ... وَخَـانَكَ العَقلُ إِن صَوَّرتَ دَيَّاناً

إِيَّاكَ وَيحَكَ والتَّعطِيلُ فِي صِفَــةٍ ... وَاحْذَر تَكُن عَابِداً بالوصـفِ أَوثَاناً

فإِنْ سَمِعتَ أَحَاديثَ الصِّفات فَقُلْ ... آمَنتُ بِاللهِ تَصدِيقاً وإِيمَاناً

إِن قُلتَ كَيْفَ استَــــوَىَ فَقُل كَيفَ شَاءَ وَلا ... تُصغِي إِلَىَ كَيفَ تَضحَىَ أَنتَ نَدمَاناً

أو قِيلَ أَينَ فَقُل حَيثُ اتجَهتُ تَجِــد ... مَولاكَ مَا غَابَ طَرفَاً وَلا بَانَا

وَهُوَ الذي فَـوْقَ كُل الفَوق رُتبَتَهُ ... وَحَيثُ كُنتَ وَجَدْتَ اللهُ دَيَّاناَ

مَنْ ظَنَّ جَهلاً بِأَنَ العَرْش يَحمِلَهُ ... قَد افترَىَ واجترَىَ ظُلماً وَعُدوَاناً

العَرشُ والفَرشُ وَالكُرسِي صِنعَتَهُ ... وَقَد بَرَاهُنَّ احْكَامـاً وإِتقَانَاً

العَرشُ مَنْ طَلَبَ قَد عَزَّ مَطلَبَهُ ... وَلَم يَزَل فِي طُلابِ الحَقَّ وَلهَـاناً

الخَلقُ فِي العِلْمِ تاهُـوا فِي تَطَلُّبِهِ ... فالعِلـمُ فِي الاسمِ لاَ يُبقِيكَ حَيْرَانَاً

فَالعِلمُ دَلَّ بِسِرٍ فِي غَوَامِضِهِ ... عَلَى المُسَمَّى فَصَارَ الاسمُ عِنوَانا

وَعَينُ ذَاكَ المُسَمـىَّ لَيسَ يُدرِكَهُ ... شَيء ولَـوحُ ولاَ إِنسُ وَلاجَانَا

هَذَا اعتِقَـــــــادِي وَإِن قَصَّرتُ فِي عَمَلِي ... فأسـأل الله تَوفِيقاً وغُفرَانا

ومن المعلوم أنَّ السَّلف الصَّالح لم يتطرَّقوا في كلامهم للذَّات ، لأنَّهم علموا من المحكمات أن لا سبيل لمعرفة كُنْه الخالق تعالى الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾﴿الشورى:١١﴾ ، لدرجة أنَّ بعض العلماء ذكر أنَّه لا حاجة للفظة الذَّات ، لأنَّها تُشغب النُّفوس وتبلبل الأفكار وتشتِّتها ، وأنَّها لم تكن معروفة في عهد الصَّحابة ، قال الذَّهبي في"سير أعلام النُّبلاء" (٦٠٧/١٩) :"قد ذكَرنَا أَنَّ لفظَة (بِذَاته) لاَ حَاجَةَ إِلَيْهَا ، وَهِيَ تَشْغَبُ النُّفُوْسَ ، وَتركُهَا أَوْلَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ" .

وقد اعترف الألباني بأنَّ لفظة الذَّات لم تكن معروفة في عهد الصَّحابة ، وهي من أمور الغيب ، وفي ذلك قال في"مختصر العلوّ للعليِّ العظيم"(ص١٧) :"ومن هذا العرض يتبيَّن أنَّ هاتين اللفظتين :"بذاته" و"بائن" لم تكونا معروفتين في عهد الصَّحابة ، رضي الله عنهم" .

ومن المعلوم أنَّ أمور الغيب وحقائقها لا تُدرَك بالعقل البشريِّ محدود التَّفكير ، وما على المؤمن إلَّا أن يُؤمِن بها كما أُنزِلت في القرآن الكريم، وكما جاءت في السُّنَّة الصَّحيحة، لأنَّ العقل البشريَّ لا يستطيع الخوض إلَّا في عالم الشَّهادة ، قال ابن خلدون في"ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشَّأن الأكبر" (٥٨٢/١) :"... وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينيَّة لا كذب فيها. غير أنَّك لا تطمع أن تزن به أمور التَّوحيد والآخرة وحقيقة النُّبوَّة وحقائق الصِّفات الإلهيَّة وكلّ ما وراء طوره فإنَّ ذلك طمع في محال.

ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذَّهب ، فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يُدْرَك. على أنَّ الميزان في أحكامه غير صادق ، لكن للعقل حدٌّ قد يقف عنده ولا يتعدَّى طوره ، حتَّى يكون له أن يحيط باللهَّ وبصفاته ، فإنَّه ذرَّة من ذرَّات الوجود الحاصل منه. وتفطّن من هذا الغلط من يقدم العقل على السَّمع في أمثال هذه القضايا ، وقصور فهمه واضمحلال رأيه ، فقد تبيَّن لك الحقّ من ذلك ، وإذ تبيَّن ذلك ، فلعلَّ الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا ، خرجت عن أن تكون مدركة ، فيضلّ العقل في بيداء الأوهام ، ويحارُ وينقطع. فإذاً التَّوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكيفيَّات تأثيرها ، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها ،

إذ لا فاعل غيره. وكلُّها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته، وعلمنا به إنَّما هو من حيث صدورنا عنه لا غير" .

وقال الشَّيخ محمَّد عبده في"رسالة التَّوحيد"(ص٦١) مبيِّناً عجْز العقل البشرى عن إدراك كُنْه العديد من الحقائق الكونيَّة :"إنَّنا مع جهلنا بكُنْهِ الكَوْنِ وحقيقته ، فللكون أو بعبارة أخرى : فللمخلوق صفات وظواهر وأعراض تحدِّد مخلوقيَّته واحتياجه لخالقه... فإذا ما ورد نصٌّ أوهم ظاهره التَّشبيه فليس كافياً في التَّنزيه أن نفسِّر اللفظ بحقيقته اللغويَّة ، ثمَّ نتناقض ونظنُّ أنَّنا منزِّهين حينما نقول : إنَّنا نجهل كُنه الذَّات ، بل يجب أن ننفي عن الله عزَّ وجلَّ المعنى الظَّاهر ، ولا نتفكَّر في ذات الخالق ، لأنَّ التَّفكُّر في الذَّات عبثٌ ومهلكة ، وطلب للاكتناه وهو مستحيل على العقل البشرى . فكلُّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**﴿الشورى : ١١﴾ .

وقد أفتى أهل العلم بمنع الكلام في مثل هذه الأمور ، قال الطَّحاوي في عقيدته :"لَا تَبْلُغُهُ الْأَوْهَامُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَفْهَامُ" .

وقال الطَّحاوي أيضاً في عقيدته :"وَلَا نَخُوضُ فِي اللهِ، وَلَا نُمَارِي فِي دِينِ اللهِ" . قال الشَّارح :"وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّهُ قَالَ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَنْطِقَ فِي ذَاتِ اللهِ بِشَيْءٍ، بَلْ يَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ" .

وقال النَّووي في"المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج"(٥/ ٢٥) :"وَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي جَمَعَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْحَقِّ كُلَّهُمْ عَلَى وُجُوبِ الْإِمْسَاكِ عَنِ الْفِكْرِ فِي الذَّاتِ ، كَمَا أُمِرُوا وَسَكَتُوا لِحِيرَةِ الْعَقْلِ ، وَاتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ التَّكْيِيفِ وَالتَّشْكِيلِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ وُقُوفِهِمْ وَإِمْسَاكِهِمْ غَيْرُ شَاكٍّ فِي الوجود والموجود ، وَغَيْرُ قَادِحٍ فِي التَّوْحِيدِ ، بَلْ هُوَ حَقِيقَتُهُ ثمَّ تَسَامَحَ بَعْضُهُمْ بِإِثْبَاتِ الْجِهَةِ خَاشِياً مِنْ مِثْلِ هَذَا التَّسَامُحِ ، وَهَلْ بَيْنَ التَّكْيِيفِ وَإِثْبَاتِ الْجِهَاتِ فَرْقٌ ؟!!!".

وقال أبو بكر الكلاباذي(٣٨٠هـ) في"التَّعرُّف لمذهب أهل التَّصوُّف"(ص٣٧) :"وَقَالَ مُحَمَّد بن مُوسَى الوَاسِطِيّ كَمَا أَنَّ ذَاته غير معلولة ، كَذَلِك صِفَاته غير معلولة ، وَإِظْهَار الصَّمديَّة إِيَاس عَن المطالعة على شيء من حقائق الصِّفات أَو لطائف الذَّات" .

وقال ابن الجوزي(٥٩٧هـ) في"تلبيس إبليس"(ص٣٤٣) :"... فمن ذلك : أَنَّه يأتي إِلَى العامِّي فيحمله عَلَى التَّفكُّر فِي ذات اللهَّ عزَّ وجلَّ وصفاته فيتشكَّك ، وقد أخبر رَسُول اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذلك فيما رواه أَبُو هريرة رَضِيَ اللهُّ عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"تسألون حتَّى تقولوا هَذَا اللهَّ خلقنا فمن خلق اللهَّ؟ " ، قَالَ أَبُو هريرة : فوالله إِنِّي لجالس يوماً إذ قَالَ لي رجل من أهل العراق : هَذَا اللهَّ خلقنا فمن خلق اللهَّ ؟ قَالَ أَبُو هريرة : فجعلت أصبعي فِي أذني ثمَّ صحْت : صدق رَسُول اللهَّ ، اللهَّ الْوَاحِد الأحد **﴿الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾**".

وقال أبو العبَّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي(٦٥٦هـ) في"المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"(٦/ ٦٩٠) :"ثمَّ إنَّهم أخذوا يبحثون فيما أمسك عن البحث فيه السَّلف الصَّالح، ولم يوجد عنهم فيه بحث واضح، وهو كيفيَّة تعلُّقات صفات الله تعالى، وتقديرها، واتِّخاذها في أنفسها، وأنَّها هي الذَّات، أو غيرها، وأنَّ الكلام، هل هو متَّحد، أو منقسم؛ وإذا كان منقسماً فهل ينقسم بالأنواع أو بالأوصاف؛ وكيف تعلَّق في الأزل بالمأمور؛ ثمَّ إذا انعدم المأمور فهل يبقى ذلك التعلُّق؛ وهل الأمر لزيد بالصَّلاة مثلاً هو عين الأمر لعمرو بالزَّكاة؛ إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمر الشَّرع بالبحث عنها، وسكت أصحاب النَّبي صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومن سلك سبيلهم، عن الخوض فيها؛ لعلمهم بأنَّها بحث عن كيفية ما لا تُعلم كيفيته؛ فإنَّ العقول لها حدٌّ تقف عنده، وهو العجز عن التَّكييف لا يتعدَّاه، فرق بين البحث في كيفيَّة الذَّات وكيفيَّة الصِّفات، ولذلك قال العليم الخبير: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ﴾**".

وجاء في "الفواكه الدَّواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني"(١/ ٤٢-٤٣) :"لَا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الْوَاصِفُونَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ ، أَيْ : وَمَا لَا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ فَكَيْفَ يُتَوَصَّلُ إلَى إدْرَاكِ كُنْهِ صِفَتِهِ؟" .

ثَانِياً : تَنْزِيْهِ اللهِ تَعَالَى عَنْ مُشَابَهَةِ الحَوَادِثِ :

من المعلوم بالضَّرورة في دين الله تعالى : أنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن مشابهة الحوادث ... بمعنى أنَّه تعالى منزَّهٌ عن الجسميَّة والجوارح والأعضاء وسائر متعلَّقات الحوادث... فهو سبحانه وتعالى مخالفٌ للحوادث ، في ذاته وصفاته وأفعاله ، فليس هو بذي صورة ، ولا كميَّة ، ولا كيفيَّة ، قال الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾﴿الشورى : ١١﴾ .

قال ابن منظور في"لسان العرب"(٣/ ٦٢٠) :" التَّنزيهُ: تَسْبِيحُ اللهِ عزَّ وجلَّ وإبعادُهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ. الأَزهري: تَنْزِيهُ اللهِ تبعيدُه وتقديسُه عَنِ الأَنداد والأَشباه، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْفَلَاةِ الَّتِي نأَتْ عَنِ الرِّيفِ وَالْمِيَاهِ نزِيهةٌ لِبُعْدِهَا عَنْ غَمَقِ الْمِيَاهِ وذِبّانِ القُرى ووَمَدِ الْبِحَارِ وَفَسَادِ الْهَوَاءِ. وَفِي الْحَدِيثِ: "كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَلَا يَمُرُّ بآيةٍ فِيهَا تَنْزِيهُ اللهِ إِلَّا نزَّهَهُ" ؛ أَصل النُّزْهِ البعدُ، وتَنْزِيهُ اللهِ تبعيدُه عَمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنَ النَّقَائِصِ؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي تَفْسِيرِ سُبْحَانَ اللهِ: هُوَ تَنْزِيهُهُ أَي إِبْعَادُهُ عَنِ السُّوءِ وَتَقْدِيسُهُ؛ وَمِنْهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الإِيمانُ نَزِهٌ" أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف(٤/ ٤٠٥ برقم ١٧٩٣٦) ، الآجري في الشريعة(٢/ ٥٩٦ برقم ٢٢٩) ، اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة(٦/ ١٠٩٠ برقم ١٨٧٠) ، البيهقي في شعب الإيمان(٧/ ٢٦٨ برقم ٤٩٨٠) ، ابن بطة في الإبانة الكبرى(٢/ ٦٦٦ برقم ٨٦٥) .

أَي بَعِيدٌ عَنِ الْمَعَاصِي. وَفِي حَدِيثِ الْمُعَذَّبِ فِي قَبْرِهِ: "كَانَ لَا يسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ" . أخرجه أحمد في المسند(٣/ ٤٤١ برقم ١٩٨٠) ، قال الأرنؤوط :"إسناده صحيح على شرط الشيخين. أبو معاوية: هو محمَّد بن خازم الضرير، والأعمش: هو سليمان بن مهران. وأخرجه ابن أبي شيبة ١/ ١٢٢ و٣/ ٣٧٥، والبخاري(٢١٨) ، وابن ماجه(٣٤٧) ، والأجري في"الشريعة" ص ٣٦٢ من طريق أبي معاوية ووكيع، بهذا الإسناد. وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٣٧٦-٣٧٧، والبخاري(١٣٦١) ، والنسائى ٦/ ١٠٤، والخرائطي في"مساوئ الأخلاق"(٢٣٦) ، والآجري ص ٣٦٢، والبيهقي في"السنن" ٢/ ٤١٢، وفي"إثبات عذاب القبر"(١١٨) ، والبغوي(١٨٣) من طريق أبي معاوية وحده، به. وأخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٧٧، وهناد في"الزهد"(٣٦٠) و(١٢١٣) ، والبخاري(٦٠٥٢) ، ومسلم(٢٩٢) ، وأبو د اود(٢٠) ، والترمذي(٧٠) ، والنسائي ١/ ٢٨-٢٩، وابن الجارود(١٣٠) ، وابن خزيمة(٥٦) ، والآجري ص ٣٦٢، والبيهقي في"السنن" ١/ ١٠٤، وفي"إثبات عذاب القبر"(١١٧) من طريق وكيع وحده، به. وأخرجه

عبد بن حميد(٦٢٠) ، والدارمي(٧٣٩) ، ومسلم(٢٩٢) ، والبيهقي في"السنن" ٢/ ٤١٢، وفي"إثبات عذاب القبر"(١١٩) من طريق عبد الواحد بن زياد، والبخاري(١٣٧٨) ، وابن حبان(٣١٢٨) ، والآجري ص ٣٦٢ من طريق جرير بن عبد الحميد، كلاهما عن الأعمش، به. وانظر ما بعده" .

أَي لَا يَسْتبرِئ وَلَا يَتَطَهَّرُ وَلَا يَسْتَبْعِدُ مِنْهُ" .

ومن ضروريَّات التَّنزيه : تنزيه الله تعالى عن الاختصاص بالجهات ،"فإنَّ الجهة إمَّا فوق ، وإمَّا أسفل ، وإمَّا يمين ، وإمَّا شمال ، أو قُدَّام ، أو خلف . وهذه الجهات هو الذي خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان ، إذ خلق له طرفين : أحدهما يعتمد على الأرض ويسمَّى رِجْلاً ، والآخر يقابله ويسمَّى رأساً ، فحدث اسم الفوق لما يلي جهة الرَّأس ، وحدث اسم السُّفل لما يلي جهة الرِّجل ، حتَّى أنَّ النَّملة التي تدبُّ منكَّسة تحت السَّقف تنقلب جهة الفوق في حقِّها تحتاً ، وإن كان في حقِّنا فوقاً ، وخلق للإنسان اليدين وإحداهما أقوى من الأخرى في الغالب ، فحدث اسم اليمين للأقوى ، واسم الشِّمال لما يقابله ، وتسمَّى الجهة التي تلي الرَّأس يميناً ، والأخرى شمالاً ، وخلق له جانبين يُبصر من أحدهما ويتحرَّك إليه ، فحدث اسم القدَّام للجهة التي يتقدَّم إليها بالحركة ، واسم الخلف لما يقابلها .

فالجهات حادثة بحدوث الإنسان ، ولو لم يُخلق الإنسان بهذه الخلقة ، بل خُلق مستديراً كالكرة ، لم يكن لهذه الجهات وجود البتَّة ، فكيف كان في الأزل مختصَّاً بجهة والجهة حادثة ، أو كيف صار مختصَّاً بجهة بعد أن لم يكن له؟ أَبِأَنْ خلق العالم فوقه ، وتعالى عن أن يكون له فوق ، إذ تعالى أن يكون له رأس ، والفوق عبارة عمَّا يكون جهة الرَّأس ، أو خلق العالم تحته ، فتعالى عن أن يكون لله تحت ، إذ تعالى عن أن يكون له رِجْل ، والتَّحت عبارة عمَّا يلي الرِّجْل ، وكلُّ ذلك ممَّا يستحيل في العقل ...." . انظر قواعد العقائد(ص١٦٢-١٦٣) .

وهذا الكلام لا يُعجب أهل الحشو من المشبِّهة والمجسِّمة والحشويَّة ، لأنَّهم كما قال الغزالي في"الاقتصاد في الاعتقاد"(ص١٠٢) :"أمَّا الحشويَّة ، فإنَّهم لم يتمكَّنوا من فهم موجود إلَّا في جهة ، فأثبتوا الجهة ، حتَّى ألزمتهم بالضَّرورة الجسميَّة والتَّقدير والاختصاص بصفات الحدوث . وأمَّا

المعتزلة فإنَّهم نفوا الجهة ، ولم يتمكَّنوا من إثبات الرُّؤية دونها ، وخالفوا به قواطع الشَّرع ، وظنّوا أنَّ في إثباتها إثبات الجهة ، فهؤلاء تغلغلوا في التَّنزيه محترزين من التَّشبيه ، فأفرطوا . والحشويَّة أثبتوا الجهة احترازاً من التَّعطيل فشبَّهوا ، فوفَّق الله سبحانه أهل السُّنَّة للقيام بالحقِّ ، فتفطَّنوا للمسلك القصد ، وعرفوا أنَّ الجهة منفيَّة ، لأنَّها للجسميَّة تابعة وتتمَّة ، وأنَّ الرُّؤية ثابتة ، لأنَّها رديف العلم وفريقه ، وهي تكملة له ؛ فانتفاء الجسميَّة أوجب انتفاء الجهة التي من لوازمها . وثبوت العلم أوجب ثبوت الرُّؤية التي هي من روادفه وتكملاته ومشاركة له في خاصيَّته ، وهي أنَّها لا توجب تغييراً في ذات المرئي ، بل تتعلَّق به على ما هو عليه كالعلم".

ثَالِثَاً : أنَّ الكَيْفَ عَلَيْهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى مُسْتَحِيْل :

الكيْف – كما يقول صاحب"التَّعريفات"(ص١٨٨) :"هيئة قارَّة في الشَّيء لا يقتضي قسمة ولا نسبة لذاته ، فقوله :"هيئة"يشمل الأعراض كلّها . وقولـــه :"قارَّة في الشَّيء"احتراز عن الهيئة الغير القارَّة ، كالحركة والزَّمان والفعل والانفعال".

وقد استشهد وتشبَّث الكثيرون بالمقولة المنسوبة للإمام مالك"والكيْف مجهول" وهي لا تصحُّ عنه ، ولا عن غيره البتَّة ... فقد نُسب هذا الكلام للإمام مالك ، وربيعة بن عبيد الرَّحْمَن ، وأمِّ سلمة رضي الله عنها ... والحقُّ أنَّ ذلك لم يثبت عنهم . قال الأستاذ العلَّامة حسَّان عبد المنَّان : "ليس لهذا إسناد يثبتُ وإليك تفصيله :

رواه اللالكائي في"شرح أصول الاعتقاد"(٦٦٤) ، وإسماعيل بن عبد الرَّحْمَن الصَّابوني في"عقيدة السَّلف"(١/ ١١٠-١١١)(من الرَّسائل المنيريَّة) ، وأبو نعيم في"الحلية"(٦/ ٣٢٥- ٣٢٦) من طريق سلمة بن شبيب ، عن مهدي بن جعفر عن جعفر بن عبد الله ، عن مالك بن أنس . وتابعه الدَّارمي في "الرَّدّ على الجهميَّة"(ص٢٨٠) ، فقال : عن مهدي بن جعفر ، عن جعفر بن عبد الله ، عن رجلٍ قد سمَّاه لي ، قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس ... وفي هذا الإسناد ثلاث عِلَلٍ :

رواية الدَّارمي المخالفة لرواية سلمة بن شبيب ، فزاد فيها رجلاً مجهولاً ، وجهالة جعفر بن عبد الله فإنِّي لم أتبيَّنه ، وما عند الدَّارمي في روايته من توثيقه لا يُحسِّنُ أمرَه وحالَه ، وأمَّا مهدي بن

جعفر – وهو الرَّملي – ففيه نظر ، إذ نقلوا أنَّ ابن عدي ، قال : يروي عن الثِّقات أشياء لا يُتابعُه عليها أحدٌ ، وهذا يُشعر بنكارة حديثه ، وهو ما حكم به البخاري ، فقال : حديثُه منكر"التَّهذيب". ورواه ابن عبد البر في"التَّمهيد"(٧/ ١٥١) ، من طريق بقي بن مخلد ، حدَّثنا بكَّار بن عبد الله القرشي ، حدَّثنا مهدي بن جعفر ، عن مالك بن أنس ، به . وفي هذه الرِّواية وهمٌ وتدليسٌ كأنَّه من بكَّار بن عبد الله ، فقد أسقطَ مَّنْ بينَ مهدي بن جعفر ومالك ، وقد بيَّنا ذلك في الرِّواية السَّابقة .

ورواه إسماعيل بن عبد الرَّحْمَن الصَّابوني(١/ ١١٠) ، عن أبي الحسن بن إسحاق المدني ، حدَّثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشَّافعي ، حدَّثنا شاذان ، حدَّثنا ابن مخلد بن يزيد القهستاني ، حدَّثنا جعفر بن ميمون ، قال : سُئل مالك بن أنس...وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ، فجعفر بن ميمون هو الأنماطي ، وهو ضعيف ، وشاذان وشيخُه لم أعثر لهما على ترجمة !! ورواه البيهقي في"الأسماء والصِّفات"(ص٤٠٨) ، عن أبي عبد الله ، أخبرني أحمد بن محمَّد بن إسماعيل بن مهران ، حدَّثنا أبي ، حدثنا أبو الرَّبيع ابن أخي رشدين بن سعد ، قال : سمعتُ عبد الله بن وهب يقول : كُنَّا عند مالك بن أنس .. فذكره . وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ، وإن جوَّد إسناده ابن حجر في"الفتح"(١٣/ ٤٠٧) ، فأبو الرَّبيع لم أعرفه ، وأحمد : لم أعثر له على ترجمة ، وأبوه مترجم في"اللسان"(٥/ ٨١-٨٢) ، وفيه نظرٌ وضعف في آخر ستّ سنوات من عمره .

ورواه البيهقي(ص٤٠٨) ، عن أبي بكر أحمد بن محمَّد بن الحارث الفقيه الأصفهاني ، أخبرنا أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن جعفر بن حيَّان المعروف بأبي الشَّيخ ، حدَّثنا أبو جعفر بن زيرك البزي ، سمعتُ محمَّد بن عمرو بن النَّضر النَّيسابوري يقول : سمعتُ يحيى بن يحيى يقول : كُنَّا عند مالك بن أنس فجاء رجل ... فذكره .

وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ، فابنُ زيرك لم أجد له ترجمة ، ومحمد بن عمرو بن النَّضر ذكره ابن حجر في"نزهة الألباب"(٢/ ٩٢) ، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . وانظر"سير أعلام النُّبلاء"(٨/ ١٠٠-١٠١) . ورواه ابن عبد البرّ في"التَّمهيد"(٧/ ١٥١) ، عن محمَّد بن مالك ، قال : حدَّثنا عبد

الله بن يونس ، قال : حدَّثنا بقي بن مخلد ، قال : حدَّثنا أيوب بن صلاح المخزومي بالرَّملة ، قال : كُنَّا عند مالك إذ جاءَه عراقي ، فقال له... فذكره . كذا في المطبوع :"أيُّوب بن صلاح"، وهو تحريف ، إنَّما هو أيُّوب بن صالح بن سلمة الحرَّاني المخزومي ، وهو ضعيف ، ضعَّفه ابن معين وغيرُه . انظر ترجمته في"اللسان"(١/ ٤٨٣-٤٨٤) .

وبهذا يتبيَّن لك خطأ الحافظ الذَّهبي في قوله في"العلو"(ص١٤١مختصره) :"هذا ثابت عن مالك" !! ومن ثمَّ خطأ كُلّ مَن سَلَّمَ بما نُسِبَ إلى الإمام مالك رحمه الله ، لأنَّ أسانيده لا تَقُم لذلك .

وقد يَرِدُ علينا أنَّ ذلك بمجموع هذه الطُّرق والأسانيد يصحُّ .

فنقولُ : إنَّ مثلَ هذه الأسانيد لا تتقوَّى وليس عجيباً أن تتكثَّرَ ، لأنَّ الفتنة في هذه المسألة قد انتشرت في ذاك الحين ، ونُسِبَ زوراً هذا القول إلى مالك وغيره ، فتناقلَه مجاهيلُ من النَّاس لا يُعرفون بصحيح علمٍ ، ولا توثيق ، فانتشرت لشائعاتها ، وإلاَّ فقُل لي - بربِّكَ - : أين الثِّقات من تلامذة الإمام مالك ، وتلامذتهم عن مثل هذه الحادثة ، وهذا القول ؟! .

وفي الباب مما رُوِيَ بنحوِه :

١-قول أمّ سلمة : رواه اللالكائي(٦٦٣) ، والصَّابوني في"عقيدة السَّلف"(١/ ١١٠) ، وابن قدامة في "العلو"(٨٢) ، وفي إسنادِه محمَّد بن أشرس ، وهو متَّهم في الحديث ، وقد تركه غير واحد .

وقال شيخ الإسلام في"الفتاوى"(٥/ ٣٦٥) : وقد رُوِيَ هذا الجواب عن أمِّ سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً ، ولكن ليس إسناده ممَّا يُعتمد عليه .

٢- قول ربيعة شيخ الإمام مالك : رواه اللالكائي(٦٦٥) ، والبيهقي(ص٤٠٨-٤٠٩) ، وابن قدامة في"العلو"(٩٠) ... بأسانيد لا تصحُّ . وعلى أيٍّ فالقضيَّة تبقى رأياً من عالم غير ملزمٍ للنَّاس ، ولا قاطع للجدل والفهمِ ، ولا محدِّدٍ لفهمٍ واحدٍ ، بل لكُلٍّ مُتَّسع فيما يرى ... والله أعلم" . انظر : مجموعة رسائل محمَّد نسيب الرفاعي ، حسَّان عبد المنَّان ، (ص٢٨-٢٩) .

فالله تعالى لا كَيْفَ له ، لأنَّ الكيْفَ كلمة مدلولها استفهام عن عموم الأحوال التي شأنها أن تُدرك بالحواس ، والله تعالى يتنزَّه عن ذلك...

فعلى الذين استمرأوا الاستشهاد بمقولة"والكيْف مجهول" أن يعلموا أنَّه يستحيل قولهم في حقِّ الله تعالى ، لأنَّ ظاهر هذه العبارة مُوهمٌ للتَّشبيه ، ولا يجوز لهم التَّمسُّك بعبارة مرويَّة لا تصحُّ ، فالله تعالى لا يُعقل له كيْفٌ ، لأنَّ في الكيْفِ مشابهةٌ ، والكيْف – كما يقول صاحب"التَّعريفات":"هيئة قارَّة في الشَّيء لا يقتضي قسمة ولا نسبة لذاته ، فقوله :"هيئة"يشمل الأعراض كلّها . وقوله :"قارَّة في الشَّيء"احتراز عن الهيئة غير القَّارة ، كالحركة والزَّمان والفعل والانفعال".

والقولُ بالتَّكييف المجهول مدخلٌ واسعٌ للتَّشبيه والتَّجسيم ، ولذلك وجدنا السَّلف الصَّالح يُجري الألفاظ الموهمة للتَّشبيه على ظاهر لفظها – لا على ظاهر معناها كما يزعم مُدَّعو السَّلفيَّة – والإيمان بها على طريق الإجمال ، مع تنزيه الله تعالى عن الكيفيَّة والتَّشبيه ، وقد نقله الإمام البيهقي وغيره عن الأئمَّة الأربعة ، والسُّفيانين(سفيان الثَّوري(١٦١هـ ، سفيان بن عيينة ١٩٨هـ) ، والحمَّادين(حمَّاد بن سلمة(١٦٧هـ ، وحمَّاد بن زيد ١٧٩هـ) ، والأوزاعي(١٥٧هـ) ، والليث(١٧٥هـ) ، وغيرهم كثير ...

فَكيْفَ ، ومن أين عَلمَ من يدَّعون السَّلفيَّة بأنَّ لله تعالى كيْفاً ؟!! ...

ومن المعلوم بداهة أنَّ التَّفكُّر والنَّظر والتَّدبُّر...أمرٌ موكولٌ للعقول التي من شأنها أن تحلِّل المعلومات الواردة إليها من خلال الحواس الخمس التي تُعتبر مصدراً مهمَّاً للإدراك ومعرفة الأشياء ، لكن يجب علينا أن نفهم أنَّ عمل هذه الحواس وكذا العقول مقصورٌ فقط على عالم الحسِّ والشَّهادة دون عالم الغيب الذي لا يعلمه إلَّا الله تعالى ...

وفي ذلك يقول محمَّد عبده(١٩٠٥م) :"إذا قَدَّرنا عقل البشر قدره ، وجدناه غايه ما ينتهي إلى كماله إنَّما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني ، حسَّاً كان أو وجداناً ، أو تعقُّلاً ، ثمَّ التَّوصُّل بذلك إلى معرفة مناشئها ، وتحصيل كليَّات لأنواعها ، والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها

أمَّا الوصول إلى كُنْه حقيقتها ، فممَّا لا تبلغه قوَّته ، لأنَّ اكتناه المركَّبات إنَّما هو باكتناه ما تركَّبت منه ، وذلك ينتهي إلى البسيط الصّرف ، وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضّرورة ، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره ...

خذ أظهر الأشياء وأجلاها ، كالضّوء : قرَّر النَّاظرون فيه له أحكاماً كثيرة ، فصَّلوها في علم خاص به ، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ، ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه ، وإنَّما يعرف من ذلك ما يعرفه كلّ بصير له عينان ، وعلى هذا القياس .

ثمَّ أنَّ الله لم يجعل للإنسان حاجه تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات ، وإنَّما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص ولذّة عقله إن كان سليماً ، إنَّما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصَّت به ، وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النّسب ، فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت ، وصرف للقوَّة إلى غير ما سيقت إليه ...

ويضيف قائلاً : بأنَّ الفكر في ذات الخالق هو طلب للاكتناه من جهة ، وهو ممتنع على العقل البشرى ، لما علمت من انقطاع النِّسبة بين الوجودين ، ولاستحالة التَّركيب في ذاته ، وتطاولٌ إلى ما لا تبلغه القوَّة البشريَّة ، من جهة أخرى ، فهو عبثٌ ومهلكةٌ ، عبثٌ لأنه سعيٌ إلى ما لا يُدرك ، ومهلكةٌ ، لأنَّه يؤدِّي الى الخبط في الاعتقاد ، لأنَّه تحديدٌ لما لا يجوز تحديده ، وحصرٌ لما لا يصحُّ حصره ...

ويخلص إلى القول : إنَّنا مع جهلنا بكُنْهِ الكَوْنِ وحقيقته ، فللكون أو بعبارة أخرى : فللمخلوق صفات وظواهر وأعراض تحدِّد مخلوقيَّته واحتياجه لخالقه... فإذا ما ورد نصٌّ أوهم ظاهرُهُ التَّشبيه ، فليس كافياً في التَّنزيه أن نفسِّر اللفظ بحقيقته اللغويَّة ، ثمَّ نتناقض ونظنُّ أنَّنا منزِّهين حينما نقول : أنَنا نجهل كُنه الذَّات ، بل يجب أن ننفي عن الله عزَّ وجلَّ المعنى الظَّاهر ، ولا نتفكَّر في ذات الخالق ، لأنَّ التَّفكُّر في الذَّات عبثٌ ومهلكةٌ ، وطلبٌ للاكتناه ، وهو مستحيلٌ على العقل البشرى . فكلُّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**﴿الشورى: ١١﴾ . انظر : رسالة التوحيد (ص٥٠-٦١ باختصار) .

فالعقل البشريُّ له جهود إذا جاوزها عجز وضلَّ ، وخبَط خبْط عشواء في غير فَهْم ولا إدراك ... وهناك ظواهر كثيرة تقع تحت حسِّ الإنسان ، وتتداخل في مدركاته ، وهو مع ذلك يعجز عن الوصول إلى كُنهها ، فالنَّفس ، والرُّوح ، والعقل ، والضّوء ، والكهرباء ، والأثير ، قريبةٌ منه كلّ القُرب ، ولكنَّه لا يستطيع معرفة حقيقتها ، وهو لذلك يكتفي بالبحث في آثارها وأعراضها ، وما يمكن أن يفيده منها ، ويَدَعُ – مضطرّاً – محاولة اكتناهها ، وما ذاك إلّا لأنَّ إدراكه ينتهي عند غايةٍ محدودة ، فالتَّفكير فيما وراء هذه الغاية إضاعةٌ للوقت ، وصرفٌ للقوى فيما خلقت غير مستعدَّة له . وإذا كان هذا حالُ العقل الإنساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحطّ عنه ، بل كذلك شأنه فيما يظنّ من الأفعال أنَّه صادر عنه كالفكر ، فما يكون من أمره بالنِّسبة إلى ذلك الوجود الأعلى ؟! . انظر كتاب : الله تبارك وتعالى (ص١٥١) .

وعلى تنزيه الله تعالى عن الكَيْفِ دَرَجَ وسار علماء الأُمَّة في القديم والحديث ... فقد نقَلَ أبو نعيم الأصبهاني في"الحِلْيَةِ"(١/ ٧٢-٧٣) بسنده عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ ، قَالَ : كُنْتُ بِالْكُوفَةِ فِي دَارِ الْإِمَارَةِ ، دَارِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا نَوْفُ بْنُ عَبْدِ الله ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَابِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : عَلَيَّ بِهِمْ ، فَلَمَّا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالُوا لَهُ : يَا عَلِيُّ صِفْ لَنَا رَبَّكَ هَذَا الَّذِي فِي السَّماء ، كَيْفَ هُوَ ، وَكَيْفَ كَانَ ، وَمَتَى كَانَ ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ هُوَ ؟ فَاسْتَوَى عَلِيٌّ جَالِساً ، وَقَالَ : مَعْشَرَ الْيَهُودِ اسْمَعُوا مِنِّي ، وَلَا تُبَالُوا أَنْ لَا تَسْأَلُوا أَحَداً غَيْرِي ، إِنَّ رَبِّي عزَّ وجلَّ هُوَ الْأَوَّلُ لَمْ يَبْدُ مِمَّا ، وَلَا مُمَازَجُ مَعِمَّا ، وَلَا حَالٌّ وَهْمًا ، وَلَا شَبَحٌ يُتَقَصَّى ، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى ، وَلَا كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَيُقَالُ : حَادِثٌ ، بَلْ جَلَّ أَنْ يُكَيِّفَ الْمُكَيِّفَ لِلْأَشْيَاءِ كَيْفَ كَانَ ، بَلْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزُولُ لِاخْتِلَافِ الْأَزْمَانِ ، وَلَا لِتَقَلُّبِ شَانٍ بَعْدَ شَانٍ ، وَكَيْفَ يُوصَفُ بِالْأَشْبَاحِ ، وَكَيْفَ يُنْعَتُ بِالْأَلْسُنِ الْفِصَاحِ ، مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالُ : بَائِنٌ ، وَلَمْ يَبِنْ عَنْهَا فَيُقَالُ : كَائِنٌ ، بَلْ هُوَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ حَبَلِ الْوَرِيدِ ، وَأَبْعَدُ فِي الشَّبَهِ مِنْ كُلِّ بَعِيدٍ ... وَالْحَدُّ إلى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ ...

سُبْحَانَهُ كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً بِلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدَوَاتٍ ، وَلَا شَفَةٍ وَلَا لَهَوَاتٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ تَكْيِيفِ الصِّفات ، مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِلَهَنَا مَحْدُودٌ ، فَقَدْ جَهَلَ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ" .

قلت : وعن معنى "بائن من خلقه" ، قال ابن فورك في "مُشكل الحديث وبيانه" (ص٤٥٤) :"... وأنَّه بائن ممَّا خلق ، بينونة الصِّفة والنَّعت ، لا بالتَّحيُّز والمكان والجهة" .

وقال الكوثري في تعليقه على "الأسماء والصفات" للبيهقي (ص٥٠٢) :"...والمعنى أنَّه غير ممازج للخلق ، لا بمعنى أنَّه متباعد عن الخلق بالمسافة ، تعالى الله عن القُرْبِ والبُعْد الحسيَّين والبينونة الحسِّيَّة ، فليس في ذلك ما يطمع المجسَّمة في كلامه ، وسيأتي من المصنِّف عند الكلام في آية الاستواء : لا قاعد ولا قائم ولا مماسّ ولا مباين عن العرش . ثمَّ قال : لأنَّ المماسَّة والمباينة بالمسافة التي هي ضدّها ، كلاهما من صفات الأجسام".

ولَمَّا كان الحدُّ من مقتضيات الكيْف ، فقد اجتمعت كلمة العلماء على نفي الحدِّ عنه تعالى ، قال التَّابعي الشَّهير زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم :"... أنت الله الذي لا تُحدُّ فتكون محدوداً". انظر : إتحاف السَّادة المتَّقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٤/ ٤١٣) .

وقال أبو حنيفة :"وَهُوَ شَيْء لَا كالأشياء وَمعنى الشَّيء : الثَّابِت بِلَا جسم ، وَلَا جَوْهَر ، وَلَا عَرَض ، وَلَا حدَّ لَهُ ، وَلَا ضدَّ لَهُ ، وَلَا ندَّ لَهُ ، وَلَا مِثل لَهُ" . انظر : شرح الفقه الأكبر (ص٨٩-٩٠) .

ونقل السُّيوطي في "الأشباه والنَّظائر" (ص٤٨٨) عن الشَّافعي أنَّه لَا يُكَفر أَحَداً مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَاسْتثنى مِنْ ذَلِكَ : الْمُجَسِّم ، وَمُنْكِر عِلْمِ الْجُزْئِيَّاتِ ."وحَكَوْا عن الشَّافعي رضي الله عنه أنَّه قال : من انتهض لطلب مدبِّره فانتهى إلى موجود ينتهي إليه فكرهُ فهو مشبِّه ، وإن اطمأنَّ إلى العدم الصّرف فهو معطِّل ، وإن اطمأنَّ إلى موجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحِّد" . انظر : تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدِّين السُّبْكِي (٤/ ٦٤٣) .

فالشَّافعي حكم على من انتهى فكره في طلب الحقِّ إلى شيء من المخلوقات بأنَّه مُشبِّه ، وحكم على من انتهى فكره إلى العدم بأنَّه معطِّل ...أمَّا من اعتقد بوجود الحقّ المتَّصف بالجلال والكمال ، واعترف بالعجز عن إدراك حقيقة الحقّ تعالى بأنَّه موحِّد .. وهذا كلام نفيس من الشَّافعي ، يدلُّ دلالة واضحة بيِّنة على أنَّ السَّلف الصَّالح رضوان الله عليهم كانوا على قلب رجل واحد في تنزيه الله تعالى عن الجسميَّة ولوازمها من التَّحيُّز ، والجلوس على العرش ، والنُّزول ، والمجيء ، والإتيان

بمعنى الحركة ...وأنَّ ما خطر بالبال فالله بخلافه ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾(الشورى: ١١) ...

وأكَّد الشَّافعي رضي الله عنه على الحقائق السَّابقة ، فقال كما جاء في"البُرهان المؤيَّد"(ص١٨) :"آمنت بلا تشبيه ، وصدَّقت بلا تمثيل ، واتَّهمت نفسي في الإدراك ، وأمسكت عن الخــوض فيه كلَّ الإمساك".

وقال جلال الدِّين السُّيوطي :"وَقَالَ المظهري : اعْلَم أنَّ الله تَعَالَى منزَّه عَن الْحَدث وَصفَة الْأَجْسَام ، وكلّ مَا ورد فِي الْقُرْآن وَالْأَحَادِيث فِي صِفَاته مِمَّا يُنبئ عَن الْجِهَة والفوقيَّة والاستقرار وَالنُّزُول وَنَحْوهَا ، فَلَا نَخُوض فِي تَأْوِيله ، بل نؤمن بِهَا هُوَ مَدْلُول تِلْكَ الْأَلْفَاظ على الْمَعْنى الَّذِي أَرَادَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، مَعَ التَّنْزِيه عَمَّا يُوهم الجسميَّة والجهة" . انظر : شرح سنن ابن ماجه(١/ ١٨) ، مضمن ثلاثة شروح :(مصباح الزجاجة للسيوطي) ،(إنجاح الحاجة لمحمد عبد الغني المجددي الحنفي) ،(ما يليق من حل اللغات وشرح المشكلات لفخر الحسن بن عبد الرَّحْمَن الحنفي الكنكوهي) .

فعلى الإنسان أن يعلم"أَنَّ كلَّ مَا تصوَّر فِي الْوَهم من طولٍ وَعرْض وعمْق وألوان وهيئات مُخْتَلفَة ، يَنْبَغِي أَن تعتقد أَنَّ صانع الْعَالم بخلافة ، وَأَنَّه قَادر على خلق مثله ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنى أَشَارَ الصّدِّيق رَضِي الله عَنهُ بقوله : الْعَجز عَن دَرك الْإِدْرَاك إِدْرَاك ، وَمَعْنَاهُ : إِذا صَحَّ عنْدك أَنَّ الصَّانِع لَا يُمكن مَعْرفَته بالتَّصوير والتَّركيب وَالْقِيَاس على الْخلق صَحَّ عنْدك أَنَّه خلاف الْمَخْلُوقَات ، وتحقيقه أَنَّك إِذا عجزت عَن مَعْرفَته بِالْقِيَاسِ على أَفعاله صَحَّ معرفتك لَهُ بِدلَالَة الْأَفْعَال على ذَاته وَصِفَاته ، وَقد وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفسه بقوله : ﴿**هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ**﴾(الحشر:٢٤) ، وَمَا كَانَ مصوَّراً لم يكن مصوِّراً ، كَمَا أَنَّ من كَانَ مخلوقاً لم يكن خَالِقًا". انظر : التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٦٠) .

فتكييفُ الأشياء لا يتحصَّل إلَّا من خلال عمل الحواس التي تعمل وفقاً لمعلومات وردت إليها ، فإذا فُقدت المعلومات أو لم تتوفَّر فلا يتبقَّى للعقل إلَّا التَّخيُّلات المبنيَّة لديه على مثال سابق موجود ومتشكّل في الذَّاكرة ، بناء على معلومات سابقة وردت إليه ... فإذا لم تتوفَّر أصلاً معلومات

عن شيء ما ، فلا سبيل للعقل إلى تكييفه ...وعليه فلا يتبقَّى لمن يدَّعون السَّلفيَّة من سبيل للقول بالكيْف المجهول إلَّا الفهم السَّقيم للنُّصوص المتشابهة ، ذلكم الفهم الذي أقيم على إلغائهم وإنكارهم لجمال اللغة العربيَّة المتمثِّل بالمجاز الذي أنكروه وسمُّوه بالطَّاغوت ، كما تجد ذلك في كتاب :"الصَّواعق المُرسلة في الرَّدِّ على الجهميَّة والمعطِّلة" لابن القيِّم ، وهو الكتاب الذي هجم فيه على المجاز وعلى القائلين به ، ونسي أو تناسى أنَّ اسم الكتاب الذي حارب فيه المجاز ... مجاز ، فيا لـ ...

ولذلك وجدناهم يسارعون إلى إثبات كلِّ ما من شأنه أن يصف الله تعالى بالجوارح والأعضاء ، ويُجْرُونه على ظاهر معناه ، ثمَّ يقولون :"بلا كيْف" ، أو "والكيْف مجهول" ، وهي عبارة لا مكان لها من الإعراب في هذا المقام ، والعياذ بالله تعالى ...

ومن المعلوم أنَّ جمهور السَّلف الصَّالح وقف أمام المتشابهات من غير أن ينبسُّوا ببنت شَفَه ، وقالوا : نؤمن بها ، وُنَصدِّقُ بِهَا ، وَلَا تُتوَهَّم ، **وَلَا كَيْف ، وَلَا مَعْنَى** ، ولا نَرُدُّ منها شيئاً ، ونعلم أنَّ ما جاء به الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقٌّ إذا ثبت وصحَّ الحديث عنه ، ولا نردُّ على الله تعالى قوله ، ولا نصف الله بأكثر ممَّا وصف به نفسه ، بلا حدٍّ ولا غاية ، **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**﴿الشورى : ١١﴾ . فأجروها على ظاهر اللفظ لا على ظاهر المعنى ، لأنَّ المعنى لا سبيل إلى درْكه ، ولذلك وَكَلُوا علمه إلى الله تعالى ، وكان لسان حالهم يقول كما قال ابن الجوزي :"نُقِرُّ ونُمِرُّ ، وَأَرْبَابُ الْبَحْثِ فِي خَسَارٍ ، هَذَا سَيْفُ السُّنَّة فَتَنَاوَلْهُ بِالْيَمِينِ لا بِالْيَسَارِ ، وَاضْرِبْ بِهِ كَفَّ"كَيْفَ"وَرَأْسَ"لِمَ"وَعُنُقَ"ثمَّ"وَخُذْ لِلتَّنْزِيهِ من التَّشبيه بالثَّار ، قال تعالى : **﴿أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِّ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾**".انظر : التبصرة لابن الجوزي(٢/ ٢٨٧)

وقال السُّيوطي :"... وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَكَ إِلَى مَعْرِفَةِ إِيَّاكَ كَمَا إِيَّاكَ، فَكَيْفَ لَكَ سَبِيلٌ إِلَى مَعْرِفَةِ إِيَّاهُ كَمَا إِيَّاهُ؟ فَكَأَنَّهُ فِي قَوْلِهِ: مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ، عَلَّقَ الْمُسْتَحِيلَ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ أَنْ تَعْرِفَ نَفْسَكَ وَكَيْفِيَّتَهَا وَكَمِّيَّتَهَا، فَإِنَّكَ إِذَا كُنْتَ لَا تُطِيقُ بِأَنْ تَصِفَ نَفْسَكَ الَّتِي هِيَ بَيْنَ جَنْبَيْكَ

بِكَيْفِيَّةٍ وَأَيْنِيَّةٍ وَلَا بِسَجِيَّةٍ وَلَا هَيْكَلِيَّةٍ وَلَا هِيَ بِمَرْئِيَّةٍ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِعُبُودِيَّتِكَ أَنْ تَصِفَ الرُّبُوبِيَّةَ بِكَيْفَ وَأَيْنَ وَهُوَ مُقَدَّسٌ عَنِ الْكَيْفِ وَالْأَيْنِ؟ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

قُلْ لِمَنْ يَفْهَمُ عَنِّي مَا أَقُولُ ... قَصِّرِ الْقَوْلُ فَذَا شَرْحٌ يَطُولْ

هُوَ سِرٌّ غَامِضٌ مِنْ دُونِهِ ... ضُرِبَتْ وَاللهِ أَعْنَاقُ الْفُحُولْ

أَنْتَ لَا تَعْرِفُ إِيَّاكَ وَلَا ... تَدْرِ مَنْ أَنْتَ وَلَا كَيْفَ الْوُصُولْ

لَا وَلَا تَدْرِ صِفَاتٍ رُكِّبَتْ ... فِيكَ حَارَتْ فِي خَفَايَاهَا الْعُقُولْ

أَيْنَ مِنْكَ الرُّوحُ فِي جَوْهَرِهَا ... هَلْ تَرَاهَا فَتَرَى كَيْفَ تَجُولْ

هَذِهِ الْأَنْفَاسُ هَلْ تَحْصُرُهَا ... لَا وَلَا تَدْرِي مَتَى مِنْكَ تَزُولْ

أَيْنَ مِنْكَ الْعَقْلُ وَالْفَهْمُ إِذَا ... غَلَبَ النَّوْمُ فَقُلْ لِي يَا جَهُولْ

أَنْتَ أَكْلُ الْخُبْزِ لَا تَعْرِفُهُ ... كَيْفَ يَجْرِي مِنْكَ أَمْ كَيْفَ تَبُولْ

فَإِذَا كَانَتْ طَوَايَاكَ الَّتِي ... بَيْنَ جَنْبَيْكَ كَذَا فِيهَا ضَلُولْ

كَيْفَ تَدْرِي مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... لَا تَقُلْ كَيْفَ اسْتَوَى كَيفَ النُّزُولْ

كَيْفَ تَجَلَّى اللهُ أَمْ كَيْفَ يُرَى ... فَلَعَمْرِي لَيْسَ ذَا إِلَّا فُضُولْ

هُوَ لَا كَيْفَ وَلَا أَيْنَ لَهُ ... وَهُوَ رَبُّ الْكَيْفِ وَالْكَيْفُ يَحُولْ

وَهُوَ فَوْقَ الْفَوْقِ لَا فَوْقَ لَهُ ... وَهُوَ فِي كُلِّ النَّوَاحِي لَا يَزُولْ

جَلَّ ذَاتًا وَصِفَاتًا وَسَمَا ... وَتَعَالَى قَدْرُهُ عَمَّا أَقُولْ

انظر : الحاوي للفتاوي (٢/ ١٩٠-١٩١) .

فالكيْفُ عليه سبحانه وتعالى مستحيل ، وتنزيه الله تعالى عن الكيْف أمرٌ لا يختلف فيه اثنان من أهل الحقِّ ... فلا يقال لمن كيَّف الكيْف : كيف !!! لأنَّ الكيفيَّة من لوازم الجسميَّة ، والله تعالى ليس جسماً ... وصفاته سبحانه لا تشبه صفاتنا بشيء ، جلَّ وتعالى ربّنا عن النَّظير ، والمثيل ، والشَّبيه ، والنِّدِّ ، ، والضِّدِّ ، والكفء ، والحدِّ ، والمكان ، والحركة ...

رَابِعاً : تَنْزِيْه اللهِ تَعَالَى عَنِ المَكَان :

لقد أجمعت الأمَّة على تنزيه الله تعالى عن المكان ، وَأنَّه لَا يجرى عَلَيْهِ زمَان ، ونقل إجماعهم على ذلك غير واحد من العلماء ...

قال عبد القاهر البغدادي(٤٢٩هـ) :"وأجمعوا على أنَّه لَا يحويه مَكَان ، وَلَا يجرى عَلَيْهِ زمَان" . انظر : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية (ص٣٢١) .

وقال إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجُويني الشَّافعي(٤٧٨هـ) ما نصّه :"ومذهبُ أهل الحقِّ قاطبة : أنَّ الله سبحانه وتعالى يتعالى عن التَّحيُّز والتَّخصُّص بالجهات". انظر : كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص٣٩) .

وقال الرَّازي :"... انْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّه سُبْحَانَهُ لَيْسَ مَعَنَا بِالْمَكَانِ وَالْجِهَةِ وَالْحَيِّزِ". انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٩/ ٤٤٩) .

فالله تعالى لا يحتاج لمكان يتمكَّن فيه ، لأنَّه سبحانه ليس جسماً ، إذ الجسم هو الذي يتمكَّن بمعنى يتحيَّز في المكان ، وهو الذي لا ينفكُّ عن الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق ، إذ هي أعراضٌ ملازمةٌ للأجسام ، ولا تقوم إلَّا بها ، وهي حادثةٌ لتغيُّرها وتبدُّلها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حادث ، والله تعالى واجب الوجود لذاته ، فلا يجوز أن يكون جسْماً أو عَرَضاً ، فلو كان جسْماً أو عَرَضاً لاحتاج للمحلّ ، وافتقر إليه ، وباحتياج المتمكِّن في المكان للمكان يصبح الواجب مفتقراً للغير فيكون ممكِناً ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وبالتَّالي لا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات من الحركة والسُّكون والانتقال وسائر الأعراض الملازمة للمحدثــات ، وبالتَّالي فالله تعالى ليس محلَّاً للحوادث ، فلا هو يحلُّ بها ، ولا هي تحلُّ فيه سبحانه وتعالى ... وفيما يلي بعضاً من أقوال العلماء في تنزيه الله تعالى عن المكان :

قال جعفر الصَّادق بن محمَّد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين رضوان الله عليهم :"مَنْ زعم أنَّ الله تعالى في شيء ، أو من شيء أو على شيء فقد أشرك ، لأنَّه لو كان على شيء لكان محمولاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان من شيء لكان محدثًا ، والله يتعالى عن ذلك". انظر : الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل بـه ، أبو بكر محمَّد الباقلاني المالكي (ص٤٠) .

وقال أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت بن إبراهيم في"الفقه الأبسط" (ص٥٧) :"لا يُوصف الله تعالى بصفات المخلوقين ... قلتُ : أرأيتَ لو قيل : أين الله تعالى ؟ فقال : يقال له : كان الله تعالى ولا مكان قبل أن يخلق الخلق ، وكان الله تعالى ولم يكن أين ولا خَلْق ولا شيء ، وهو خالق كلّ شيء".

وقال الزَّبيدي في"إتحاف السَّادة المتَّقين بشرح إحياء علوم الدِّين"(٢٣/٢) نقلاً عن الشَّافعي:"... والدَّليل عليه هو أنَّه تعالى كان ولا مكان ، فخلق المكان وهو على صفة الأزليَّة كما كان قبل خلقه المكان ، لا يجوز عليه التَّغيير في ذاته ، ولا التَّبديل في صفاته".

وقال اللغوي إبراهيم بن السّري الزّجَّاج في"تفسير أسماء الله الحسنى"(ص٤٨) :"العلي : هو فَعِيل في معنى فاعل ، فالله تعالى عالٍ على خلقه ، وهو عليٌّ عليهم بقدرته ، ولا يجب أن يُذهب بالعلو ارتفاع مكانٍ ، إذ قد بيَّنَّا أن ذلك لا يجوز في صفاته تقدَّست ، ولا يجوز أن يكون على أن يُتصوَّر بذهن ، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً"..

وقال في"تفسير أسماء الله الحسنى"(ص٦٠) :"والله تعالى عالٍ على كلِّ شَيء ، وليس المراد بالعلو ارتفاع المحلِّ ، لأنَّ الله تعالى يجلُّ عن المحلِّ والمكان ، وإنَّما العُلو علوُّ الشَّأن وارتفاعُ السُّلطان".

وقال محمَّد بن حبَّان البُستي في"الثِّقات"(١/١-٢) :"الْحَمد لله الَّذِي لَيْسَ لَهُ حدٌّ مَحْدُود فيحتوى ، وَلَا لَهُ أجل مَعْدُود فيفنى ، وَلَا يُحِيط بِهِ جَوَامِع الْمَكَان ، وَلَا يشْتَمل عَلَيْهِ تَوَاتر الزَّمَان ، وَلَا يدْرك نعْمَته بالشواهد والحواس ، وَلَا يُقَاس صِفَات ذَاته بِالنَّاسِ ، تعاظم قدره عَن مبالغ نعت الواصفين ، وَجلَّ وَصفه عَن إِدْرَاك غَايَة الناطقين".

وقال كما في"الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان"(١٠/١٤) في كلامه على حديث :"... أَيْنَ كَانَ ربّنا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض ؟ قَالَ : فِي عَمَاءٍ ، مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تحته هواء":"قال أبو حاتم رضي الله تعالى عَنْهُ : وَهِمَ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ مِنْ حَيْثُ"فِي غَمَامٍ" إِنَّمَا هُوَ"فِي عَمَاءٍ"يُرِيدُ بِهِ : أَنَّ الْخَلْقَ لَا يَعْرِفُونَ خَالِقَهُمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ ، إِذْ كَانَ ولا زمان ولا مكان ، ومن لا

يُعْرَفْ لَهُ زَمَانٌ ، وَلَا مَكَانٌ ، وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ ، لِأَنَّهُ خَالِقُهَا ؛ كَانَ مَعْرِفَةُ الْخَلْقِ إِيَّاهُ ، كَأَنَّهُ كَانَ فِي عَمَاءٍ عَنْ عِلْمِ الْخَلْقِ ، لَا أَنَّ اللهَّ كَانَ فِي عَمَاءٍ ، إِذْ هذا الوصف شبيه بأوصاف المخلوقين".

وقال محمَّد بن حبان البُستي في"الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان"(٣/ ٢٠١) :"... كَذَلِكَ يَنْزِلُ بِلَا آلَةٍ ، وَلَا تَحَرُّكٍ ، وَلَا انْتِقَالٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ... وَكَذَلِكَ يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ ، بِلَا آلَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَاسَ نُزُولُهُ إِلَى نُزُولِ الْمَخْلُوقِينَ ، كَمَا يُكَيَّفُ نُزُولُهُمْ ، جَلَّ ربّنا وَتَقَدَّسَ مِنْ أَنْ تُشَبَّهَ صِفَاتُهُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ".

وقال السُّبْكِي في"طبقات الشَّافعيَّة الكبرى"(٩/ ٤٣) نقلاً عن محمَّد بن مَحْبُوب خَادِمِ أَبِي عُثْمَان المغربي ، قَالَ لي أَبُو عُثْمَان المغربي(٣٧٣هـ) يَوْماً : يَا محمَّد ، لَو قَالَ لَك قَائِل : أَيْن معبودك ؟ أيش تَقول : قلت : أَقُول حَيْثُ لم يزل . قَالَ : فَإِن قَالَ : فَأَيْنَ كَانَ فِي الْأَزَل أيش تَقول ؟ قلت : حَيْثُ هُوَ الْآن ، يَعْنِي : أَنه كَانَ وَلَا مَكَان فَهُوَ الْآن كَمَا كَانَ ، قَالَ : فارتضى ذَلِك مني وَنزع قَمِيصه وأعطانيه".

وقال القاضي أبو بكر محمَّد الباقلاني في"الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به"(ص٤٠) :"ويجب أن يُعلم : أنَّ كلَّ ما يدلُّ على الحدوث أو على سمة النَّقص ، فالرَّبُّ تعالى يتقدَّس عنه .

فمن ذلك : أنَّه تعالى متقدِّسٌ عن الاختصاص بالجهات ، والاتِّصاف بصفات المحدثات ، وكذلك لا يوصف بالتحوُّل ، والانتقال ، ولا القيام ، ولا القعود ، لقوله تعالى : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**﴿الشورى : ١١﴾ ، وقوله : **﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾**﴿الإخلاص: ٤﴾ ، ولأنَّ هذه الصِّفات تدلُّ على الحدوث ، والله تعالى يتقدَّس عن ذلك".

وقال القاضي أبو بكر محمَّد الباقلاني المالكي في"الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به"(ص٣٩-٤٠) :"ولا نقول : إنَّ العرش له قرارٌ ولا مكانٌ ، لأنَّ الله تعالى كان ولا مكان ، فلمَّا خلق المكان لم يتغيَّر عمَّا كان".

وقال محمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني في"مشكل الحديث وبيانه"(ص١٥٣) :"وَلَا يجوز على الله تَعَالَى الْحُلُول فِي الْأَمَاكِن لاستحالة كَونه محدوداً ومتناهياً ، وَذَلِكَ لاستحالة كَونه مُحدثاً".

وقال في"مشكل الحديث وبيانه"(ص١٧٣) :"وَاعْلَم أَنَّا إِذا قُلْنَا : إِنَّ الله عزَّ وجلَّ فَوق مَا خلق ، لم يرجع بِهِ إِلَى فوقيَّة الْمَكَان والارتفاع على الْأَمْكِنَة بالمسافة والإشراف عَلَيْهَا بالمماسَّة لشَيْء مِنْهَا ، بل قَوْلنَا إِنَّه فَوْقهَا يحْتَمل وَجْهَيْن :

أَحدهمَا : أَنه يُرَاد بِهِ : أَنه قاهر لَهَا مستول عَلَيْهَا إِثْبَاتاً لإحاطة قدرته بهَا ، وشمول قهره لَهَا ، وَكَونهَا تَحت تَدْبيره جَارِيَة على حسب علمه ومشيئته .

وَالْوَجْه الثَّانِي : أَن يُرَاد : أَنه فَوْقهَا ، على معنى : أَنَّه مباين لَهَا بِالصِّفَةِ والنَّعت ، وَأَنَّ مَا يجوز على المحدثات من الْعَيْب وَالنَّقْص وَالْعجز والآفة وَالْحَاجة ، لَا يَصحُّ شَيْء من ذَلِك عَلَيْهِ ، وَلَا يجوز وَصفه بِهِ ، وَهَذَا أَيْضاً مُتَعَارَف فِي اللُّغَة ، أَن يُقَال : فلَان فَوق فلَان ، وَيُرَاد بذلك رفْعَة الْمرتبَة والمنزلة ، وَالله عزَّ وجلَّ فَوق خلقه على الْوَجْهَيْنِ جَمِيعاً . وإنَّما يمْتَنع الْوَجْه الثَّالِث ، وَهُوَ أَن يكون على معنى التحيُّز فِي جِهَة الاختصاص ببقعه دون بقْعَة".

وقال ابن بطَّال في"شرح صحيح البخاري"(١٠/ ٤٥٣) :"أنَّ الدَّلائل الواضحة قد قامت على أنَّ البارئ تعالى ليس بجسم ، ولا محتاجاً إلى مكان يحلّه ويستقرُّ فيه ؛ لأَنَّه تعالى قد كان ولا مكان ، وهو على ما كان ، ثمَّ خلق المكان ، فمحال كونه غنيَّاً عن المكان قبل خلقه إيَّاه ، ثمَّ يحتاج إليه بعد خلقه له ، هذا مستحيل".

وقال البيهقي في"الأسماء والصِّفات"(٢/ ٢٨٧) :"وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ أَصْحَابِنَا فِي نَفْيِ الْمَكَانِ عَنْهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :"أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ". وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُ شَيْءٌ ، وَلَا دُونَهُ شَيْءٌ ، لَمْ يَكُنْ فِي مَكَانٍ". والحديث صحيح ، كما قال الشَّيخ الأرنؤوط في تخريجه لأحاديث صحيح ابن حبَّان(٣/ ٢٤٦ برقم ٩٦٦) .

وقال أبو العبَّاس أحمَدُ بنُ أبي حَفْصٍ عُمَرَ بنِ إبراهيمَ القرطبيُّ في"المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"(٥/ ٧٤) :"إذ الله تعالى منزَّه عن المكان ، كما هو منزَّه عن الزَّمان ، بل هو خالق الزَّمان والمكان ، ولم يزل موجوداً ، ولا زمانَ ولا مكانَ ، وهو الآن على ما عليه كان ، ولو كان قابلاً للمكان لكان مختصَّاً به ، ويحتاج إلى مخصِّص ، ولكان فيه أمَّا متحرِّكاً وأمَّا ساكناً ، وهما أمران حادثان ، وما يتَّصف بالحوادث حادث".

وقال أبو العبَّاس أحمَدُ بنُ أبي حَفْصٍ عُمَرَ بنِ إبراهيمَ القرطبيُّ في"المُفهِم لما أُشكل من تلخيص كتاب مسلم"(٢٢/ ٢٩) :"فإنَّه تعالى منزَّه عن المكان والزَّمان".

وقال أبو الفضل زين الدِّين عبد الرَّحيم العراقي في"طرح التَّثريب في شرح التَّقريب"(٨/ ٢٤٨) معلِّقاً على تبويب الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الْقَدَرِ : بَابَ تَحَاجِّ آدَم وَمُوسَى عِنْدَ اللهَّ :"وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ هَذِهِ الْعِنْدِيَّةُ عِنْدِيَّةُ اخْتِصَاصٍ وَتَشْرِيفٍ لَا عِنْدِيَّةُ مَكَان ، لِأَنَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ ، وإِنَّمَا هِيَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ، أَيْ : فِي مَحَلِّ التَّشْرِيفِ وَالْإِكْرَامِ وَالِاخْتِصَاصِ".

وقال تاج الدِّين السُّبْكِي في"طبقات الشَّافعيَّة الكبرى"(٩/ ٤٢-٤٤) نقلاً عن أَحْمد بن يحيى بن إِسْمَاعِيل الشَّيخ شهَاب الدِّين ابْن جهبل الْكلابِي الْحلَبِي :"وَهَا نَحن نذكر عقيدة أهل السُّنَّة فَنَقُول : عقيدتنا أَنَّ الله قديم أزلي ، لَا يشبه شَيْئاً ، وَلَا يُشبههُ شَيْء ، لَيْسَ لَهُ جِهَة وَلَا مَكَان ، وَلَا يجْرِي عَلَيْهِ وَقت وَلَا زمَان ، وَلَا يُقَال لَهُ أَين ، وَلَا حَيْثُ ، يُرى لَا عَن مُقَابلَة وَلَا على مُقَابلَة ، كَانَ وَلَا مَكَان ، كَوَّن الْمَكَان ودبَّر الزَّمَان ، وَهُوَ الْآن على مَا عَلَيْهِ كَانَ .

هَذَا مَذْهَب أهل السُّنَّة وعقيدة مَشَايِخ الطَّرِيق رَضِي الله عَنْهُم ... فَهَذِهِ كَلِمَات أَعْلَام أهل التَّوْحِيد ، وأئمَّة جُمْهُور الْأمَّة ، سوى هَذِه الشِّرذمة الزَّائغة ، وكتبهم طافحة بذلك ، وردُّهم على هَذِه النَّازعة لَا يكَاد يحصر ، وَلَيْسَ غرضنا بذلك تقليدهم ، لمنع ذَلِك فِي أُصُول الدِّيانَات ، بل إِنَّمَا ذكرت ذَلِك ليعلم أَنَّ مَذْهَب أهل السُّنَّة مَا قدمْنَاهُ .

ثمَّ إِنَّ قَوْلنَا : إِنَّ آيَات الصِّفات وأخبارها على من يسْمعهَا وظائف التَّقْدِيس ، وَالْإِيمَان بِمَا جَاءَ عَن الله تَعَالَى وَعَن رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مُرَاد الله تَعَالَى ، وَمُرَاد رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والتَّصديق ، وَالِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ ، وَالسُّكُوت ، والإمساك عَن التَّصَرُّف فِي الْأَلْفَاظ الْوَارِدَة ، وكفّ الْبَاطِن عَن التَّفكُّر فِي ذَلِك ، واعتقاد أَنَّ مَا خَفِي عَلَيْهِ مِنْهَا لم يخف عَن الله وَلَا عَن رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَسَيَأْتِي شرح هَذِه الوظائف إِن شَاءَ الله تَعَالَى ، فليت شعري فِي أَي شَيْء نخالف السَّلف ، هَل هُوَ فِي قَوْلنَا : كَانَ وَلَا مَكَان ، أَو فِي قَوْلنَا : إِنَّه تَعَالَى كَوَّن الْمَكَان ، أَو فِي قَوْلنَا : وَهُوَ الْآن على مَا عَلَيْهِ كَانَ ، أَو فِي قَوْلنَا : تقدَّس الْحق عَن الجسميَّة ومشابهتها ، أَو فِي قَوْلنَا : يجب تَصْدِيق مَا قَالَه الله تَعَالَى وَرَسُوله بِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَ ، أَو فِي قَوْلنَا : يجب الِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ ، أَو فِي قَوْلنَا : نسكت عَن السُّؤَال والخوض فِيمَا لَا طَاقَة لنا بِهِ ، أَو فِي قَوْلنَا : يجب إِمْسَاك اللِّسَان عَن تَغْيِير الظَّوَاهِر بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَان ؟

وليت شعري فِي مَاذَا وافقوا هم السَّلف ، هَل فِي دُعَائِهِمْ إِلَى الْخَوْض فِي هَذَا والحثّ على الْبَحْث مَعَ الْأَحْدَاث الغرين ، والعوام الطَّغَام الَّذين يعجزون عَن غسل مَحل النَّجو وَإِقَامَة دعائم الصَّلاة ، أَو وافقوا السَّلف فِي تَنْزِيه الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَن الْجِهَة ، وَهل سمعُوا فِي كتاب الله أَو أثارة من علم عَن السَّلف أَنَّهم وصفوا الله تَعَالَى بِجِهَة الْعُلُوّ ، وَأَنَّ كل مَالا يصفه بِهِ فَهُوَ ضالٌّ مضلٌّ من فراخ الفلاسفة والهنود واليونان ، **﴿انْظُر كَيْفَ يفْتَرُوْنَ عَلَى الله الْكَذِب وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبينًا﴾**".

وقال الطِّيبي في"شرح الطِّيبي على مشكاة المصابيح المسمَّى بـ(الكاشف عن حقائق السُّنن)(٤/ ١٣٤٥) :"لأنَّه منزَّه عن المكان".

وقال الكرماني في"الكواكب الدَّراري في شرح صحيح البخاري"(٤/ ٧٠) :"... لأنَّ الله تعالى منزَّه عن الحلول في المكان ، تعالى عنه".

وقال في"الكواكب الدَّراري في شرح صحيح البخاري"(٢٥/ ١٠٨) :"... ولم يُرد بالقُرب قُرب المسافة ، لأنَّه تعالى منزَّه عن الحلول في المكان".

وقال الشَّاطبي في"الإفادات والإنشادات"(ص٣) :"سألني الشَّيخ الأستاذ الكبير الشَّهير أبو سعيد فرج بن قاسم بن لبّ التَّغلبي أدام الله أيَّامه عن قول ابن مالك في"تسهيل الفوائد" في باب اسم الإشارة ، وقد يغني ذو البعد عن ذي القرب لعظمة المشير أو المشار إليه ، فقال : إنَّ المؤلِّف مثل عظمة المشير في الشَّرح بقوله تعالى : **﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِيْنِكَ يَا مُوْسَى﴾** ، ولم يبيِّن ما وجه ذلك ، فما وجهه ؟ ففكَّرت ، فلم أجد جواباً ، فقال : وجهه أنَّ الإشارة بذي القُرب هاهنا قد يتوهَّم فيها القُرب بالمكان ، والله تعالى يتقدَّس عن ذلك ، فلمَّا أشار بذي البعد أعطى بمعناه أنَّ المشير مباين للأمكنة ، وبعيد عن أن يوصف بالقُرب المكاني ، فأتى البُعد في الإشارة منبِّهاً على بعد نسبة المكان عن الذَّات العليَّة ، وأنه يبعد أن يحلَّ في مكان أو يدانيه".

وقال ابن الملقِّن سراج الدِّين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشَّافعي المصري في"التَّوضيح لشرح الجامع الصَّحيح"(٣٣/ ٢٤٨) في كلامه على حديث :"... فأستأذن على ربِّي فيؤذن لي":"... ولا تعلُّق فيه للمجسِّمة ؛ لأنَّ الله تعالى ليس في مكان".

وقال مجد الدِّين أبو طاهر محمَّد بن يعقوب الفيروزآبادى في"بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز"(٤/ ٢٥٤) :"وقُرْب الله تعالى من العبد : هو الإِفضال عليه والفيض لا بالمكان".

وقال ابن حجر العسقلاني في" فتح الباري شرح صحيح البخاري"(٦/ ١٣٦) :"وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ جِهَتَي الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ مُحَالٌ عَلَى اللهَّ أَنْ لَا يُوصَفَ بِالْعُلُوِّ ، لِأَنَّ وَصْفَهُ بِالْعُلُوِّ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى ، وَالْمُسْتَحِيلُ كَوْنُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْحِسِّ".

وقال ابن حجر العسقلاني في"فتح الباري شرح صحيح البخاري"(٧/ ١٢٤) :"فَمُعْتَقَدُ سَلَفِ الْأَئِمَّةِ وَعُلَمَاءِ السُّنَّةِ مِنَ الْخَلَفِ أَنَّ اللهَّ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالتَّحَوُّلِ وَالْحُلُولِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء" .

وقال في"فتح الباري شرح صحيح البخاري"(١١/ ٥٠٥) :" فَلَيْسَ قَوْلُ الْبُخَارِيِّ عِنْدَ اللهَّ صَرِيحًا فِي أَنَّ ذَلِكَ يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّ الْعِنْدِيَّةَ عِنْدِيَّةُ اخْتِصَاصٍ وَتَشْرِيفٍ لَا عِنْدِيَّةُ مَكَانٍ ".

وقال في"فتح الباري شرح صحيح البخاري"(١٣/ ٤١٣) :"عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ خَلْقٌ مَخْلُوقٌ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، فَلَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يُمَاسُّوا الْعَرْشَ إِذَا حَمَلُوهُ ، وَإِنْ كَانَ حَامِلُ الْعَرْشِ وَحَامِلُ حَمَلَتِهِ هُوَ اللهَّ ،

وَلَيْسَ قَوْلُنَا : إِنَّ اللهَّ عَلَى الْعَرْشِ ، أَيْ : مُمَاسٌّ لَهُ ، أَوْ مُتَمَكِّنٌ فِيهِ ، أَوْ مُتَحَيِّزٌ فِي جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِهِ ، بَلْ هُوَ خَبَرٌ جَاءَ بِهِ التَّوْقِيفُ ، فَقُلْنَا لَهُ بِهِ وَنَفَيْنَا عَنْهُ التَّكْيِيفَ ، إِذْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ".

وقال بدر الدِّين العينى في"عمدة القاري شرح صحيح البخاري"(٢٥/ ١٠١) في شرحه لحديث :"أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنا مَعَهُ":"وَأَنا مَعَه"، أَي : بِالْعلمِ ، إِذْ هُوَ منزَّه عَن الْمَكَان".

وقال بدر الدِّين العينى في"عمدة القاري شرح صحيح البخاري"(٢٥/ ١١٧) :"وَقد تقرَّر أَنَّ الله لَيْسَ بجسم ، فَلَا يحْتَاج إِلَى مَكَان يسْتَقرّ فِيهِ ، فقد كَانَ وَلَا مَكَان ، وإنَّما أضَاف المعارج إِلَيْهِ إِضَافَة تشريف".

وقال أبو عبد الله ، شمس الدِّين محمَّد بن محمَّد بن محمَّد المعروف بابن أمير حاج ويقال له ابن الموقت الحنفي في"التَّقرير والتَّحبير"(٣/ ١٨) :"وَلِتَرْجِيحِ الْأَقْوَى دَلَالَةً(لَزِمَ نَفْيُ التَّشْبِيهِ) عَنْ الْبَارِي جَلَّ وَعَزَّ فِي ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾﴿طه: ٥﴾ ، وَنَحْوِهِ مِمَّا ظَاهِرُهُ يُوهِمُ الْمَكَانَ(بِـ) قَوْله تَعَالَى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾﴿الشورى: ١١﴾ ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي نَفْيَ الْمُمَاثَلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَيْءٍ مَا وَالْمَكَانُ وَالْمُتَمَكِّنُ فِيهِ يَتَمَاثَلَانِ مِنْ حَيْثُ الْقَدْرُ ، إذْ حَقِيقَةُ الْمَكَانِ قَدْرُ مَا يَتَمَكَّنُ فِيهِ الْمُتَمَكِّنُ ، لَا مَا فُصِلَ عَنْهُ ، وَقُدِّمَ الْعَمَلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ؛ لِأَنَّهَا مُحْكَمَةٌ لَا تَحْمِلُ تَأْوِيلاً".

وقال البقاعي في"نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور"(٢٠/ ٢٤٨) :"قيام الدَّليل القطعي على أنَّه سبحانه ليس بمتحيِّز في جهة ، لأنَّه محيط فلا يُحاط به ، لأنَّ ذلك لا يكون إلَّا لمحتاج".

وقال السَّخاوي في"المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة"(ص٥٤٤) :"قال شيخنا ... واللهَّ سبحانه وتعالى منزَّه عن الحلول في الأماكن ، فإنَّه سبحانه وتعالى كان قبل أن تحدث الأماكن".

وقال السُّيوطي في"حاشية السُّيوطي على سنن النَّسائي"(٢/ ٢٢٦) في كلامه على حديث :"أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ عزَّ وجلَّ وَهُوَ سَاجِدٌ":"قَالَ الْقُرْطُبِيُّ هَذَا أَقْرَبُ بِالرُّتْبَةِ وَالْكَرَامَةِ لَا بِالْمَسَافَةِ ، لِأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْمَكَانِ وَالْمِسَاحَةِ وَالزَّمَانِ . وَقَالَ الْبَدْرُ بْنُ الصَّاحِبِ فِي تَذْكَرَتِهِ : فِي الْحَدِيثِ

إِشَارَةٌ إِلَى نَفْيِ الْجِهَةِ عَنِ اللهِ تَعَالَى ، وَأَنَّ الْعَبْدَ فِي انْخِفَاضِهِ غَايَةُ الِانْخِفَاضِ يَكُونُ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ إِلَى اللهِ تَعَالَى".

وقال القسطلاني في"إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري"(١/ ٤١٩) :"... إذ ظاهره مُحال لتنزيه الرَّب تعالى عن المكان".

وقال القسطلاني في"إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري"(١/ ٤٢٢) :"... وليس المراد ظاهر ذلك ، إذ هو محال لتنزيه الرَّب تعالى عن المكان".

وقال القسطلاني في"إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري"(١٠/ ٣٩٣) :"وذات الله تعالى منزَّهة عن المكان والجهة".

وقال القسطلاني في"إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري"(١٠/ ٣٩٦) :"وإضافة المعارج إليه تعالى إضافة تشريف ، ومعنى الارتفاع إليه : اعتلاؤه مع تنزيهه عن المكان".

وقال علي بن سلطان القاري في"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح"(٤/ ١٥٤٠) :"... وَذَكَرَهُمُ اللهُ فَيمَنْ عِنْدَهُ":" (فِيمَنْ عِنْدَهُ) : أَيْ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَرْوَاحِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَهِيَ عِنْدِيَّةُ مَكَانَةٍ لَا مَكَانٍ ، لِتَعَالِيهِ عَنِ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ ، وَسَائِرِ سِمَاتِ الْحَدَثَانِ وَالنُّقْصَانِ".

وقال علي بن سلطان القاري في"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح"(٥/ ١٨٢٦) :"فإِنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الزَّمَانِ، كَمَا أَنَّهُ مُقَدَّسٌ عَنِ الْمَكَانِ".

وقال المناوي في"فيض القدير شرح الجامع الصَّغير"(١/ ٦٠٦) :"... لأنَّه تعالى لا يحلُّ في مكان ، فكيف يكون فيه محيطاً ؟ فهو من قبيل رضاه من السَّوداء بأن تقول في جواب"أين الله": فأشارت إلى السَّماء ، معبِّرة عن الجلال والعظمة ، لا عن المكان".

وقال محمَّد علي بن محمَّد بن علان الصدِّيقي الشَّافعي في"دليل الفالحين لطرق رياض الصَّالحين"(٦/ ٣٧١) :" والله تعالى مقدَّس عن المكان والحلول في شيء أو الاتِّحاد معه".

وقال حسن بن عمر بن عبد الله السِّيناوني المالكي في"الأصل الجامع لإيضاح الدُّرر المنظومة في سلك جمع الجوامع"(٣/ ١٠٦) :"قال النَّاظم : ليس بجوهر بجسم أو عَرَض كاللون أو كالطَّعم ، لم

يزل وحده ولا مكان ولا زمان ولا قطر ولا أوان ، هذا من عطف الخاصِّ على العام ، إذ القطر مكان مخصوص كالبلد ، والأوان زمان مخصوص كزمان الزَّرع ، والدَّاعي إلى العطف الخطابة في تنزيه تعالى ، أي : هو موجود وحده سبحانه قبل المكان والزَّمان ، فهو منزَّه عنهما".

وقال محمَّد العربي بن التبَّاني المالكي في"براءة الأشعريين من عقائد المخالفين"(ص٧٩) ما نصُّه :"اتَّفق العقلاء من أهل السُّنَّة الشَّافعيَّة والحنفيَّة والمالكيَّة وفضلاء الحنابلة وغيرهم على أنَّ الله تبارك وتعالىَ مُنَزَّهٌ عن الجهة والجسميَّة والحدِّ والمكان ومشابَهة مخلوقاته".

وقال محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي في"التَّحرير والتَّنوير"(٢٠/ ٢٠) :"وَبَعْدُ ، فَإِنَّ دَلَائِلَ تَنْزِيهِ اللهِّ عَنِ الْحُلُولِ فِي الْمَكَانِ ، وَعَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ مُتَوَافِرَةٌ ، فَلِذَلِكَ يَجْرِي اسْتِعْمَالُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَى سَنَنِ الِاسْتِعْمَالِ الْفَصِيحِ لِلْعِلْمِ ، بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَتَوَهَّمُ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهِّ تَعَالَى . وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ جَعَلَ الِاسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعاً وُقُوفاً عِنْدَ ظَاهِرِ صِلَةِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لِأَنَّ اللهَّ يُنَزَّهُ عَنِ الْحُلُولِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ".

وقال محمَّد الطاهر بن عاشور التُّونسي في"التَّحرير والتَّنوير"(٢٩/ ٣٣) :"فَيَصِيرُ قَوْلُهُ : مَنْ فِي السَّماءِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي يُعْطِي ظَاهِرُهُ مَعْنَى الْحُلُولِ فِي مَكَانٍ ، وَذَلِكَ لَا يَلِيقُ بِاللهَّ ، وَيَجِيءُ فِيهِ مَا فِي أَمْثَالِهِ مِنْ طَرِيقَتَي التَّفْوِيضِ لِلسَّلَفِ وَالتَّأْوِيلِ لِلْخَلَفِ ، رَحِمَهُمُ اللهُّ أَجْمَعِينَ".

وجاء في الفتاوى الهنديَّة (٢/ ٢٥٩) :"يَكْفُرُ بِإِثْبَاتِ الْمَكَانِ للهَّ تَعَالَى ، ... وَلَوْ قَالَ : اللهُّ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ ، فَإِنْ قَصَدَ بِهِ حِكَايَةَ مَا جَاءَ فِيهِ ظَاهِرُ الْأَخْبَارِ لَا يَكْفُرُ ، وَإِنْ أَرَادَ بِهِ الْمَكَانَ يَكْفُرُ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ نِيَّةٌ يَكْفُرُ عِنْدَ الْأَكْثَرِ ، وَهُوَ الْأَصَحُّ وَعَلَيْهِ الْفَتْوَى . وَيَكْفُرُ بِقَوْلِهِ : اللهُّ تَعَالَى جَلَسَ لِلْإِنْصَافِ ، أَوْ قَامَ لَهُ بِوَصْفِهِ اللهَّ تَعَالَى بِالْفَوْقِ وَالتَّحْتِ ، كَذَا فِي الْبَحْرِ الرَّائِقِ".

وقال محمَّد العربي بن التَّباني، بن الحسين، بن عبد الرَّحمَن، بن يحيى، بن مخلوف، بن أبي القاسم، بن علي، بن عبد الواحد(١٩٧٠هـ) :"اتَّفق العقلاء من أهل السُّنَّة الشَّافعيَّة والحنفيَّة والمالكيَّة وفضلاء الحنابلة وغيرهم على أنَّ الله تبارك وتعالى منزَّه عن الجهة والجسميَّة والحدِّ والمكان ومشابهة مخلوقاته"... انظر : براءة الأشعريين من عقائد المخالفين (١/ ٧٩) .

خَامِسَاً : تَنْزِيْهُ الله عَنِ الجِسْمِيَّة :

قال الأصفهاني في"معجم مفردات ألفاظ القرآن" (ص٩١) :"الجسم ما له طُول وعُرض وعُمق ، ولا تخرج أجزاء الجسم عن كونها أجساماً ، وإن قُطع ما قُطع ، وجزِّئ ما جزِّئ ، قال الله تعالى : ﴿وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾﴿البقرة : ٢٤٧﴾ ، ﴿وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ﴾﴿المنافقون : ٤﴾ . تنبيهاً أن لا وراء الأشباح معنى معتدّ به" .

وقال الجرجاني في"التَّعريفات" (ص٤١) :"الجسم : جوهر قابل للأبعاد الثَّلاثة ، وقيل : الجسم هو المركَّب المؤلَّف من الجواهر" .

وقال الغزالي في"قواعد العقائد" (ص١٥٩) :"... الجسم عبارة عن المؤلَّف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهراً مخصوصاً بحيِّز بطل كونه جسماً ، لأنَّ كلّ جسم مختصّ بحيِّز ومركَّب من جوهر ، فالجوهر يستحيل خلوّه من الافتراق والاجتماع ، والحركة والسُّكون ، والهيئة والمقدار" .

وقال الشِّيرازي في كتابه"الإشارة إلى مذهب أهل الحقّ" (ص١٩١) :"ثم يعتقدون أنَّ الله عزَّ وجلَّ ليس بجسم ، لأنَّ الجسم هو المؤلَّف ، وكلّ مؤلَّف لا بدَّ له من مؤلِّف" .

وجاء في"اللمع" (ص٢٤) قول الأشعري :"فإن قال قائل : لم أنكرتم أن يكون الله تعالى جسماً ؟ قيل له : أنكرنا ذلك لأنَّه لا يخلو أن يكون القائل لذلك أراد . ما أنكرتم أن يكون طويلاً عريضاً مجتمعاً ، أو أن يكون أراد تسميته جسماً وإن لم يكن طويلاً عريضاً مجتمعاً عميقاً ، فإن كان أراد أن يكون طويلاً عريضاً مجتمعاً ، كما يقال ذلك للأجسام فيما بيننا ، فهذا لا يجوز ، لأنَّ المجتمع لا يكون شيئاً واحداً ، لأنَّ أقلّ قليل الاجتماع لا يكون إلَّا من شيئين ، لأنَّ الشَّيء الواحد لا يكون لنفسه مجامعاً ، وقد بينَّا أنَّ الله عزَّ وجلَّ شيء واحد ، فبطل أن يكون مجتمعاً" . وانظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٧٢-٧٣) ، التَّوحيد للماتريدي (ص٣٨-٣٩) .

ومن المعلوم أنَّ جمهور العلماء ذهبوا إلى أنَّ الألفاظ الموهمة للتَّشبيه لا يجوز أن تُحمل على ظاهر معناها المتبادر إلى الأذهان البتَّة ، لأنَّ الحمل على الظَّاهر يتعارض مع العديد من المسلَّمات العقديَّة ، وكذا اللغويَّة ، بالإضافة إلى الاصطدام المباشر مع آيات التَّنزيه ، التي منها :

١ . قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾﴿النحل : ٦٠﴾ ، فلا يوصف سبحانه بأيِّ وصفٍ يُشبه وصف غيره من صفات المخلوقين ، من التَّغيُّر والتَّبدُّل والحلول في الأماكن والتَّحيُّز فيها ، فهو تعالى واحدٌ في ذاته وصفاته وأفعاله ، وتجبُ له جَمِيعُ صِفَاتِ الْجَلَالِ والجَمَالِ وَالْكَمَالِ ، ولذلك لا يجوز أن تُضرب لله الأمثال التي توجب الاشتباه ، قال تعالى : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾﴿النحل : ٧٤﴾ .

٢. وقوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾﴿مريم : ٦٥﴾ ، أي : هل تعلم من الآلهة التي عُبدت من دونه من اسمه الله ؟!! فلا يوجد أبداً من تسمَّى من المعبودات الباطلة باسم"الله"، فالله تعالى لا مِثْل له ، ولا عدل ، ولا شبيه ، ولا مثيل في كلِّ شيء حتَّى في اسمه تعالى ، فمن وصفه بمعنى من معاني المحدثات ، كالنُّزول الحقيقي ، والقيام ، والقعود ، والجلوس على العرش والاستقرار فيه ، فقد شبَّه الله تعالى بخلقه ، والعياذ بالله ...

٣. وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾﴿الشورى : ١١﴾ ، فالله تعالى لا يشبه شيئاً من خلقه بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، والآية نصٌّ محكمٌ صريحٌ في نفي المشابهة والمماثلة بين الله تعالى وبين سائر المحدثات ، فلا هو يشبهها في أيِّ شكل من الأشكال ، ولا هو في حاجةٍ إلى شيءٍ ممَّا خلق ...

٤. وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾﴿الإخلاص : ٤﴾ ، أي : لا نظير له ، ولا قسيم له ، ولا شبيه له ، ولا صاحبة ، ولا شريك ... فينازعه في ربوبيَّته ومُلكه بوجه من الوجوه ، وقد فسَّرَتْها آية الشُّورى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿الشورى : ١١﴾ .

ومن الجدير بالذِّكر هنا أنَّ نَفْيُ الِمثْلِ فِيْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾﴿الشورى: ١١﴾ ، يُوْهِمُ بِوُجُوْدِ الِمثْلِ ، لِأَنَّ الكَافَ بِمَعْنَى مِثْل ، فَيَصِيْرُ المَعْنَى : لَيْسَ مِثْل مِثْلِهِ شَيءٌ ، فَالنَّفْيُ يَكُوْنُ لِـمِثْلِ الِمثْلِ ، فَمَا رَأْيكُم ؟

والجواب على هذا الإشكال بعدَّة أجوبة :

(أ) أنَّ الكاف صلة ، أي زائدة لتأكيد نفي المِثْل ، فالمعنى : انتفى المِثْل انتفاء مؤكَّداً .

(ب) أنَّ المِثْل بمعنى الصِّفة ، فالمعنى : ليس كصفة الله تعالى شيء .

(ج) أنَّ الآية من باب الكناية ، على حدِّ قولك : (مِثلُكَ لا يجبُن) ، أي : أنت لا تَجْبُن . ووجه كونها من باب الكناية أنَّه يلزم من نفي مثْل المثْل نفي المثْل ، وهذا هو المراد . فالقصد نفي مثله تعالى على أبلغ وجه ، إذ الكناية أبلغ من التَّصريح لتضمُّنها إثبات الشَّيء بدليله .

وعليه ، فالآية الكريمة تنفي عن الله تعالى المماثلة لشيء من الحوادث ، ونفي المماثلة يفيد أُموراً عديدة ، من أهمِّها : نفي الجسميَّة والعَرَضيَّة والجوهريَّة : لأنَّ الجسم مؤلَّف من جواهر – الشَّيء الذي لا يتجزَّأ ولا يقبل القسمة – وأعراض – هو ما يستدعي وجوده جسم ليقوم به ، حيث لا يقوم إلَّا بغيره – ، وهما حادثان . قال السُّبْكِي في شرح عقيدة ابن الحاجب :"اعلم أنَّ حكم الجواهر والأعراض كلّها الحدوث فإذاً العالم كلّه حادث ، وعلى هذا إجماع المسلمين !!! بل كلّ الملل ، ومن خالف في ذلك فهو كـــافر ، لمخالفة الإجماع القطعيّ". انظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٩٣) .

ومن المعلوم أنَّ كلمة علماء الأمَّة أجتمعت على وجوب تنزيه الله تعالى عن الجسميَّة وسائر صفات المُحدثات ، وأكَّدوا على أنَّه لم يأت في الشَّريعة ذلك ، فبطل ... ولذا لا يجوز أن يُسمَّى الله تعالى بالجسم ...فقد جاء في عقيدة الإمام أحمد بن حنبل"رواية أبي بكر الخلَّال العقيدة رواية أبي بكر الخلَّال" (ص١١١) :"وَأنكر – يعني أحمد بن حنبل – على من يَقُول بالجسم ، وَقَالَ : إِنَّ الْأَسْمَاء مَأْخُوذَة بالشَّريعة واللغة ، وَأهل اللُّغَة وضعُوا هَذَا الاسم على كلِّ ذِي طول ، وَعرض ، وسُمك ، وتركيب ، وَصُورَة ، وتأليف ، وَالله تَعَالَى خَارج عَن ذَلِك كُلِّه ، فَلم يجز أَن يُسمَّى جسماً ، لِخُرُوجِهِ عَن معنى الجسميَّة ، وَلم يجِئ فِي الشَّريعَة ذَلِك ، فَبَطل".

فهذا رئيس الحنابلة ببغداد يصوِّر العقيدة الحقَّة للإمام أحمد ، وأنَّه أنكر على المجسِّمة ، وأنَّ الجسم هو كلّ ما كان له طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف ... والله تعالى خارج عن ذلك كلِّه ، ثمَّ حكم ببطلان ذلك كلّه ...

ونقل عبد الواحد التَّميمي في"اعتقاد الإمام ابن حنبل" (ص٢٩٤) عن الإمام أحمد بن حنبل أنَّه كان يعتقد عقيدة التَّفويض التي كان عليها جمهور السَّلف الذين فوَّضوا معنى الألفاظ المُضافة إلى

الله تعالى ، وأنَّه :"كان يقول : إنَّ لله تعالى يدين ، وهما صفة له في ذاته ، ليستا بجارحتين ، وليستا بمركَّبتين ، ولا جسم ، ولا من جنس الأجسام ، ولا من جنس المحدود ، والتَّركيب ، ولا الأبعاض والجوارح ، ولا يُقاس على ذلك ، ولا له مرفق ، ولا عضد ، ولا فيما يقتضي ذلك من إطلاق قولهم : يد ، إلَّا ما نطق القرآن به أو صحَّت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السُّنَّة فيه ...". وانظر : اعتقاد الإمام ابن حنبل (ص٢٩٨) .

وقال محمَّد بن جرير الطَّبري(٣١٠هـ) في"تاريخ الأمم والملوك" (١/ ٢٥) :"القول في الدّلالة على أنَّ الله عزَّ وجلَّ القديم الأوَّل قبل شيء ، وأنَّه هو المحدث كلَّ شيء بقدرته تعالى ذكره .

فمن الدِّلالة على ذلك : أنَّه لا شيء في العالم مشاهد إلَّا جسم أو قائم بجسم ، وأنَّه لا جسم إلَّا مفترق أو مجتمع ، وأنَّه لا مفترق منه إلَّا وهو موهومٌ فيه الائتلاف إلى غيره من أشكاله ، ولا مجتمع منه إلَّا وهو موهومٌ فيه الافتراق ، وأنَّه متى عدم أحدهما عدم الآخر معه ، وأنَّه إذا اجتمع الجزءان منه بعد الافتراق ، فمعلوم أنَّ اجتماعهما حادث فيهما بعد أن لم يكن ، وأنَّ الافتراق إذا حدث فيهما بعد الاجتماع فمعلوم أنَّ الافتراق فيهما حادث بعد أن لم يكن .

وإذا كان الأمر فيما في العالم من شيء كذلك ، وكان حكم ما لم يشاهد وما هو من جنس ما شاهدنا في معنى جسم أو قائم بجسم ، وكان ما لم يخل من الحدث لا شكَّ أنَّه محدث بتأليف مؤلِّف له إن كان مجتمعاً ، وتفريق مفرق له إن كان مفترقاً ، وكان معلوماً بذلك أنَّ جامع ذلك إن كان مجتمعاً ، ومفرقه إن كان مفترقاً ، من لا يشبهه ومن لا يجوز عليه الاجتماع والافتراق ، وهو الواحد القادر الجامع بين المختلفات الذي لا يشبهه شيء ، وهو على كلِّ شيء قدير ..." .

وفي كلامه على مجيء الله تعالى يوم القيامة ، أكَّد الأشعري(٣٢٤هـ) على أنَّ مجيء الله ليس بنُقلة ولا بحركة من مكان إلى آخر ، لأنَّ الله تعالى ليس بجسم ولا جوهر ، وصرَّح بأنَّ الأمَّة مُجمعة على ذلك ، فقال :" وأجمعوا على أنَّه عزَّ وجلَّ يجيء يوم القيامة والملك صفَّاً صفَّاً لعرض الأُمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء من المذنبين ، ويعذِّب منهم من يشاء ، كما قال ، وليس مجيئه حركة ولا زوالاً ، وإنَّما يكون المجيء حركة وزوالاً إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً ، فإذا ثبت

أَنَّه عزَّ وجلَّ ليس بجسم ولا جوهر ، لم يجب أن يكون مجيئه نُقلة أو حركة ، ألا ترى أنَّهم لا يريدون بقولهم : جاءت زيداً الحُمَّى ، أنَّها تنقَّلت إليه أو تحرَّكت من مكان كانت فيه ، إذ لم تكن جسماً ولا جوهراً ، وإنَّما مجيئها إليه وجودها به ، وأنَّه عزَّ وجلَّ ينزل إلى السَّماء الدُّنيا ، كما روي عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وليس نزوله نُقلة ، لأنَّه ليس بجسم ولا جوهر". انظر : أصول أهل السنَّة المسمَّاة برسالة أهل الثغر (ص٧٠) .

وقال الأشعري في"مقالات الإسلاميِّين واختلاف المصلِّين"(ص٢١١) :" وقال أهل السُّنَّة وأصحاب الحديث ليس بجسم ، ولا يشبه الأشياء" .

وقال إمام المدرسة الماتريديَّة التي يتبعها غالبيَّة أتباع المذهب الحنفي في العقيدة أبو منصور الماتريدي(٣٣٣هـ) :"مَسْأَلَة : لَا يجوز إِطْلَاق لفظ الْجِسْم على الله تَعَالَى". انظر : التَّوحيد(ص٣٨) .

وقال أيضاً :"... وأمَّا الْجِسْم فَهُوَ اسْم لكلِّ محْدُود ، وَالشَّيْء إِثْبَات لَا غير ، وَفِي وجود الْعَالم على مَا عَلَيْهِ دَلِيل الْإِثْبَات ، لذَلِك قيل بالشَّيْء ، وَفِيه - إِذْ هُوَ متناه لَا من حَيْثُ الشَّيئِيَّة بل من حَيْثُ الْحَدّ - دَلِيل نفي الْحَدِّ عَن الله جلّ ثَنَاؤُهُ . إِلَّا أَن يُرَاد بِالْحَدِّ الوحدانيَّة والرُّبوبيَّة ، فَهُوَ كَذَلِك ، وحرف الْحَدِّ سَاقِط لأَنَّه يغلب فِي الدّلَالَة على نِهَايَة الشَّيء من طَرِيق الْعرض وَنَحْو ذَلِك مِمَّا يتعالى عَن ذَلِك ، وَذَلِكَ معنى الْجِسْم فِي الشَّاهِد . وَفِيه أَيْضاً إِيجَاب الْجِهَات الْمُحْتَمل كلّ جِهَة أَن يكون أطول مِنْهَا وَأَعْرض وأقصر ، فَلذَلِك بَطل القَوْل بذلك ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

ثمَّ الهويَّة فِي الشَّاهِد كِنَايَة عَن الْوُجُود ، وتأويله نفي الْعَدَم عَنهُ ، وَالله تَعَالَى لم يزل وَلَا يزَال بِلَا تغيُّر وَلَا زَوَال وَلَا انْتِقَال من حَال إِلَى حَال ، وَلَا تحرّك وَلَا قَرَار ، إِذْ هُوَ وصف اخْتِلَاف الْأَحْوَال ، وَمن تخْتَلف الْأَحْوَال عَلَيْهِ فَهُوَ غير مفارق لَهَا ، وَمن لَا يُفَارق الْأَحْوَال وَهُنَّ أَحْدَاث ، فَيجب بهَا الْوَصْف بالإحداث ، وَفِي ذَلِك سُقُوط الوحدانيَّة ، ثمَّ الْقِدَم ، ثمَّ جَرْي لتدبير الْغَيْر عَلَيْهِ ، إِذْ حَال من الْأَحْوَال لَو كَانَت لذاته لم يجز تغيّرها مَا دَامَت ذَاته ، فَثَبت بذلك الْغَيْر لتغيُّر الْأَحْوَال عَلَيْهِ ، وبنقله من حَال إِلَى حَال ، وَذَلِكَ دَلِيل تعاليه عَن الْوَصْف بِالْمَكَانِ ، إِذْ قد ثَبت أَن كَانَ وَلَا مَكَان ، وَلَيْسَ فِي الْإِضَافَة إِلَى أَنَّه على الْعَرْش اسْتَوَى تثبيت مَكَان ، كَمَا لم يكن فِي قَوْله : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ**

مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾﴿ق: ١٦ ﴾ ، وَقَوله : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ﴾﴿المجادلة: ٧ ﴾ ، وَقَوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾﴿الواقعة: ٨٥ ﴾ . ذَلِك على أَنَّ القَوْل بِالْمَكَانِ لَيْسَ من نوع التَّعْظِيم والتَّبجيل ، بل الْأَمْكِنَة إِنَّما شرُفت بِهِ وتفاوتت أقدارها بتفضيله مَكَاناً على مَكَان يَجعله مَخْصُوصاً لأخيار خلقه أَو لما جعل لعبادته وتعظيمه فِيه .

فَأَمَّا أَن يكون أحد تعلو رتبته بِالْمَكَانِ من مُلُوك الأَرْض أَو الأخيار ، فَلَيْسَ بِهِ ، فكيف بِالْملكِ الْجَبَّار الَّذِي مَا ارْتَفع قدر مَكَان ، وَلَا جلَّ خطره إِلَّا بِهِ ، وَإِذا كَانَ كَذَلِك بَطل أَن يكون فِي الْإِضَافَة تَعْظِيمه ، ثمَّ يكون فِيمَا بعد ذَلِك للْحَاجة ، وَهُوَ يتعالى عَنْهَا فلذَلِك لم يجب بقوله : ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾﴿طه: ٥﴾ ، معنى الْكَوْن فِي الْمَكَان ، إِذْ ذَلِك الْحَرْف يعبَّر بِهِ عَن الْعُلُوّ والجلال ، ومحال مثله لَهُ بخلقه ، فَثَبت أَنَّ ذَلِك من الْوَجْه الَّذِي يسْتَحقّهُ بِذَاتِهِ من الْعُلُوّ والرفعة وَمَا هُوَ بِذَاتِهِ عَلَيْهِ ، فَهُوَ كَانَ كَذَلِك وَلَا خلق ، لم يجز الْوَصْف لَهُ بالخلق ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

مَعَ مَا يكون ذَلِك الإعتقاد عَن علم تقدم بِحَال من يُضَاف إِلَيْهِ ذَلِك فِي الشَّاهِد قبل الْإِضَافَة من الإحتمال ، ثمَّ الله سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَان ، وعَلى ذَلِك اعْتِقَاد الْأَنَام لم يجز أَن يتَغَيَّر الْفَهم عَن الْإِضَافَة عَمَّا كَانَ من قبل ، وَإِلَيْهِ ينْصَرف الْفَهم عَن الْإِضَافَة إِلى خلقه ، على أَنَّ تَخْصِيص إضافات الْأَشْيَاء إِلى الله فِي الشَّاهِد يخرج مخرج التَّعْظِيم لَهَا بِمَا جعل فِيهَا من الْأُمُور المرضيَّة وَالْأَحْوَال المحمـودة ، فَمَا بَال الْعَرْش من بَين ذَلِك ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

وعَلى ذَلِك يفْسد قَول من يصفه بِكُلِّ مَكَان ، إِذْ لَا فرق بَين مَكَان وَاحِد مَخْصُوص يُضَاف إِلَيْهِ وَبَين الْجُمْلَة ، بل الْفَرد فِي بَيَان تَعْظِيمه أولى ، إِذْ فِي ذَلِك تَخْصِيص ذَلِك الشَّيء بِالذِّكر ، وَفِي الذِّكر تشريف وتكريم ، فَيرجع إِلى ذكر علوّ ذَلِك الشَّيء ، وَفِي الْإِرْسَال وَجمع الْكلّ إِلى تَخْصِيصه وَحَقِيقَته صفة الله كَمَا يُقَال : ربّ كلِّ شَيْء ، وإله كلّ شَيْء ، على تَعْظِيم الرَّبِّ وتبجيله ، وَإِذا قيل : ربّ محمَّد ، وإله إِبْرَاهِيم ، فإِنَّما يقْصد قصد تشريفهما وتعظيمهما ، فَقِيَاس ذَلِك أَن تكون الْإِضَافَة إِلى الْعَرْش توجب تَعْظِيم الْعَرْش وتكريمه وَإِلَى كل الْأَمْكِنَة توجب وصف الله بهَا ، وَذَلِكَ قَبِيح ، إِذْ لم يكن يُوصف بِهِ فِي الْأَزَل ، وَلَا يُوصف شَيْء بِالْقربِ إِلى الله من طَرِيق الْمسَافَة والمساحة ، وَلَا هُوَ بِالْقربِ

إلى شَيْء من ذَلِك الْوَجْه ، إِذْ ذَلِك جِهَة الْحُدُود وَالتَّقْدِير بالأمكنة ، وَقد كَانَ وَلَا مَكَان فَهُوَ على مَا كَانَ يتعالى عَن الزَّمَان وَالْمُكَان ، إِذْ إِلَيْهِمَا ترجع حُدُود الْأَشْيَاء ونهايتها ، وَلَا قُـــوَّة إِلَّا بِاللهَّ". انظر : التَّوحيد(ص١٠٤-١٠٦) .

فالماتريدي في كلامه السّابق نزَّه الله عن الجسميَّة ، كما نزَّهه سبحانه عن الكون في المكان ، وأنَّه تعالى كان ولا مكان ، وأنَّ الكون في المكان لا يمنح المتمكِّن فيه التَّعْظِيم والتَّبجيل ، وأنَّ الْأَمْكِنَة إنَّما تشرُفُ بتفضيل الله تعالى لمَكَان على مَكَان ، وأنَّ حرَّاس ملوك الدُّنيا قد يكونون في مكان أعلى من مكان الملوك ، ومع ذلك لا ترتفع مكانتهم بالمكان الذي يكونون فيه ... وختم كلامه بالقول بأنَّ الله تعالى لَا يُوصف بِالْقربِ بطَرِيق الْمَسَافَة والمساحة ، لأنَّ ذلك كلّه من أمارات الحدث ...

وقال أبو منصور الماتريدي أيضاً :"... وفي الشَّاهد الإتيان في العرض : ظهوره ، وفي الجسم : نقله من مكان إلى مكان ، وهو - جلَّ ذكره - جلَّ أن يوصف بجسم أو عرض . كذلك إتيانه لا يشبه إتيان الأجسام والأعراض ، ويكون إتيان لا يعرف كيفيَّته ...". انظر : تفسير الماتريدي(تأويلات أهل السنة)(٢/ ١٠٥) .

وقال ابن حبَّان(٣٥٤هـ) في"الثِّقات"(١/ ١) :"الْحَمد لله الَّذِي لَيْسَ لَهُ حدٌّ مَحْدُود فيحوى ، وَلَا لَهُ أجل مَعْدُود فيفنى ، وَلَا يُحِيط بِهِ جَوَامِع الْمُكَان ، وَلَا يشْتَمل عَلَيْهِ تَوَاتر الزَّمَان ، وَلَا يدْرك نعْمَته بالشَّواهد والحواس ، وَلَا يُقَاس صِفَات ذَاته بِالنَّاسِ ، تعاظم قدْره عَن مبالغ نعت الواصفين ، وَجلَّ وَصفه عَن إِدْرَاك غَايَة النَّاطقين"

وبمناسبة الكلام عن ابن حبَّان نذكِّر بما قاله السُّبْكِي في ترجمة ابن حبَّان(٣٥٤هـ) ، قال :"... فَاعْلَم أَنَّ أَبَا إِسْمَاعِيل عبد الله بن محمَّد الهروي(٤٨١هـ) الذي تسمِّيه المجسِّمة : شيخ الْإِسْلَام ، قَالَ : سَأَلت يحيى بن عمَّار عَن ابْن حبَّان ، قلت : رَأَيْته ؟ قَالَ : وَكَيف لم أره ، وَنحن أخرجناه من سجستان ، كَانَ لَهُ علم كثير ، وَلم يكن لَهُ كَبِير دين ، قدم علينا ، فَأنْكر الْحَدَّ لله !!! فأخرجناه من سجستان ، انْتهى .

قلت – السُّبْكِي –: انْظُر مَا أَجْهَل هَذَا الجَـــارِح ، وليت شعرى من المَجْرُوح : مُثبت الحْدِّ لله أَو نافيه ؟". انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٣٢) .

ومن المعروف أنَّ الهرويَّ سابق الذِّكر ، حنبليٌّ متعصِّب للحنابلة ، عدوٌّ لدودٌ للإمام الأشعري والأشاعرة ، ، وهو القائل عن الأشاعرة :" وقد شاع في المسلمين أنَّ رأسهم علي بن إسماعيل الأشعري كان لا يستنجي ولا يتوضَّأ ولا يصلِّي" . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٤/ ٤١٥)

وعلى كلِّ حال فقد علَّق الذَّهبي على كلام الهروي المتعلِّق بالحدِّ لله تعالى ، فقال :"إنكاره الحدّ وإثباتكم للحدِّ نوع من فضول الكلام ، والسُّكوت عن الطَّرفين أولى ، إذ لم يأت نصٌّ بنفي ذلك ولا إثباته ، والله تعالى ليس كمثله شيء ، فمن أثبته قال له خصمه : جعلت لله حدّاً برأيك ، ولا نصَّ معك بالحدِّ ، والمحدود مخلوق ، تعالى الله عن ذلك ، وقال هو للنَّافي : ساويت ربَّك بالشَّيء المعدوم ، إذ المعدوم لا حدَّ له ، فمن نزَّه الله وسكت سلم وتابع السَّلف". انظر : ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٣/ ٥٠٧) .

وكلام الذَّهبي في التَّعقُّب فيه دَخَنٌ ... ولذلك تعقَّبه الحافظ ابن حجر العسقلاني في"لسان الميزان"(٥/ ١١٤) ، فقال :"وقوله : قال له النَّافي : ساويت ربَّك بالشَّيء المعدوم إذ المعدوم لا حدَّ له نازل ، فإنَّا لا نسلم أنَّ القول بعدم الحدِّ يُفضي إلى مساواته بالمعدوم بعد تحقُّق وجوده ، وقوله : بدت من بن حبَّان هفوة طعنوا فيه لها ، إن أراد القصَّة الأولى التي صدَّر بها كلامه فليست هذه بهفوة ، والحقُّ أنَّ الحقَّ مع بن حبَّان فيها ، وإن أراد الثَّانية فقد اعتذر هو عنها أوَّلاً ، فكيف يحكم عليه بأنَّه هفا ، ماذا إلَّا تعصُّب زائد على المتأوِّلين ، وابن حبَّان قد كان صاحب فنون وذكاء مفرط ، وحفظ واسع إلى الغاية ، رحمه الله".

نعم ، فالحقُّ أنَّ الحقَّ مع بن حبَّان في المسألة ... فالله تعالى منزَّه عن الحدِّ ، لأنَّه تعالى لو كان جَوْهَراً فَرداً لكانَ الجوْهرُ الفردُ مِثْلاً له ، ولو كانَ زائداً على ذلك للزم كونه مؤلَّفاً مُركَّباً ، والمُركَّب مُحتاجٌ إلى من يُركّبه ، والاحتياج إلى الغير دليل الحدوث ... ومع هذا كلِّه ، فقد وصل الأمر بابن تيمية إلى تكفير من لم يؤمن بالحدِّ لله تعالى ، والعياذ بالله ... قال ابن تيمية في"درء تعارض العقل

والنَّقل" (٢/٥٨) :"... فهذا كلُّه وما أشبهه شواهد ودلائل على الحدِّ ، ومن لم يعترف به فقد كفر بتنزيل الله !!! وجحد آيات الله !!!"...

فَهَذِهِ هي عقيدتهم ، التي أوصلتهم إلى تكفير من سواهم ممَّن هم على غير منهجهم وطريقتهم وعقيدتهم ، فهم لا يرون على الإسلام إلَّا هم ، ويرون أنفسهم كما قال السُّبْكِي :"أنَّهم أهل السُّنَّة ، وَلَو عُدُّوا عدداً لما بلغ علماؤهم وَلَا عَالم فيهم عَلَى الْحَقِيقَة مبلغاً يعْتَبر ، ويكفِّرون غَالب عُلَمَاء الْأمَّة !!! ثمَّ يعتزون إلى الإِمَام أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ وَهُوَ مِنْهُم برِيء !!! وَلكنَّه كَمَا قَالَ بعض العارفين ورأيته بِخَط الشَّيخ تقي الدِّين ابْن الصَّلاح : إمامان ابتلاهما الله بأصحابهما ، وهما بريَّان مِنْهُم : أَحْمد ابْن حَنْبَل ابْتُلِيَ بالْمُجَسِّمَة ، وجعفر الصَّادِق ابْتُلِيَ بالرَّافضة". انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ١٧) .

واستغلُّوا في تمرير عقائدهم جهلَ الكثيرين ... لأنَّهم لا ينبُتون إلَّا حيث يكون الجهل ، فقد"أوهموا النَّاس أنَّهم يمثِّلون السَّلف الصَّالح من الصَّحابة ومن بعدهم من التَّابعين لهم بإحسان ، والتَّاريخ يشهد ، والعلم بكتاب الله ينادي أنَّهم ما مثَّلوا إلَّا سلف سوء من أشياخ المشبِّهة وأئمَّة المجسِّمة ، الذين يفسِّرون الكتاب بأهوائهم ، ويحملون السُّنَّة على آرائهم ، ويتقوَّلون على معاني كتاب الله ، ويضعون على رسول الله ، ويأخذون بالضَّعيف إذا وافق منهم هوى ، ويردُّون الصَّحيح أو يشكِّكون في صحَّته إذا كان حجَّة عليهم". انظر : فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان (ص١١) .

وقال أبو بكر الجصَّاص(٣٧٠هـ) :"... وأنَّه ليس بجسم ، ولا مشبه الأجسام ، إذ الأجسام لا يمكنها فعل ذلك ، ولا ترومه ، ولا تطمع فيه".

وقال أيضاً :"... لِأَنَّ اللهَّ تَعَالَى لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِتْيَانُ وَلَا الْمَجِيءُ وَلَا الِانْتِقَالُ وَلَا الزَّوَالُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَدَلَالَاتِ الْحَدَثِ ، وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ مُحْكَمة **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**﴿الشورى: ١١﴾ ، وَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام مَا شَهِدَهُ مِنْ حركات النُّجوم وانتقالها

دليلاً على حدثها ، وَاحْتَجَّ بِهِ عَلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾﴿ الأنعام: ٨٣﴾ ، يَعْنِي فِي حَدَثِ الْكَوَاكِبِ وَالْأَجْسَامِ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ عُلُوّاً كَبِيراً".

وقال أيضاً :" ... لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ بِالْمَسَافَةِ إِذْ هُوَ مِنْ صِفَةِ الْأَجْسَامِ".

وقال أيضاً :"وَيَدُلُّ وُقُوفُ السَّموات وَالْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ أَنَّ مُمْسِكَهَا لَا يُشْبِهُهَا ، لِاسْتِحَالَةِ وُقُوفِهَا مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ مِنْ جِسْمٍ مِثْلِهَا إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الدَّلَائِلِ الْمُضَمَّنَةِ بِهَا ، ودلالة الليل والنَّهار على اللهّ تعالى : أنَّ الليل والنَّهار محدثان لوجود كلٍّ واحد منهما بعد أن لم يكن موجوداً ، ومعلوم أنَّ الأجسام لا تقدر على إيجادها ، ولا على الزِّيادة والنُّقصان فيها ، وقد اقتضيا محدثاً من حيث كانا محدثين ، لاستحالة وجود حادث لا مُحدِث له ، فوجب أنَّ مُحدثهما ليس بجسم ، ولا مشبه للأجسام ، لوجهين : أحدهما : أنَّ الأجسام لا تقدر على إحداث مثلها ، والثَّاني : المشبه للجسم يجري عليه ما يجري عليه من حكم الحدوث ، فلو كان فاعلها حادثاً لاحتاج إلى محدث ، ثمَّ كذلك يحتاج الثَّاني إلى الثَّالث إلى ما لا نهاية له ، وذلك محال ، فلا بدَّ من إثبات صانع قديم لا يشبه الأجسام ، واللهّ أعلم". انظر : أحكام القرآن(١/ ١٢٨) ،(١/ ٣٩٧) ،(٢/ ٣٣٣) ،(٢/ ٣٣٥) .

ففي كلامه السَّابق أكَّد الجصَّاص على تنزيه الله تعالى عن الجسميَّة ، وأنَّه تعالى منزَّه عن صفات الأجسام ودلالات الحدث من الحركة والانتقال والزَّوال والبُعد والقُرب بالمسافة ...

وقال أبو بكر الكلاباذي البخاري الحنفي(٣٨٠هـ) :"اجْتمعت الصُّوفِيَّة على : أَنَّ الله وَاحِد أحد ، فَرد صَمد ، قديم عَالم ، قَادر حَيّ ، سميع بَصِير ، عَزِيز عَظِيم ، جليل كَبِير ، جواد رؤوف ، متكبِّر جَبَّار ، بَاقٍ أوَّل ، إِلَه سيِّد ، مَالك ربٌّ ، رَحْمَن رَحِيم ، مُرِيد حَكِيم ، مُتَكَلِّم خَالق زراق ، مَوْصُوف بِكُل مَا وصف بِهِ نَفسه من صِفَاته ، مُسَمَّى بِكُل مَا سمَّى بِهِ نَفسه ، لم يزل قَدِيماً بأسمائه وَصِفَاته ، غير مشبه لِلْخلقِ بِوَجْه من الْوُجُوه ، لَا تشبه ذَاته الذَّوات ، وَلَا صفته الصِّفات ، لَا يجْرِي عَلَيْهِ شيء من سمات المخلوقين الدَّالَّة على حَدثهمْ ، لم يزل سَابِقاً مُتَقَدماً للمحدثات ، مَوْجُوداً قبل كلِّ شيء ، لَا قديم غَيره ، وَلَا إِلَه سواهُ ، لَيْسَ بجسم ، وَلَا شبح ، وَلَا صُورَة ، وَلَا شخص ، وَلَا جَوْهَر ، وَلَا عرض ، لَا اجْتِمَاع لَهُ وَلَا افْتِرَاق ، لَا يَتَحَرَّك وَلَا يسكن ، وَلَا ينقص وَلَا يزْدَاد ، لَيْسَ

بِذِي أبعاض وَلَا أَجزَاء ، وَلَا جوارح وَلَا أَعْضَاء ، وَلَا بِذِي جِهَات وَلَا أَمَاكِن ، لَا تجْرِي عَلَيْهِ الْآفَات ، وَلَا تأخذه السِّنات ، وَلَا تداوله الْأَوْقَات ، وَلَا تعينه الإشارات ، لَا يحويه مَكَان ، وَلَا يجْرِي عليه زمَان ، لَا تجوز عَلَيْهِ المماسَّة ، وَلَا الْعُزْلَة ، وَلَا الْحُلُول فِي الْأَمَاكِن ، لَا تحيط بِهِ الأفكار ، وَلَا تحجبه الأستار ، وَلَا تُدْرِكهُ الْأَبْصَار". انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف (ص٣٤) .

وقال الخطَّابي(٣٨٨هـ) :"... وهذه صفة الأجسام والأشباح ، فأمَّا نزول من لا تستولي عليه صفات الأجسام ، فإنَّ هذه المعاني غير متوهَّمة فيه ، وإنَّما هو خبر عن قدرته ورأفته بعباده ، وعطفه عليهم ، واستجابته دعاءهم ، ومغفرته لهم ، يفعل ما يشاء ، لا يتوجَّه على صفاته كيفيَّة ، ولا على أفعاله لميَّة ، سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾﴿الشورى: ١١﴾ . انظر : أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١/ ٦٣٩) .

فالحافظ اللغوي الخطَّابي أوَّل النُّزول المُضاف إلى الله تعالى بأنَّه خبر عن قدرته ورأفته بعباده ، لأنَّ الانتقال من مكان إلى مكان من صفات الأجسام ، والله تعالى لا تستولي عليه صفات الأجسام ...

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني(٤٠٣هـ) في"كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدَّلائل" (ص٢٢٢-٢٢٣) :"فإن قالوا: ولمَ أنكرتم أن يكون البارئ سبحانه جسمًا لا كالأجسام كما أنَّه عندكم شيء لا كالأشياء؟ قيل له: لأنَّ قولنا:"شيء" لم يُبْنَ لجنس دون جنس ولا لإفادة التَّأليف، فجاز وجود شيء ليس بجنس من أجناس الحوادث وليس بمؤلَّف، ولم يكن ذلك نقضًا لمعنى تسميته بأنَّه شيء، وقولنا:"جسمٌ" موضوع في اللغة للمؤلَّف دون ما ليس بمؤلَّف، كما أنَّ قولنا:"إنسان"و" محدَث" اسم لما وُجدَ عن عدم ولما له هذه الصُّورة دون غيرها، فكما لم يجز أن نثبت القديم سبحانه محدَثاً لا كالمحدَثات وإنسانًا لا كالنَّاس قياسًا على أنَّه شيء لا كالأشياء لم يجز أن نُثبته جسمًا لا كالأجسام ، لأنَّه نقض لمعنى الكلام وإخراج له عن موضوعه وفائدته.

فإن قالوا: فما أنكرتم من جواز تسميته جسمًا وإن لم يكن بحقيقة ما وُضِعَ له هذا الاسم في اللغة؟ قيل لهم: أنكرنا ذلك لأنَّ هذه التسمية لو ثبتت لم تثبت له إلَّا شرعًا لأنَّ العقل لا يقتضيها

بل ينفيها إن لم يكن القديم سبحانه مؤلَّفًا، وليس في شيء من دلائل السَّمع من الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمَّة وما يُستخرج من ذلك ، ما يدلُّ على وجوب هذه التَّسمية ، ولا على جوازها أيضًا ، فبطل ما قلتموه" .

وقال أبو بكر الباقلَّاني(٤٠٣هـ) :"إِن قَالَ قَائِل : لم أنكرتم أَن يكون الْقَدِيم سُبْحَانَهُ جسماً ؟ قيل لَهُ : لما قدَّمْنَاهُ من قبل ، وَهُوَ أَنَّ حَقِيقَة الْجِسْم أَنَّه مؤلَّف مُجْتَمع ، بِدَلِيل قَوْلهم : رجلٌ جسيمٌ ، وَزيدٌ أجسم من عَمْرو ، وعلماً بِأَنَّهُم يقصرون هَذِه الْمُبَالغَة على ضرب من ضروب التَّأْلِيف فِي جِهَة الْعرض والطُّول ، وَلَا يوقعونها بِزِيَادَة شَيْء من صِفَات الْجِسْم سوى التَّأْلِيف ، فَلَمَّا لم يجز أَن يكون الْقَدِيم مجتمعاً مؤتلفاً ، وَكَانَ شَيْئاً وَاحِداً ، ثَبت أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ بجسم . فإن قالوا : ومن أين استحال أن يكون القديم مجتمعاً مؤتلفاً ؟ قيل لهم : من وجوه :

أحدها : أنَّ ذلك لو جاز عليه لوجب أن يكون ذا حيِّز وشغل في الوجود ، وأن يستحيل أن يماس كلّ بعض من أبعاضه وجزء من أجزائه غير ما ماسه من الأبعاض وأجزاء الجواهر أيضاً من جهة ما هما متماسَّان ، لأنَّ الشَّيء المماس لغيره لا يجوز أن يماسّه ويماس غيره من جهة واحدة ، وليس يقع هذا التَّمانع من المماسَّة إلّا للتَّحيُّز والشُّغل ، ألا ترى أنَّ العرض الموجود بالمكان إذا لم يكن له حيِّز وشغل ، لم يمنع وجوده من وجود غيره من الأعراض في موضعه ، وإذا ثبت ذلك وجب أن تكون سائر الأبعاض المجتمعة ذا حيِّز وشغل ، وما هذه سبيله ، فلا بدَّ أن يكون حاملاً للأعراض ومن جنس الجواهر والأجسام ، فلمَّا لم يجز أن يكون القديم سبحانه من جنس شيء من المخلوقات ، لأنَّه لو كان كذلك لسدَّ مسد المخلوق ، وناب منابه ، واستحقَّ من الوصف لنفسه ما يستحقُّه ما هو مثله لنفسه ، فلما لم يجب أن يكون القديم سبحانه محدثاً والمحدث قديماً ، ثبت أنَّه لا يجوز أن يكون القديم سبحانه مؤتلفاً مجتمعاً ، ويدلُّ على ذلك أيضاً أنَّه لو كان القديم سبحانه ذا أبعاض مجتمعة ، لوجب أن تكون أبعاضه قائمة بأنفسها ومحتملة للصِّفات ولم يخل كلُّ بعض منها من أن يكون عالماً قادراً حيّاً أو غير حي ولا عالم ولا قادر ، فإن كان واحد منها فقط هو الحيُّ العالم القادر دون سائرها ، وجب أن يكون ذلك البعض منه هو الإله المعبود المستوجب للشُّكر دون

غيره ، وهذا يوجب أن تكون العبادة والشُّكر واجبين لبعض القديم دون جميعه ، وهذا كفر من قول الأمَّة كافَّة ، وإن كانت سائر أبعاضه عالمة حيَّة قادرة وجب جواز تفرُّد كلّ شيء منها بفعل غير فعل صاحبه ، وأن يكون كلّ واحد منها إلهاً لما فعله دون غيره ، وهذا يوجب أن يكون الإله أكثر من اثنين وثلاثة على ما تذهب إليه النَّصارى ، وذلك خروج عن قول الأمَّة ، وكلّ أمَّة أيضاً ، وعلى أنَّ ذلك لو كان كذلك لجاز أن تتمانع هذه الأبعاض ويريد بعضها تحريك الجسم في حال ما يريد الآخر تسكينه ، فكانت لا تخلو عند الخلاف والتَّمانع من أن يتمَّ مرادها أو لا يتم بأسره أو يتم بعضه دون بعض ، وذلك يوجب إلحاق العجز بسائر الأبعاض أو بعضها ، والحكم لها بسائر الحدث ، على ما بينَّاه في الدّلالة على إثبات الواحد ، وليس يجوز أن يكون صانع العالم محدثاً ، ولا شيء منه ، فوجب استحالة كونه مؤلَّفاً .

فإن قالوا : فكذلك فجوّزوا تمانع أجزاء الإنسان إذا قدر وأراد وتصرَّف كلُّ شيء منها بقدرة وإرادة غير إرادة صاحبه ، قيل له لا يجب ذلك ، ولا يجوز أيضاً تمانع الحيين المحدثين المتصرّفين بإرادتين ، وإن كانا متباينين لقيام الدَّليل على أنَّه لا يجوز أن يكون محل فعل المحدثين واحداً ، واستحالة تعدِّي فعل كلّ واحد منهما لمحلِّ قدرته .

والتَّمانع بالفعلين لا يصحّ حتَّى يكون محلّهما واحداً ، فلم يجب ما سألتم عنه . فإن قالوا : ولم أنكرتم أن يكون الباري سبحانه جسماً لا كالأجسام ، كما أنَّه عندكم شيء لا كالأشياء ، قيل له : لأنَّ قولنا شيء لم يبن لجنس دون جنس ، ولا لإفادة التَّأليف ، فجاز وجود شيء ليس بجنس من أجناس الحوادث وليس بمؤلَّف ، ولم يكن ذلك نقضاً لمعنى تسميته بأنَّه شيء ، وقولنا : جسم موضوع في اللغة للمؤلَّف دون ما ليس بمؤلَّف ، كما أنَّ قولنا : إنسان ومحدث اسم لما وجد من عدم ولما له هذه الصُّورة دون غيرها ، فكما لم يجز أن نثبت القديم سبحانه محدثاً لا كالمحدثات وإنساناً لا كالنَّاس ، قياساً على أنَّه شيء لا كالأشياء ، لم يجز أن نثبته جسماً لا كالأجسام ، لأنَّه نقض لمعنى الكلام ، وإخراج له عن موضوعه وفائدته .

فإن قالوا : فما أنكرتم من جواز تسميته جسماً ، وإن لم يكن بحقيقة ما وضع له هذا الاسم في اللغة ، قيل لهم : أنكرنا ذلك لأنَّ هذه التَّسمية لو ثبتت لم تثبت له إلَّا شرعاً ، لأنَّ العقل لا يقتضيها بل ينفيها إن لم يكن القديم سبحانه مؤلَّفاً ، وليس في شيء من دلائل السَّمع من الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمَّة وما يستخرج من ذلك ما يدلُّ على وجوب هذه التَّسمية ولا على جوازها أيضاً ، فبطل ما قلتموه ، فإن قالوا : ولم منعتم من جواز ذلك وإن لم توجبوه ، قيل لهم : أمَّا العقل فلا يمنع ولا يحرم ولا يحيل إيقاع هذه التَّسمية عليه تعالى وإن أحال معناها في اللسان وإنَّما تحرم تسميته بهذا الاسم وبغيره ممَّا ليس بأسمائه لأجل حظر السَّمع لذلك ، لأنَّ الأمَّة مجمعة على حظر تسميته عاقلاً وفطناً ، وإن كان بمعنى من يستحق هذه التَّسمية لأنَّه عالم وليس العقل والحفظ والفطنة والدِّراية شيئاً أكثر من العلم . وإجازة وصفه وتسميته بأنَّه نور ، وأنَّه ماكر ، ومستهزىء ، وساخر من جهة السَّمع ، وإن كان العقل يمنع من معاني هذه الأسماء فيه ، فدلَّ ذلك على أنَّ المراعى في تسميته ما ورد به الشَّرع والإذن دون غيره .

وفي الجملة ، فإنَّ الكلام إنَّما هو في المعنى دون الاسم ، فلا طائل في التَّعلُّل والتَّعلُّق بالكلام في الأسماء ، فإن قال قائل : ما أنكرتم أن يكون جسماً على معنى أنَّه قائم بنفسه أو بمعنى أنَّه شيء أو بمعنى أنَّه حامل للصِّفات أو بمعنى أنَّه غير محتاج في الوجود إلى شيء يقوم به ، قيل له : لا ننكر أن يكون الباري سبحانه حاصلاً على جميع هذه الأحكام والأوصاف ، وإنَّما ننكر تسميتكم لمن حصلت له بأنَّه جسم ، وإن لم يكن مؤلَّفاً ، فهذا عندنا خطأ في التَّسمية دون المعنى ، لأنَّ معنى الجسم أنَّه المؤلَّف على ما بينَّاه ، ومعنى الشَّيء أنَّه الثَّابت الموجود ، وقد يكون جسماً إذا كان مؤلَّفاً ، ويكون جوهراً إذا كان جزءاً منفرداً ، ويكون عرَضاً إذا كان ممَّا يقوم بالجوهر ، ومعنى القائم بنفسه : هو أنَّه غير محتاج في الوجود إلى شيء يوجد به ،ومعنى ذلك : أنَّه ممَّا يصحُّ له الوجود ، وإن لم يفعل صانعه شيئاً غيره إذا كان محدثاً ، ويصحُّ وجوده وإن لم يوجد قائم بنفسه سواه إذا كان قديماً ، وليس هذا من معنى قولنا : جسم ومؤلَّف بسبيل فبطل ما قلتم ، فإن قالوا : ما أنكرتم أن يكون معنى جسم ومعنى قائم بنفسه وغير قائم بغيره ، ومعنى أنَّه حامل للصِّفات هو معنى أنَّه شيء ،

لأنَّه لو لم يكن معنى جسم ومعنى قائم بنفسه وغير قائم بغيره ومعنى أنَّه حامل للصِّفات هو معنى شيء لجاز وجود شيء حامل للصِّفات ليس بشيء وقائم بنفسه وغير قائم بغيره وليس بجسم ، ولو جاز ذلك لجاز وجود جسم ليس بشيء ، ولا قائم بنفسه ، ولا حامل للصِّفات ، فلمَّا لم يجز ذلك ، وجب أن يكون معنى الجسم ما قلناه ، يقال لهم : لو كان هذا العكس الذي عكستموه صحيحاً واجباً ، لوجب أن يكون معنى موجود محدث مركَّب حامل للأغراض معنى ، لأنَّه لو لم يكن ذلك كذلك لجاز وجود شيء ليس بموجود ولا محدث ولا مؤلَّف ولا مركَّب ولا حامل للأعراض ولا قائم بنفسه ، ولو جاز ذلك لجاز وجود محدث قائم بنفسه مركَّب مؤلف حامل للصِّفات ، ليس بشيء ولا موجود ، فلما لم يجز ذلك ثبت أنَّ معنى شيء غير معنى : محدث مؤلَّف حامل للأعراض ، فإن لم يجب هذا لم يجب ما قلتموه ، مسألة : ويقال لهم ما الدَّليل على أنَّ صانع العالم جسم : فإن قالوا لأنَّنا لم نجد في الشَّاهد والمعقول فاعلاً إلَّا جسما فوجب القضاء بذلك على الغائب ، قيل لهم فيجب على موضوع استدلالكم هذا أن يكون القديم سبحانه مؤلَّفاً محدثاً مصوَّراً ذا حيِّز وقبول للأعراض ، لأنَّكم لم تجدوا في الشَّاهد وتعقلوا فاعلاً إلَّا كذلك ، فإن مرُّوا على ذلك تركوا قولهم وفارقوا التَّوحيد ، وإن أبوه نقضوا استدلالهم...قوله:﴿**لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ**﴾﴿الأنعام: ١٠٣﴾ ، أنَّها لا تدركه جسماً مصوَّراً متحيِّزاً ولا حالّاً في شيء على ما يقوله النَّصارى ، ولا مشبهاً لشيء على ما يقوله أهل التَّشبيه" . انظر : تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل (ص٢٢٠ فما بعدها) .

وقال الحَلِيمي(٤٠٣هـ) :"... أنَّ الله جلَّ ثناؤه الذي ليس بجسم ، ولا يجوز عليه أن تحلّه الأعراض والحوادث ...". انظر : المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٢٣٣) .

وقال ابن فورك(٤٠٦هـ) :"وَاعْلَم أَنَّه لَا فرق بَين الْإِتْيَان والمجيء وَالنُّزُول إِذا أضيف جَمِيع ذَلِك إِلَى الْأَجْسَام الَّتِي تتحرَّك وتنتقل وتحازي مَكَاناً ، إِنَّ جَمِيع ذَلِك يعقل من ظَاهرهَا ، وَالْمعْنَى الَّذِي هُوَ الْحَرَكَة والنُّقلة الَّتِي هِيَ تَفْرِيغ مَكَان وشغل مَكَان . وَإِذا أضيف إِلَى مَا لَا يَلِيق بِهِ الإنتقال من

مَكَان إلى مَكَان لإستحالة وَصفه كَانَ معنى مَا يُضَاف إِلَيْهِ من الْإِتْيَان والمجيء على حسب مَا يَلِيق بنعمته وَصفته ...".

وقال أيضاً :"... اعْلَم أَنَّ كلّ مَا ذكر فِيهِ الْحجاب ، من أَمْثَال هَذَا الْخَبَر ، فإِنَّما يرجع مَعْنَاهُ إلى الْخلق ، لأَنَّهم هم المحجوبون عَنهُ بحجاب يخلقه فيهم ، لَا يجوز أَن يكون الله عزَّ وجلَّ محتجباً وَلَا محجوباً ، لاستحالة كَونه جوهراً أَو جسماً محدوداً ، لِأَنَّ مَا يستره الْحجاب أكبر مِنْهُ ، وَيكون متناهياً محاذياً جَائِزاً عَلَيْهِ المماسَّة والمفارقة ، وَمَا كَانَ كَذَلِك كَانَت عَلَامَات الْحَدث فِيهِ قَائِمَة ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُوَحِّدين إنَّما توصَّلوا إلى الْعلم بِحَدَث الْأَجْسَام من حَيْثُ وجدوها متناهية محدودة محلاً للحوادث ، فَكَانَ تعاقبها عَلَيْهَا دَلِيلاً على حدثها".

وقال أيضاً :"... اعلم أَنَّ الْوَطْأَة الَّتِي هِيَ بِمَعْنى مماسَّة بجارحة أَو بِبَعْض الْأَجْسَام لَا يَصحُّ فِي وصف الله تَعَالَى لاستحالة كَونه جسماً ، واستحالة المماسَّة عَلَيْهِ ، واستحالة تَغْيِيره بِمَا يحدث فِيهِ من الْحَوَادِث".

وقال أيضاً :"إِنَّ خُرُوج من الشَّيء على وَجْهَيْن :

أَحدهمَا : كخروج الْجِسْم من الْجِسْم ، وَذَلِكَ بمفارقة مَكَانَهُ واستبداله مَكَاناً آخر ، وَلَيْسَ الله تَعَالَى جسماً ، وَلَا كَلَامه جسم ، لأَنَّه لَو كَانَ جسماً لاقتضى محلاً وَاحِداً ، وَذَلِكَ فَاسد .

وَالْوَجْه الثَّانِي من معنى الْخُرُوج : كَقَوْلِك : خرج لنا من كلامك خير كثير ، وأتانا مِنْهُ نفع مُبين ، إذا أَرَادَ أَنَّه ظهر لَهُم مِنْهُ مَنَافِع ، فَأَمَّا الْخُرُوج الَّذِي بِمَعْنى الإنتقال ، فَلَا يَصحُّ على كَلَام الله سُبْحَانَهُ ، وَلَا على شَيْء من الْكَلَام ، لأجل أَنَّه لَيْسَ بجسم ، وَلَا جَوْهَر ، وإِنَّما يجوز الإنتقال على الْجَوَاهِر والأجسام ...". انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٢٠١) ، (ص٢١٣) ، (ص٢٧٩) ، (ص٢٨٦-٢٨٧) بالترتيب .

ونقل أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز بن عبد الحارث التميمي البغدادي الحنبلي (٤١٠هـ) في "اعتقاد الإمام أحمد" (ص ٣٨ -٣٩) عن الإمام أحمد أنَّه قال :"والله تعالى لا يلحقه تغيُّر ولا تبدُّل ، ولا تلحقه الحدود قبل خلق العرش ولا بعد خلق العرش".

وقال الثَّعلبي(٤٢٧هـ) :"وأعلم أنَّ الآيات والأخبار الصِّحاح في هذا الباب كثيرة ، وكلُّها إلى العلوِّ مشيرة ، ولا يدفعها إلَّا مُلحدٌ جاحدٌ أو جاهلٌ معاندٌ ، والمراد بها- والله أعلم- توقيره ، وتعظيمه ، وتنزيهه عن السُّفل والتَّحت ، ووصفه بالعلوِّ والعظمة دون أن يكون موصوفاً بالأماكن والجهات ، والحدود والحالات ، لأنَّها صفات الأجسام وأمارات الحدث ، والله سبحانه وتعالى كان ولا مكان ، فخلق الأمكنة غير محتاج إليها ...". انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٣٦٠) .

وقال أبو منصور عبد القاهر الإسفراييني(٤٢٩هـ) :"لو كان الإله مقدَّراً بحدٍّ ونهاية لم يخل من أن يكون مقداره مثل أقل المقادير ، فيكون كالجزء الذي لا يتجزَّأ ، أو يختصُّ ببعض المقادير ، فيتعارض فيه المقادير ، فلا يكون بعضها أولى من بعض إلَّا بمخصِّص خصَّه ببعضها ، وإذا بطل هذان الوجهان صحَّ أنَّه بلا حدٍّ ولا نهاية". انظر : كتاب أُصول الدِّين (ص٧٣) .

وقال أبو نعيم الأصبهاني (٤٣٠هـ) في"حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" (٩/ ٣٨٨) في ترجمته لأبي الفيض ذُو النُّونِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمِصْرِيُّ (٢٤٥هـ) من نظمه :

شُكْراً لِمَا خَصَّنَا مِنْ فَضْلِ نِعْمَتِه ... مِنَ الْهُدَى وَلَطِيفِ الصُّنْعِ وَالرَّفَدِ

رَبٌّ تَعَالَى فَلَا شَيْءَ يُحِيطُ بِهِ ... وَهُوَ الْمُحِيطُ بِنَا فِي كُلِّ مُرْتَصَدِ

لَا الْأَيْنَ وَالْحَيْثُ وَالْكَيْفُ يُدْرِكُهُ ... وَلَا يُحَدُّ بِمِقْدَارٍ وَلَا أَمَدِ

وَكَيْفَ يُدْرِكُهُ حَدٌّ وَلَمْ تَرَهُ عَيْنٌ ... وَلَيْسَ لَهُ فِي الْمِثْلِ مِنْ أَحَدِ

أَمْ كَيْفَ يَبْلُغُهُ وَهْمٌ بِلَا شَبَهٍ ... وَقَدْ تَعَالَى عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالْوَلَدِ

وقال ابن بطَّال(٤٤٩هـ) :"... ولا فرق بين الإتيان والمجيء والنُّزول إذا أضيف جميع ذلك إلى الأجسام التي يجوز عليها الحركة والنُّقلة التي هي تفريغ مكان وشغل غيره ، فإذا أضيف ذلك إلى من لا يليق به الانتقال والحركة ، كان تأويل ذلك على حسب ما يليق بنعته وصفته عزَّ وجلَّ".

وقال أيضاً :"... لأنَّ الموصوف بالسّعة يصحُّ وصفه بالضِّيق بدلاً منه ، والوصفان جميعاً من صفات الأجسام ، وإذا استحال وصفه بها يؤدِّي إلى القول بكونه جسماً ، وجب صرف قولها عن

ظاهره إلى ما اقتضى صحَّته الدَّليل ... ولم يرد بوصفه بالقُرب قُرب المسافة ؛ لأنَّ الله تعالى لا يصحُّ وصفه بالحلول في الأماكن ؛ لأنَّ ذلك من صفات الأجسام".

وقال أيضاً :"... غرضه في هذا الباب ردّ شبهة الجهميَّة المجسِّمة في تعلُّقها بظاهر قوله : ﴿**مِنَ اللهِ ذِي الْمَعارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾﴿المعارج: ٣ – ٤﴾ ، وقوله : ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾﴿فاطر: ١٠﴾ ، وما تضمَّنته أحاديث الباب من هذا المعنى ، وقد تقدَّم الكلام في الرَّدِّ عليهم ، وهو أنَّ الدَّلائل الواضحة قد قامت على أنَّ الباري تعالى ليس بجسم ، ولا محتاجاً إلى مكان يحلّه ويستقر فيه ؛ لأنَّه تعالى قد كان ولا مكان ، وهو على ما كان ، ثمَّ خلق المكان ، فمحالٌ كونه غنيَّاً عن المكان قبل خلقه إيَّاه ، ثمَّ يحتاج إليه بعد خلقه له ، هذا مستحيل".

وقال أيضاً :"...فلا تعلُّق فيه للمجسِّمة في إثبات الجسم والمكان ، لما تقدَّم من استحالة كونه جسماً أو حالّاً في مكان". انظر : شرح صحيح البخارى لابن بطال(٣/ ١٣٧) ،(١٠/ ٤١٧) ،(١٠/ ٤٥٣) ،(١٠/ ٤٦٦) بالترتيب

وقال ابن حزم الأندلسي(٤٥٦هـ) :"ذهب طَائِفَة إِلَى القَوْل بِأَنَّ الله تَعَالَى جسم ، وحجَّتهم فِي ذَلِك : أَنَّه لَا يقوم فِي الْمَعْقُول إِلَّا جسم أَو عَرَض ، فَلَمَّا بَطل أَن يكون تَعَالَى عرضاً ، ثَبت أَنَّه جسم ، وَقَالُوا : إِنَّ الْفِعْل لَا يَصحُّ إِلَّا من جسم ، والباري تَعَالَى فَاعلٌ ، فَوَجَبَ أَنَّه جسم ، وَاحْتَجُّوا بآيَات من الْقُرْآن فِيهَا ذكر الْيَد ، وَالْيَدَيْنِ ، وَالْأَيْدِي ، وَالْعين ، وَالْوَجْه ، وَالْجنب ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾﴿الفجر: ٢٢﴾ ، و ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾﴿البقرة: ٢١٠﴾ ، وتجلِّيه تَعَالَى للجبل ، وبأحاديث فِيهَا ذكر الْقدَم ، وَالْيَمِين ، وَالرِّجل ، والأصابع ، والتَّنزُّل .

قَالَ أَبُو محمَّد : وَلجَمِيعِ هَذِه النُّصُوص وُجُوه ظَاهِرَة بَيِّنَة خَارِجَة على خلاف مَا ظنُّوه وتأوَّلوه .

قَالَ أَبُو محمَّد : وَهَذَانِ الاستدلالان فاسدان . أَمَّا قَوْلهم : أَنَّه لَا يقوم فِي الْمَعْقُول إِلَّا جسم أَو عرَض ، فَإِنَّهَا قسْمَة نَاقِصَة ، وإنَّما الصَّوَاب أَنَّه لَا يُوجد فِي الْعَالم إِلَّا جسم أَو عَرَض ، وَكِلَاهُمَا يَقْتَضِي بطبيعته وجود مُحدث لَهُ فبالضَّرورة نعلم أَنَّه لَو كَانَ محدثهما جسماً أَو عرضاً لَكَانَ يَقْتَضِي

فَاعِلاً فعله وَلَا بُدَّ . فَوَجَبَ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ فَاعل الْجِسْم وَالْعرَض لَيْسَ جسْماً ، وَلَا عَرَضاً ، وَهَذَا برهَان يضْطَر إِلَيْهِ كلّ ذِي حسٍّ بضرورة الْعقل ، وَلَا بُدَّ .

وَأَيْضاً فَلَو كَانَ الْبَارِي – تَعَالَى عَن إلحادهم – جسماً لاقتضى ذَلِك ضَرُورَة أَن يكون لَهُ زمَان وَمَكَان هما غَيره ، وَهَذَا إبْطَال التَّوحيد وَإِيجَاب الشِّرك مَعَه تَعَالَى لشيئين سواهُ ، وَإِيجَاب أَشْيَاء مَعَه غير مخلوقة ، وَهَذَا كفر ، وَقد تقدَّم إفسادنا لِهَذَا القَوْل .

وَأَيْضاً ، فَإِنَّهُ لَا يعقل الْبَتَّةَ جسْم إِلَّا مؤلَّف طَوِيل عريض عميق ، ونظَّارهم لَا يَقُولُونَ بِهَذَا ، فَإِن قَالُوهُ لَزِمَهُم أَنَّ لَهُ مؤلِّفاً جَامعاً مخترعاً فَاعِلاً ، فَإِن منعُوا من ذَلِك لَزِمَهُم أَن لَا يوجبوا لما فِي الْعَالم من التَّأْلِيف لَا مؤلّف وَلَا جَامعاً ، إِذْ الْمُؤلَّف كُلّه كَيْفَمَا وجد يَقْتَضِي مؤلّفاً ضَرُورَة ، فَإِن قَالُوا : هُوَ جسم غير مؤلَّف ، قيل لَهُم : هَذَا هُوَ الَّذِي لَا يعقل حَسَّاً ، وَلَا يتشكَّل فِي النَّفس الْبَتَّةَ ، فَإِن قَالُوا : لَا فرق بَين قولنا شَيْء وَبَين قَوْلنَا جسم ، قيل لَهُم : هَذِه دَعْوَى كَاذِبَة على اللُّغَة الَّتِي بهَا يَتكَلَّمُونَ .

وَأَيْضاً فَهُوَ بَاطِل لِأَنَّ الْحَقِيقَة أَنَّه لَو كَانَ الشَّيء والجسْم بِمَعْنى وَاحِد لَكَانَ الْعرَض جسْماً ، لأَنَّه شَيْء ، وَهَذَا بَاطِل بيقين . والحقيقة هِيَ أَنَّه لَا فرق بَين قَوْلنَا : شَيْء ، وَقَوْلنَا : مَوْجُود وَحقّ وَحَقِيقَة ومثبت ، فَهَذِهِ كلهَا أَسمَاء مترادفة على معنى وَاحِد لَا يخْتَلف ، وَلَيْسَ مِنْهَا اسْم يَقْتَضِي صفة أَكثر من أَنَّ الْمُسَمَّى بذلك حقّ وَلَا مزِيد ، وأمَّا لَفْظَة جسم فَإِنَّهَا فِي اللُّغَة عبارَة عَن الطَّوِيل العريض العميق ، الْمُحْتَمل للْقِسْمَة ذِي الْجِهَات السِّت ، الَّتِي هِيَ فَوق وَتَحْت ، ووراء وأمام ، وَيَمِين وشمال ، وَرُبَّمَا عدم وَاحِدَ مِنْهَا ، وَهِي الفوق ، هذا حكم هَذِه الْأَسْمَاء فِي اللُّغَة الَّتِي هَذِه الْأَسْمَاء مِنْهَا ، فَمن أَرَادَ أَن يُوقع شَيْئاً مِنْهَا على غير موضوعها فِي اللُّغَة فَهُوَ مَجْنُون وقاح ، وَهُوَ كمن أَرَادَ أَن يُسَمِّي الْحق بَاطِلاً وَالْبَاطِل حَقَّاً ، وَأَرَادَ أَن يُسَمِّي الذَّهَب خشباً ، وَهَذَا غَايَة الْجَهْل والسّخف ، إِلَّا أَن يَأْتِي نَصٌّ بِنَقْل اسْم مِنْهَا عَن مَوْضُوعه إِلَى معنى آخر فَيُوقف عِنْده ، وَإِلَّا فَلَا ، وإِنَّمَا يلْزم كل مناظر يُرِيد معرفَة الْحَقَائِق أَو التَّعْرِيف بهَا أَن يُحَقّق الْمَعَانِي الَّتِي يَقع عَلَيْهَا الِاسْم ثمَّ

يخبر بعد بهَا أو عنها بِالْوَاجِبِ ، وأمَّا مزج الْأَشْيَاء وقلبها عَن موضوعاتها فِي اللُّغَة ، فَهَذَا فعل السّوفسطائيَّة الوقحاء الْجُهَّال ، العابثون بعقولهم وأنفسهم .

فَإِن قَالُوا لنا : إِنَّكُم تَقولُونَ إِنَّ الله عزَّ وجلَّ حَيّ لَا كالأحياء ، وَعَلِيم لَا كالعلماء ، وقادر لَا كالقادرين ، وَشَيْء لَا كالأشياء ، فَلمَ منعتم القَوْل بِأَنَّهُ جسم لَا كالأجسام ؟!!

قيل لَهُم وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيق : لَوْلَا النَّص الْوَارِد بتسميته حَيًّا وقديراً وَعَلِيماً مَا سمَّيناه بِشَيْء من ذَلِك ، لَكِن الْوُقُوف عِنْد النَّص فرضٌ ، وَلم يَأْتِ نَصٌّ بتسميته تَعَالَى جسماً ، وَلَا قَامَ الْبُرْهَان بتسميته جسماً ، بل الْبُرْهَان مَانعٌ من تَسْمِيَته تعالى بذلك . وَلَو أَتَانَا نَصٌّ بتسميته تَعَالَى جسماً لوَجَبَ علينا القَوْل بذلك ، وَكُنَّا حِينَئِذٍ نقُول : أَنَّه جسمٌ لَا كالأجسام ، كَمَا قُلْنَا فِي عليم ، وقدير ، وَحيّ ، وَلَا فرق ، وأمَّا لَفْظَة شَيْء ، فالنَّصّ أَيْضاً جَاءَ بهَا ، والبرهان أوجبهَا على مَا نذْكر بعد هَذَا ، إِن شَاءَ الله تَعَالَى". انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٩٢-٩٣) .

وقال أيضاً :"قَالَ الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرام﴾﴿الرحمن: ٢٧﴾ ، فَذَهَبت المجسِّمة إِلى الِاحْتِجَاج بِهَذَا فِي مَذْهَبهم ، وَقَالَ الْآخرُونَ : وَجه الله تَعَالَى إِنَّمَا يُرَاد بِهِ : الله عزَّ وجلَّ.

قَالَ أَبُو محمَّد : وَهَذَا هُوَ الْحق الَّذِي قَامَ الْبُرْهَان بِصِحَّتِهِ ، لما قدَّمنَا من إِبْطَال القَوْل بالتَّجسيم ، وَقَالَ أَبُو الْهُذيْل : وَجه الله هُوَ الله .

قَالَ أَبُو محمَّد : وَهَذَا لَا يَنْبَغِي أَن يُطلق ، لأَنَّه تَسْمِيَة ، وَتَسْمِيَة الله تَعَالَى لَا يجوز إِلَّا بِنَصٍّ ، وَلَكنَّا نقُول : وَجه الله لَيْسَ هُوَ غير الله تَعَالَى ، وَلَا نرْجع مِنْهُ إِلى شَيْء سوى الله تَعَالَى ، برهَان ذَلِك : قَول الله تَعَالَى حاكياً عَمَّن رَضِي قَوْله : ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾﴿الإنسان: ٩﴾ ، فصحَّ يَقِيناً : أَنَّهم لم يقصدوا غير الله تَعَالَى ، وَقَوله عزَّ وجلَّ : ﴿فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾﴿البقرة: ١١٥﴾ ، إِنَّما مَعْنَاهُ : فثمَّ الله تَعَالَى بِعِلْمِهِ ، وقبوله لمن توجَّه إِلَيْهِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾﴿الفتح: ١٠﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾﴿ص: ٧٥﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً﴾﴿يس: ٧١﴾ ، وَقَالَ : ﴿بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ﴾﴿المائدة: ٦٤﴾ . وقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"المقسطون عَن يمين الرَّحْمَن" (أخرجه أحمد في المسند (١١/ ٣٢ برقم ٦٤٩٢) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للحديث :"إسناده صحيح على شرط الشيخين. سفيان: هو ابن

عُيينة.وأخرجه الحميدي(٥٨٨) ، وحسين المروزي في زوائده على"الزهد" لابن المبارك(١٤٨٤) ، وابنُ أبي شيبة ١٣/ ١٢٧، ومسلم(١٨٢٧) ، والنسائي في"المجتبى" ٨/ ٢٢١، وابنُ حبان(٤٤٨٤) و(٤٤٨٥) ، والأجري في"الشريعة" ص ٣٢٢، والبيهقي في"السنن" ١/ ٨٧٠، وفي"الأسماء والصفات" ص ٣٢٤، والخطيب في"تاريخه" ٥/ ٣٦٧، والبغوي (٢٤٧٠) من طرق، عن سفيان، بهذا الإسناد) .

،"وكلتا يَدَيْهِ يَمِين"، فَذَهَبت المجسِّمة إلى مَا ذكرنَا مِمَّا قد سلف من بطلَان قَوْلهم فِيهِ . وَذَهَبت الْمُعْتَزلَة : إلى أَنَّ"الْيَد"النِّعْمَة ، وَهُوَ أَيْضاً لَا معنى لَهُ ، لِأَنَّهَا دَعْوَى بِلَا برهَان . وَقَالَ الْأَشْعَرِيُّ : إِنَّ الْمُرَاد بقول الله تَعَالَى : أَيْدِينَا ، إِنَّما مَعْنَاهُ : اليدان ، وَإِنَّ ذكر الْأَعْين إِنَّما مَعْنَاهُ : عينان . وَهَذَا بَاطِل مدْخل فِي قَول المجسِّمة ، بل نقُول : إِنَّ هَذَا إِخْبَارٌ عَن الله عزَّ وجلَّ ، لَا يرجع من ذكر الْيَد إِلى شَيْء سواهُ تَعَالَى ، ونقرُّ أَنَّ لله تَعَالَى كَمَا قَالَ : يداً ، ويدين ، وأيدي ، وَعيناً ، وَأَعْيُناً ، كَمَا قَالَ عزَّ وجلَّ : **﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾**﴿طه: ٣٩ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : **﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾**﴿الطور: ٤٨ ﴾ ، وَلَا يجوز لأحد أَن يصف الله عزَّ وجلَّ بأَنَّ له عينين ، لأنَّ النَّصَّ لم يأت بذلك ، ونقول : إنَّ المراد بما ذكرنا الله عزَّ وجلَّ لا شيء غيره .

وقال تعالى حاكياً عن قول قائل : **﴿يَا حَسْرَتى عَلى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ الله﴾**﴿الزمر:٥٦﴾ ، وهذا مَعْنَاهُ فِيمَا يقْصد بِهِ الله عزَّ وجلَّ وفي جانب عبادته . وَصَحَّ عَن رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :"وكلتا يَدَيْهِ يَمِين"،"وَعَن يَمِين الرَّحْمَن"، فَهُوَ مثل قَوْله : **﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانكُم﴾**﴿النساء: ٣٦ ﴾ ، يُرِيد : وَمَا ملكتم . وَلَمَّا كَانَت الْيَمين فِي لُغَة الْعَرَب : يُرَاد بهَا الْحَظ للأفضل كَمَا قَالَ الشّماخ :

إِذا مَا رايَة رفعت لمجدٍ تلقَّاها عرابه بِالْيَمِينِ

يُرِيد أَنَّه يتلقَّاها بالسَّعي الأعلى ، كَانَ قَوْله :"وكلتا يَدَيْهِ يَمِين"، أَي : كلُّ مَا يكون مِنْهُ تَعَالَى من الْفَضل فَهُوَ الأعلى .

وَكَذَلِكَ صَحَّ عَن رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ :" لاَ يَزَالُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ العَالَمِينَ قَدَمَهُ" (أخرجه البخاري(٩/ ١٣٤ برقم ٧٤٤٩) ، وَصَحَّ أَيْضاً فِي الحَدِيث :"حَتَّى يَضَعَ فِيْهَا رِجْلَه". أخرجه أبو عوانة في المستخرج(١/ ١٦٠ برقم ٤٦٤) ، مسلم(٤/ ٢١٨٧ برقم ٢٨٤٦) ، وَمعنى هَذَا مَا قد بَيَّنه رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيث آخر صَحِيح أخبر فِيهِ

أَنَّ الله تَعَالَى بعد يَوْم الْقِيَامَة يخلق خلقاً يدخلهم الجنَّة ، وَأَنَّه تعالى يَقُول للجنَّة والنَّار :"لِكُلِّ وَاحِدَة مِنْكُمَا ملؤُهَا"، فَمَعْنَى الْقدَم فِي الحَدِيث الْمَذْكُور إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿**أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾﴿يونس: ٢﴾ ، يُرِيد سالف صِدق ، فمَعْنَاهُ الْأمة الَّتِي تقدَّم فِي علمه تَعَالَى أَنَّه يمْلَأ بهَا جَهَنَّم ، وَمعنى رِجْله مثل ذَلِك ، لِأَنَّ الرِّجل : الجْمَاعَة فِي اللُّغَة ، أَي : يضع فِيهَا الجْمَاعَة الَّتِي قد سبق فِي علمه أَنَّه يمْلَأ جَهَنَّم بهَا .وَكَذَلِكَ الحَدِيث الصَّحِيح : أَنَّ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ :"إِنَّ قلب الْمُؤمن بَين اصبعين من أَصَابع الله عزَّ وجلَّ "، أَي : بَين تدبيرين ونعمتين من تَدْبِير الله عزَّ وجلَّ ونعمه ، أَمَّا كِفَايَة تسرُّهُ ، وأمَّا بلَاء يأجره عَلَيْهِ ، والإصبع فِي اللُّغَة : النِّعْمَة . وقلب كلّ أحد بَين توفيق الله وجلاله ، وَكِلَاهُمَا حكمة . وَأخبر عَلَيْهِ السَّلام : أَنَّ الله يَبْدُو للمؤمنين يَوْم الْقِيَامَة فِي غير الصُّورة الَّتِي عرفوه عليها .

وَهَذَا ظَاهر بَيِّنٌ ، وَهُوَ أَنَّهم يرَوْنَ صُورَة الْحَال من الهول والمخافة غير الذي كانوا يظنُّون فِي الدُّنيا . وبرهان صِحَّة هَذَا القَوْل : قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَدِيث الْمَذْكُور :"غير الَّذِي عرفتموه بهَا "، وبالضَّرورة نعلم أَنَّنا لا نعلم لله عزَّ وجلَّ فِي الدُّنيا صُورَة أصلاً ، فصحَّ ما ذَكَرْنَاهُ يَقِيناً . وَكَذَلِكَ القَوْل فِي الحَدِيث الثَّابِت :"خلق الله آدم على صورته". أخرجه البخاري (٨/ ٥٠ برقم ٦٢٢٧) ، ونصُّ الحديث هو :" خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ، النَّفَرِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلام عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلام عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ". فالكلام برمَّته كلام عن سيدنا آدم عليه السَّلام ، ولا علاقة له بالله تعالى ...

فَهَذِهِ إِضَافَة ملكٍ ، يُرِيد الصُّورة الَّتِي تخيَّرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليَكُون آدم مصوَّراً عَلَيْهَا . وكل فَاضل فِي طبقته ، فَإِنَّهُ ينْسب إِلَى الله عزَّ وجلَّ ، ويُضاف إِليه ، كَمَا يَقُول : بَيت الله عزَّ وجلَّ ، عَن الْكَعْبَة ، والبيوت كلّهَا بيُوت الله تَعَالَى ، وَلَكِن لَا يُطلق على شَيْء مِنْهَا هَذَا الِاسْم ، كَمَا يطلق على الْمَسْجِد الْحَرَام ، وكما نقُول فِي جِبْرِيل وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلام : روح لله ، والأرواح كلُّهَا لله تعالى ، ملك لَهُ ، وكما نقول فِي نَاقَة صَالح عَلَيْهِ السَّلام : ﴿**نَاقَةُ اللهِ**﴾ ، والنُّوق كلّهَا لله تعالى . فعلى هَذَا الْمَعْنى قيل : على صُورَة الرَّحْمَن . والصُّور كلّهَا لله ، وهِيَ ملك لَهُ ، وَخلق لَهُ ...

وَكَذَلِكَ مَا صَحَّ عَن النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن يَوْم الْقِيَامَة : أَنَّ الله عزَّ جلَّ يكْشف عَن سَاق ، فَيَخِرُّونَ سجَّداً ، فَهو كَمَا قَالَ الله عزَّ وجلَّ : **﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُوْدِ﴾**﴿القلم: ٤٢﴾ ، وإِنَّما هذا إِخْبَارٌ عَن شدَّة الْأَمر ، وَهُولِ الْمَوْقف ، كَمَا يُقال : قد شمَّرت الْحَرْب عَن سَاقهَا ، قَالَ جرير :

ألا رُبَّ سامي الطَّرف من آل مَازِن إِذا شمَّرت عَن سَاقهَا الْحَرْب شمرا

وَالْعجب مِمَّن يُنكر هَذِه الْأَخْبَار الصِّحاح ، وإنَّما جاءت بِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآن نصَّاً ، وَلَكِن من ضَاقَ علمه أنكر مَا لَا علم لَهُ بِهِ ، وَقد عَابَ الله هَذَا فَقَالَ : **﴿بل كذبُوا بِمَا لم يحيطوا بِعِلْمِهِ وَلما يَأْتِهِمْ تَأْوِيله﴾**﴿يونس: ٣٩ ﴾ . انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ١٢٧-١٢٩) .

وقال البيهقي(٤٥٨هـ) :"قَالَ الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وأَمَّا الْبَرَاءَةُ مِنَ التَّشْبِيهِ بِإِثْبَاتِ أَنَّه لَيْسَ بِجَوْهَرٍ وَلَا عَرَضٍ، فَلِأَنَّ قَوْماً زَاغُوا عَنِ الْحَقِّ فَوَصَفُوا الْبَارِئَ - جَلَّ وَعَزَّ - بِبَعْضِ صِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه جَوْهَرٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه جِسْمٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْعَرْشِ قَاعِداً ، كَمَا يَكُونُ الْمَلِكُ عَلَى سَرِيرِهِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي وُجُوبِ اسْمِ الْكُفْرِ لِقَائِلِهِ ، كَالتَّعْطِيلِ ، وَالتَّشْرِيكِ ، فَإِذَا أَثْبَتَ الْمُثْبِتُ أَنَّه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّه لَيْسَ بِجَوْهَرٍ ، وَلَا عَرَضٍ ، فَقَدِ انْتَفَى التَّشْبِيهُ ، لأَنَّه لَوْ كَانَ جَوْهَراً أَوْ عَرَضاً لَجَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى سَائِرِ الْجَوَاهِرِ ، وَالْأَعْرَاضِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ جَوْهَراً ، وَلَا عَرَضاً لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْجَوَاهِرِ مِنْ حَيْثُ أَنَّها جَواهِرُ ، كَالتَّأْلِيفِ ، وَالتَّجْسِيمِ أو شَغْلِ الْأَمْكِنَةِ وَالْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ، وَلَا مَا يَجُوزُ عَلَى الْأَعْرَاضِ مِنْ حَيْثُ أَنَّها أَعْرَاضٌ ، كَالْحُدُوثِ ، وَعَدَمِ الْبَقَاءِ".

فالحليمي يؤكِّد ويبرهن على تنزيه الله تعالى عن الجسميَّة ، وعن لوازمها من الحركة والسُّكون ، إذ كلَّ جسم لا ينفكُّ عن الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق ، وهي أعراض ملازمة للأجسام ، ولا تقوم إلَّا بها ، وهي حادثة لتغيرُّها وتبدُّلها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حادث ، والله تعالى واجب الوجود لذاته ، فلا يجوز أن يكون جسْماً أو عَرَضاً ، فلو كان جسْماً أو عَرَضاً لاحتاج للمحلِّ ، وافتقر إليه ، وبالحاجة للمكان يصبح الواجب مفتقراً للغير فيكون ممكناً ، واللازم باطل

فالملزوم مثله ، وبالتَّالي لا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات من الحركة والسُّكون والانتقال من مكان إلى آخر ، فهو تعالى ليس محلاً للحوادث ، فلا يحلُّ بها ولا تحلُّ فيه سبحانه وتعالى ...

وقال أيضاً :"فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَمَا الدَّلِيل عَلَى أَنَّه لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا جَوْهَرٍ ، لَا عَرَضٍ قِيلَ : لأَنَّه لَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ مُؤَلَّفاً . وَالْمُؤَلَّفُ شَيْئَانِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ولَا يَحْتَمِلُ التَّأْلِيفِ ، وَلَيْسَ بِجَوْهَرٍ لِأَنَّ الْجَوْهَرَ هُوَ الْحَامِلُ لِلأَعْرَاضِ ، الْمُقَابِلُ لِلْمُتَضَادَّاتِ ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلاً عَلَى حُدُوثِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ تَعَالَى قَدِيمٌ لَمْ يَزَلْ ، وَلَيْسَ بِعَرَضٍ لِأَنَّ الْعَرَضَ لَا يَصِحُّ بَقَاؤُهُ ، وَلَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ ، - وَهُوَ - سُبْحَانَهُ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ لَمْ يَزَلْ مَوْجُوداً ، فَلَا يَصِحُّ عَدَمُهُ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَإِذَا كَانَ الْقَدِيمُ سُبْحَانَهُ شَيْئاً لَا كَالْأَشْيَاءِ ، مَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَكُونَ جِسْماً لَا كَالْأَجْسَامِ ؟ قِيلَ لَهُ : لَوْ لَزِمَ ذَلِكَ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ صُورَةً لَا كَالصُّوَرِ ، وَجَسَداً لَا كَالْأَجْسَادِ ، وَجَوْهَراً لَا كَالْجَوَاهِرِ ، فَلَمَّا لَمْ يَلْزَمْ ذَلِكَ ، لَمْ يَلْزَمْ هَذَا". انظر : شعب الإيمان (١/ ١٩٠) ، (٢/ ٢٦٣) .

وقال أيضاً :"وفي الجُملة يجب أن يعلم : أنَّ استواء الله سبحانه وتعالى ليس باستواء اعتدال عن اعوجاج ، ولا استقرار في مكان ، ولا مماسَّة لشيء من خلقه ، لكنَّه مستو على عرشه كما أخبر ، بلا كيف بلا أين ، بائن من جميع خلقه ، وأنَّ إتيانه ليس بإتيان من مكان إلى مكان ، وأنَّ مجيئه ليس بحَرَكة ، وأنَّ نزوله ليس بنُقلة ، وأنَّ نفسه ليس بجِسْم ، وأنَّ وجهه ليس بصُورة ، وأنَّ يدَه ليست بجارحة ، وأنَّ عيْنه ليست بحَدَقة ، وإنَّما هذه أوصاف جاء بها التَّوقيف فقلنا بها ونفينا عنها التَّكييف ، فقد قال **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**﴿الشورى: ١١﴾ ، وقال : **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾**﴿الإخلاص: ٤ ﴾ ، وقال : **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾**﴿مريم: ٦٥﴾ . انظر : الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث (ص١١٧) .

وقال أيضاً :"أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا محمَّد أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيَّ يَقُولُ :"حَدِيثُ النُّزُولِ قَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ صَحِيحَةٍ ، وَوَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ مَا يُصَدِّقُهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾**﴿الفجر: ٢٢﴾ ، وَالنُّزُولُ وَالْمَجِيءُ صِفَتَانِ مَنْفِيَّتَانِ عَنِ اللهِ

تَعَالَى مِنْ طَرِيقِ الْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ ، بَلْ هُمَا صِفَتَانِ مِنْ صِفَاتِ الله تَعَالَى بِلَا تَشْبِيهٍ ، جَلَّ اللهُ تَعَالَى عَمَّا تَقُولُ الْمُعَطِّلَةُ لِصِفَاتِهِ ، وَالْمُشَبِّهَةُ بِهَا عُلُوّاً كَبِيراً".

قُلْتُ : وَكَانَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ(٣٨٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ : إِنَّمَا يُنْكِرُ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْحَدِيثِ مَنْ يَقِيسُ الْأُمُورَ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنَ النُّزُولِ الَّذِي هُوَ تَدَلِّي مِنْ أَعْلَى إلى أَسْفَلَ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ فَوْقٍ إلى تَحْتٍ وَهَذِهِ صِفَةُ الْأَجْسَامِ وَالْأَشْبَاحِ ، فَأَمَّا نُزُولُ مَنْ لَا تَسْتَوْلِي عَلَيْهِ صِفَاتُ الْأَجْسَامِ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ غَيْرُ مُتَوَهَّمَةٍ فِيهِ ، وإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَعَطْفِهِ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتِجَابَتِهِ دُعَاءَهُمْ ، وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا يَتَوَجَّهُ عَلَى صِفَاتِهِ كَيْفِيَّةٌ وَلَا عَلَى أَفْعَالِهِ كَمِّيَّةٌ ، سُبْحَانَهُ **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**﴿الشورى: ١١﴾ . انظر : السنن الكبرى (٣/ ٤) .

وقال الخطيب البغدادي(٤٦٣هـ):"وَيَتَجَنَّبُ الْمُحَدِّثُ فِي أَمَالِيهِ رِوَايَةَ مَا لَا تَحْتَمِلُهُ عُقُولُ الْعَوَامِّ ، لِمَا لَا يُؤْمَنُ عَلَيْهِمْ فِيهِ مِنْ دُخُولِ الْخَطَأِ وَالْأَوْهَامِ ، وَأَنْ يُشَبِّهُوا اللهَّ تَعَالَى بِخَلْقِهِ ، وَيُلْحِقُوا بِهِ مَا يَسْتَحِيلُ فِي وَصْفِهِ ، وَذَلِكَ نَحْوُ أَحَادِيثِ الصِّفات الَّتِي ظَاهِرُهَا يَقْتَضِي التَّشْبِيهَ وَالتَّجْسِيمَ ، وَإِثْبَاتَ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ لِلْأَزَلِيِّ الْقَدِيمِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْأَحَادِيثُ صِحَاحاً ، وَلَهَا فِي التَّأْوِيلِ طُرُقٌ وَوُجُوهٌ ،إِلَّا أَنَّ مِنَ حَقِّهَا أَنْ لَا تُرْوَى إِلَّا لِأَهْلِهَا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُضَلَّ بِهَا مَنْ جَهِلَ مَعَانِيَهَا ، فَيَحْمِلُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا أَوْ يَسْتَنْكِرُهَا ، فَيَرُدَّهَا وَيُكَذِّبُ رِوَاتِهَا وَنَقَلَتَهَا".انظر :الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٠٧) .

وقال ابن عبد البرّ(٤٦٣هـ) :"وَقَدْ قَالَ اللهَّ عزَّ وجلَّ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾**﴿الفجر: ٢٢﴾ ، وَلَيْسَ مَجِيئُهُ حَرَكَةً ، وَلَا زَوَالاً ، وَلَا انْتِقَالاً ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ الْجَائِي جِسْماً أَوْ جَوْهراً ، فَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّه لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا جَوْهَرٍ ، لَمْ يَجِبْ أَنْ يَكُونَ مَجِيئُهُ حَرَكَةً وَلَا نَقْلَةً ، وَلَوِ اعْتَبَرْتَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ : جَاءَتْ فُلَاناً قِيَامَتُهُ ، وَجَاءَهُ الْمَوْتُ ، وَجَاءَهُ الْمَرَضُ ، وَشِبْهُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ نَازِلٌ بِهِ وَلَا مَجِيءَ لَبَانَ لَكَ ، وَبِاللهَّ الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ". انظر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧/ ١٣٧) .

وقال القُشيري(٤٦٥هـ) في"الرِّسالة القشيريَّة"(ص١١-١٢) عند ذكره لعقيدة الصُّوْفيَّة :"وَهَذِهِ فصول تشتمل عَلَى بيان عقائدهم فِي مسائل التَّوحيد ، ذكرناها عَلَى وجه التَّرتيب . قَالَ شيوخ هذه الطَّريقة عَلَى مَا يدلُّ عَلَيْهِ متفرّقاتُ كلامهم ومجموعاتها ومصنَّفاتهم فِي التَّوحيد : أَنَّ الحقَّ سبحانه

وتعالى موجودٌ ، قديمٌ ، واحدٌ ، حَكِيمٌ ، قادرٌ ، عليمٌ ، قاهرٌ ، رحيمٌ ، مُريدٌ ، سميعٌ ، مجيدٌ ، رفيعٌ ، متكلِّمٌ ، بصيرٌ ، متكبِّرٌ ، قديرٌ ، حيٌّ ، أحدٌ ، باقٍ ، صمد، وأنَّه عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مريد بإرادة ، سميع بسمع ، بصيرٌ ببصر ، متكلِّمٌ بكلام ، حيٌّ بحياة ، باقٍ ببقاء ، وَلَهُ يدان ، هما صفتان يخلق بهما مَا يشاء سبحانه عَلَى التَّخصيص ، وَلَهُ الوجه الجميل وصفات ذاته مختصَّة بذاته ، لا يقال هِيَ وَهُوَ ، ولا هِيَ أغيار لَهُ ، بَل هِيَ صفات لَهُ أزليَّة ونعوت سرمديَّة ، وأنَّه أحديُّ الذَّات لَيْسَ يشبه شيئاً من المصنوعات ، ولا يشبهه شَيْء من المخلوقات ، لَيْسَ بجسْم ، ولا جوهر ، ولا عَرَض ، ولا صفاته أعراض ، ولا يتصوَّر فِي الأوهام ولا يتقدَّر فِي العقول ، ولا لَهُ جهة ولا مكان ، ولا يجري عَلَيْهِ وقت وزمان ، ولا يَجُوز فِي وصفه زيادة ولا نقصان ، ولا يخصّه هيئة وَقَدْ ، ولا يقطعه نهاية وحدٌّ ، ولا يحلُّه حادث ، ولا يحمله عَلَى الفعل باعثٌ ، ولا يَجُوز عَلَيْهِ لون ، ولا كون ، ولا ينصره مددٌ ولا عون ، ولا يخرج عَن قدرته مقدورٌ ، ولا ينفكُّ عَن حكمه مفطور ، ولا يعزب عَن علمه معلوم ، ولا هُوَ عَلَى فعله كَيْفَ وَمَا يصنع ملوم ، لا يقال لَهُ أين ، ولا حيث ، ولا كَيْفَ ، ولا يستفتح لَهُ وجود ، فيقال : مَتَى كَانَ ، ولا ينتهي لَهُ بقاء ، فيقال : استوفى الأجل والزَّمان ، ولا يقال : لِمَ فعل مَا فعل ، إذ لا علَّة لأفعاله ، ولا يقال : مَا هُوَ إذ لا جنس لَهُ فيتميَّز بأمارة عَن أشكاله ، يرى لا عَن مقابلة ويرى غيره لا عَن مماقلة ، ويصنع لا عَن مباشرة ومزاولة ، لَهُ الأسماء الحسنى والصِّفات العلا ، يفعل مَا يريد ، ويذلّ لحكمه العبيد ، لا يجري فِي سلطانه إلَّا مَا يشاء ، ولا يحصل فِي ملكه غَيْر مَا سبق بِهِ الْقَضَاء ، مَا علم أنَّه يكُون من الحادثات أراد أَن يَكُون وَمَا علم أنَّه لا يَكُون مِمَّا جاز أَن يَكُون أراد أَن لا يَكُون".

وقال في"الرِّسالة القشيريَّة"(١/ ٢٥) :"وسمعت الإِمَام أبا بَكْر بْن فورك(٤٤٩هـ) رحمه اللهَّ تعالى يَقُول : سمعت أبا عُثْمَان المغربي(٣٧٣هـ) يَقُول : كنتُ أعتقد شَيْئاً من حَدِيث الجهة ، فلمَّا قدمت بغداد زال ذَلِكَ عَن قلبي ، فكتبت إلى أَصْحَابنا بمكَّة : إنِّي أسلمت الآن إسلاماً جديداً".

وقال الاسفراييني(٤٧١هـ) :"... وَأَن تعلم أَنَّ الْقَدِيم سُبْحَانَهُ لَيْسَ بجِسْم ، وَلَا جَوْهَر ، لِأَنَّ الجِْسْم يكون فِيهِ التَّأْلِيف ، والجوهر يجوز فِيهِ التَّأْلِيف والاتِّصال ، وكلُّ مَا كَانَ لَهُ الاتِّصال أَو جَازَ

عَلَيْهِ الاتِّصال يكون لَهُ حدٌّ وَنِهَايَة . وَقد دلَّلنا على اسْتِحَالَة الْحَدِّ وَالنِّهَايَة على الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَقد ذكر الله تَعَالَى فِي صفة الْجِسْم : الزِّيَادَة ، فَقَالَ : وزاده بسطة فِي الْعلم والجسم ، فَبيَّن أَنَّ مَا كَانَ جسْماً جَازَت عَلَيْهِ الزِّيَادَة وَالنُّقْصَان ، وَلَا تجوز الزِّيَادَة وَالنُّقْصَان على الْبَارِي سُبْحَانَهُ".

وقال أيضاً : "... وأن تعلم أنَّ الحركة ، والسُّكون ، والذَّهاب ، والمجيء ، والكون في المكان ، والاجتماع ، والافتراق ، والقُرب ، والبُعد من طريق المسافة ، والاتِّصال ، والانفصال ، والحجم ، والجِرم ، والجثَّة ، والصُّورة ، والحيِّز ، والمقدار ، والنَّواحي ، والأقطار ، والجوانب ، والجهات كلُّها لا تجوز عليه تعالى ، لأنَّ جميعها يوجب الحدَّ والنهاية . وقد دلَّلنا على استحالة ذلك على الباري سبحانه وتعالى . وأصل هذا في كتاب الله تعالى ، وذلك أنَّ إبراهيم عليه السَّلام لمَّا رأى هذه العلامات على الكواكب والشَّمس والقمر ، قال : ﴿**لَا أُحِبُّ الآفِلِيْنَ**﴾﴿الأنعام: ٧٦﴾ ، فبيَّن أنَّ ما جاز عليه تلك الصِّفات لا يكون خالقاً". انظر : التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٥٩) ،(ص١٦٠) بالترتيب .

وقال المتولِّي النَّيسابوري الشَّافعي(٤٧٨هـ) :"الباري تعالى ليس بجِسْم ، وذهبت الكرَّاميَّة إلى أنَّ الله تعالى جسم ، والدَّليل على فساد قولهم : أنَّ الجسم في اللغة بمعنى التَّأليف واجتماع الأجزاء ، والدَّليل عليه : أنَّه نقول عند زيادة الأجزاء وكثرة التَّأليف : جسم وأجْسَمُ ، كما يقال عند زيادة العلم : عليمٌ وأعلم ، وقال تعالى : وزاده بسطه في العلم والجسم ، فلمَّا كان وصف المبالغة كزيادة التَّأليف ، دلَّ على أنَّ أصل الاسم للتَّأليف ، فإذا ثبت ما ذكرنا بطل مذهبهم ، لأنَّ الله تعالى لا يجوز عليه التَّأليف". انظر : الغنية في أصول الدِّين (ص٨٠-٨١) .

وقال الجويني(٤٧٨هـ) :"من انتهض لطلب مدبِّره ، فإن اطمأنَّ إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مشبِّه ، وإن اطمأنَّ إلى النَّفي المحض فهو معطِّل ، وإن قطع بموجود ، واعترف بالعجز عن دَرْك حقيقتــه فهو موحِّد". انظر : العقيدة النظاميَّة في الأركان الإسلاميَّة (ص٢٣) .

وقال أبو حامد الغزالي(٥٠٥هـ) :"الأصل الرَّابع : العلم بأنَّه تعالى ليس بجوهر يتحيَّز ، بل يتعالى ويتقدَّس عن مناسبة الحيِّز .

وبرهانه : أنَّ كلَّ جوهر متحيِّز فهو مختصٌّ بحيِّزه ، ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحرِّكاً عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السُّكون ، وهما حادثان ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . ولو تصوّر جوهر متحيِّز قديم ، لكان يعقل قدم جواهر العالم ، فإن سمَّاه مسم جوهراً ولم يرد به المتحيِّز ، كان مخطئاً من حيث اللفظ لا من حيث المعنى .

الأصل الخامس : العلم بأنَّه تعالى ليس بجسم مؤلَّف من جواهر ، إذ الجسم عبارة عن المؤلَّف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهراً مخصوصاً بحيِّز ، بطل كونه جسماً ، لأنَّ كلَّ جسم مختصٍّ بحيِّز ومركَّب من جوهر ، فالجوهر يستحيل خلُّوه عن الافتراق ، والاجتماع ، والحركة ، والسُّكون ، والهيئة ، والمقدار ، وهذه سمات الحدوث . ولو جاز أن يعتقد أنَّ صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهيَّة للشَّمس والقمر أو لشيء آخر من أقسام الأجسام". انظر : إحياء علوم الدِّين (١/ ١٠٦-١٠٧) .

وقال أيضاً :"الدَّعوى الثَّامنة : ندَّعي أنَّ الله تعالى منزَّه عن أن يوصف بالاستقرار على العرش ، فإنّ كلّ متمكِّن على جسم ومستقر عليه مقدَّر لا محالة ، فإنَّه أمَّا أن يكون أكبر منه أو أصغر أو مساوياً ، وكلُّ ذلك لا يخلو عن التَّقدير ، وأنَّه لو جاز أن يماسّه جسم من هذه الجهة ، لجاز أن يماسّه من سائر الجهات فيصير مُحاطاً به ، والخصم لا يعتقد ذلك بحال ، وهو لازم على مذهبه بالضَّرورة ، وعلى الجملة : لا يستقرُّ على الجسم إلَّا جسم ، ولا يحلُّ فيه إلا عرضٌ ، وقد بان أنَّه تعالى ليس بجسم ولا عَرَض ، فلا يحتاج إلى إقران هذه الدَّعوى بإقامة البرهان". انظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٣٨)

وقال أيضاً :"... وَأَنَّه لَيْسَ بجسم مُصَور ، وَلَا جَوْهَر مَحْدُود مُقَدّر ، وَأَنَّه لَا يماثل الْأَجْسَام ، لَا فِي التَّقْدِير وَلَا فِي قبُول الانقسام ، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر ، وَلَا تحلُّه الْجَوَاهِر ، وَلَا بِعرَض ، وَلَا تحلُّه الْأَعْرَاض ، بل لَا يماثل مَوْجُوداً ، وَلَا يماثله مَوْجُود ، لَيْسَ كمثله شَيْء ، وَلَا هُوَ مثل شَيْء ، وَأَنَّه لَا يحدُّه الْمِقْدَار ، وَلَا تحويه الأقطار ، وَلَا تحيط بِهِ الْجِهَات ، وَلَا تكتنفه الأرضون وَلَا السَّموات ، وَأَنَّه مستوي على الْعَرْش ، على الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنى الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، لَا يحملهُ الْعَرْش ، بل الْعَرْش وَحَمَلته ، محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فِي قَبضته ، وَهُوَ فَوق الْعَرْش وَالسَّمَاء ، وَفَوق كل شَيْء إلى تُخوم الثَّرى ، فوقيَّة

لَا تزيده قرباً إِلى الْعَرْش وَالسَّمَاء ، كَمَا لَا تزيده بُعداً عَن الأَرْض وَالثَّرَى ، بل هُوَ رفيع الدَّرَجَات عَن الْعَرْش وَالسَّمَاء ، كَمَا أَنَّه رفيع الدَّرَجَات عَن الأَرْض وَالثَّرَى ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك قريب من كلِّ مَوْجُود ، وَهُوَ أقرب إِلى العَبْد من حَبل الوريد ، وَهُوَ على كلِّ شَيْء شَهِيد ، إِذا لَا يماثل قُربه قُرب الْأَجْسَام ، كَمَا لَا تماثل ذَاته ذَات الْأَجْسَام ، وَأَنَّه لَا يحلُّ فِي شَيْء ، وَلَا يحلُّ فِيهِ شَيْء".

وقال أيضاً :"الْعِلْمُ بِأَنَّه تَعَالَى لَيْسَ بجسم مؤلَّف من جَوَاهِر ، إِذْ الْجِسْم عبارَة عَن الْمُؤلَّف من الْجَوَاهِر ، وَإِذ بَطل كَونه جوهراً مَخْصُوصاً بحيِّز ، بَطل كَونه جسماً ، لِأَنَّ كلّ جسم مُخْتَصّ بحيِّز ومركَّب من جَوْهَر ، فالجوهر يَسْتَحِيل خلوُّه عَن الِافْتِرَاق والاجتماع ، وَالْحَرَكَة والسُّكون ، والهيئة والمقدار ، وَهَذِه سمات الْحُدُوث ، وَلَو جَازَ أَن يعْتَقد أَنَّ صانع الْعَالم جسم ، لجَاز أَن يعْتَقد الإلهيَّة للشَّمس وَالْقَمَر أَو لشَيْء آخر من أَقسَام الْأَجْسَام ، فَإِن تجاسر متجاسرٌ على تَسْمِيَته تَعَالَى جسماً من غير إِرَادَة التَّأْلِيف من الْجَوَاهِر ، كَانَ ذَلِك غَلطاً فِي الِاسْم مَعَ الْإِصَابَة فِي نفي معنى الْجِسْم".

وقال أيضاً :" الأَصْل السَّادِس التَّنَزُّه عَن كَونه عرَضاً : الْعلم بِأَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِعرَض قَائِم بجسم أَو حَال فِي مَحَلٍّ ، لِأَنَّ الْعرَض مَا يحلُّ فِي الْجِسْم ، فَكلُّ جسم فَهُوَ حَادث لَا محَالة ، وَيكون محدِثُه مَوْجُوداً قبله ، فَكيف يكون حَالاً فِي الْجِسْم ، وَقد كَانَ مَوْجُوداً فِي الْأَزَل وَحده ؟!!! وَمَا مَعَه غَيره ثمَّ أحدث الْأَجْسَام والأعراض بعده .

وَلِأَنَّهُ عَالم قَادر مُرِيد خَالق ، وَهَذِه الْأَوْصَاف تستحيل على الْأَعْرَاض ، بل لَا تعقل إِلَّا لموجود قَائِم بِنَفسِهِ ، مُسْتَقل بِذَاتِهِ ، وَقد تحصَّل من هَذِه الْأُصُول أَنَّه مَوْجُود قَائِم بِنَفسِهِ ، لَيْسَ بجوهر ، وَلَا جسم ، وَلَا عرَض ، وَأَنَّ الْعَالم كُلّه جَوَاهِر وأعراض وأجسام ، فَإِذاً لَا يشبه شَيْئاً ، ولَا يُشبههُ شَيْء ، بل الْحَيّ القيوم الَّذِي لَيْسَ كمثله شَيْء ، وأنى يشبه الْمَخْلُوق خالقه ، والمقدور مقدِّره ، والمصوَّر مصوِّره ، والأجسام والأعراض كلّهَا من خلقه وصنعه ، فاستحال الْقَضَاء عَلَيْهَا بمماثلته ومشابهته .

الأَصْل السَّابع : الْعلم بِأَنَّ الله تَعَالَى منزَّه الذَّات عَن الِاخْتِصَاص بالجهات :

فَإِنَّ الْجِهَة : أمَّا فَوق وأمَّا أَسْفَل وأمَّا يَمِين وأمَّا شمال أَو قُدَّام أَو خلف ، وَهَذِه الْجِهَات هُوَ الَّذِي خلقهَا وأحدثها بِوَاسِطَة خلق الْإِنْسَان ، إِذْ خلق لَهُ طرفين ، أَحدهمَا : يعْتَمد على الأَرْض ، وَيُسمَّى رِجلاً ، وَالْآخر يُقَابله وَيُسمَّى رَأْساً ، فَحدث اسْم الفوق لما يَلِي جِهَة الرَّأْس ، وَاسم السّفل لما يَلِي جِهَة الرِّجل ، حتَّى إِنَّ النَّملة الَّتِي تدبُّ منكَّسة تَحت السّقف ، تنْقَلب جِهَة الفوق فِي حَقّهَا تحتاً ، وَإِن كَانَ فِي حَقّنا فوقاً ، وَخلق للْإنْسَان الْيَدَيْنِ وإحداهما أقوى من الْأُخْرَى فِي الْغَالِب ، فَحدث اسْم الْيَمين للأقوى ، وَاسم الشِّمال لما يُقَابله ، وَتسَمَّى الْجِهَة الَّتِي تلِي الْيَمين يَمِيناً ، وَالْأُخْرَى شمالاً ، وَخلق لَهُ جانبين يبصر من أَحدهمَا ويتحرَّك إِلَيْهِ ، فَحدث اسْم القدام للجهة الَّتِي يتَقَدَّم إِلَيْهَا بالحركة ، وَاسم الْخلف لما يقابلها ، فالجهات حَادِثَة بحدوث الْإِنْسَان ، وَلَو لم يخلق الْإِنْسَان بِهَذِهِ الْخلقَة ، بل خلق مستديراً كالكرة ، لم يكن لهَذِهِ الْجِهَات وجود ألبته ، فَكيف كَانَ فِي الْأَزَل مُخْتَصّاً بِجِهَة ، والجهة حَادِثَة أَو كَيفَ صَار مُخْتَصّاً بِجِهَة بعد أَن لم يكن لَهُ ؟ أبأن خلق الْعَالم فَوْقه ، وَتَعَالَى عَن أَن يكون لَهُ فَوق ، إِذْ تَعَالَى أَن يكون لَهُ رَأس ، والفوق عبارَة عَمَّا يكون جِهَة الرَّأْس ، أَو خلق الْعَالم تَحْتَهُ ، فتعالى عَن أَن يكون لَهُ تَحت ، إِذْ تَعَالَى عَن أَن يكون لَهُ رِجل ، والتَّحت عبارَة عَمَّا يَلِي الرِّجل ، وكلّ ذَلِك مِمَّا يَسْتَحِيل فِي الْعقل ، وَلِأَنَّ الْمَعْقُول من كَونه مُخْتَصّاً بِجِهَة أَن مُخْتَصّ بحيِّز اخْتِصَاص الْجَوَاهِر ، أَو مُخْتَصّ بالجواهر اخْتِصَاص الْعرَض ، وَقد ظهر اسْتِحَالَة كَونه جوهراً أَو عرَضاً ، فاستحال كَونه مُخْتَصّاً بالجهة ، وَإِن أُرِيد بالجهة غير هذَيْن الْمَعْنيين كَانَ غَلطاً فِي الِاسْم مَعَ المساعدة على الْمَعْنى ، وَلِأَنَّهُ لَو كَانَ فَوق الْعَالم لَكَانَ محاذياً لَهُ ، وكلُّ محاذ لجسم ،فإمَّا أَن يكون مثله أَو أَصْغَر أَو أكبر ، وكلُّ ذَلِك تَقْدِير محوج بِالضَّرُورَةِ إِلَى مُقَدّر ، ويتعالى عَنهُ الْخَالِق الْوَاحِد الْمُدبر .

فَأَمَّا رفع الْأَيْدِي عِنْد السُّؤَال إِلَى جِهَة السَّماء ، فَهُوَ لِأَنَّهَا قبْلَة الدُّعَاء ، وَفِيه أَيْضاً إِشَارَة إِلَى مَا هُوَ وصف للمدعو من الْجلَال والكبرياء وتنبيهاً بِقصد جِهَة الْعُلُوّ على صفة الْمجد والْعَلَاء ، فَإِنَّهُ تَعَالَى فَوق كلِّ مَوْجُود بالقهر والاستيلاء ". انظر : قواعد العقائد(ص١٦٠-١٦٥) ،(ص٥١-٥٣) ،(ص١٥٩) بالترتيب .

وقال أيضاً :"الدَّعوى الخامسة : ندَّعي أنَّ صانع العالم ليس بجسم ، لأنَّ كلَّ جسم فهو متألِّف من جوهرين متحيِّزين ، وإذا استحال أن يكون جوهراً استحال أن يكون جسماً ، ونحن لا نعني بالجسم إلَّا هذا .

فإن سمَّاه جسْماً ولم يرد هذا المعنى كانت المضايقة معه بحقِّ اللغة أو بحقِّ الشَّرع لا بحقِّ العقل ، فإنَّ العقل لا يحكم في إطلاق الألفاظ ونظم الحروف والأصوات التي هي اصطلاحات ، ولأنَّه لو كان جسماً لكان مقدَّراً بمقدار مخصوص ، ويجوز أن يكون أصغر منه أو أكبر ، ولا يترجَّح أحد الجائزين عن الآخر إلَّا بمخصِّص ومرجِّح ، كما سبق ، فيفتقر إلى مخصِّص يتصرَّف فيه فيقدِّره بمقدار مخصوص ، فيكون مصنوعاً لا صانعاً ومخلوقاً لا خالقاً". انظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٣٢) .

وقال أيضاً :"اعْلَمْ أَنَّ الْحَقَّ الصَّحِيحَ الَّذِي لَا مِرَاءَ فِيهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَصَائِرِ ، هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ أَعْنِي مذهب الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ ... حَقِيقَةُ مَذْهَبِ السَّلَفِ ، وَهُوَ الْحَقُّ عِنْدَنَا : أَنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ حَدِيثٌ مِنْ هَذِهِ الْأَخْبَارِ مِنْ عَوَامِّ الْخَلْقِ يَجِبُ عَلَيْهِ فيه سَبْعَةُ أُمُورٍ : التَّقْدِيسُ ثمَّ التَّصْدِيقُ ثمَّ الِاعْتِرَافُ بِالْعَجْزِ ثمَّ السُّكُوتُ ثمَّ الْكَفُّ ثمَّ الْإِمْسَاكُ ثمَّ التَّسْلِيمُ لِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ .

أَمَّا التَّقْدِيسُ ، فأعني به تَنْزِيهُ الرَّبِّ تعالى عَنِ الْجِسْمِيَّةِ وَتَوَابِعِهَا ...". انظر : إلجام العوام عن علم الكلام (ص٤) .

وقال أيضاً :"... أمَّا إذا كفر ببدعته ، فعند ذلك لا يُعتبر خلافه إن كان يصلِّي إلى القبلة ويعتقد نفسه مسلماً ، لأنَّ الأُمَّة ليست عبارة عن المصلِّين إلى القبلة ، بل عن المؤمنين ، وهو كافر ، وإن كان لا يدري أنَّه كافر ، نعم لو قال بالتَّشبيه والتَّجسيم وكفَّرناه ، فلا يستدلُّ على بطلان مذهبه بإجماع مخالفيه على بطلان التَّجسيم مصيراً إلى أنَّهم كلّ الأُمَّة ؛ لأنَّ كونهم كلّ الأُمَّة موقوف على إخراج هذا من الأُمَّة ، والإخراج من الأُمَّة موقوف على دليل التَّكفير ، فلا يجوز أن يكون دليل تكفيره ما هو موقوف على تكفيره ، فيؤدِّي إلى إثبات الشَّيء بنفسه ...". انظر : المستصفى (ص١٤٥) .

وقال أبو الحسين ابن أبي يعلى(٥٢٦هـ) :"وقد قَالَ الوالد السَّعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي أخبار الصِّفات : المذهب فِي ذَلِكَ : قبول هَذِهِ الأحاديث عَلَى ما جاءت به من غير عدول عَنْهُ إلى تأويل يخالف

ظاهرها ، مَعَ الاعتقاد بأنَّ اللهَّ سبحانه بخلاف كلِّ شيء سواه ، وكلّ ما يقع في الخواطر من حدٍّ أو تشبيه أو تكييف : فالله سبحانه وتعالى عن ذَلِكَ ، وَاللهَّ ليس كمثله شيء ، ولا يوصف بصفات المخلوقين الدالَّة عَلَى حدَثهم ، ولا يجوز عَلَيْهِ ما يجوز عليهم من التغيُّر من حال إلى حال ، ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا عرَض ، وأنَّه لم يزل ، ولا يزال ، وأنَّه الَّذِي لا يتصوَّر فِي الأوهام ، وصفاته لا تشبه صفات المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾﴿الشورى: ١١﴾ ...

قَالَ أَحْمَد : لا يوصف اللهَّ تعالى بأكثر ممَّا وصف به نفسه .

قَالَ الوالد السَّعيد : فمن اعتقد أنَّ اللهَّ سبحانه جسمٌ من الأجسام ، وأعطاه حقيقة الجسم من التَّأليف والانتقال : فهو كافر ، لأنَّه غير عارف بالله عزَّ وجلَّ ، لأنَّ اللهَّ سبحانه يستحيل وصفه بهذه الصِّفات ، وَإِذَا لم يعرف اللهَّ سبحانه : وجب أن يكون كافراً". انظر : طبقات الحنابلة (٢/ ٢١٠-٢١٢) .

وقال أبو عبد الله المازري المالكي (٥٣٦هـ) :"... واعلم أنَّ هذا الحديث غلِط فيه ابن قتيبة وأجراه على ظاهره ، وقال :"فإنَّ الله سبحانه له صورة لا كالصُّور ، وأجرى الحديث على ظاهره"، والذي قاله لا يخفى فساده ، لأنَّ الصُّورة تفيد التَّركيب ، وكلُّ مركَّبٍ مُحدَث ، والباري سبحانه وتعالى ليس بمحْدَث ، فليس بمركَّب ، وما ليس بمركَّب فليس بمصوَّر . وهذا من جنس قول المبتدعة : إنَّ الباري عزَّ وجلَّ جسم لا كالأجسام ، لمَّا رأوا أهل السُّنَّة ، يقولون : الباريء سبحانه شيء لا كالأشياء ، طرَّدوا هذا ، فقالوا : جسم لا كالأجسام ، وقال ابن قتيبة : صورة لا كَالصُّوَر . والفَرق بَين مَا قلنَاه وَمَا قَالوه : أنَّ لفظة شيء لا تُفيد الحدوث ، ولا تتضمَّن ما يقتضيه . وقولنا : جسم وصورَة يتضمَّنَان التَّأليف والتَّركيب ، وذلك دليل الحدوث". انظر : المُعْلم بفوائد مسلم (٣/ ٢٩٩) .

وقال الزَّمخشري (٥٣٨هـ) :"... على أنَّ الجزء إنَّما يصح في الأجسام ، وهو متعالٍ عن صفات الأجسام والأعراض".

وقال أيضاً :"... والله تعالى منزَّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام". انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (١/ ٦٢٧) ، (٤/ ٣٣٧) بالترتيب .

وقال أبو الثَّناء محمود بن زيد اللاَّمشي الحنفي الماتريدي (كان حياً ٥٣٩هـ) في "كتاب التَّمهيد لقواعد التَّوحيد" (ص٥٩-٦٠) في ردِّه على من قالوا :"جسم لا كالأجسام":"والطَّائفة الثَّانية وهم القائلون بأنَّه جسم لا كالأجسام يقولون : إنَّ الله تعالى فاعلٌ ولا فاعل في الشَّاهد إلَّا جسمٌ فكذلك في الغائب .

وقلنا : هذا استدلالٌ فاسد لأنَّه لا فاعل في الشَّاهد إلَّا وهو جسمٌ متركِّبٌ متجزِّئ كسائر الأجسام . والله تعالى جسمٌ عندهم وإنَّه ليس بمتجزِّئ متركِّبٌ .

ثمَّ إنَّهم ناقضوا في ما قالوا ، لأنَّ الجسم اسم للمتركِّب لما مرّ، فإثبات الجسم إثبات التَّركيب ونفي التَّركيب نفي الجسم، فصار قولهم:"جسم لا كالأجسام"كقولهم:"متركِّب وليس بمتركِّب"، وهذا تناقض بَيِّنٌ بخلاف قولنا: شيء لا كالأشياء، لأنَّ الشَّيء ليس باسم للمتركِّب وليس يُنبئ عن ذلك وإنَّما يُنبئ عن مطلق الوجود، فلم يكن قولنا: لا كالأشياء، نفيًا لمطلق الوجود بل يكون نفيًا لما وراء الوجود من التَّركيب وغيره من أمارات الحدث، فلم يكن ذلك متناقضًا ولله الحمد والمنَّة . وإذا ثبت أنَّ الله تعالى لا يوصف بالجسم فلا يُوصف بالصُّورة أيضًا ، لأنَّ الصُّورة لا وجود لها بدون التَّركيب".

وقال القاضي عياض (٥٤٤هـ) :"والله سبحانه ليس بجسم ، ولا يجوز عليه تنقُّل ولا حركة ولا سكون". انظر : إكمال المعلم شرح صحيح مسلم (٨/ ٨٥) .

وقال أيضاً :"والله تعالى منزَّه عن الجسميَّة وصفات المخلوقات". انظر : مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ٢٤٦)

وقال الشَّهرستاني (٥٤٨هـ) :"القاعدة الرَّابعة : في إبطال التَّشبيه :

وفيها الرَّدُّ على أصحاب الصُّور ، وأصحاب الجهة والكراميَّة في قولهم : إنَّ الربَّ تعالى محلٌّ للحوادث . فمذهب أهل الحقِّ أنَّ الله سبحانه لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء منها بوجه من وجوه المشابهة والمماثلة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾﴿الشورى: ١١ ﴾ ، فليس

الباري سبحانه بجوهر ، ولا جسم ، ولا عَرَض ، ولا في مكان ، ولا في زمان ، ولا قابل للأعراض ، ولا محلٍّ للحوادث ...". انظر : نهاية الإقدام في علم الكلام (ص٦٣) .

وقال ابن عساكر (٥٧١هـ) :"الْفَصْل الأوَّل : فِي تَرْجَمَة عقيدة أهل السُّنَّة ... وَأَنَّه لَيْسَ بجسم مُصَوَّر ، وَلَا جَوْهَر مَحْدُود مُقَدّر ، وَأَنَّه لَا يماثل الْأَجْسَام لَا فِي التَّقْدِير وَلَا فِي قبُول الانقسام ، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر ، وَلَا تحلُّه الْجَوَاهِر ، وَلَا بِعَرَض وَلَا تحلُّه الْأَعْرَاض ، بل لَا يماثل مَوْجُوداً وَلَا يماثله مَوْجُود ، وَلَيْسَ كمثله شَيْء ، وَلَا هُوَ مثل شَيْء ، وَأَنَّه لَا يحدُّه الْمِقْدَار ، وَلَا تحويه الأقطار ، وَلَا تحيط بِهِ الْجِهَات ، وَلَا تكتنفه الأرضون وَالسَّمَوَات ، وَأَنَّه اسْتَوَى على الْعَرْش على الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنى الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، لَا يحملهُ الْعَرْش ، بل الْعَرْش وَحَمَلته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فِي قَبضته ، وَهُوَ فَوق الْعَرْش وَفَوق كلِّ شَيْء إِلى تخوم الثَّرى ، فوقيَّة لَا تزيده قرباً إِلَى الْعَرْش والسَّما ، بل هُوَ رفيع الدَّرَجَات عَن الْعَرْش ، كَمَا أَنَّه رفيع الدَّرَجَات عَن الثَّرى ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك قريبٌ من كل مَوْجُود ، وَهُوَ أقرب إِلى العبيد من حَبل الوريد ، وَهُوَ على كلِّ شَيْء شَهِيد ، إِذ لَا يماثِلُ قُربه قرب الْأَجْسَام ، كَمَا لَا تماثل ذَاته ذَات الْأَجْسَام ، وَأَنَّه لَا يحلُّ فِي شَيْء ، وَلَا يحلُّ فِيهِ شَيْء ، تَعَالَى عَن أَن يحويه مَكَان ، كَمَا تقدَّس عَن أَن يحدُّه زمَان ، كَان قبل أَن خلق الزَّمَان وَالْمَكَان ، وَهُوَ الْآن على مَا عَلَيْهِ كَانَ ، وَأَنَّه بَائِن من خلقه بصفاته ، وَلَيْسَ فِي ذَاته سواهُ ، وَلَا فِي سواهُ ذَاته ، وَأَنَّه مقدَّس عَن التَّغَيُّر والانتقال ، لَا تحلُّه الْحَوَادِث ، وَلَا تعتريه الْعَوَارِض ، بل لَا يزَال فِي نعوت جَلَاله منزَّهاً عَن الزَّوَال ، وَفِي صِفَات كَمَاله مستغنياً عَن زِيَادَة الاستكمال ...".

وقال أيضاً في كلامه عن الأشاعرة :"فيا ليت شعري ، مَاذَا الَّذِي تنفر مِنْهُ الْقُلُوب عَنْهُم ؟ أم مَاذَا ينقم أَرْبَاب الْبدع مِنْهُم ؟ أغزارة الْعلم ، أم رجاحة الْفَهم ؟ أم اعْتِقَاد التَّوحيد والتَّنزيه ؟ أم اجتنَاب القَوْل بالتَّجسيم والتَّشبيه ؟ أم القَوْل بِإِثْبَات الصِّفات ؟ أم تقديس الرَّبِّ عَن الْأَعْضَاء والأدوات ؟ أم تثبيت الْمَشِيئَة للهِ وَالْقدر ؟ أم وَصفه عزَّ وجلَّ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَر ؟ أم القَوْل بقدم

الْعلم وَالْكَلَام ؟ أم تنزيههم الْقَدِيم عَن صِفَات الْأَجْسَام". انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٢٩٩-٣٠٠) ، (ص٣٦٧) بالترتيب .

وقال جمال الدِّين الغزنوي الحنفي (٥٩٣هـ) :"صانع الْعَالم لَيْسَ بجسم ، لِأَنَّ الْجِسْم مؤلَّف من الْجَوْهَر ، وَإِذا بَطل كَونه جوهراً ، بَطل كَونه جسماً ضَرُورَة". انظر : كتاب أصول الدِّين (ص٦٧-٦٨) .

وقال ابن الجوزي الحنبلي (٥٩٧هـ) :"قال ابن عقيل (٥١٣هـ) : تعالى الله أن يكون له صفة تشغل الأمكنة . هذا عين التَّجسيم ، وليس الحقُّ بذي أجزاء وأبعاض يعالج بها . ثمَّ أليس يعملُ في النَّار أمرُه وتكوينه ؟!!! فكيف يستعينُ بشيء من ذاته ويعالجها بصفة من صفاته ، وهو القائل : **﴿يَا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ﴾**﴿الأنبياء:٦٩﴾ ، فما أسخف هذا الاعتقاد وأبعده عن مكوِّن الأملاك والأفلاك ، فقد كذَّبهم الله ، فكيف يُظن بالخالق أنَّه يَرِدُها ؟ !! تعالى الله عن تجاهل المجسِّمة". انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١٧٤) .

وقال أيضاً :"... والواجب على الخلق اعتقاد التَّنزيه وامتناع تجويز النُّقلة ، وأنَّ النُّزول الذي هو انتقال من مكان إلى مكان يفتقر إلى ثلاثة أجسام : جسمٌ عالي ، وهو مكان السَّاكن ، وجسمٌ سافل ، وجسمٌ ينتقل من علوٍّ إلى أسفل ، وهذا لا يجوز على الله تعالى قطعاً .

فإن قال العاميُّ : فما الذي أراد بالنُّزول ؟ قيل : أراد به معنى يليق بجلاله ، لا يلزمك التَّفتيش عنه . فإن قال : كيف حدَّث بما لا أفهمه ؟ قلنا : قد علمت أنَّ النَّازل إليك قريب منك ، فاقتنع بالقرب ولا تظنُّه كقُرب الأجسام". انظر : دفع شبه التشبيه بأكفِّ التنزيه (ص١٩٤-١٩٦) .

وقال أيضاً :"وقد وقف أقوام مَعَ الظَّواهر ، فحملوها عَلَى مقتضى الحسِّ ، فَقَالَ بعضهم : إنَّ اللهَّ جسم ، تعالى اللهَّ عَنْ ذلك ، وهذا مذهب هشام بْن الحكم (١٩٩هـ) ، وعلي بْن منصور ومحمد بْن الخليل ويونس بْن عَبْدِ الرَّحْمَن ، ثمَّ اختلفوا فَقَالَ بعضهم : جسم كالأجسام ، ومنهم من قَالَ : لا كالأجسام ثمَّ اختلفوا ...

ومن الواقفين مَعَ الحسّ أقوام ، قالوا : هو عَلَى العرش بذاته عَلَى وجه المماسَّة ، فَإِذَا نزل انتقل وتحرَّك ، وجعلوا لذاته نهاية ، وهؤلاء قد أوجبوا عَلَيْهِ المساحة والمقدار ، واستدلُّوا عَلَى أنَّه عَلَى

العرش بذاته بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :"ينزل اللهُ إلى سماء الدُّنيا"، قالوا : ولا ينزل إلَّا من هو فوق ، وهؤلاء حملوا نزوله عَلَى الأمر الحسِّي الذي يوصف به الأجسام ، وهؤلاء المشبِّهة الذين حملوا الصِّفات عَلَى مقتضى الحسّ . وَقَدْ ذكرنا جمهور كلامهم فِي كتابنا المسمَّى : بـ" منهاج الوصول إلى علم الأصول"... وإنَّما الصَّواب قراءة الآيات والأحاديث من غير تفسير ولا كلام فيها ... والذي أراه : السُّكوت عَلَى هَذَا التَّفسير أيضاً ، إلَّا أنَّه يجوز أن يكون مراداً ، ولا يجوز أن يكون ثمَّ ذات تقبل التَّجزِّي ...". انظر : تلبيس إبليس (ص٧٨-٨٠ باختصار) .

وقال أيضاً :"... لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ليس بجسم ...". انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٧١) .

وقال أيضاً :"... وَكَانَ ابْن عقيل يَقُول: الصُّورة على الْحَقِيقَة تقع على التَّخاطيط والأشكال ، وَذَلِكَ من صِفَات الْأَجْسَام ، وَالَّذِي صرفنَا عَن كَونه جسماً من الْأَدِلَّة النُّطقيَّة قَوْله ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ ﴿الشورى: ١١﴾ ، وَمن أَدِلَّة الْعُقُول : أَنَّه لَو كَانَ جسماً لكَانَتْ صورته عَرَضاً ، وَلَو كَانَ جسماً حَامِلاً للأعراض لجَاز عَلَيْهِ مَا يجوز على الْأَجْسَام ، وَاحْتَاجَ إِلَى مَا احْتَاجَت إِلَيْهِ من الصَّانِع ، وَلَو جَازَ قِدمه مَعَ كَونه جسماً لما امْتنع قِدَم أَحَدنَا". انظر : كشف المُشكل من حديث الصَّحيحين (٣/ ١٣٤) .

وقال أيضاً :"... وفي المشار إليه بقوله : ﴿**ثُمَّ دَنَا**﴾ ﴿النجم:٣﴾ ثلاثة أقوال ... وقد كشفتُ هذا الوجه في كتاب المُغْني ، وبيَّنتُ أنَّه ليس كما يخطُر بالبال من قُرب الأجسام وقطع المسافة ، لأنَّ ذلك يختصُّ بالأجسام ، والله منزَّه عن ذلك". انظر : زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٨٥) .

فقد وضَّح وبرهن ابن الجوزي على أنَّ الواجب على الخلق : اعتقاد التَّنزيه وامتناع تجويز النُّقلة ، وأنَّ النُّزول الذي هو انتقال من مكان إلى مكان يفتقر إلى ثلاثة أجسام : جسم عالي ، وهو مكان السَّاكن ، وجسم سافل ، وجسم ينتقل من علو إلى أسفل ، وهذا لا يجوز على الله تعالى قطعاً .

وقال فخر الدِّين الرَّازي(٦٠٦هـ) :"وَمِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُشْعِرَةِ بِالْجِسْمِيَّةِ وَالْجِهَةِ : الْأَلْفَاظُ الْمُشْتَقَّةُ مِنَ"الْعُلُوِّ"، فمنها : قوله تعالى : ﴿**الْعَلِيُّ**﴾ ﴿البقرة: ٢٥٥﴾ ، وَمِنْهَا : قَوْلُهُ : ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾ ﴿الأعلى: ١﴾ ، وَمِنْهَا : الْمُتَعَالِي ، وَمِنْهَا : اللَّفْظُ الْمَذْكُورُ عِنْدَ الْكُلِّ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْبَاقِ وَهُوَ أَنَّهم

كُلَّمَا ذَكَرُوهُ أَرْدَفُوا ذَلِكَ الذِّكْرَ بِقَوْلِهِمْ :"تَعَالَى"، لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ النَّحْلِ : **﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**﴿النحل: ١﴾ . إِذَا عَرَفْتَ هَذَا ، فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ فِي الْجِهَةِ وَالْمَكَانِ قَالُوا : مَعْنَى عُلُوِّهِ وَتَعَالِيهِ كَوْنُهُ مَوْجُوداً فِي جِهَةِ فَوْقُ ، ثمَّ هَؤُلَاءِ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه جَالِسٌ فَوْقَ الْعَرْشِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه مُبَايِنٌ لِلْعَرْشِ بِبُعْدٍ مُتَنَاهٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه مُبَايِنٌ لِلْعَرْشِ بِبُعْدٍ غَيْرِ مُتَنَاهٍ ، وَكَيْفَ كَانَ فَإِنَّ الْمُشَبِّهَةَ حَمَلُوا لَفْظَ الْعَظِيمِ وَالْكَبِيرِ عَلَى الْجِسْمِيَّةِ وَالْمِقْدَارِ، وَحَمَلُوا لَفْظَ الْعَلِيِّ عَلَى الْعُلُوِّ فِي الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ ، وأَمَّا أَهْلُ التَّنْزِيهِ وَالتَّقْدِيسِ فَإِنَّهُمْ حَمَلُوا الْعَظِيمَ وَالْكَبِيرَ عَلَى وُجُوهٍ لَا تُفِيدُ الْجِسْمِيَّةَ وَالْمِقْدَارَ :

فَأَحَدُهَا : أَنَّه عَظِيمٌ بِحَسَبِ مُدَّةِ الْوُجُودِ ، وَذَلِكَ لأَنَّه أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ ، وَذَلِكَ هُوَ نِهَايَةُ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ فِي الْوُجُودِ وَالْبَقَاءِ وَالدَّوَامِ .

وَثَانِيهَا : أَنَّه عَظِيمٌ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ .

وَثَالِثُهَا : أَنَّه عَظِيمٌ فِي الرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ .

وَرَابِعُهَا: أَنَّه عَظِيمٌ فِي كَمَالِ الْقُدْرَةِ ، وأَمَّا الْعُلُوُّ فَأَهْلُ التَّنْزِيهِ يَحْمِلُونَ هَذَا اللَّفْظَ عَلَى كَوْنِهِ مُنَزَّهاً عَنْ صِفَاتِ النَّقَائِصِ وَالْحَاجَاتِ .

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَلَفْظُ الْعَظِيمِ وَالْكَبِيرِ عِنْدَ الْمُشَبِّهَةِ مِنْ أَسْمَاءِ الذَّاتِ ، وَعِنْدَ أَهْلِ التَّوحيد مِنْ أَسْمَاءِ الصِّفات ، وأَمَّا لَفْظُ الْعَلِيِّ فَعِنْدَ الْكُلِّ مِنْ أَسْمَاءِ الصِّفات ، إِلَّا أَنَّه عِنْدَ الْمُشَبِّهَةِ يُفِيدُ الْحُصُولَ فِي الْحَيِّزِ الَّذِي هُوَ الْعُلُوُّ الْأَعْلَى ، وَعِنْدَ أَهْلِ التَّوحيد يُفِيدُ كَوْنَهُ مُنَزَّهاً عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِالْإِلَهِيَّةِ".

وقال أيضاً :"... وَالْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ : أَنَّ جَمِيعَ الصِّفات الْمَعْلُومَةِ عِنْدَ الْخَلْقِ : أَمَّا صِفَاتُ الْجَلَالِ ، وأَمَّا صِفَاتُ الْإِكْرَامِ ، أَمَّا صِفَاتُ الْجَلَالِ فَهِيَ قَوْلُنَا : لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا بِجَوْهَرٍ ، وَلَا عَرَضٍ ، وَلَا فِي الْمَكَانِ ، وَلَا فِي الْمَحَلِّ ...".

وقال أيضاً :"وَأَمَّا التَّنْزِيهُ ، فَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّه لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا فِي مَكَانٍ قَوْلُهُ : قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، فَإِنَّ الْمُرَكَّبَ مُفْتَقِرٌ إِلَى أَجْزَائِهِ ، وَالْمُحْتَاجَ مُحْدَثٌ ، وَإِذَا كَانَ أَحَداً وَجَبَ أَنْ لَا يَكُونُ جِسْماً ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ جِسْماً لَمْ يَكُنْ فِي الْمَكَانِ".

وقال في تفسيره لقول الله تعالى : ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾﴿البقرة: ١١٥﴾ :"الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : الْآيَةُ مِنْ أَقْوَى الدَّلَائِلِ عَلَى نَفْيِ التَّجْسِيمِ وَإِثْبَاتِ التَّنْزِيهِ ، وَبَيَانُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ :

الْأَوَّلُ : أنَّه تَعَالَى قَالَ : ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**﴾ ، فَبَيَّنَ أَنَّ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ مَمْلُوكَتَانِ لَهُ ، وإِنَّما كَانَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِهَةَ أَمْرٌ مُمْتَدٌّ فِي الْوَهْمِ طُولاً وَعَرْضاً وَعُمْقاً ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُنْقَسِمٌ ، وَكُلُّ مُنْقَسِمٍ فَهُوَ مُؤَلَّفٌ مُرَكَّبٌ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ خَالِقٍ وَمُوجِدٍ ، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ عَامَّةٌ فِي الْجِهَاتِ كُلِّهَا ، أَعْنِي الْفَوْقَ وَالتَّحْتَ ، فَثَبَتَ بِهَذَا أنَّه تَعَالَى خَالِقُ الْجِهَاتِ كُلِّهَا ، وَالْخَالِقُ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْمَخْلُوقِ لَا مَحَالَةَ ، فَقَدْ كَانَ الْبَارِي تَعَالَى قَبْلَ خَلْقِ الْعَالَمِ مُنَزَّهاً عَنِ الْجِهَاتِ وَالْأَحْيَازِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَبْقَى بَعْدَ خَلْقِ الْعَالَمِ كَذَلِكَ لَا مَحَالَةَ لِاسْتِحَالَةِ انْقِلَابِ الْحَقَائِقِ وَالْمَاهِيَّاتِ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أنَّه تَعَالَى قَالَ : ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ ، وَلَوْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى جِسْماً وَلَهُ وَجْهٌ جُسْمَانِيٌّ ، لَكَانَ وَجْهُهُ مُخْتَصّاً بِجَانِبٍ مُعَيَّنٍ ، وَجِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، فَمَا كَانَ يَصْدُقُ قَوْلُهُ : ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ ، فَلَمَّا نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ ، عَلِمْنَا أنَّه تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ".

وقال أيضاً :"أَمَّا الْإِيمَانُ بِوُجُودِهِ ، فَهُوَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ وَرَاءَ الْمُتَحَيِّزَاتِ مَوْجُوداً خَالِقاً لَهَا ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَالْمُجَسِّمُ لَا يَكُونُ مُقِرّاً بِوُجُودِ الْإِلَهِ تَعَالَى ، لأَنَّه لَا يُثْبِتُ مَا وَرَاءَ الْمُتَحَيِّزَاتِ شَيْئاً آخَرَ ، فَيَكُونُ اخْتِلَافُهُ مَعَنَا فِي إِثْبَاتِ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى".

وقال أيضاً :"وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ النَّظَرِ تَقْلِيبَ الْحَدَقَةِ إلى جَانِبِ الْمَرْئِيِّ الْتِمَاساً لِرُؤْيَتِهِ ، لِأَنَّ هَذَا مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَتَعَالَى إِلَهُنَا عَنْ أَنْ يَكُونَ جِسْماً".

وقال أيضاً :"اخْتَلَفَتِ الْأُمَّةُ فِي تَفْسِيرِ يَدِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَقَالَتِ الْمُجَسِّمَةُ : أَنَّهَا عُضْوٌ جُسْمَانِيٌّ ، كَمَا فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾﴿الأعراف: ١٩٥﴾ ، وَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ : أنَّه تَعَالَى قَدَحَ فِي إِلَهِيَّةِ الْأَصْنَامِ لِأَجْلِ أَنَّهَا لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ ، فَلَوْ لَمْ تَحْصُلْ لِلَّهِ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ لَزِمَ الْقَدْحُ فِي

كَوْنِهِ إِلَهاً ، وَلَمَّا بَطَلَ ذَلِكَ وَجَبَ إِثْبَاتُ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ لَهُ . قَالُوا وَأَيْضاً اسْمُ الْيَدِ مَوْضُوعٌ لِهَذَا الْعُضْوِ ، فَحَمْلُهُ عَلَى شَيْءٍ آخَرَ تَرْكٌ لِلُّغَةِ ، وَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ فِي إِبْطَالِ هَذَا الْقَوْلِ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ بِجِسْمٍ ، والدَّليل عَلَيْهِ أَنَّ الْجِسْمَ لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ، وَهُمَا مُحْدَثَانِ ، وَمَا لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْمُحْدَثِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، وَلِأَنَّ كُلَّ جِسْمٍ فَهُوَ مُتَنَاهٍ فِي الْمِقْدَارِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ مُتَنَاهِياً فِي الْمِقْدَارِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، وَلِأَنَّ كُلَّ جِسْمٍ فَهُوَ مُؤَلَّفٌ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ قَابِلاً لِلتَّرْكِيبِ وَالِانْحِلَالِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ افْتَقَرَ إِلى مَا يُرَكِّبُهُ وَيُؤَلِّفُهُ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، فَثَبَتَ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ أَنَّه يَمْتَنِعُ كَوْنُهُ تَعَالَى جِسْماً ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ يَدُهُ عضواً جسمانياً".

وقال أيضاً :" وَحَشْوِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ : إِنَّ مَنْ قَرَأَ كَلَامَ اللَّهِ ، فَالَّذِي يَقْرَؤُهُ هُوَ عَيْنُ كَلَامِ تَعَالَى ، وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ أَنَّه صِفَةُ اللَّهِ يَدْخُلُ فِي لِسَانِ هَذَا الْقَارِئِ ، وَفِي لِسَانِ جَمِيعِ الْقُرَّاءِ ، وَإِذَا كُتِبَ كَلَامُ اللَّهِ فِي جِسْمٍ ، فَقَدْ حَلَّ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الْجِسْمِ ، فَالنَّصَارَى إِنَّمَا أَثْبَتُوا الْحُلُولَ وَالِاتِّحَادَ فِي حَقِّ عِيسَى . وأَمَّا هَؤُلَاءِ الْحَمْقَى فَأَثْبَتُوا كَلِمَةَ اللَّهِ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ قَرَأَ الْقُرْآنَ ، وَفِي كُلِّ جِسْمٍ كُتِبَ فِيهِ الْقُرْآنُ ، فَإِنْ صَحَّ فِي حَقِّ النَّصَارَى أَنَّهم لَا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ بِهَذَا السَّبَبِ ، وَجَبَ أَنْ يَصِحَّ فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ الْحُرُوفِيَّةِ وَالْحُلُولِيَّةِ أَنَّهم لَا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ ، فَهَذَا تَقْرِيرُ هَذَا السُّؤَالِ .

وَالْجَوَابُ : أَنَّ الدَّليل دَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْإِلَهَ جِسْمٌ فَهُوَ مُنْكِرٌ لِلْإِلَهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ لِأَنَّ إِلَهَ الْعَالَمِ مَوْجُودٌ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا حَالٍّ فِي الْجِسْمِ ، فَإِذَا أَنْكَرَ الْمُجَسِّمُ هَذَا الْمَوْجُود فَقَدْ أَنْكَرَ ذَاتَ الْإِلَهِ تَعَالَى ، فَالْخِلَافُ بَيْنَ الْمُجَسِّمِ وَالْمُوَحِّدِ لَيْسَ فِي الصِّفة ، بَلْ فِي الذَّاتِ ، فَصَحَّ فِي الْمُجَسِّمِ أَنَّه لَا يُؤْمِنُ باللَّهِ".

وقال أيضاً :"فَقَوْلُهُ : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾﴿سبأ: ٢٣﴾ ، إِشَارَةٌ إلى أَنَّه فَوْقَ الْكَامِلِينَ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَهَذَا يُبْطِلُ الْقَوْلَ بِكَوْنِهِ جِسْماً وَفِي حَيِّزٍ ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ فِي حَيِّزٍ ، فَإِنَّ الْعَقْلَ يَحْكُمُ بِأَنَّهُ مُشَارٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ مَقْطَعُ الْإِشَارَةِ ، لِأَنَّ الْإِشَارَةَ لَوْ لَمْ تَقَعْ إِلَيْهِ لَمَا كَانَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ هو ، وإذا وقعت الإشارة إليه ، فقد تناهب الْإِشَارَةُ عِنْدَهُ ، وَفِي كُلِّ مَوْقِعٍ تَقِفُ الْإِشَارَةُ بِقَدْرِ الْعَقْلِ عَلَى أَنْ يَفْرِضَ

الْبُعْدَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَقُولُ : لَوْ كَانَ بَيْنَ مَأْخَذِ الْإِشَارَةِ وَالْمُشَارِ إِلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا الْبُعْدِ لَكَانَ هَذَا الْمُشَارُ إِلَيْهِ أَعْلَى فَيَصِيرُ عَلِيّاً بِالْإِضَافَةِ لَا مُطْلَقاً ، وَهُوَ عَلِيٌّ مُطْلَقاً ، وَلَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ لَهُ مِقْدَارٌ ، وَكُلُّ مِقْدَارٍ يُمْكِنُ أَنْ يُفْرَضَ أَكْبَرُ مِنْهُ فَيَكُونَ كَبِيراً بِالنِّسْبَةِ إِلى غَيْرِهِ لَا مُطْلَقاً وَهُوَ كَبِيرٌ مطلقاً".

وقال أيضاً :"الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : تَمَسَّكَتِ الْمُجَسِّمَةُ فِي إِثْبَاتِ الْعُلُوِّ بِالْمَكَانِ بِقَوْلِهِ :﴿**رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾﴿الأعلى: ١﴾ ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْعُلُوَّ بِالْجِهَةِ عَلَى اللهِّ تَعَالَى مُحَالٌ ، لأَنَّه تَعَالَى أَمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَنَاهِياً أَوْ غَيْرَ مُتَنَاهٍ ، فَإِنْ كَانَ مُتَنَاهِياً كَانَ طَرَفُهُ الْفَوْقَانِيُّ مُتَنَاهِياً ، فَكَانَ فَوْقَهُ جِهَةً فَلَا يَكُونُ هُوَ سُبْحَانَهُ أَعْلَى مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، وأَمَّا إِنْ كَانَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ فَالْقَوْلُ : بِوُجُودِ أَبْعَادٍ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ مُحَالٌ ، وَأَيْضاً فَلِأَنَّهُ إِنْ كَانَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ تَعَالَى مُخْتَلِطَةً بِالْقَاذُورَاتِ تَعَالَى اللهُّ عَنْهُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ بَعْضِ الْجِهَاتِ وَمُتَنَاهِياً مِنْ بَعْضِ الْجِهَاتِ كَانَ الْجَانِبُ الْمُتَنَاهِي مُغَايِراً لِلْجَانِبِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِي ، فَيَكُونُ مُرَكَّباً مِنْ جُزْأَيْنِ ، وَكُلُّ مُرَكَّبٍ مُمْكِنٌ ، فَوَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ مُمْكِنُ الْوُجُودِ ، هذا مُحَالٌ . فَثَبَتَ أَنَّ الْعُلُوَّ هَاهُنَا لَيْسَ بِمَعْنَى الْعُلُوِّ فِي الْجِهَةِ ، مِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّ مَا قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هُوَ الْعُلُوُّ بِالْجِهَةِ ، أَمَّا مَا قَبْلَ الْآيَةِ فَلِأَنَّ الْعُلُوَّ عِبَارَةٌ عَنْ كَوْنِهِ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ عَنِ الْعَالَمِ ، وَهَذَا لَا يُنَاسِبُ اسْتِحْقَاقَ التَّسْبِيحِ وَالثَّنَاءِ وَالتَّعْظِيمِ ، أَمَّا الْعُلُوُّ بِمَعْنَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالتَّفَرُّدِ بِالتَّخْلِيقِ وَالْإِبْدَاعِ ، فَيُنَاسِبُ ذَلِكَ ، وَالسُّورَةُ هَاهُنَا مَذْكُورَةٌ لِبَيَانِ وَصْفِهِ تَعَالَى بِمَا لِأَجْلِهِ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ وَالتَّعْظِيمَ...". انظر : تفسير الرازي(١/ ١٣٤) ،(١/ ١٣٧) ،(٢/ ٣٢٥) ،(٤/ ٢١) ،(٥/ ٣٥٦-٣٥٨)،(٧/ ١٠٧)،(٨/ ٢٦٧)،(١٢/ ٣٩٥)،(١٦/ ٢٤)،(١٦/ ١٢٧) بالترتيب .

وقال أيضاً :"الْفَصْل الثَّانِي فِي تَقْدِير الدَّلَائِل السَّمعيَّة على أَنَّه تَعَالَى منزَّه عَن الجسميَّة ، والحيِّز ، والجهة :

الْحجَّة الأُولى : قَوْله تَعَالَى : ﴿**قُلْ هُوَ اللهُّ أَحَدٌ * اللهُّ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾﴿الإخلاص: ١ – ٤ ﴾ ، وَاعْلَم أَنَّه قد اشْتهر فِي التَّفْسِير : أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَن مَاهِيَّة ربِّه ، وَعَن نَعته ، وَصفته ، فانتظر الْجَواب من الله تَعَالَى ، فَأنْزل هَذِه السُّورَة . إِذا عرفت ذَلِك

فَنَقُول : هَذِه السُّورَة يجب أَن تكون من المحكمات لَا من المتشابهات ، لأَنَّه تَعَالَى جعلهَا جَوَاباً عَن سُؤال الْمُتَشَابه ، بل وأنزلها عِنْد الْحَاجة . وَذَلِكَ يَقْتَضِي كَونهَا من المحكمات لَا من المتشابهات .

وَإِذا ثَبت هَذَا وَجب الْجَزْم بِأَنَّ كلَّ مَذْهَب يُخَالف هَذِه السُّورَة يكون بَاطِلاً ، فَنَقُول : إِنَّ قَوْله تَعَالَى : **﴿أَحَدٌ﴾** ، يدلُّ على نفي الجسميَّة ، وَنفي الحيِّز والجهة . أَمَّا دلَالَته على أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ بجسم ، فَذَلِك لِأَنَّ الْجِسْم أَقَله أَن يكون مركَّباً من جوهرين ، وَذَلِكَ يُنَافِي الْوحدَة . ولَمَّا كان قَوله : **﴿أَحَدٌ﴾** مُبَالغَة فِي الواحديَّة ، كان قوله : **﴿أَحَدٌ﴾** منافياً للجسميَّة .

وأَمَّا دلَالَته على أَنَّه لَيْسَ بجوهر ، فَنَقُول : أَمَّا الَّذين يُنكرُونَ الْجَوْهَر الْفَرد ، فَإِنَّهُم يَقُولُونَ : إِنَّ كلَّ متحيِّز فَلَا بُدَّ وَأَن يتَمَيَّز أحد جانبيه عَن الثَّانِي ، وَذَلِكَ لأَنَّه لَا بُدَّ من أَن يتَمَيَّز يَمِينه عَن يسَاره ، وقدَّامه عَن خَلفه ، وفوقه عَن تَحْتَهُ ، وكلّ مَا تميَّز فِيهِ شَيْء عَن شَيْء ، فَهُوَ منقسمٌ ، لِأَنَّ يَمِينه مَوْصُوف بِأَنَّهُ يَمِين لَا يسَار ، ويساره مَوْصُوف بِأَنَّهُ يسَار لَا يَمِين ، فَلَو كَانَ يَمِينه عين يسَاره ، لاجتمع فِي الشَّيء الْوَاحِد ، أنَّه يَمِين ، وَلَيْسَ بِيَمِين ، ويسار وَلَيْسَ بيسار ، فَيلْزم اجْتِمَاع النَّفْي وَالْإِثْبَات فِي الشَّيء الْوَاحِد ، وَهُوَ محَال .

قَالُوا : فَثَبت أَنَّ كلَّ متحيِّز فَهُوَ منقسمٌ ، وَثَبت أَنَّ كلَّ منقسم فَهُوَ لَيْسَ بِأحد ، فَلَمَّا كَانَ الله تَعَالَى مَوْصُوفاً بِأَنَّهُ أحد ، وَجب أَن لَا يكون متحيِّزاً أصلاً ، وَذَلِكَ يَنْفِي كَونه جوهراً .

وأَمَّا الَّذين يثبتون الْجَوْهَر الْفَرد ، فَإِنَّهُ لَا يُمكنهُم الاستدلال على نفي كَونه تَعَالَى جوهراً من هَذَا الاعتبار ، ويمكنهم أَن يحتجُّوا بِهَذِهِ الْآيَة على نفي كَونه جوهراً من وَجه آخر ، وَبَيَانه : هُوَ أَنَّ الْأَحَد كَمَا يُرَاد بِهِ نفي التَّرْكِيب والتأليف فِي الذَّات ، فقد يُرَاد بِهِ الضِّدّ والندّ ، فلَو كَانَ تَعَالَى جوهراً فَرداً ، لَكَانَ كل جَوْهَر فَرد مثلاً لَهُ ، وَذَلِكَ يَنْفِي كَونه أحداً . ثمَّ أكدوا هَذَا الْوَجْه بقوله تَعَالَى : **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾** ، وَلَو كَانَ جوهراً لَكَانَ كل جَوْهَر فَرد كفواً لَهُ ، فدلَّت هَذِه السُّورَة من الْوَجْه الَّذِي قَرَّرْنَاهُ على أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ بجسم وَلَا بجوهر ، وَإِذا ثَبت أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ بجسم وَلَا بجوهر ، وَجب أَن لَا يكون فِي شَيْء من الأحياز والجهات ، لِأَنَّ كلّ مَا كَانَ مُخْتَصّاً بحيِّز وجهة ، فَإِن كَانَ منقسماً كَانَ جسماً ، وَقد بَينَّا إِبطَال ذَلِك ، وَإِن لم يكن منقسماً كَانَ جوهراً فَرداً ، وَقد بَينَّا أَنَّه بَاطِل ،

وَلما بَطل القسمان ، ثَبت أَنَّه يمْتَنع أَن يكون فِي جِهَة أصلاً ، فَثَبت أَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿أَحَدٌ﴾ ، يدلُّ دلَالَة قَطْعِيَّة على أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ بجسم ، وَلَا بجوهر ، وَلَا فِي حيِّز وجهة أصلاً .

وَاعْلَم أَنَّه تَعَالَى كَمَا نَصَّ على أَنَّه تَعَالَى وَاحِد ، فقد نَصَّ على الْبُرْهَان الَّذِي لأَجله يجب الحكم بِأَنَّهُ أحد ، وَذَلِكَ أَنَّه قَالَ : ﴿هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ، وَكَونه إِلَهاً يَقْتَضِي كَونه غَنِياً عَمَّا سواهُ ، وكلّ مركَّب ، فَإِنَّهُ مفتقر إِلى كلِّ وَاحِد من أَجْزَائِهِ ، وكل وَاحِد من أَجْزَائِهِ غَيره ، فَكلُّ مركَّب فَهُوَ مفتقرٌ إِلى غَيره ، وَكَونه إِلَهاً يمْنَع من كَونه مفتقراً إِلى غَيره ، وَذَلِكَ يُوجب الْقطع بِكَوْنِهِ أحداً ، وَكَونه أحداً يُوجب الْقطع بِأَنَّهُ لَيْسَ بجسم ، وَلَا جَوْهَر ، وَلَا فِي حيّز وجهة . فَثَبت : أَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ، برهَان قَاطع على ثُبُوت هَذِه المطالب .

وأَمَّا قَوْله : ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ ، فالصَّمد هُوَ السَّيِّد المصمود إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِج ، وَذَلِكَ يدلُّ على أَنَّه لَيْسَ بجسم ، وعَلى أَنَّه غير مُخْتَصٍّ بالحيِّز والجهة . .

أَمَّا بَيَان دلَالَته على نفي الجسميَّة ، فَمن وُجُوه :

الأَوَّل : أَنَّ كلَّ جسم فَهُوَ مركَّب ، وكلُّ مركَّب فَهُوَ مُحْتَاج إِلى كلِّ وَاحِد من أَجْزَائِهِ ، وكلُّ وَاحِد من أَجْزَائِهِ غَيره ، فَكلُّ مركَّب فَهُوَ مُحْتَاج إِلى غَيره ، والمحتاج إِلى الْغَيْر لَا يكون غَنِياً مُحْتَاجاً إِلَيه ، فَلم يكن صمداً مُطلقاً .

الثَّانِي : لَو كَانَ مركَّباً من الْجَوَارِح والأعضاء لاحتاج فِي الإبصار إِلى الْعين ، وَفِي الْفِعْل إِلى الْيَد ، وَفِي الْمَشْي إِلى الرِّجل ، وَذَلِكَ يُنَافِي كَونه صمداً مُطلقاً .

الثَّالِث : أَنَّا نُقِيم الدّلَالَة على أَنَّ الْأَجْسَام متماثلة ، والأشياء المتماثلة يجب اشتراكها فِي اللوازم ، فَلَو احْتَاجَ بعض الْأَجْسَام إِلى بعض ، لزم كَون الْكلِّ مُحْتَاجاً إِلى ذَلِك الْجِسْم ، وَلزِمَ أَيْضاً كَونه مُحْتَاجاً إِلى نَفسه ، وكلُّ ذَلِك محَال . وَلَمَّا كَانَ ذَلِك محَالاً ، وَجب أَن لَا يحْتَاج إِلَيْهِ شَيْء من الْأَجْسَام ، وَلَو كَانَ كَذَلِك لم يكن صمداً على الْإِطْلَاق .

وأَمَّا بيَان دلَالَته على أَنَّه تَعَالَى منزَّه عَن الحيِّز والجهة ، فَهُوَ أَنَّه تَعَالَى لَو كَانَ مُخْتَصّاً بالحيِّز والجهة ، لَكَانَ أَمَّا أَن يكون حُصُوله فِي الحيِّز الْمعِيَّن وَاجِباً أَو جَائِزاً ، فَإِن كَانَ وَاجِباً فَحِينَئِذٍ يكون ذَاته تَعَالَى

مفتقراً فِي الْوُجُود والتحقق إلى ذَلِك الحيِّز الْمعِيَّن ، وذَلِك الحيِّز الْمعِيَّن فَإِنَّهُ يكون غَنِياً عَن ذَاته الْمَخْصُوص ، لأَنَّا لَو فَرضنَا عدم حُصُول ذَات الله تَعَالَى فِي ذَلِك الحيِّز الْمعِيَّن لم يبطل ذَلِك الحيِّز أصلاً ، وعَلى هَذَا التَّقْدِير يكون تَعَالَى مُحْتَاجاً إلى ذَلِك الحيِّز ، فَلم يكن صمداً على الْإِطْلَاق . وأمَّا إِن كَانَ حُصُوله فِي الحيِّز الْمعِيَّن جَائِزاً لَا وَاجِباً ، فَحِينَئِذٍ يفْتَقر إلى مُخَصِّص يخصِّصه بالحيِّز الْمعِيَّن ، وَذَلِكَ يُوجِب كَونه مُحْتَاجاً ، وينافي كَونه صَمَداً .

وأمَّا قَوْله تَعَالَى : **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾** ، فَهَذَا أَيْضاً يدلُّ على أَنَّه لَيْسَ بجِسْم ، وَلَا جَوْهَر ، لأَنَّا سنقيم الدّلَالَة على أَنَّ الْجَوَاهِر متماثلة ، فَلَو كَانَ تَعَالَى جوهراً ، لَكَانَ مثلاً لجَمِيع الْجَوَاهِر فَكَانَ كلُّ وَاحِد من الْجَوَاهِر : كفؤا لَهُ . وَلَو كَانَ جسماً لَكَانَ مؤلَّفاً من الْجَوَاهِر ، لِأَنَّ الْجِسْم يكون كَذَلِك ، وَحِينَئِذٍ يعود الْإِلْزَام الْمَذْكُور . فَثَبت أَنَّ هَذِه السُّورَة من أظهر الدَّلَائِل على أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ بجسم وَلَا بجَوْهر ، وَلَا حَاصِل فِي مَكَان وحيِّز .

وَاعْلَم أَنَّه كَمَا أَنَّ الْكفَّار لما سَأَلُوا الرَّسُول عَن صفة ربِّه ، وأَجَاب الله بِهَذِهِ السُّورَة الدَّالَّة على كَونه تَعَالَى منزَّهاً عَن أَن يكون جسماً أَو جوهراً أَو مُخْتَصَّاً بِالْمَكَانِ ، فَكَذَلِك فِرْعَوْن سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام عَن صفة الله تَعَالَى ، فَقَالَ : **﴿وَمَا رَبُّ العَالَمِيْن﴾**﴿الشعراء: ٢٣﴾ ، ثمَّ إِنَّ مُوسَى لم يذكر الْجَواب عَن هَذَا السُّؤَال ، إِلَّا بِكَوْنِهِ تَعَالَى خَالِقاً للنَّاس ومدبراً لَهُم ، وخالقاً للسَّمَوَات وَالْأَرْض ومدبراً لَهما". انظر : أساس التقديس (ص٣٠ فما بعدها) .

وقال الرَّازي أيضاً :"... بل الْأَقْرَب أَنَّ المجسِّمة كفَّار ، لأَنَّهم اعتقدوا أَنَّ كلَّ مَا لَا يكون متحيِّزاً ، وَلَا فِي جِهَة ، فَلَيْسَ بموجود ، وَنحن نعتقد أَنَّ كلَّ متحيِّز فَهُوَ مُحدث ، وخالقه مَوْجُود ، لَيْسَ بمتحيِّز ، وَلَا فِي جِهَة ، فالمجسِّمة نفوا ذَات الشَّيء الَّذِي هُوَ الْإِلَه ، فيلزمهم الْكفْر". انظر : معالم أصول الدِّين (ص١٣٨) .

وقال الآمدي(٦٣١هـ) في"غاية المرام في علم الكلام"(ص١٦٤-١٦٥) :"فإن قيل : ما نشاهده من الموجودات ليس إلَّا أجسامًا وأعراضًا، وإثبات قسم ثالث ممَّا لا نعقله، وإذا كانت الموجودات منحصرة فيما ذكرناه فلا جائز أن يكون البارئ عَرَضًا، لأنَّ العَرَض مفتقر إلى الجسم والبارئ لا

يفتقر إلى شيء ، وإلَّا كان المفتقَر إليه أشرف منه وهو محال، وإذا بطل أن يكون عَرَضًا بقي أن يكون جسمًا . قلنا: منشأ الخبط ههنا إنَّما هو من الوهم بإعطاء الغائب حكم الشَّاهد والحكم على غير المحسوس بما حكم به على المحسوس، وهو كاذب غير صادق ، فإنَّ الوهم قد يرتمي إلى أنَّه لا جسم إلَّا في مكان بناءً على الشَّاهد، وإن شهد العقل بأنَّ العالم لا في مكان ، لكون البرهان قد دلَّ على نهايته، بل وقد يشتدُّ وهمُ بعض النَّاس بحيث يقضي به على العقل، وذلك كمن ينفر عن المبيت في بيت فيه ميِّت لتوهُّمه أنَّه يتحرَّك أو يقوم ، وإن كان عقله يقضي بانتفاء ذلك، فإذًا اللبيب من ترك الوهم جانبًا ولم يتَّخذ غير البرهان والدَّليل صاحبًا، واذا عرف أنَّ مستند ذلك ليس إلَّا مجرَّد الوهم ، فطريق كشف الخيال إنَّما هو بالنَّظر في البرهان، فإنَّا قد بَيّنا أنَّه لا بدَّ من موجود هو مبدأ الكائنات، وبيَّنا أنَّه لا جائز أن يكون له مثل من الموجودات شاهدًا ولا غائبًا، ومع تسليم هاتين القاعدتين يتبيَّن أنَّ ما يقضي به الوهم لا حاصل له. ثمَّ لو لزم أن يكون جسمًا كما في الشَّاهد للزم أن يكون حادثًا كما في الشَّاهد ، وهو ممتنع لما سبق".

وقال الآمدي :"... أنَّه لَا حدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَة ، وَلَيْسَ بجسم وَلَا عَرَض".

وقال أيضاً :"الْقَاعِدَة الثَّانية : فِي إبطال التَّشْبِيه ، وَبَيَان مَا لَا يجوز على الله تَعَالَى :

مُعْتَقد أهل الْحق أنَّ الباري لَا يُشبه شَيْئاً من الحادثات ، وَلَا يماثله شيء من الكائنات ، بل هُوَ بِذَاتِهِ مُنْفَرد عَن جَمِيع الْمَخْلُوقَات ، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر ، وَلَا جسم ، وَلَا عَرَض ، وَلَا تحلُّه الكائنات ، وَلَا تمازجه الحادثات ، وَلَا لَهُ مَكَان يحويه ، وَلَا زمَان هُوَ فِيهِ ، أوَّل لَا قَبْل لَهُ ، وَآخر لَا بَعْد لَهُ ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾﴿الشورى: ١١﴾".

وقال أيضاً :"فَإِن قيل : مَا نشاهده من الموجودات لَيْسَ إِلَّا أجساماً وأعراضاً ، وَإِثْبَات قسم ثَالِث مِمَّا لَا نعقله ، وَإِذا كَانَت الموجودات منحصرة فِيمَا ذَكَرْنَاهُ ، فَلَا جَائِز أَن يكون الباري عَرَضاً ، لِأَنَّ الْعَرَض مفتقرٌ إلى الْجِسْم ، والباري لَا يفْتَقر إلى شيء ، وإلا كَانَ المفتقر إِلَيْهِ أشرف مِنْهُ ، وَهُوَ محَال ، وَإِذا بَطل أَن يكون عَرَضاً بقي أَن يكون جسماً .

قُلْنَا : منشأ الْخبط هَهُنَا إِنَّما هُوَ من الْوَهم بإعطاء الْغَائِب حكم الشَّاهِد ، وَالْحكم على غير المحسوس بِمَا حُكم بِهِ على المحسوس ، وَهُوَ كَاذِب غير صَادِق ، فإِنَّ الْوَهم قد يرتمي إلى أَنَّه لَا جسم إِلَّا فِي مَكَان ، بِنَاء على الشَّاهِد ، وَإِن شهد الْعقل بِأَنَّ الْعَالم لَا فِي مَكَان ، لكَون الْبُرْهَان قد دلَّ على نهايته ، بل وَقد يشْتَد وهمُ بعض النَّاس بِحَيْثُ يقْضِي بِهِ على الْعقل ، وَذَلِكَ كمن ينفر عَن الْمبيت فِي بَيت فِيهِ ميِّت لتوهُّمه أَنَّه يَتَحَرَّك أَو يقوم ، وإن كَانَ عقله يقْضِي بانتفاء ذَلِك ، فَإِذاً اللبيب من ترك الْوَهم جانباً ، وَلم يتَّخذ غير الْبُرْهَان والدَّليل صاحباً . وَإِذا عرف أَن مُسْتَند ذَلِك لَيْسَ إِلَّا مُجَرّد الْوَهم ، فطريق كشف الخيال إِنَّما هُوَ بِالنَّظرِ فِي الْبُرْهَان ، فَإِنَّا قد بَينَّا أَنَّه لَا بُدَّ من مَوْجُود هُوَ مبدأ الكائنات ، وَبينَّا أَنَّه لَا جَائِز أَن يكون لَهُ مثل من الموجودات شَاهداً وَلَا غَائِباً ، وَمَعَ تَسْلِيم هَاتين القاعدتين يتَبَيَّن أَنَّ مَا يقضِي بِهِ الْوَهمُ لَا حَاصِل لَهُ ، ثمَّ وَلَو لزم أَن يكون جسماً كَمَا فِي الشَّاهِد ، للَزِمَ أَن يكون حَادِثاً وَهُوَ مُمْتَنع لما سبق . وَلَيْسَ هُوَ أَيْضاً عَرَضاً ، وَإِلَّا لافتقر إلى مقوم يقومه فِي وجوده ، إِذْ الْعَرَض لَا معنى لَهُ إِلَّا مَا وجوده فِي مَوْضُوع ، وَذَلِكَ أَيْضاً مُحَال ... فَإِذاً قد ثَبت أَنَّ البارى تَعَالَى لَيْسَ بجوهر ، وَلَا جسم ، وَلَا عَرَض ، وَلَا مُحدث ...". انظر : غاية المرام في علم الكلام ، الآمدي (ص٣٤) ، (ص١٧٩) ، (ص١٨٥-١٨٦) بالترتيب .

وقال أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي(٦٥٦هـ) :"... وأَنَّهُ تعالى منزَّهٌ عن صفاتِ النَّقصِ التي هي أضدادُ تلك الصِّفات ، وعن صفاتِ الأجسامِ والمتحيِّزات ، وأَنَّهُ واحدٌ حقٌّ ، صمدٌ فَرْدٌ ، خالقُ جميعِ المخلوقات ، متصرِّفٌ فيها بما يشاء من التَّصرُّفات".

وقال أيضاً :"... فإِنَّه منزَّه عن الجسميَّة ولوازمها".

وقال أيضاً في كلامه عن العرش :"... وإضافته إلى الله على جهة الملك أو التَّشريف ، لا لأنَّ الله استقرَّ عليه أو استظلَّ به ، كما قد توهَّمه بعض الجُهَّال في الاستقرار ، وذلك على الله مُحال ؛ إذ تستحيل عليه الجسميَّة ولواحقها".

وقال أيضاً :"ونسبة الفوقيَّة المكانيَّة إلى الله تعالى مُحال ؛ لأنَّه منزَّه عن الفوقيَّة ، كما هو منزَّه عن التّحتيَّة ؛ إذ كلُّ ذلك من لوازم الأجرام ، وخصائص الأجسام ، ويتقدَّس عنها الذي ليس كمثله شيء من جميع الأنام" .

وقال أيضاً :" وقد شهد العقل والنَّقل : أنَّ الله تعالى منزَّه عن مماثلة الأجسام ، وعن الجوارح المركَّبة من الأعصاب والعظام ، وما جاء في الشَّريعة مِمَّا يوهم شيئاً من ذلك فهو توسُّعٌ ، واستعارة حسب عادات مخاطباتهم الجارية على ذلك".

وقال أيضاً :"وممَّا يعلم استحالته : كون العرش حاملاً لله تعالى ، وأنَّ الله تعالى مستقرٌّ عليه كاستقرار الأجسام ؟ إذ لو كان محمولاً لكان محتاجاً فقيراً لما يحمله ، وذلك ينافي وصف الإلهيَّة" .

وقال أيضاً :"وقد ضلَّ بظاهر هذا اللفظ من أذهبَ اللهُ عقلَه ، وأعدَم فهمَه ، وهم المجسِّمة المشبِّهة ، فاعتقدوا : أنَّ لله تعالى رِجلاً من لحم وعصب تشبه رِجلنا ، كما اعتقدوا في الله تعالى أنَّه جسم يشبه أجسامنا ذو وجه ، وعينين ، وجنب ، ويد ، ورِجل ، وهكذا ... وهذا ارتكاب جهالة خالفوا بها العقول وأدلَّة الشَّرع المنقول ، وما كان سلف هذه الأُمَّة عليه من التَّنزيه عن المماثلة والتَّشبيه ، وكيف يستقرُّ هذا المذهب الفاسد في قلب من له أدنى فكرة ، ومن العقل أقلّ مسكة ، فإنَّ الأجسام من حيث هي كذلك متساوية في الأحكام العقليَّة ، وما ثبت للشيء ثبت لمثله ، وقد ثبت لهذه الأجسام الحدوث ، فيلزم عليه أن يكون الله تعالى حادثاً". انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم(١/ ٦٠) ،(٣/ ٥٩) ،(٣/ ٦٠) ،(١١/ ١١٠) ،(١٢/ ٧٨) (٢٢/ ٣٤) ،(٢٣/ ٥٣) بالترتيب .

وقال أبو عبد الله محمَّد بن أحمد القرطبي(٦٧١هـ) نقلاً عن شيخه أَبُو العبَّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي(٦٥٦هـ) :"مُتَّبِعُو الْمُتَشَابِهِ لَا يَخْلُو أَنْ يَتَّبِعُوهُ ويجمعوه طلباً للتَّشكيك فِي الْقُرْآنِ وَإِضْلَالِ الْعَوَامِّ ، كَمَا فَعَلَتْهُ الزَّنَادِقَةُ وَالْقَرَامِطَةُ الطَّاعِنُونَ فِي الْقُرْآنِ ، أَوْ طَلَباً لِاعْتِقَادِ ظَوَاهِرِ الْمُتَشَابِهِ ، كَمَا فَعَلَتْهُ الْمُجَسِّمَةُ الَّذِينَ جَمَعُوا مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا ظَاهِرُهُ الْجِسْمِيَّةُ حتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّ الْبَارِئَ تَعَالَى جِسْمٌ مُجَسَّمٌ ، وصورة مصوَّرة ، ذات وجه ، وعين ، ويد ، وَجَنْبٍ ، وَرِجْلٍ ، وَأُصْبُعٍ ، تَعَالَى

اللهُ عَنْ ذَلِكَ ، أَوْ يَتَّبِعُوهُ عَلَى جِهَةِ إِبْدَاءِ تَأْوِيلَاتِهَا وَإِيضَاحِ مَعَانِيهَا ، أَوْ كَمَا فَعَلَ صَبِيغٌ حِينَ أَكْثَرَ عَلَى عُمَرَ فِيهِ السُّؤَالَ ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ :

الْأَوَّلُ: لَا شَكَّ فِي كُفْرِهِمْ ، وَأَنَّ حُكْمَ اللهِ فِيهِمُ الْقَتْلُ مِنْ غَيْرِ اسْتِتَابَةٍ .

الثَّانِي: الصَّحِيحُ الْقَوْلُ بِتَكْفِيرِهِمْ ، إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ وَالصُّوَرِ ، وَيُسْتَتَابُونَ فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا كَمَا يُفْعَلُ بِمَنِ ارْتَدَّ .

الثَّالِثُ: اختلفوا في جواز ذلك بناء عَلَى الْخِلَافِ فِي جَوَازِ تَأْوِيلِهَا . وَقَدْ عُرِفَ ، أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ تَرْكُ التَّعَرُّضِ لِتَأْوِيلِهَا مَعَ قَطْعِهِمْ بِاسْتِحَالَةِ ظَوَاهِرِهَا ، فَيَقُولُونَ أَمِرُوهَا كَمَا جَاءَتْ . وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إلى إِبْدَاءِ تَأْوِيلَاتِهَا وَحَمْلِهَا عَلَى مَا يَصِحُّ حَمْلُهُ فِي اللِّسَانِ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ بِتَعْيِينِ مُجْمَلٍ مِنْهَا.

الرَّابِعُ: الْحُكْمُ فِيهِ الْأَدَبُ الْبَلِيغُ ، كَمَا فَعَلَهُ عُمَرُ بِصَبِيغٍ . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ : وَقَدْ كَانَ الْأَئِمَّةُ مِنَ السَّلَفِ يُعَاقِبُونَ مَنْ يَسْأَلُ عَنْ تَفْسِيرِ الْحُرُوفِ الْمُشْكِلَاتِ فِي الْقُرْآنِ ، لِأَنَّ السَّائِلَ إِنْ كَانَ يَبْغِي بِسُؤَالِهِ تَخْلِيدَ الْبِدْعَةِ وَإِثَارَةَ الْفِتْنَةِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِالنَّكِيرِ وَأَعْظَمِ التَّعْزِيرِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَقْصِدَهُ فَقَدِ اسْتَحَقَّ الْعَتْبَ بِمَا اجْتَرَمَ مِنَ الذَّنْبِ ، إِذْ أَوْجَدَ لِلْمُنَافِقِينَ الْمُلْحِدِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سَبِيلاً إلى أَنْ يَقْصِدُوا ضَعَفَةَ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّشْكِيكِ وَالتَّضْلِيلِ فِي تَحْرِيفِ الْقُرْآنِ عَنْ مَنَاهِجِ التَّنْزِيلِ وَحَقَائِقِ التَّأْوِيلِ". انظر : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (٤/ ١٣-١٤) .

وقال عبد العزيز بن عبد السَّلام(٦٦٠هـ) فيما نقله عنه تاج الدِّين السُّبْكِي(٧٧١هـ) :"وَأَنَّه لَيْسَ بجسم مُصَوَّر ، وَلَا جَوْهَر مَحْدُود مُقَدّر ، وَأَنَّه لَا يماثل الْأَجْسَام ، لَا فِي التَّقْدِير وَلَا فِي قبُول الانقسام ، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر وَلَا تحلُّه الْجَوَاهِر ، وَلَا بِعرْض وَلَا تحله الْأَعْرَاض ، بل لَا يماثل مَوْجُوداً ، وَلَا يماثله مَوْجُود ، ولَيْسَ كمثله شَيْء ، ولا هو مثل شَيْء ، وَأَنَّه لَا يحدُّه الْمِقْدَار ، وَلَا تحويه الأقطار ، وَلَا تحيط بِهِ الْجِهَات ، وَلَا تكتنفه الأرضون وَالسَّموَات ، وَأَنَّه اسْتَوَى على الْعَرْش على الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنى الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ...". انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ٢٣١) .

وقال أبو عبد الله محمَّد القرطبي(٦٧١هـ) :"وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِمَّا جاءَ فِي الْقُرْآنِ وَالْخَبَرِ عَلَى وَجْهِ الِانْتِقَالِ وَالْحَرَكَةِ وَالزَّوَالِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْرَامِ وَالْأَجْسَامِ ، تَعَالَى اللهُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْأَجْسَامِ عُلُوّاً كَبِيراً".

وقال أيضاً :"وَلَيْسَ مَجِيئُهُ تَعَالَى حَرَكَةً وَلَا انْتِقالاً وَلَا زَوالاً ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّما يَكُونُ إِذَا كَانَ الْجَائِي جِسْماً أَوْ جَوْهَراً . وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَئِمَّةِ أَهْلِ السنة أنَّهم يقولون : يجيء وَيَنْزِلُ وَيَأْتِي ، وَلَا يُكَيِّفُونَ ، لأنَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾﴿الشورى: ١١﴾ .

وقال أيضاً :"وَالْأَخْبَارُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ مُنْتَشِرَةٌ ، مُشِيرَةٌ إِلى الْعُلُوِّ ، لَا يَدْفَعُهَا إِلَّا مُلْحِدٌ أَوْ جَاهِلٌ مُعَانِدٌ . وَالْمُرَادُ بِهَا تَوْقِيرُهُ وَتَنْزِيهُهُ عَنِ السُّفْلِ وَالتَّحْتِ . وَوَصْفُهُ بِالْعُلُوِّ وَالْعَظَمَةِ لَا بِالْأَمَاكِنِ وَالْجِهَاتِ وَالْحُدُودِ ، لِأَنَّهَا صِفَاتُ الْأَجْسَامِ". انظر : الجامع لأحكام القرآن(تفسير القرطبي)(٣/ ٢٦) ،(٧/ ١٤٥) ،(١٨/ ٢١٦) بالترتيب .

وقال النَّووي(٦٧٦هـ) :"لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّجَسُّمُ ، وَلَا اخْتِلَافُ الْأَحْوَالِ". انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٥/ ٢٥) .

وقال أيضاً :"قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ مَنْ يَكْفُرُ بِبِدْعَتِهِ لَا تَصِحُّ الصَّلاة وَرَاءَهُ ، وَمَنْ لَا يَكْفُرُ تَصِحُّ ، فَمِمَّنْ يَكْفُرُ مَنْ يُجَسِّمُ تَجْسِيماً صَرِيحاً". انظر : المجموع شرح المهذب(مع تكملة السبكي والمطيعي)(٤/ ٢٥٣) .

وقال كمال الدِّين السِّيواسي(٦٨١هـ) :"وإن قال : جسمٌ لا كالأجسام ، فهو مبتدع ، لأنَّه ليس فيه إلَّا إطلاق لفظ الجسم عليه ، وهو موهمٌ للنَّقص ، فرفعه بقوله لا كالأجسام ، فلم يبق إلَّا مجرَّد الإطلاق ، وذلك معصية تنتهض سبباً للعقاب ، لما قلنا من الإيهام ، بخلاف ما لو قاله على التَّشبيه ، فإنَّه كافر ، وقيل : يكفر بمجرد الإطلاق أيضاً ، وهو حسن ، بل هو أولى بالتَّكفير". انظر : شرح فتح القدير (١/ ٣٥٠) .

وقال القرافي(٦٨٤هـ) : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾﴿البقرة: ٢١٠﴾ ، وَالْمَجِيءِ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ﴿الفجر: ٢٢﴾ ، وَالْوَجْهِ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾﴿الرحمن: ٢٧﴾ ، وَالْيَدِ فِي

قَوْله تَعَالَى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿الفتح: ١٠﴾ ، وَالنُّزُولِ فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ "يَنْزِلُ ربّنا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إلى سَمَاءِ الدُّنيا"، والصُّورة فِي حَدِيثِهِمَا أَيْضاً :"إنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ"، فَهَذَا يَجُوزُ إطْلَاقُهُ عَلَى اللهَّ تَعَالَى ، لَكِنْ أَمَّا مَعَ التَّأْوِيلِ التَّفْصِيلِيِّ ، كَمَا هُوَ طَرِيقَةُ الْخَلَفِ ، بِأَنْ يُقَالَ : الْمُرَادُ بِالِاسْتِوَاءِ : الِاسْتِيلَاءُ وَالْمُلْكُ ، كَمَا قَالَ :

قَدْ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ　　　مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

وَبِالْفَوْقِيَّةِ : التَّعَالِي فِي الْعَظَمَةِ دُونَ الْمَكَانِ ، وَبِالْإِتْيَانِ : إتْيَانُ رَسُولِ عَذَابِهِ أَوْ رَحْمَتِهِ وَثَوَابِهِ ، وَكَذَا النُّزُولُ ، وَبِالْوَجْهِ : الذَّاتُ أَوْ الْوُجُودُ ، وَبِالْيَدِ : الْقُدْرَةُ ، وَيَرْجِعُ ضَمِيرٌ عَلَى صُورَتِهِ إلى الْأَخِ الْمُصَرَّحِ فِي الطَّرِيقِ الْأُخْرَى الَّتِي رَوَاهَا مُسْلِمٌ بِلَفْظِ :"إذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَتَجَنَّبْ الْوَجْهَ ، فَإِنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ"، وَالْمُرَادُ بالصُّورة : الصِّفة . وأَمَّا مَعَ التَّأْوِيلِ الْإِجْمَالِيِّ ، وَيُفَوَّضُ عِلْمُ الْمَعْنَى الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ النَّصِّ تَفْصِيلاً إلَيْهِ تَعَالَى ، كَمَا هُوَ طَرِيقُ السَّلَفِ ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ : لَمَّا سُئِلَ عَنْ قَوْله تَعَالَى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿طه: ٥﴾ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ، كَمَا فِي شَرْحِ عَبْدِ السَّلام عَلَى جَوْهَرَةِ التَّوحيد .

وَالْقِسْمُ الثَّانِي : مَا وَرَدَ نَظِيرُهُ فِي كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ صَحِيحَةٍ ، وَإِلَى مِثَالِهِ وَحُكْمِهِ أَشَارَ الْعَلَّامَةُ الْأَمِيرُ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى شَرْحِ الشَّيخ عَبْدِ السَّلام عَلَى جَوْهَرَةِ التَّوحيد ، بِقَوْلِهِ : وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ قَالَ جِسْمٌ كَالْأَجْسَامِ ، فَاسِقٌ ، وَلَا يُعَوَّلُ عَلَى اسْتِظْهَارِ بَعْضِ أَشْيَاخِنَا كُفْرَهُ كَيْفَ ، وَقَدْ صَحَّ : وَجْهٌ لَا كَالْوُجُوهِ ، وَيَدٌ لَا كَالْأَيْدِي ، نَعَمْ لَمْ تَرِدْ عِبَارَةُ جِسْمٍ فَلْيُتَأَمَّلْ اهـ بِلَفْظِهَا .

قُلْت : وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ قَوْلُ الْقَائِلِ : أَنَّه تَعَالَى فِي مَكَان لَيْسَ كَمَكَانِ الْحَوَادِثِ ، لأَنَّه قَدْ صَحَّ اسْتِوَاءٌ عَلَى الْعَرْشِ لَا كَالِاسْتِوَاءِ عَلَى السَّرِيرِ ، نَعَمْ لَمْ تَرِدْ عِبَارَةُ مَكَان ، بَلْ قَالَ إمَامُ الْحَرَمَيْنِ : حَدِيثُ "لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ "يُفِيدُ أَنَّه تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ الْمَكَانِ أَزَلاً ، إذْ لَوْلَا تَنَزُّهُهُ عَنْ الْجِهَةِ لَكَانَ محمَّد صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مِعْرَاجِهِ أَقْرَبَ مِنْ يُونُسَ فِي نُزُولِ الْحُوتِ بِهِ لِقَاعِ الْبَحْرِ ،كَمَا أَفَادَهُ الْأَمِيرُ فِي الْحَاشِيَةِ الْمَذْكُورَةِ ...". انظر : الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق) (٤/ ٢٩٥) .

وقال البيضاوي(٦٨٥هـ) :"لَمَّا ثبت بالقواطع العقليَّة والنقليَّة أنَّه تبارك وتعالى منزَّه عن الجسميَّة ، والتحيُّز ، والحلول ، امتنع عليه النُّزول على معنى الانتقال من موضع أعلى إلى ما هو أخفض منه". انظر : تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (١/ ٣٦٤) .

قال أحمد بن حمدان الحنبلي(٦٩٥هـ) :"... لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، ومن شبَّهه بخلقه فقد كفر ، نصَّ عليه أحمد . وكذا من جسَّم ، أو قال : أنَّه جسم لا كالأجسام ، ذكره القاضي". انظر : نهاية المبتدئين في أصول الدِّين (ص٣١) .

وقال النَّسفي(٧١٠هـ) :"... والله منزَّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام". انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٣٣٦) .

وقال سليمان الطُّوفي الصّرصري(٧١٦هـ) :"وَكَذَلِكَ مَنِ اعْتَقَدَ فِي اللهَّ - عزَّ وجلَّ - مَا يَعْلَمُ أَنَّه لَا يَلِيقُ بِهِ ، كَمَنِ اعْتَقَدَ أَنَّه جِسْمٌ ؛ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْجِسْمِيَّةَ لَا تَلِيقُ بِهِ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ ، لأَنَّه مُسْتَهْزِئٌ بِالْحُرْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، مُتَلَاعِبٌ بِهَا ، فَهَذَانِ يَكْفُرَانِ ، وَمَنْ سِوَاهُمْ ، فَلَا ، وَاللهُّ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ". انظر : شرح مختصر الروضة (٣/ ٦٦١) .

وقال الحسين بن محمود الشِّيرازيُّ الحَنَفيُّ المشهورُ بالُمظْهِري(٧٢٧ هـ) :"لأنَّ الإتيانَ صفةُ الأجسام ، والله تعالى منزَّه عمَّا هو جسمٌ وجسمانيٌّ". انظر : المفاتيح في شرح المصابيح (٥/ ٥١٤) .

وقال أيضاً :"والله سبحانه منزَّه عن الجوارح ؛ فإنَّها صفةُ الأجسام ، ومِثْلُ هذا من المتشابهات ؛ فتركُ الخوضِ فيها أقربُ إلى السَّلامة". انظر : المفاتيح في شرح المصابيح (٥/ ٥١٦) .

وقال الخازن(٧٢٨هـ) :"أمَّا الجارحة فمنتفية في صفة الله عزَّ وجلَّ ، لأنَّ العقل دلَّ على أنَّه يمتنع أن تكون يد الله عبارة عن جسم مخصوص ، وعضو مركَّب من الأجزاء والأبعاض ، تعالى الله عن الجسميَّة والكيفيَّة والتَّشبيه علوَّاً كبيراً ، فامتنع بذلك أن تكون يد الله بمعنى الجارحة".

وقال أيضاً :"... الإيمان به وتنزيه الرَّبِّ تبارك وتعالى عن صفات الأجسام . المذهب الثَّاني : وهو قول جماعة من المتكلِّمين وغيرهم : أنَّ الصُّعود والنُّزول من صفات الأجسام ، والله تعالى يتقدَّس عن ذلك".

وقال أيضاً :"... فإن فسِّر الصَّمد بهذا ، كان من صفات الأجسام ، ويتعالى الله جلَّ وعزَّ عن صفات الجسميَّة". انظر : تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ٧١) ، (٦/ ٢٤٣) ، (٧/ ٣٢٠) بالترتيب .

وقال الزَّيلعي في"تبيين الحقائق شرح كنز الدَّقائق وحاشية الشِّلْبِيِّ" (١/ ١٣٥) :"وَالْمُشَبِّهِ إذَا قَالَ : لَهُ تَعَالَى يَدٌ وَرِجْلٌ كَمَا لِلْعِبَادِ فَهُوَ كَافِرٌ مَلْعُونٌ ، وَإِنْ قَالَ : جِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ إلَّا إطْلَاقَ لَفْظِ الْجِسْمِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ مُوهِمٌ لِلنَّقْصِ فَرَفَعَهُ بِقَوْلِهِ : لَا كَالْأَجْسَامِ ، فَلَمْ يَبْقَ إلَّا مُجَرَّدَ الْإِطْلَاقِ ، وَذَلِكَ مَعْصِيَةٌ تَنْتَهِضُ سَبَباً لِلْعِقَابِ".

وقال تاج الدِّين السُّبْكِي (٧٧١هـ) نقلاً عن الإمام أَحْمد بن يحيى بن إِسْمَاعِيل الشَّيخ شهَاب الدِّين ابْن جهبل الْكلابِي الْحلَبِي (٧٣٣هـ) في ردِّه على ابن تيمية :"فَهَذِهِ كَلِمَات أَعْلَام أهل التَّوحيد وأئمَّة جُمْهُور الْأمَّة ، سوى هَذِه الشِّرذمة الزَّائغة ، كتبهم طافحة بذلك ، وردُّهم على هَذِه النَّازعة لَا يكَاد يحصر ، وَلَيْسَ غرضنا بذلك تقليدهم ، لمنع ذَلِك فِي أصُول الدِّيانَات ، بل إِنَّمَا ذكرت ذَلِك ليعلم أَنَّ مَذْهَب أهل السُّنَّة مَا قدمْنَاهُ .

ثمَّ إِنَّ قَوْلنَا : إِنَّ آيَات الصِّفات وأخبارها على من يسْمعهَا وظائف التَّقْدِيس ، وَالْإِيمَان بِمَا جَاءَ عَن الله تَعَالَى وَعَن رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مُرَاد الله تَعَالَى ، وَمُرَاد رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والتَّصديق وَالِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ ، وَالسُّكُوت والإمساك عَن التَّصَرُّف فِي الْأَلْفَاظ الْوَارِدَة ، وكف الْبَاطِن عَن التفكُّر فِي ذَلِك ، واعتقاد أَنَّ مَا خَفِي عَلَيْهِ مِنْهَا لم يخف عَن الله وَلَا عَن رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَسَيَأْتِي شرح هَذِه الوظائف إِن شَاءَ الله تَعَالَى ، فليت شعري فِي أَي شَيْء نخالف السَّلف ، هَل هُوَ فِي قَوْلنَا : كَانَ وَلَا مَكَان ؟ أَو فِي قَوْلنَا : أَنَّه تَعَالَى كَوَّن الْمَكَان ؟ أَو فِي قَوْلنَا : وَهُوَ الْآن على مَا عَلَيْهِ كَانَ ؟ أَو فِي قَوْلنَا : تقدَّس الْحقُّ عَن الجسميَّة ومشابهتها ؟ أَو فِي قَوْلنَا : يجب تَصْدِيق مَا قَالَه الله تَعَالَى وَرَسُوله بِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَ ؟ أَو فِي قَوْلنَا : يجب الِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ ؟ أَو فِي قَوْلنَا : نسكت عَن السُّؤَال والخوض فِيمَا لَا طَاقَة لنا بِهِ ؟ أَو فِي قَوْلنَا : يجب إِمْسَاك اللِّسَان عَن تَغْيِير الظَّوَاهِر بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَان .

وليت شعري فِي مَاذَا وافقوا هم السَّلف ؟ هَل فِي دُعَائِهِمْ إلى الْخَوْض فِي هَذَا ، والحثّ على الْبَحْث مَعَ الْأَحْدَاث الغرين ، والعوام الطغام الَّذين يعجزون عَن غسل محل النّجو وَإِقَامَة دعائم الصَّلاة ، أَو وافقوا السَّلف فِي تَنْزِيه الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَن الْجِهَة ؟ وَهل سمعُوا فِي كتاب الله أَو أثارة من علم عَن السَّلف أَنَّهم وصفوا الله تَعَالَى بِجِهَة الْعُلُوّ ؟ وَأَنَّ كلَّ مَالا يصفه بِهِ فَهُوَ ضالٌّ مضلٌّ من فراخ الفلاسفة والهنود واليونان **﴿انْظُر كَيفَ يفترون على الله الْكَذِب وَكفى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾**﴿النساء: ٥٠﴾. انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٤٣-٤٤) .

وقال ابن جماعة (٧٣٣هـ) :"فالعُمدة عندنَا فِي أُمُور العقائد هِيَ الْأَدِلَّة القطعيَّة الَّتِي توافرت على أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ جسماً ، وَلَا متحيِّزاً ، وَلَا متجزِّئاً ، وَلَا متركِّباً ، وَلَا يحْتَاج لأحدٍ ، وَلَا إِلى مَكَانٍ ، وَلَا إِلى زمَانٍ ، وَلَا نَحْو ذَلِك .

وَلَقَد جَاءَ الْقُرْآن بِهَذَا فِي محكماته إِذْ يَقُول : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**﴿الشورى: ١١﴾ ، وَيَقُول : **﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾**﴿الإخلاص: ١ - ٤﴾ ، ويقول : **﴿وَإِن تكفرُوا فَإِن الله غَنِي عَنْكُم وَلَا يرضى لِعِبَادِهِ الْكفْر وَإِن تشكروا يرضه لكم﴾**﴿الزمر: ٧﴾ ، ويقول : **﴿يَا أَيهَا النَّاس أَنْتُم الْفُقَرَاء إِلَى الله وَالله هُوَ الْغَنِيّ الحميد﴾**﴿فاطر: ١٥﴾ ، وَغير هَذَا كثير فِي الْكتاب وَالسُّنَّة . فَكلُّ مَا جَاءَ مُخَالفاً بِظَاهِرِهِ لتِلْك القطعيَّات المحكمات ، فَهُوَ من المتشابهات الَّتِي لَا يجوز اتباعها ، كَمَا تبيَّن لَك فِيمَا سلف".

وقال أيضاً عند الكلام على قول الله تعالى : **﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتى عَلى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾**﴿الزمر: ٥٦﴾ :"قد تقدَّم أَنَّ الجسميَّة فِي حَقه تَعَالَى مُحَال ، فَوَجَبَ تَأْوِيل الْجنب الْمَذْكُور هُنَا ، وَأَنَّ الْمُرَاد بِهِ : طَاعَته وَأمره ، لِأَنَّ اسْتِعْمَال ذَلِك فيهمَا مَعْهُود شايع فِي كَلَام الْعَرَب وَعرف النَّاس . قَالَ مُجَاهِد : يَعْنِي : مَا ضيَّعت فِي أَمر الله ، وَيُقَال : فلَان يهمل جَانب فلَان ، وَرمى فلَان جنب فلَان ، أَي : لَا يطيعه ، وَلَا يتعهَّده ، ذَلِك لِأَنَّ الْجنب الْمَعْهُود لَا يَقع فِيهِ تَفْرِيط ، وَلَا يعقل مَعْنَاهُ فِيهِ ، بل إِنَّما يَقع التَّفْرِيط فِي طَاعَة الْأَمر ، وَفِي حق وَاجِب ، أَي : بِتَرْكِهِ . وَقد أنْشد ثَعْلَب فِيهِ : خليلي كفَّا وَاذْكُر الله فِي جَنْبي . وَوجه التَّجوُّز عَن الطَّاعَة أَن تَارِك الْحق مُخَالف الْأَمر".

وقال أيضاً :"... وَلما ثَبت أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ بجسم ، وَجب تَأْوِيل ذَلِك على مَا يَلِيق بجلاله ...". انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص٦٤-٦٥) ، (ص١٣٢) ، (ص١٤١) بالترتيب .

وقال شرف الدِّين الحسين بن عبد الله الطِّيبي (٧٤٣هـ) :"لَمَّا ثبت بالقواطع العقليَّة والنقليَّة أنَّه تبارك وتعالى منزَّه عن الجسميَّة والتَّحيُّز ، والحلول ، امتنع عليه النُّزول على معنى الانتقال من موضع أعلى إلى ما هو أخفض منه". انظر : شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ(الكاشف عن حقائق السنن) (٤/ ١٢٠٤) .

وقال الزَّيلعي (٧٤٣هـ) :"وَالْمُشَبِّهِ إذَا قَالَ : لَهُ تَعَالَى يَدٌ وَرِجْلٌ كَمَا لِلْعِبَادِ فَهُوَ كَافِرٌ مَلْعُونٌ ، وَإِنْ قَالَ : جِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ ؛ لأَنَّه لَيْسَ فِيهِ إلَّا إطْلَاقَ لَفْظِ الْجِسْمِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ مُوهِمٌ لِلنَّقْصِ فَرَفَعَهُ بِقَوْلِهِ : لَا كَالْأَجْسَامِ ، فَلَمْ يَبْقَ إلَّا مُجَرَّدَ الْإِطْلَاقِ ، وَذَلِكَ مَعْصِيَةٌ تَنْتَهِضُ سَبَباً لِلْعِقَابِ". انظر : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبِيِّ (١/ ١٣٥) .

فأقلُّ ما قاله العلماء فيمن قال : جسمٌ لا كالأجسام : أنَّه مبتدع عاصٍ يستحقُّ العقاب ، وبعضهم حكم بكفره ، والعياذ بالله ...

وقال أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) :"... إِذَا كَانَ لِلَّفْظِ دَلَالَةٌ عَلَى التَّجْسِيمِ فَنَحْمِلُهُ ، أَمَّا عَلَى مَا يُسَوَّغُ فِيهِ مِنَ الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَصِحُّ نِسْبَتُهَا إلى اللهَّ تَعَالَى إِنْ كَانَ اللَّفْظُ مُشْتَرَكاً ، أَوْ مِنَ الْمَجَازِ إِنْ كَانَ اللَّفْظُ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ . وَالْمَجَازُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَكْثَرُ مِنْ رَمْلِ يَبْرِينَ وَنَهْرِ فِلَسْطِينَ .

فَالْوُقُوفُ مَعَ ظَاهِرِ اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى التَّجْسِيمِ غَبَاوَةٌ وَجَهْلٌ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَأَنْحَائِهَا وَمُتَصَرِّفَاتِهَا فِي كَلَامِهَا ، وَحُجَجِ الْعُقُولِ الَّتِي مَرْجِعُ حَمْلِ الْأَلْفَاظِ الْمُشْكِلَةِ إِلَيْهَا . وَنَعُوذُ بِاللهَّ أَنْ نَكُونَ كَالْكَرَّامِيَّةِ ، وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ فِي إِثْبَاتِ التَّجْسِيمِ وَنِسْبَةِ الْأَعْضَاءِ للهَّ ، تَعَالَى اللهُّ عَمَّا يَقُولُ الْمُفْتَرُونَ عُلُوّاً كَبِيراً".

وقال أيضاً :"... وَاللهُّ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الْجَوَارِحِ ، وَعَنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ". انظر : البحر المحيط في التفسير (١/ ٥٧٨) ، (٩/ ٤٨٧) بالترتيب .

وقال الذَّهبي(٧٤٨هـ) :"قَالَ أهل السُّنَّة وَأَصْحَاب الحَدِيث : أَنَّه لَيْسَ بجسم ، وَلَا يشبه الْأَشْيَاء". انظر : العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها (ص٢١٨) .

وقال عضد الدِّين الإيجي(٧٥٦هـ) :"أَنَّه تعالى ليس بجسم ، وذهب بعض الجهَّال إلى أنَّه جسم ... والمجسِّمة قالوا : هو جسم حقيقة ، فقيل : من لحم ودم ، كمقاتل بن سليمان . وقيل : نور يتلألأ كالسَّبيكة البيضاء ، وطوله : سبعة أشبار من شبر نفسه ، ومنهم من يقول : أنَّه على صورة إنسان ، فقيل : شاب أمرد جعد قطط ، وقيل : شيخ أشمط الرَّأس واللحية ، تعالى الله عن قول المبطلين ، والمعتمد في بطلانه : أنَّه لو كان جسماً لكان متحيِّزاً ، واللازم قد أبطلناه ، وأيضاً يلزم تركُّبه وحدوثه ، وأيضاً : فإن كان جسماً لاتَّصف بصفات الأجسام ، أمَّا كلّها فيجتمع الضدَّان ، أو بعضها فيلزم التَّرجيح بلا مرجِّح أو الاحتياج ، وأيضاً ، فيكون متناهياً ، فيتخصَّص بمقدار وشكل ، واختصاصه بهما دون سائر الأجسام يكون لمخصص ويلزم الحاجة".

وقال أيضاً :"... ثمَّ علمت أنَّ الله تعالى ليسَ جسْماً ، ولا في جهة ، ويستحيلُ عليه مقابلة ومواجهة وتقليب حدقة نحوه". انظر : كتاب المواقف (٣/ ٣٨-٣٩) ،(٣/ ١٥٣ ، ١٧٤) بالترتيب .

وقال صلاح كيكلدي الدِّمشقي(٧٦١هـ) :"... وَطَرِيقُ الصَّوَابِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَمَّا فِي الإِيمَانِ بِهِ وَتَفْوِيضِ عِلْمِهِ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الظَّاهِرَ الْمُوهِمَ لِلْجِسْمِيَّةِ وَقُبُولَ الْحَوَادِثِ غَيْرُ مُرَادٍ ، وأَمَّا بِتَأْوِيلِهِ عَلَى مَعْنَى يَلِيقُ بِجَلالِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، بِمَا هُوَ عَلى قَوَاعِدِ مَجَازِ كَلامِ الْعَرَبِ وَاسْتِعَارَاتِهَا ، مِمَّا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ ، وَكُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ يَسْلُكُهُ الإِمَامُ أَبُو الْحَسَنِ الأَشْعَرِيُّ ، وَلَيْسَا بِقَوْلَيْنِ لَهُ كَمَا قَالَهُ بَعْضُ الأَئِمَّةِ ، بَلْ هُمَا طَرِيقَانِ يَرْجِعُ إِلَيْهِمَا فِي تَصَانِيفِهِ ، وأَمَّا التَّفْوِيضُ مَعَ اعْتِقَادِ الظَّاهِرِ فَمِمَّا لا يَجُوزُ، لِلْقَطْعِ بِتَنْزِيهِ اللهِ سُبْحَانَهُ عَنْ صِفَاتِ الْحُدُوثِ وَسِمَاتِ النَّقْصِ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ". انظر : إثارة الفوائد المجموعة في الإشارة إلى الفرائد المسموعة (١/ ٢١٩) .

وقال تاج الدِّين السُّبْكِي(٧٧١هـ) :"وهذه المذاهب الأربعة ولله الحمد في العقائد واحدة ، إلَّا من لحق منها بأهل الاعتزال والتَّجسيم . وإلَّا فجمهورها على الحق ؛ يقرُّون عقيدة أبي جعفر الطَّحاوي

التي تلقّاها العلماء سلفاً وخلفاً بالقبول ، ويدينون اللهَّ برأي شيخ السنَّة أبي الحسن الأشعريّ الذي لم يعارضه إلَّا مبتدع".

وقال أيضاً :"وهؤلاء الحنفيَّة، والشَّافعيَّة والمالكيَّة وفضلاء الحنابلة وللهَّ الحمد في العقائد يدٌ واحدة ، كلهم على رأي أهل السُّنَّة والجماعة ، يدينون اللهَّ تعالى بطريق شيخ السُّنَّة أبي الحسن الأشعري رحمه اللهَّ ، لا يحيد عنها إلَّا رَعَاع من الحنفيَّة والشَّافعيَّة ، لحقوا بأهل الإعتزال ، ورَعاع من الحنابلة لحقوا بأهل التَّجسيم، وبرَّأ اللهَّ المالكيَّة فلم نرَ مالكيَّاً إلَّا أشعريَّاً عقيدة". انظر : معيد النعم ومبيد النقم (ص٢٥) ، (ص٦٢) بالترتيب .

وقال الكرماني (٧٨٦هـ) :"ولَّما كان منزَّهاً عن الجسميَّة والحدقة ونحوها ، لا بدَّ من الصَّرف إلى ما يليق به". انظر : الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١٢٠) .

وقال سعد الدِّين التَّفتازاني (٧٩١هـ) :"لَّما ثبت أنَّ الواجب ليس بجسم ، ظهر أنَّه لا يتَّصف بشيء من الكيفيَّات المحسوسة بالحواسِّ الظاهرة أو الباطنة ، مثل : الصُّورة ، واللون ، والطَّعم ، والرَّائحة ، واللذَّة ، والألم ، والفرح ، والغمّ ، والغضب ، ونحو ذلك ، إذ لا يعقل منها إلَّا ما يخصُّ الأجسام ، وإن كان البعض منها مختصَّاً بذوات الأنفس ، ولأنَّ البعض منها تغيُّرات وانفعالات ، وهي على الله تعالى مُحال". انظر : شرح المقاصد في علم الكلام (٣/ ٦٧) .

وقال الزّركشي (٧٩٤هـ) :"قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾**﴿الأنعام:٣﴾ اخْتَارَ الْبَيْهَقِيُّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأرض﴾**﴿الزخرف:٨٤﴾ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ أَصَحُّ الْأَقْوَالِ وَقَالَ الْأَشْعَرِيُّ فِي الْمُوجَزِ: **﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ﴾**﴿الأنعام: ٣ ﴾ ، أَيْ عَالِمٌ بِمَا فِيهِمَا وَقِيلَ: **﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾** جُمْلَةٌ تَامَّةٌ ، **﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ﴾** كَلَامٌ آخَرُ وَهَذَا قَوْلُ الْمُجَسِّمَةِ وَاسْتَدَلَّتِ الْجَهْمِيَّةُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى فِي كُلِّ مَكَانٍ وَظَاهِرُ مَا فَهِمُوهُ مِنَ الْآيَةِ مِنْ أَسْخَفِ الْأَقْوَالِ". انظر : البرهان في علوم القرآن (٢/ ٨٣)

وقال أيضاً :"ونقل صاحب (الخصال) من الحنابلة عن أحمد أنَّه قال : من قال : جسم لا كالأجسام كفر". انظر : تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدِّين السبكي (٤/ ٦٤٨) .

وقال ابن الملقِّن (٨٠٤هـ) :"أنَّ الله واحد ، وأنَّه ليس بجسم ؛ لأنَّ الجسم ليس بشيء واحد ، وإنَّما هي أشياء كثيرة مؤلَّفة ، في نفس التَّرجمة الرَّدّ على الجهميَّة في قولها : أنَّه تعالى جسم ، تعالى الله عن قولهم . والدَّليل على استحالة كونه جسماً : أنَّ الجسم موضوع في اللغة للمؤلَّف المجتمع ، وذلك محالٌ عليه تعالى ؛ لأنَّه لو كان كذلك لم ينفك عن الأعراض المتعاقبة عليه ، الدالَّة بتعاقبها عليه على حدثها لفناء بعضها عند مجيء أضدادها ، وما لم ينفك عن المحدثات فمحدث مثلها ، وقد قام الدَّليل على قِدمه تعالى ، فبطل كونه جسماً". انظر : التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١/ ٢١٨) .

وقال ابن خلدون الإشبيلي (٨٠٨هـ) :"والقطع بنفي المكان حاصلٌ من دليل العقل النّافي للافتقار . ومن أدلَّة السُّلوب المؤذنة بالتَّنزيه مثل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿الشورى: ١١﴾ ، وأشباهه . ومن قوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ ﴿الأنعام: ٣﴾ ، إذ الموجود لا يكون في مكانين ، فليست في هذا للمكان قطعاً ، والمراد غيره . ثمَّ طرَّدوا ذلك المحمل الذي ابتدعوه في ظواهر الوجه والعينين واليدين ، والنُّزول والكلام بالحرف والصَّوت يجعلون لها مدلولات أعمّ من الجسمانيَّة وينزِّهونه عن مدلول الجسماني منها . وهذا شيء لا يعرف في اللّغة . وقد درج على ذلك الأوَّل والآخر منهم ، ونافرهم أهل السُّنَّة من المتكلِّمين الأشعريَّة والحنفيَّة . ورفضوا عقائدهم في ذلك ، ووقع بين متكلِّمي الحنفيَّة ببخارى وبين الإمام محمَّد بن إسماعيل البخاريِّ ما هو معروف .

وأمَّا المجسِّمة ففعلوا مثل ذلك في إثبات الجسميَّة ، وأنّها لا كالأجسام . ولفظ الجسم له يثبت في منقول الشَّرعيَّات . وإنَّما جرَّأهم عليه إثبات هذه الظَّواهر ، فلم يقتصروا عليه ، بل توغَّلوا وأثبتوا الجسميَّة ، يزعمون فيها مثل ذلك وينزِّهونه بقول متناقض سفساف ، وهو قولهم : جسم لا كالأجسام . والجسم في لغة العرب هو العميق المحدود وغير هذا التَّفسير من أنَّه القائم بالذَّات أو المركَّب من الجواهر وغير ذلك ، فاصطلاحات للمتكلِّمين يريدون بها غير المدلول اللّغويّ . فلهذا كان المجسِّمة أوغل في البدعة بل والكفر . حيث أثبتوا للهَّ وصفاً موهماً يُوهم النَّقص ، لم يرد في كلامه ، ولا كلام نبيِّه . فقد تبيَّن لك الفرق بين مذاهب السَّلف والمتكلِّمين السنّية والمحدِّثين والمبتدعة من المعتزلة والمجسِّمة بما أطلعناك عليه .

وفي المحدِّثين غُلاة يسمُّون المشبِّهة لتصريحهم بالتَّشبيه، حتَّى أنَّه يحكى عن بعضهم أنَّه قال: اعفوني من اللّحية والفرج وسلوا عمَّا بدا لكم من سواهما . وإن لم يتأوّل ذلك لهم ، بأنّهم يريدون حصر ما ورد من هذه الظَّواهر الموهمة ، وحملها على ذلك المحمل الّذي لأئمَّتهم ، وإلَّا فهو كفر صريح والعياذ باللهَّ . وكتب أهل السُّنَّة مشحونة بالحجاج على هذه البدع ، وبسط الرَّدّ عليهم بالأدلَّة الصَّحيحة . وإنَّما أومأنا إلى ذلك إيماء يتميَّز به فصول المقالات وجملها". انظر : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (١/ ٦٠٥-٦-٦) .

وقال نظام الدِّين الحسن القمِّي النَّيسابوري(٨٥٠هـ) :"... والاستواء بمعنى الانتصاب ضدّ الاعوجاج من صفات الأجسام ، وإنَّه تعالى منزَّه عن ذلك".

وقال أيضاً :"... ولا يجوز أن يكون المراد من النَّظر تقليب الحدقة إلى جانب المرئي التماساً لرؤيته ، لأنَّ هذا من صفات الأجسام ، وهو تعالى منزَّه عن ذلك".

وقال أيضاً :"... ولتنزُّهه سبحانه عن الجسميَّة وصفاتها".

وقال أيضاً :"وقال أهل السُّنَّة : الدَّليل الدالُّ على أنَّه تعالى منزَّه عن الجسميَّة ، وعن كلِّ صفات الحدوث وسمات الإمكان ، دلَّ على أنَّ السَّاق لم يرد بها الجارحة". انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ٢١٠) ،(٢/ ١٩٣) ،(٥/ ٢٣٣) ،(٦/ ٣٤٠) بالترتيب .

وقال ابن حجر العسقلاني(٨٥٢هـ) :"...وَقَالَ عِيَاضٌ (٥٤٤هـ) : كَانَتِ الْعَرَبُ تَسْتَعْمِلُ الِاسْتِعَارَةَ كَثِيراً ، وَهُوَ أَرْفَعُ أَدَوَاتِ بَدِيعِ فَصَاحَتِهَا وَإِيجَازِهَا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : **﴿جَنَاحَ الذُّلِّ﴾**﴿الإسراء: ٢٤﴾ ، فَمُخَاطَبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ بِرِدَاءِ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى ، وَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ ذَلِكَ تَاهَ ، فَمَنْ أَجْرَى الْكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ أَفْضَى بِهِ الْأَمْرُ إلى التَّجْسِيمِ ، وَمَنْ لَمْ يَتَّضِحْ لَهُ وَعَلِمَ أَنَّ اللهَّ مُنَزَّهٌ عَنِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُهَا : أَمَّا أَنْ يُكَذِّبَ نَقَلَتَهَا ، وأَمَّا أَنْ يُؤَوِّلَهَا ، كَأَنْ يَقُولَ : اسْتَعَارَ لِعَظِيمِ سُلْطَانِ اللهَّ وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ وَهَيْبَتِهِ وَجَلَالِهِ الْمَانِعِ إِدْرَاكَ أَبْصَارِ الْبَشَرِ مَعَ ضَعْفِهَا لِذَلِكَ رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ ، فَإِذَا شَاءَ تَقْوِيَةَ أَبْصَارِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ كَشَفَ عَنْهُمْ حِجَابَ هَيْبَتِهِ وَمَوَانِعَ عَظَمَتِهِ". انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٤٣٢) .

وقال ابن حجر العسقلاني(٨٥٢هـ) في كلامه على قول اليهودي :"إِنَّ اللهَّ يُمْسِكُ السَّموات عَلَى إِصْبَعٍ ...":"... وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ(٦٥٦هـ) فِي الْمُفْهِمِ : قَوْلُهُ :"إِنَّ اللهَّ يُمْسِكُ إِلى آخِرِ الْحَدِيثِ : هَذَا كُلُّهُ قَوْلُ الْيَهُودِيِّ ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ التَّجْسِيمَ ، وَأَنَّ اللهَّ شَخْصٌ ذُو جَوَارِحَ ، كَمَا يَعْتَقِدُهُ غُلَاةُ الْمُشَبِّهَةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَضَحِكُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَجُّبِ مِنْ جَهْلِ الْيَهُودِيِّ ، وَلِهَذَا قَرَأَ عِنْدَ ذَلِكَ : **﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِه﴾**﴿الزمر: ٦٧ ﴾ ، أَيْ : مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ ، فَهَذِهِ الرِّواية هِيَ الصَّحِيحَةُ الْمُحَقَّقَةُ ، وأَمَّا مَنْ زَادَ وَتَصْدِيقاً لَهُ ، فَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ ، فَإِنَّهَا مِنْ قَوْلِ الرَّاوِي ، وَهِيَ بَاطِلَةٌ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُصَدِّقُ الْمُحَالَ ، وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ فِي حَقِّ اللهَّ مُحَالٌ ، إِذْ لَوْ كَانَ ذَا يَدٍ ، وَأَصَابِعَ ، وَجَوَارِحَ ، كَانَ كَوَاحِدٍ مِنَّا ، فَكَانَ يَجِبُ لَهُ مِنَ الِافْتِقَارِ ، وَالْحُدُوثِ ، وَالنَّقْصِ ، وَالْعَجْزِ ، مَا يَجِبُ لَنَا ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَاسْتَحَالَ أَنْ يَكُونَ إِلَهاً ، إِذْ لَوْ جَازَتِ الْإِلَهِيَّةُ لِمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ لَصَحَّتْ لِلدَّجَّالِ ، وَهُوَ مُحَالٌ ، فَالْمُفْضِي إِلَيْهِ كَذِبٌ ، فَقَوْلُ الْيَهُودِيِّ كَذِبٌ وَمُحَالٌ ، وَلِذَلِكَ أَنْزَلَ اللهُّ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ : وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قدره ، وإِنَّمَا تَعَجَّبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَهْلِهِ ، فظَنَّ الرَّاوِي أَنَّ ذَلِكَ التَّعَجُّبَ تَصْدِيقٌ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَإِنْ قِيلَ : قَدْ صَحَّ حَدِيثُ :"إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَن" .

فَالْجَوَابُ : أَنَّه إِذَا جَاءَنَا مِثْلُ هَذَا فِي الْكَلَامِ الصَّادِقِ تَأَوَّلْنَاهُ أَوْ تَوَقَّفْنَا فِيهِ إِلى أَنْ يَتَبَيَّنَ وَجْهُهُ مَعَ الْقَطْعِ بِاسْتِحَالَةِ ظَاهِرِهِ ، لِضَرُورَةِ صِدْقِ مَنْ دَلَّتِ الْمُعْجِزَةُ عَلَى صِدْقِهِ ، وأَمَّا إِذَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْكَذِبُ بَلْ عَلَى لِسَانِ مَنْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ عَنْ نَوْعِهِ بِالْكَذِبِ وَالتَّحْرِيفِ كَذَّبْنَاهُ وَقَبَّحْنَاهُ ، ثمَّ لَوْ سَلَّمْنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَرَّحَ بِتَصْدِيقِهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ تَصْدِيقاً لَهُ فِي الْمَعْنَى ، بَلْ فِي اللَّفْظِ الَّذِي نَقَلَهُ مِنْ كِتَابِهِ عَنْ نَبِيِّهِ ، لوَ نَقْطَعُ بِأَنَّ ظَاهِرَهُ غَيْرُ مُرَادٍ". انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري(١٣/ ٣٩٨) .

وقال بدر الدِّين العيني(٨٥٥هـ) :"...وَلَّما كَانَ منزهاً عَن الجسميَّة والحدقة وَنَحْوهمَا ، لَا بُدَّ من الصّرْف إِلى مَا يَلِيق بِهِ .

واحتجَّت المجسِّمة بقوله :"إِنَّ الله لَيْسَ بأعور وَأَشَارَ بِيَدِهِ إلى عينه"، على أَنَّ عينه كَسَائِرِ الْأَعْين . قُلْنَا : إِذا قَامَت الدَّلَائِل على اسْتِحَالَة كَونه مُحدثاً ، وَجب صرف ذَلِك إلى معنى يَلِيق بِهِ، وَهُوَ نفي النَّقْص والعور عَنهُ، جلَّت عَظمته". انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١٠٢) .

وقال أبو زيد عبد الرَّحْمَن الثَّعالبي (٨٧٥هـ) :"...فاللهَّ سبحانه منزَّه عن صفَاتِ الأجْسَامِ". انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ١٣٤) .

وقال إبراهيم البقاعي (٨٨٥هـ) : "وقال الإقليشي في شرح الأسماء : الأحد هو الذي ليس بمنقسم ولا متجزِّئ ، فهو على هذا اسم لعين الذَّات ، فيه سلب الكثرة عن ذاته ، فتقدَّس بهذا الوصف عن صفات الأجسام القابلة للتَّجزِّي والانقسام". انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٥٨٥) .

وقال جلال الدِّين السُّيوطي (٩١١هـ) :"وَقَدْ شَهِدَ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ أَنَّ اللهَّ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْأَجْسَامِ وَالْجَوَارِحِ". انظر : حاشية السندي على سنن النسائي (مطبوع السنن) (٨/ ٢٢١) .

وقال أحمد بن محمَّد القسطلاني (٩٢٣هـ) :"والله سبحانه وتعالى منزَّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام".

وقال أيضاً في شرحه لحديث :"إنَّ الله ليس بأعور ...":"... فالمراد التَّمثيل والتَّقريب للفهم ، لا إثبات الجارحة ، ولا دلالة فيه للمجسِّمة ، لأنَّ الجسم حادث وهو قديم ، فالمراد : نفي النَّقص والعور عنه ، وأنَّه ليس كمن لا يرى ولا يبصر ، بل مُنتَفٍ عنه جميع النَّقائص والآفات".

وقال أيضاً :"... وقالت المجسِّمة : معناه الاستقرار ، ودفع بأنَّ الاستقرار من صفات الأجسام ، ويلزم منه الحلول ، وهو مُحال في حقِّه تعالى". انظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٢٦٩) ، (١٠/ ٣٨٣) ، (١٠/ ٣٩١) بالترتيب .

وقال ابن نُجيم المصري (٩٧٠هـ) :"وَاَللَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِجِسْمٍ، وَلَا جَوْهَرٍ، وَلَا عَرَضٍ، وَلَا حَالٍّ بِمَكَانٍ". انظر : البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٨/ ٢٠٥) ، ومعه تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري ، وبالحاشية : منحة الخالق لابن عابدين .

وقال ابن حجر الهيتمي (٩٧٤هـ) :"واللهَّ سبحانه وتعالى منزَّه عن الجسميَّة وسائرِ لوازمها". انظر : الفتح المبين بشرح الأربعين (ص١٨٥) .

وقال أيضاً :"واعلم أنَّ القرافي وغيره حكوا عن الشَّافعي، ومالك، وأحمد، وأبي حنيفة، رضي الله عنهم القول بكفر القائلين بالجهة والتَّجسيم، وهم حقيقون بذلك". انظر : المنهاج القويم (ص١٤٤).

وقال الشَّربيني الشَّافعي (٩٧٧هـ) في كلامه على حديث النُّزول :"وهذا الحديث من أحاديث الصِّفات وفيه مذهبان معروفان :

أحدهما : وهو مذهب السَّلف وغيرهم : أنَّه يمرّ كما جاء من غير تأويل ولا تعطيل ، وترك الكلام فيه وفي أمثاله ، مع الإيمان به وتنزيه الربِّ سبحانه عن صفات الأجسام .

المذهب الثَّاني : وهو قول جماعة من المتكلِّمين وغيرهم : أنَّ الصُّعود والنُّزول من صفات الأجسام ، فالله تعالى منزَّه عن ذلك". انظر : السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربّنا الحكيم الخبير (٤/ ٩٧) .

وقال علي بن سلطان القارّي (١٠١٤هـ) :"وَقَالَ بَعْضُهُمْ : اعْلَمْ أَنَّ اللهَّ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الْحُدُوثِ وَصِفَةِ الْأَجْسَامِ ، وَكُلُّ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ فِي صِفَاتِهِ ، مِمَّا يُنْبِئُ عَنِ الْجِهَةِ وَالْفَوْقِيَّةِ ، وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْإِتْيَانِ ، وَالنُّزُولِ ، فَلَا نَخُوضُ فِي تَأْوِيلِهِ ، بَلْ نُؤْمِنُ بِمَا هُوَ مَدْلُولُ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَ سُبْحَانَهُ ، مَعَ التَّنْزِيهِ عَمَّا يُوهِمُ الْجِهَةَ وَالْجِسْمِيَّةَ".

وقال أيضاً :"فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ، وَعَمَّا يُؤَدِّي إِلَيْهَا". انظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، علي بن سلطان القاري (٨/ ٣٥٠٦) ، (٨/ ٣٥٢٨) بالترتيب .

وقال زين الدِّين المناوي (١٠٣١هـ) :"... والكلام كلّه في مبتدع لا يكفر ببدعته، أمَّا من كفر بها كمنكر العلم بالجزئيَّات ، وزاعم التَّجسيم أو الجهة أو الكون أو الاتِّصال بالعالم أو الانفصال عنه ، فلا يوصف عمله بقبول ولا ردّ ، لأنَّه أحقر من ذلك".

وقال أيضاً :"والله منزَّه عن الجسميَّة ولوازمها".

وقال أيضاً :"فالمراد بقرب العبد من ربِّه قربه بالعمل الصَّالح لا قرب المكان لأَنَّه من صفات الأجسام المستحيلة عليه". انظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير (١/ ٧٢) ، (١/ ٥١٤) ، (٣/ ٢٦٤) بالترتيب .

وقال مرعي بن يوسف الكرمى المقدسي (١٠٣٣هـ) :"قَالَ الْكَمَال بن الْهمام الْحَنَفِيّ (٨٦١هـ) بعد أَن تكلَّم على الاستواء مَا حَاصله : وجوب الْإِيمَان بِأَنَّهُ اسْتَوَى على الْعَرْش ، مَعَ نفي التَّشْبِيه ، وأَمَّا كَون الاستواء بِمَعْنى الاستيلاء على الْعَرْش مَعَ نفي التَّشْبِيه ، فَأمر جَائِز الْإِرَادَة ، إِذْ لَا دَلِيل على إِرَادَته عيناً ، فَالْوَاجِب عيناً مَا ذكرنَا ، لَكِن قَالَ : إِذا خيفَ على الْعَامَّة عدم فهم الاستواء إِلَّا بالاتِّصال وَنَحْوه من لَوَازِم الجسميَّة ، فَلَا بَأْس بِصَرْف فهمهم إِلى الاستيلاء .

قَالَ : وعَلى نَحْو مَا ذكر كلّ مَا ورد مِمَّا ظَاهره الجسميَّة فِي الشَّاهِد ، كالإصبع ، وَالْيَد ، والقدم ، فَإِنَّ الإصبع وَالْيَد صفة لَهُ تَعَالَى لَا بِمَعْنى الْجَارِحَة ، بل على وَجه يَلِيق بِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أعلم بِهِ .

وَقد تؤول الْيَد والإصبع بِالْقُدْرَةِ والقهر ، وَقد يؤول الْيَمين فِي قَوْله :"الْحجر الْأسود يَمِين الله فِي الأَرْض" (أخرجه الأزرقي في أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار (١/ ٣٢٥) ، ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (٢/ ٨٥ برقم ٩٤٤ ، وقال :"هَذَا حَدِيثٌ لا يصح وإسحاق بْن بشر قد كذبه أبوبكر بْن أَبِي شَيْبَة وغيره وقال الدارقطني:"هُوَ فِي عداد من يضع الحديث ، قال : وأبو معشر ضعيف) .

على التَّشريف وَالْإِكْرَام ، لما ذكرنَا من صرفِ فهمِ الْعَامَّة عَن الجسميَّة ، قَالَ : وَهُوَ مُمكن أَن يُرَاد وَلَا يجْزم بإرادته على قَول أَصْحَابنَا أَنَّه من الْمُتَشَابه ، وَحكم الْمُتَشَابه : انْقِطَاع معرفَة الْمُرَاد مِنْهُ فِي هَذِه الدَّار ، وَإِلَّا لَكَانَ قد علم". انظر : أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص١٣٢-١٣٤) .

وقال محي الدِّين عبد القادر العَيْدَرُوس (١٠٣٨هـ) نقلاً عن محمَّد بن عَلِيّ بن عراق الْكِنَانِي الشَّافعي (٩٣٣هـ) :"ذَاته لَيْسَ بجوهر ، فالجوهر بالتَّحيُّز مَعْرُوف ، وَلَا بِعرْض ، فالعرض باستحالة الْبَقَاء مَوْصُوف ، وَلَا بجسم ، فالجسم بالجهات محفوف ، هُوَ الله الَّذِي لَا آله إِلَّا هُوَ الْملك القدوس على الْعَرْش اسْتَوَى من غير تمكُّن وَلَا جُلُوس ، لَا الْعَرْش لَهُ من قبل الْقَرار ، وَلَا الاسْتوَاء من جِهَة الِاسْتِقْرَار ،الْعَرْش لَهُ حدٌّ وَمِقْدَار ، الرَّبُّ لَا تُدْرِكهُ الْأَبْصَار ، الْعَرْش تكيِّفه خواطر الْعُقُول ،

وتصفه بِالْعرضِ والطُّول ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك محْمُول ، وَالْقَدِيم لَا يحول وَلَا يَزُول ، الْعَرْش بِنَفسِهِ هُوَ الْمَكَان ، وَله جَوَانِب وأركان ، وَكَانَ الله وَلَا مَكَان ، وَهُوَ الان على مَا عَلَيْهِ كَانَ ، جلَّ عَن التَّشْبِيه وَالتَّقْدِير ، والتَّكييف والتَّغيير ، والتَّأليف والتَّصوير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿الشورى: ١١﴾ . انظر : النور السافر عن أخبار القرن العاشر (١/ ١٧٥) .

وقال محمَّد بن علاَّن الصِّدِّيقي الشَّافعي الأشعري (١٠٥٧هـ) :"وأنَّه تعالى منزَّه عن الجهة والمكان والجسم ، وسائر أوصاف الحدوث ، وهذا معتقد أهل الحقِّ ومنهم الإمام أحمد ، وما نسبه إليه بعضهم من القول بالجهة أو نحوها كذبٌ صُراحٌ عليه وعلى أصحابه المتقدِّمين ، كما أفاده ابن الجوزي من أكابر الحنابلة". انظر : الفتوحات الربّانية على الأذكار النووية (٣/ ١٩٦) .

وقال أحمد بن محمَّد بن عمر الخفَّاجي (١٠٦٩هـ) :" ... لأنَّه تعالى منزَّه عن الجسميَّة والكيفيَّة".

وقال أيضاً :"وهو سبحانه وتعالى منزَّه عن الجسميَّة وما يتبعها من التَّركيب ، لأنَّه واحد أحد ، لا يضافُ إليه انقسام حقيقة ولا فرضاً ، ولا خارجاً ولا ذهناً".

وقال أيضاً :"... والله تعالى منزَّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام". انظر : حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي (٦/ ٣٧٨) ، (٧/ ٤٣٥) ، (٨/ ٥٧) بالترتيب .

وقال عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر البعلي الأزهريابن فَقِيه فُصَّة (١٠٧١هـ) :"ويجب الجزم بأنَّ الله تعالى ليس بجوهر ، ولا جسم ، ولا عرَض ، ولا تحلُّه الحوادث ، ولا يحلُّ في حادث ، ولا ينحصر فيه . فمن اعتقد أو قال إنَّ الله بذاته في مكان ، فكافر ، بل يجب الجزم بأنَّه سبحانه وتعالى بائن من خلقه ، فكان ولا مكان ، ثمَّ خلق المكان ، وهو كما كان قبل خلق المكان ، ولا يعرف بالحواس ، ولا يقاس بالنَّاس ، فهو الغنيُّ عن كلِّ شيء ، ولا يستغني عنه شيء ، ولا يشبه شيئاً ، ولا يشبهه شيء ، وعلى كلِّ حال : مهما خطر بالبال ، أو توهَّمه الخيال ، فهو بخلاف ذي الإكرام والجلال". انظر : العين والأثر في عقائد أهل الأثر (ص٣٤-٣٥) .

وذكر ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ) في" شذرات الذَّهب في أخبار من ذَهَب" (٥/ ١٣٩) في ترجمة أبي علي الهاشمي الحنبلي ، محمَّد بن أحمد بن أبي موسى البغدادي (٤٢٨هـ) موضِّحاً عقيدته ، قال :"أنَّ

الله عزَّ وجلَّ واحدٌ أحدٌ ، فردٌ صمدٌ ، لا يغيِّره الأبد ، ليس له والدٌ ولا ولد ، وأنَّه سميعٌ بصيرٌ ، بديعٌ قديرٌ ، حكيمٌ خبيرٌ ، عليٌّ كبيرٌ ، وليٌّ نصيرٌ ، قويٌ مُجيرٌ ، ليس له شبيهٌ ولا نظيرٌ ، ولا عونٌ ولا ظهيرٌ ، ولا شريكٌ ولا وزيرٌ ، ولا ندٌّ ولا مُشيرٌ ، سبق الأشياء، فهو قديم لا كقِدمها ، وعلم كون وجودها في نهاية عدمها ، لم تملكه الخواطر فتكيِّفه ، ولم تدركه الأبصار فتصفُه ، ولم يخل من علمه مكان فيقع به التَّأيين ، ولم يعدمه زمان فينطلق عليه التَّأوين . ولم يتقدَّمه دهرٌ ولا حينٌ ، ولا كان قبله كونٌ ولا تكوينٌ ، ولا تجري ماهيَّته في مقال ، ولا تخطرُ كيفيَّته ببال ، ولا يدخل في الأمثال والأشكال ، صفاته كذاته ، ليس بجسمٍ في صفاته ، جلَّ أن يشبّه بمبتدعاته أو يضاف إلى مصنوعاته ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾«الشورى: ١١» .

وقال أحمد بن غانم النَّفراوي الأزهري المالكي(١١٢٦هـ) :"...(وَيُقْتَلُ) وُجُوباً كُلُّ (مَنْ ارْتَدَّ) ، أَيْ : قَطَعَ إسْلَامَهُ بَعْدَ بُلُوغِهِ بِصَرِيحِ لَفْظِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾«التوبة: ٣٠» أَوْ الْبَعِيدُ كَفَرَ بِاَللَّهِ ، أَوْ أَشْرَكَ بِهِ ، أَوْ أَتَى بِلَفْظٍ يَقْتَضِي الْكُفْرَ ، كَقَوْلِهِ : الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ غَيْرُ مَفْرُوضَةٍ ، أَوْ الرُّكُوعُ أَوْ السُّجُودُ غَيْرُ فَرْضٍ ، لِأَنَّ الْجَاحِدَ كَافِرٌ ، أَوْ الْحَجُّ غَيْرُ فَرْضٍ عَلَى الْمُسْتَطِيعِ ، أَوْ اللَّهُ جِسْمٌ كَأَجْسَامِ الْحَوَادِثِ ...". انظر : الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (٢/ ٢٨٢) .

وقال إسماعيل حقي الخلوتي(١١٢٧هـ) :"... وفي بحر العلوم : هو العلي شأنه ، أي : أمره وجلاله في ذاته وأفعاله ، لا شيء أعلى منه شأناً ، لأنَّه فوق الكلِّ بالإضافة وبحسب الوجوب ـ وهو فعيل من العلو في مقابلة السّفل ، وهما في الأمور المحسوسة ، كالعرش ، والكرسي مثلاً ، وفي الأمور المعقولة ، كما بين النَّبي وأُمَّته ، وبين الخليفة والسُّلطان ، والعالم والمتعلِّم من التَّفاوت في الفضل والشَّرف والكمال والرِّفعة ، ولمَّا تقدَّس الحقُّ سبحانه عن الجسميَّة ، تقدَّس علوُّه عن أن يكون بالمعنــى الأوَّل ، وهو الأمور المحسوسة ، فتعيَّن واختصَّ بالثَّاني ...".

وقال أيضاً :"... فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ، أي : نزِّهوه تنزيهاً عمَّا يصفونه به ، من اتِّخاذ الشَّريك ، والصَّاحبة ، والولد ، لأنَّ ذلك من صفات الأجسام ، ولو كان الله جسماً لم يقدر على خلق العالم وتدبير أمره ...". انظر : روح البيان (٦/ ٥٥) ،(٥/ ٤٦٤) .

وقال محمَّد بن عبد الهادي السَّندي(١١٣٨هـ) :"والَّا فقد قَامَ الْأَدِلَّة الْعَقْلِيَّة والنَّقليَّة على أنَّه تَعَالَى منزَّه عَن مماثلة الْأَجْسَام والجوارح . انظر : حاشية السندي على سنن النسائي (مطبوع مع السنن) (٨/ ٢٢٢) .

وقال شمس الدِّين السَّفاريني الحنبلي(١١٨٨هـ) :"... وَتَقَدَّمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا جَوْهَرٍ وَلَا عَرَضٍ، فَهِيَ مِنَ الْمُسْتَحِيلَةِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى، وَمَا نَفَاهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ كَقَوْلِهِ **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**﴿الشورى: ١١﴾ ، **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾**﴿مريم: ٦٥﴾، **﴿فَلَا تَضْرِبُوا للهِ الْأَمْثَالَ﴾**﴿النحل: ٧٤﴾ ، **﴿فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا﴾**﴿البقرة: ٢٢﴾ ، **﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾** ﴿الإخلاص: ٣ - ٤﴾ ، **﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾**﴿الفرقان: ٢﴾ ، **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾**﴿الإسراء: ١١١﴾ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ" .

وقال أيضاً :"وَالْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ بِجِسْمٍ". انظر : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية (١/ ٢٦٣) ،(٢/ ٢٥٥) بالترتيب .

وقال الزَّبيدي(١٢٠٥هـ) :"... والله تعالى منزَّه عن التَّحيُّز ، ولأنَّ الحلول ينافي الوجوب الذَّاتي لافتقار الحالِّ إلى المحلِّ . وأمَّا صفاته فلانَّ الانتقال من صفات الأجسام ، والله تعالى منزَّه عن الجسميَّة".

وقال أيضاً :"... ولَّما ثبت انتفاء الجسميَّة بالمعنى المذكور ، ثبت انتفاء لوازمها ، وانتفاء الملزوم يستلزم انتفاء لازمه المساوي ، ولوازم الجسميَّة هي : الاتّصاف بالكيفيَّات المحسوسة بالحسِّ الظَّاهر أو الباطن من اللون ، والرَّائحة ، والصُّورة ، والعوارض النَّفسانيَّة من اللذَّة ، والألم ، والفرح ، والغمِّ ، ونحوها ، ولأنَّ هذه الأمور تابعة للمزاج المستلزم للتَّركيب المنافي للوجوب الذَّاتي ، ولأنَّ البعض منها تغيّرات وانتقالات ، وهي على البارئ تعالى محالٌ ، وما ورد في الكتاب والسُّنَّة من ذكر الرِّضا ، والغضب ، والفرح ، ونحوها ، يجب التَّنزيه عن ظاهره على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى". انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢٤) ،(٢/ ٩٩) بالترتيب ، وانظر أيضاً :(٩/ ٤٧) ،(٩/ ١٢٨) .

وقال محمَّد ثناء الله النَّقشبندي المظهري(١٢٢٥هـ) :" أجمع علماء أهل السُّنَّة من السَّلف والخلف أنَّ الله سبحانه منزَّه عن صفات الأجسام وسمات الحدوث". انظر : التفسير المظهري (١/ ٢٤٩) ، وانظر : (٥/ ٦)
.

وقال محمَّد عرفه الدَّسوقي(١٢٣٠هـ) :"... قَوْلُهُ : (أو لَفْظٍ يَقْتَضِيهِ) ، أَيْ : يَقْتَضِي الْكُفْرَ ، أَيْ : يَدُلُّ عليه ، سَوَاءٌ كانت الدَّلَالَةُ الْتِزَامِيَّةً ، كَقَوْلِهِ : اللهُ جِسْمٌ مُتَحَيِّزٌ ، فإن تَحَيُّزَهُ يَسْتَلْزِمُ حُدُوثَهُ لِافْتِقَارِهِ لِلْحَيِّزِ ، وَالْقَوْلُ بِذَلِكَ كُفْرٌ أو تَضَمُّنِيَّةٌ ، كما إذَا أتى بِلَفْظٍ له مَعْنًى مُرَكَّبٌ من كُفْرٍ وَغَيْرِهِ ...". انظر : حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٤/ ٣٠١) .

وقال ابن عابدين الحنفي(١٢٥٢هـ) :" (قَوْلُهُ : كَقَوْلِهِ جِسْمٌ كَالْأَجْسَامِ) وَكَذَا لَوْ لَمْ يَقُلْ كَالْأَجْسَامِ ، وأَمَّا لَوْ قَالَ لَا كَالْأَجْسَامِ فَلَا يَكْفُرُ لأَنَّه لَيْسَ فِيهِ إلَّا إطْلَاقُ لَفْظِ الْجِسْمِ الْمُوهِمِ لِلنَّقْصِ فَرَفَعَهُ بِقَوْلِهِ لَا كَالْأَجْسَامِ ، فَلَمْ يَبْقَ إلَّا مُجَرَّدَ الْإِطْلَاقِ ، وَذَلِكَ مَعْصِيَةٌ". انظر : رد المحتار على الدر المختار (١/ ٥٦١)
.

وقال شهاب الدِّين محمود الألوسي(١٢٧٠هـ) عند تفسير قوله تعالى : **﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**﴿النحل:٣﴾ :"... واستدلَّ بالآية على أنَّه تعالى ليس من قبيل الأجرام والأجسام ، كما يقوله المجسِّمة ، ووجه ذلك أنَّها تدلُّ على احتياج الأجرام والأجسام إلى خالق سبحانه وتعالى لا يجانسها ، وإلَّا لاحتاج إليه فلا يكون خالقاً".

وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالى : **﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾**﴿الأنعام: ٧٦﴾ :"أنَّ قوله سبحانه : **﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾** يدلَّ على أنَّه عزَّ وجلَّ ليس بجسم ، إذ لو كان جسماً لكان غائباً عنَّا ، فيكون آفلاً ، والأفول ينافي الرُّبوبيَّة ، ولا يخفى أنَّ عدَّ تلك الغيبة المفروضة أفولاً لا يخلو عن شيء ، لأنَّ الأُفول احتجاب مع انتقال ، وتلك الغيبة المفروضة لم تكن كذلك ، بل هي مجرَّد احتجاب فيما يظهر . نعم أنَّه ينافي الرُّبوبيَّة أيضاً ، لكن الكلام في كونه أفولاً ليتم الاحتجاج بالآية ، لا يقال : قد جاء في حديث الإسراء ذكر الحجاب ، فكيف يصحُّ القول بأنَّ الاحتجاب مناف للرُّبوبيَّة لأنَّا نقول : الحجاب الوارد – كما قال القاضي

عياض- إنَّما هو في حقِّ العباد ، لا في حقِّه تعالى ، فهم المحجوبون ، والباري جلَّ اسمه منزَّه عمَّا يحجبه ، إذ الحجاب إنَّما يحيط بمقدَّر محسوس ، ونصَّ غير واحد أنَّ ذكر الحجاب له تعالى تمثيل لمنعه سبحانه الخلق عن رؤيته".

وقال أيضاً :"إذ علمت هذا فاعلم أنَّ إطلاق النُّور على الله سبحانه وتعالى بالمعنى اللغوي والحكمي السَّابق غير صحيح ، لكمال تنزُّهه جلَّ وعلا عن الجسميَّة والكيفيَّة ولوازمهما". انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٧/ ٣٤٠) ، (٤/ ١٩٧) ، (٩/ ٣٥٦) بالترتيب .

وقال محمَّد بن أحمد بن محمَّد عليش ، أبو عبد الله المالكي (١٢٩٩هـ) :"وَسَوَاءٌ كَفَرَ (بِـ) قَوْلٍ (صَرِيحٍ) فِي الْكُفْرِ ، كَقَوْلِهِ كُفْرٌ بِاَللَّهِ أَوْ بِرَسُولِ اللَّهِ أَوْ بِالْقُرْآنِ أَوْ الْإِلَهُ اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ أَوْ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ أَوْ الْعَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ (أَوْ) بِـ (لَفْظٍ يَقْتَضِيه) ، أَيْ : يَسْتَلْزِمُ اللَّفْظُ الْكُفْرَ اسْتِلْزَاماً بَيِّناً ، كَجَحْدِ مَشْرُوعِيَّةِ شَيْءٍ مُجْمَعٍ عَلَيْهِ ، مَعْلُومٍ مِنْ الدِّينِ ضَرُورَةً ، فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ تَكْذِيبَ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ ، وَكَاعْتِقَادِ جِسْمِيَّةِ اللَّهِ وَتَحَيُّزِهِ ، فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ حُدُوثَهُ وَاحْتِيَاجَهُ لِمُحْدِثٍ وَنَفْيِ صِفَاتِ الْأُلُوهِيَّةِ عَنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ شَأْنُهُ". انظر : منح الجليل شرح مختصر خليل (٩/ ٢٠٥-٢٠٦) .

وقال سليم البِشْري المالكي (١٣٣٥هـ) :"... من اعتقد أنَّ الله جسم أو أنَّه مماسّ للسَّطح الأعلى من العرش ، وبه قالت الكرَّاميَّة واليهود ، وهؤلاء لا نزاع في كفرهم ، ومنهم من أثبت الجهة مع التَّنزيه ، وأنَّ كونه فيعا ليس ككون الأجسام ، وهؤلاء ضُلَّال فُسَّاق في عقيدتهم ، وإطلاقهم ما لم يأذن به الشَّارع ، ولا مِرية أنَّ فاسق العقيدة أقبح وأشنع من فاسق الجَارحة بكثير ، سيَّما من كان داعية ، أو مُقتدى به". انظر : فرقان القرءان بين صفات الخالق وصفات الأكوان (ص٦٥) .

وقال أبو العلا المباركفورى (١٣٥٣هـ) :"... فَإِنْ فُسِّرَ الصَّمَدُ بِهَذَا كَانَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَيَتَعَالَى اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَنْ صِفَاتِ الْجِسْمِيَّةِ". انظر : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٩/ ٢١١) .

وقال محمَّد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ) :"وَلَكِنْ تَقْدِيسُهُ الَّذِي هُوَ نَفْيٌ لِلْمُحَالِ عَنْهُ ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُفَصَّلاً ، فَإِنَّ الْمَنْفِيَّ هِيَ الْجِسْمِيَّةُ وَلَوَازِمُهَا ... وَلِهَذَا أَقُولُ : يَحْرُمُ عَلَى الْوُعَّاظِ عَلَى رُءُوسِ الْمَنَابِرِ الْجَوَابُ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِالْخَوْضِ فِي التَّأْوِيلِ وَالتَّفْصِيلِ ، بَلِ الْوَاجِبُ

عَلَيْهِمُ الِاقْتِصَارُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ وَذَكَرَهُ السَّلَفُ ، وَهُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي التَّقْدِيسِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ ، وَأَنَّهُ – تَعَالَى – منزَّه عَن الْجِسْمِيَّةِ وَعَوَارِضِهَا ، وَلَهُ الْمُبَالَغَةُ فِي هَذَا بِمَا أَرَادَ حتَّى يَقُولَ : كُلُّ مَا خَطَرَ بِبَالِكُمْ وَهَجَسَ فِي ضَمِيرِكُمْ وَتُصُوِّرَ فِي خَاطِرِكُمْ ، فَاللهُ – تَعَالَى – خَالِقُهَا ، وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهَا وَعَنْ مُشَابَهَتِهَا ، وَأَنْ لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْإِخْبَارِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ . وأمَّا حَقِيقَةُ الْمُرَادِ فَلَسْتُمْ مِنْ أَهْلِ مَعْرِفَتِهَا وَالسُّؤَالِ عَنْهَا ، فَاشْتَغِلُوا بِالتَّقْوَى ، فَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ – تَعَالَى – بِهِ فَافْعَلُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَهَذَا قَدْ نُهِيتُمْ عَنْهُ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهُ ، وَمَهْمَا سَمِعْتُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَاسْكُتُوا ، وَقُولُوا : آمَنَّا ، وَصَدَّقْنَا ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَا أُوتِينَا".

وقال أيضاً :"وَمَا أَهْوَنَ عَلَى الْبَصِيرِ أَنْ يَغْرِسَ فِي قَلْبِ الْعَامِّيِّ التَّنْزِيهَ وَالتَّقْدِيسَ عَنْ صُورَةِ النُّزُولِ ، بِأَنْ يَقُولَ لَهُ : إِنْ كَانَ نُزُولُهُ إلى السَّماء الدُّنيا لِيُسْمِعَنَا نِدَاءَهُ وَقَوْلَهُ فَمَا أَسْمَعَنَا ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي نُزُولِهِ ؟ وَلَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُنَادِيَنَا كَذَلِكَ وَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ أَوْ عَلَى السَّماء الْعُلْيَا ، فَهَذَا الْقَدْرُ يَعْرِفُ الْعَامِّيُّ أَنَّ ظَاهِرَ النُّزُولِ بَاطِلٌ ، بَلْ مِثَالُهُ أَنْ يُرِيدَ مَنْ فِي الْمَشْرِقِ إِسْمَاعَ شَخْصٍ فِي الْمَغْرِبِ ، وَمُنَادَاتَهُ ، فَتَقَدَّمَ إلى الْمَغْرِبِ بِأَقْدَامٍ مَعْدُودَةٍ ، وَأَخَذَ يُنَادِيهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا يَسْمَعَ ، فَيَكُونُ نَقْلُهُ الْأَقْدَامَ عَمَلاً بَاطِلاً وَفِعْلاً كَفِعْلِ الْمَجَانِينِ ، فَكَيْفَ يَسْتَقِرُّ مِثْلُ هَذَا فِي قَلْبِ عَاقِلٍ ؟ بَلْ يَضْطَرُّ بِهَذَا الْقَدْرِ كُلُّ عَامِّيٍّ إلى أَنْ يَتَيَقَّنَ نَفْيَ صُورَةِ النُّزُولِ ، وَكَيْفَ وَقَدْ عَلِمَ اسْتِحَالَةَ الْجِسْمِيَّةِ عَلَيْهِ ، وَاسْتِحَالَةُ الِانْتِقَالِ عَلَى غَيْرِ الْأَجْسَامِ ، كَاسْتِحَالَةِ النُّزُولِ مِنْ غَيْرِ انْتِقَالٍ". انظر : تفسير القرآن الحكيم(تفسير المنار)(٣/ ١٧٥-١٧٦)،(٣/ ١٨١-١٨٢).

وقال عبد الرَّحْمَن الجزيري(١٣٦٠هـ) :"فإنَّ المالكيَّة قالوا : إنَّ ما يوجب الردَّة ينقسم إلى ثلاثة أقسام : ... الثَّاني : ... أو يقول : إنَّ الله جسمٌ متحيِّز في مكان ، لأنَّ ذلك يستلزم أن يكون الإله محتاجاً للمكان ، والمحتاج حادث لا قديم".

وقال أيضاً :"الردَّة – والعياذ بالله تعالى – كفر مسلم تقرَّر إسلامه بالشَّهادتين مختاراً بعد الوقوف على الدَّعائم ، والتزامه أحكام الإسلام ، ويكون ذلك بصريح القول ، كقوله : أشرك بالله

، أو قول يقتضي الكفر ، كقوله : إنَّ الله جسم كالأجسام". انظر : الفقه على المذاهب الأربعة(٤/ ٢٠٥) ،(٥/ ٣٧٢) بالترتيب

وقال محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني(١٣٦٧هـ) :"لقد أسرفَ بعض النَّاس في هذا العصر، فخاضوا في متشابه الصِّفات بغير حقٍّ، وأتوا في حديثهم عنها وتعليقهم عليها بما لم يأذن به الله، ولهم فيها كلمات غامضة تحتمل التَّشبيه والتَّنزيه ، وتحتمل الكفر والإيمان ، حتَّى باتت هذه الكلمات نفسها من المتشابهات .

ومن المؤسف أنَّهم يواجهون العامَّة وأشباههم بهذا، ومن المحزن أنَّهم ينسبون ما يقولون إلى سلفنا الصَّالح ، ويخيِّلون إلى النَّاس أنَّهم سلفيُّون .

من ذلك قولهم : إنَّ الله تعالى يُشار إليه بالإشارة الحسيَّة ، وله من الجهات السِّت جهة الفوق ، ويقولون : أنَّه استوى على عرشه بذاته استواء حقيقيَّاً ، بمعنى أنَّه استقرَّ فوقه استقراراً حقيقيَّاً، غير أنَّهم يعودون فيقولون : ليس كاستقرارنا ، وليس على ما نعرف ، وهكذا يتناولون أمثال هذه الآية ، وليس لهم مستندٌ فيما نعلم إلَّا التشبُّث بالظَّواهر ، ولقد تجلَّى لك مذهب السَّلف والخلف ، فلا نطيل بإعادته .

ولقد علمت أنَّ حملَ المتشابهات في الصِّفات على ظواهرها مع القول بأنَّها باقية على حقيقتها ليس رأياً لأحد من المسلمين ، وإنَّما هو رأيٌ لبعض أصحاب الأديان الأخرى ، كاليهود ، والنَّصارى ، وأهل النِّحل الضَّالَّة ، كالمشبِّهة ، والمجسِّمة . أمَّا نحن معاشر المسلمين فالعُمدة عندنا في أمور العقائد هي الأدلة القطعيَّة التي توافرت على أنَّه تعالى ليس جسماً ، ولا متحيِّزاً ، ولا متجزِّئاً ، ولا متركِّباً ، ولا محتاجاً لأحد ، ولا إلى مكان ، ولا إلى زمان ، ولا نحو ذلك .

ولقد جاء القرآن بهذا في محكماته إذ يقول : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**﴿الشورى: ١١﴾ ، ويقول : **﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾**﴿الإخلاص: ١ – ٤﴾ ، ويقول : **﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾**﴿الزمر: ٧﴾ ، ويقول : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاس أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾**﴿فاطر: ١٥﴾ ،

وغير هذا كثير في الكتاب والسُّنَّة . فكلُّ ما جاء مخالفاً بظاهره لتلك القطعيَّات والمحكمات ، فهو من المتشابهات التي لا يجوز اتِّباعها ، كما تبيَّن لك فيما سلف .

ثمَّ إنَّ هؤلاء المتمسِّحين بالسَّلف متناقضون ، لأنَّهم يثبتون تلك المتشابهات على حقائقها ، ولا ريب أنَّ حقائقها تستلزم الحدوث وأعراض الحدوث ، كالجسميَّة ، والتَّجزُّؤ ، والحركة ، والانتقال ، لكنَّهم بعد أن يُثبتوا تلك المتشابهات على حقائقها ينفون هذه اللوازم ، مع أنَّ القول بثبوت الملزومات ونفي لوازمها تناقضٌ لا يرضاه لنفسه عاقلٌ فضلا عن طالب أو عالم .

فقولهم في مسألة الاستواء الآنفة : إنَّ الاستواء باقٍ على حقيقته . يفيد أنَّه الجلوس المعروف المستلزم للجسميَّة والتَّحيُّز ، وقولهم بعد ذلك : ليس هذا الاستواء على ما نعرف ، يفيد أنَّه ليس الجلوس المعروف المستلزم للجسميَّة والتَّحيُّز ، فكأنهم يقولون : أنَّه مستو غير مستو ، ومستقرّ فوق العرش غير مستقر ، أو متحيِّز غير متحيِّز ، وجسم غير جسم ، أو أنَّ الاستواء على العرش ليس هو الاستواء على العرش ، والاستقرار فوقه ليس هو الاستقرار فوقه ، إلى غير ذلك من الإسفاف والتَّهافت .

فإن أرادوا بقولهم : الاستواء على حقيقته ، أنَّه على حقيقته التي يعلمها الله ، ولا نعلمها نحن ، فقد اتَّفقنا ، لكن بقي أنَّ تعبيرهم هذا موهمٌ لا يجوز أن يصدر من مؤمنٍ ، خصوصاً في مقام التعليم والإرشاد ، وفي موقف النِّقاش والحِجاج ، لأنَّ القول بأنَّ اللفظ حقيقة أو مجاز لا ينظر فيه إلى علم الله وما هو عنده ، ولكن ينظر فيه إلى المعنى الذي وُضع له اللفظ في عرف اللغة ، والاستواء في اللغة العربيَّة يدلُّ على ما هو مستحيلٌ على الله في ظاهره ، فلا بدَّ إذن من صرفه عن هذا الظَّاهر ، واللفظ إذا صُرف عمَّا وُضع له ، واستعمل في غير ما وُضع له ، خرج عن الحقيقة إلى المجاز لا محالة ما دامت هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

ثمَّ إنَّ كلامهم بهذه الصُّورة فيه تلبيس على العامَّة وفتنة لهم ، فكيف يواجهونهم به ويحملونهم عليه ، وفي ذلك ما فيه من الإضلال ، وتمزيق وحدة الأُمَّة ، الأمر الذي نهانا القرآن عنه ، والذي

جعل عمر يفعل ما يفعل بصبيغ أو بابن صبيغ ، وجعل مالكاً يقول ما يقول ويفعل ما يفعل بالذي سأله عن الاستواء ، وقد مرَّ بك هذا وذاك .

ولو أنصف هؤلاء لسكتوا عن الآيات والأخبار المتشابهة ، واكتفوا بتنزيه الله تعالى عمّا تُوهِمه ظواهرها من الحدوث ولوازمه ، ثمَّ فوَّضوا الأمر في تعيين معانيها إلى الله وحده ، وبذلك يكونوه سلفيِّين حقاً ، لكنَّها شبهات عرضت لهم في هذا المقام فشوَّشت حالهم ، وبلبلت أفكارهم".

وقال أيضاً :"... والمتتبِّع لكلامهم يجد فيه العبارات الصَّريحة في إثبات الجهة لله تعالى ، وقد كفَّر العراقي وغيره مثبت الجهة لله تعالى ، وهو واضح ، لأنَّ معتقد الجهة لا يمكنه إلَّا أن يعتقد التَّحيُّز والجسميَّة ، ولا يتأتَّى غير هذا ، فإن سمعت منهم سوى ذلك ، فهو قول متناقض ، وكلامهم لا معنى له". انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٢٩١-٢٩٣) ، (٢/ ٢٩٧) بالترتيب .

وقال سلامة القضاعي العزامي الشَّافعي (١٣٧٦هـ) :"إذا سمعت في بعض عبارات بعض السَّلف : إنَّما نؤمن بأنَّ له وجهاً لا كالوجوه ، ويداً لا كالأيدي ، فلا تظن أنَّهم أرادوا أنَّ ذاته العليَّة منقسمة إلى أجزاء وأبعاض ، فجزء منها يد ، وجزء منه وجه ، غير أنَّه لا يشابه الأيدي والوجوه التي للخلق .

حاشاهم من ذلك ، وما هذا إلَّا التَّشبيه بعينه ، وإنَّما أرادوا بذلك أنّ لفظ الوجه واليد قد استعمل في معنى من المعاني وصفة من الصِّفات الّتي تليق بالذات العليَّة ، كالعظمة والقدرة ، غير أنَّهم يتورَّعون عن تعيين تلك الصِّفة تهيُّباً من التَّهجُّم على ذلك المقام الأقدس ، وانتهز المجسِّمة والمشبِّهة مثل هذه العبارة فغرَّروا بها العوام ، وخدعوا بها الأغمار من النَّاس ، وحملوها على الأجزاء فوقعوا في حقيقة التَّجسيم والتَّشبيه ، وتبرَّأوا من اسمه ، وليس يخفى نقدهم المزيَّف على صيارفة العلماء وجهابذة الحكماء". انظر : فرقان القرءان بين صفات الخالق وصفات الأكوان (ص٧٠-٧١) .

وقال محمَّد العربي بن التبَّاني المالكي (١٣٩٠هـ) ما نصّه :"اتَّفق العقلاء من أهل السُّنَّة الشَّافعيَّة ، والحنفيَّة ، والمالكيَّة ، وفضلاء الحنابلة وغيرهم على أنَّ الله تبارك وتعالىَ مُنَزَّهٌ عن الجهة ، والجسميَّة ، والحدِّ ، والمكان ، ومشابَهة مخلوقاته". انظر : براءة الأشعريين من عقائد المخالفين (ص٧٩) .

وقال محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي(١٣٩٣هـ) :"وَلَمَّا كَانَ الْإِتْيَانُ يَسْتَلْزِمُ التَّنَقُّلَ أَوِ التَّمَدُّدَ لِيَكُونَ حَالًّا فِي مَكَانٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ حتَّى يَصِحَّ الْإِتْيَانُ ، وَكَانَ ذَلِك يسْتَلْزِم التنقل الْجِسْمَ ، وَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنْهُ ، تَعَيَّنَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ ، فَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ خَبَراً أَوْ تَهَكُّماً فَلَا حَاجَةَ لِلتَّأْوِيلِ ، لِأَنَّ اعْتِقَادَهُمْ ذَلِكَ مَدْفُوعٌ بِالْأَدِلَّةِ ، وَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ وَعِيداً مِنَ اللهِ لَزِمَ التَّأْوِيلَ ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مَوْجُودٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَكِنَّهُ لَا يَتَّصِفُ بِمَا هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْحَوَادِثِ ، كَالتَّنَقُّلِ وَالتَّمَدُّدِ لِمَا عَلِمْتَ ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَأْوِيلِ هَذَا عِنْدَنَا عَلَى أَصْلِ الْأَشْعَرِيِّ فِي تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ".انظر : التحرير والتنوير(٢/ ٢٨٤) .

وقال أيضاً :"وَكَانَ السَّلَفُ يُقِرُّونَ أَنَّ الْيَدَيْنِ صِفَةٌ خَاصَّةٌ للهِ تَعَالَى ، لِوُرُودِهِمَا فِي الْقُرْآنِ مَعَ جَزْمِهِمْ بِتَنْزِيهِ اللهِ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقَاتِ وَعَنِ الْجِسْمِيَّةِ ...". انظر : التحرير والتنوير(٢٣/ ٣٠٣) .

وقال محمَّد علي السَّايس(١٣٩٦هـ) :"فإنَّ اليهود يعتقدون أنَّ الإله جسم ، مع أنَّ الإله الحقَّ منزَّه عن الجسميَّة والشَّبيه ، فهم لا يؤمنون بوجود الإله الحقّ المنزَّه عن الجسميَّة". انظر : تفسير آيات الأحكام(ص٤٤٩) .

وقال محمَّد بن السيِّد علوي المالكي الحسني(١٤٢٥هـ) :"ونزول الجسم ومجيئه إنَّما يكون بالانتقال اللائق بالأجسام ، ونزول من ليس بجسم يستحيل أن يكون النُّزول المعروف من الأجسام ، وإنَّما هو نزول إلهي منزَّه عن الانتقال والمثل ، كما أنَّ الذَّات تعالت وتقدَّست عن المِثل .

وكما أنَّ أهل السُّنَّة لا خلاف بينهم في أنَّ اليد في قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾**﴿الفتح : ١٠﴾ ، هي غير الجارحة المعلومة ، وكذلك السَّاق والأصبع ، ونحو ذلك ، فهي غير اليد التي نعرفها ، والسَّاق التي نعرفها ، والأصبع التي نعرفها ، فيجب أن نقول : نزوله ومجيئه واستواؤه ، غير النُّزول المعروف في الأجسام ومجيئها واستوائها .

ومن أثبت للحقِّ النُّزول والمجيء والاستواء الجسماني اللازم للأجسام ، فقد ضلَّ ، وقد آمن أهل الحقِّ بالنُّزول والمجيء الإلهي المنزَّه عن صفات الأجسام وسمات الحدوث ، وكفروا بالنُّزول

والمجيء الجسماني بالانتقال من مكان إلى مكان ، وآمنوا بالاستواء الإلهي على العرش ، وكفروا بالاستواء المعروف من الأجسام ، لأنَّ الاستواء المعروف من الأجسام مكيَّف .

وهذه هي الطَّريقة السَّلفيَّة الصَّحيحة التي كان عليها خير الأُمَّة من الصَّحابة والتَّابعين . وقد آمنَّا بما جاء عن الله على مراد الله عزَّ وجلَّ ، وآمنَّا بما جاء عن الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وهو الذي يليق بالمنزَّه عن الجسميَّة قطعاً ، لا على مراد الخيالات والتَّصوُّرات والأوهام . وكلُّ ما خطر ببالك – من تصوُّر للذَّات العليَّة – فهو هالك ، والله بخلاف ذلك . وليس للإنسان أن يذهب في تصوُّر الذَّات العليَّة المذهب الخاطئ حيث يقيس الخالق على المخلوق مع علمه بأنَّه المنزَّه الذي ليس له مثيل". انظر : منهج السلف في فهم النصوص بين النظرية والتطبيق (ص١٧-١٨) .

وقال محمَّد سيِّد طنطاوي(١٤٣١هـ) :"كما أنَّه- عزَّ وجلَّ- منزَّه عن الجسميَّة والتَّحيُّز ، ومشابهة غيره". انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٥/ ٥٤٠) .

وقال وهبة بن مصطفى الزُّحيلي(٢٠١٥م) :"متَّبعو المتشابه أمَّا أن يتَّبعوه طلباً للتَّشكيك في القرآن وإضلال العوامّ ، كما فعلته الزَّنادقة والقرامطة الطَّاعنون في القرآن ، وأمَّا أن يتَّبعوه طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه ، كما فعلته المجسِّمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسُّنَّة ، ممَّا ظاهره الجسميَّة ، حتَّى اعتقدوا أنَّ البارئ تعالى جسمٌ مجسَّم ، وصورة مصوَّرة ذات وجه ، وعين ، ويد ، وجنب ، ورِجْل ، وأصبع ، تعالى الله عن ذلك". انظر : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (٣/ ١٥٧) .

وقال أيضاً :"والمراد بقوله :**﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾**﴿القلم:٤٢﴾ : شدَّة الأمر ، وعظم الخطب ، لأنَّ الله تعالى منزَّه عن الجسميَّة وعن كلِّ صفات الحوادث ، فليس المراد بالسَّاق الجارحة ، وإنَّما ذلك مؤول بما ذكر". انظر : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (٢٩/ ٦٩) .

وقال محمَّد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي الوَلَّوِي(معاصر) :"... وقد قال الله – عَزَّ وَجَلَّ- : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾**﴿الفجر: ٢٢﴾ ، وليس مجيئه حركة ، ولا زوالاً ، ولا انتقالاً ، لأنَّ ذلك إنَّما يكون إذا كان الجائي جسماً ، أو جوهراً ، فلمّا ثبت أنَّه ليس بجسم ولا جوهر ، لم يجب أن يكون

مجيئه حركة ، ولا نقلة ، ولو اعتبرت ذلك بقولهم : جاءت فلاناً قيامته ، وجاءه الموت ، وجاءه المرض ، وشبه ذلك ممَّا هو موجود نازل به ، ولا مجيء ، لبان لك . وبالله العصمة والتَّوفيق". انظر : شرح سنن النسائي المسمَّى"ذخيرة العقبى في شرح المجتبى" (١٤/ ٢٧٧) .

فأقلُّ ما قاله العلماء فيمن قال : جسمٌ لا كالأجسام : أنَّه مبتدع عاصٍ يستحقُّ العقاب ، وبعضهم حكـــم بكفره ، والعياذ بالله ...

وقال أحمد بن محمَّد بن علي بن حجر الهيتمي السَّعدي الأنصاري ، شهاب الدِّين شيخ الإسلام في"الفتاوى الحديثيَّة" (ص٢٧٠-٢٧١) ، حين سئل :"فِي عقائد الْحَنَابِلَة مَا لَا يخفى على شرِيف علمكُم ، فَهَل عقيدة أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ كعقائدهم ؟ ، قال : عقيدة إِمَام السّنة أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ وأرضاه ، وَجعل جنان المعارف متقلَّبه ومأواه ، وأفاض علينا وَعَلِيهِ من سوابغ امتنانه ، وبوأه الفردوس الْأَعْلَى من جنانه ، مُوَافقَة لعقيدة أهل السّنة وَالْجَمَاعَة من الْمُبَالغَة التَّامَّة فِي تَنْزِيه الله تَعَالَى عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ والجاحدون علواً كَبِيراً من الْجِهَة والجسميَّة ، وَغَيرهمَا من سَائِر سمات النَّقْص ، بل وَعَن كل وَصْف لَيْسَ فِيهِ كَمَال مُطلق ، وَمَا اشْتهر بَين جهلة المنسوبين إِلَى هَذَا الإِمَام الْأَعْظَم الْمُجْتَهد من أَنَّه قَائِل بِشَيْء من الْجِهَة أَو نَحْوهَا فكذب وبُهتان وافتراء عَلَيْهِ ، فلعن الله من نسب ذَلِك إِلَيْهِ ، أَو رَمَاه بِشَيْء من هَذِه المثالب الَّتِي برَّأه الله مِنْهَا ، وَقد بَيَّن الْحَافِظ الْحجَّة الْقدْوَة الإِمَام أَبُو الْفرج بن الْجَوْزِيّ من أَئِمَّة مذْهبه المبرِّئين من هَذِه الوصمة القبيحة الشَّنيعة ، أَنَّ كل مَا نسب إِلَيْهِ من ذَلِك كذب عَلَيْهِ وافتراء وبهتان ، وَأَنَّ نصوصه صَرِيحَة فِي بطلَان ذَلِك وتنزيه الله تَعَالَى عَنهُ ، فَاعْلَم ذَلِك فَإِنَّهُ مُهِمّ . وَإِيَّاك أنْ تصغى إِلَى مَا فِي كتب ابْن تَيْمِية وتلميذه ابْن قيِّم الجوزيَّة وَغَيرهمَا مِمَّن اتَّخذ إلهه هَوَاهُ ، وأضلَّه الله على علم ، وَختم على سَمعه وَقَلبه ...".

فالله تعالى ليس جسماً ، لأنَّ الجسم يتشكَّل من أجزاء ، ولا يقوم بغير أجزائه ، كما أنَّه لا ينفكُّ عن لوازمه من الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق ، وهذه اللوازم كلّها حادثة لتغيُّرها وتبدُّلها وعدم قيامها بنفسها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حــادث ، ويلزم من القول بالجسميَّة حدوث الله ، والله تعالى واجب الوجود لذاته ، ولو كان جسماً لكان له شبيه ومثيل ، ونحن نعلم أنَّ العديد

من آيات القرآن الكريم نفت عن اللهّ تعـالى الشَّبيه والمثيل ، فلا يجوز أن يكـون جسماً ، والجسم مركَّب وهو مفتقرٌ إلى ما ركِّب منه ، وكذا مفتقر إلى من يركِّبه ، وبالتَّالي فإنَّ واجب الوجود يكون ممكناً ، وهذا يتعارض مع ما ثبت بالضَّرورة أنَّه واجب الوجود ...

قال فخر الدِّين الرَّازي في"أساس التَّقديس" (ص٨٦-٨٧) :"اعلم أنَّ المشهور عن قدماء الكرَّاميَّة : إطلاق لفظ الجسم على الله تعالى . إلَّا أنَّهم يقولون : لا نريد به كونه تعالى مؤلَّفاً من الأجزاء ومركَّباً من الأبعاض ، بل نريد كونه تعالى غنيَّاً عن المحلِّ قائماً بالنَّفس ، وعلى هذا التَّقدير ، فإنَّه يصير النِّزاع في أنَّه تعالى جسم أو لا نزاعاً لفظيَّاً ، هذا حاصل ما قيل في هذا الباب . إلَّا أنَّا نقول : كلُّ ما كان مختصَّاً بحيِّز أو جهة ، ويمكن أن يُشار إليه بالحسِّ ، فذلك المشار إليه أمَّا أن لا يبقى منه شيء في جوانبه الست ، وأمَّا أن يبقى ، فإن لم يبقى منه شيء في جوانبه السِّت ، فهذا يكون كالجوهر الفرد ، وكالنُّقطة التي لا تتجزَّأ ، ويكون في غاية الصِّغر والحقارة . ولا أظنُّ أنَّ عاقلاً يرضى أن يقول : إنَّ إله العالم كذلك ، وأمَّا إن بقي شيء في جوانبه السِّت أو في أحد هذه الجوانب ، فهذا يقتضي كونه مؤلَّفاً مركَّباً من جزأين أو أكثر ، وأقصى ما في الباب أن يقول قائل : إنَّ تلك الأجزاء لا تقبل التفرُّق والانحلال ، إلَّا أنَّ هذا لا يمنع من كونه في نفسه مركَّباً مؤلَّفاً ، كما أنَّ الفلسفي يقول : الفلك جسم ، إلَّا أنَّه لا يقبل الخرق والالتئام ، فإنَّ ذلك لا يمنعه من اعتقاد كونه جسماً طويلاً عريضاً عميقاً .

فثبت أنَّ هؤلاء الكرَّاميَّة لما اعتقدوا كونه تعالى مختصَّاً بالحيِّز والجهة ، ومشاراً إليه بحسب الحسِّ ، واعتقدوا أنه تعالى ليس في الصِّغر والحقارة مثل الجوهر الفرد والنُّقطة التي لا تتجزَّأ : وجب أن يكونوا قد اعتقدوا أنَّه تعالى ممتدٌّ في الجوانب ، أو في بعض الجوانب ، ومن قال ذلك فقد اعتقد كونه مركَّباً مؤلَّفاً ، فكان امتناعه عن إطلاق لفظ المؤلَّف والمركَّب ، امتناعاً عن مجرَّد هذا اللفظ مع كونه معتقداً لمعناه ، فثبت أنَّهم أطلقوا لفظ الجسم : لأجل أنَّهم اعتقدوا كونه تعالى طويلاً عريضاً عميقاً ممتدَّاً في الجهات . فثبت أنَّ امتناعهم عن هذا الكلام : لمحض التقيَّة والخوف ، وإلَّا فهم يعتقدون كونه تعالى مركَّباً مؤلَّفاً".

وقال الرَّازي :"لَوْ كَانَ جِسْماً مُتَحَيِّزاً لَكَانَ مُشَارِكاً لِسَائِرِ الْأَجْسَامِ فِي عُمُومِ الجِسْمِيَّةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَخْلُو أمَّا أَنْ يَكُونَ مُخَالِفاً فِي خُصُوصِ ذَاتِهِ المَخْصُوصَةِ ، وأمَّا أن لَا يَكُونُ فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ فَمَا بِهِ المُشَارَكَةُ غَيْرُ مَا بِهِ المُمَايَزَةُ ، فَعُمُومُ كَوْنِهِ جِسْماً مُغَايِرٌ لِخُصُوصِ ذَاتِهِ المَخْصُوصَةِ ، وَهَذَا مُحَالٌ لِأَنَّا إِذَا وَصَفْنَا تِلْكَ الذَّاتِ المَخْصُوصَةَ بِالمَفْهُومِ مِنْ كَوْنِهِ جِسْماً كُنَّا قَدْ جَعَلْنَا الجِسْمَ صِفَةً ، وَهَذَا مُحَالٌ لِأَنَّ الجِسْمَ ذَاتُ الصِّفة ، وَإِنْ قُلْنَا بِأَنَّ تِلْكَ الذَّاتَ المَخْصُوصَةَ الَّتِي هِيَ مُغَايِرَةٌ لِلْمَفْهُومِ مِنْ كَوْنِهِ جِسْماً وَغَيْرَ مَوْصُوفٍ بِكَوْنِهِ جِسْماً ، فَحِينَئِذٍ تَكُونُ ذَاتُ اللهَّ تَعَالَى شَيْئاً مُغَايِراً لِلْمَفْهُومِ مِنَ الجِسْمِ ، وَغَيْرَ مَوْصُوفٍ بِهِ وَذَلِكَ يَنْفِي كَوْنَهُ تَعَالَى جِسْماً ، وأمَّا إِنْ قِيلَ : إِنَّ ذَاتَهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ كَانَتْ جِسْماً لَا يُخَالِفُ سَائِرَ الْأَجْسَامِ فِي خُصُوصِيَّةٍ ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مَثَلاً لَهَا مُطْلَقاً ، وَكُلُّ مَا صَحَّ عَلَيْهَا فَقَدْ صَحَّ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَجْسَامُ مُحْدَثَةً وَجَبَ فِي ذَاتِهِ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ ، فَثَبَتَ أَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا بِمُتَحَيِّزٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ المَجِيءُ وَالذَّهَابُ عَلَيْهِ".

وقال الرَّازي أيضاً :"لَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ مُرَكَّباً وَالمُرَكَّبُ مُمْكِنٌ وَأَيْضاً أَنَّهُ أَحَدٌ ، وَالْأَحَدُ لَا يَكُونُ مُرَكَّباً ، وَمَا لَا يَكُونُ مُرَكَّباً لَا يَكُونُ جِسْماً ، وَأَيْضاً أَنَّه غني كما قال : ﴿**وَاللهُ الْغَنِيُّ**﴾ [محمّد : ٣٨] ، وَالْغَنِيُّ لَا يَكُونُ مُرَكَّباً ، وَمَا لَا يَكُونُ مُرَكَّباً لَا يَكُونُ جِسْماً . وَأَيْضاً الْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فِي تَمَامِ المَاهِيَّةِ ، فَلَوْ كَانَ جِسْماً لَحَصَلَ لَهُ مِثْلٌ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ لِقَوْلِهِ : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى : ١١] ، فَأَمَّا الدَّلَائِلُ الْعَقْلِيَّةُ فَكَثِيرَةٌ ظَاهِرَةٌ بَاهِرَةٌ قَوِيَّةٌ جَلِيَّةٌ وَالحَمْدُ للهَّ عَلَيْهِ".

وقال الرَّازي أيضاً في شرحه لقوله تعالى : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى : ١١] :"احْتَجَّ عُلَمَاءُ التَّوْحِيدِ قَدِيماً وَحَدِيثاً بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي نَفْيِ كَوْنِهِ تَعَالَى جِسماً مُرَكَّباً مِنَ الْأَعْضَاءِ وَالْأَجْزَاءِ وَحَاصِلاً فِي المَكَانِ وَالجِهَةِ ، وَقَالُوا : لَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ مِثْلاً لِسَائِرِ الْأَجْسَامِ ، فَيَلْزَمُ حُصُولُ الْأَمْثَالِ وَالْأَشْبَاهِ لَهُ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ بِصَرِيحِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى : ١١] ، وَيُمْكِنُ إِيرَادُ هَذِهِ الحُجَّةِ عَلَى وَجْهٍ آخَرَ، فَيُقَالُ : أَمَّا أَنْ يَكُونَ المُرَادُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي مَاهِيَّاتِ الذَّاتِ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ فِي الصِّفات شَيْءٌ ، وَالثَّانِي بَاطِلٌ ، لِأَنَّ الْعِبَادَ يُوصَفُونَ بِكَوْنِهِمْ عَالِمِينَ قَادِرِينَ ، كَمَا أَنَّ اللهَّ تَعَالَى يُوصَفُ بِذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ يُوصَفُونَ بِكَوْنِهِمْ

مَعْلُومِينَ مَذْكُورِينَ ، مَعَ أَنَّ اللهَّ تَعَالَى يُوصَفُ بِذَلِكَ ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُمَاثَلَةِ الْمُسَاوَاةُ فِي حَقِيقَةِ الذَّاتِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ شَيْئاً مِنَ الذَّوَاتِ لَا يُسَاوِي اللهَّ تَعَالَى فِي الذَّاتِيَّةِ ، فَلَوْ كَانَ اللهُّ تَعَالَى جِسْماً ، لَكَانَ كَوْنُهُ جِسْماً ذَاتاً لَا صِفَةً ، فَإِذَا كَانَ سَائِرُ الْأَجْسَامِ مُسَاوِيَةً لَهُ فِي الْجِسْمِيَّةِ ، أَعْنِي فِي كَوْنِهَا مُتَحَيِّزَةً طَوِيلَةً عَرِيضَةً عَمِيقَةً ، فَحِينَئِذٍ تَكُونُ سَائِرُ الْأَجْسَامِ مُمَاثِلَةً لِذَاتِ اللهَّ تَعَالَى فِي كَوْنِهِ ذَاتاً ، وَالنَّصُّ يَنْفِي ذَلِكَ فَوَجَبَ أَنْ لَا يَكُونَ جِسْماً". انظر : مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)(٥/ ٣٥٧) ،(٦/١٣) ،(٢٧/ ٥٨٢) بالترتيب .

وذكر أبو المعين النَّسفي الحنفي العديد من البراهين السَّاطعة ، والدَّلائل القاطعة ، والحجج اللامعة في ردِّ شُبه المشبِّهة المجسِّمة الذين يزعمون أنَّ الله اتَّخذ العرش مكاناً ومستقرَّاً له ، تعالى الله عمَّا يقولون علوَّاً كبيراً ، ...

قال أبو المعين النَّسفي في"تبصرة الأدلَّة في أصول الدِّين"(١/ ١٧٤ فما بعدها) :"وللمجسِّمة شُبَهٌ ثلاث : الأولى : قولهم : إنَّ الموجودَين القـــائمين بالذَّات لا يخلوان من أن يكـــون كلّ واحد منهما بجهةٍ من صاحبه .

فنقول وبالله التَّوفيق : الموجودان القائمان بالذَّات كلّ واحد منهما في الشَّاهد يجوز أن يكون فوق صاحبه والآخر تحته ، أتجوِّزون هذا في الحقِّ تعالى ؟ فإن قالوا : نعم تركوا مذهبهم ، فإنَّهم لا يجوِّزون أن يكون البارئ جلَّ وعلا تحت العالم ، وإن قالوا : لا ، أبطلوا دليلهم ، فإن قالوا : إنَّما لم نجوِّز هذا في الحقِّ تعالى لأنَّ جهة تحت جهة ذمٌّ ونقيصة ، والبارئ جلَّ وعلا منزَّه عن النَّقائص وأوصاف الذَّم . قيل لهم : فإذاً أثبتم التَّفرقة بين الشَّاهد والحقّ عند وجود دليل التَّفرقة حيث لم تجوِّزوا أن يكون الحقّ تعالى بجهة تحت ، وإن كان ذلك في الشَّاهد جائزاً لثبوت دليل التَّفرقة ، وهو استحالة النَّقيصة ووصف الذَّم على الحقّ وجواز ذلك على الشَّاهد ، فلمَ قلتم إنَّ دليل التَّفرقة فيما نحن فيه لم يوجد ؟ بل وجد لِما مرّ أنَّه يوجب الحدوث وهو ممتنع على الحق ، جائز بل واجب على الشَّاهد . ثمَّ نقول لهم : كون جهة تحت جهة ذمٍّ ونقيصة غير مسلَّم ، إذ لا نقيصة في ذلك ولا رفعة

في علوِّ المكان ، إذ كم من حارس فوق السَّطح وأمير في البيت ، وطليعة على ما ارتفع من الأماكن ، وسلطان في ما انهبط من الأمكنة .

ثمَّ نقول لهم : كلُّ قائم بالذَّات في الشَّاهد جوهر ، وكلّ جوهر قائم بالذَّات ، أفتستدلُّون بذلك على أنَّ الحقَّ تعالى جوهر ؟! فإن قالوا : نعم ، فقد تركوا مذهبهم ووافقوا النَّصارى ؛ وإن قالوا لا ، نقضوا دليلهم .

ثمَّ نقول لهم : إنَّما يجب التَّعدية من الشَّاهد إلى الحق إذا تعلَّق أحد الأمرين بالآخر تعلُّق العلَّة بالمعلول ، كما في العلم والعالِم والحركة والمتحرِّك ، وذلك ممَّا لا يقتصر على مجرَّد الوجود ، بل يشترط فيه زيادة شرط ، وهو أن يستحيل إضافته إلى غيره ، ألا يرى أنَّ العالِم كما لا ينفكُّ عن العلم ، والعلم عن العالِم ، يستحيل إضافة كونه عالماً إلى شيء وراء العلم ، فعلم أنَّه كان عالماً ، لأنَّ له علماً ، فوجبت التَّعدية إلى الحقّ والجوهريَّة مع القيام بالذَّات ، وإن كانا لا ينفكَّان في الشَّاهد ، ولكن لمَّا لم يكن جوهراً لقيامه بالذَّات بل لكونه أصلاً يتركَّب منه الجسم ، لم يجب تعدية كونه جوهراً بتعدِّي كونه قائماً بالذَّات ، وإذا كان الأمر كذلك فلمَ قلتم إنَّهما كانا في الشَّاهد موجودين قائمين بالذَّات ، لأنَّ كلّ واحد منهما بجهة من صاحبه ، أو كان كلُّ واحد منهما بجهة صاحبه ، لأنَّهما موجودان قائمان بالذَّات ؟

ثمَّ نقول لهم : لو كانا موجودين قائمين بالذَّات لأنَّ كلّ واحد منهما بجهة من صاحبه ، لكان الموجود القائم بالذَّات بالجهة وإن لم يكن معه غيره ، ولكان البارىء جلَّ وعلا في الأزل بجهة ، لأنَّه كان موجوداً قائماً بالذَّات ، وهذا محال ، إذ الجهة لا تثبت إلا باعتبار غير ، ألا يرى أنَّ الجهات كلّها محصورة على السّت ، وهي : فوق وتحت وخلف وقدام وعن يمين وعن يسار ، وكلّ جهة منها لن يتصوَّر ثبوتها إلَّا بمقابلة غيرها ، والكلّ يترتَّب على الفرد ، فإذا كان كلُّ فردٍ من الجهات لن يتصوَّر إلَّا بين اثنين ، فكان حكم كليّة الجهات كذلك لما مرَّ من حصول المعرفة بالكليَّات بواسطة الجزئيَّات ، وإذا كان الأمر كذلك كان تعليق الجهة بالوجود والقيام بالذَّات مع أنَّ كل واحد منهما يثبت باعتبار النَّفس دون الغير والجهة لا تثبت إلَّا باعتبار الغير ، جهلاً بالحقائق .

ثمَّ يقال لهم : أتزعمون أنَّ القائمين بالذَّات يكون كلّ واحد منهما بجهة من صاحبه على الإطلاق ، أم بشريطة كون كلّ واحد منهما محدوداً متناهياً ؟ فإن قالوا : نعم على الإطلاق ، فلا نسلم ، وما استدلُّوا به من الشَّاهد فهما محدودان متناهيان . وإن قالوا : نقول ذلك بشريطة كون كلِّ واحد منهما محدوداً متناهياً ، فمسلّم ، ولكن لم قلتم إنَّ البارىء محدود متناه ؟!! ثمَّ إنَّا قد أقمنا الدّلالة على استحالة كونه محدوداً متناهياً ، والله الموفِّق .

وأمَّا الشُّبهة الثَّانية التي تعلَّقوا بها : أنَّه تعالى كان ولا عالَمَ ثمَّ خلقه ، أخلقه في ذاته أم خارج ذاته ؟ وكيفما كان فقد تحقَّقت الجهة .

فنقول وبالله التَّوفيق : إنَّ هذا شيء بنيتم على ما تضمرون من عقيدتكم الفاسدة أنَّه تعالى متبعِّض متجزِّئ ، وإن كنتم تتبرؤون منه عند قيام الدّلالة على بطلان تلك المقالة وتزعمون أنَا نعني بالجسم القائم بالذَّات ، وهذه المسألة بنفس المقالة . وما تتمسَّكون به من الدّلالة يهتك عليكم ما أَسْبَلْتُم من أستاركم ، ويبدي عن مكنون أسراركم ، أمَّا بنفس المقالة فلأنَّ شغل جميع العرش مع عظمته لن يكون إلَّا بمتبعِّض متجزِّئ على ما قرَّرنا ، وأمَّا بالدّلالة فلأنَّ الدَّاخل والخارج لن يكون إلَّا ما هو متبعِّض متجزِّئ ، وقيام الدّلالة وانضمام ظاهر إجماعكم على بطلان ذلك يغنينا عن الإطالة في إفساد هذه الشُّبهة ، والله الموفِّق .

وربَّما يقبلون هذا الكلام ويقولون بأنَّه تعالى لَّما كان موجوداً أمَّا أن يكون داخل العالم وأمَّا أن يكون خارج العالم ، وليس بداخل العالم فكان خارجاً منه ، وهذا يوجب كونه بجهة منه .

والجواب عن هذا الكلام على نحو ما أجبنا عن الشُّبهة المتقدِّمة : أنَّ الموصوف بالدُّخول والخروج هو الجسم المتبعِّض المتجزِّئ ، فأمَّا ما لا تبعُّض له ولا تجزُّؤ فلا يُوصف بكونه داخلاً ولا خارجاً ، ألا ترى أنَّ العرض القائم بجوهر لا يوصف بكونه داخلاً فيه ولا خارجاً منه ؟ فكذا القديم لَّما لم يكن جسماً لا يوصف بذلك ، فكان هذا الكلام أيضاً مبنيَّاً على ما يُضمرون من عقيدتهم الفاسدة .

وكذا الجواب عمَّا يتعلَّق به بعضهم : أنَّه تعالى لَّما كان موجوداً : أمَّا أن يكون مماسَّاً للعالم أو مبايناً عنه ، وأيّهما كان ففيه إثبات الجهة ، أنَّ ما ذكره من وصف الجسم ، وقد قامت الدّلالة على بطلان كونه جسماً ، ألا ترى أن العَرَض لا يوصف بكونه مماسَّاً للجوهر ولا مبايناً له ؟ وهذا كلُّه لبيان أنَّ ما يزعمون ليس من لواحق التَّبعُّض والتَّجزُّؤ والتَّناهي ، وهي كلُّها محالٌ على القديم تعالى ، والله الموفِّق .

وأمَّا حلُّ الشُّبهة الثَّالثة ، وهي أنَّ الموجودَين لا يعقلان موجودَين إلَّا وأن يكون أحدهما بجهة من صاحبه أو بحيث هو . قلنا : هذا منكم تقسيم للموجودَين ، وليس من ضرورة الوجود أحدُ الأمرين ، لأنَّهما إن كانا موجودين لأنَّ أحدهما بجهة صاحبه ينبغي ألَّا يكون الجوهر وما قام به من العَرَض موجودَين ، لأنَّ أحدهما ليس بجهة من صاحبه ، وإن كانا موجودَين لأنَّ أحدهما بحيث صاحبه ، ينبغي ألَّا يكون الجوهران موجودَين ، لأنَّ أحدهما ليس بحيث صاحبه ، وقد مرَّ ما يوجب بطلان هذا في إبطال قول النَّصارى : إنَّ الموجود أمَّا أن يكون جوهراً ، وأمَّا أن يكون جسماً ، وأمَّا أن يكون عرَضاً ، والباريء جلَّ وعلا ليس بجسم ولا عَرَض ، فدلَّ أنَّه جوهر ، فإن بطل ذاك بطل هذا ، وإن صحَّ هذا صحَّ ذاك ، بل كلا الأمرين باطل لما مرَّ ، والله الموفِّق .

وما يزعمون أنَّه لا عدَمَ أشدّ تحقُّقاً من نفي المذكور من الجهات السِّت ، وما لا جهة له لا يتصوَّر وجوده . فنقول : ذكر أبو إسحق الاسفرايني أنَّ السُّلطان – يعني به السُّلطان محمود بن سُبُكتِكين – قَبلَ هذا السُّؤال من القوم من الكرّاميَّة وألقاه على ابن فورك ، قال : وكتب به ابن فورك إليَّ ولم يكتب بماذا أجاب ، ثمَّ اشتغل أبو إسحق بالجواب ، ولم يأت بما هو انفصال عن هذا السُّؤال ، بل أتى بما هو ابتداء دليل في المسألة من أنَّه لو كان بجهة لكان محدوداً ، وما جاز عليه التَّحديد جاز عليه الانقسام والتَّجزُّؤ ، ولأنَّ ما جاز عليه الجهة جاز عليه الوصل والتَّركيب ، وهو أن تتَّصل به الأجسام ، وذا باطل بالإجماع ، ولأنَّه لو جازت عليه الجهة لجازت إحاطة الأجسام به على نحو ما قرَّرنا ، وهذا كلُّه ابتداء الدَّليل وليس بدفع للسُّؤال . وللكراميّ أن يقول : لو كان ما ذكرت من الأدلَّة يوجب بطلان القول بالجهة لما في إثباتها من إثبات أمارات الحدث ، فما ذكرت من

الدَّليل يوجب القول بالجهة لما في الامتناع عن القول به إثبات عدمه ، فكما لا يجوز إثبات حدوث ما ثبت قدمه بالدَّليل لا يجوز نفي ما ثبت وجوده بالدَّليل .

وحلّ هذا الإشكال أن يقال : إنَّ النَّفي عن الجهات كلّها يوجب عدم ما هو بجهة من النَّافي أم عدم ما ليس بجهة منه ؟ فإن قال : عدم ما هو بجهة منه ، قلنا : نعم ، ولكن لم قلتم إنَّ البارئ جلَّ وعلا بجهة من النَّافي ؟ فإن قال : لأنَّه لو لم يكن بجهة منه لكان معدوماً ، فقد عاد إلى ما تقدَّم من الشُّبهة ، وقد فرغنا بحمد الله من حلِّها . وإن قال : النَّفي عن الجهات يوجب عدم ما ليس بجهة منه ، فقد أحال ، لأنَّ ذلك لا يوجب عدم النَّافي وما قام به من الأعراض لما لم يكن بجهة من نفسه ، فكذا لا يوجب عدمَ البارىء جلَّ وعلا ، لأنَّه ليس بجهة من النَّافي . فإن قالوا : إذا لم يكن بجهة منه ولا قــائماً به يكون معدوماً ، فقد عادوا إلى الشُّبهة الثَّالثة ، وقد فرغنا من حلِّها بتوفيق الله تعالى .

والأصل في هذا كلّه : أنَّ ثبوت الصَّانع جلَّ وعلا وقِدَمه عُلِمَ بما لا مدفَعَ له من الدَّلائل ولا مجال للرَّيب فيه ، فقلنا بثبوته وقدمه ، وعرفنا استحالة ثبوت أمارات الحدث في القديم ، فنفينا ذلك عنه لما في إثباتها من إثبات حدوث القديم أو بطلان دلائل الحدث ، وذلك باطلٌ كلّه على ما قرَّرنا ، وفي إثبات المكان والجهة إثبات دلالة الحدث على ما مرّ . وليس من ضرورة الوجود إثبات الجهة ، لأنَّ نفسي وما قام بها من الأعراض ليست منِّي بجهة ، وهي موجودة ، وما كان منِّي بجهة ليس بقائم بي وهو موجود ، وكذا ليس من ضرورة الوجود أن يكون فوقي لوجود ما ليس فوقي ، ولا أن يكون تحتي لوجود ما ليس تحتي ، وكذا قدامي وخلفي وعن يميني وعن يساري ، وإذا ثبت هذا في كلِّ جهة على التَّعيين ثبت في الجهات كلّها ، إذ هي متركِّبة من الأفراد .

فإذاً ليس من ضرورة الموجود أن يكون منِّي بجهة لوجود ما ليس منِّي بجهة ، ولا أن يكون قائماً بي لوجود ما ليس بقائم بي . وظهر أنَّ قيام الشَّيء بي وكونه بجهة منِّي ليسا من لواحق الوجود وضروراته على ما قرَّرنا هذا الكلام في نفي كونه تعالى عرضاً أو جوهراً أو جسماً ، وخروج الموجود عن هذه المعاني كلّها معقول لِما بيّنا من الدَّلائل أن ليس من ضرورة الوجود ثبوت معنى من هذه

المعاني كلّها لما مرّ من ثبوت موجود ليس فيه كلّ معنى من هذه المعاني على التَّعيين ، غير أنَّه ليس بموهوم لِما لم يُحس موجود تعرّى عن هذه المعاني كلّها ، إذ ما يُشاهَد في المحسوسات كلّها محدثة وارتفاع دلالة الحدث عن المحدَث محال ، وفي الحقِّ تعالى الأمر بخلافه .

وليس من ضرورة الارتفاع عن الوهم العدمُ لما ثبت من الدَّلائل العقليَّة على الحدوث ، وظهور التَّفرقة بين المعقول والموهوم على ما تقدَّم ذكره على وجه لا يبقى للمنصف فيه ريبة .

ثمَّ إنَّ الله تعالى أثبت في نفس كلِّ عاقل معاني خارجة عن الوهم لخروجها عن درك الحواس ، ويعلم وجودها على وجه لم يكن للشكِّ فيه مدخل لثبوت ءاثارها ، كالعقل والرُّوح والبصر والسَّمع والشَّم والذَّوق ، فإنَّ ثبوت هذه المعاني متحقِّق ، والأوهام عن الإحاطة بمائيتها قاصرة لخروجها عن الحواس المؤدية المدركة صور محسوساتها إلى الفكرة ، ليصير ذلك حجَّة على كلِّ من أنكر الصَّانع مع ظهور الآيات الدالَّة عليه لخروجه عن التَّصوُّر في الوهم ، ويعلم أن لا مدخل للوهم في معرفة ثبوت الأشياء الغائبة عن الحواس ، ومن أراد الوصول إلى ذلك بالوهم ونفي ما لم يتصوَّر فيه مع ظهور ءايات ثبوته ، فقد عطَّل الدَّليل القائم لانعدام ما ليس يصلح دليلاً ، فيصير كمن أنكر وجود البياض في جسم مع معاينته ذلك لعدم استدراك ذلك بالسَّمع ، وجهالةُ مَن هذا فعلُه لا يخفى عن النَّاس ، فكذا هذا . ثمَّ لا فرق بين من أنكر الشَّيء لخروجه عن الوهم وبين من جعل خروج الشَّيء عن الوهم دليلاً للعدم ، لما فيهما جميعاً ممن قصر ثبوت الشَّيء ووجوده على الوهم ، وخروج الموجود عن جميع أمارات الحدث غير موهوم لما لم نعاين موجوداً ليس بمحدث ، وإثبات أمارات الحدث في القديم محال ، ونفيها عن القديم إخراجُه من الوهم ، وبخروجه عن الوهم يلتحق بالعدم فإذاً لا وجود للقديم ، فصارت المجسِّمة والقائلون بالجهة والجاعلون ما لا يجوز عليه الجهة في حيّز العدم قائلين بعدم القديم ، فضاهوا الدَّهريَّة في نفي الصَّانع الذي ليس فيه شيء من أمارات الحدث ، وساعدوهم بإثبات قدم من هو متمكِّن في المكان أو متحيِّز إلى جهة في إثبات قدم من تحقَّقت أمارات حدوثه ، وبإثبات القدم للعالَم نفي الصانع .

فإذاً عند الوقوف على هذه الحقائق علم أنَّهم هم النَّافون للصَّانع في الحقيقة دون من أثبته ونفى عنه الجهة والتَّمكُّن الذين هما من أمارات الحدث . والله الموفِّق .

وهذا هو الجواب عن قولهم : إنَّ النَّاس مجبولون على العلم بأنَّه تعالى في جهة العلو ، حتَّى إنَّهم لَّما تُركوا وما هم عليه جُبِلوا لاعتقدوا أنَّ صانعهم في جهة العلو . فإنَّا نقول لهم : إن عنيتم بهذا من لم يرضَ عقله بالتَّدبُّر والتَّفكُّر ولم يتمهَّر في معرفة الحقائق بإدمان النَّظر والتَّأمُّل ، فمسلَّم أنَّه بهواه يعتقد أنَّ صانعه بجهة منه ، لِمَا أنه لا يعرف أنَّ التحيُّز بجهة من أمارات الحدث ، وهي منفيَّة عن القديم ، ولما يرى أنَّ ما ليس بقائم به يكون منه بجهة ، ثمَّ يرى صفاء الأجرام العلويَّة وشرف الأجسام النيِّرة في الحسِّ فظنَّ جهلاً منه أنَّه تعالى لا بدَّ من كونه بتلك الجهة منه لخروج ما ليس بقائم به ولا بجهة منه عن الوهم ، وفضيلة تلك الجهة على سائر الجهات عنده .

وإن عنيتم به الحذَّاق من العلماء العارفين بالفَرق بين الجائز والممتنع والممكن والمحال فغير مسلَّم ، إذ هؤلاء يبنون الأمر على الدَّليل دون الوهم ، وقد قام الدَّليل عندهم على استحالة كونه تعالى في جهة ، والله الموفِّق .

وتعلقهم بالإجماع برفع الأيدي إلى السَّماء عند المناجاة والدُّعاء باطلٌ ، لما ليس في ذلك دليل كونه تعالى في تلك الجهة ، هذا كما أنَّهم أمروا بالتَّوجُّه في الصَّلاة إلى الكعبة وليس هو في الكعبة ، وأمروا برمي أبصارهم إلى موضع سجودهم حالة القيام في الصَّلاة بعد نزول قوله تعالى : ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ**﴾«المؤمنون : ١-٢» ، بعدما كانوا يصلُّون شاخصة أبصارهم نحو السَّماء ، وليس هو في الأرض ، وكذا حالة السُّجود أمروا بوضع الوجوه على الأرض ، وليس هو تعالى تحت الأرض ، فكذا هذا . وكذا المتحرِّي يصلِّي إلى المشرق واليمن والشَّام ، وليس هو تعالى في هذه الجهات . ثمَّ هو يُعبد كما في هذه المواضع ويُحتمل أنه تعالى أمر بالتَّوجُّه إلى هذه المواضع المختلفة عند اختلاف الأحوال ليندفع وهم تحيُّزه في جهة ، ويصير ذلك دليلاً لمن عرفه أنَّه ليس بجهة منَّا . وقيل إنَّ العرش جُعل قبلة للقلوب عند الدُّعاء ، كما جُعلت الكعبة قبلة للأبدان في حالة الصَّلاة . واستعمال لفظ الإنزال والتَّنزيل منصرفٌ إلى الآتي بالقرءان ،

فأمَّا القرءان فلا يُوصف بالانتقال من مكان إلى مكان ، والآتي به وهو جبريل عليه السَّلام كان ينزل من جهة العلو لما أنَّ مقامه كان بتلك الجهة ، والله الموفِّق"...

ونظراً لخطورة نسبة الجسميَّة إلى الله تعالى ، فقد شدَّد العلماء في ذلك حتَّى حكم بعضهم بكفر مُعتقدِه ... وتالياً طائفة من أقوال أهل العلم في تكفير المجسِّمة ...

قال أبو حنيفة(١٥٠هـ) في"الفقه الأبسط"(ص٤٩) ضمن"العالم والمتعلِّم" :"من قَالَ لَا أعرف رَبِّي فِي السَّمَاء أوْ فِي الأَرْض فقد كفر ، وَكَذَا من قَالَ : إِنَّه على الْعَرْش وَلَا أدري الْعَرْش أَفِي السَّمَاء أوْ فِي الأَرْض". قال الكوثري في هامشه : ولم يذكر في المتن وجه كفره ، فبيَّنه الشَّارح أبو الليث السَّمرقندي بقوله: لأنَّه بهذا القول يُوهم أن يكون له تعالى مكان فكان مشركاً".

وقال أبو جعفر أحمد بن محمَّد بن سلامة بن سلمة الأزديّ الطَّحاوي(٣٢١هـ) في عقيدته :"وَمَنْ وَصَفَ اللهَّ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ. مَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ. وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ انْزَجَرَ. وَعَلِمَ أَنَّ اللهَّ بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ" .

وقال أبو محمَّد عبد الوهَّاب بن نصر بن علي التَّغلبي البغدادي المالكي(٤٢٢هـ) في"شرح عقيدة مالك الصَّغير، ويليه جزء في الأهام التي وقعت في الصَّحيحين"(ص٢٨) :"ولا يجوز أن يثبت له كيفيَّة، لأنَّ الشَّرع لم يرد بذلك، ولا أخبر النَّبيُّ عليه السَّلام فيه بشيء، ولا سألته الصَّحابة عنه، ولأنَّ ذلك يرجع إلى التَّنقُّل والتَّحوُّل وإشغال الحيِزِ والافتقار إلى الأماكن، وذلك يؤول إلى التَّجسيم، وإلى قِدَم الأجسام، وهذا كفر عند كافَّة أهل الإسلام" .

وقال ابن بطَّال(٤٤٩هـ) في"شرح صحيح البخارى"(٤٣٢/١٠) :"... لقيام الدَّليل على استحالة وصفه بأنَّه ذو جوارح وأعضاء. خلافًا لما تقوله المجسِّمة من أنَّه جسمٌ لا كالأجسام، واستدلُّوا على ذلك بهذه الآيات ، كما استدلُّوا بالآيات المتضمِّنة لمعنى الوجه واليدين، ووصفه لنفسه بالإتيان والمجئ والهرولة في حديث الرَّسول، وذلك كلّه باطل وكفر من متأوِّله؛ لقيام الدَّليل على تساوى الأجسام في دلائل الحدث القائمة بها واستحالة كونه من جنس المحدثات" .

وقال البيهقي(٤٥٨هـ) في"شُعب الإيمان"(١/ ١٩٠) :"وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ مِنَ التَّشْبِيهِ بِإِثْبَاتِ أَنَّهُ لَيْسَ بِجَوْهَرٍ وَلَا عَرَضٍ، فَلِأَنَّ قَوْمًا زَاغُوا عَنِ الْحَقِّ فَوَصَفُوا الْبَارِئَ – جَلَّ وَعَزَّ – بِبَعْضِ صِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ جَوْهَرٌ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ جِسْمٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْعَرْشِ قَاعِدًا كَمَا يَكُونُ الْمَلِكُ عَلَى سَرِيرِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي وُجُوبِ اسْمِ الْكُفْرِ لِقَائِلِهِ كَالتَّعْطِيلِ وَالتَّشْرِيكِ، فَإِذَا أَثْبَتَ الْمُثْبِتُ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِجَوْهَرٍ وَلَا عَرَضٍ فَقَدِ انْتَفَى التَّشْبِيهُ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ جَوْهَرًا أَوْ عَرَضًا لَجَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى سَائِرِ الْجَوَاهِرِ، وَالْأَعْرَاضِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ جَوْهَرًا، وَلَا عَرَضًا لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْجَوَاهِرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا جَوَاهِرُ كَالتَّأْلِيفِ وَالتَّجْسِيمِ وشَغْلِ الْأَمْكِنَةِ وَالْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ، وَلَا مَا يَجُوزُ عَلَى الْأَعْرَاضِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا أَعْرَاضٌ كَالْحُدُوثِ وَعَدَمِ الْبَقَاءِ" .

وقال أبو سعد عبد الرَّحْمَن بن محمَّد واسمه مأمون بن علي، وقيل إبراهيم المعروف بالمتولِّي الفقيه الشَّافعي النَّيسابوري(٤٧٨هـ) في"الغنية في أصول الدِّين"(ص٧٣-٧٤) :"والغرض من هذا الفصل نفي الحاجة إلى المحلِّ والجهة ، خلافاً للكرَّاميَّة والحشويَّة والمشبِّهة الذين قالوا : أنَّ لله جهة فوق ، وأطلق بعضهم القول بأنَّه جالس على العرش مستقرٌّ عليه ، تعالى الله عن قولهم .

والدَّليل على أنَّه مستغني عن المحلِّ : إنَّه لو افتقر إلى المحلِّ لزم أن يكون المحلُّ قديماً ، لأنَّه قديم أو يكون حادثاً ، كما أنَّ المحلَّ حادث ، وكلاهما كفر .

والدَّليل عليه أنَّه لو كان له محلٌّ لاتَّصف المحلُّ به ، لأنَّ ما قام بمحلٍّ يتَّصف به المحلّ ، ألا ترى أنَّ السَّواد إذا قام بمحلٍّ يتَّصف به المحلُّ حتَّى يسمَّى المحلُّ أسوداً ، والعلم إذا قام بمحلٍّ يسمَّى عالماً ، وإذا كان هو صفة المحلِّ لم يجز أن يكون قادراً عالماً ، لأنَّ الصِّفة لا تقبل الصِّفة ، والأحكام التي هي موجبات المعاني كالعلم ، لا يجوز أن يكون قادراً ، والقدرة لا يجوز أن تكون عالمة ...

والدَّليل عليه أنَّه لو كان على العرش على ما زعموا لكان لا يخلو : أمَّا أن يكون مثل العرش أو أصغر منه أو أكبر ، وفي جميع ذلك إثبات التَّقدير والحدِّ والنِّهاية ، وهو كفر" .

وقال الغزالي(٥٠٥هـ) في"مقاصد الفلاسفة"(ص٢٢٨) ، ويليه إلجام العوام عن علم الكلام ، والفصول في الأسئلة وأجوبتها :"فإن خطر بباله أنَّ الله جسم مركَّب من أعضاء فهو عابد صنم، فإنَّ كلّ جسم فهو مخلوق ، وعبادة المخلوق كفر، وعبادة الصَّنم كانت كفرًا لأنَّه مخلوق، وكان مخلوقًا لأنَّه جسم، فمن عبد جسمًا فهو كافر بإجماع الأمة السلف منهم والخلف".

وقال الرَّازي(٦٠٦هـ) في"مفاتيح الغيب (التَّفسير الكبير)"(١٤/ ٢٦٨) :"وَأَمَّا فِرْعَوْنُ لعنه اللهَّ فانه قال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوْسَى﴾﴿غافر: ٣٦-٣٧﴾ فَطَلَبَ الْإِلَهَ فِي السَّمَاءِ فَعَلِمْنَا أَنَّ وَصْفَ الْإِلَهِ بِالْخَلَّاقِيَّةِ وَعَدَمَ وَصْفِهِ بِالْمَكَانِ وَالْجِهَةِ دِينُ مُوسَى وَسَائِرِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَجَمِيعُ وَصْفِهِ تَعَالَى بِكَوْنِهِ فِي السَّمَاءِ دِينُ فِرْعَوْنَ وَإِخْوَانِهِ مِنَ الْكَفَرَ" .

وقال الرَّازي في"معالم أصول الدِّين"(ص٩٩) :"المجسِّمة كفَّار ، لأنَّهم اعتقدوا أَّن كلَّ ما لا يكون متحيِّزاً ولا في جهة فليس بموجود ، ونحن نعتقد أنَّ كلَّ متحيِّز فهو محدَث ، وخالقه موجود ليس بمتحيِّز ، ولا في جهة ، فالمجسِّمة نفوا ذات الشَّيء الذي هو الإله ، فيلزمهم الكفر".

وقال أبو العبَّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي(٦٥٦هـ) في"المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"(٦/ ٦٩٧) :"وقوله: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ» ، يعني: يتبعونه ويجمعونه طلبًا للتَّشكيك في القرآن، وإضلالاً للعوام، كما فعلته الزَّنادقة والقرامطة الطَّاعنون في القرآن، أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه كما فعلته المجسِّمة الذين جمعوا ما وقع في الكتاب والسُّنَّة ممَّا يوهم ظاهره الجسميَّة، حتَّى اعتقدوا أنَّ البارئ تعالى جسم مجسَّم، وصورة مصوَّرة ، ذات وجه، وعين ويد وجنب، ورِجْل، وإصبع، تعالى الله عن ذلك، فحذَّر النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سلوك طريقهم.

فأمَّا القسم الأوَّل، فلا شكَّ في كفرهم، وأنَّ حكم الله فيهم القتل من غير استتابة.

وأمَّا القسم الثَّاني، فالصَّحيح القول بتكفيرهم، إذ لا فرق بينهم وبين عُبَّاد الأصنام والصذُور، ويستتابون؛ فإن تابوا وإلَّا قُتلوا، كما يُفعل بمن ارتد" .

وقال أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري الخزرجي شمس الدِّين القرطبي(٦٧١هـ) في :"التّذكار في أفضل الأذكار من القرآن الكريم"(ص٢٢٦) :"ثمَّ متَّبعوا المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلباً للتَّشكيك في القرآن وإضلال العوام ، كما فعلته الزَّنادقة والقرامطة والطَّاعنون في القرآن ، أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه كما فعلته المجسِّمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسُّنَّة ممَّا يوهم ظاهره الجسميَّة حتَّى اعتقدوا أنَّ الباري تعالى جسم مجسَّم ، وصورة مصوَّرة ، وذات وجه ، وغير ذلك من يد وعين وجنب وإصبع ، تعالى الله عن ذلك علوَّاً كبيراً، أو تتبَّعوه على جهة إبداء تأويلها أو إيضاح معانيها أو كما فعل صبيغ حين أكثر على عمر فيه من السُّؤال.

فهذه أربعة أقسام:

الأوَّل : لا شكَّ في كفرهم وإنَّ حكم الله فيهم القتل من غير استتابة.

الثَّاني : الصَّحيح القول بتكفيرهم ، إذ لا فرق بينهم وبين عُبَّاد الأصنام والصُّور ، ويستتابون ، فإن تابوا وإلَّا قتلوا كما يفعل بمن ارتدّ" .

وقال النَّووي(٦٧٦هـ) في"روضة الطَّالبين وعمدة المفتين"(١٠/ ٦٤) :"قَالَ الْمُتَوَلِّي: مَنِ اعْتَقَدَ قِدَمَ الْعَالَمِ، أَوْ حُدُوثَ الصَّانِعِ، أَوْ نَفَى مَا هُوَ ثَابِتٌ لِلْقَدِيمِ بِالْإِجْمَاعِ، كَكَوْنِهِ عَالِمًا قَادِرًا، أَوْ أَثْبَتَ مَا هُوَ مَنْفِيٌّ عَنْهُ بِالْإِجْمَاعِ، كَالْأَلْوَانِ، أَوْ أَثْبَتَ لَهُ الِاتِّصَالَ وَالِانْفِصَالَ، كَانَ كَافِرًا" .

وقال عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي البلدحي، مجد الدِّين أبو الفضل الحنفي(٦٨٣هـ) في"الاختيار لتعليل المختار"(٢/ ١٤٩) :"وَلَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ الْمُجَسِّمَةِ لِأَنَّهُمْ كَفَرَةٌ" .

وقال أبو عبد الله بدر الدِّين محمَّد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي الشَّافعي(٧٩٤هـ) في"تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدِّين السُّبكي"(٤/٦٤٨) :"ونقل صاحب (الخصال) من الحنابلة عن أحمد أنَّه قال: من قال: جسم لا كالأجسام كفر، ونقل عن الأشعريَّة أنَّه يفسق، وهذا النَّقل عن الأشعريَّة ليس بصحيح" .

وقال ابن الملقِّن سراج الدِّين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشَّافعي المصري(٨٠٤هـ) في"التَّوضيح لشرح الجامع الصَّحيح"(١/ ٢٢٢) : "... خلافًا لما تقوله المجسِّمة من أنَّه تعالى جسم لا كالأجسام.

واستدلُّوا على ذلك بهذِه، كما استدلُّوا بالآيات المتضمِّنة لمعنى الوجه، واليدين ووصفه لنفسه بالإتيان والمجيء والهرولة في حديث الرَّسول، وذلك كلّه باطل وكفر من متأوِّله؛ لقيام الدَّليل على تساوي الأجسام في دلائل الحدث القائم بها واستحالة كونه من جنس المحدثات، إذ المحدث إنَّما كان محدثًا من حيث متعلّق هو متعلّق بمحدث أحدثه، وجعله بالوجود أولى منه بالعدم" .

وقال أبو بكر بن محمَّد بن عبد المؤمن بن حريز بن معلى الحسيني الحصني، تقي الدِّين الشَّافعي(٨٢٩هـ) في"كفاية الأخيار في حلِّ غاية الإختصار"(ص٤٩٥) :"... إِلَّا أَن النَّوَوِيّ جزم فِي صفة الصَّلاة من شرح الْمُهَذّب بتكفير المجسِّمة . قلت : وَهُوَ الصَّوَاب الَّذِي لَا محيد عَنهُ ، إِذْ فِيهِ مُخَالفَة صَرِيح الْقُرْآن ، قَاتل الله المجسِّمة والمعطِّلة ما أجرأهم على مُخَالفَة من **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** ، وَفِي هَذِه الْآيَة ردٌّ على الْفرْقَتَيْنِ ، وَالله أعلم" .

وقال كمال الدِّين ابن الهمام(٨٦١هـ) في"فتح القدير"(١/ ٣٥٠) :"وَإِنْ قَالَ جِسْمٌ : لَا كَالْأَجْسَامِ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ إلَّا إطْلَاقُ لَفْظِ الْجِسْمِ عَلَيْهِ وَهُوَ مُوهِمٌ لِلنَّقْصِ فَرَفَعَهُ بِقَوْلِهِ لَا كَالْأَجْسَامِ فَلَمْ يَبْقَ إلَّا مُجَرَّدُ الْإِطْلَاقِ، وَذَلِكَ مَعْصِيَةٌ تَنْتَهِضُ سَبَبًا لِلْعِقَابِ لِمَا قُلْنَا مِنْ الْإِيهَامِ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قَالَهُ عَلَى التَّشْبِيهِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ. وَقِيلَ يُكَفَّرُ بِمُجَرَّدِ الْإِطْلَاقِ أَيْضًا وَهُوَ حَسَنٌ بَلْ هُوَ أَوْلَى بِالتَّكْفِيرِ".

وقال السُّيوطي(٩١١هـ) في"الأشباه والنَّظائر"(ص٤٨٨) :"قَالَ الشَّافِعِيُّ: لَا يُكَفَّرُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَاسْتُثْنِيَ مِنْ ذَلِكَ: الْمُجَسِّمُ، وَمُنْكِرُ عِلْمِ الْجُزْئِيَّاتِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُبْتَدِعَةُ أَقْسَامٌ:

الْأَوَّلُ: مَا نُكَفِّرُهُ قَطْعًا، كَقَاذِفِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَمُنْكِرِ عِلْمِ الْجُزْئِيَّاتِ، وَحَشْرِ الْأَجْسَادِ، وَالْمُجَسِّمَةِ، وَالْقَائِلِ بِقِدَمِ الْعَالَمِ" .

وقال زين الدِّين بن إبراهيم بن محمَّد، المعروف بابن نجيم المصري(٩٧٠هـ) في"البحر الرَّائق شرح كنز الدَّقائق"(٥/ ١٢٩) :"وَيَكْفُرُ بِقَوْلِ يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ فِعْلًا لَا حِكْمَةَ فِيهِ ، وَبِإِثْبَاتِ الْمَكَانِ لِلَّهِ

تَعَالَى ، فَإِنْ قَالَ : اللهُ فِي السَّمَاءِ ، فَإِنْ قَصَدَ حِكَايَةَ مَا جَاءَ فِي ظَاهِرِ الْأَخْبَارِ لَا يَكْفُرُ ، وَإِنْ أَرَادَ الْمَكَانَ كَفَرَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نِيَّةٌ كَفَرَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ ، وَهُوَ الْأَصَحُّ وَعَلَيْهِ الْفَتْوَى" .

وقال أحمد بن محمَّد بن علي بن حجر الهيتمي السَّعدي الأنصاري، شهاب الدِّين شيخ الإسلام، أبو العبَّاس(٩٧٤هـ) في"المنهاج القويم"(ص١٤٤) :"واعلم أنَّ القرافي وغيره حكوا عن الشَّافعي ومالك وأحمد وأبي حنيفة رضي الله عنهم القول بكفر القائلين بالجهة والتَّجسيم ، وهم حقيقون بذلك" .

وقال علي بن (سلطان) محمَّد، أبو الحسن نور الدِّين الملا الهروي القارّي(١٠١٤هـ) في"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح"(٣/ ٩٢٤) :"... وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ مَالِكًا وَالْأَوْزَاعِيَّ، وَهُمَا مِنْ كِبَارِ السَّلَفِ أَوَّلَا الْحَدِيثَ تَأْوِيلًا تَفْصِيلِيًّا، وَكَذَلِكَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ أَوَّلَ الِاسْتِوَاءَ عَلَى الْعَرْشِ بِقَصْدِ أَمْرِهِ، وَنَظِيرُهُ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾﴿البقرة: ٢٩﴾ ، أَيْ: قَصَدَ إِلَيْهَا، وَمِنْهُمُ الْإِمَامُ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ، بَلْ قَالَ جَمْعٌ مِنْهُمْ وَمِنَ الْخَلَفِ: إِنَّ مُعْتَقِدَ الْجِهَةِ كَافِرٌ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْعِرَاقِيُّ، وَقَالَ: إِنَّهُ قَوْلٌ لِأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَالْأَشْعَرِيِّ وَالْبَاقِلَّانِيِّ".

وقال محمَّد بن بدر الدِّين بن بلبان الدِّمشقي الحنبلي(١٠٨٣هـ) في"مختصر الإفادات في رُبْع العبادات والآداب وزيادات"(ص٤٩٠) :"فالله تعالى كان ولا مكان ثمَّ خَلَقَ المكان وهو كما كان قبل خلق المكان) ، ولا يعرفُ بالحوّاسِ، ولا يقاسُ بالنَّاس، ولا مدخل في ذاته وصفاته للقياس، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا فهو الغني عن كُلِّ شيء، ولا يستغني عنه شيء، ولا يشبهُ شيئًا ولا يشبهه شيء، فمن شبَّههُ بشيء من خلقه فقد كفر (كمن اعتقده جسمًا أو قال إنَّه جسم لا كالأَجسام) ، فلا تبلغه سبحانه الأَوهام، ولا تدركهُ الأَفهام، ولا تضرب له الأَمثال، (ولا يعرف بالقيل والقال) ، وبكُلِّ حال مهما خطر بالبال وتوهَّمه الخيال فهو بخلاف ذي الإكرام والجلال" .

وقال كمال الدِّين إحمد بن حسن بن سنان الدِّين البيَّاضي زاده الرُّومي الحنفي(١٠٩٧هـ) في"إشارات المرام من عبارات الإمام أبي حنيفة النُّعمان في أصول الدِّين"(ص١٦٨) :"... فمن قال : لا أعرف ربِّي أفي السَّماء أم في الأرض فهو كافر، لكونه قائلاً باختصاص الباري بجهة وحيِّز ، وكلُّ

ما هو مختص بالجهة والحيِّز فإنَّه محتاج مُحدِث بالضَّرورة ، فهو قول بالنَّقص الصَّريح في حقَّه تعالى، كذا من قال إنَّه على العرش ولا أدري العرش في السَّماء أم في الأرض ، لاستلزامه القول باختصاصه تعالى بالجهة والحيِّز والنَّقص الصَّريح في شأنه ...

وفيه إشارات :

الأولى: أنَّ القائل بالجسميَّة والجهة منكر وجود موجود سوى الأشياء التي يمكن الإشارة إليها حسَّاً، فمنهم منكرون لذات الإله المنزَّه عن ذلك فلزمهم الكفر لا محالة ، وإليه أشار بالحكم بالكفر.

الثَّانية: إكفار من أطلق التَّشبيه والتَّحيُّز ، وإليه أشار بالحكم المذكور لمن أطلقه، واختاره الإمام الأشعري ، فقال في النَّوادر: من اعتقد أنَّ الله جسم فهو غير عارف بربِّه ، وإنَّه كافر به، كما في شرح الإرشاد لأبي قاسم الأنصاري ، وفي الخلاصة أنَّ المشبِّه إذا قال : له تعالى يد ورِجْلٌ كما للعباد فهو كافر" .

وقال محمَّد بن أحمد بن محمَّد عليش، أبو عبد الله المالكي (١٢٩٩هـ) في"منح الجليل شرح مختصر خليل" (٢٠٦/٩) :"وَسَوَاءٌ كَفَرَ (بِـ) قَوْلٍ (صَرِيحٍ) فِي الْكُفْرِ كَقَوْلِهِ كُفْرٌ بِاَللَّهِ أَوْ بِرَسُولِ اللَّهِ أَوْ بِالْقُرْآنِ أَوْ الْإِلَهُ اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ أَوْ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ أَوْ الْعَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ (أَوْ) بِـ (لَفْظٍ يَقْتَضِيهِ) أَيْ يَسْتَلْزِمُ اللَّفْظُ الْكُفْرَ اسْتِلْزَامًا بَيِّنًا كَجَحْدِ مَشْرُوعِيَّةِ شَيْءٍ مُجْمَعٍ عَلَيْهِ مَعْلُومٍ مِنْ الدِّين ضَرُورَةً، فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ تَكْذِيبَ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ، وَكَاعْتِقَادِ جِسْمِيَّةِ اللَّهِ وَتَحَيُّزِهِ، فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ حُدُوثَهُ وَاحْتِيَاجَهُ لِمُحْدِثٍ وَنَفْيِ صِفَاتِ الْأُلُوهِيَّةِ عَنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ شَأْنُهُ" .

وقال محمود محمَّد خطَّاب السُّبكي (١٣٥٢هـ) في"إتحافُ الكائنات ببيان مذهب السَّلف والخلف في المتشابهات" (ص١٣٨) :"وتقدَّم أنَّ جمهور السَّلف والخلف على أنَّ معتقد الجهة كافر ، كما صرَّح به العراقي ، وبه قال أبو حنيفة ، ومالك ، والشَّافعي ، وأبو الحسن الأشعري ، والباقلَّاني".

وقال سلامة القضاعي العزّامي الشّافعي(١٣٧٦هـ) في"فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان"(ص٦٥) عن الإمام سليم البِشري المالكي شيخ الأزهر قوله :"... من اعتقد أنَّه جسم مماسّ للسَّطح الأعلى من العرش ، وبه قالت الكرّاميَّة واليهود ، وهؤلاء لا نزاع في كفرهم" .

وجاء في الفتاوى الهنديَّة(٢/ ٢٥٩) :"يَكْفُرُ بِإِثْبَاتِ الْمَكَانِ لِلَّهِ تَعَالَى فَلَوْ قَالَ: ازخدا هيج مَكَان خَالِي نيست يَكْفُرُ وَلَوْ قَالَ: اللَّهُ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ فَإِنْ قَصَدَ بِهِ حِكَايَةَ مَا جَاءَ فِيهِ ظَاهِرُ الْأَخْبَارِ لَا يَكْفُرُ، وَإِنْ أَرَادَ بِهِ الْمَكَانَ يَكْفُرُ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ نِيَّةٌ يَكْفُرُ عِنْدَ الْأَكْثَرِ، وَهُوَ الْأَصَحُّ وَعَلَيْهِ الْفَتْوَى.

وَيَكْفُرُ بِقَوْلِهِ اللَّهُ تَعَالَى جَلَسَ لِلْإِنْصَافِ، أَوْ قَامَ لَهُ بِوَصْفِهِ اللَّهَ تَعَالَى بِالْفَوْقِ وَالتَّحْتِ كَذَا فِي الْبَحْرِ الرَّائِقِ وَلَوْ قَالَ: مرابر آسَمَانِ خداي است وَبِرّ زُمَيْن فُلَانٌ يَكْفُرُ كَذَا فِي فَتَاوَى قَاضِي خَانْ" .

الفَصْل الثَّانِي

مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى : المُصَوِّر

قال ابن فارس في"معجم مقاييس اللغة"(٣/٣١٩-٣٢٠) :"الصَّاد والواو والرَّاء كلماتٌ كثيرةٌ متباينة الأصول . وليس هذا الباب ببابِ قياسٍ ولا اشتقاق.

وممَّا ينقاس منه قولهُم : صوِرَ يَصْوَر، إذا مال. وصُرْت الشَّيءَ أُصُورُهُ، وأَصَرْتُه، إذا أَمَلته إليك. ويجيء قياسُه تَصَوَّر، لِمَا ضُرِب، كأنَّه مال وسَقط. فهذا هو المنقاس، وسِوى ذلك فكلُّ كلمةٍ منفردةٌ بنفسها.

من ذلك الصُّورة صُورة كلِّ مخلوق، والجمع صُوَر، وهي هيئةُ خِلْقته. والله تعالى البارئ المُصَوِّر. ويقال: رجلٌ صَيِّرٌ إذا كان جميل الصُّورة" .

وقال ابن منظور في"لسان العرب"(٤/٤٧٣-٤٧٤) :"الصَّوَرُ بالتَّحريك : المَيَل . ورجل أَصْوَرٌ بيّن الصَّوَرِ أَي مائل مشتاق . الأَحمر : صُرْتُ إِلَيَّ الشيءَ و أَصَرْتُه إِذا أَملتَه إِليك... وفي رأْسه صَوَرٌ أَي مَيَل . وَفِي صِفَةِ مَشْيِهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ صَوَرٍ ، أَي : مَيَل، قَالَ الْخَطَابِيُّ: يُشْبِهُ أَن يَكُونَ هَذَا الْحَالُ إِذا جدَّ بِهِ السَّيْرُ لَا خِلْقَةَ ... وَقَالَ اللَّيْثُ: الصَّوَرُ المَيل. والرجلُ يَصُور عُنُقَهُ إِلى الشَّيْءِ إِذا مَالَ نَحْوَهُ بِعُنُقِهِ، وَالنَّعْتُ أَصْوَر، وَقَدْ صَوِرَ. وصارَه يَصُورُه ويَصِيرُه أَي أَماله، وصارَ وجهَهُ يَصُورُ: أَقْبَل بِهِ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: **﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾** ، وَهِيَ قِرَاءَةُ عليٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وأَكثر النَّاسِ، أَي وَجِّهْهن ... قَالَ اللِّحْيَانِيُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَى صُرْهُنَّ وجِّهْهُنَّ، وَمَعْنَى صِرْهن قَطِّعْهن وشَقِّقهن، وَالْمَعْرُوفُ أَنهما لُغَتَانِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَكُلُّهُمْ فَسَّرُوا فَصُرْهن أَمِلْهن، وَالْكَسْرُ فُسر بِمَعْنَى قَطِّعْهن، قَالَ الزَّجَّاجُ: قَالَ أَهل اللُّغَةِ مَعْنَى صُرْهُنَّ إِليك أَمِلْهن وَاجْمَعْهُنَّ إِليك ..." .

ومن المعلوم أنَّ من أسماء الله تعالى : (المُصَوِّر) ... وقد ورد في القرآن الكريم مرَّة واحدة في قوله تعالى: **﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾**﴿الحشر: ٢٤﴾ ، وجاء بصيغة الفعلِ مرَّات، كقوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾**﴿آل عمران: ٦﴾ ، وقوله سبحانه: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ**

ثمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾﴿الأعراف: ١١﴾ ، وقوله : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾﴿التغابن:٣﴾ ...

وعن معنى (الْمُصَوِّر) في حقِّ الله تبارك وتعالى قال الزَّجَّاج(٣١١هـ) في"تفسير أسماء الله الحسنى"(ص٣٧) :"الْمُصوِّر هُوَ مفعل من الصُّورة ، وَهُوَ تَعَالَى مُصَوِّر كلّ صُورَة لَا على مِثَال احتذاه ، وَلَا رسم ارتسمه ، تَعَالَى عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً" .

وقال الباقلاني(٤٠٣هـ) في"تمهيد الأوائل في تلخيص الدَّلائل"(ص٤٣) :"لَا بُد لهَذَا الْعَالم الْمُحدث المصوَّر من مُحدِث مُصَوِّر ، والدَّليل على ذَلِك : أَنَّ الْكِتَابَة لَا بُدَّ لَهَا من كَاتب ، وَلَا بُدَّ للصُّورة من مُصَوِّر ، وللبناء من بَان ، وَأَنا لَا نشكُّ فِي جهل من خبرنَا بِكِتَابَة حصلت لَا من كَاتب ، وصياغة لَا من صائغ ، فَوَجَبَ أَن تكون صور الْعَالم وحركات الْفلك مُتَعَلقَة بصانع صنعها ، إِذْ كَانَت أَلطف وأعجب صنعاً من سَائِر مَا يتَعَذَّر وجوده لَا من صانع من الحركات والتَّصويرات" .

وقال الثَّعلبي(٤٢٧هـ)في"الكشف والبيان عن تفسير القرآن"(٩/ ٢٨٨) :"الْمُصَوِّرُ : الممثِّل للمخلوقات والعلامات المميّزة والهيئات المتفرِّقة حتَّى يتميَّز بها بعضها من بعض ، يقال: هذه صورة الأمر ، أي : مثاله، فأوّلاً يكون خلقاً ثمَّ نطفة ثمَّ علقة ثمَّ تصويراً إذا انتهى وكمل، والله أعلم" .

وقال الماوردي(٤٥٠هـ) في"النُّكت والعيون"(٥/ ٥١٤-٥١٥) :"المصوِّر فيه وجهان: أحدهما: لتصوير الخلق على مشيئته. الثَّاني: لتصوير كلّ جنس على صورته. فيكون على الوجه الأوَّل محمولاً على ابتداء الخلق بتصوير كلّ خلق على ما شاء من الصُّور. وعلى الوجه الثَّاني يكون محمولاً على ما استقرَّ من صور الخلق ، فيحدث خلق كلّ جنس على صورته ، وفيه على كلا الوجهين دليل على قدرته.

ويحتمل وجهاً ثالثاً: أن يكون لنقله خلق الإنسان وكلّ حيوان من صورة إلى صورة ، فيكون نطفة ثمَّ علقة ثمَّ مضغة إلى أن يصير شيخاً هرماً ، كما قال النَّابغة:

الخالِقِ البارِئِ الْمُصَوِّرِ في الـ   أَرحامِ ماءً حتَّى يَصِيرَ دَماً".

وقال البيهقي في "الأسماء والصِّفات"(ص٤٤-٤٥) : "... وَمِنْهَا «الْمُصَوِّرُ» قَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾(الحشر: ٢٤) وَرُوِّينَاهُ فِي خَبَرِ الْأَسَامِي قَالَ الْحَلِيمِيُّ: مَعْنَاهُ الْمُهَيِّئُ لِمَنَاظِرِ الْأَشْيَاءِ عَلَى مَا أَرَادَهُ مِنْ تَشَابُهٍ أَوْ تَخَالُفٍ ، وَالِاعْتِرَافُ بِالْإِبْدَاعِ يَقْتَضِي الِاعْتِرَافَ بِمَا هُوَ مِنْ لَوَاحِقِهِ قَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْمُصَوِّرُ الَّذِي أَنْشَأَ خَلْقَهُ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ لِيَتَعَارَفُوا بِهَا ، وَمَعْنَى التَّصْوِيرِ التَّخْطِيطُ وَالتَّشْكِيلُ ، وَخَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الْإِنْسَانَ فِي أَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ ثَلَاثَ خَلْقٍ يُعْرَفُ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ عَنْ غَيْرِهِ بِسِمَتِهَا ، جَعَلَهُ عَلَقَةً ، ثُمَّ مُضْغَةً ، ثُمَّ جَعَلَهُ صُورَةً ، وَهُوَ التَّشْكِيلُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ ذَا صُورَةٍ وَهَيْئَةٍ: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون: ١٤) .

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ بِشْرَانَ ، بِبَغْدَادَ ، أنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ الرَّمَادِيُّ ، ثنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، أنا مَعْمَرٌ ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ، قَالَ: أَخْبَرَنِي الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، أَنَّ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَهِيَ مُسْتَتِرَةٌ بِقِرَامٍ فِيهِ صُورَةُ تَمَاثِيلَ ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ ثُمَّ أَهْوَى إِلَى الْقِرَامِ فَهَتَكَهُ بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ: " إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ بِخُلُقِ اللهَّ تَعَالَى رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَعَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنِ الزُّهْرِيِّ .

أَخْبَرَنَا أَبُو عَمْرٍو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهَّ الْأَدِيبُ ، أنا أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ ، أنا أَبُو يَعْلَى ، ثنا أَبُو خَيْثَمَةَ ، ثنا جَرِيرٌ ، عَنْ عُمَارَةَ ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دَارًا تُبْنَى بِالْمَدِينَةِ لِسَعِيدٍ يَعْنِي ابْنَ الْعَاصِ أَوْ لِمَرْوَانَ قَالَ: فَتَوَضَّأَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَغَسَلَ يَدَيْهِ حَتَّى بَلَغَ إِبْطَيْهِ وَغَسَلَ رِجْلَيْهِ حَتَّى بَلَغَ رُكْبَتَيْهِ فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: إِنَّهُ مُنْتَهَى الْحِلْيَةِ قَالَ: فَرَأَى مُصَوِّرًا يُصَوِّرُ فِي الدَّارِ ، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً وَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي خَيْثَمَةَ ، وَأَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ فُضَيْلٍ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ الْقَعْقَاعِ" .

وقال طاهر بن محمَّد الأسفراييني، أبو المظفَّر(٤٧١هـ) في"التَّبصير في الدِّين وتمييز الفرقة النَّاجية عن الفرق الهالكين"(ص١٦٠) :"وَأَن تعلم أَنَّ كلّ مَا تصوَّر فِي الْوَهم من طول وَعرض وعمق

وألوان وهيئات مُخْتَلفَة يَنْبَغِي أَن تعتقد أَنَّ صانع الْعَالم بخلافة ، وَأَنَّه قَادر على خلق مثله ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنى أَشَارَ الصّدِّيق رَضِي الله عَنهُ بقوله : الْعَجز عَن درك الْإِدْرَاك إِدْرَاك ، وَمَعْنَاهُ : إِذا صَحَّ عنْدك أَنَّ الصَّانِع لَا يُمكن مَعْرفَته بالتَّصوير والتَّركيب وَالْقِيَاس على الْخلق صَحَّ عنْدك أَنَّه خلاف الْمَخْلُوقَات ، وتحقيقه أَنَّك إِذا عجزت عَن مَعْرفَته بِالْقِيَاسِ على أَفعاله صَحَّ معرفتك لَهُ بِدلَالَة الْأَفْعَال على ذَاته وَصِفَاته . وَقد وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفسه بقوله : **﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ البَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾** ، وَمَا كَانَ مصوَّراً لم يكن مصوِّراً ، كَمَا أَنَّ من كَانَ مخلوقاً لم يكن خَالِقًا" .

وقال السَّمعاني(٤٨٩هـ) في"تفسير القرآن"(٥/ ٤١١٠-٤١١) :" وَقَوله: المصوِّر هُوَ التَّصْوِير الْمَعْلُوم يصوِّر كلَّ خلق على مَا يَشَاء. وَقيل: التَّصْوِير هُوَ تركيب مَخْصُوص فِي مَحلٍّ مَخْصُوص من الْخلق" .

وقال الغزالي(٥٠٥هـ) في"المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى"(ص٧٧-٧٩) :" فَأَمَّا اسْم المصوِّر فَهُوَ لَهُ من حَيْثُ رتَّب صور الْأَشْيَاء أحسن تَرْتِيب ، وصوَّرها أحسن تَصْوِير ، وَهَذَا من أَوْصَاف الْفِعْل ، فَلَا يعلم حَقِيقَته إِلَّا من يعلم صُورَة الْعَالم على الْجُمْلَة ثمَّ على التَّفْصِيل ، فَإِنَّ الْعَالم كُلّه فِي حكم شخص وَاحِد مركَّب من أَعْضَاء متعاونة على الْغَرَض الْمَطْلُوب مِنْهُ ، وإِنَّما أعضاؤه وأجزاؤه السَّمَوَات وَالْكَوَاكِب والأرضون وَمَا بَينهمَا من المَاء والهواء وَغَيرهمَا ، وَقد رتِّبت أجزاؤه ترتيباً محكماً لَو غير ذَلِك التَّرْتِيب لبطل النِّظَام فخصّص بِجِهَة الفوق مَا يَنْبَغِي أَن يَعْلُو وبجهة السّفل مَا يَنْبَغِي أَن يسفل ، وكما أَنَّ الْبناء يضع الْحِجَارَة أَسْفَل الْحِيطَان والخشب فَوْقهَا لَا بالِاتِّفَاقِ بل بالحكمة وَالْقَصْد لإِرَادَة الإحكام ، وَلَو قلب ذَلِك فَوضع الْحِجَارَة فَوق الْحِيطَان والخشب أَسْفَلهَا لانهدم الْبناء وَلم تثبت صورته أصلاً .

فَكَذَلِك يَنْبَغِي أَن يفهم السَّبَب فِي علوِّ الْكَوَاكِب وتسفل الأَرْض وَالْمَاء وَسَائِر أَنْوَاع التَّرْتِيب فِي الْأَجْزَاء الْعِظَام من أَجزَاء الْعَالم ، وَلَو ذَهَبْنَا نصف أَجزَاء الْعَالم ونحصيها ، ثمَّ نذْكر الْحِكْمَة فِي تركيبها لطال الْكَلَام ، وكلّ من كَانَ أوفر علماً بِهَذَا التَّفْصِيل كَانَ أَكثر إحاطة بِمَعْنى اسْم المصوِّر . وَهَذَا التَّرْتِيب والتَّصوير مَوْجُود فِي كلِّ جُزْء من أَجزَاء الْعَالم وَإِن صغر حتَّى فِي النَّملة والذرَّة ، بل فِي كلِّ عُضْو من أَعْضَاء النَّملة ، بل الْكَلَام يطول فِي شرح صُورَة الْعين الَّتِي هِيَ أَصْغَر عُضْو فِي

الْحَيَوَان ، وَمن لم يعرف طَبَقَات الْعين وعددها وهيئاتها وشكلها ومقاديرها وألوانها وَوجه الْحِكْمَة فِيهَا فَلَنْ يعرف صورتهَا وَلم يعرف مصوِّرها إِلَّا بِالِاسْمِ الْمُجْمل ، وَهَكَذَا القَوْل فِي كلِّ صُورَة لكلِّ حَيَوَان ونبات ، بل لكلِّ جُزْء من كلِّ حَيَوَان ونبات .

حَظّ العَبْد من هَذَا الِاسْم أَن يحصل فِي نَفسه صُورَة الْوُجُود كُلّه على هَيئته وترتيبه حتَّى يُحِيط بهيئة الْعَالم وترتيبه كُله كَأَنَّهُ ينظر إِلَيْهَا . ثمَّ ينزل من الْكلِّ إِلَى التَّفاصيل فيشرف على صُورَة الْإِنْسَان من حَيْثُ بدنه وأعضائه الجسمانيَّة ، فَيعلم أَنْوَاعهَا وعددها وتركيبها وَالْحكمَة فِي خلقهَا وترتيبها ثمَّ يشرف على صفاتها المعنويَّة ومعانيها الشَّرِيفَة الَّتِي بهَا إدراكاته وإرادته ، وَكَذَلِكَ يعرف صُورَة الْحَيَوَانَات وَصُورَة النَّبَات ظَاهراً وَبَاطناً بِقدر مَا فِي وَسعه حتَّى يحصل نقش الْجَمِيع وَصورته فِي قلبه ، وكلّ ذَلِك يرجع إِلَى معرفَة صُورَة الجسمانيَّات ، وَهِي معرفَة مختصرة بِالْإِضَافَة إِلَى معرفَة تَرْتِيب الرَّوحانيَّات ، وَفِيه يدْخل معرفَة الْمَلَائِكَة وَمَعْرِفَة مَرَاتِبهمْ وَمَا وكل إِلَى كلِّ وَاحِد مِنْهُم من التَّصَرُّف فِي السَّمَوَات وَالْكَوَاكِب ثمَّ التَّصَرُّف فِي الْقُلُوب البشريَّة بالهداية والإرشاد ، ثمَّ التَّصَرُّف فِي الْحَيَوَانَات بالإلهامات الهادية لَهَا إِلَى مَظَنَّة الْحَاجَات .

فَهَذَا حَظّ العَبْد من هَذَا الِاسْم ، وَهُوَ اكْتِسَاب الصُّورة العلميَّة الْمُطَابقَة للصُّورة الوجوديَّة ، فَإِن الْعلم صُورَة فِي النَّفس مُطَابقَة للمعلوم ، وَعلم الله عزَّ وجلَّ بالصُّور سَبَب لوُجُود الصُّور فِي الْأَعْيَان ، والصُّورة الْمَوْجُودَة فِي الْأَعْيَان سَبَب لحُصُول الصُّور العلميَّة فِي قلب الْإِنْسَان ، وَبِذَلِك يَسْتَفِيد العَبْد الْعلم بِمَعْنى اسْم المصوِّر من أَسمَاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَيصير أَيْضاً باكتساب الصُّورة فِي نَفسه كَأَنَّهُ مُصَوّر ، وَإِن كَانَ ذَلِك على سَبِيل الْمجَاز ، فَإِن تِلْكَ الصُّور العلميَّة إِنَّما تحدث فِيهِ على التَّحْقِيق بِخلق الله تَعَالَى واختراعه لَا بِفعل العَبْد ، وَلَكِن العَبْد يسْعَى فِي التَّعَرُّض لفيضان رَحْمَة الله تَعَالَى عَلَيْهِ" .

وقال البغوي(٥١٠هـ) في"معالم التَّنزيل في تفسير القرآن"(٥/٦٧) :"الْمُصَوِّرُ، الْمُمَثِّلُ لِلْمَخْلُوقَاتِ بِالْعَلَامَاتِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ. يُقَالُ: هَذِهِ صُورَةُ الْأَمْرِ أَيْ مِثَالُهُ، فَأَوَّلًا يَكُونُ خَلْقًا ثمَّ بَرْءًا ثمَّ تَصْوِيرًا".

وقال أبو الحكم عبد السَّلام بن عبد الرَّحْمَن بن محمَّد ابن برجان اللخمي الإشبيلي(٥٣٦هـ) في"شرح أسماء الله الحسنى"(ص-١٩٢ باختصار) :"والتَّصوير قد يكون بمعنى التَّقدير بوجه ، وهو التَّعديل في التَّصوير ، وإذا كان بمعنى الإمالة كان بمعنى : عدل يعدل ، ولذلك قرئ : **﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شاءَ رَكَّبَكَ﴾**﴿الإنفطار:٦-٨﴾ ، أي : عدل صورتك على أحسن التَّصوير ، ومن قرأ : **﴿فَعَدلَكَ﴾** بتخفيف الدَّال، أراد ما لصورتك ، وعدل فيها بها عمَّا دونها من الصُّور إلى أحسن التَّصوير ، وهذا يكون بمعنى الإمالة والإحالة له إلى ما أريد منه ، ولذلك قالوا : عصفور صوار ، إذا أجاب لإمالته صورته بالمحاكاة إلى الأصوات سواء ، يقال : من التَّصوير الذي بمعنى التَّقدير : صارالرَّجل ، إذا صور ، وصار أيضاً بمعنى : حال وذهب نحوه ، وأصار: أحال ووجه ، ويقال : صور الأمر ، أي : قدره ، وصار يصوره ، إذا أماله والنَّعت منه : أصور إذا كان مائل للعنق ، وقد صور صوراً إذا أمال ، والمصوّر من التَّصوير ، وهو تصيير الشَّيء على صورة ، قال الله عزَّ وجلَّ : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** ﴿الأعراف:١١﴾ ، وقال : **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾**﴿غافر:٦٤﴾ ، أي : قدَّرها فأحسن تقديرها... واعلم يقيناً أنَّ صورة آدم عليه السَّلام وذريَّته هي التي نشأت إليها معاني التَّصوير ظاهرًا وباطناً، وظهر فيها الكمال لاجتماع معنى التَّقدير فيها وهو العام، وممعنى الإمالة والتَّوجيه وهو الخاص ، قال الله عزَّ وجلَّ : **﴿خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾**﴿العنكبوت:٤٤﴾ ، ثمَّ قال: **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾**﴿غافر:٦٤﴾ ، **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾**﴿التين:٤﴾ ، يؤيِّد صورة الفطرة في كمال حسناالجبلة وقوام الإسلام في كرم الصيغة وبخاصَّة ، فإنَّما أعرب حسن التَّصوير وظهر الكمال أوضح بيانه ، وتصوير المؤمن لاجتماع القوام فيه ظاهراً وباطناً ، فمتى لم يكن الإيمان والصُّورة الباطنة أقبح الصُّور وأمقتها ، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ : **﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾**﴿التين:٥﴾ ، أي : في حال كفرهم واختيار سوء منزلته . ثمَّ استثنى من أولئك المؤمنين الذين آمنوا بعقولهم واختيارهم ، فاستقام قوام فطرتهم عقداً وعملاً ،

قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجنَّة عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً ..." . أخرجه البخاري (٤/ ١٣٢ برقم ٣٣٢٧) .

صورت وجوههم على منازلهم في إيمانهم وأعمالهم ، ألا تسمع إلى قول رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:"إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ". أخرجه أحمد (١٤/ ٨١ برقم ٨٣٣٩) .

... ثمَّ اعلم – وفقك الله – أنَّ التَّصوير لا غاية له ولا علم منتهى ، لعدم الغاية والمنتهى في علم المصوِّر وقدرته ومشيئته ، من حيث انفصلت الصُّور ، لأنَّها من صفات الجلال **﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾**﴿القصص:٨٨﴾ ، **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ * وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾** ﴿الرحمن:٢٦-٢٧﴾ ، فلم يفن لذلك التَّصوير، وأمر بإكرام وجه المؤمن إفاضة من إكرامه ونزاهة سبحات وجهه الكريم ...".

وقال الزَّمخشري(٥٣٨هـ) في"الكشَّاف" (٤/ ٥١٠) :"الُمصَوِّرُ : الممثل. وعن حاطب بن أبي بلتعة أنَّه قرأ: البارئ المصوَّر، بفتح الواو ونصب الرَّاء، أي: الذي يبرأ المصوَّر ، أي: يميز ما يصوِّره بتفاوت الهيئات".

وقال القاضي محمَّد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي(٥٤٣هـ) في"أحكام القرآن" (٢/ ٣٤٨) :"هُوَ الَّذِي يُرَتِّبُ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى صِفَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ وَهَيْئَاتٍ مُتَغَايِرَاتٍ" .

وقال ابن الجوزي(٥٩٧هـ) في"زاد المسير في علم التَّفسير" (٤/ ٢٦٥) :"المصوِّر : هو الذي أنشأ خلقه على صُوَرٍ مختلفةٍ ليتعارفوا بها. ومعنى: التَّصوير: التَّخطيط والتَّشكيل" .

وقال الرَّازي(٦٠٦هـ) في"التَّفسير الكبير" (٢٩/ ٥١٤) :"وَأَمَّا الْمُصَوِّرُ فَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ يَخْلُقُ صُوَرَ الْخَلْقِ عَلَى مَا يُرِيدُ، وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْخَالِقِ عَلَى الْبَارِئِ، لِأَنَّ تَرْجِيحَ الْإِرَادَةِ مُقَدَّمٌ عَلَى تَأْثِيرِ الْقُدْرَةِ وَقَدَّمَ الْبَارِئَ عَلَى الْمُصَوِّرِ، لِأَنَّ إِيجَادَ الذَّوَاتِ مُقَدَّمٌ عَلَى إِيجَادِ الصِّفَاتِ" .

وقال الرَّازي أيضاً في"شرح الأسماء الحسنى" (ص٢١٧-٢١٩) : "وأمَّا المصوِّر فهو مأخوذ من الصُّورة ، وفي اشتقاق لفظ الصُّورة قولان :

الأَوَّلُ : من الصوَر وهو الإمالة ، قال تعالى : ﴿**فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**﴾﴿البقرة:٢٦٠﴾ ، أي : أملهنّ ، وفي حديث عكرمة ،"وحملة العرش كلُّهم صور"، يريد جمع الصُّور ، وهو مائل العين ، فالصُّورة هي الشَّكل المائل إلى الأحوال المطابقة للمصلحة والمنفعة .

وَالثَّانِي : أَّن الصُّورة مأخوذة من صار يصير ، ومنه قولهم : إلى ماذا صار أمرك ، ومادَّة الشَّيء هي الجزء الذي باعتباره يكون الشَّيء ممكن الحصول ، وصورته هي الجزء الذي باعتباره يكون الَّشيء حاصلاً كائناً لا محالة ، فلا جرم كانت الصُّورة منتهى الأمر ومصيره .

إذا عرفت هذا فنقول : لا شكَّ أنَّ الأجسام متساوية في ذاتها ، ويرى كلّ جسم مختصَّاً بصورة خاصَّة ، وشكل خاص ، والذَّوات المتماثلة إذا اختلفت في الصِّفات كانت تلك الصِّفات جائزة العدم والوجود ، والجائز لا بدَّ له من مرجع ومخصّص ، فافتقرت الأجسام بأسرها في صورها المخصوصة ، وأشكالها المخصوصة إلى مخصص قادر ، وهو الله سبحانه ، فثبت أنَّه سبحانه وتعالى هو المصوِّر ، ثمَّ إنَّه سبحانه خصَّ صورة الإنسان بمزيد العناية ، كما قال : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾﴿غافر:٦٤﴾ ، وقال بعد أن شرح خلق الإنسان : ﴿**فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ**﴾﴿غافر:٦٤﴾ ، هذا هو الكلام في تفسير هذه الأسماء الثَّلاثة .

المسألة الرَّابعة : في كلام المشايخ في اسمه الخالق والبارئ والمصوِّر : في هذه الأسماء قالوا : الخالق هو الذي بدأ الخلق بلا مشير وأوجدها بلا وزير ، وقيل : الخالق الذي ليس لذاته تأليف ، ولا عليه في قوله تكليف ، وقيل : الخالق الذي أظهر الموجودات بقدرته ، وقدَّر كلّ واحد منها بمقدار معيَّن بإرادته ، وقيل : الخالق الذي خلق الخلق بلا سبب وعلَّة ، وأنشأها من غير جلب نفع ولا دفع مضرَّة .

حكي عن جعفر بن سليمان أنَّه قال : مررت بعجوز مكفوفة تنوح على نفسها ، فقلت لها : ما معاشك ؟ فقالت : دع هذه الفضول ، بلغت هذا المبلغ فما أحوجني إليك ولا إلى غيرك ، ثمَّ قالت : أمَّا سمعت قول الخليل عليه السَّلام : ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾﴿الشعراء:٧٨-٨٠﴾ .

أمَّا البارئ فقالوا : من عرف أنَّه البارئ لم يكن للحوادث في قلبه أثر ، ولا للشَّواهد على سرّه خطر ، وقيل : من عرف أنَّه البارئ تبرَّأ عن حول نفسه وسطوته ، ولا يمنُّ على الحضرة بعبوديَّته وطاعته ، وقيل من عرف أنَّه البارئ فني عن مساكنة الأغيار ، وسقط عن سرِّه ملاحظة الآثار ، وقيل : من عرف أنَّه البارئ تبرَّأ عن المحظور ، والتجأ إلى الملك الغفور .

أمَّا المصور فقالوا : إنَّه الذي سوَّى قامتك ، وعدل خلقتك ، قال تعالى : ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾﴿التين:٤﴾ ، وقيل : المصوِّر من زيَّن الظَّواهر عموماً ، ونوَّر السَّرائر خصوصاً ، وقيل : المصِّور الذي ميَّز العوام من البهائم بتسوية الخلق ، وميَّز الخواص من العوام بتصفية الخلق .

واعلم أنَّه تعالى كما زيَّن الظَّواهر بالصُّورة الحسنة ، زيَّن البواطن أيضاً بالسِّيرة الحسنة ، وبهذا المعنى قال تعالى في تعظيم العلم : ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِّ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾﴿النساء:١١٣﴾ ، وقال في تعظيم الخلق : ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾﴿القلم:٤﴾ ، فالمرء مشهور بخلقه ، مستور بخلقه .

قال يحيى بن معاذ : إذا سكتّ فأنا من النَّاس واحد ، وإذا نطقت فأنا في النَّاس واحد ، ولهذا قيل : المرء مخبوء تحت لسانه .

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام : «لَيْسَ شَيْءٌ أَخْبَرَ مِنْ أَلْفٍ مِثْلِهِ إِلَّا الْإِنْسَانَ» . ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥/ ٣١٨ برقم ٩٦١٨) ، وقال : رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ وَهُوَ ثِقَةٌ.

المسألة الخامسة : حظُّ العبد من هذه الأسماء الثَّلاثة قليل ، أمَّا الخالق فقد رجع حاصله إلى العلم ، وأمَّا البارئ فقد رجع حاصله إلى القدرة ، فحظُّ العبد من الأوَّل تكميل القوَّة النَّظريَّة بمعرفة الحقائق ، ومن الثَّاني تكميل القوَّة العملية بمحاسن الأخلاق ، وإليهما الإشارة بقول الخليل : ﴿**رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً**﴾﴿الشعراء:٨٣﴾ ، إشارة إلى تكميل القوَّة النَّظريَّة ﴿**وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾﴿يوسف:١٠١﴾ ، إشارة إلى تكميل القوَّة العمليَّة ، فإذا صار هكذا فقد صار تامَّاً في ذاته تماماً يليق بالبشريَّة ، فيجب بعده أن يشتغل بتكميل غيره ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿**قُلْ هَذِهِ**

سَبِيْلِي﴾«يوسف:١٠٨» ، وهذا هو حظُّ العبد من اسمه المصوِّر ، لأنَّه بإرشاده يصوِّر الحقّ في عقول الخلق".

وقال القرطبي(٦٧١هـ) في"الجامع لأحكام القرآن"(١٨/٤٨) :"الْمُصَوِّرُ مُصَوِّرُ الصُّوَرِ وَمُرَكِّبُهَا عَلَى هَيْئَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. فَالتَّصْوِيرُ مُرَتَّبٌ عَلَى الْخَلْقِ وَالْبَرَايَةِ وَتَابِعٌ لَهُمَا. وَمَعْنَى التَّصْوِيرِ التَّخْطِيطُ وَالتَّشْكِيلُ. وَخَلَقَ اللهُ الْإِنْسَانَ فِي أَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ ثَلَاثَ خِلَقٍ: جَعَلَهُ عَلَقَةً، ثمَّ مُضْغَةً، ثمَّ جَعَلَهُ صُورَةً وَهُوَ التَّشْكِيلُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ صُورَةً وَهَيْئَةً يُعْرَفُ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ عَنْ غَيْرِهِ بِسِمَتِهَا. فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ. وَقَالَ النَّابِغَةُ:

الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ فِي الْـ   أَرْحَامِ مَاءً حتَّى يَصِيرَ دَمًا

وَقَدْ جَعَلَ بَعْضُ النَّاس الْخَلْقَ بِمَعْنَى التَّصْوِيرِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وإِنَّما التَّصْوِيرُ آخِرًا وَالتَّقْدِيرُ أولا والبراية بينهما. ومنه قول الْحَقُّ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾«المائدة: ١١٠». وَقَالَ زُهَيْرٌ:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ   ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثمَّ لَا يَفْرِي

يَقُولُ: تقدّم مَا تُقَدِّرُ ثمَّ تَفْرِيهِ، أَيْ تُمْضِيهِ عَلَى وَفْقِ تَقْدِيرِكَ، وَغَيْرُكَ يُقَدِّرُ مَا لَا يَتِمُّ لَهُ وَلَا يَقَعُ فِيهِ مُرَادُهُ، أَمَّا لِقُصُورِهِ فِي تَصَوُّرِ تَقْدِيرِهِ أَوْ لِعَجْزِهِ عَنْ تَمَامِ مُرَادِهِ" .

وقال القرطبيُّ في "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته"(ص٣٤٨-٣٥٤) : "جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه ، نطق به القرآن اسماً ، وتكرَّر فعلاً ، فقال: ﴿هُوَ اللهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ ، وقال : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ﴾ ، وقال : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾ ، وجاء في حديث أبي هريرة وأجمعت عليه الأمَّة، وهو من أسماء الأفعال، لأنَّ الله سبحانه هو مظهر صور المصوَّرات في حكمه على المخلوقات من الإباحة والمنع، تقول منه : صور يصوِّر تصويراً فهو مصوِّر، والتَّصوير جعلك الشَّيء على وجود يتميَّز به من غيره من تقدير وتخطيط واختصاص بشكل ونحو هذا ، وصوَّره الله صورة حسنة فتصوَّر، والتَّصاوير التَّماثيل، وطعنه فتصوَّر ، أي : مال للسُّقوط، وإذا كان بمعنى الإمالة كان بمعنى عدل يعدل ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ مخفَّفاً، أي : أمال صورتك ، وعدل بها عمَّا دونها من الصُّور إلى حسن التَّصوير، وقرىء مثقلاً ، أي : عدل صورتك ، أي :

خلقها على أحسن التَّصوير، صاره يصوره إذا أماله، والنَّعت منه أصور إذا كان مائل العنق، وقد صور وصور إذا مال . قال الجوهري : والصور بالتِّحريك الميل، ورجل أصور بين الصور ، أي : مائل مشتاق .

قال ابن العربي : قال علماؤنا فيه أربع عبارات :

الأولى : الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة وهيئات متغايرة.

الثَّانية : أنَّه الممثّل والصُّورة التِّمثال .

الثَّالثة : المركَّب والصُّورة التَّركيب .

الرَّابعة : المهيِّيء للشَّيء المخلوق إلى غايته ، كما يقال: صار الأمر إلى غايته.

قال ابن الحصَّار : ليس هذه كلّها تفسيراً للمصوِّر، بل كلُّ واحد منها يختصُّ بمعنى ، وهذا الاسم يُشعر بجميع الصِّفات التي لا يتمُّ الفعل إلَّا بها من الاقتدار والعلم والاختيار، ويتضمَّن مع ذلك الحكمة البالغة، والخبرة قبل الإيجاد، إلى غير ذلك من الصَّفات التي يفتقر إليها التَّصور والاختراع والتَّقدير (والتَّصوير مرتَّب على الخلق والبراية وتابع لها) كما تقدَّم، وقد قال تعالى: **﴿خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾** .

وقال النَّابغة :

الخالق البارىء المصوِّر في الـ   أرحام ماء حتى يصير دماً

قال الخطَّابي : المصوِّر الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها (ومعنى التَّصوير : التَّخطيط والتَّشكيل، وخلق الله الإنسان في أرحام الأمَّهات ثلاث خلق: جعله علقة، ثمَّ مضغة، ثمَّ جعله صورة ، وهو التَّشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بها، ويتميَّز عن غيره بسمتها ، فتبارك الله أحسن الخالقين).

وقال الحليمي: المصوِّر المهيِّيء لمناظر الأشياء على ما أراده من تشابه أو تخالف، والاعتراف بالإبداع يقتضي الاعتراف بما هو من لواحقه . فيجب على كلِّ مكلَّف أن يعلم أنَّ الله هو المصوِّر لجميع الصُّور ، المنفرد بذلك على الإطلاق ، وأنَّ العبد وإن سُمِّي مصوِّراً باعتبار فمجاز، ثبت في

صحيح مسلم(٤/ ٢٠٣٧ برقم ٢٦٤٥) عَن حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِيُّ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ" .

فأضاف سبحانه في هذا الحديث التَّصوير والخلق إلى الملك، وذلك مجاز لقوله الحقّ : **﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾** ، وقوله : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾** ، وقوله : **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** ، ومثله **﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾**، وهو سبحانه المتوفِّي على الحقيقة كما قال : **﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾**، وقال : **﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ﴾** ، وقال : **﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا﴾** .

فيحرم على العباد تعاطي التَّصوير، لما ثبت في السُّنَّة والتَّنزيل، قال الله تعالى: **﴿مَا كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ﴾** ، وقالَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» . أخرجه مسلم (٣/ ١٦٧١ برقم ٢١١١) .

وهذه إشارة إلى أنَّ كلّ موجود في الوجود فهو من خلق الله ، واختراعه وتقديره وإبداعه ، ولمَّا كان المصوِّر يضاهي الخالق الحقّ ، ويتعاطى ما حرَّم عليه كان أشدَّ النَّاس عذاباً ، خرَّجه البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ» . أخرجه مسلم (٣/ ١٦٧٠ برقم ٢١٠٩) .

وخرَّج التِّرمذيُّ(٤/ ٢٨٢ برقم ٢٥٦٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ، بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ" . قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

ابن العربي : إنَّ الكراهة إنَّما وردت في كلِّ ما لا روح فيه من نبات أو جماد ، وما علمت في ذلك رخصة إلَّا ما كان رقماً في ثوب .

ابن الحصَّار : وقد هتك رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرام وكانت صورته رقماً في ثوب ، فيمكن أن يكون هذا ناسخاً لإذنه عليه السَّلام في رقم الثَّوب، لأنَّ أحاديث الوعيد جاءت مطلقة غير مفيدة لعن رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم المصوِّرين ولم يستثن ، ويحتمل أن يكون (هتكه) إيَّاه لغير الصُّورة فيقع الإذن فيها بعد التَّغيير ، ويمكن أن يكون ورعاً ، لأنَّ محلَّ النُّبوَّة والرِّسالة الكمال ، فتدبَّر ذلك تجده كذلك .

قلت : وترك ذلك على العموم أولى لما ذكرناه من الكتاب والسُّنَّة ، وهو قول مجاهد : أنَّ ما كان لبشر أن يتهيَّأ لهم ولا يقع تحت قدرهم أن ينبتوا شجرها إذ هم عجزة عن مثلها ، لأنَّ ذلك إخراج شيء من العدم إلى الوجود ، لأنَّ ذلك إخراج شيء من العدم إلى الوجود ، وعمَّ بالذَّمِّ والتَّهديد والتَّقبيح كلّ من تعاطى تصوير شيء ممَّا خلقه الله ، لأنَّ فيه مشاركة فيما انفرد به الله تعالى من الخلق ، وذهب الجمهور إلى أنَّ تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به، لأنَّ ابن عبَّاس قال للذي سأله يصنع الصُّور: وإن كنت فاعلاً لا بدَّ فاصنع الشَّجر وما لا نفس له، خرَّجه مسلم ، وهذا اختيار ابن العربي، قال: إنَّما وردت الرُّخصة في كلِّ ما لا روح فيه من نبات وجماد، ووقف النَّهي على ما فيه الرُّوح لحكمة بديعة، وذلك أنَّ كلّ مخلوق سوى الآدمي فإنَّما له صورة ظاهرة ولا باطن لها، والآدمي خلق خلقاً بديعاً، بأن جعلت له صورة ظاهرة وصورة باطنة وهي (الرُّوح)، ومدار الأمر فيه على الصُّورة الباطنة لوجهين:

أحدهما: إنَّ دوام وجوده بها حتَّى إذا فارقته تفكَّك تركيبه، وتفرَّقت أبعاضه، وصار في الوجود أدون من الجمادات .

الثَّاني : إنَّ مدحه وذمَّه، وثوابه وعقابه إنَّما يكون بها وعليها، وهو المعنى البديع، والسِّر الغريب الذي تفرَّد سبحانه بمعرفة جنسها يقيناً، وهي الرُّوح ، فإنَّه اضطرّ الخلق إلى معرفتهم بها موجوداً في ذواتهم وحجب عنهم معرفتها ضرورة تعجيزاً وتنبيهاً لقوله: **﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾** ، فإذا

تعاطى العبد تصوير ما لا باطن له مكّن من ذلك رخصة، وإذا تعـــاطى تصوير ما له صورة باطنة منع من ذلك لثلاثة أوجه :

الأَوَّلُ : ارتباط الصُّورة الباطنة بالظَّاهرة .

الثَّانِي: كونها طريقاً إلى المعجزة الظَّاهرة على يدي عيسى حين قال : **﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فتكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾** .

الثَّالِثُ : كونها حمى الصُّورة الباطنة المعجوز عنها ، وحكم الحمى حكم المحمي في الامتناع منه ، ورخّص فيما عدا الإنسان لوجهين :

أَحَدُهُمَا: التَّخفيف من الله تعالى على العباد في ترك عموم التَّضييق عليهم فيما تتعلَّق به آمالهم ، فهو سبحانه لو شاء لعمَّ بحجره ، ولكنَّه بحكمته البالغة إن منع طريقاً أباح آخر إبقاء على النَّفس المتمنِّية .

الثَّانِي : التَّفريق بين ما له حرمة وبين ما لا حرمة له، فمنع من تصوير ما له حرمة بباطنه وهو الآدمي، وعلى هذا نبَّه بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : " أحيي ما خلقته» . كأنَّه يقال: ما صوَّرت ظاهره وأقدمت عليه صور إن استطعت باطنه، وأذن في تصوير ما لا حرمة له تنبيهاً على تباين ما بين المنزلين ،قال : وهذه بدائع رأينا أن لا نخلي هذا الفصل منها.

وقال المزني عن الشَّافعي: وإن دعي رجل إلى عرس فرأى صورة أو صوراً ذات أرواح لم يدخل إن كانت منصوبة وإن كانت توطأ فلا بأس ، وإن كانت صور الشَّجر، ولم يختلفوا أنَّ التَّصاوير في السُّتور المعلَّقة مكروهة (غير محرَّمة) ، وكذلك عندهم ما كان خرطاً أو نقشاً في البناء ، واستثنى بعضهم ما كان رقماً في ثوب لحديث سهل بن حنيف ، وقد استثنى من هذا الباب لعب البنات ، لما ثبت عَنْ عَائِشَةَ، «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَزَوَّجَهَا وَهِيَ بِنْتُ سَبْعِ سِنِينَ، وَزُفَّتْ إِلَيْهِ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ، وَلُعَبُهَا مَعَهَا، وَمَاتَ عَنْهَا وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانَ عَشْرَةَ» . أخرجه مسلم (٢/ ١٠٣٩ برقم ١٤٢٢) .

وعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا كَانَتْ تَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: وَكَانَتْ تَأْتِينِي صَوَاحِبِي فَكُنَّ يَنْقَمِعْنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: «فَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ» . أخرجه مسلم (٤/ ١٨٩٠برقم ٢٤٤٠).

وقال صدر الدِّين القونوي(٦٧٣هـ) في "شرح الأسماء الحسنى"(ص٥١-٥٢) :"المصوِّر بما فتح أبواب خزائن مواد البهاء بمفاتيح الصوُّر، وزيَّن رياض صدور أهل الكشف والشُّهود بصور أنوار أزهار تجلِّياته وآثار ورود آياته، فهو مصوِّر الصُّور، ومهيِّيءُ الهيئات، وممثِّل الأمثال، الذي صوَّر الظَّاهر عموماً، ونوَّر السَّرائر خصوصاً.

اعلم أنَّ حضرة التَّصوير هي آخر مراتب حضرات الخلق، والعلم أوَّلها، والخلق برزخ بين العلم والتَّصوير، ولذلك ظهور الإنسان وقع في آخر مراتب الجسمانيَّة في الخلق، ومن هذا السرِّ ذهب بخلقه الإنسان في نفسه عند تصوُّره وتوهُّمه، لكونه يخلق كخلق الله، ومن ذلك صورة الاعتقاد الذي يخلقه الإنسان في نفسه عند تصوُّره وتوهُّمه لكونه موجوداً جامعاً حقائق مراتب الوجود- مع ما عليه من التَّقييد والتَّعيين، والغفلة عن شهود الأمر على ما هو عليه - فاقتضت الغيْرة الإلهيَّة أن ينبِّهه ويُطلعه على عموم التَّجليَّات الوجوديَّة، وسَريان الهويَّة الغيبيَّة في حقائق مراتب الأكوان وصفائح قوابِل عالم الإمكان، ليلزمَ الأدب عند مرافق توهُّمه ومصارف تصوُّره- كان ما كان - بقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾﴿البقرة: ١١٥﴾، ووجه الشَّيء ذاته وحقيقته، فأثبت الحقُّ سبحانه أنَّه في أي موضع أقام العبد فيه أو تولَّى إليه، وجهُ الحقّ في موضع تولِّيه، وإن أنكر العقل ذلك لقصوره، فقد أثبته الحقُّ، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع .

وأمَّا المصوِّرون من هذا العلم على قسمين :

منهم : من يخلق صورة جسمانيَّة كالصُّور المستعدَّة للحياة، ولا يحييها لعدم القدرة على ذلك، وهو الذي يتعلَّق به الذَّمُّ الإلهيُّ .

ومنهم: من يُنشىء صوراً روحانيَّة وصور الأعمال التي تَكَلَّف بإقامة نشأتها، وأُعطي القُدرة والقُوَّة على نفخ الرُّوح فيها، وهو الإخلاص والحُضُور.

ومن هؤلاء من قصَّر عن مثل هذا النَّفخ في هذه الصُّور الرَّوحانيَّة، فتعلَّق به الذَّمُّ أيضاً، ولحق بالأخسرين أعمالاً.

ومنهم: من ينشيء وينفخ فيها الرُّوح على أتمِّ الوجوه بإذن الحقِّ وتوفيقه، فيقوم على ناطِقِهِ مُسَبِّحَةً بحمد ربِّه، فالمخلصون العارفون أبداً في إنشاء الصُّور، فهم المصوِّرون، الذين ينفخون في صور إنشائهم أرواحاً، فشؤونهم دائم، وشهودهم قائم" .

وقال البيضاوي(٦٨٥هـ) في"أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل"(٥/ ٢٠٣) :" الْمُصَوِّرُ : الموجد لصورها وكيفيَّاتها كما أراد" .

وقال ابن جزي الكلبي(٧٤١هـ) في"التَّسهيل لعلوم التَّنزيل"(٢/ ٣٦٣) :"الْمُصَوِّرُ ، أي : خالق الصُّور" .

وقال عضد الدِّين الإيجي(٧٥٦هـ) في"كتاب المواقف"(٣/ ٣٠٧) :"المصوِّر : المختصّ بإحداث الصُّور والتَّراكيب".

وقال ابن كثير(٧٧٤هـ) في"تفسير القرآن العظيم"(٨/ ٨٠) :"وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾** ، أَيِ: الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ عَلَى الصِّفة الَّتِي يُرِيدُ، والصُّورة الَّتِي يَخْتَارُ. كَقَوْلِهِ: **﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾**﴿الانْفِطَارِ: ٨﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ: **﴿الْمُصَوِّرُ﴾** ، أَيِ: الَّذِي يُنَفِّذُ مَا يُرِيدُ إِيجَادَهُ عَلَى الصِّفة التي يريدها".

وقال محيي الدِّين الكافيجي(٨٧٩هـ) في"شرح الأسماء الحسنى"(ص١٥٠) :"هو المختصُّ بإحداث الصُّور المختلفة ، فتكون هذه الأسماء الثَّلاثة من صفات الفعل .

قال الغزالي : قد يظنّ أَنَّ هَذِه الْأَسْمَاء مترادفة ، وَأَنَّ الْكلَّ يرجع إِلَى الْخلق والاختراع ، وَلَا يَنْبَغِي أَن يكون كَذَلِك بل كلّ مَا يخرج من الْعَدَم إِلَى الْوُجُود فيفتقر إِلَى تَقْدِير أَوَّلاً ، وَإِلَى الإيجاد على وفْق التَّقْدِير ثَانِيًا ، وَإِلَى التَّصْوِير بعد الإيجاد ثَالِثاً ، وَالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَالق من حَيْثُ أَنَّه مُقَدّر ، وبارئ من حَيْثُ أَنَّه مخترع موجد ، ومصوِّر من حَيْثُ أَنَّه مُرَتِّب صور المخترعات أحسن تَرْتِيب" .

وقال ابن عادل الحنبلي(٨٨٠هـ) في"تفسير اللباب"(ص٤٨٨٥) :"قدَّم"البارئ"على"المصوِّر" لأنَّ إيجاد الذَّوات مقدَّم على إيجاد الصِّفات ، فالتَّصوير مرتَّب على الخلق والبراية وتابع لهما ، ومعنى التَّصوير : التَّخطيط والتَّشكيل ، وخلق الله الإنسان في بطن أمِّه ثلاثَ خلق ، جعله علقة ثمَّ مضغة ثمَّ جعله صورة ، وهو التَّشكيل الذي يكون به ذا صورة يعرف بها ويتميَّز عن غيره ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين" .

وقال البقاعي(٨٨٥هـ) في"نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور"(٧/٥٤٣) :"... ولمَّا كان من يهيئ الأمور للتَّصوير قد لا يتقنه قال : ﴿**الْمُصَوِّرُ**﴾ ، فإنَّ التَّصوير إتمام تفصيل الخلق الظَّاهر وإكمال تخطيطه وإحكام أعضائه ، وهو حدّ ما انتهى إليه الخلق في الظُّهور ، وليس وراء ظهور الصُّور كون إلَّا لطائف تطويرها في إسنان كمالها بعد بعثها بإحيائها بما لها من الرُّوح المقوّم لها سواء كان حيوانيَّاً أو غيره إلى غاية كمالها الذي يعطيه المصوِّر لها إفضالاً ومزيجاً ويظهره إبداعاً ، ويتَّضح الفرق جدَّاً بين الأسماء الثَّلاثة بالبناء ، فإنَّه يحتاج أوَّلاً إلى مقدِّر يقدِّر ما لا بدَّ منه من الحجر واللبن والخشب والحديد ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها ، وهذا يتولَّاه المهندس فيرسمه وهو الخلق ثمَّ يحتاج إلى حجَّار ينحت الحجارة ويهيّئها لتصلح لمواضعها التي تكون فيها من الأبواب وأوساط الجدر وأطرافها وزواياها غير ذلك ، وكذا الخشَّاب والحدَّاد في الخشب والحديد وهو البرئ ، ثمَّ يأخذ الكلّ البناء فيضعها مواضعها إلى أن تقوم صورتها التي رسمها المهندس أوَّلاً وقدَّرها ، ولا تقوم الصُّورة بالحقِّ إلَّا إذا كانت محكمة بحسب الطَّاقة كما أنَّ البنَّاء يضع الحجارة أوَّلاً ثمَّ يجعل الخشب فوقها لا بالاتِّفاق بل بالحكمة ، ولو قلب ذلك لم تثبت الصُّورة ولم يكن لها الاسم إلَّا على أقلّ وجوه الضَّعف ، فكلّ من كان أحكم كان تصويره أعظم ، ولذلك لا مصوِّر في الحقيقة إلَّا الله الخالق البارئ المصوِّر سبحانه .

قال الرَّازي في اللوامع : والتَّصوير موجود في كلِّ أجزاء العالم وإن صغر حتَّى في الذرَّة والنَّملة بل في كلِّ عضو من أعضاء النَّملة ، بل الكلام يطول في طبقات العين وعددها وهيئاتها وشكلها

ومقاديرها وألوانها ، ووجه الحكمة فيها ، فمن لم يعرف صورتها لم يعرف مصوِّرها إلَّا بالاسم المجمل ، وهكذا القول في كلِّ صورة لكلِّ حيوان ونبات بل لكلِّ جزء من نبات وحيوان".

وقال الإيجي(٩٠٥هـ) في"جامع البيان في تفسير القرآن"(٤/ ٢٩٦) :"الْمُصَوِّرُ: الممثِّل للمخلوقات المُوجد لصورها".

وقال أبو السُّعود(٩٨٢هـ) في"إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم"(٨/ ٢٣٤) :"المصوِّر: المُوجد لصورها وكيفيَّتها كما أرادَ".

وقال إسماعيل حقّي الإستانبولي الحنفي الخلوتي(١١٢٧هـ) في"روح البيان"(٩/ ٤٦٧) :"قدَّم البارئ على المصوِّر ، لأنَّ إيجاد الذَّات متقدِّم على إيجاد الصِّفات .

وعن حاطب بن أبى بلتعة رضي الله عنه أنَّه قرأ البارئ المصوّر بفتح الواو ونصب الرَّاء الذي يبرأ المصوّر ، أي : يميز ما يصوِّره بتفاوت الهيئات واختلاف الأشكال ، وعبد المصوّر هو الذي لا يتصوّر ولا يصوّر إلَّا ما طابق الحقّ ووافق تصويره ، لأنَّ فعله يصدر عن مصوريّته تعالى ، ولذا قال بعضهم : حظُّ العارف من هذه الأسماء : أن لا يرى شيئاً ولا يتصوَّر أمراً إلَّا ويتأمَّل فيما فيه من باهر القدرة وعجائب الصُّنع فيترقَّى من المخلوق إلى الخالق ، وينتقل من ملاحظة المصنوع إلى ملاحظة الصَّانع ، حتَّى يصير بحيث كلَّما نظر إلى شيء وجد الله عنده ، وخاصيَّة الاسم المصوّر الإعانة على الصَّنائع العجيبة وظهور الثِّمار ونحوها".

وقال أحمد بن محمَّد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي(١٢٢٤هـ) في"البحر المديد في تفسير القرآن المجيد"(٧/ ١٨) :"الْمُصَوِّر ؛ الموجد لصورها وكيفيَّتها كما أراد.

قال الغزالي: الخالق من حيث أنَّه مُقدِّر، الباريء من حيث أنَّه مُوجد، المصوِّر، مِن حيث أنَّه مُصَوِّر صور المخترعات أحسن ترتيب، ومُزيّنها أحسن تزيين. هـ.

قلت: وحاصل كلامه: أنَّ الخالق يرجع للإرادة، والباريء للقدرة، والمُصَوِّر للحكمة، والأحسن: أن يُقال: إنَّ الخالق: المخترع للأشياء من غير أصل، الباريء: المهيىء كلَّ ممكن لقبول

صورته، فهو من معنى الإرادة؛ إذ متعلّقه التَّخصيص، المُصَوِّر: المُعطي كلَّ مخلوق ما هيىء له من صورة وجوده بحكمته، فهو معاني اسمه"الحكيم" .

وقال محمَّد ثناء الله المظهري(١٢٢٥هـ) في"التَّفسير المظهري"(٩/ ٢٥٧) :"المُصَوِّرُ : قال البغوي : المماثل للمخلوق بالعلامات التي يتميَّز بها بعضها عن بعض ، يقال : هذه صورة الأمر ، أي : مثاله ، فأوَّلاً يكون خلقاً ثمَّ برأ ثمَّ تصوير أو في الصِّحاح ما يتنقش به الأعيان ويتميَّز بها عن غيرها ، وذلك ضربان :

أَحَدُهُمَا : محسوس يدركه الخاصَّة والعامَّة ، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوانات كصورة الإنسان والفرس والجماد بالمعاينة .

قلت : ومنه وما امتاز به زيد من عمرو .

الثَّانِي : معقول يدركه الخاصَّة دون العامَّة كالصُّورة التي اختصّ بها الإنسان من الفعل ، والمعاني التي خصّ بها شيء دون شيء ، وإلى الصُّورتين أشار الله تعالى بقوله: **﴿خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾** ، وقال : **﴿صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** ، وقال : **﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ﴾** ، وقال : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** ، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام :"خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ" ، فالصُّورة أراد بها ما خصّ الإنسان به من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة ، وبها فضَّله على كثير من الخلق ، وأضافه إلى الله على سبيل الملك لا على سبيل البعضيَّة والتَّشبيه ، تعالى عن ذلك . وذلك على سبيل التَّشريف ، كقوله : بيت الله ، و **﴿ناقَةُ اللهِ﴾** .

قلت : ويمكن أن يراد به خلقه تعالى على صفاته من العلم والقدرة والإرادة ونحو ذلك التي بها لبس خلعة الخلافة ، وامتاز به عمَّا عداه ، واحتمل ثقل الأمانة ، وجاز أن يكون ضمير صورته راجعاً إلى آدم ، يعني : خلقه على صورة لم يعط أحداً غيره ، والله تعالى أعلم".

وقال الشَّوكاني(١٢٥٠هـ) في"فتح القدير الجامع بين فنَّي الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير"(٥/ ٢٤٨) :"المُصَوِّرُ ، أَيِ: المُوجِدُ لِلصُّوَرِ، المُرَكِّبُ لَهَا عَلَى هَيْئَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَالتَّصْوِيرُ مُتَرَتِّبٌ عَلَى الْخَلْقِ وَالْبِرَايَةِ وَتَابِعٌ لَهُمَا، وَمَعْنَى التَّصْوِيرِ التَّخْطِيطُ وَالتَّشْكِيلُ، قَالَ النَّابِغَةُ:

الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ فِي الْـ أَرْحَامِ مَاءً حتَّى يَصِيرَ دَمَا

وَقَرَأَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ الصَّحَابِيُّ: «الْمُصَوَّرَ» بِفَتْحِ الْوَاوِ وَنَصْبِ الرَّاءِ عَلَى أنَّه مفعول له لِلْبَارِئِ، أَيِ: الَّذِي بَرَأَ الْمُصَوَّرَ، أَيْ: مَيَّزَهُ" .

وقال الألوسي(١٢٧٠هـ) في"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني"(١٤/٢٥٧) :"الْمُصَوِّرُ الموجد لصورها وكيفيَّاتها كما أراد.

وقال الرَّاغب: الصُّورة ما تنتقش بها الأعيان وتتميَّز بها عن غيرها، وهي ضربان: محسوسة تدركها العامَّة والخاصَّة ، بل الإنسان وكثير من الحيوانات كصورة الفرس المشاهدة. ومعقولة تدركها الخاصَّة دون العامَّة كالصُّورة التي اختصّ الإنسان بها من العقل والرَّوِيَّة والمعاني التي خصّ بها شيء بشيء، وإلى الصُّورتين أشار بقوله سبحانه: ﴿**خَلَقْناكُمْ ثمَّ صَوَّرْناكُمْ**﴾﴿الأعراف: ١١﴾ إلى آيات أخر ، انتهى فلا تغفل" .

وقال محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليماً، التَّناري بلداً(١٣١٦هـ) في"مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد"(٢/٥١٤) :" الْمُصَوِّرُ ، أي : مصوِّر الأشياء على هيئات مختلفة ممَّا يريد تعالى، فالتَّصوير آخر، والتَّقدير أوَّلاً، والبرء بينهما".

وقال أحمد بن مصطفى المراغي(١٣٧١هـ) في"تفسير المراغي"(٢٨/٥٦) :" المصوِّر: أي المُوجد للأشياء على صورها ومختلف أشكالها كما أراد".

وقال حافظ بن أحمد بن علي الحكمي(١٣٧٧هـ) في"معارج القبول بشرح سلَّم الوصول إلى علم الأصول"(١/١٣٢) :"الْمُصَوِّرُ" الْمُمَثِّلُ لِلْمَخْلُوقَاتِ بِالْعَلَامَاتِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، أَيِ: الَّذِي يُنَفِّذُ مَا يُرِيدُ إِيجَادَهُ عَلَى الصِّفة الَّتِي يُرِيدُهَا، يُقَالُ: هَذِهِ صُورَةُ الْأَمْرِ أَوْ مِثَالُهُ، فَأَوَّلًا يَكُونُ خَلْقًا ثمَّ بَرْءًا ثمَّ تَصْوِيرًا" .

وقال محمَّد الأمين بن محمَّد المختار بن عبد القادر الجكني الشَّنقيطي(١٣٩٣هـ) في"أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"(٨/٧٧) :"الْمُصَوِّرُ : الْمُشَكِّلُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ عَلَى الصُّورة الَّتِي أَوْجَدَهُ عَلَيْهَا،

وَلَمْ يُفْرِدْ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ مَوْجُودَاتِهِ عَلَى صُورَةٍ تَخْتَصُّ بِهِ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي خَلْقِ اللهِ لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ كُلٌّ فِي صُورَةٍ تَخُصُّهُ".

وقال محمَّد سيِّد طنطاوي(١٤٣١هـ) في"التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم"(٣١٣/١٤) :"المُصَوِّرُ أي: المصوِّر للأشياء والمركِّب لها، على هيئات مختلفة، وأنواع شتَّى من التَّصوير، وهو التَّخطيط والتَّشكيل".

وقال عبد المجيد الزَّنداني في"كتاب التَّوحيد"(ص١٦) :"س : وكيف نعرف أنَّ الله هو المصوِّر؟

ج : إذا رأيت قطعة من الطِّين قد تحوَّلت إلى صورة شجرة مثمرة فأنت تجزم بأنَّ تلك الصُّورة لا تكون إلَّا من صنع مصوِّر .

فإذا رأينا التُّراب وقد أحياه الله فجعله نباتات مختلفة الأشكال والألوان والثِّمار، لكلِّ شجرة رسم خاصّ في أوراقها وعروقها وأغصانها وأزهارها وثمارها، فمن جعل التُّراب والماء والهواء وضوء الشَّمس حدائق ذات بهجة ، في أجمل صورة؟!

إنَّ ذلك كلّه يشهد أنَّه من صنع المصوِّر سبحانه وتعالى.

وهكذا بالتَّفكير في خلق الله، وبالتَّأمُّل في طعامنا عرفنا بعض صفات ربِّنا:

فشهد لنا تدبير الرِّزق أنَّه من صنع الرزَّاق.

وشهد لنا الإحكام في الخلق أنَّه من صنع الحكيم.

وشهدت لنا الخبرة في الصُّنع أنَّها من صنع الخبير .

وشهد لنا العلم الذي ركّب به الخلق أنَّه من صنع العليم.

وشهدت لنا الرَّحمة المشاهدة بما خلق الله أنَّها من صنع الرَّحيم.

وشهد لنا الكرم الفائض أنَّه من صنع الكريم.

وشهدت لنا الهداية المقدّرة الموجّهة أنَّها من صنع الهادي.

وشهدت لنا الحياة المتنوِّعة أنَّها من صنع المحيي .

وشهدت لنا الصُّور المتقنة أنَّها من صنع المصوِّر البديع سبحانه" .

وقال الدكتور يوسف المرعشلي في كتابه :"ولله الأسماء الحسنى"(ص٤٤-٤٧) :"معناه : الموجد للصُّور المركِّب لها على هيئات مختلفة ، المعطي لكلِّ مخلوق صورة تميِّزه عن غيره . وهو مأخوذ من التصوير ، وهو التخطيط والتزيين ، والمراد : أنَّه المبدع للصُّور والمزيِّن المرتِّب لها . قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم : **﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**﴿الحشر:٢٤﴾ ، وقد ورد في القرآن الكريم في موضع واحد ، ووردت صيغة الفعل في خمس مواضع منها قوله تعالى : **﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللهُ ربّكم فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾**﴿غافر:٦٤﴾.

قال مجد الدِّين أبو السَّعادات المبارك بن محمَّد ابن الأثير الجزري رحمه الله في شرح هذا الاسم في كتابه :"النِّهاية في غريب الحديث" :"«الْمُصَوِّرُ» وَهُوَ الَّذِي صَوَّرَ جميعَ المَوْجُوداتِ ورتَّبها، فأعْطَى كلَّ شَيْءٍ مِنْهَا صُورَة خاصَّةً، وهيْئةً مُنْفَرِدةً يتَميَّزُ بِهَا عَلَى اختلافِها وكْثرتِها".

وقال حجَّة الإسلام أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزالي رحمه الله في شرح هذا الاسم في كتابه :" المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى":"الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَالق من حَيْثُ إِنَّه مُقَدّر ، وبارئ من حَيْثُ إِنَّه مخترع موجد ، ومصوِّر من حَيْثُ إِنَّه مُرَتّب صور المخترعات أحسن تَرْتِيب ، ومثاله : الإنسان ، وهو أحد مخلوقاته" .

وقال أحمد الشَّرباصي في "موسوعة له الأسماء الحسنى"(١/٩٧-١٠١) : " التَّصوير هو جعل الشَّيء على صورة ، والصُّورة هي الشَّكل والهيئة والحقيقة ، والصُّورة ما يتميَّز بها الإنسان عن غيره ، وقال الأصفهاني في المفردات : والصُّورة ما ينتقش به الأعيان ، ويتميَّز بها غيرها ، وذلك ضربان : أحدهما محسوس ، يدركه الخاصَّة والعامَّة . بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان ، كصورة الإنسان والفرس والحمار بالمعايشة ، والثَّاني معقول يدركه الخاصَّة دون العامَّة ، كالصُّورة التي اختصّ الإنسان بها من العقل والرَّويَّة والمعاني التي خُصَّ بها شيء بشيء ، وإلى الصُّورتين أشار الله

بقوله تعالى : **﴿ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾** ، **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** ، وقال : **﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شاءَ رَكَّبَكَ﴾** ، **﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ﴾** .

والمصوِّر اسم من أسماء الله الحسنى ، وهو مبدع صور المخلوقات ومزيّنها بحكمته ، فهو المعطي كلَّ مخلوق صورته على ما اقتضته حكمته الأزليَّة ، وقيل : هو المبدع لصور الموجودات وكيفيَّاتها كما أراد . وقيل : هو الذي صور جميع الموجودات ورتَّبها ، فأعطى كلَّ شيء منها صورة خاصَّة وهيئة منفردة يتميَّز بها على اختلافها وكثرتها . وقيل : هو الذي صوَّر الأشياء وعدَّلها ، وألبسها حلل الكمال ، وأعطى كلَّ موجود صورة تناسبه ، وجبل الإنسان في أحسن صورة ، يقول الله تعالى : **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** ، وهو عزَّ وجلَّ قد أنشأ الإنسان على صور مختلفة ، تميَّز بعضها من بعض في الأشكال والأحجام والألوان ، ولعلَّ هذا بعض ما يفهم من قوله تبارك وتعالى : **﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ﴾** ، وكذلك صوَّر الله النَّاس في الأرحام أطواراً ، وتشكيلاً بعد تشكيل ، كما قال : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** ، وقال في سورة المؤمنون : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾** .

ويرى أبو حامد الغزالي أنَّ اسم المصوِّر قد جاء من جهة أنَّه سبحانه قد رتَّب الأشياء أحسن ترتيب ، وصوَّرها أحسن تصوير ، وهذا من أوصاف الفعل ، فلا يعلم حقيقته إلَّا من يعلم صور العالم على الجملة ، ثمَّ على التَّفصيل ، فإنَّ العالم كلّه في حكم شخص واحد مركَّب من أعضاء متعاونة على غرض مطلوب منه ، وأعضاؤه وأجزاؤه السَّموات والكواكب والأرض وما بينهما من الماء والهواء وغيرهما، وقد رتّبت أجزاؤه ترتيباً محكماً لو تغيَّر لبطل النِّظام ، فالشَّيء الذي ينبغي أن يعلو مخصوص بجهة الفوق ، وما ينبغي أن يسفل مخصوص بجهة النُّزول ، كما أنَّ الذي يبني يضع الحجارة أسفل الحيطان ، ويضع الخشب فوقها ، ولو قلب فوضع الحجارة فوق الحيطان والخشب أسفلها لانهدم البناء ، وكلُّ من كان أوفر علماً بتفصيل الأشياء كان أكثر إحاطة بمعنى اسم المصوِّر

، وهذا التَّرتيب والتَّصوير موجود في كلِّ جزء من أجزاء العالم وإن صغُر ، حتَّى في النَّملة وكلّ عضو من أعضائها .

ويذكر القشيري في كتابه « التَّحبير » أنَّ الله تبارك وتعالى قد قال : **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** ، ولم يقل لشيء من المخلوقات إنَّه أحسن صورته إلَّا للإنسان تخصيصاً له وتكريماً ، وقال : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾**، ولم يقل مثل هذا في غيره ، وكذلك قال عن بعض النَّاس : **﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾** ، ولم يصف بذلك أحداً من المخلوقات غير بني آدم ، وكما يظهر حسن التَّصوير في البدن تظهر حقيقة الحسن أتمّ وأكمل في باب الأخلاق ، فهناك كثير من البهائم قد أجمل الله خلقها وصورتها ، ولكن لم يتم لها حسن الأخلاق، وإنَّما يمتاز الإنسان عن البهائم بفضيلة الأخلاق ، ولم يمنّ الله تعالى على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بشيء من النِّعمة كما منَّ عليه بحسن الخلق ، حيث قال : **﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** ، وكما تتعدَّد صور الأبدان والأجسام والأخلاق والطِّباع ، وجلَّت عظمة الخالق الباريء المصوِّر .

وقد حدَّثنا القرآن المجيد عن الله المصوِّر سبحانه ، فقال في سورة الأعراف : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾** ، وقال في سورة التَّغابن : **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾** ، وقال في سورة غافر : **﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾**، وقال في سورة آل عمران : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**، وقال في سورة الانفطار : **﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شاءَ رَكَّبَكَ﴾** ، وقال في سورة الحشر : **﴿هُوَ اللهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** .

وقد جاء في الحديث النَّبوي الشَّريف ذكر مادَّة المصوِّر والتَّصوير ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» ، وقد أراد بالصُّورة هنا ما خصَّ الله الإنسان به من الهيئة المدركة

بالبصر والبصيرة ، وبها فضَّله الله على كثير من خلقه ، وكان من دعاء النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في سجوده قوله : "سَجَدَ وَجْهِيَ لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُوْرَتَه" . أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٨٤ برقم ٨٠٣) ، وصحَّحه الأرنؤوط .

وكثير من العارفين يذكرون **﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾** دفعة واحدة ، وبعضهم يفرِّق فيرى أنَّ اسم الخالق من جهة أنَّه سبحانه مقدَّس ، واسم البارىء من جهة أنَّه مخترع ، واسم المصوِّر من جهة أنَّه مرتِّب صور المُبدعات .

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه « فتح الباري » الفرق بين الخالق والبارىء والمصوِّر ، فنقل عن الطِّيبي وَهْمَ من قال: أنَّ الألفاظ الثَّلاثة مترادفة ، لأنَّ الخالق من الخلق ، وأصله التَّقدير المستقيم ، ويطلق على الإبداع ، وهو إيجاد الشَّيء على غير مثال كقوله تعالى : **﴿خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾** ، وعلى التكوين كقوله تعالى : **﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾** ، والبارىء من البرء ، وأصله خلوص الشَّيء عن غيره ، إمَّا على سبيل التقصِّي منه ، وعليه قولهم : برىء فلان من مرضه ، والمديون من دينه ، ومنه استبرأت الجارية ، وإمَّا على سبيل الإنشاء ، ومنه برأ الله النَّسمة .

وقيل : البارىء هو الخالق البرىء من التَّفاوت والتَّنافر المخلَّين بالنِّظام ، والمصوِّر مبدع صور المخترعات ، ومرتِّبها بحسب مقتضى الحكمة ، فالله خالق كلّ شيء ، بمعنى أنَّه موجده من أصل ومن غير أصل ، وبارئه بحسب ما اقتضته الحكمة من غير تفاوت ولا اختلال ، ومصوِّره في صورة يترتَّب عليها خواصّه ويتمّ بها كماله .

والثَّلاثة من صفات الفعل إلَّا إذا أُريد بالخالق المقدِّر ، فيكون من صفات الذَّات ، لأنَّ مرجع التَّقدير إلى الإرادة ، وعلى هذا فالتَّقدير يقع أوَّلاً ، ثمَّ الإحداث على الوجه المقدَّر يقع ثانياً ، ثمَّ التَّصوير بالتَّسوية يقع ثالثاً .

وقال آخر : الخالق معناه الذي جعل المبدعات أصنافاً ، وجعل لكلِّ صنف منها قدراً ، والباريء معناه المُوجد لما كان في معلومه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : **﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها﴾** .

ويحتمل أنَّ المراد به قالب الأعيان ، لأنَّه أبدع الماء والتُّراب والنَّار والهواء لا من شيء ، ثمَّ خلق منها الأجسام المختلفة ، والمصوِّر معناه المهيء للأشياء على ما أراده من تشابه وتخالف .

وقد تطلع همَّة العبد إلى الطَّريق الذي يشهد به جمال اسم « المصوِّر » ، وقد جاء في كتاب الأنوار القدسيَّة : أنَّ العابد إذا أراد أن يشهد جمال « المصوِّر » فلينظر إلى صور الجمادات وألوانها ، والمعالم وأشكالها ، والنَّباتات وعجائبها ، والطُّيور وغرائبها ، والحيوانات ومزاياها ، وانظر إلى الكواكب وصفائها . وتأكَّد أنَّ كلَّ شخص واحد ، يخدم أعلاه أسفله ، ولا يظهر جمال أعلاه إلَّا بوساطة أسفله ، كما لا يظهر كمال الرُّوح إلَّا بالجسم ، ولا تظهر مزايا الرُّوح إلَّا بظهورها بالهيكل ، وأنَّ العوالم خُلقت لخدمة العبد ، والعبد خلق لخدمة الله تعالى .

ويقرِّر الغزالي أنَّ حظَّ العبد من اسم « المصوِّر » هو أن يحصل في نفسه صورة الوجود كلّه ، على هيئاته وترتيبه كأنَّه ينظر إليها ، ثمَّ ينزل من الكلِّ إلى التَّفصيل ، فيشرف على صورة الإنسان ، من جهة بدنه وأعضائه فيعلم أنواعها وعددها وتركيبها ، والحكمة في خلقها وترتيبها ، ثمَّ يشرف على صفاته المعنويَّة ومعانيه الشَّريفة التي تكون بها إدراكاته وإراداته ، وكذلك يعرف صورة الحيوانات وصورة النَّبات ظاهراً وباطناً بقدر ما في وسعه ، وعلى هذا المنوال يسعى العبد في التَّعرُّض لفيضان رحمة الله تعالى عليه ، فإنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتَّى يغيِّروا ما بأنفسهم ، ولذلك قال صلوات الله وسلامه عليه : «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا ؛ لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا» . ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٣١ برقم ١٧٧١٣) ، وقال : رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَالْكَبِيرِ بِنَحْوِهِ، وَفِيهِ مَنْ لَمْ أَعْرِفْهُ، وَمَنْ عَرَفْتُهُمْ وُثِّقُوا.

ولاسم « المصوِّر » دعاء يحسن ترداده لمن أراد ، وفيه :

"إلهي، من ماء مهين صوَّرتني، وفي ظلام الأحشاء تولَّيتني، نفخت فيَّ روحاً من أعظم الأسرار، وألبستني حُلل الجمال، فشرَّفتني أمام الأنظار. إن نظرت إلى صورتي سجدت شكراً للمصوِّر، وإن تأمَّلت إلى حقيقتي رأيتها ظلاماً وأنت لها منوِّر. فاجعلني بفضلك ذاكراً لأصلي

حتَّى يتمَّ لي وصلي، واحفظني من الحجاب بالصُّورة عن المصوِّر، يا جميل، يا قريب، يا مقدِّر، إنَّك على كلِّ شيء قدير. وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم".

وقال حسن عز الدِّين الجمل في "الأسماء الحسنى" (ص١٣٥-١٣٦) :" المصوِّر : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** .

سبحان الذي أنشأ الإنسان على صور مختلفة متميِّزاً بعضها عن بعض في الأشكال والأحجام والألوان، ليتعارفوا . وسبحان من صوَّرنا في الأرحام أطواراً، وتشكيلاً بعد تشكيل في ظلمات البطن والرَّحم والمشيمة .

وهـذا التَّشكيل يتمُّ من تركيب ذرَّات وعناصـر سبق لها الإيجاد من قبل . وهذا التَّصوير يتمُّ على هيئة ذريَّات بني آدم التي سبق لها التَّقدير يـوم أشهدهم الله ربّنا على أنفسهم .

وفي عالم الشَّهادة يتمُّ تركيب الصُّورة كما شاء الله على هيئة الأصـل في أحسن تقويم يوم الخلق الأوَّل.

ثمَّ بعد ذلك، فلنتدبَّر الآيات البيِّنات من سورة النَّجم : **﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى﴾** .

فما هي النَّشأة الأخـرى؟ يقول الإمام الفخر الرَّازي محمَّد فخر الدِّين في تفسيره الكبير، مفاتيح الغيب: « وَالَّذِي ظَهَرَ لِي بَعْدَ طُولِ التَّفَكُّرِ وَالسُّؤَالِ مِنْ فَضْلِ اللهَّ تَعَالَى الْهِدَايَةَ فِيهِ إِلَى الْحَقِّ، أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ نَفْخَ الرُّوحِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّفْسَ الشَّرِيفَةَ لَا الْأَمَّارَةَ تُخَالِطُ الْأَجْسَامَ الْكَثِيفَةَ الْمُظْلِمَةَ، وَبِهَا كَرَّمَ اللهَّ بَنِي آدَمَ».

وفي الأرحام كما يتمُّ التَّصـوير يتمُّ نفخ الرُّوح ، كما جاء في الحديث الشَّريف. فقد جاء في صحيح مسلم (٤/ ٢٠٣٧ برقم ٢٦٤٥) : روي أنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ» .

كما جاء في نفس الصَّحيح عن رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّه قَالَ: " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثمَّ يَبْعَثُ اللهُّ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ» . كما قيل في معنى : **﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾** : هو نفخ الرُّوح ، غيرُ خلق النُّطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً. وبهذا الخلق الآخر، أو نفخ الرُّوح، أو النَّشأة الأخرى، تميَّز الإنسان عن أنواع الحيوانات .

وبعد، يجوز أن تكون "النَّشأة الأخرى" هي نفخ الرُّوح . وتخصّص والنَّشأة الآخرة» : للحشر. **﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثمَّ اللهُّ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾** .

ويقول الدُّكتور خالص جلبي في كتابه :"الطِّبُّ محرابٌ للإيمان" عن تصوير الإنسان في بطن أُمِّه :"إنَّ نموَّ الإنسان في بطن أُمِّه لا يمشي وفق تسلسل واحد ، فهو في مرحلة يمشي باتِّجاه زيادة الخلايا فقط بدون تمييز أو تخصُّص ، وهكذا تصبح الخلايا أكثر عدداً ، ولكنَّها كلّها من شكل واحد ، ثمَّ تبدأ بعدها عملية التَّخصُّص ، حيث تفرز مجموعات لتتخصَّص في إيجاد عضو معيَّن، وإذا ظهر هذا النَّسيج أو العضو، فإنَّ له شخصيَّته المستقلَّة ووظيفته المحدَّدة، وفي آخر المراحل الجنينيَّة يميل الجنين باتِّجاه زيادة الوزن، وإعطاء الرَّونق الأخير للإنسان، حتَّى يخرج للحياة في أجمل صورة، قال الله تعالى : **﴿إِنَّ اللهَّ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** ﴿آل عمران : ٥- ٦﴾.

ونتساءل هنا عن تلك الدِّقَّة العجيبة والرَّوعة الُمدهشة في فعل المسرِّعات وتنظيمها أثناء خلق الإنسان وبعث الحياة فيه، إنَّ منحى المسرِّعات يمشي كما يلي : الأيَّام العشرة الأولى انقسام رهيب سريع في الخليَّة الإنسانيَّة الأولى مع المحافظة على الحجم كما هو، ولا يحدث شيء سوى الانقسام، وهكذا يحدث ما يقرب من خمسين انقساماً أو يزيد في الخليَّة الأولى، في رحلتها ضمن بوق الرَّحم بعد تلقيحها، لتصل إلى داخل الرَّحم وتلتصق بجدرانه وتعشِّش فيه، ولنتصوَّر تسلسل الأرقام(١ - ٢ - ٤ - ٨ - ٣٢ - ٦٤ - -١٢٨- ٢٥٦...) ثمَّ ينعطف المسرِّع في تخصُّص الخلايا وتشكُّل الأعضاء .

وهكذا يتخلَّق الإنسان وتتشكَّل أعضاؤه وأجهزته في الأشهر الثَّلاثة الأولى، وكأنَّنا أمام ورشة عمل أدقَّ ما تكون، فهذه مجموعة خلايا تتخلَّق منها العين، وتلك للأحشاء، وثالثة للأطراف .

ثمَّ إنَّ الورشة نفسها لها مهندسون عقلاء ، وعمَّال فنيُّون من أدقِّ ما يكون؛ لأنَّ باجتماع الخلايا يوجد النَّسيج، وباجتماع الأنسجة يوجد العضو، وباجتماع الأعضاء يوجد الجهاز، فالمعدة مثلاً تتكوَّن من طبقات أربع، والطَّبقة الدَّاخليَّة المخاطيَّة تقوم بعدَّة وظائف، فهي تُنتج حمض كلور الماء (HCI) لتهيئة الطَّعام للهضم، وبنسبة مركَّزة حوالي(٤بالألف) ، كما أنَّها تفرز خميرة (الببسين) لهضم الطَّعام، وبالإضافة لذلك تفرز العامل الدَّاخلي الذي يعتبر بمثابة «إدارة الهجرة والجوازات» التي تعطي «تأشيرة دخول» للفيتامين (B12)، وإذا لم يحصل على تأشيرة الدُّخول هذه لم يمتص . وبالتَّالي حصل فقر الدَّم الخبيث الذي يعتبر مميتاً إذا لم يعالج . والعين مكوَّنة مثلاً من ثلاث كرات تغلِّف بعضها البعض، ففي الخارج الطَّبقة الصّلبة الحامية ، وهي التي تُرى مِنْ تبارُز العين الأمامي بالشَّكل الأبيض ، وتُغلِّف من الدَّاخل طبقة أولى غنيَّة بالأوعية الدَّموية هي طبقة المشيميَّة، ومن أقصى الدَّاخل نرى نصف كرة مسؤولة عن الإبصار، وفيها عشرة طبقات منضَّدة فوق بعضها البعض، وإحدى تلك الطَّبقات هي المستقبلة للنُّور، وفيها نوعان من مستقبلات الضّوء، الأوَّل: مختصّ بالنُّور العادي والضَّعيف، وهي العصيَّات ، والثَّاني : مختصة بالنُّور المركَّز والألوان، وهي مجتمعة في المركز، وهي المخاريط، وعدد هذه المستقبلات في العين الواحدة حوالي(١٤٠) مليون عصاة ، وسبع ملايين مخروط، وبين الجميع تعاون وثيق في كلِّ خليَّة ، وبتخصُّص محدَّد، وتتعاون هذه الخلايا مع بعضها لتكوِّن النَّسيج، ثمَّ يتضافر عمل الأنسجة لتكوين الأعضاء، ثمَّ تتعاون الأعضاء مع بعضها لتكوين الجهاز، ثمَّ تتعاون هذه الأجهزة مع بعضها لتكوين الإنسان السَّوي، وأيُّ خلل بسيط في العمل معناه حدوث تشوُّه مرعب، ولنتصوَّر لو أنَّ طائفة من الخلايا أثناء انشطارها وضعت في الفم مكان الشَّرج، أو العينان مكان الصَّدر، أو الدِّماغ مكان البطن، ماذا كان يحدث للإنسان؟ إنَّ هناك مصوِّراً خالقاً حكيماً بديعاً عليماً يتولَّى عمليَّة الخلق، ولم يحدث في تاريخ الخلق أن وقع خلل أو سهو أو خطأ : **﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً مَا تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمَن مِنْ**

تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ * ثمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾﴿الملك:٣-٤﴾ .

ثمَّ ينعطف المسرِّع في اتِّجاه ثالث حين يسير الجنين في زيادة الوزن حتَّى يصل إلى رقم مقدَّر نحو(٣٢٥٠غ) ، بعد أن كان وزن النُّطفة واحداً من مليار من الغرام، وهكذا ازداد وزن الإنسان ما بين مرحلة النُّطفة إلى مرحلة التَّخلُّق الإنساني الأخيرة(٣٠٠٠) مليار مرَّة.

ثمَّ يخرج الإنسان من بطن أمِّه مجهَّزاً بجميع الأجهزة التي تؤهِّله للحياة، ويبدأ انعطاف جديد في حياة الإنسان، وهي تكوين المعارف والمشاعر والأفكار وبناء النَّفس الإنسانيَّة، ويتدرَّج في معرفة العالم من حوله، وكأنَّ الحياة هي مرحلة استخدام هذه الأجهزة . ثمَّ تسير الحياة، والإنسان هو هو لم يتغيَّر، ولكنَّه يتغير في كلِّ لحظة، ذلك أنَّ خلايا الإنسان تموت ليولد غيرها، وتستمرُّ عمليَّة الهدم والبناء، فالكريات الحمر تتولَّد من مصنع الكريَّات الحمر وهي : نقي العظام، والمقبرة التي تستقبل الخلايا الميِّتة هي: الطّحال، ويكفي أن نعلم أنَّ عشرة مليارات كريَّة حمراء تموت في السَّاعة الواحدة ليولد غيرها، ومع ذلك لا يتغيَّر شكل الإنسان وصورته وهيئته التي صوَّره الله عليها، والتي لا يشبهه فيها أحد، أثناء حياته ،وقبلها وبعدها: **﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شاءَ رَكَّبَكَ﴾**﴿الانفطار: ٦ -٨﴾ .

وقال الدكتور راتب النَّابلسي في "موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة / آيات الله في الإنسان"(ص٤٣ فما بعدها) في كلامه عن جسم الإنسان : " هناك في حياة كلٍّ منَّا آيات معجزة ، صارخة ، دالَّة على عظمة الله عزَّ وجلَّ ، منها جسمُنا الذي هو أقرب شيء إلينا ، ففي رأس كلٍّ منَّا ثلاثمئة ألف شعرة ، لكلِّ شعرة بصلة ، ووريد ، وشريان ، وعضلة ، وعصب ، وغدَّةٌ دهنية ، وغدَّة صبغيَّة .

وفي شبكيَّة العين عشرُ طبقات ، فيها مئةٌ وأربعون مليون مستقبل للضَّوء ، ما بين مخروط وعُصيَّة ، ويخرج من العين إلى الدِّماغ عصبٌ بصريٌّ ، يحوي خمسمئة ألف ليف عصبيٍّ .

وفي الأذن ما يشبه شبكة العين ، فيها ثلاثون ألف خليَّة سمعيَّة لنقل أدقِّ الأصوات ، وفي الدِّماغ جهاز يقيس التَّفاضل الزَّمني لوصول الصَّوت إلى كلٍّ من الأذنين ، وهذا التَّفاضل يقلُّ عن جزء من ألف وستمئة جزء من الثَّانية ، وهو يكشف للإنسان جهة الصَّوت .

وعلى سطح اللسان تسعة آلاف نتوء ذوقي ، لمعرفة الطَّعم الحلو ، والحامض ، والمرِّ ، والمالح ، ثمَّ تنقلُ هذا الطَّعم إلى الدِّماغ .

وإنَّ كلَّ حرف ينطقُه اللسان يسهم في تكوينه سبع عشرة عضلةً .

مَنْ يصدِّق أنَّ في مخاطية الفم ، أعني الغشاء الدَّاخلي للفم خمسمئة ألف خليَّة ؟! يموت في كلِّ خمس دقائق نصف مليون خلية في الجدار الدَّاخلي ، ليحلّ محلَّها نصف مليون خليَّة جديدة .

إنَّ كريات الدَّم الحمراء لو صُفَّ بعضها إلى جانب بعض لزاد طولها على محيط الأرض ستَّة أضعاف ، وإنَّ في كلِّ ميليمتر مكعبٍ من الدَّم خمسة ملايين كريةٍ حمراء ، وإنَّ كلَّ كريةٍ حمراء تجول في الدَّم في اليوم الواحد ألفاً وخمسمئة جولة ، تقطع فيها ألفاً ومئة وخمسين كيلو متراً.

يضخُّ القلب من الدَّم في عمر متوسِّط ما يملأ أكبر ناطحات سحاب في العالم ، وينبض في الدَّقيقة الواحدة من ستين إلى ثمانين خفقة ، وينبض يوميَّاً مئة ألف مرَّة ، يضخُّ من خلالها ثمانية آلاف لتر ، والمئتا لتر تعادل برميلاً ! وقد أجرى بعض العلماء حساباً عن ضخِّ القلب للدَّم في العمر فوجده ستَّةً وخمسين مليون جالون ، والجالون يعادل خمسة لترات .

يستهلك الإنسان في الثَّانية الواحدة مئة وعشرين مليون خليَّة .

في دماغ الإنسان أربعة عشرَ مليار خليَّة قشريَّة ، ومئةٌ وأربعون مليار خليَّة استناديَّة لم تعرف وظيفتها بعد ، وهو أعقد ما فيه ، ومع ذلك فهو عاجز عن فهم ذاته .

وفي الرَّئتين سبعمئة مليون سنخٍ رئوي ، كعنقود العنب ، وهذه الأسناخ لو نشرت لاحتلَّت مساحة مئتي متر مربَّع ، وإنَّ هاتين الرِّئتين تخفقان في اليوم خمسة وعشرين ألف مرَّة ، وتستنشقان مئة وثمانين متراً مكعباً .

وفي الكبد ثلاثُمئة مليار خليَّة ، يمكن أن تجدَّد كليَّاً خلال أربعة أشهر ، ووظائف الكبد كثيرة ، وخطيرة ، ومدهشة ، حيث لا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا كبد أكثر من ثلاث ساعات .

إنَّ في جدار المعدة مليارَ خليَّة تفرز من حمضِ كلورِ الماء ما يزيد على عدَّة لترات في اليوم الواحد ، وقد جهدَ العلماء في حلِّ هذا اللغز ، لم لا تهضم المعدة نفسها ؟ أليست المعدةُ معجزة ؟! .

وفي الأمعاء ثلاثُ آلاف وستمئة زغابةٍ معويَّة للامتصاص في كلِّ سنتمتر مربَّع ، وهذه الزّغابات تتجدَّد كليَّاً كلّ ثمان وأربعين ساعة .

وفي الكليتين مليونا وحدة تصفية ، طولها مجتمعة مئة كيلو متر ، يمر فيها الدَّم في اليوم الواحد خمس مرَّات .

وتحت سطح الجلد خمسة عشر مليون مكيِّف لحرارة البدن ، وهي الغدد العرقية ، لكلِّ غدة عرقيَّة مكيِّف لتكييف حرارته ، وتعديل رطوبته .

إنَّ جسمنا الذي نعيش معه أقرب شيء إلينا ، هذه حقائقُ مسلَّم بها ، عرفها الأطباء من عشرات السِّنين ، وليست خاضعة للمناقشة إطلاقاً ، قال تعالى : **﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾**﴿ الذاريات : ٢١ ﴾.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

الإِلَهُ الْمُصَوِّرُ لَا يَكُوْنُ مُصَوَّرَاً

عرفنا سابقاً أَنَّ من أسماء الله تعالى : الْمُصَوِّرُ ، والْمُصَوِّرُ لا يكون مصوَّراً ، إذ لو كان مصوَّراً لاحتاج إلى من يصوِّره واحتاج مصَوِّره إلى من يصوِّره وهكذا إلى ما لا نهاية فينتهي الأمر إلى الدَّور أو التَّسلسل ، وكلاهما باطل ... قال تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**﴿آل عمران: ٦﴾ .

وقد أكَّد أهل العلم على هذه الحقيقة ، كما أكَّدوا على ضرورة تنزيه الله تعالى عن مشابهة المحدثات ، وأنَّه سبحانه هو الذي خلق فبرأ فصوَّر، فأبدع صور المخلوقات، وزيَّنها بحكمته ، وأعطى كلَّ مخلوقٍ من مخلوقاته صورة على مقتضى مشيئته وحكمته، فالله تعالى هو الذي صوَّر صور المخلوقات جميعها ، وصوَّر النَّاس في الأرحام أطواراً ...

وفي تفسيره للآية الكريمة ، قال الطَّبري في"جامع البيان عن تأويل آي القرآن"(١٨٦/٥-١٨٧) في تفسير الآية الكريمة :" الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**﴿آل عمران: ٦﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثناؤُهُ: اللهُ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فَيَجْعَلَكُمْ صُوَرًا أَشْبَاحًا فِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِكُمْ كَيْفَ شَاءَ وَأَحَبَّ، فَيُجْعَلُ هَذَا ذَكَرًا وَهَذَا أُنْثَى، وَهَذَا أَسْوَدُ وَهَذَا أَحْمَرُ، يُعَرِّفُ عِبَادَهُ بِذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ مَنِ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ النِّسَاءِ مِمَّنْ صَوَّرَهُ وَخُلُقَهُ كَيْفَ شَاءَ وَأَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مِمَّنْ صُوَّرَهُ فِي رَحِمِ أُمِّهِ وَخَلَقَهُ فِيهَا كَيْفَ شَاءَ وَأَحَبَّ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ إِلَهًا لَمْ يَكُنْ مِمَّنِ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ رَحِمُ أُمِّهِ؛ لِأَنَّ خَلَّاقَ مَا فِي الْأَرْحَامِ لَا تَكُونُ الْأَرْحَامُ عَلَيْهِ مُشْتَمِلَةً، وإِنَّما تَشْتَمِلُ عَلَى الْمَخْلُوقِينَ .

كَمَا: حَدَّثَنِي ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: ثنا سَلَمَةُ، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ محمَّد بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾**﴿آل عمران: ٦﴾ «قَدْ كَانَ عِيسَى مِمَّنْ صُوِّرَ فِي الْأَرْحَامِ، لَا يَدْفَعُونَ ذَلِكَ، وَلَا يُنْكِرُونَهُ، كَمَا صُوِّرَ غَيْرُهُ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا وَقَدْ كَانَ بِذَلِكَ الْمَنْزِلِ» .

حَدَّثَنَا الْمُثَنَّى، قَالَ: ثنا إِسْحَاقُ، قَالَ: ثنا ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الرَّبِيعِ: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾**﴿آل عمران: ٦﴾ «أَيْ أَنَّهُ صَوَّرَ عِيسَى فِي الرَّحِمِ كَيْفَ شَاءَ» .

وَقَالَ آخَرُونَ فِي ذَلِكَ، مَا: حَدَّثَنَا بِهِ مُوسَى بْنُ هَارُونَ، قَالَ: ثنا عَمْرُو بْنُ حَمَّادٍ، قَالَ: ثنا أَسْبَاطُ، عَنِ السُّدِّيِّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَعَنْ مُرَّةَ الْهَمْدَانِيِّ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَوْلُهُ: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾**﴿آل عمران: ٦﴾ قَالَ:"إِذَا وَقَعَتِ النُّطْفَةُ فِي الْأَرْحَامِ، طَارَتْ فِي الْجَسَدِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثمَّ تَكُونُ عَلَقَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثمَّ تَكُونُ مُضْغَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِذَا بَلَغَ أَنْ يُخْلَقَ بَعَثَ اللهُ مَلَكًا يُصَوِّرُهَا، فَيَأْتِي الْمَلَكُ بِتُرَابٍ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ فَيَخْلِطُهُ فِي الْمُضْغَةِ ثمَّ يَعْجِنُهُ بِهَا ثمَّ يُصَوِّرُهَا كَمَا يُؤْمَرُ، فَيَقُولُ: أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ وَمَا رِزْقُهُ؟ وَمَا عُمْرُهُ؟ وَمَا أَثَرُهُ؟ وَمَا مَصَائِبُهُ؟ فَيَقُولُ اللهُ، وَيُكْتَبُ الْمَلَكُ، فَإِذَا مَاتَ ذَلِكَ الْجَسَدُ، دُفِنَ حَيْثُ أُخِذَ ذَلِكَ التُّرَابُ".

حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثنا يَزِيدُ، قَالَ: ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾**﴿آل عمران: ٦﴾ «قَادِرٌ وَاللهِ رَبُّنَا أَنْ يُصَوِّرَ عِبَادَهُ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، أَوْ أَسْوَدَ أَوْ أَحْمَرَ، تَامٍّ خَلْقُهُ وَغَيْرِ تَامٍّ» .

وقال أبو بكر محمَّد بن إبراهيم بن المنذر النَّيسابوري(٣١٩هـ) في" كتاب تفسير القرآن"(١/١١٦-١١٧) :"حَدَّثَنَا محمَّد بْن علي الصَّائغ، قَالَ: حَدَّثَنَا أحمد بْن شبيب، قَالَ: حَدَّثنَا يزيد بْن زريع، قَالَ: حَدَّثَنَا سعيد، عَنْ قتادة: قوله جَلَّ وَعَزَّ: **﴿إِنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** قادر، والله، ربّنا عَلَى أن يصوِّر عباده فِي الأرحام كيف يشاء من ذكر وأنثى، وأسود، وأحمر، تام خلقه أَوْ غير تام".

وقال أبو محمَّد عبد الرَّحْمَن بن محمَّد بن إدريس بن المنذر التَّميمي، الحنظلي، الرَّازي ابن أبي حاتم(٣٢٧هـ) في"تفسير القرآن العظيم"(٢/٥٩٠-٥٩١) :" حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ ثنا عَمْرُو بْنُ حَمَّادٍ، ثنا أَسْبَاطُ، عَنِ السُّدِّيِّ فِي قَوْلِهِ: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** ، قَالَ: إِذَا وَقَعَتِ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ (طَارَتْ فِي الْجَسَدِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا) ثمَّ تَكُونُ عَلَقَةً أربعين يَوْمًا، ثمَّ تَكُونُ مُضْغَةً أَرْبَعُونَ

يَوْمًا، فَإِذَا بَلَغَ أَنْ يُخْلَقَ، بَعَثَ اللهُّ مَلَكًا يُصَوِّرُهَا، فَيَأْتِي الْمَلَكُ بِتُرَابٍ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ فَيُخْلَطُ فِي المضخة، ثمَّ يَعْجِنُهُ بِهَا، ثمَّ يُصَوِّرُهَا كَمَا يُؤْمَرُ فَيَقُولُ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ وَمَا رِزْقُهُ؟ وَمَا عُمْرُهُ؟ وَمَا أَثَرُهُ؟ وَمَا مَصَائِبُهُ؟ فَيَقُولُ اللهُّ تَعَالَى، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، فَإِذَا مَاتَ ذَلِكَ الْجَسَدُ، دُفِنَ حَيْثُ أُخِذَ ذَلِكَ التُّرَابُ.

حَدَّثَنَا أَبِي، ثنا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ثنا عَبْدُ اللهَّ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الرَّبِيعِ **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** ، أَيْ أَنَّهُ صَوَّرَ عِيسَى فِي الرَّحِمِ كَيْفَ شَاءَ، لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

حَدَّثَنَا أَبِي، ثنا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، ثنا حَمَّادٌ، عَنِ الزُّبَيْرِ أَبِي عَبْدِ السَّلَامِ، عَنْ أيوب ابن عَبْدِ اللهَّ الْفِهْرِيِّ، أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: **﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** ، قَالَ: يُؤْتَى بِهَا فِي الأَرْحَامِ فَيَنْظُرُ فِيهَا ثَلاثَ سَاعَاتٍ.

قوله: **﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾** :

أَخْبَرَنَا مُوسَى بْنُ هَارُونَ الطُّوسِيُّ فِيمَا كَتَبَ إلي، ثنا الحسين بن محمَّد الْمَرُّوذِيُّ، ثنا شَيْبَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: **﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾** ، قَالَ: مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَأَحْمَرَ وَأَسْوَدَ وَتَامٍّ وَغَيْرِ تَامِّ الْخَلْقِ" .

وقال أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (٤٢٧هـ) في"الكشف والبيان عن تفسير القرآن" (٣/ ٩) : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** ذكراً وأنثى، قصيراً وطويلاً، أسوداً وأبيضاً، حسناً وقبيحاً، سعيداً وشقياً" .

وقالأبو محمَّد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمَّد بن مختار القيسي القيرواني ثمَّ الأندلسي القرطبي المالكي (٤٣٧هـ) في"الهداية إلى بلوغ النِّهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه" (٢/ ٩٥٠) :"قوله: **﴿هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَآءُ﴾** ، أي: يجعل هذا ذكَراً وهذا أنثى، وهذا أسود وهذا أحمر ، فلذلك خلق عيسى لا من رجل كيف شاء، ولو كان إلهاً ما اشتملت عليه الآرحام، وانتقل من حالة إلى حالة".

وقال أبو المظفَّر، منصور بن محمَّد بن عبد الجبَّار ابن أحمد المروزي السَّمعاني التَّميمي الحنفي ثمَّ الشَّافعي(٤٨٩هـ) في"تفسير القرآن"(١/ ٢٩٣) : **﴿هُوَ الَّذِي يصوركم فِي الْأَرْحَام كَيفَ يَشَاء﴾** هَذَا فِي الرَّد على وَفد نَجْرَان؛ حَيْثُ قَالُوا: عِيسَى ولد الله، فَكَأَنَّهُ يَقُول: هُوَ الَّذِي صوره فِي الرَّحِم، (فَكيف يكون ولد لَهُ) ؟ !

وَقد روى عَن ابْن مَسْعُود – رَضِي الله عَنهُ – قَالَ: إِنَّ النُّطْفَة إِذا وَقعت فِي الرَّحِم تكون أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَة، ثمَّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا علقَة، ثمَّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مُضْغَة، ثمَّ يبْعَث الله تَعَالَى ملكا يَأْخُذ تُرَابا بَين أصبعيه فيخلطه بالمضغة، ثمَّ يصوّره بِإِذن الله كَيفَ (شَاءَ) ، أَحْمَر أَو أسود أَو أَبيض، طَويلا أَو قَصِيراً، حسناً أَو قبيحاً، ثمَّ يكْتب رزقه وَعَمله وأثره وأجله وشقي أَو سعيد، ثمَّ إِذا مَاتَ يدْفن فِي التُّربة الَّتِي أَخذ مِنْهَا التُّرَاب **﴿لَا إِلَه إِلَّا هُوَ الْعَزِيز﴾** فِي أمره **﴿الْحَكِيم﴾** فِي سُلْطَانه" .

وقال أبو القاسم الحسين بن محمَّد المعروف بالرَّاغب الأصفهاني(٥٠٢هـ) في"تفسير الراغب الأصفهاني"(٢/ ٤١١) :" الصُّورة من صَيرته ، أي : أحلته، وهي هيئة معقولة أو محسوسة.

والصّبغة نحوها، إلَّا أنَّ أكثر ما يستعمل في المحسوسة.

إن قيل: كيف قال في موضع: **﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾** على لفظ الماضي.

وقال هاهنا بلفظ الاستقبال؟

قيل: أمَّا أوَّلاً فلا اعتبار بالأزمنة في أفعاله تعالى، وإنَّما استعمال الألفاظ فيه الدالَّة على الأزمنة بحسب اللغات، وأيضاً فقوله: **﴿وَصَوَّرَكُم﴾** إنَّما هو على سبيل التَّقدير، وأنَّ فعله تعالى في حكم ما قد فرغ منه، كقوله: **﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾** ، وقوله: يصور على حسب ما يظهر لنا حالاً، فحالا".

وقال البغوي(٥١٠هـ) في"معالم التَّنزيل في تفسير القرآن"(١/ ٤٠٨-٤٠٩) : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** ، من الصُّور المختلفة ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى أَبْيَض أَوْ أَسْوَدَ حَسَنًا أَوْ قَبِيحًا تَامًّا أَوْ نَاقِصًا، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وهذا ردّ عَلَى وَفْدِ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَى حَيْثُ قَالُوا: عِيسَى وَلَدُ اللَّهِ، وكأنه يقول: كيف يكون ولدا وَقَدْ صَوَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الرَّحِمِ؟

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمُلَيْحِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو محمَّد عَبْدُ الرَّحْمَن بْنُ أَحْمَدَ بْنِ محمَّد الْأَنْصَارِيُّ أَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ اللهَّ بْنُ محمَّد بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْبَغَوِيُّ أَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ أَنَا أَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ مُعَاوِيَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهَّ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ:

حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ثمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثمَّ يَبْعَثُ اللهُّ إِلَيْهِ الْمَلَكَ أَوْ قَالَ: يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، قَالَ: وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّة حتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ غَيْرُ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار حتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ غَيْرُ ذِرَاعٍ ﴿فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ﴾ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّة فَيَدْخُلُهَا» .

«أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجُرْجَانِيُّ أَنَا عَبْدُ الْغَافِرِ بْنُ محمَّد الْفَارِسِيُّ أَنَا أَبُو أَحْمَدَ محمَّد بْنُ عِيسَى الْجُلُودِيُّ أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ محمَّد بْنِ سُفْيَانَ أَنَا مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ أَنَا محمَّد بْنُ عَبْدِ اللهَّ بْنِ نُمَيْرٍ ثنا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ:

يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النطفة بعد ما تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ ذَلِكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ ثمَّ تُطْوَى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص".

وقال أبو محمَّد عبد الحق بن غالب بن عبد الرَّحْمَن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ) في"المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" (١/ ٣٩٩-٤٠٠) :"هذه الآية خبر عن علم الله تعالى بالأشياء على التَّفصيل، وهذه صفة لم تكن لعيسى ولا لأحد من المخلوقين، ثمَّ أخبر عن تصويره للبشر في أرحام الأمَّهات، وهذا أمر لا ينكره عاقل، ولا ينكر أن عيسى وسائر البشر لا يقدرون عليه، ولا ينكر أنَّ عيسى عليه السَّلام من المصوَّرين في الأرحام، فهذه الآية تعظيم لله تعالى في ضمنها الرَّد على نصارى نجران، وفي قوله: **﴿إِنَّ اللهَّ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾** وعيد ما لهم، فسر بنحو هذا محمَّد بن جعفر بن الزُّبير والرَّبيع، وفي قوله: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾** ردٌّ على أهل الطَّبيعة، إذ

يجعلونها فاعلة مستبدَّة، وشرح النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كيفيَّة التَّصوير في الحديث الذي رواه ابن مسعود وغيره "إِنَّ النُّطْفَةَ تَكُونُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى حَالِهَا لَا تَغَيَّرُ، فَإِذَا مَضَتِ الْأَرْبَعُونَ ، صَارَتْ عَلَقَةً، ثمَّ مُضْغَةً كَذَلِكَ، ثمَّ عِظَامًا كَذَلِكَ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُسَوِّيَ خَلْقَهُ، بَعَثَ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَيَقُولُ الْمَلَكُ الَّذِي يَلِيهِ: أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ " ، الحديث بطوله على اختلاف ألفاظه.

وفي مسند ابن سنجر حديث: إنَّ الله يخلق عظام الجنين وغضاريفه من منيِّ الرَّجل ولحمه وشحمه وسائر ذلك من منيِّ المرأة .

وصور بناء مبالغة من: صار يصور إذا أمال وثنى إلى حال ما، فلمَّا كان التَّصوير إمالة إلى حال وإثباتاً فيها، جاء بناؤه على المبالغة، والرَّحم موضع نشأة الجنين، وكَيْفَ يَشاءُ يعني من طول وقصر ولون وسلامة وعاهة وغير ذلك من الاختلافات، والْعَزِيزُ الغالب والْحَكِيمُ ذو الحكمة أو المحكم في مخلوقاته وهذا أخصّ بما ذكر من التَّصوير".

وقال الرَّازي(٦٠٦هـ) في"التَّفسير الكبير"(٧/ ١٣٤-١٣٦) :"إِنَّ أَفْعَالَ اللهَّ تَعَالَى مُحْكَمَةٌ مُتْقَنَةٌ، وَالْفِعْلُ الْمُحْكَمُ الْمُتْقَنُ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِ فَاعِلِهِ عَالِمًا، فَلَمَّا كَانَ دَلِيلُ كَوْنِهِ تَعَالَى عَالِمًا هُوَ مَا ذَكَرْنَا، فَحِينَ ادَّعَى كَوْنَهُ عَالِمًا بِكُلِّ الْمَعْلُومَاتِ بِقَوْلِهِ : **﴿إِنَّ اللهَّ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾** أَتْبَعَهُ بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ الدَّالِّ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي صَوَّرَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ هَذِهِ الْبِنْيَةَ الْعَجِيبَةَ، وَالتَّرْكِيبَ الْغَرِيبَ، وَرَكَّبَهُ مِنْ أَعْضَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي الشَّكْلِ وَالطَّبْعِ وَالصِّفَةِ، فَبَعْضُهَا عِظَامٌ، وبعضها غضاريف، وبعضها شرايين، وبعضها أردة، وَبَعْضُهَا عَضَلَاتٌ، ثمَّ إِنَّهُ ضَمَّ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى التَّرْكِيبِ الْأَحْسَنِ، وَالتَّأْلِيفِ الْأَكْمَلِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ حَيْثُ قَدَرَ أَنْ يَخْلُقَ مِنْ قَطْرَةٍ مِنَ النُّطْفَةِ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ فِي الطَّبَائِعِ وَالشَّكْلِ وَاللَّوْنِ، وَيَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ عَالِمًا مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْفِعْلَ الْمُحْكَمَ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنِ الْعَالِمِ، فَكَانَ قَوْلُهُ : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** دَالًّا عَلَى كَوْنِهِ قَادِرًا عَلَى كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ، وَدَالًّا عَلَى صِحَّةِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ إِنَّ اللهَّ لَا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، وَقَادِرٌ عَلَى كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ، ثَبَتَ أَنَّهُ

قَيُّومُ الْمُحْدَثَاتِ وَالْمُمْكِنَاتِ، فَظَهَرَ أَنَّ هَذَا كَالتَّقْرِيرِ لِمَا ذَكَرَهُ تَعَالَى أَوَّلًا مِنْ أَنَّهُ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي هَذِهِ اللَّطَائِفِ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُعْقَلُ كَلَامٌ أَكْثَرُ فَائِدَةً، وَلَا أَحْسَنُ تَرْتِيبًا، وَلَا أَكْثَرُ تَأْثِيرًا فِي الْقُلُوبِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ.

وَالِاحْتِمَالُ الثَّانِي: أَنْ تُنَزَّلَ هَذِهِ الْآيَاتُ عَلَى سَبَبِ نُزُولِهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّصَارَى ادَّعَوْا إِلَهِيَّةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَوَّلُوا فِي ذَلِكَ عَلَى نَوْعَيْنِ مِنَ الشُّبَهِ، أَحَدُ النَّوْعَيْنِ شُبَهٌ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ مُشَاهَدَةٍ، وَالنَّوْعُ الثَّانِي: شُبَهٌ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ إِلْزَامِيَّةٍ.

أَمَّا النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنَ الشُّبَهِ: فَاعْتِمَادُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا: يَتَعَلَّقُ بِالْعِلْمِ وَالثَّانِي: يَتَعَلَّقُ بِالْقُدْرَةِ.

أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعِلْمِ فَهُوَ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام كَانَ يُخْبِرُ عَنِ الْغُيُوبِ، وَكَانَ يَقُولُ لِهَذَا: أَنْتَ أَكَلْتَ فِي دَارِكَ كَذَا، وَيَقُولُ لِذَاكَ: إِنَّكَ صَنَعْتَ فِي دَارِكَ كَذَا، فَهَذَا النَّوْعُ مِنْ شُبَهِ النَّصَارَى يَتَعَلَّقُ بِالْعِلْمِ.

وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي مِنْ شُبَهِهِمْ، فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالْقُدْرَةِ، وَهُوَ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنْ شُبَهِ النَّصَارَى يَتَعَلَّقُ بِالْقُدْرَةِ، وَلَيْسَ لِلنَّصَارَى شُبَهٌ فِي الْمَسْأَلَةِ سِوَى هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ، ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا اسْتَدَلَّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِهِمْ فِي إِلَهِيَّةِ عِيسَى وَفِي التَّثْلِيثِ بِقَوْلِهِ : ﴿**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ ﴿آل عمران: ٢﴾ يَعْنِي الْإِلَهَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَيًّا قَيُّومًا، وَعِيسَى مَا كَانَ حَيًّا قَيُّومًا، لَزِمَ الْقَطْعُ أَنَّهُ مَا كَانَ إِلَهًا، فَأَتْبَعَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ لِيُقَرِّرَ فِيهَا مَا يَكُونُ جَوَابًا عَنْ هَاتَيْنِ الشُّبْهَتَيْنِ:

أَمَّا الشُّبْهَةُ الْأُولَى: وَهِيَ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْعِلْمِ، وَهِيَ قَوْلُهُمْ: إِنَّهُ أَخبرَ عَنِ الْغُيُوبِ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، فَأَجَابَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ إِنَّ اللهَ لَا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ ، وَتَقْرِيرُ الْجَوَابِ : أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ عَالِمًا بِبَعْضِ الْمُغَيَّبَاتِ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا لِاحْتِمَالِ أَنَّهُ إِنَّما عَلِمَ ذَلِكَ بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمِ اللهَ تَعَالَى لَهُ ذَلِكَ، لَكِنَّ عَدَمَ إِحَاطَتِهِ بِبَعْضِ الْمُغَيَّبَاتِ يَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِإِلَهٍ لِأَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّماءِ فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الَّذِي يَكُونُ خَالِقًا،

وَالْخَالِقُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَخْلُوقِهِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام مَا كَانَ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ وَالْمُغَيَّبَاتِ، فَكَيْفَ وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ:

إِنَّهُ أَظْهَرَ الْجَزَعَ مِنَ الْمَوْتِ فَلَوْ كَانَ عَالِمًا بِالْغَيْبِ كُلِّهِ، لِعَلِمَ أَنَّ الْقَوْمَ يُرِيدُونَ أَخْذَهُ وَقَتْلَهُ، وَأَنَّهُ يَتَأَذَّى بِذَلِكَ وَيَتَأَلَّمُ، فَكَانَ يَفِرُّ مِنْهُمْ قَبْلَ وُصُولِهِمْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا لَمْ يَعْلَمْ هَذَا الْغَيْبَ ظَهَرَ أَنَّهُ مَا كَانَ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ وَالْمُغَيَّبَاتِ وَالْإِلَهُ هُوَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ، فَوَجَبَ الْقَطْعُ بِأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام مَا كَانَ إِلَهًا فَثَبَتَ أَنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِمَعْرِفَةِ بَعْضِ الْغَيْبِ لَا يَدُلُّ عَلَى حُصُولِ الْإِلَهِيَّةِ، وأَمَّا الْجَهْلُ بِبَعْضِ الْغَيْبِ يَدُلُّ قَطْعًا عَلَى عَدَمِ الْإِلَهِيَّةِ، فَهَذَا هُوَ الْجَوَابُ عَنِ النَّوْعِ الْأَوَّلِ مِنَ الشُّبَهِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعِلْمِ.

أَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: مِنَ الشُّبَهِ، وَهُوَ الشُّبْهَةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْقُدْرَةِ فَأَجَابَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا بِقَوْلِهِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ

وَالْمَعْنَى أَنَّ حُصُولَ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ عَلَى وَفْقِ قَوْلِهِ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ لَا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ إِلَهًا، لِاحْتِمَالِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَكْرَمَهُ بِذَلِكَ الْإِحْيَاءِ إِظْهَارًا لِمُعْجِزَتِهِ وَإِكْرَامًا لَهُ.

أَمَّا الْعَجْزُ عَنِ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْإِلَهِيَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الَّذِي يَكُونُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُصَوِّرَ فِي الْأَرْحَامِ مِنْ قَطْرَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ النُّطْفَةِ هَذَا التَّرْكِيبَ الْعَجِيبَ، وَالتَّأْلِيفَ الْغَرِيبَ وَمَعْلُومٌ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام مَا كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ وَكَيْفَ، وَلَوْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ لَأَمَاتَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَخَذُوهُ عَلَى زَعْمِ النَّصَارَى وَقَتَلُوهُ، فَثَبَتَ أَنَّ حُصُولَ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ عَلَى وَفْقِ قَوْلِهِ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ لَا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ إِلَهًا، أَمَّا عَدَمُ حُصُولِهِمَا عَلَى وَفْقِ مُرَادِهِ فِي سَائِرِ الصُّوَرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَا كَانَ إِلَهًا، فَظَهَرَ بِمَا ذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ الثَّانية أَيْضًا سَاقِطَةٌ.

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الشُّبَهِ: فَهِيَ الشُّبَهُ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى مُقَدِّمَاتٍ إِلْزَامِيَّةٍ، وَحَاصِلُهَا يَرْجِعُ إِلَى نَوْعَيْنِ.

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: أَنَّ النَّصَارَى يَقُولُونَ: أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْتُمْ تُوَافِقُونَنَا عَلَى أَنَّهُ مَا كَانَ لَهُ أَبٌ مِنَ الْبَشَرِ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ ابْنًا لَهُ فَأَجَابَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أَيْضًا بِقَوْلِهِ : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ**

كَيْفَ يَشَاءُ﴾ لِأَنَّ هَذَا التَّصْوِيرَ لَمَّا كَانَ مِنْهُ فَإِنْ شَاءَ صَوَّرَهُ مِنْ نُطْفَةِ الْأَبِ وَإِنْ شَاءَ صَوَّرَهُ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ الْأَبِ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: أَنَّ النَّصَارَى قَالُوا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَلَسْتَ تَقُولُ: إِنَّ عِيسَى رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ابْنُ اللهِ، فَأَجَابَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِأَنَّ هَذَا إِلْزَامٌ لَفْظِيٌّ، وَاللَّفْظُ مُحْتَمِلٌ لِلْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ، فَإِذَا وَرَدَ اللَّفْظُ بِحَيْثُ يَكُونُ ظَاهِرُهُ مُخَالِفًا لِلدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ كَانَ مِنْ بَابِ الْمُتَشَابِهَاتِ، فَوَجَبَ رَدُّهُ إِلَى التَّأْوِيلِ، وَذَلِكَ هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾**﴿آلِ عِمْرَانَ: ٧﴾ فَظَهَرَ بِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ قَوْلَهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ إِشَارَةٌ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَسِيحَ لَيْسَ بإله ولا ابن لَهُ، وأَمَّا قَوْلُهُ : **﴿إِنَّ اللهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾** ، فَهُوَ جَوَابٌ عَنِ الشُّبْهَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعِلْمِ، وَقَوْلُهُ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ جَوَابٌ عَنْ تَمَسُّكِهِمْ بِقُدْرَتِهِ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَعَنْ تَمَسُّكِهِمْ بِأَنَّهُ مَا كَانَ لَهُ أَبٌ مِنَ الْبَشَرِ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ ابْنًا للهِ، وأَمَّا قَوْلُهُ : **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ﴾**﴿آلِ عِمْرَانَ: ٧﴾ فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ تَمَسُّكِهِمْ بِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ عِيسَى رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ، وَمَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَا ذَكَرْنَاهُ وَلَخَّصْنَاهُ عَلِمَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ عَلَى اخْتِصَارِهِ أَكْثَرُ تَحْصِيلًا مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي هَذَا الْبَابِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَسْأَلَةِ حُجَّةٌ وَلَا شُبْهَةٌ وَلَا سُؤَالٌ وَلَا جَوابٌ إِلَّا وَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَيْه" .

وقال القرطبي(٦٧١هـ) في"الجامع لأحكام القرآن"(٤/٧-٨) : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** .

فِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾** أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَصْوِيرِهِ لِلْبَشَرِ فِي أَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ وَأَصْلُ الرَّحِمِ مِنَ الرَّحْمَةِ، لِأَنَّهَا مِمَّا يُتَرَاحَمُ بِهِ. وَاشْتِقَاقُ الصُّورة مِنْ صَارَهُ إِلَى كَذَا إِذَا أَمَالَهُ، فَالصُّورَةُ مَائِلَةٌ إِلَى شَبَهٍ وَهَيْئَةٍ. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَعْظِيمٌ للهِ تَعَالَى، وَفِي ضِمْنِهَا الرَّدُّ عَلَى نَصَارَى نَجْرَانَ، وَأَنَّ عِيسَى مِنَ الْمُصَوَّرِينَ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يُنْكِرُهُ عَاقِلٌ. وَأَشَارَ تَعَالَى إِلَى شَرْحِ التَّصْوِيرِ فِي سُورَةِ" الْحَجِّ" وَ" الْمُؤْمِنُونَ".

وَكَذَلِكَ شَرَحَهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَلَى مَا يَأْتِي هُنَاكَ بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَفِيهَا الرَّدُّ عَلَى الطَّبَائِعِيِّينَ أَيْضًا إِذْ يَجْعَلُونَهَا فَاعِلَةً مُسْتَبِدَّةً.

وَقَدْ مَضَى الرَّدُّ عَلَيْهِمْ فِي آيَةِ التَّوْحِيدِ ، وَفِي مُسْنَدِ ابْنِ سَنْجَرَ- وَاسْمُهُ مُحَمَّد بْنُ سَنْجَرَ- حَدِيثٌ: "إِنَّ اللهَّ تَعَالَى يَخْلُقُ عِظَامَ الْجَنِينِ وَغَضَارِيفَهُ مِنْ مَنِيِّ الرَّجُلِ وَشَحْمَهُ وَلَحْمَهُ مِنْ مَنِيِّ الْمَرْأَةِ".

وَفِي هَذَا أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْوَلَدَ يَكُونُ مِنْ مَاءِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَهُوَ صَرِيحٌ في قول تَعَالَى:" يا أَيُّهَا النَّاس إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى".

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ وَفِيهِ: أَنَّ الْيَهُودِيَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وجئت أسألك عن شيء لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ. قَالَ:" يَنْفَعُكَ إن حدَّثتك"؟.

قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنِيَّ، قَالَ: جِئْتُكَ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهَّ تَعَالَى ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ منى الرجل أنثى بِإِذْنِ اللهَّ" الْحَدِيثَ . وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ آخِرَ" الشُّورَى" إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿كَيْفَ يَشاءُ﴾** يَعْنِي مِنْ حُسْنٍ وَقُبْحٍ وَسَوَادٍ وَبَيَاضٍ وَطُولٍ وَقِصَرٍ وَسَلَامَةٍ وَعَاهَةٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ. وَذُكِرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ أَنَّ الْقُرَّاءَ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ لِيَسْمَعُوا مَا عِنْدَهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي مَشْغُولٌ عَنْكُمْ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ، فَلَا أَتَفَرَّغُ لِرِوَايَةِ الْحَدِيثِ. فَقِيلَ لَهُ: وَمَا ذَاكَ الشُّغْلُ؟ قَالَ:

أَحَدُهَا إِنِّي أَتَفَكَّرُ فِي يَوْمِ الْمِيْثَاقِ حَيْثُ قَالَ:" هَؤُلَاءِ فِي الجنَّة وَلَا أُبَالِي وَهَؤُلَاءِ فِي النَّار وَلَا أُبَالِي". فَلَا أَدْرِي مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ .

وَالثَّانِي حَيْثُ صُوِّرْتُ فِي الرَّحِمِ فَقَالَ الْمَلَكُ الَّذِي هُوَ مُوَكَّلٌ عَلَى الْأَرْحَامِ:" يا رَبِّ شَقِيٌّ هُوَ أَمْ سَعِيدٌ" فَلَا أَدْرِي كَيْفَ كَانَ الْجَوَابُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. و

الثَّالِثُ حِينَ يَقْبِضُ مَلَكُ الْمَوْتِ رُوحِي فَيَقُولُ:" يَا رَبِّ مَعَ الْكُفْرِ أَمْ مَعَ الْإِيمَانِ) فَلَا أَدْرِي كَيْفَ يَخْرُجُ الْجَوَابُ.

وَالرَّابِعُ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ أَكُونُ. ثمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، أَيْ لَا خَالِقَ وَلَا مُصَوِّرَ سِوَاهُ ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ عِيسَى إِلَهًا مُصَوِّرًا وَهُوَ مُصَوَّرٌ" .

وقال ناصر الدِّين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمَّد الشِّيرازي البيضاوي(٦٨٥هـ) في"أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل"(٦/٢) :"وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ، أي من الصُّور المختلفة، كالدَّليل على القيُّوميَّة، والاستدلال على أنَّه عالم بإتقان فعله في خلق الجنين وتصويره. وقرئ «تصوَّركم» أي: صوَّركم لنفسه وعبادته" .

وقال علاء الدِّين علي بن محمَّد بن إبراهيم البغدادي الشَّهير بالخازن(٧٤١هـ) في"لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل"(٣١٨/١) : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ﴾ التَّصوير : جعل الشَّيء على صورة ، والصُّورة هيئة يكون عليها الشَّيء بالتَّأليف ، والأرحام جمع رحم ﴿كَيْفَ يَشاءُ﴾ يعني : الصُّور المختلفة المتفاوتة في الحلقة ذكراً أو أنثى أبيض أو أسود حسناً أو قبيحاً كاملاً أو ناقصاً ، والمعنى أنَّه الذي يصوِّركم في ظلمات الأرحام صوراً مختلفة في الشَّكل والطَّبع واللون وذلك من نطفة.

عَبْدَ اللهَّ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ، حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ: " أَنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ، ثمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، ثمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّة حتَّى لاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجنَّة فَيَدْخُلُهَا " .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ: " وَكَّلَ اللهُّ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُّ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ، فَمَا الأَجَلُ، فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ " .

وقيل : إنَّ الآية واردة في الرَّدِّ على النَّصارى ، وذلك أنَّ عيسى عليه السَّلام كان يخبر ببعض الغيب فيقول : أكلت في دارك كذا ، صنعت كذا ، وإنَّه أحيا الموتى ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، وخلق من الطِّين طيراً ، فادَّعت النَّصارى فيه الإلهيَّة ، وقالوا: ما قدر على ذلك إلَّا أنَّه إله فردَّ الله تعالى عليهم بذلك.

وأخبر أنَّ الإله المستحقَّ لهذا الاسم هو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء ، وأنَّه المصوِّر في الأرحام كيف يشاء ، وأنَّ عيسى عليه السَّلام ممَّن صوَّره في الرَّحم ، فنبَّه بكونه مصوَّر في الرَّحم على أنَّه عبد مخلوق كغيره ، وأنَّه يخفى عليه ما لا يخفى على الله عزَّ وجلَّ" .

وقال أبو حيَّان محمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيَّان أثير الدِّين الأندلسي(٧٤٥هـ) في"البحر المحيط في التَّفسير"(٣/ ١٩) : ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ**﴾ شَيْءٌ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، فتعم، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى كَمَالِ الْعِلْمِ بِالْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ، وَعَبَّرَ عَنْ جَمِيعِ الْعَالَمِ بِالْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، إِذْ هُمَا أَعْظَمُ مَا نُشَاهِدُهُ، وَالتَّصْوِيرُ عَلَى مَا شَاءَ مِنَ الْهَيْئَاتِ دَالٌّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ، وَبِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ يَتِمُّ مَعْنَى الْقَيُّومِيَّةِ، إِذْ هُوَ الْقَائِمُ بِمَصَالِحِ الْخَلْقِ وَمُهِمَّاتِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى النَّصَارَى، إِذْ شُبْهَتُهُمْ فِي ادِّعَاءِ إِلَهِيَّةِ عِيسَى كَوْنُهُ: يُخْبِرُ بِالْغُيُوبِ، وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى الْعِلْمِ، وَكَوْنُهُ: يُحْيِي الْمَوْتَى، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْقُدْرَةِ.

فَنَبَّهَتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْعَالِمُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ عِيسَى عَالِمًا بِبَعْضِ الْمُغَيَّبَاتِ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ عِيسَى لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، وَنَبَّهَتْ عَلَى أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ ذُو الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ، فَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ عِيسَى قَادِرًا عَلَى الْإِحْيَاءِ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ عِيسَى لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى تَرْكِيبِ الصُّوَرِ وَإِحْيَائِهَا، بَلْ إِنْبَاؤُهُ بِبَعْضِ الْمُغَيَّبَاتِ، وَخَلْقُهُ وَإِحْيَاؤُهُ بَعْضَ الصُّوَرِ، إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِإِنْبَاءِ اللَّهِ لَهُ عَلَى سَبِيلِ الْوَحْيِ، وَإِقْدَارِهِ تَعَالَى لَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَكُلُّهَا عَلَى سَبِيلِ الْمُعْجِزَةِ الَّتِي أَجْرَاهَا، وَأَمْثَالَهَا، عَلَى أَيْدِي رُسُلِهِ".

وقال أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثمَّ الدِّمشقي(٧٧٤هـ) في": تفسير القرآن العظيم"(٢/ ٦) :" ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ، أَيْ: يَخْلُقُكُمْ كَمَا يَشَاءُ فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَحَسَنٍ وَقَبِيحٍ، وَشَقِيٍّ وَسَعِيدٍ ﴿لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ، أَيْ: هُوَ الَّذِي خَلَقَ، وَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْإِلَهِيَّةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْحِكْمَةُ وَالْأَحْكَامُ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْرِيضٌ بَلْ تَصْرِيحٌ بِأَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ مَخْلُوقٌ، كَمَا خَلَقَ اللَّهُ سَائِرَ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَوَّرَهُ فِي الرَّحِمِ وَخَلَقَهُ، كَمَا يَشَاءُ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا كَمَا زَعَمَتْهُ النَّصَارَى -عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ-وَقَدْ تَقَلَّبَ فِي الْأَحْشَاءِ، وَتَنَقَّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ ربكم لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾﴿الزُّمَر: ٦﴾".

وقال أبو حفص سراج الدِّين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدِّمشقي النُّعماني(٧٧٥هـ) في"اللباب في علوم الكتاب"(٥/ ٢٣-٢٥) :"... هذا الكلام يحتمل وجهَيْنِ:

الأَوَّلُ: أن يُنَزَّلَ على سبب النُّزول؛ وذلك لأنَّ النَّصارى ادَّعَوُا الإلهيةَّ لعيسَى؛ لأمور:

أَحَدُهَا: العلم، فإنَّه كان يُخْبِر بالغيوب، ويقول لهذا: إنَّك أكلت في دارك كذا، ويقول لذلك: إنَّك صنعت في دارك كذا.

الثَّانِي: القدرة، وهي أنَّ عيسى كان يُحْيِي الموتَى، ويُبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق من الطِّين كهيئة الطَّير، ثمَّ ينفخ فيه فيكون طيراً.

الثَّالِثُ: من جهة الإلزام المعنويّ، وهو أنَّه لم يكن له أبٌ من البشر.

الرَّابعُ: من جهة الإلزام اللفظي، وهو قولهم لنا: أنتم تقولون: إنَّه روح الله، وكلمته.

فالله تعالى استدلَّ على بطلان قولهم بإلهيَّة عيسى، والتَّثْليث بقوله: ﴿الحَيُّ القَيُّوْم﴾ ، فالإله يجب أن يكون حيًّا قَيُّوماً، فلزم القطعُ بأنَّه لم يكن إلهاً، وأجاب عن شبهتهم بعلم الغيوب بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ ، وكون عيسى عالماً ببعض المغيِّبات، لا يدلُّ على كونه إلهاً؛ لاحتمال أنَّه عَلِم ذلك بوحي من الله تعالى، فعدم إحاطته بكلِّ المغيَّبات يدلُّ قطعاً على أنَّه ليس

بإله؛ لأنَّ الإله هو الذي لا يَخْفَى عليه شيء في الأرض، ولا في السَّماء؛ لأنَّه خالقهما، والخالق لا بدَّ وأن يكون عالماً بمخلوقه، ومن المعلوم بالضَّرورة أنَّ عيسى ما كان عالماً بجميع المغيَّبات، وكيف والنَّصارى يقولون: إنَّه قُتِل، فلو كان يعلم الغيب، لعلمَ بأنذَ القوم يريدون قتله، فكان يفرُّ منهم قبل وصولهم إليه.

وأمَّا تعلُّقهم بقدرته على إحياء الموتى، فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله: **﴿هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَآءُ﴾** ، وتقديره: أنَّ حصول الإحياء لعيسى في بعض الصُّور لا يدلُّ على كونه إلهاً؛ لاحتمال أنَّ الله تعالى أكرمه بذلك إظهاراً لمعجزته، وعجزه عن الإحياء في بعض الصُّور يوجب قطعاً عدم إلهيَّته، لأنَّ الإله هو القادر على أن يُصَوِّرَ في الأرحام من قطرة صغيرة من النُّطفة هذا التَّركيب العجيب، فلو كان عيسى قادراً على الإحياء، والإماتة، لأمات أولئك الذين أخذوه وقتلوه – على زعمهم – فثبت أنَّ الإحياء والإماتة في بعض الصُّور لا تدلُّ على كونه إلهاً، وكذلك عدم حصول الإحياء والإماتة له في كلِّ الصُّور دليل على أنَّه ما كان إلهاً.

وأمَّا الشُّبهة الثَّالثة ، وهي الإلزام المعنويّ بأنَّه لم يكن له أب من البشر، فأجاب الله تعالى عنه بقوله: **﴿هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَآءُ﴾** ، فإن شاء صوَّره من نطفة الأب ، وإن شاء صوَّره ابتداء من غير الأب، كما خلق آدم من غير أبٍ أيضاً ولا أمّ.

وأمَّا قولهم لنا: أنتم تقولون: إنَّه روح الله وكلمته، فهذا الإلزام لفظي، وهو محتمل للحقيقة والمجاز، فإذا ورد لفظ يكون ظاهره مخالفاً للدَّليل العقلي كان من باب المتشابهات، فوجب ردُّه إلى التَّأويل، وذلك هو المراد بقوله: **﴿هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾**﴿آل عمران: ٧﴾ ، فظهر بما ذكرنا أنَّ قوله: **﴿الحَيُّ القَيُّومُ﴾** يدلُّ على أنَّ المسيح ليس بإله، ولا ابن الإله.

وقوله: ﴿إِنَّ الله لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ جواب عن تعلُّقهم بالعلم، وقوله: **﴿هُوَ الذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَام كَيْفَ يَشَآءُ﴾** جواب عن تمسُّكهم بقدرته على الإحياء

والإماته، وعن تمسُّكهم بأنَّه ما كان له أب من البشر، وقوله: **﴿هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب﴾** جوابٌ عن تمسُّكهم بما ورد في القرآنِ من أنَّ عيسى روحُ الله وكلمته.

الاحتمال الثَّاني: أنَّه تعالى لَمَّا ذكر أنَّه قيُّوم، والقيُّوم هو القائم بإصلاح مصالح الخلق ، وذلك لا يتمُّ إلَّا بأمرين:

الأَوَّلُ: أن يكون عالماً بجميع حاجاتهم بالكميَّة والكيفيَّة.

الثَّانِي: أن يكون قادراً على دَفْع حاجاتهم، فالأوَّل لا يتمُّ إلَّا إذا كان عالماً بجميع المعلومات، والثَّاني لا يتمُّ إلَّا إذا كان قادراً على جميع الممكنات، ثمَّ إنَّه استدل على كونه عالماً بجميع المعلومات بقوله: **﴿إِنَّ الله لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِي السَّماء﴾** ، وذلك يدلُّ على كمال علمه، وإثبات كونه عالماً لا يجوز أن يكون بالسَّمع؛ لأنَّ معرفة صحَّة السَّمع موقوفة على العلم بكونه تعالى عالماً ما بجميع المعلومات، وإنَّما الطَّريق إليه بالدَّليل العقلي، وذلك بأن نقول: إنَّ أفعال الله محكمة متقنة ، والفعل المُحْكَم المتقَن يدلُّ على كون فاعله عالماً، وإذَا كان دليل كونه تعالى عالماً ما ذكرنا، فحين ادَّعى كونه عالماً بجميع المعلومات بقوله: **﴿إِنَّ الله َلاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِي السَّماء﴾** أتبعه بالدَّليل العقلي، وهو أنَّه يُصَوِّرُ في ظلمات الأرحام هذه البنيةَ العجيبةَ ، ويركِّبها تركيباً غريباً من أعضاء مختلفة في الشَّكل والطَّبع والصفة، فبعضها أعصاب، وبعضها أوردة، وبعضها شرايين، وبعضها عضلات، ثمَّ إنَّه ضَمَّ بعضها إلى بعض على أحسن تركيب ، وأكمل تأليف، وذلك يدلُّ على كمال قدرته، حيث قدر أن يخلق من قطرة من نطفةٍ هذه الاعضاءَ المختلفةَ في الطَّبع والشَّكل واللون، فدلَّ هذا الفعلُ المُحْكَم المتقَن على كمال علمه وقدرته".

وقال شمس الدِّين، محمَّد بن أحمد الخطيب الشَّربيني الشَّافعي(٩٧٧هـ) في"السِّراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربِّنا الحكيم الخبير"(١/ ١٩٥-١٩٦) : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** ، أي: من ذكورة وأنوثة، وبياض وسواد، وحسن وقبح، وتمام ونقص، وغير ذلك كالدَّليل على القيُّوميَّة والاستدلال على أنَّه تعالى عالم بإتقان فعله في خلق الجنين وتصويره، وفي هذا ردٌّ على وفد نجران من النَّصارى حيث قالوا: عيسى ولد الله .

واستدلُّوا على ذلك بأمور :

منها: العلم، فإنَّه كان يخبر عن الغيوب، ويقول لهذا : إنَّك أكلت في دارك كذا، ويقول لذاك : إنَّك صنعت في دارك كذا.

ومنها : القدرة ، وهي أنَّ عيسى كان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص، ويخلق من الطِّين كهيئة الطَّير ثمَّ ينفخ فيه فيكون طيراً، فكأنَّه تعالى يقول: كيف يكون ولد الله وقد صوَّره في الرَّحم ، والمصوِّر لا يكون أب المصوَّر .

ثمَّ إنَّه تعالى لَمَّا أجاب عن شبهتهم أعاد كلمة التَّوحيد زجراً للنَّصارى عن قولهم التَّثليث ، فقال: **﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** في ملكه ، وفيه إشارة إلى كمال القدرة، فقدرته تعالى أكمل من قدرة عيسى على الإماتة والإحياء **﴿الْحَكِيمُ﴾** في صنعه. وفيه إشارة إلى كمال العلم فعلمه أكمل من علم عيسى بالغيوب، وأنَّ علم عيسى ببعض الصُّور، وقدرته على بعض الصُّور لا يدلُّ على كونه إلهاً ، بل على أنَّ الله أكرمه بذلك إظهاراً لمعجزته ، وعجزه عن الإحياء في بعض الصُّور يوجب قطعاً عدم الإلهيَّة؛ لأنَّ الإله هو الذي يكون قادراً على كل الممكنات عالماً بجميع الجزئيَّات والكليَّات.

قَالَ عَبْدِ الله بِنْ مَسْعُوْد : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ، قَالَ: " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُّ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ: بِرِزْقِهِ وَأَجَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَاللهَّ إِنَّ أَحَدَكُمْ – أَوْ: الرَّجُلَ – يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا " .

وَرُوِيَ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ، فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ" .

وقال أبو السُّعود العمادي محمَّد بن محمَّد بن مصطفى (٩٨٢هـ) في "إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم" (٢/ ٦٧) : ﴿هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء﴾ جملة مستأنفةٌ ناطقةٌ ببعض أحكام قيّومَّيتِه تعالى ، وجَرَيانِ أحوالِ الخلق في أطوار الوجودِ حسبَ مشيئتِه المبنيَّة على الحكم البالغةِ ، مقرِّرةٌ لكمال علمِه مع زيادة بيانٍ لتعلُّقه بالأشياء قبل دخولِها تحت الوجود ضرورةَ وجوبِ علمِه تعالى بالصُّور المختلفة المترتِّبة على التَّصوير المترتِّب على المشيئة قبل تحقُّقِها بمراتب ، وكلمةُ ﴿فِي﴾ متعلِّقةٌ بيصوِّركم أو بمحذوفٍ وقعَ حالاً من ضمير المفعولِ ، أي : يصوِّركم وأنتم في الأرحام مُضَغٌ ، و ﴿كَيْفَ﴾ معمول ليشاءُ ، والجملة في محلِّ النَّصب على الحاليَّة إمَّا من فاعل يصوّركم ، أي : يصورُكم كائناً على مشيئته تعالى ، أي مُريداً ، أو من مفعولِه ، أي : يصوِّركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها في قَبول الأحوالِ المتغايرة من كونكم نُطفاً ثمَّ عَلَقاً ثمَّ مُضَغاً غيرَ مخلّقة ثمَّ مُخلّقة ، وفي الاتِّصاف بالصِّفات المختلفةِ من الذُّكورة والأنوثة والحُسن والقُبح ، وغيرِ ذلكَ منَ الصِّفات . وفيه من الدَلالة على بطلان زعْم من زَعَم ربوبيَّةَ عيسى عليه السَّلام ، وهو من جملة أبناءِ النَّواسيتِ المتقلِّبين في هذه الأطوار على مشيئة الباري عزَّ وجلَّ وكمال ركاكة عقولهم مالا يخفي . وقرئ تَصَوَّركم على صيغة الماضي من التَّفعل ، أي : صوَّركم لنفسه وعبادتِه".

وقال إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي في "تفسير روح البيان" (٢/ ٣) : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الارْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ، أي : يجعلكم على هيئة مخصوصة في أرحام أمَّهاتكم من ذكر وأنثى وأسود وأبيض وتام وناقص وطويل وقصير وحسن وقبيح ، وهو ردٌّ على الذين قالوا : عيسى الله أو ابن الله ، لأنَّ من صوّر في الرَّحم يمتنع أن يكون إلهاً وولداً لكونه مركَّباً وحالاً في المركَّب وفي عرض الفناء والزَّوال ﴿لَا إِلهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نزَّه نفسه أن يكون عيسى ابناً له ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المتناهي في القدرة والحكمة ، فربُّكم يخلقكم على النَّمط البديع".

وقال أبو العبَّاس أحمد بن محمَّد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) في "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" (١/ ٣٢٣) : "بقدرته صَوَّرَ النُّطَف في الأرحام كيف شاء سبحانه من نقص أو تمام، وأتقنها بحكمته، وأبرزها إلى ما يَسَّرَ لها من رزقه، سبحانه من مدبِّر

عليم، عزيز حكيم، لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن دائرة علمه شيء، لا موجود سواه، ولا نعبد إلَّا إيَّاه، وبالله التَّوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطَّريق.

الإشارة: مَنْ تحقَّق أنَّ الله واحد في ملكه، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا أفعاله، وأنَّه أحاط به علماً وسمعاً وبصراً، وأنَّ أمره بين الكاف والنُّون، **﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُوْلَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْن﴾** كيف يشكو ما نزل به منه إلى أحد سواه؟ أم كيف يرفع حوائجه إلى غير مولاه؟ أم كيف يعول همَّاً، وسيِّدُه من خيره لا ينساه؟ من دبَّرك في ظلمة الأحشاء، وصوَّرك في الأرحام كيف يشاء، وآتاك كلَّ ما تسأل وتشاء، كيف يَنْساكَ من برِّه وإحسانه؟ أم كيف يخرجك عن دائرة لطفه وامتنانه؟ وفي ذلك يقول لسان الحقيقة:

تَذَكَّر جَمِيلي فِيكَ إِذْ كُنْتَ نُطْفَةً   وَلا تَنْسَ تَصْوِيرِي لشَخْصِكَ في الْحَشا

وَكُنْ وَاثِقاً بِي في أُمُورِكَ كُلِّها   سأَكْفِيكَ مِنْهَا ما يُخافُ ويُخْتَشى

وَسَلِّمْ ليّ الأمْرَ واعْلَمْ بأنَّنـــــي   أُصَرِّفُ أحْكَـــــــامِي وأَفْعَلُ ما أشا

وقال محمَّد ثناء الله المظهري(١٢٢٥هـ) في"التَّفسير المظهري"(٩٢٥٧) :"المُصَوِّرُ: قال البغوي :المماثل للمخلوق بالعلامات التي يتميَّز بها بعضها عن بعض ، يقال : هذه صورة الأمر ، أي : مثاله ، فأوَّلاً يكون خلقاً ثمَّ برأ ثمَّ تصويراً ، وفي الصِّحاح ما يتنقش به الأعيان ويتميَّز بها عن غيرها ، وذلك ضربان :

أَحَدُهُمَا : محسوس يدركه الخاصَّة والعامَّة ، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوانات ، كصورة الإنسان ، والفرس ، والجماد بالمعاينة .

قلت : ومنه ما امتاز به زيد من عمرو .

الثَّانِي : معقول يدركه الخاصَّة دون العامَّة ، كالصُّورة التي اختصّ بها الإنسان من الفعل ، والمعاني التي خصّ بها شيء دون شيء، وإلى الصُّورتين أشار الله تعالى بقوله : **﴿خَلَقْناكُمْ ثمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾** ، وقال : **﴿صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** ، وقال : **﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ﴾** ، وقال : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** ، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى

صُورَتِهِ» ، فالصُّورة أراد بها ما خصّ الإنسان به من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة ، وبها فضَّله على كثير من الخلق ، وإضافه إلى الله على سبيل الملك لا على سبيل البعضيَّة والتَّشبيه ، تعالى عن ذلك ، وذلك على سبيل التَّشريف ، كقوله : بيت الله ، و ﴿**ناقَةُ اللهِ**﴾ .

قلت : ويمكن أن يُراد به خلقه تعالى على صفاته من العلم والقدرة والإرادة ونحو ذلك التي بها لبس خلعة الخلافة ، وامتاز به عمَّا عداه ، واحتمل ثقل الأمانة ، وجاز أن يكون ضمير "صُورَتِهِ" راجعاً إلى آدم ، يعنى : خلقه على صورة لم يعط أحداً غيره ، والله تعالى أعلم".

وقال محمَّد بن علي بن محمَّد بن عبد الله الشَّوكاني اليمني(١٢٥٠هـ) في"فتح القدير"(١/٣٥٩) :"أَصْلُ اشْتِقَاقِ الصُّورة مِنْ: صَارَهُ إِلَى كَذَا، أي: أماله إليه، فالصُّورة مائلة إلى شبه وهيئة، وأصل الرَّحم من: الرَّحمة ، لأنَّه ممَّا يتراحم به، وهذه الجملة مستأنفة، مشتملة عَلَى بَيَانِ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ، وَأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ مَعْلُومَاتِهِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْوُجُودِ، وَهُوَ: تَصْوِيرُ عِبَادِهِ فِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ مِنْ نُطَفِ آبَائِهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ، مِنْ حَسَنٍ، وَقَبِيحٍ، وَأَسْوَدَ، وَأَبْيَضَ، وَطَوِيلٍ، وَقَصِيرٍ. وَكَيْفَ: مَعْمُولُ يَشَاءُ، وَالْجُمْلَةُ: حَالِيَّةٌ.

وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ محمَّد بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَفْدُ نَجْرَانَ سِتُّونَ رَاكِبًا، فِيهِمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِنْهُمُ أبو حارثة ابن عَلْقَمَةَ، وَالْعَاقِبُ، وَعَبْدُ الْمَسِيحِ، وَالسَّيِّدُ، وَهُوَ: الْأَيْهَمُ، ثمَّ ذَكَرُوا الْقِصَّةَ فِي الْكَلَامِ الَّذِي دَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ اللهَّ أَنْزَلَ فِي ذَلِكَ صَدْرَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ إِلَى بِضْعٍ وَثَمَانِينَ آيَةً مِنْهَا.

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الرَّبِيعِ، فَذَكَرَ وَفْدَ نَجْرَانَ وَمُخَاصَمَتَهُمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ اللهَّ أَنْزَلَ: الم اللهُّ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿**مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ ، قَالَ: لِمَا قَبْلَهُ مِنْ كِتَابٍ أَوْ رَسُولٍ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ نَحْوَهُ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ نَحْوَهُ، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ**﴾ ، هُوَ الْقُرْآنُ، فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَأَحَلَّ فِيهِ حَلَالَهُ، وَحَرَّمَ فِيهِ

حَرَامَهُ، وَشَرَعَ فِيهِ شَرَائِعَهُ، وَحَدَّ فِيهِ حُدُودَهُ، وَفَرَضَ فِيهِ فَرَائِضَهُ، وَبَيَّنَ فِيهِ بَيَانَهُ، وَأَمَرَ بِطَاعَتِهِ، وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ محمَّد بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ: **﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ﴾** ، أَيِ: الْفَصْلَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِيمَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْأَحْزَابُ مِنْ أَمْرِ عِيسَى وَغَيْرِهِ، وَفِي قَوْلِهِ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ﴾** ، أَيْ: إِنَّ اللهَ يَنْتَقِمُ مِمَّنْ كَفَرَ بِآيَاتِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ بِهَا وَمَعْرِفَتِهِ بِمَا جَاءَ مِنْهُ فِيهَا.

وَفِي قَوْلِهِ: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾** ، أَيْ: قَدْ عَلِمَ مَا يُرِيدُونَ وَمَا يَكِيدُونَ وَمَا يُضَاهُونَ بِقَوْلِهِمْ فِي عِيسَى إِذْ جَعَلُوهُ رَبًّا وَإِلَهًا، وَعِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِهِ غَيْرُ ذَلِكَ غِرَّةً بِاللهِ وَكُفْرًا بِهِ **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** ، قَدْ كَانَ عِيسَى مِمَّنْ صُوِّرَ فِي الْأَرْحَامِ، لَا يَدْفَعُونَ ذَلِكَ وَلَا يُنْكِرُونَهُ كَمَا صُوِّرَ غَيْرُهُ مَنْ بَنِي آدَمَ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا وَقَدْ كَانَ بِذَلِكَ الْمَنْزِلِ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: **﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** ، قَالَ: ذُكُورًا وَإِنَاثًا.

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي قَوْلِهِ: **﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** ، قَالَ: إِذَا وَقَعَتِ النُّطْفَةُ فِي الْأَرْحَامِ طَارَتْ فِي الْجَسَدِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثمَّ تَكُونُ عَلَقَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثمَّ تَكُونُ مُضْغَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِذَا بَلَغَ أَنْ يُخْلَقَ بَعَثَ اللهُ مَلَكًا يُصَوِّرُهَا، فَيَأْتِي الْمَلَكُ بِتُرَابٍ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ فَيَخْلِطُ مِنْهُ الْمُضْغَةَ، ثمَّ يَعْجِنُهُ بِهَا ثمَّ يُصَوِّرُ كَمَا يُؤْمَرُ فَيَقُولُ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، وَمَا رِزْقُهُ، وَمَا عُمُرُهُ، وَمَا أَثَرُهُ، وَمَا مَصَائِبُهُ؟ فَيَقُولُ اللهُ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، فَإِذَا مَاتَ ذَلِكَ الْجَسَدُ دُفِنَ حَيْثُ أُخِذَ ذَلِكَ التُّرَابُ.

وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ قَالَ: مِنْ ذَكَرٍ وأنثى، وَأَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَتَامِّ الْخَلْقِ وَغَيْرِ تَامِّ الْخَلْق".

وقال شهاب الدِّين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي(١٢٧٠هـ) في"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني"(٢/ ٧٧) :"وقوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾**

جملة مستأنفة على الصَّحيح ، ناطقة ببعض أحكام قيُّوميَّته تعالى ، مشيرة إلى تقرير علمه مع زيادة بيان لتعلُّقه بالأشياء قبل وجودها، والتَّصوير- جعل الشَّيء على صورة لم يكن عليها، والصُّورة هيئة يكون عليها الشَّيء بالتَّأليف، والْأَرْحامِ جمع رحم ، وهي معلومة ، وكأَّنَّها أخذت من الرَّحمة لأنَّها ممَّا يتراحم بها ويتعاطف، وكلمة **﴿فِي﴾** متعلِّقة- بـ يصور- وجوّز أن يكون حالاً من المفعول ، أي: يصوِّركم وأنتم في الأرحام مضغ، و**﴿كَيْفَ﴾** في موضع نصب بـ **﴿يَشَاء﴾** وهو حال، والمفعول محذوف تقديره : يشاء تصويركم، وقيل: **﴿كَيْفَ﴾** ظرف لـ **﴿يَشَاء﴾** ، والجملة في موضع الحال ، أي : يُصَوِّرُكُمْ على مشيئته ، أي : مريداً إن كان الحال من الفاعل أو يُصَوِّرُكُمْ متقلِّبين على مشيئته تابعين لها في قبول الأحوال المتغايرة من كونكم نطفاً ثمَّ علقاً ثمَّ مضغاً- ثمَّ، وثمَّ- وفي الاتِّصاف بالصِّفات المختلفة من الذُّكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك، وفيه من الدّلالة على بطلان زعم من زعم ربوبيَّة عيسى عليه السَّلام مع تقلُّبه في الأطوار ، ودوره في فلك هذه الأدوار حسبما شاءه الملك القهَّار وركاكة عقولهم ما لا يخفى، وقرأ طاوس- تَصَوَّركم- على صيغة الماضي من التَّفعل ، أي : اتَّخذ صوركم لنفسه وعبادته ، فهو من باب : توسَّد التُّراب ، أي : اتَّخذه وسادة فما قيل: كأنَّه من تصوَّرت الشَّيء بمعنى : توهَّمت صورته ، فالتَّصديق أنَّه توهّم محض **﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** كرَّر الجملة الدالَّة على نفي الإلهيَّة عن غيره تعالى ، وانحصارها فيه توكيداً لما قبلها ، ومبالغة في الرَّدِّ على من ادَّعى إلهيَّة عيسى عليه السَّلام ، وناسب مجيئها بعد الوصفين السَّابقين من العلم والقدرة ، إذ من هذان الوصفان له هو المتَّصف بالألوهيَّة لا غيره ، ثمَّ أتى بوصف العزَّة الدالَّة على عدم النَّظير أو التَّناهي في القدرة والحكمة ، لأنَّ خلقهم على ما ذكر من النَّمط البديع أثر من آثار ذلك **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ﴾** استئناف لإبطال شبه الوفد وإخوانهم النَّاشئة عمَّا نطق به القرآن في نعت المسيح عليه السَّلام إثر بيان اختصاص الرُّبوبيَّة ومناطها به سبحانه".

وقال محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليماً، التَّناري بلداً(١٣١٦هـ) في"مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد"(١/ ١١٠-١١١) : **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** قصيراً أو طويلاً، حسناً أو قبيحاً، ذكراً أو أنثى، سعيداً أو شقيّاً.

وهذه الآية واردة في الرَّد على النَّصارى. وذلك أنَّ النَّصارى ادَّعوا إلهيَّة عيسى بأمرين: بالعلم والقدرة. فإنَّ عيسى كان يخبر عن الغيوب ، فيقول لهذا: أنت أكلت في دارك كذا، وصنعت في دارك كذا. وكان يُحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق من الطِّين كهيئة الطَّير فينفخ فيه فيكون طيراً، ثمَّ إنَّه تعالى استدلَّ على بطلان قولهم في إلهيَّة عيسى وفي التَّثليث بقوله تعالى: ﴿**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ ، فالإله يجب أن يكون حيَّاً قيُّوماً، وعيسى لم يكن كذلك. فيلزم القطع بأنَّه لم يكن إلهاً .

ولَّما قالوا: إنَّ عيسى أخبر عن الغيوب فوجب أن يكون إلهاً، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ**﴾ . والمعنى : لا يلزم من كونه عالماً ببعض المغيَّبات أن يكون إلهاً لاحتمال أنَّه علم ذلك بتعليم الله تعالى له ذلك.

ولَّما قالوا: إنَّ عيسى كان يُحيي الموتى ، فوجب أن يكون إلهاً، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ**﴾ . والمعنى : إنَّ حصول الإحياء على وفق قوله عليه السَّلام في بعض الصُّور لا يدلُّ على كونه إلهاً لاحتمال أنَّ الله تعالى أكرمه بذلك الإحياء إظهاراً لمعجزته وإكراماً له .

ولَّما قالوا: يا أيُّها المسلمون أنتم توافقوننا على أنَّ عيسى لم يكن له أب من البشر ، فوجب أن يكون ابناً لله، فأجاب الله تعالى عن ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ**﴾ ، فإنَّ هذا التَّصوير لَّما كان من الله تعالى فإن شاء صوّر من نطفة الأب، وإن شاء صوّره ابتداء من غير أب .

ولَّما قالوا للرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ألست تقول: إنَّ عيسى روح الله وكلمته؟ فهذا يدلُّ على أنَّه ابن الله! فأجاب الله عن ذلك بأنَّ هذا اللفظ من باب المتشابهات فوجب ردّه إلى التَّأويل ، وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ**﴾ ، فظهر بذلك المذكور أنَّ قوله تعالى: ﴿**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ إشارة إلى أنَّ عيسى ليس بالإله ولا ابن الإله.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ ، فهو جواب عن الشُّبهة المتعلِّقة بالعلم ، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ﴾ جواب عن تمسُّكهم بقدرة عيسى على الإحياء ونحوه ، لأنَّه لو قدر على الإحياء لقدر على الإماتة، ولو قدر على الإماتة لأمات اليهود الذين قتلوه- وعلى زعم النَّصارى- فثبت أنَّ حصول الإحياء في بعض الصُّور لا يدلُّ على كونه إلهاً، وهو جواب أيضاً عن تمسُّكهم بأنَّ من لم يكن له أب من البشر وجب أن يكون ابناً لله، فكأنَّه تعالى يقول : كيف يكون عيسى ولد الله وقد صوَّره في الرَّحم ، والمصوِّر لا يكون أباً للمصوَّر".

وقال محمَّد رشيد بن علي رضا بن محمَّد شمس الدِّين بن محمَّد بهاء الدِّين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني(١٣٥٤هـ) في"تفسير القرآن الحكيم(تفسير المنار)"(٣/ ١٣٤-١٣٥) :﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ الْأَرْحَامُ﴾ : هُوَ جَمْعُ رَحِمٍ ، وَهُوَ مُسْتَوْدَعُ الْجَنِينِ مِنَ الْمَرْأَةِ ، وَمَنْ عَرَفَ مَا فِي تَصْوِيرِ الْأَجِنَّةِ فِي الْأَرْحَامِ مِنَ الْحِكَمِ وَالنِّظَامِ عَلِمَ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ بِالْمُصَادَفَةِ وَالِاتِّفَاقِ. وَأَذْعَنَ بِأَنَّ ذَلِكَ فِعْلُ عَالِمٍ خَبِيرٍ بِالدَّقَائِقِ، حَكِيمٍ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَبَثُ عَزِيزٍ لَا يُغْلَبُ عَلَى مَا قَضَى بِهِ عِلْمُهُ وَتَعَلَّقَتْ بِهِ إِرَادَتُهُ، وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِبْدَاعِهِ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

وَإِذَا فَهِمْتَ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَاتِ فِي نَفْسِهَا فَاعْلَمْ أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا - كَمَا أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ - إِنَّهَا نَزَلَتْ وَمَا بَعْدَهَا إِلَى نَحْوِ ثَمَانِينَ آيَةً فِي نَصَارَى نَجْرَانَ، إِذْ وَفَدُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَكَانُوا سِتِّينَ رَاكِبًا فَذَكَرُوا عَقَائِدَهُمْ وَاحْتَجُّوا عَلَى التَّثْلِيثِ وَأُلُوهِيَّةِ الْمَسِيحِ بِكَوْنِهِ خُلِقَ عَلَى غَيْرِ السُّنَّةِ الَّتِي عُرِفَتْ فِي تَوَالُدِ الْبَشَرِ، وَبِمَا جَرَى عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَبِالْقُرْآنِ نَفْسِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَاتِ.

وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ - غَيْرَ جَازِمٍ بِهِ - وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي تَفْسِيرِهَا وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَمَّا مَا قَالَهُ فِي تَوْجِيهِ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ فَهُوَ بَدَأَ بِذِكْرِ تَوْحِيدِ اللهِ لِيَنْفِيَ عَقِيدَتَهُمْ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ ثمَّ وَصَفَهُ بِمَا يُؤَكِّدُ هَذَا النَّفْيَ كَقَوْلِهِ: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ، أَيِ : الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَهِيَ قَدْ وُجِدَتْ قَبْلَ عِيسَى فَكَيْفَ تَقُومُ بِهِ قَبْلَ وُجُودِهِ؟ ثمَّ قَالَ: إِنْ قَالَ نَزَّلَ الْكِتَابَ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ لِبَيَانِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ الْوَحْيَ وَشَرَّعَ

الشَّرِيعَةَ قَبْلَ وُجُودِ عِيسَى كَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَأَنْزَلَ عَلَى مَنْ بَعْدَهُ فَلَمْ يَكُنْ هُوَ الْمُنَزِّلَ لِلْكُتُبِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وإِنَّمَا كَانَ نَبِيًّا مِثْلَهُمْ،

وَقَوْلُهُ: **﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾** لِبَيَانِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَهَبَ الْعَقْلَ لِلْبَشَرِ لِيُفَرِّقُوا بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَعِيسَى لَمْ يَكُنْ وَاهِبًا لِلْعُقُولِ. وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ السَّائِلِينَ تَجَاوَزُوا حُدُودَ الْعَقْلِ. أَقُولُ: وَفِي هَذَا وَمَا قَبْلَهُ شَيْءٌ آخَرُ. وَهُوَ الْإِشْعَارُ بِأَنَّ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْكُتُبِ وَالْفُرْقَانِ يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ للهِ - تَعَالَى - وَتَنْزِيهِهِ عَنِ الْوَلَدِ وَالْحُلُولِ أَوِ الِاتِّحَادِ بِأَحَدٍ أَوْ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَوَادِثِ.

قَالَ وَقَوْلُهُ: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾** رَدٌّ لِاسْتِدْلَالِهِمْ عَلَى أُلُوهِيَّةِ عِيسَى بِإِخْبَارِهِ عَنْ بَعْضِ الْمُغَيَّبَاتِ، فَهُوَ يُثْبِتُ أَنَّ الْإِلَهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ فِي هَذَا الْعَالَمِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْعَوَالِمِ السَّمَاوِيَّةِ، وَعِيسَى لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ إِلَخْ رَدٌّ لِشُبْهَتِهِمْ فِي وِلَادَةِ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ، أَيِ الْوِلَادَةُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى أُلُوهِيَّةٍ، فَالْمَخْلُوقُ عَبْدٌ كَيْفَمَا خُلِقَ، وإِنَّمَا الْإِلَهُ هُوَ الْخَالِقُ **﴿الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** ، وَعِيسَى لَمْ يُصَوِّرْ أَحَدًا فِي رَحِمِ أُمِّهِ ؛ وَلِذَلِكَ صَرَّحَ بَعْدَ هَذَا بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ.

وَبِوَصْفِهِ تَعَالَى بِالْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ. أَقُولُ: وَلَا يَخْفَى مَا فِي ذِكْرِ الْأَرْحَامِ مِنَ التَّعْرِيضِ بِأَنَّ عِيسَى تَكَوَّنَ وَصُوِّرَ فِي الرَّحِمِ كَغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾** ، قَالَ الْأُسْتَاذُ: وَهَذَا رَدٌّ لِاسْتِدْلَالِهِمْ بِبَعْضِ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى تَمْيِيزِ عِيسَى عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ ؛ إِذْ وَرَدَ فِيهِ أَنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ".

وقال أحمد بن مصطفى المراغي(١٣٧١هـ) في"تفسير المراغي"(٣/٩٨) :**﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾** ، أي : هو الذي يجعلكم على صور مختلفة متغايرة وأنتم في الأرحام من النُّطف إلى العلق إلى المضغ، ومن ذكورة وأنوثة، ومن حسن وقبح إلى غير ذلك، وكلّ هذا على أتمّ ما يكون دقة ونظاماً، ومستحيل أن يكون هذا قد جاء من قبيل الاتّفاق والمصادفة، بل هو من صنع عليم خبير بالدّقائق".

وقال عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ) في"التَّفسير القرآني للقرآن" (٢/ ٣٩٨) :"وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾ يشير إلى ماالله سبحانه من شأن، في تقدير خلقنا، وتحديد أرزاقنا، وأوضاعنا في الحياة، حيث اختلفت صور النَّاس، وتباينت حظوظهم، حسب إرادة الله وتقديره.. فكلٌّ إنسان منا هو عالم مستقلّ بذأته، دائر في الفلك المقدور له".

وقال : محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي(١٣٩٣هـ) في"التَّحرير والتَّنوير" (٣/ ١٥١-١٥٢) :" ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ﴾ .

اسْتِئْنَافٌ ثَانٍ يُبَيِّنُ شَيْئًا مِنْ مَعْنَى الْقَيُّومِيَّةِ، فَهُوَ كَبَدَلِ الْبَعْضِ مِنَ الْكُلِّ، وَخُصَّ من بَين شؤون الْقَيُّومِيَّةِ تَصْوِيرُ الْبَشَرِ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْجَبِ مَظَاهِرِ الْقُدْرَةِ وَلِأَنَّ فِيهِ تَعْرِيضًا بِالرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى فِي اعْتِقَادهم إلاهية عِيسَى مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللهَّ صَوَّرَهُ بِكَيْفِيَّةٍ غَيْرِ مُعْتَادَةٍ ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْكَيْفِيَّاتِ الْعَارِضَةَ لِلْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا مِنْ صُنْعِ اللهَّ وَتَصْوِيرِهِ: سَوَاءٌ الْمُعْتَادُ، وَغَيْرُ الْمُعْتَادِ.

وكَيْفَ هُنَا لَيْسَ فِيهَا مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ، بَلْ هِيَ دَالَّة على مجّد مَعْنَى الْكَيْفِيَّةِ أَيِ الْحَالَةِ، فَهِيَ هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي أَصْلِهَا الْمَوْضُوعَةِ لَهُ فِي اللُّغَةِ إِذْ لَا رَيْبَ فِي أَنَّ (كَيْفَ) مُشْتَمِلَةٌ عَلَى حُرُوفِ مَادَّةِ الْكَيْفِيَّةِ، وَالتَّكَيُّفِ، وَهُوَ الْحَالَةُ وَالْهَيْئَةُ، وَإِنْ كَانَ الْأَكْثَرُ فِي الِاسْتِعْمَالِ أَنْ تَكُونَ اسْمَ اسْتِفْهَامٍ، وَلَيْسَتْ (كَيْفَ) فِعْلًا لِأَنَّهَا لَا دَلَالَةَ فِيهَا عَلَى الزَّمَانِ، وَلَا حَرْفًا لِاشْتِمَالِهَا عَلَى مَادَّةِ اشْتِقَاقٍ. وَقَدْ تَجِيءُ (كَيْفَ) اسْمَ شَرْطٍ إِذَا اتَّصَلَتْ بِهَا مَا الزَّائِدَةُ وَفِي كُلِّ ذَلِكَ لَا تُفَارِقُهَا الدَّلَالَةُ عَلَى الْحَالَةِ، وَلَا يُفَارِقُهَا إِيلَاءُ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ إِيَّاهَا إِلَّا مَا شَذَّ مِنْ قَوْلِهِمْ: كَيْفَ أَنْتَ. فَإِذَا كَانَتِ اسْتِفْهَامًا فَالْجُمْلَةُ بَعْدَهَا هِيَ الْمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ فَتَكُونُ مَعْمُولَةً لِلْفِعْلِ الَّذِي بَعْدَهَا، مُلْتَزَمًا تَقْدِيمُهَا عَلَيْهِ لِأَنَّ لِلِاسْتِفْهَامِ الصَّدَارَةَ، وَإِذَا جُرِّدَتْ عَنِ الِاسْتِفْهَامِ كَانَ مَوْقِعُهَا مِنَ الْإِعْرَابِ عَلَى حَسَبِ مَا يَطْلُبُهُ الْكَلَامُ الْوَاقِعَةُ هِيَ فِيهِ مِنَ الْعَوَامِلِ كَسَائِرِ الْأَسْمَاءِ.

وَأَمَّا الْجُمْلَةُ الَّتِي بَعْدَهَا- حِينَئِذٍ- فَالْأَظْهَرُ أَنْ تُعْتَبَرَ مُضَافًا إِلَيْهَا اسْمُ كَيْفَ وَيُعْتَبَرُ كَيْفَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُلَازِمَةِ لِلْإِضَافَةِ. وَجَرَى فِي كَلَامِ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ فَتْحَةَ (كَيْفَ) فَتْحَةَ بِنَاءٍ.

وَالْأَظْهَرُ عِنْدِي أَنَّ فَتْحَةَ كَيْفَ فَتْحَةُ نَصْبٍ لَزِمَتْهَا لِأَنَّهَا دَائِمًا مُتَّصِلَةٌ بِالْفِعْلِ فَهِيَ مَعْمُولَةٌ لَهُ عَلَى الْحَالِيَّةِ أَوْ نَحْوِهَا، فَلِمُلَازَمَةِ ذَلِكَ الْفَتْحِ إِيَّاهَا أَشْبَهَتْ فَتْحة الْبناء.

فَكيف فِي قَوْلِهِ هُنَا كَيْفَ يَشاءُ يُعْرَبُ مَفْعُولا مُطلقًا «ليصوّركم» ، إِذِ التَّقْدِيرُ: حَالُ تَصْوِيرٍ يَشَاؤُهَا كَمَا قَالَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ**﴾﴿الْفجْر: ٦﴾ .

وَجَوَّزَ صَاحِبُ «الْمُغْنِي» أَنْ تَكُونَ شَرْطِيَّةً، وَالْجَوَابُ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: ﴿**يُصَوِّرُكُمْ**﴾ عَلَيْهِ وَهُوَ بَعِيدٌ لِأَنَّهَا لَا تَأْتِي فِي الشَّرْطِ إِلّا مقترنة بِمَا. وأَمَّا قَوْلُ النَّاسِ: كَيْفَ شَاءَ فَعَلَ فَلَحْنٌ. وَكَذَلِكَ جَزْمُ الْفِعْلِ بَعْدَهَا قَدْ عُدَّ لَحْنًا عِنْدَ جُمْهُورِ أئمّة الْعَرَبِيَّة.

وذلّ تَعْرِيفُ الْجُزْأَيْنِ عَلَى قَصْرِ صِفَةِ التَّصْوِيرِ عَلَيْهِ تَعَالَى وَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ لِأَنَّهُ كَذَلِكَ فِي الْوَاقِعِ إِذْ هُوَ مُكَوِّنُ أَسْبَابِ ذَلِكَ التَّصْوِيرِ وَهَذَا إِيمَاءٌ إِلَى كشف شبة النَّصَارَى إِذْ تَوَهَّمُوا أَنَّ تَخَلُّقَ عِيسَى بِدُونِ مَاءِ أَبٍ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ بَشَرٍ وَأَنَّهُ إِلَهٌ وَجَهِلُوا أَنَّ التَّصْوِيرَ فِي الْأَرْحَامِ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ كَيْفِيَّاتُهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ خَلْقًا لِمَا كَانَ مَعْدُومًا فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ الْمُصَوَّرُ فِي الرَّحِمِ إِلَهًا".

وقال محمَّد متولِّي الشَّعراوي(١٤١٨هـ) في"تفسير الشَّعراوي(الخواطر)"(٢/ ١٢٦٩-١٢٧٣) :"والتَّصوير في الرَّحم هو إيجاد المادَّة التي سيوجد منها الإنسان على هيئة خاصَّة؛ هذه الهيئة تختلف نوعيَّتها: ذكورة وأنوثة. والذُّكورة والأنوثة تختلفان أشكالاً؛ بيضاء وسمراء وقمحيَّة وخمريَّة وقصيرة وطويلة، هذه الأشكال التي يوجد عليها الخلق والتي منها: ﴿**واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ**﴾﴿الروم: ٢٢﴾ .

هذا الاختلاف في الألوان والألسنة والأشياء المتعدِّدة يَدُلُّ على أنَّها ليست من إنتاج مصنع يصنع قالباً ثمَّ يشكل عليه، لا؛ فكلُّ إنسان يولد ويصنع بيد قديرة ، بقدرة ذاتيَّة.

إنَّ الصَّانع الآن إذا أرادت أن يصنع لك كوباً يصنع قالباً ويكرِّره، لكن في الخلق البشري كلّ واحد بقالبه الخاصّ، وكلّ واحد بشكله المخصوص، وكلّ واحد بصوته الذي ثبت أن له بصمة كبصمة اليد، وكلّ واحد بلون، إذن فهي من الآيات، وهذا دليل على طلاقة القدرة، وفوق كلّ هذا هو الخلق الذي لا يحتاج إلى عمليَّة علاج، معنى عمليَّة علاج أي يجعل قالباً واحدا ليصبّ فيه

مادَّته. لانَّه جلَّ شأنه يقول: ﴿**بَدِيعُ السماوات والأرض وَإِذَا قضى أَمْراً فإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾﴿البقرة: ١١٧﴾ .

إنَّ الأب والأم قد يتَّحدان في اللون ، ولكن الابن قد ينشأ بلون مختلف، ويخلق الله معظم النَّاس خلقاً سويَّاً، ويخلق قلَّة من النَّاس خلقاً غير سوي؛ فقد يولد طفل أعمى أو مصاب بعاهة ما أو بإصبع زائدة أو إصبعين. . وهذا الشُّذوذ أراده الله في الخلق ليلفتنا الحقّ إلى حسن وجمال خلقه. لأنَّ من يرى وهو السَّويّ إنساناً آخر معوَّقاً عن الحركة ، فإنَّه يحمد الله على كامل خلقه.

وحين يرى إنسان له في كلِّ يد خمس أصابع إنساناً آخر له إصبع زائدة يعوق حركة يده، يعْرف حكمة وجود الأصابع الخمس، فالجمال لا يثبت إلَّا بوجود القبح، وبضدَّها تتمايز الأشياء، الإنسان الذي له سبع أصابع في يد واحدة، يضع الطِّب أمام مهمَّة يجنِّد نفسه لها؛ حتَّى يستطيع الطَّبيب أن يستأصل الزَّائد عن حاجة الإنسان الطبيعي. ولو خلق الله الإنسان بثلاث أصابع لما استطاع ذلك الإنسان أن يتحكَّم عند استعماله الأشياء الدَّقيقة.

إنَّ الإنسان العادي في حركته اليوميَّة لا يدرك جمال استواء خلقه إلَّا إذا رأى فرداً من أفراد الشُّذوذ. والحقُّ يلفت النَّاس السَّاهين عن نعم الله عليهم لرتابتها فيهم بفقدها في غيرهم. فساعة أن يرى مبصرٌ مكفوفاً يسير بعكَّاز، يفطن إلى نعمة البصر التي وهبها له الله فيشعر بنعمة الله عليه. إنَّ الشُّذوذ في الخلق هو نماذج إيضاحيَّة تلفت النَّاس إلى نعم الله التي أنعم الله عليهم بها.

هذه المُثُل في الكون تلفت النَّاس إلى نعم الله فيهم، ولذلك تجدها أمامك، وأيضاً كي لا تستدرك على خالقك، ولا تقل ما ذنب هذا الإنسان أن يكون مخلوقاً هكذا؟ فهو سبحانه سيعوِّضه في ناحية أخرى؛ فقد يعطيه عبقريَّة تفوق إمكانات المبصر.

ونضرب هذا المثل ، ولله المثل الأعلى عن الذي ساح في الدُّنيا «تيمور لنك الأعرج» وهو القائد الذي أذهل الدُّنيا شجاعة، إنَّ الله قد أعطاه موهبة التَّخطيط والقتال تعويضاً له عن العرج. ونحن نجد العبقريَّات تتفجَّر في الشَّواذ غالباً، لماذا؟ لأنَّ الله يجعل للعاجز عجزاً معيَّناً همَّة تحاول أن

تعوِّض ما افتقده في شيء آخر، فيأتي النُّبوغ. إذن فـ **﴿هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَآءُ﴾** وكلُّ تصوير له حكمة. ومادام كلّ تصوير له حكمة فكلُّ خلق الله جميل.

عليك ألَّا تأخذ الخلق مفصولاً عن حكمة خالقه، بل خُذ كلَّ خلق مع حكمته. إنَّ الذي يجعلك تقول: هذا قبيح، إنَّك تفصل المخلوق عن حكمته، ومثال ذلك: التَّلميذ الذي يرسب قد يحزن والده، ولكن لماذا يأخذ الرُّسوب بعيداً عن حكمته؟ لقد رسب حتَّى يتعلَّم معنى الجديَّة في الاستذكار، فلو نجح مع لعبه ماذا سيحدث؟ كلُّ أقرانه الذين عرفوا أنَّه لعب ونجح سيلعبون ويقولون: هذا لعب ونجح. . إذن فلا بدَّ أن تأخذ كلّ عمل ومعه حكمة وجوده.

كذلك لا تأخذ العقوبة منفصلة عن الجريمة، فكلُّ عقوبة علينا أن نأخذها ملتصقة بجريمتها، فساعة ترى واحداً مثلاً سيحكمون عليه بالإعدام تأخذك الرَّحمة به وتحزن، هنا نقول لك: أنت فصلت إعدامه عن القتل الذي ارتكبه سابقاً، إنَّما لو استحضرت جريمته لوجدته يُقتَلُ عدالة وقصاصاً فقد قُتُل غيره ظلماً، فلا تبعد هذه عن هذه.

﴿هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَآءُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ﴾ ، ومعنى : **﴿لاَ إله إِلاَّ هُوَ﴾** ، أي : سيُصوِّر وهو عالم أنَّ ما يصوِّره سيكون على هذه الصُّورة؛ لأنَّه لا يوجد إله آخر يقول له: هذه لا تعجبني وسأصوِّر صورة أخرى، لا؛ لأنَّ الذي يفعل ذلك عزيز، أي لا يغلب على أمر، وكلّ ما يريده يحدث ، وكلّ أمر عنده لحكمة، لأنَّه عندما يقول: **﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام﴾** قد يقول أحد من النَّاس: إنَّ هناك صوراً شاذَّة وصوراً غير طبيعيَّة. وهو سبحانه يقول لك: أنا حكيم، وأفعلها لحكمة فلا تفصل الحدث عن حكمته، خذ الحدث بحكمته، وإذا أردت الحدث بحكمته تجده الجمال عينه، وهو سبحانه المصوِّر في الرَّحم كيف يشاء، هذا من ناحية مادتّه.

وهو سبحانه يوضح: فلن يترك المادَّة هكذا بل سيجعل لهذه المادَّة قيما كي تنسجم حركة الوجود مع بعضها يقول سبحانه: **﴿هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾** ...

إذن فبعدما صوَّرنا في الأرحام كيف يشاء على مُقتضى حكمته ، لن يترك الصُّور بدون منهج للقيم، بل صنع منهج القيم بأن أنزل القرآن وفيه منهج القيم، ولا بدَّ أن نأخذ الشذَيء بجوار الحكمة منه، وإذا أخذنا الشَّيء بجوار الحكمة منه يوجد كلّ أمر مستقيماً كله جميل وكلّه خير".

وقال محمَّد سيِّد طنطاوي في"التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم" (٢/ ٢٥-٢٦) :"وقوله **﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾** من التَّصوير ، وهو جعل الشَّيء على صورة لم يكن عليها. وهو مأخوذ من مادَّة: صار إلى كذا بمعنى تحوَّل إليه. أو من صاره إلى كذا بمعنى أماله وحوله.

والله تعالى القادر على كلِّ شيء قد حكى لنا أطوار خلق الإنسان في آيات متعدِّدة منها قوله تعالى : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾** .

والأرحام: جمع رحم، وهو مستودع النُّطفة في بطن المرأة، ومكان تربية الجنين ونموّه وتكوينه بالطَّريقة التي يشاؤها الله، حتَّى يبرزه إلى الوجود بشراً سويَّاً .

والمعنى: الله الذي لا إله إلَّا هو والذي هو الحيّ القيُّوم، هو الذي يصوِّركم في أرحام أمَّهاتكم كيف يشاء، بأن جعل بعضكم طويلاً وبعضكم قصيراً، وهذا أبيض وذاك أسود، وهذا ذكر وتلك أنثى، فهو وحده القادر على تصوير خلقه بتلك الصُّور المختلفة المتفاوتة، ومن كان شأنه كذلك فهو المستحقُّ للعبادة والخضوع، **﴿لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾** الذي يقهر كلَّ شيء بقوَّته وقدرته **﴿الْحَكِيمُ﴾** في كلِّ شئونه وتصرفاته.

وهذه الآية الكريمة في مقام التَّعليل للتي قبلها، لأنَّ قبلها بيَّنت أنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء، إذ هو العليم بما يسرُّه الإنسان من كفر أو إيمان أو غيرهما. وهذه الآية تفيد أنَّه- سبحانه- يعلم أحوال الإنسان لا بعد استوائه بشراً سويَّاً، بل يعلم أحواله وهو نطفة في الأرحام، بل إنَّه- سبحانه- ليعلم أحواله قبل أن يكون شيئاً مذكوراً، فهو- كما يقول القرطبي- العالم بما كان وما يكون وما لا يكون.

ومن كان ذلك شأنه فمن الواجب على الذين أوجدهم سبحانه في بطون أمَّهاتهم، وربَّاهم ورعاهم وخلقهم خلقاً من بعد خلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿**كَيْفَ يَشاءُ**﴾ إخبار منه سبحانه بأنَّ هذا التَّكوين والتَّصوير في الأرحام تبع لمشيئته وقدرته وليس خاضعاً لقانون الأسباب والمسبَّبات، إذ هو الفعَّال لما يريد.

فمن شاء هدايته هداه، ومن شاء إضلاله أضلَّه.

وكَيْفَ في موضع نصب على أنَّه حال، وناصبه الفعل الذي بعده وهو يَشاءُ ومفعول المشيئة محذوف ، والتَّقدير: هو الذي يصوِّركم في الأرحام كيف يشاء تصويركم، من ذكر وأنثى، وجميل ودميم، وغير ذلك من مظاهر التَّفاوت والاختلاف في الصُّور والأشكال والعقول والميول.

وقوله تعالى : ﴿**لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ تأكيد لما قبله، من انفراده بالألوهيَّة، وحقيقة المعبوديَّة، بعد أن أقام الأدلَّة السَّاطعة على ذلك من كونه حيَّاً قيُّوماً، منزلاً للكتب الهادية للنَّاس إلى الحقِّ عالماً بكلِّ شيء، مصوِّراً لخلقه وهم في أرحام أمَّهاتهم كيف يشاء..

وكلُّ ذي عقل سليم يتدبَّر هذه الآيات الكريمة، يقبل على الإيمان بالحقِّ بقوَّة وإخلاص، ويسارع إلى العمل الصَّالح بقلب منيب ونيَّة صادقة".

الفَصْلُ الرَّابِعُ

خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ فِي أَعْدَلِ خَلْقٍ وَأَحْسَنِ صُورَةٍ

الإنسان آية من آيات الله تعالى ، خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه، وكرَّمه بأمر الملائكة بالسُّجود له ، وهو مخلوق لم يُحِط العلماءُ إلَّا بالنَّزر اليسير من خفايا خلقه العظيمة ، تلكم الخفايا التي ينكشف الكثير من أسرارها لأهل العلم في كلِّ يوم الكثير ...

لقد أخبرنا القرآن العظيم أنَّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن وأعدل وأفضل تقويم ، قال تعالى : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، ولم تستعمل كلمة التَّصوير في القرآن الكريم في حقِّ أيٍّ من المخلوقات سوى الإنسان ...

وقال تعالى ملفتاً الأنظار إلى جمال خلق الله للإنسان : **﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾** . قال ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم"(٨/ ٣٤٢) :" أيْ: جَعَلَكَ سَوِيًّا مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ مُنْتَصِبَهَا، فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ وَالْأَشْكَالِ" .

والتَّسوية: الوصول بالشَّيء إلى مرحلة الكمال والجمال ، ومنه قوله تعالى: **﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾** ، أي : أكملت خلقه.

قال سيِّد قطب في "في ظلال القرآن"(٥/ ٣٠٩٣) : "فأمَّا الإنسان ذاته فمن حسن صورته : هذه الهيئة المنفردة بين سائر الأحياء ؛ وهذا الاكتمال من ناحية الأجهزة لأداء وظائفه جميعها في يسر ودقَّة ، وهذا التَّوافق بين تكوينه والظُّروف الكونيَّة العامَّة التي تسمح له بالوجود والحركة في هذا الوسط الكوني كما هو كائن ؛ وذلك كلّه فوق خاصيَّته الكبرى التي جعلت منه خليفة في الأرض ، مجهَّزاً بأداة الخلافة الأولى : العقل والاتِّصال الرُّوحي بما وراء الأشكال والأعراض .

ولو رحنا نبحث دقَّة التَّكوين الإنساني وتناسق أجزائه ووظائفه – بوصفها داخلة في قوله تعالى : **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** – لوقفنا أمام كلّ عضو صغير ، بل أمام كلّ خليَّة مفردة ، في هذا الكيان الدَّقيق العجيب .

ونضرب مثلاً لهذه الدقَّة العجيبة : فكّ الإنسان ووضع الأسنان فيه من النَّاحية الآليَّة البحتة . إنَّ هذا الفكّ من الدقَّة بحيث إنَّ بروز واحد على عشرة من المليمتر في اللثَّة أو في اللسان ، يزحم اللثَّة واللسان ، وبروز مثل هذا الحجم في ضرس أو في سنٍّ يجعله يصطكُّ بما يقابله ويحتكّ ! ووجود ورقة كورقة السِّيجارة بين الفكَّين العلوي والسُّفلي يجعلها تتأثَّر بضغط الفكَّين عليها ، فتظهر فيها علامات الضَّغط ، لأنَّها من الدقَّة بحيث يلتقيان تماماً ليمضغ الفكّ ويطحن ما هو في سمك ورقة السِّيجارة !

ثمَّ .. إنَّ هذا الإنسان بتكوينه هذا مجهَّز ليعيش في هذا الكون .. عينه هذه مقيسة على الذَّبذبات الضُّوئيَّة التي تقتضي وظيفته في الأرض أن يراها ، وأذنه تلك مقيسة على الذَّبذبات الصَّوتيَّة التي تقتضي وظيفته في الأرض أن يسمعها ، وكلُّ حاسَّة فيه أو جارحة مصمَّمة وفق الوسط المهيَّأ لحياته ، ومجهَّزة كذلك بالقدرة على التَّكيُّف المحدود عند تغيُّر بعض الظُّروف .

إنَّه مخلوق لهذا الوسط ، ليعيش فيه ، ويتأثَّر به ، ويؤثِّر فيه . وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط وتكوين هذا الإنسان ، وتصوير الإنسان على هذه الصُّورة ذو علاقة بوسطه ، أي بالأرض والسَّماء . ومن ثمَّ يذكر القرآن صورته في نفس الآية التي يذكر فيها الأرض والسَّماء .. ألا إنَّه الإعجاز في هذا القرآن .. وتكفي هذه الإشارات بهذا الاختصار إلى دقَّة صنع الله وتناسقه بين الكون والإنسان" .

وفي تفسيرهم لقول الله تعالى : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ بيَّن العلماء مدى دقَّة التَّناسق بين أجزاء جسم الإنسان المختلفة ، كما بيَّنوا ما في جسم الإنسان من عجائب الخلق والتَّكوين ، وأنَّه مخلوق سوي الخلقة ، لا نقص فيه ولا خلل ، ولذلك دعا الله الإنسان كي يتفكَّر في نفسه ، قال تعالى : ﴿**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾﴿الذاريات:٢١﴾ ، وما ذلك إلَّا لإيقاظ الحسِّ وتحفيز المشاعر والتَّفكُّر في عظيم الخلق المُتقن في أجمل الأشكال وأحسن الهيئات ...

ومن أقوال أهل العلم في ذلك :

قال الطَّبري(٣١٠هـ) في"جامع البيان في تأويل القرآن"(٢٣/٦) :" الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾** ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: خَلَقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، **﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾**﴿غافر: ٦٤﴾ ، يَقُولُ: وَمَثَّلَكُمْ فَأَحْسَنَ مَثَلَكُمْ، وَقِيلَ: إِنَّهُ عَنَى بِذَلِكَ تَصْوِيرَهُ آدَمَ، وَخَلْقَهُ إِيَّاهُ بِيَدِهِ .

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: ثني أَبِي، قَالَ: ثني عَمِّي، قَالَ: ثني أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، **﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** ، يَعْنِي آدَمَ خَلَقَهُ بِيَدِهِ".

وقال الزجَّاج(٣١١هـ) في"معاني القرآن وإعرابه"(٥/ ١٨٠) :" ومعنى**﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم﴾** خلقكم أحسن الحَيَوَانِ كلِّه.

والدَّليل على ذلك : أنَّ الإنسان لا يُسَرُّ بأن يكون صورته على غير صورة الآدميِّين، فالإنسان أحسن الحيوان.

وقيل أيضاً : **﴿فأَحْسَنَ صُوَرَكُم﴾** : من أَرَادَ اللهَّ أَن يكون أبيض كان أبيض، ومن أراد أنْ يكون أَسودَ كان أَسْوَدَ ، ومن أَراد أَن يكون دَمِيماً كان دَمِيماً أَو تامَّاً كان تامًّا.

فأحسن ذلك عزَّ وجلَّ وأَتى من كلِّ صورةٍ بكل صنف على إرادته".

وقال محمَّد بن الحسين النَّيسابوري السُّلمي(٤١٢هـ) في"تفسير السُّلمي وهو حقائق التَّفسير "(٢/ ٣٣٠) :" قال الحسين : أحسن الصُّورة صورة اعتقت من ذلِّ كن ، وتولَّى الحقُّ تصويرها بيده ، ونفخ فيه من روحه ، والبسه شواهد النَّعت وحلَّاه بالتَّعليم شفاهاً ، وأسجد له الملائكة المقرَّبين ، وأسكنه في المجاورة ، وزيَّن باطنه بالمعرفة ، وظاهرة بفنون الخدمة . قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم : "أنَّ الله خلق آدم على صورته" ، أي : صورته التي صوَّره عليها ، فأحسن صورته".

وقال أبو محمَّد مكي بن أبي طالب المالكي(٤٣٧هـ) في"الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه"(١٠/ ٦٤٥٤) : **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** ، أي: وخلقكم فأحسن خلقكم".

وقال عبد الكريم القشيري(٤٦٥هـ) في"لطائف الإشارات"(٣/ ٣١٤) : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ : خلق العرش والكرسيّ والسّماوات والأرضين وجميع المخلوقات ولم يقل هذا الخطاب، وإنّما قال لنا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ ، وليس الحسن ما يستحسنه النَّاس بل الحسن ما يستحسنه الحبيب:

ما حطَّك الواشون عن رتبة   عندي ولا ضرَّك مغتاب" .

وقال أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري الشَّافعي(٤٦٨هـ) في"الوسيط في تفسير القرآن المجيد"(٤/ ٢٠) : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾﴿غافر: ٦٤﴾ قال مقاتل: خلقكم فأحسن خلقكم.

وقال ابن عبَّاس: خلق ابن آدم قائماً معتدلاً، يأكل بيده ويتناول بيده، وكلّ ما خلق الله يتناول بفيه.

وقال الزجَّاج: خلقكم أحسن الحيوان كلّه".

وقال البغوي الشَّافعي(٥١٠هـ) في"معالم التَّنزيل في تفسير القرآن"(٤/ ١٢٢) : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: خَلَقَكُمْ فَأَحْسَنَ خَلْقَكُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خُلِقَ ابْنُ آدَمَ قَائِمًا مُعْتَدِلًا يَأْكُلُ وَيَتَنَاوَلُ بِيَدِهِ، وَغَيْرُ ابْنِ آدَمَ يَتَنَاوَلُ بِفِيهِ".

وقال الزَّمخشري في"الكشَّاف عن حقائق التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل"(٤/ ١٨١) :" ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (وقرىء : بكسر الصَّاد ، والمعنى واحد . قيل : لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان . وقيل : لم يخلقهم منكوسين كالبهائم ، كقوله تعالى : ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ".

وقال الرَّازي(٦٠٦هـ) في"مفاتيح الغيب"(٣٠/ ٥٥٢-٥٥٣) :" وَقَوْلُهُ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا: أَحْسَنَ ، أَيْ : أَتْقَنَ وَأَحْكَمَ عَلَى وَجْهٍ لَا يُوجَدُ بِذَلِكَ الْوَجْهِ فِي الْغَيْرِ، وَكَيْفَ يُوجَدُ وَقَدْ وُجِدَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْقُوَى الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهَّ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ دَلَالَةً مَخْصُوصَةً لِحُسْنِ هَذِهِ الصُّورَة .

وَثَانِيهِمَا: أَنْ نَصْرِفَ الْحُسْنَ إِلَى حُسْنِ الْمَنْظَرِ، فَإِنَّ مَنْ نَظَرَ فِي قَدِّ الْإِنْسَانِ وَقَامَتِهِ وَبِالنِّسْبَةِ بَيْنَ أَعْضَائِهِ فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ صُورَتَهُ أَحْسَنُ صُورَةٍ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾** ، أَي : الْبَعْثُ ، وإنَّما أَضافَهُ إِلَى نَفْسِهِ لِأَنَّهُ هُوَ النِّهَايَةُ فِي خَلْقِهِمْ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ، ثمَّ قَالَ: تَعَالَى: **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ خَلْقِ الشَّيْءِ أَنْ يَكُونَ مُصَوَّرًا بِالصُّورَةِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الصُّورة أَنْ تَكُونَ عَلَى أَحْسَنِ الصُّوَرِ، ثمَّ قَالَ: **﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾** ، أَي : الْمَرْجِعُ ، لَيْسَ إِلَّا لَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾** نبَّه بعلمه ما في السَّموات وَالْأَرْضِ، ثمَّ بِعِلْمِهِ مَا يُسِرُّهُ الْعِبادُ وَمَا يُعْلِنُونَهُ، ثمَّ بِعِلْمِهِ مَا فِي الصُّدُورِ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ لِمَا أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ الْبَتَّةَ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَفِي الْآيَةِ مَبَاحِثُ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى حَكِيمٌ، وَقَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ إِذَا خَلَقَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا إِلَّا الْكُفْرَ، وَالْإِصْرَارَ عَلَيْهِ فَأَيُّ حِكْمَةٍ دَعَتْهُ إِلَى خَلْقِهِمْ؟ نَقُولُ: إِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ تَعَالَى حَكِيمٌ، عَلِمْنَا أَنَّ أَفْعَالَهُ كُلَّهَا عَلَى وَفْقِ الْحِكْمَةِ، وَخَلْقُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ فِعْلُهُ، فَيَكُونُ عَلَى وَفْقِ الْحِكْمَةِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ عِلْمِنَا بِذَلِكَ أَنْ لَا يَكُونَ كَذَلِكَ بَلِ اللَّازِمُ أَنْ يَكُونَ خَلْقَهُمْ عَلَى وَفْقِ الْحِكْمَةِ.

الثَّانِي: قَالَ: وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَقَدْ كَانَ مِنْ أَفْرَادِ هَذَا النَّوْعِ مَنْ كَانَ مُشَوَّهَ الصُّورة سَمِجَ الْخِلْقَةِ؟ نَقُولُ: لَا سَمَاجَةَ ثَمَّةَ لَكِنَّ الْحُسْنَ كَغَيْرِهِ مِنَ الْمَعَانِي عَلَى طَبَقَاتٍ ومراتب فلانحطاط بَعْضِ الصُّوَرِ عَنْ مَرَاتِبِ مَا فَوْقَهَا انْحِطَاطًا بَيِّنًا لَا يَظْهَرُ حُسْنُهُ، وَإِلَّا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي حَيِّزِ الْحُسْنِ غَيْرُ خَارِجٍ عَنْ حَدِّهِ".

وقال ناصر الدِّين البيضاوي(٦٨٥هـ) في"أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل"(٥/ ٦٢) : **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** بأن خلقكم : منتصب القامة ، بادي البشرة ، متناسب الأعضاء، والتَّخطيطات ، متهيِّأً لمزاولة الصَّنائع واكتساب الكمالات".

وقال ابن جزي الكلبي الغرناطي(٧٤١هـ) في"التَّسهيل لعلوم التَّنزيل"(٢/ ٣٨٠) : **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** تعديد نعمه في حسن خلقة بني آدم ، لأنَّهم أحسن صورة من جميع أنواع الحيوان

، وإن وجد بعض النَّاس قبيح المنظر، فلا يخرجه ذلك عن حسن الصُّورة الإنسانيَّة، وإنَّما هو قبيح بالنَّظر إلى من هو أحسن منه من النَّاس.

وقيل: يعني العقل والإدراك الذي خصّ به الإنسان. والأوَّل أرجح ، لأنَّ الصُّورة إنَّما تطلق على الشَّكل".

وقال الخازن في"لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل"(٦/ ١٠٢) : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ ، أي : خلقكم فأحسن خلقكم . قال ابن عبَّاس : خلق ابن آدم قائماً معتدلاً ، يأكل ويتناول بيده ، وغير ابن آدم يتناول بفيه) ﴿**وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ**﴾ قيل : هو ما خلق الله تعالى لعباده من المأكل والمشرب من غير رزق الدَّواب".

وقال ابن كثير(٧٧٤هـ) في"تفسير القرآن العظيم"(٧/ ١٥٦) : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ ، أَيْ: فَخَلَقَكُمْ فِي أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ، وَمَنَحَكُمْ أَكْمَلَ الصُّوَرِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ".

وقال ابن عادل الحنبلي(٧٧٥هـ) في"اللباب في علوم الكتاب"(١٧/ ٧٩) :" قوله: ﴿**فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ قرأ أبو رَزِين والأعْمَشُ : صِوَركُمْ بكسر الصَّاد فراراً من الضمَّة قبل الواو. وقرأت فِرْقَةٌ بضم الصَّاد وسكون الواو، وجعلوه اسم جنس لصُورَةٍ، كبُسْر وبُسْرَةٍ.

قال مقاتل: خلقكم فأحسن خَلْقكم. قال ابن عبَّاس رَضِي اللهُ عَنْهُمَا : خُلِقَ ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده، وغَيْرُ بن آدم يتناول بفيه".

وقال الثَّعالبي(٨٧٥هـ) في"الجواهر الحسان في تفسير القرآن"(٥/ ٤٣٨) :" وقوله تعالى: ﴿**فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ هو تعديدُ نِعَمٍ، والمرادُ الصُّورة الظاهرة، وقيل: المرادُ صورةُ الإنسانِ المعنويَّةِ من حيثُ هو إنسانٌ مُدْرِكٌ عاقلٌ، والأولُ أجْرَى على لغةِ العرب".

وقال الإِيجي(٩٠٥هـ) في"تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن"(٤/ ٢٦) : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ : خلقكم في أحسن صورة، فإحسان الصُّورة بعد التَّصوير بحسب الاعتبار، وإن لم يكن تعدّد بحسب الوجود".

وقال أبو السُّعود العمادي(٩٨٢هـ) في"إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم"(٧/ ٢٨٢) :" وقولُه تعالَى : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ بيانٌ لفضلِه المتعلِّقِ بأنفسِهم ، والفاءُ في ﴿**فَأَحْسَنَ**﴾ تفسيريَّة ، فإنَّ الإحسانَ عينُ التَّصويرِ ، أي : صوَّركُم أحسنَ تصويرٍ حيث خلقكم : منتصب القامةِ ، باديَ البَشَرةِ ، متناسبَ الأعضاء والتَّخطيطات ، متهيئاً لمزاولةِ الصَّنائعِ واكتسابِ الكمالاتِ".

وقال أبو العبَّاس أحمد بن محمَّد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي(١٢٢٤هـ) في"البحر المديد في تفسير القرآن المجيد"(٥/ ١٤٨) : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ ، هذا بيان لفضله المتعلِّق بالأجسام، أي: صوَّركم أحسن تصوير، حيث جعلكم مُنتصِبَ القامة، باديَ البشرة، متناسب الأعضاء والتَّخطيطات، متهيئاً لمناولة الصَّنائع واكتساب الكمالات.

قيل: لمْ يخلق الله حيواناً أحسن صورة من الإنسان. ﴿**وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ**﴾ ، أي: اللذائذ، ﴿**ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ربُّكم**﴾ ، أي: ذلكم المنعوت بتلك النُّعوت الجليلة".

وقال الشَّوكاني(١٢٥٠هـ) في"فتح القدير"(٤/ ٥٧١) : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ ، أَيْ: خَلَقَكُمْ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ. قَالَ الزَّجَّاجُ: خَلَقَكُمْ أَحْسَنَ الحيوان كله".

وقال الألوسي(١٢٧٠هـ) في"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني"(١٢/ ٣٣٥) :" وقوله سبحانه: ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ بيان لفضله تعالى المتعلِّق بأنفسهم، والفاء في ﴿**فَأَحْسَنَ**﴾ تفسيريَّة ، فالمراد : صوَّركم أحسن تصوير ، حيث خلق كلَّاً منكم : منتصب القامة ، بادي البشرة ، متناسب الأعضاء والتَّخطيطات ، متهيِّئ لمزاولة الصَّنائع واكتساب الكمالات".

وقال القاسمي(١٣٣٢هـ) في"محاسن التَّأويل"(٨/ ٣١٨) : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ ، أي : يجعل كلَّ عضو في مكان يليق به، ليتمّ الانتفاع بها، فتستدلُّوا بذلك على كمال حكمته".

وقال أحمد بن مصطفى المراغي(١٣٧١هـ) في"تفسير المراغي"(٢٤/ ٩٠) : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ**﴾ ، أي : وخلقكم فأحسن خلقكم، إذ خلق كلَّاً منكم : منتصب

القامة، بادي البشرة، متناسب الأعضاء، مهيأ لمزاولة الصَّناعات، واكتساب الكمالات، ورزقكم من طيِّبات المطاعم والمشارب".

وقال محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي(١٣٩٣هـ) في"التَّحرير والتَّنوير"(٢٤/ ١٩٠-١٩١) :" لَا جَرَمَ أَنَّ حِكْمَةَ اللهَّ تَعَالَى الَّتِي تَعَلَّقَتْ بِإِيجَادِ مَا يَحُفُّ بِالْإِنْسَانِ مِنَ الْعَوَالِمِ عَلَى كَيْفِيَّاتٍ مُلَائِمَةٍ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَرَاحَتِهِ قَدْ تَعَلَّقَتْ بِإِيجَادِ الْإِنْسَانِ فِي ذَاتِهِ عَلَى كَيْفِيَّةٍ مُلَائِمَةٍ لَهُ مُدَّةَ بَقَاءِ نَوْعِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَتَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ ، وَلِذَلِكَ أَعْقَبَ التَّذْكِيرَ بِمَا مَهَّدَ لَهُ مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، بِالتَّذْكِيرِ بِأَنَّهُ خلقه خلقا مُسْتَوْفِيًا مَصْلَحَتَهُ وَرَاحَتَهُ.

وَعَبَّرَ عَنْ هَذَا الْخَلْقِ بِفِعْلِ صَوَّرَكُمْ لِأَنَّ التَّصْوِيرَ خَلْقٌ عَلَى صُورَةٍ مُرَادَةٍ تُشْعِرُ بِالْعِنَايَةِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾**﴿الْأَعْرَاف: ١١﴾ فَاقْتَضَى حُسْنَ الصُّوَرِ فَلِذَلِكَ عَدَلَ فِي جَانِبِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ عَنْ فِعْلِ الْجَعْلِ إِلَى فِعْلِ التَّصْوِيرِ بِقَوْلِهِ:وَصَوَّرَكُمْ فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾**﴿الانفطار: ٧- ٨﴾ ثمَّ صَرَّحَ بِمَا اقْتَضَاهُ فِعْلُ التَّصْوِيرِ مِنَ الْإِتْقَانِ وَالتَّحْسِينِ بِقَوْلِهِ: **﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** .

وَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: **﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** عَاطِفَةٌ جُمْلَةً عَلَى جُمْلَةٍ وَدَالَّةٌ عَلَى التَّعْقِيبِ ، أَيْ : أَوْجَدَ صُورَةَ الْإِنْسَانِ فَجَاءَتْ حَسَنَةً".

ومن الآيات القرآنيَّة التي أبانت عن الجمال والجلال في خلق الله تعالى للإنسان قوله تعالى : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، حيث اجتمعت كلمة أهل العلم على أنَّه تعالى ما خلق خلقاً أحسن ولا أجمل من الإنسان ...

ومن أقوال أهل العلم في تفسير الآية :

قال الطَّبري في"جامع البيان عن تأويل آي القرآن"(٢٤/ ٥١٠-٥١٢) :" اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾**﴿التين: ٤﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: فِي أَعْدَلِ خَلْقٍ، وَأَحْسَنِ صُورَةٍ .

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: ثنا حَكَّامٌ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي رَزِينٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾﴿التين: ٤﴾ قَالَ: فِي أَعْدَلِ خَلْقٍ .

حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: ثنا مُؤَمَّلٌ، قَالَ: ثنا سُفْيَانُ، عَنْ حَمَّادٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾﴿التين: ٤﴾ قَالَ: «فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ» ، قَالَ: ثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: ثنا سُفْيَانُ، عَنْ حَمَّادٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، مِثْلَهُ .

حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: ثنا مِهْرَانُ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ حَمَّادٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾﴿التين: ٤﴾ قَالَ: خَلْقٍ .

حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: ثنا وَكِيعٌ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ حَمَّادٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾﴿التين: ٤﴾ قَالَ: «فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ» .

حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: ثنا مُؤَمَّلٌ، قَالَ: ثنا سُفْيَانُ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾﴿التين: ٤﴾ : «فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ» .

حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: ثنا وَكِيعٌ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾﴿التين: ٤﴾ قَالَ: «أَحْسَنِ خَلْقٍ» .

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: ثنا أَبُو عَاصِمٍ، قَالَ: ثنا عِيسَى؛ وَحَدَّثَنِي الْحَارِثُ، قَالَ: ثنا الْحَسَنُ، قَالَ: ثنا وَرْقَاءُ، جَمِيعًا عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَوْلُهُ : ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾﴿التين: ٤﴾ قَالَ: «فِي أَحْسَنِ خَلْقٍ» .

حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثنا يَزِيدُ، قَالَ: ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾﴿التين: ٤﴾ يَقُولُ: «فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ» .

حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، قَالَ: ثنا ابْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، هُوَ وَالْكَلْبِيُّ ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾﴿التين: ٤﴾ قَالَا: «فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ» ... وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ﴾﴿التين: ٤﴾ صُورَةٍ وَأَعْدَلِهَا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾﴿التين: ٤﴾ إِنَّمَا هُوَ نَعْتٌ لِمَحْذُوفٍ، وَهُوَ فِي تَقْوِيمِ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: لَقَدْ خَلَقْنَاهُ فِي تَقْوِيمِ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" .

وقال الزجَّاج(٣١١هـ) في"معاني القرآن وإعرابه"(٥/ ٣٤٣) :"أي : في أَحْسَنِ صُورَةٍ" .

وقال أبو الليث السَّمرقندي(٣٧٣هـ) في"بحر العلوم"(٢/ ٥٩٥) :"يعني: في أحسن صورة، لأنَّه يمشي مستوياً، وليس منكوساً، وله لسان ذلق، ويد وأصابع يقبض بها" .

وقال أبو العبَّاس البسيلي التُّونسي(٨٣٠هـ) في"نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد"(٣/ ٦٣٤-٦٣٦) :"وقوله تعالى : ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ : بن العربي:"أخبرنا المبارك بن عبد الجبَّار الأزدي، أخبرنا القاضي أبو القاسم على بن أبي علي -القاضي المحسّن- عن أبيه ، قال: كان عيسى بن موسى الهاشمي يحبُّ زوجتَه حبًّا شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالقٌ ثلاثاً إن لم تكوني أحسنَ من القمر. فنهضت واحتَجَبَتْ عنه، وقالت له: طلقتَني؛ وبات بلَيْلَة عظيمة، فلمَّا أصبح غدا إلى دار المنصور فأخبرَه، وقال يا أمير المومنينَ: إنْ تَمَّ عليَّ طلاقُها تَلفَتْ نفسي جَزَعاً، وكان الموتُ أحبَّ إليَّ من الحياة. وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً، فاستحضر الفقهاء واستَفْتاهم، فقال جميعُ من حضر: قد طلِّقت، إلَّا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنَّه كان ساكتاً، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلَّم؟. فقال الرَّجل: بسم الله الرَّحْمَن الرَّحيم ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ* وَطُورِ سِينِينَ* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ* لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ . يَا أمير المومنين: فالإنسان أَحسنُ الأشياء، ولا شيءَ أحسنُ منه. فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال، فأقْبِلْ على زوجك؛ فأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجه أنْ أطيعي زوجَكِ ولا تَعْصيه(فَمَا طَلَّقَك). فهذا يدلُّ أنَّ الانسانَ أحسنُ خَلْقِ(اللهِّ باطناً) وهوَ أحسن خَلَق(اللهَ ظاهراً)" .

وقال محمَّد السُّلمي(٤١٢هـ) في"تفسير السُّلمي وهو حقائق التَّفسير"(٢/ ٤٠٦) :"قوله تعالى : ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ . قال جعفر : أحسن صوره ، وقال بعضهم : أحسن مثال ، وقال ابن عطاء : في أتمِّ معرفة ، وقال بعضهم : التَّقويم كمال السِّر عند جريان الخواطر، وقال بعضهم : أحسن التَّقويم وصف قائم بالحقِّ لا عبادة عنه ، وكلُّ عبادة عن تمام تقويمه من تفسيره وليس بنهاية العبادة عنه لفظ ، وقال أبو بكر بن طاهر : مزيَّناً بالعقل ، مؤيّداً بالأمر ، مهديَّاً بالتَّمييز ، مديد القامة ، يتناول مأكوله بيده" .

وقال الثَّعلبي(٤٢٧هـ) في"الكشف والبيان عن تفسير القرآن"(١٠/ ٢٤٠) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** أعدل قامة وأحسن صورة، وذلك أنَّه خلق كلَّ شيء منكبَّاً على وجهه إلَّا الإنسان. وقال أبو بكر بن ظاهر: مزيَّناً بالعقل، مؤدَّباً بالأمر، مهذَّباً بالتَّمييز، مديد القامة، يتناول مأكوله بيده" .

وقال مكِّي بن أبي طالب المالكي(٤٣٧هـ) في"الهداية إلى بلوغ النِّهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه"(١٢/ ٨٣٤٢) :" ...والمعنى: لقد خلقنا الإنسان في أعدل خلق وأحسن صورة ، وقيل: معناه: بلغنا به بعد خلقه استواء شبابه وقوته ، وذلك أحسن ما يكون، وأعدل ما يكون، وأقوى ما يكون ... وقيل: يعني: بالإنسان(ها) هنا(آدم) في أحسن صورة" .

وقال الماوردي(٤٥٠هـ) في"النُّكت والعيون"(٦/ ٣٠٢) :" وفي قوله : **﴿فِي أَحْسَنِ تقْويمٍ﴾** أربعة أقاويل:

أَحَدُهَا: في أعدل خلق، قاله ابن عبَّاس.

الثَّانِي: في أحسن صورة، قاله أبو العالية.

الثَّالِثُ: في شباب وقوَّة ، قاله عكرمة.

الرَّابِعُ: منتصب القامة ، لأنَّ سائر الحيوان مُنْكَبٌّ غير الإنسان ، فإنَّه منتصب ، وهو مروي عن ابن عبَّاس.

وَيَحْتَمِل خَامِساً: أي في أكمل عقل ، لأنَّ تقويم الإنسان بعقله" .

وقال عبد الكريم القشيري(٤٦٥هـ) في"لطائف الإشارات"(٣/ ٧٤٦) :"قوله جلَّ ذكره: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** في اعتدال قامته، وحسن تركيب أعضائه.

وهذا يدلُّ على أنَّ الحقّ- سبحانه- ليس له صورة ولا هيئة ، لأنَّ كلّ صفة اشترك فيها الخلق والحقّ فالمبالغة للحقّ ... كالعلم، فالأعلم الله، والقدرة: فالأقدر الله ، فلو اشترك الخلق والخالق في

التَّركيب والصُّورة لكان الأحسن في الصُّورة الله ... فلمَّا قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ علم أنَّ الحقَّ– سبحانه– منزَّه عن التَّقويم وعن الصُّورة" .

وقال أبو المظفَّر، منصور بن محمَّد بن عبد الجبَّار ابن أحمد المروزى السَّمعاني التَّميمي الحنفي ثمَّ الشَّافعي(٤٨٩هـ) في"تفسير القرآن"(٦/ ٢٥٣) :" وَقَوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هُوَ جَوَاب الْقسم.

قَالَ مُجَاهِد وَإِبْرَاهِيم وَجَمَاعَة: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم﴾ أَي: فِي أحسن صُورَة ، وَقيل: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم﴾ : هُوَ اعتداله واستواؤه" .

وقال البغوي(٥١٠هـ) في"معالم التَّنزيل في تفسير القرآن"(٥/ ٢٧٧) : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ، أَعْدَلِ قَامَةٍ وَأَحْسَنِ صُورَةٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَلَقَ كُلَّ حَيَوَانٍ مُنْكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ إِلَّا الْإِنْسَانَ خَلَقَهُ مَدِيدَ الْقَامَةِ يَتَنَاوَلُ مَأْكُولَهُ بِيَدِهِ مُزَيَّنًا بِالْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ" .

وقال الزَّمخشري(٥٣٨هـ) في" الكشَّاف عن حقائق التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل "(٤/ ٧٧٩) : ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية لأعضائه . ثمَّ كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السَّويَّة : أن رددناه أسفل من سفل خلقاً وتركيباً ، يعني : أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقة ، وهم أصحاب النَّار أو أسفل من سفل من أهل الدَّركات . أو ثمَّ رددناه بعد ذلك التَّقويم والتَّحسين أسفل من سفل في حسن الصُّورة والشَّكل : حيث نكسناه في خلقه ، فقوّس ظهره بعد اعتداله ، وابيض شعره بعد سواده ، وتشنن جلده وكان بضاً وكلَّ سمعه وبصره وكانا حديدين ، وتغيَّر كلُّ شيء منه : فمشيه دليف ، وصوته خفات ، وقوته ضعف ، وشهامته خرف" .

وقال ابن الجوزي(٥٩٧هـ) في"زاد المسير في علم التَّفسير"(٤/ ٤٦٤) :" قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فيه أربعة أقوال:

أَحَدُهَا: في أعدل خلق.

وَالثَّانِي: منتصب القامة، رويا عن ابن عبَّاس.

وَالثَّالِثُ: في أحسن صورة، قاله أبو العالية.

وَالرَّابِعُ: في شباب وقوَّة، قاله عكرمة" .

وقال الرَّازي(٦٠٦هـ) في"مفاتيح الغيب"(٣٢/ ٢١٢) :" المُرَادُ من الإنسان : هذه الماهيَّة والتَّقويم تصيير الشَّيْءِ عَلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي التَّأْلِيفِ وَالتَّعْدِيلِ، يُقَالُ: قَوَّمْتُهُ تَقْوِيمًا فَاسْتَقَامَ وَتَقَوَّمَ، وَذَكَرُوا فِي شَرْحِ ذَلِكَ الْحُسْنِ وُجُوهًا :

أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى خلَقَ كُلَّ ذِي رُوحٍ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ إِلَّا الْإِنْسَانَ فَإِنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهُ مَدِيدَ الْقَامَةِ يَتَنَاوَلُ مَأْكُولَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ الْأَصَمُّ: فِي أَكْمَلِ عَقْلٍ وَفَهْمٍ وَأَدَبٍ وَعِلْمٍ وَبَيَانٍ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ رَاجِعٌ إِلَى الصُّورة الظَّاهِرَةِ ، وَالثَّانِي إِلَى السِّيرَةِ الْبَاطِنَةِ، وَعَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ الْقَاضِي أَنَّهُ فَسَّرَ التَّقْوِيمَ بِحُسْنِ الصُّورَةِ، فَإِنَّهُ حَكَى أَنَّ مَلِكَ زَمَانِهِ خَلَا بِزَوْجَتِهِ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، فَقَالَ: إِنْ لَمْ تكُونِي أَحْسَنَ مِنَ الْقَمَرِ فَأَنْتِ كَذَا، فَأَفْتَى الْكُلُّ بِالْحِنْثِ إِلَّا يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ فَإِنَّهُ قَالَ: لَا يَحْنَثُ، فَقِيلَ لَهُ: خَالَفْتَ شُيُوخَكَ، فَقَالَ: الْفَتْوَى بِالْعِلْمِ وَلَقَدْ أَفْتى مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنَّا وَهُوَ اللهُ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَقُولُ: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، وَكَانَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ يَقُولُ: إِلَهَنَا أَعْطَيْتَنَا فِي الْأُولَى أَحْسَنَ الْأَشْكَالِ، فَأَعْطِنَا فِي الْآخِرَةِ أَحْسَنَ الْفِعَالِ، وَهُوَ الْعَفْوُ عَنِ الذُّنُوبِ، وَالتَّجَاوُزُ عَنِ الْعُيُوبِ..." .

وقال القرطبي(٦٧١هـ) في"الجامع لأحكام القرآن"(٢٠/ ١١٣-١١٤) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾** .

فِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾** هَذَا جَوَابُ الْقَسَمِ، وَأَرَادَ بِالْإِنْسَانِ: الْكَافِرَ. قِيلَ: هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ. وَقِيلَ: كِلْدَةُ بْنُ أُسَيْدٍ. فَعَلَى هَذَا نزلت في منكري الْبَعْثِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ آدَمُ وَذُرِّيَّتِهِ. فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَهُوَ اعْتِدَالُهُ وَاسْتِوَاءُ شَبَابِهِ، كَذَا قَالَ عَامَّةُ الْمُفَسِّرِينَ. وَهُوَ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ، لأنَّه خلق كلَّ شي منكبّاً عل وَجْهِهِ، وَخَلَقَهُ هُوَ مُسْتَوِيًا، وَلَهُ لِسَانٌ ذَلِقٌ، ويد وَأَصَابِعُ يَقْبِضُ بِهَا.

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ طَاهِرٍ: مُزَيَّنًا بِالْعَقْلِ، مُؤَدِّيًا لِلْأَمْرِ، مَهْدِيًّا بِالتَّمْيِيزِ، مَدِيدَ الْقَامَةِ، يَتَنَاوَلُ مَأْكُولَهُ بِيَدِهِ. ابْنُ الْعَرَبِيِّ:" لَيْسَ للهِ تَعَالَى خَلْقٌ أَحْسَنُ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَهُ حَيًّا عَالِمًا، قَادِرًا مَرِيدًا مُتَكَلِّمًا، سَمِيعًا بَصِيرًا، مُدَبِّرًا حَكِيمًا. وَهَذِهِ صِفَاتُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَعَنْهَا عَبَّرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ، وَوَقَعَ الْبَيَانُ بِقَوْلِهِ: "إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ" يَعْنِي : عَلَى صِفَاتِهِ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا. وَفِي رِوَايَةٍ "عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَن" ، وَمِنْ أَيْنَ تَكُونُ لِلرَّحْمَنِ صُورَةٌ مُتَشَخِّصَةٌ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَعَانِيَ".

وَقَدْ أَخْبَرَنَا الْمُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ الْأَزْدِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ الْقَاضِي الْمُحْسِنُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ عِيسَى بْنُ مُوسَى الْهَاشِمِيُّ يُحِبُّ زَوْجَتَهُ حُبًّا شَدِيدًا فَقَالَ لَهَا يَوْمًا: أَنْتِ طَالِقٌ ثَلَاثًا إِنْ لَمْ تَكُونِي أَحْسَنَ مِنَ الْقَمَرِ، فَنَهَضَتْ وَاحْتَجَبَتْ عَنْهُ، وَقَالَتْ: طَلَّقْتَنِي!. وَبَاتَ بِلَيْلَةٍ عَظِيمَةٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى دَارِ الْمَنْصُورِ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، وَأَظْهَرَ لِلْمَنْصُورِ جَزَعًا عَظِيمًا، فَاسْتَحْضَرَ الْفُقَهَاءَ وَاسْتَفْتَاهُمْ. فَقَالَ جَمِيعُ مَنْ حَضَرَ: قَدْ طُلِّقَتْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ، فَإِنَّهُ كَانَ سَاكِتًا. فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ: مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَن الرَّحِيمِ: **﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** . يَا أَمير المؤمنين، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شي أحسن منه. فقال المنصور لعيسى ابن مُوسَى: الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الرَّجُلُ، فَأَقْبِلْ عَلَى زَوْجَتِكَ. وَأَرْسَلَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ إِلَى زَوْجَةِ الرَّجُلِ: أَنْ أَطِيعِي زَوْجَكِ وَلَا تَعْصِيهِ، فَمَا طَلَّقَكِ. فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ أَحْسَنُ خَلْقِ اللهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، جَمَالَ هَيْئَةٍ، وَبَدِيعَ تَرْكِيبِ الرَّأْسُ بِمَا فِيهِ، وَالصَّدْرُ بِمَا جَمَعَهُ، وَالْبَطْنُ بِمَا حَوَاهُ، وَالْفَرْجُ وَمَا طَوَاهُ، وَالْيَدَانِ وَمَا بَطَشَتَاهُ، وَالرِّجْلَانِ وَمَا احْتَمَلَتَاهُ. وَلِذَلِكَ قَالَتْ الْفَلَاسِفَةُ: إِنَّهُ الْعَالَمُ الْأَصْغَرُ، إِذْ كُلُّ مَا فِي المخلوقات جمع فيه..." .

وقال البيضاوي(٦٨٥هـ) في" أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل "(٥/٣٢٣) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾** يريد به الجنس. **﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** تعديل بأن خصّ بانتصاب القامة ، وحسن الصُّورة ، واستجماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات" .

وقال النَّسفي(٧١٠هـ) في" مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل"(٣/ ٦٦٠) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان﴾** ، وهو جنس **﴿فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه" .

وقال أبو القاسم، محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي(٧٤١هـ) في"التَّسهيل لعلوم التَّنزيل"(٢/ ٤٩٤-٤٩٥) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** فيه قولان:

أحدهما : أنَّ أحسن التَّقويم هو حسن الصُّورة وكمال العقل والشَّباب والقوَّة . و **﴿أَسْفَلَ سَافِلِيْنَ﴾** الضَّعف والهرم والخرف ، فهو كقوله تعالى: **﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾**﴿يس: ٦٨﴾ ، وقوله : **﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾**﴿الروم: ٥٤﴾ ، وقوله : **﴿إِلَّا الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾** بعد هذا غير متَّصل بما قبله، والاستثناء على هذا القول منقطع بمعنى لكن لأنَّه خارج عن معنى الكلام الأوَّل.

والآخر : أنَّ حسن التَّقويم: الفطرة على الإيمان".

وقال علاء الدِّين علي بن محمَّد بن إبراهيم البغدادي الشَّهير بالخازن(٧٤١هـ) في"لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل"(٧/ ٢٦٦) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، يعني في أعدل قامة ، وأحسن صورة ، وذلك أنَّه تعالى خلق كل حيوان منكبًّا على وجهه يأكل بفيه إلَّا الإنسان فإنَّه خلقه مديد القامة ، حسن الصُّورة ، يتناول مأكوله بيده ، مزيَّناً بالعلم ، والفهم ، والعقل ، والتَّمييز ، والمنطق".

وقال أبو حيان محمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدِّين الأندلسي(٧٤٥هـ) في"البحر المحيط في التَّفسير"(١٠/ ٥٠٣) : **﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، قَالَ النَّخَعِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: حُسْنُ صُورَتِهِ وَحَوَاسِّهِ. وَقِيلَ: انْتِصَابُ قَامَتِهِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ طَاهِرٍ: عَقْلُهُ وَإِدْرَاكُهُ زَيَّنَاهُ بِالتَّمْيِيزِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: شَبَابُهُ وَقُوَّتُهُ، وَالْأَوْلَى الْعُمُومِ فِي كُلِّ مَا هُوَ أَحْسَنُ. وَالْإِنْسَانُ هُنَا اسْمُ جِنْسٍ، وَأَحْسَنُ صِفَةٌ لِمَحْذُوفٍ، أَيْ فِي تَقْوِيمٍ أَحْسَنَ" .

وقال أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثمَّ الدِّمشقي(٧٧٤هـ) في"تفسير القرآن العظيم"(٨/ ٤٣٥) :" وَقَوْلُهُ: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، وَشَكْلٍ مُنْتَصِبَ الْقَامَةِ، سَوِيّ الْأَعْضَاءِ حَسَنَهَا" .

وقال أبو حفص سراج الدِّين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدِّمشقي النُّعماني(٧٧٥هـ) في"اللباب في علوم الكتاب"(٢٠/٤٠٩) :" وقوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ صفة لمحذوف، أي: في تقويم أحسن تقويم.

وقال أبو البقاء: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ في موضع الحال من الإنسان، وأراد بالتَّقويم: القوام؛ لأنَّ التَّقويم فعل، وذاك وصف للخالق لا المخلوق، ويجوز أن يكون التَّقدير: في أحسن قوام التَّقويم، فحذف المضاف، ويجوز أن تكون «فِي» زائدة، أي: قوَّمنَا أحسن تقويم ٍ، انتهى.

فصل في معنى الآية :

قال المفسِّرون: أحسن تقويم، واعتداله، واستواء أسنانه، لأنَّه خلق كلَّ شيء منكبَّاً على وجهه، وخلق هو مستوياً، وله لسان ذلق ويد وأصابع يقبض بها.

قال ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإنَّ الله خلقه حيَّاً، عالماً، قادراً، مريداً، متكلِّماً، سميعاً، بصيراً، مدبِّراً، حكيماً، وهذه صفات الرَّب سبحانه، وعنها عبَّر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: " إنَّ الله خلق آدم عليه السَّلام على صورته" ، يعني: على صفاته التي قدَّمنا ذكرها، وفي رواية «عَلَى صُورةِ الرَّحْمَن» ومن أين تكون للرَّحمن صورة مشخصة، فلم يبق إلَّا أن تكون معاني.

روي أنَّ عيسى بن موسى الهاشمي، كان يحبُّ زوجته حبًّا شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالقٌ ثلاثاً إنْ لم تكوني أحسن من القمر، فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقتني، وبات بليلة عظيمة، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور، فأخبره الخبر، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طلقت إلَّا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنَّه كان ساكتاً، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلَّم؟ .

فقال له الرَّجل: بسم الله الرَّحْمَن الرَّحيم: **﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسنُ الأشياء، ولا شيء

أحسن منه، فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرَّجل، فأقبل على زوجتك، وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل أن أطيعي زوجك ولا تعصيه، فما طلقك.

فهذا يدلُّك على أنَّ الإنسان أحسن خلق الله تعالى باطناً وظاهراً، جمال هيئة، وبديع تركيب، الرَّأس بما فيه، والبطن بما حواه، والفَرْج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرِّجلان وما احتملتاه، ولذلك قالت الفلاسفة: إنَّه العالم الأصغر؛ إذ كلُّ ما في المخلوقات أجمع فيه" .

وقال إبراهيم بن عمر بن حسن الرّباط بن علي بن أبي بكر البقاعي(٨٨٥هـ) في"نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور"(٨/ ٤٧٢-٤٧٣) : ﴿**فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ ، أي : كائن منَّا روحاً وعقلاً أو أعمّ من ذلك بما جعلنا له من حسن الخلق والخلق بما خصّ به من انتصاب القامة ، وحسن الصُّورة ، واجتماع خواص الكائنات ، ونظائر سائر الممكنات بعد ما شارك فيه غيره من السَّمع ، والبصر، والذَّوق ، واللمس ، والشَّم الجوارح التي هيأته لما خلق له حتَّى قيل إنَّه العالم الأصغر كما مضى بسط ذلك في سورة الشَّمس . ثمَّ ميَّزناه بما أودعناه فيه بما جعلناه عليه من الفطرة الأولى التي لا تبديل لها من الطَّبع الأوَّل السَّليم الذي هيَّأناه به وقوَّيناه بقدرتنا لقبول الحقّ ، وبمثل ما قلته في حمل الآية على الفطرة الأولى قال الأصفهاني في تفسير: ﴿**كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً**﴾﴿ البقرة : ٢١٣ ﴾ في البقرة .

وقال ابن برجان هنا : مفطور على فطرة الإسلام الدِّين القيِّم ، ثمَّ لما منحناه به من العقل المدرك القويم ، فكما جعلنا له شكلاً يميِّزه عن سائر الحيوان منحناه عقلاً يهديه إلى العروج عن درك النِّيران إلى درج الجنان بالإيمان والأعمال الصَّالحة البالغة نهاية الإحسان ، بدليل من فيه من الأنبياء الذين أكملهم محمَّد على جميعهم أفضل الصَّلاة والسَّلام والتَّحيَّة والإكرام والتَّابعين له بإحسان الذين ملؤوا الأرض علماً ورحمةً ونوراً .

قال البغوي : خلقه سبحانه وتعالى مديد القامة ، يتناول مأكوله بيده ، مزيَّناً بالعقل والتَّمييز، انتهى . والعقل هو المقصود في الحقيقة من الإنسان ، لأنَّ من أسمائه اللبّ ، ومن المعلوم أنَّ المقصود كلّ شيء لبّه ، وهو الشَّرع كما مضى في آخر النِّساء ، والظَّاهر أنَّ عقول النَّاس بحسب الخلق متقاربة ، وأنَّها إنَّما تفاوتت بحسب الجبلة ، فبعضهم جعل سبحانه وتعالى عنصره وجبلَّته في غاية الفساد ،

فلا تزال جبلَّته تردي على عقله فيتناقص إلى أن يصير إلى أسوأ الأحوال ، فكلٌّ ميسَّر لما خلق له ، وبعضهم يصرف عقله بحسب ما هيَّأه الله له إلى ما ينجيه ، وبعضهم يصرفه لذلك إلى ما يريده ، لأنَّك تجد أعقل النَّاس في شيء وأعرفهم به أشدّهم بلادة في شيء آخر ، وأغباهم في شيء أذكاهم في شيء آخر - فاعتبر ذلك ، وبذلك انتظم أمر الخلق في أمر معاشهم بالعلوم والصَّنائع والأحوال - والله الهادي ، وهذه الآية تدلُّ على أنَّ الله سبحانه وتعالى منزَّه عن التَّركيب والصُّورة ، لأنَّه لو كان في شيء منهما لكان هو الأحسن ، لأنَّ كلّ صفة يشترك فيها الخلق والحقّ ، فالمبالغة للحقّ كالعالم والأعلم والكريم والأكرم - قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري في تفسيره ، وصيغة (أفعل) لا تدلُّ على ما قاله الزَّنادقة ، وإن عزي ذلك إلى بعض الأكابر من قولهم : ليس في الإمكان أبدع ممَّا كان ، لأنَّ الدَّرجة الواحدة تتفاوت على ما لا يدخل تحت حصر ، كتفاوت أفراد الإنسان في صورة وألوانه ، وغير ذلك من أكوانه وبديع شأنه ، وقد بيَّنت ذلك في تصنيف مفرد لهذه الكلمة سمَّيته : تهديم الأركان من (ليس في الإمكان أبدع مما كان) ، وأوضحته غاية الإيضاح والبيان ، وجرت فيه فتن تصمّ الآذان ، ونصر الله الحقَّ بموافقة الأعيان ، وقهر أهل الطُّغيان ، ثمَّ أردفته بكتاب (دلالة البرهان على أنَّ في الإمكان أبدع ممَّا كان) ثمَّ شفيت الأسقام ، ودمغت الأخصام ، وخسأت الأوهام ، بالقول الفارق بين الصَّادق والمنافق ، وهو نحو ورقتين في غاية الإبداع في قطع النِّزاع ، ويمكن أن تكون صيغة أفعل مفيدة بالنِّسبة إلى شيء أراده الله بحيث إن نتفطَّن له نحن ، لأنَّ من المُجمع عليه عند أهل السُّنَّة وصرَّح به الأشعري وغيره في غير موضع من كتبهم : أنَّ الله تعالى لا تتناهى مقدوراته ، وممَّن صرَّح بما صرَّح به الأشعري وأكثر في الإمام حجَّة الإسلام الغزالي في كتبه الإحياء وغيره ، ولا سيما كتابه (تهافت الفلاسفة) ، وبيَّن أنَّ هذا من قواعدهم لنفيهم صفة الإرادة وقولهم بأنَّ فعله بالذَّات ، وبيَّن فساد ذلك ، وأنَّه سبحانه وتعالى قادر على اختراع عالم آخر وثالث متفاوته بالصِّغر والكبر ، وعلى كلِّ ممكن ، وعرف أنَّ الممكن هو المقدور عليه ، وأنَّه يرجع إلى المقدور عليه أيضاً ممكن ، وعرف الممتنع بأنَّه إثبات الشَّيء مع نفيه ، وإثبات الأخص مع نفي

الأعمّ ، وإثبات الاثنين مع نفي الواحد ، وقال : وما لا يرجع إلى ذلك فهو ممكن ، فدخل فيه عالم أبدع من هذا العالم - والله الموفِّق لما يريد .

ولَّما كان الإنسان مع هذه المحاسن قد سلط الله سبحانه وتعالى عليه شهوات ، وهيَّأ طبعه لرذائل وأخلاق دنيئات ، وأهوية وحظوظ للأنفس مميلات ، وكان أكثر الخلق بها هالكاً لتتبيَّن قدرة الله سبحانه وتعالى ، لم يستثن بل حكم على الجنس كلّه بها كما حكم عليه بالتَّقويم ، فقال تعالى دالَّاً بأداة التَّراخي على أنَّ اعوجاجه بعد ذلك العقل الرَّصين والذِّهن الصَّافي المستنير في غاية البعد لولا القدرة الباهرة والقوَّة القاسرة القاهرة" .

وقال محمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن محمَّد بن عبد الله الحسني الحسيني الإِيجي الشَّافعي(٩٠٥هـ) في"جامع البيان في تفسير القرآن"(٤/٥٠٩) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** : تعديل لشكله، وتسوية لأعضائه، وتزيين بعقله".

وقال نعمة الله بن محمود النَّخجواني، ويعرف بالشَّيخ علوان(٩٢٠هـ) في"الفواتح الإلهيَّة والمفاتح الغيبيَّة الموضِّحة للكلم القرآنيَّة والحكم الفرقانيَّة"(٢/٥١٨) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾** ، أي : جنسه فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وأقوم تعديل ، إذ لا مظهر أعدل منه وأقوم بحسب الظَّاهر والباطن ، لذلك اصطفيناه لخلافتنا من بين خليقتنا ، واجتبيناه لرسالتنا إلى عموم بريَّتنا".

وقال أحمد بن محمَّد بن علي بن حجر الهيتمي السَّعدي الأنصاري، شهاب الدِّين شيخ الإسلام، أبو العباس(٩٧٤هـ) في"الفتاوى الحديثيَّة"(ص٢٠٦) :"وَسُئِلَ) نفع الله بِهِ عَن حَدِيث خلق آدم على صورته أَو على صُورَة الرَّحْمَن هَل هُوَ وَارِد أَولا.

(فَأجَاب) بقوله : نعم هُوَ وَارِد وَلَكِن الضَّمِير فِي صورته إِذا أُرِيد بهَا حَقِيقَتهَا لَيْسَ للحقِّ تَعَالَى لتعاليه عَن الصُّورة ولوازمها علوَّاً كَبِيراً ، وإِنَّما سَبَب ذَلِك : أَنَّ عبداً لطمه سَيِّده على وَجهه فزجره النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن ذَلِك ، وَقَالَ لَهُ زِيَادَة فِي تأديبه : أَنَّ الله خلق آدم على صورته ، أَي : فَكيف تضربه على وَجهه المحاكي لوجه أَبِيك آدم وَصورته . أَمَّا إِذا أُرِيد بهَا مُجَرّد الْوَصْف فَيصحُّ

رُجُوع الضَّمير إِلَى الله كَمَا تصحُّ بِهِ رِوَايَة : على صُورَة الرَّحْمَن ، وَيكون مفَاد الحَدِيث حِينَئِذٍ : أَنَّه تَعَالَى خلق آدم متجلِّياً على صورته بِشَيْء من صِفَات الْحق كالرَّحمة".

وقال شمس الدِّين، محمَّد بن أحمد الخطيب الشَّربيني الشَّافعي(٩٧٧هـ) في"السِّراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربّنا الحكيم الخبير"(٥٥٨/٤) :" وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ ، أي: قدَّرنا وأوجدنا بما لنا من العظمة والقدرة التَّامّة ﴿الإِنْسَانَ﴾ جواب القسم ، والمراد بالإنسان: الجنس الذي جمع فيه الشَّهوة والعقل، وفيه من الإنس بنفسه ما ينسيه أكثر مهمه الشَّامل لآدم عليه السَّلام وذريَّته. وقيل: نزلت في منكري البعث. وقيل: في الوليد بن المغيرة وقيل: كلدة بن أسيد. وقوله تعالى: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ صفة لمحذوف، أي: في تقويم أحسن تقويم. وقال أبو البقاء: في أحسن تقويم في موضع الحال من الإنسان، وأراد بالتَّقويم القوام ، لأنَّ التَّقويم فعل وذاك وصف للخالق لا للمخلوق، ويجوز أن يكون التَّقدير في أحسن قوام التَّقويم فحذف المضاف، ويجوز أن تكون في زائدة، أي: قوَّمناه أحسن تقويم أهـ.

وأحسن تقويم أعدله ، لأنَّه تعالى خلق كلَّ شيء منكبَّاً على وجهه وخلق الإنسان مستوياً، وله لسان ذلق ويد وأصابع يقبض بها. قال ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإنَّ الله تعالى خلقه حيَّاً عالماً قادراً مريداً متكلِّماً سميعاً بصيراً مدبِّراً حكيماً ، وهذه صفات الله تعالى ، وعبَّر عنها بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: «إنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته» يعني: على صفاته المتقدِّم ذكرها.

وفي رواية :"على صورة الرَّحْمَن" ، ومن أين يكون للرَّحمن صورة شخصيَّة فلم تكن إلَّا معاني. وروي أنَّ عيسى بن يوسف الهاشميّ كان يحبُّ زوجته حبَّاً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر ، فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلَّقتني ، فبات بليلة عظيمة ، فلمَّا أصبح غدا إلى دار المنصور فأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستشارهم، فقال جميع من حضر قد طلّقت إلَّا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة ، فإنَّه كان ساكتاً، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلَّم، فقال الرَّجل: بسم الله الرَّحْمَن الرَّحيم : ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يا أمير المؤمنين فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه، فقال المنصور لعيسى: الأمر كما قال الرَّجل فأقبل على زوجتك، فأرسل المنصور إليها :أطيعي زوجك فما طلَّقك. وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان أحسن خلق الله تعالى ، ولذلك قيل: إنَّه العالم الأصغر ، إذ كلّ ما في المخلوقات اجتمع فيه" .

وقال أبو السُّعود العمادي محمَّد بن محمَّد بن مصطفى(٩٨٢هـ) في"إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم"(٩/ ١٧٥) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ﴾** ، أيْ : جنسُ الإنسانِ **﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، أيْ : كائناً في أحسنُ ما يكونُ من التَّقويمِ والتَّعديلِ صورةً ومَعْنى ، حيثُ برأه الله تعالَى مستويَ القامةِ ، متناسبَ الأعضاءِ ، متَّصفاً بالحياةِ والعلمِ والقدرةِ والإرادةِ والتَّكلُّمِ والسَّمعِ والبصرِ وغيرِ ذلكَ منَ الصِّفات التي هيَ مِنْ أنموذجاتٍ منَ الصِّفات السّبحانيةِ وآثارٌ لهَا ، وقدْ عبَّرَ بعضُ العلماءِ عنْ ذلكَ بقولِه :"خلقَ آدمَ علَى صورتِه"، وفي روايةٍ :"على صورةِ الرَّحْمَن"، وبَنَى عليهِ تحقيقَ مَعْنى قولِه :" مَنْ عرفَ نفسَهُ فقدْ عرفَ رَبَّه"، وقالَ : إنَّ النَّفسَ الإنسانيةَ مجرَّدةٌ ليستْ حالّةً في البدنِ ولا خارجةً عنْهُ ، متعلِّقةً بِهِ تعلُّقَ التَّدبيرِ والتَّصرُّفِ ، تستعملُه كيفمَا شاءتْ ، فإذَا أرادتْ فعلاً من الأفاعيلِ الجُسمانيَّةِ تلقيهِ إلى مَا في القلبِ منَ الرّوحِ الحيوانيِّ ، الذي هُوَ أعدلُ الأرواحِ وأصفاهَا ، وأقربُها منْهَا وأقواهَا ، مناسبةً إلى عالمِ المجرَّداتِ إلقاءً روحانيّاً ، وهو يلقيهِ بواسطةِ ما في الشَّرايينِ منَ الأرواحِ إلى الدِّماغِ الذي هُو منبتُ الأعصابِ التي فيهَا القُوَى المحرِّكةُ للإنسانِ ، فعندَ ذلكَ يحرّكُ منَ الأعضاءِ ما يليقُ بذلكَ الفعلِ من مباديهِ البعيدةِ والقريبةِ ، فيصدرُ عنْهُ ذلكَ بهذه الطَّريقةِ ، فمَنْ عرفَ نفسَهُ على هذه الكيفيَّةِ من صفاتِها وأفعالِها تسنَّى لهُ أن يترقَّى إلى معرفةِ ربِّ العزَّةِ عَزَّ سلطانُهُ ، ويطلعُ على أنَّه سبحانَهُ منزَّهٌ عنْ كونِه داخلاً في العالمِ أو خارجاً عنْهُ ، يفعلُ فيهِ ما يشاء ، ويحكُم ما يريدُ بواسطةِ ما رتبَهُ فيهِ منَ الملائكةِ الذينَ يستدلُّ على شؤونِهم بما ذكرَ من الأرواحِ والقُوى المرتّبةِ في العالمِ الإنسانيِّ الذي هُوَ نسخةٌ للعالمِ الأكبر وأنموذج مِنْهُ".

وقال شهاب الدِّين الخفاجي (١٠٦٩هـ) في"حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، المُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البيَضَاوي"(٨/ ٣٧٦) :" وقوله: **﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** في موضع

الحال من الإنسان ، والتَّقويم فعل الله ، فهو بمعنى القوَّام أو المقوّم أو فيه مضاف مقدَّر ، أي : قوَّام أحسن تقويم أو في زائدة ، والتَّقدير : قوَّمناه أحسن تقويم".

وقال إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الخلوتي(١١٢٧هـ) في"تفسير روح البيان "(١٠/ ٣٦٠) :" **﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** يقال : قام انتصب ، وقام الأمر اعتدل كاستقام ، وقوَّمته عدَّلته كما في"القاموس" والتَّقويم تصيير الشَّيء على ما ينبغي أن يكون عليه في التَّأليف والتَّعديل .

وعن يحيى بن أكثم القاضي أنَّه فسر التَّقويم بحسن الصُّورة ، فإنَّه حكى أنَّ ملك زمانه خلا بزوجته في ليلة مقمرة ، فقال لها : إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت كذا ، فأفتى الكلّ بالحنث إلَّا يحيى بن أكثم ، قال : لا يحنث ، فقالوا : خالفت شيوخك ، فقال : الفتوى بالعلم ، ولقد أفتى من هو أعلم منَّا ، وهو الله تعالى قال: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** فالإنسان أحسن الأشياء ولا شيء أحسن منه .

وفي"المفردات" هو إشارة إلى ما خصّ به الإنسان من بين الحيوان من العقل والفهم وانتصاب القامَّة الدَّال على استيلائه على كلِّ ما في هذا العالم ، والمعنى كائناً في أحسن ما يكون من التَّقويم والتَّعديل صورة ومعنى ، حيث برأه تعالى مستوي القامة ، متناسب الأعضاء ، حسن الشَّكل ، كما قال : **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** ، أي : صوَّركم أحسن تصوير ، وكذا خلقه متَّصفاً بالصِّفات الإلهيَّة من الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسَّمع والبصر والكلام التي هي الصُّورة الحقيقيَّة الإلهيَّة المشار إليها بقوله عليه السَّلام :"خلق الله آدم على صورته" ، وعليه يدور معنى قوله عليه السَّلام : "من عرف نفسه فقد عرف ربَّه" . قال السَّخاوي في "المقاصد الحسنة"(ص٦٥٧) : " قال أبو المظفر ابن السمعاني: في الكلام على التحسين والتقبيح العقلي من القواطع أنه لا يعرف مرفوعا، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي يعني من قوله، وكذا قال النووي: إنه ليس بثابت، وقيل في تأويله: من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء".

فالإنسان مظهر الجلال والجمال والكمال **﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾** أي : جعلناه من أهل النَّار الذي هو أقبح من كلِّ قبيح وأسفل من كلِّ سافل لعدم جريانه على موجب ما خلقناه عليه من الصِّفات التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى علِّيِّين ، والحاصل إنَّه حوِّل بسوء حاله من أحسن

تقويم إلى أقبح تقويم صورة ومعنى ، لأنَّ مسخ الظَّاهر إنَّما هو من مسخ الباطن ، فالمراد بالسَّافلين عصاة المؤمنين ، وأفعل التَّفضيل هنا يتناول المتعدّد المتفاوت، و ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ إمَّا حال من المفعول ، أي : رددناه حال كونه أسفل سافلين أو صفة لمكان محذوف ، أي : رددناه إلى مكان هو أسفل أمكنة سافلين والأوَّل أظهر ، ثمَّ هذا بحسب بعض الأفراد الإنسانيَّة لانغماسهم في بحر الشَّهوات الحيوانيَّة البهيميَّة وإنهماكهم في ظلمات اللذَّات الجسمانيَّة الشَّيطانيَّة والسّبعيَّة ، وفيه إشارة إلى أنَّ الاعتبار إنَّما هو بالصُّورة الباطنة لا بالصُّورة الظَّاهرة .

فكم من مصوَّر على أحسن الصُّور في الظَّاهر وهو في الباطن على أقبح الهيئات ، ولذا يجيء النَّاس يوم القيامة أفواجاً ، فإنَّ صفاتهم الباطنة تظهر على صورهم الظَّاهرة فتتنوَّع صورهم بحسب صفاتهم على أنواع ، وقيل : رددناه إلى أرذل العمر وهو الهرم بعد الشَّباب ، والضَّعف بعد القوَّة ، كقوله تعالى : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ﴾ ، أي : نكسناه في خلقه فتقوَّس ظهره بعد اعتداله ، وأبيضَّ شعره بعد سواده ، وَكَلَّ سمعه وبصره ، وتغيَّر كلُّ شيء منه".

وقال أبو العبَّاس أحمد بن محمَّد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي(١٢٢٤هـ) في"البحر المديد في تفسير القرآن المجيد"(٧/ ٣٢٥) : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾ ، أي: جنس الإنسان ، ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ، أي: كائناً في أحسن ما يكون من التَّقويم والتَّعديل صورةً ومعنى، حيث جعله اللهُ مستوي القامة، متناسب الأعضاء، متَّصفاً بصفات الباريء تعالى من القدرة والإرادة والعلم والحياة والسَّمع والبصر والكلام، وهذا معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"إنَّ الله خلق آدم على صورته"، وفي رواية:"على صورة الرَّحْمَن"على بعض الأقوال" .

وقال محمَّد ثناء الله المظهري في"التَّفسير المظهري"(١٠/ ٢٩٦) :" ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾ ، أي : الجنس ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تفعيل من القيام والقوام .

قال في الصِّحاح : القيام والقوَّام اسم لما يقوم به الشَّيء ، أي : تثبت . قلت : وهو ما يتحقَّق به الشَّيء ، يعنى أحسن حقيقته وماهيَّته ، وذلك لاستجماعه ما في عالم الكبير من لطائف عالم الأمر وعناصر عالم الخلق والنَّفس الناطقة المنشاة عن العناصر ، ولذلك الاستجماع يظهر فيه خصائص

الكائنات كلّها من الصِّفات الملكيَّة والسَبعيَّة والبهيميَّة والشَّيطانية ، ويتَّصف بالصِّفات الكاملة المنعكسة من الصِّفات الإلهيَّة من الحيوة والعلم والقدرة والإرادة والسَّمع والبصر والكلام والمجنَّة التي سمِّيت بناء العشق ، يتزيَّن بنور العقل ، ويستعد للتَّجليَّات الظِّليَّة والصِّفاتيَّة والذَّاتيَّة ومن ثمَّ أعطى خلعة الخلافة **﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** ، وقيل : معنى **﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** : أي : أحسن صورة ، فإنَّ التَّقويم مصدر بمعنى التَّعديل .

في القاموس : قوَّمته عدَّلته فهو قويم ومستقيم ، والمصدر هاهنا بمعنى المفعول أو بمعنى الفعيل ، أي : أحسن صورة ومعدل قويم ، وذلك لأنَّ كلّ حيوان خُلق مكبّاً على وجهه إلّا الإنسان ، خُلق مستقيم القامة ، بادي البشرة ، يتناول مأكوله بيده".

وقال الشَّوكاني(١٢٥٠هـ) في"فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير "(٥/٥٦٧) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** هَذَا جَوَابُ الْقَسَمِ، أَيْ: خَلَقْنَا جِنْسَ الْإِنْسَانِ كَائِنًا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَتَعْدِيلٍ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ كُلَّ ذِي رُوحٍ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ إِلَّا الْإِنْسَانَ، خَلَقَهُ مَدِيدَ الْقَامَةِ يَتَنَاوَلُ مَأْكُولَهُ بِيَدِهِ، وَمَعْنَى التَّقْوِيمِ: التَّعْدِيلُ، يُقَالُ: قَوَّمْتُهُ فَاسْتَقَامَ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: هُوَ اعْتِدَالُهُ وَاسْتِوَاءُ شَأْنِهِ، كَذَا قَالَ عَامَّةُ الْمُفَسِّرِينَ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: لَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى خَلْقٌ أَحْسَنُ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا مُرِيدًا مُتَكَلِّمًا سَمِيعًا بَصِيرًا مُدَبِّرًا حَكِيمًا، وَهَذِهِ صِفَاتُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَعَلَيْهَا جعل بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الله خلق آدم على صورته» يَعْنِي عَلَى صِفَاتِهِ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا.

قُلْتُ: وَيَنْبَغِي أَنَّ يُضَمَّ إِلَى كَلَامِهِ هَذَا قَوْلُهُ سبحانه: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** ،وقوله: **﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾** ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقِفَ عَلَى حَقِيقَةِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْ بَدِيعِ الْخَلْقِ وَعَجِيبِ الصُّنْعِ فَلْيَنْظُرْ فِي كِتَابِ «الْعِبَرِ وَالِاعْتِبَارِ» لِلْجَاحِظِ، وَفِي الْكِتَابِ الَّذِي عَقَدَهُ النَّيْسَابُورِيُّ عَلَى قَوْلِهِ: **﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾** ، وَهُوَ فِي مُجَلَّدَيْنِ ضَخْمَيْنِ" .

وقال الألوسي(١٢٧٠هـ) في"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني"(١٥/ ٣٩٥-٣٩٦) :"وقوله تعالى : ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ، في موضع الحال من الإنسان ، أي : كائناً في تقويم أحسن تقويم ، والتَّقويم: التَّثقيف والتَّعديل ، وهو فعل الله عزَّ وجلَّ، فمعنى كون الإنسان كائناً في ذلك على ما قيل : إنَّه ملتبس به ، نظير قولك : فلان في رضا زيد ، بمعنى أنَّه مرضيٌّ عنه.

وقال الخفَّاجي: هو مؤوَّل بمعنى القوام أو المقوم، وفيه مضاف مقدر ، أي : قوام أحسن تقويم أو في زائدة وما بعدها في موضع المفعول المطلق ، وقد ناب فيه عن المصدر صفته. والتَّقدير قوَّمناه تقويماً أحسن تقويم ، والمراد بذلك : جعله على أحسن ما يكون صورة ومعنى فيشمل ما له من انتصاب القامة وحسن الصُّورة والإحساس وجودة العقل وغير ذلك.

ومن أمعن نظره في أمره وأجال فكره في دقائق ظاهره وسرّه رآه كما قال بعض الأجلّة : مجمع الغيب والشَّهادة ،ومطلع نيري فلكي الإفادة والاستفادة ، والنُّسخة الجامعة لما في رسائل إخوان الصِّفا وسائر المتون ، والشَّارح بطور طروس العجائب الإلهيَّة المودعة فيه لما كان وسيكون وظهر له صدق ما قيل ونسب لعلي كرم الله تعالى وجهه:

دواؤك فيك ولا تشعر ... وداؤك منك وما تبصر

وتزعـــــم أنَّك جرم صغير ... وفيك انطوى العـــــالم الأكبر

وممَّا يدلُّ على أحسنيَّة تقويمه : أنَّ الله تعالى رسم فيه من الصِّفات ما تذكره صفاته عزَّ وجلَّ وتدلّه عليها ، فجعله عالماً مريداً قادراً إلى غير ذلك.

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تخلَّقوا بأخلاق الله لئلَّا يتوهَّم أنَّ ما للسيِّد على العبد حرام». لم أجده في أيٍّ من دواوين السُّنَّة ، ووجدت الغزالي يقول في "إحياء علوم الدين" (٦/ ٣٥٤) : " حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التى هى من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى" .

ويكفي في هذا الباب وهو القول الفصل : أنَّ الله تعالى خلقه بيديه ، وأمر سبحانه ملائكته عليهم السَّلام بالسُّجود له ، وهم المكرمون لديه.

وجاء أنَّ الله تعالى"خلق آدم على صورته" ، وفي رواية :"على صورة الرَّحْمَن" ، وهي تأبى احتمال عود الضَّمير على آدم على معنى خلقه غير متنقِّل في الأطوار كبنيه ولكونه النُّسخة الجامعة.

قال يحيى بن معاذ الرَّازي: من عرف نفسه فقد عرف ربَّه. والنَّاس يزعمونه حديثاً وليس كما قال النَّووي بثابت.

وعن يحيى بن أكثم وبعض الحنفيَّة أنَّهما أفتيا من قال لزوجته: إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت طالق بعدم وقوع الطَّلاق، واستدلَّا بهذه الآية في قصَّة مشهورة. وللشُّعراء في تفضيل معشوقهم على القمر ليلة تمّه ما يضيق عنه نطاق الحصر ، والحقّ أنَّ الفرق مثل الصُّبح ظاهر" .

وقال محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليماً، التَّناري بلداً(١٣١٦هـ) في"مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد"(٢/ ٦٤٥) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، أي : كائناً في أحسن ما يكون من تعديل صورة ومعنى ، فإنَّه تعالى خلقه مستوي القامة ، متناسب الأعضاء ، متَّصفاً بأكمل عقل، وفهم، وعلم، وأدب إذا تكامل شبابه" .

وقال القاسمي(١٣٣٢هـ) في"محاسن التَّأويل"(٩/ ٥٠٣) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، أي : في أحسن تعديل خلقاً، وشكلاً، صورة ومعنى ، قال الشِّهاب: الظَّرف في موضع الحال من الإنسان. والتَّقويم فعل الله، فهو بمعنى القوام أو المقوم، أو فيه مضاف مقدر، أي : قوام أحسن تقويم، أو (في) زائدة والتَّقدير: قومناه أحسن تقويم" .

وقال أحمد بن مصطفى المراغي(١٣٧١هـ) في"تفسير المراغي"(٣٠/ ١٩٥) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، أي : لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة، فجعلناه مديد القامة، حسن البزّة، يتناول ما يريد بيده لا كسائر الحيوان يتناول ما يريد بفيه ، إلى أنَّه خصه بالعقل والتَّمييز والاستعداد لقبول العلوم والمعارف، واستنباط الحيل التي بها يستطيع أن يكون له السُّلطان على جميع الكائنات، وله من الحول والطَّول ما يمتد إلى كلِّ شيء.

لكن قد غفل عمَّا ميّز به، وظنَّ نفسه كسائر المخلوقات، وراح يعمل ما لا يبيحه له العقل، ولا ترضى عنه الفطرة، وانطلق يتزوَّد من متاع الدُّنيا والاستمتاع بشهواتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً،

وأعرض عن النَّظر فيما ينفعه في معاده، وما يرضى به ربه وما يوصله إلى النَّعيم المقيم، **﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَّ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** " .

وقال محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي(١٣٩٣هـ) في"التَّحرير والتَّنوير"(٣٠/ ٤٢٣-٤٢٧) :" التَّقْوِيمُ: جَعْلُ الشَّيْءِ فِي قَوَامٍ (بِفَتْحِ الْقَافِ) ، أَيْ عَدْلٍ وَتَسْوِيَةٍ، وَحُسْنُ التَّقْوِيمِ أَكْمَلُهُ وَأَلْيَقُهُ بِنَوْعِ الْإِنْسَانِ، أَيْ أَحْسَنُ تَقْوِيمٍ لَهُ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ تَقْوِيمٌ خَاصٌّ بِالْإِنْسَانِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَيَتَّضِحُ ذَلِكَ فِي تَعْدِيلِ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ بِحَيْثُ لَا تَكُونُ إِحْدَى قُوَاهُ مُوقِعَةً لَهُ فِيمَا يُفْسِدُهُ، وَلَا يَعُوقُ بَعْضُ قُوَاهُ الْبَعْضَ الْآخَرَ عَنْ أَدَاءِ وَظِيفَتِهِ فَإِنَّ غَيْرَهُ مَنْ جِنْسِهِ كَانَ دُونَهُ فِي التَّقْوِيمِ.

وَحَرْفُ فِي يُفِيدُ الظَّرْفِيَّةَ الْمَجَازِيَّةَ الْمُسْتَعَارَةَ لِمَعْنَى التَّمَكُّنِ وَالْمِلْكِ فَهِيَ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي مَعْنَى بَاءِ الْمُلَابَسَةِ أَوْ لَامِ الْمِلْكِ، وإِنَّما عُدِلَ عَنْ أَحَدِ الْحَرْفَيْنِ الْحَقِيقِيَّيْنِ لِهَذَا الْمَعْنَى إِلَى حَرْفِ الظَّرْفِيَّةِ لِإِفَادَةِ قُوَّةِ الْمُلَابَسَةِ أَوْ قُوَّةِ الْمِلْكِ مَعَ الْإِيجَازِ وَلَوْلَا الْإِيجَازُ لَكَانَتْ مُسَاوَاةُ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ بِتَقْوِيمٍ مَكِينٍ هُوَ أَحْسَنُ تَقْوِيمٍ.

فَأَفَادَتِ الْآيَةُ : أَنَّ اللهَّ كَوَّنَ الْإِنْسَانَ تَكْوِينًا ذَاتِيًّا مُتَنَاسِبًا مَا خَلَقَ لَهُ نَوْعَهُ مِنَ الْإِعْدَادِ لِنِظَامِهِ وَحَضَارَتِهِ، وَلَيْسَ تَقْوِيمُ صُورَةِ الْإِنْسَانِ الظَّاهِرَةِ هُوَ الْمُعْتَبَرُ عِنْدَ اللهَّ تَعَالَى وَلَا جَدِيرًا بِأَنْ يُقْسِمَ عَلَيْهِ إِذْ لَا أَثَرَ لَهُ فِي إِصْلَاحِ النَّفْسِ، وَإِصْلَاحِ الْغَيْرِ، وَالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ، وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ الْمُرَادِ لَذَهَبَتِ الْمُنَاسَبَةُ الَّتِي فِي الْقَسَمِ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَالْبَلَدِ الْأَمِينِ. وإِنَّما هُوَ مُتَمِّمٌ لِتَقْوِيمِ النَّفْسِ ، قَالَ النَّبِيءُ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَّ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ» . أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٦ برقم ٢٥٦٤) .

(١) فَإِنَّ الْعَقْلَ أَشْرَفُ مَا خُصَّ بِهِ نَوْعُ الْإِنْسَانِ مِنْ بَيْنِ الْأَنْوَاعِ.

فَالْمَرْضِيُّ عِنْدَ اللهَّ هُوَ تَقْوِيمُ إِدْرَاكِ الْإِنْسَانِ وَنَظَرِهِ الْعَقْلِيِّ الصَّحِيحِ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي تَصْدُرُ عَنْهُ أَعْمَالُ الْجَسَدِ إِذِ الْجِسْمُ آلَةٌ خَادِمَةٌ لِلْعَقْلِ ،فَلِذَلِكَ كَانَ هُوَ الْمَقْصُودَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، وأَمَّا خَلْقُ جَسَدِ الْإِنْسَانِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، فَلَا ارْتِبَاطَ لَهُ بِمَقْصِدِ

السُّورَةِ ، وَيَظْهَرُ هَذَا كَمَالَ الظُّهُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ، فَإِنَّهُ لَوْ حُمِلَ الرَّدُّ أَسْفَلَ سَافِلِينَ عَلَى مَصِيرِ الْإِنْسَانِ فِي أَرْذَلِ الْعُمُرِ إِلَى نَقَائِصِ قُوَّتِهِ كَمَا فَسَّرَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ لَكَانَ نُبُوُّهُ عَنْ غَرَضِ السُّورَةِ أَشَدَّ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يَقَعُ فِيهِ تَرَدُّدُ السَّامِعِينَ حَتَّى يُحْتَاجَ إِلَى تَأْكِيدِهِ بِالْقَسَمِ وَيَدُلَّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾﴿التِّين: ٦﴾ لِأَنَّ الْإِيمَانَ أَثَرُ التَّقْوِيمِ لِعَقْلِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يُلْهِمُهُ السَّيْرَ فِي أَعْمَالِهِ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَقْوَمِ، وَمُعَامَلَةَ بَنِي نَوْعِهِ السَّالِمِينَ مِنْ عَدَائِهِ مُعَامَلَةَ الْخَيْرِ مَعَهُمْ عَلَى حَسَبِ تَوَافُقِهِمْ مَعَهُ فِي الْحَقِّ ، فَذَلِكَ هُوَ الْأَصْلُ فِي تَكْوِينِ الْإِنْسَانِ إِذَا سَلِمَ مِنْ عَوَارِض عَائِقَةٍ مِنْ بَعْضِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْرِضُ لَهُ وَهُوَ جَنِينٌ أَمَّا مِنْ عَاهَةٍ تَلْحَقُهُ لِمَرَضِ أَحَدِ الْأَبَوَيْنِ، أَوْ لِفَسَادِ هَيْكَلِهِ مِنْ سَقْطَةٍ أَوْ صَدْمَةٍ فِي حَمْلِهِ، وَمَا يَعْرِضُ لَهُ بَعْدَ الْوِلَادَةِ مِنْ دَاءٍ مُعْضِلٍ يَعْرِضُ لَهُ يَتْرُكُ فِيهِ اخْتِلَالَ مِزَاجِهِ فَيُحَرِّفُ شَيْئًا مِنْ فِطْرَتِهِ كَحَمَاقَةِ السَّوْدَاوِيِّينَ وَالسُّكَّرِيِّينَ أَوْ خَبَالِ الْمُخْتَبَلِينَ، وَمِمَّا يُدْخِلُهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ مَسَاوِي الْعَادَاتِ كَشُرْبِ الْمُسْكِرَاتِ وَتَنَاوُلِ الْمُخَدِّرَاتِ مِمَّا يُورِثُهُ عَلَى طُولٍ انْثِلَامَ تَعَقُّلِهِ أَوْ خَوَرَ عَزِيمَتِهِ.

وَالَّذِي نَأْخُذُهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ عَلَى حَالَةِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّوْعَ لِيَتَّصِفَ بِآثَارِهَا، وَهِيَ الْفِطْرَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْكَامِلَةُ فِي إِدْرَاكِهِ إِدْرَاكًا مُسْتَقِيمًا مِمَّا يَتَأَدَّى مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ الصَّادِقَةِ، أَيِ الْمُوَافِقَةُ لِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ الثَّابِتَةِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، بِسَبَبِ سَلَامَةِ مَا تُؤَدِّيهِ الْحَوَاسُّ السَّلِيمَةُ، وَمَا يَتَلَقَّاهُ الْعَقْلُ السَّلِيمُ مِنْ ذَلِكَ وَيَتَصَرَّفُ فِيهِ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ الْمُنْتَظِمَيْنِ، بِحَيْثُ لَوْ جَانَبَتْهُ التَّلْقِينَاتُ الضَّالَّةُ وَالْعَوَائِدُ الذَّمِيمَةُ وَالطَّبَائِعُ الْمُنْحَرِفَةُ وَالتَّفْكِيرُ الضَّارُّ، أَوْ لَوْ تَسَلَّطَتْ عَلَيْهِ تَسَلُّطًا مَا فَاسْتَطَاعَ دِفَاعَهَا عَنْهُ بِدَلَائِلِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، لَجَرَى فِي جَمِيعِ شؤونه عَلَى الِاسْتِقَامَةِ، وَلَمَا صَدَرَتْ مِنْهُ إِلَّا الْأَفْعَالُ الصَّالِحَةُ .

وَلَكِنَّهُ قَدْ يَتَعَثَّرُ فِي ذُيُولِ اغْتِرَارِهِ وَيُرْخِي الْعِنَانَ لِهَوَاهُ وَشَهْوَتِهِ، فَتَرْمِي بِهِ فِي الضَّلَالَاتِ، أَوْ يَتَغَلَّبُ عَلَيْهِ دُعَاةُ الضَّلَالِ بِعَامِلِ التَّخْوِيفِ أَوِ الْإِطْمَاعِ فَيُتَابِعُهُمْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، ثمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْتَحْكِمَ فِيهِ مَا تَقَلَّدَهُ فَيَعْتَادُهُ وَيَنْسَى الصَّوَابَ وَالرُّشْدَ.

وَيُفَسِّرُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ثُمَّ يَكُونُ أَبَوَاهُ هُمَا اللَّذَانِ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» الْحَدِيثَ . أخرجه البخاري (٢/ ٩٤ برقم ١٣٥٧) ، ونصُّ الحديث هو : «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» .

ذَلِكَ أَنَّ أَبَوَيْهِ هُمَا أَوَّلُ مَنْ يَتَوَلَّى تَأْدِيبَهُ وَتَثْقِيفَهُ وَهُمَا أَكْثَرُ النَّاس مُلَازَمَةً لَهُ فِي صِبَاهُ، فَهُمَا اللَّذَانِ يُلْقِيَانِ فِي نَفْسِهِ الْأَفْكَارَ الْأُولَى، فَإِذَا سَلِمَ مِنْ تَضْلِيلِ أَبَوَيْهِ فَقَدْ سَارَ بِفِطْرَتِهِ شَوْطًا ثُمَّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ عُرْضَةٌ لِعَدِيدٍ مِنَ الْمُؤَثِّرَاتِ فِيهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَاقْتَصَرَ النَّبِيءُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْأَبَوَيْنِ لِأَنَّهُمَا أَقْوَى أَسْبَابِ الزَّجِّ فِي ضَلَالَتِهِمَا، وَأَشَدُّ إِلْحَاحًا عَلَى وَلَدِهِمَا.

وَلَمْ يُعَرِّجِ الْمُفَسِّرُونَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا عَلَى تَفْسِيرِ التَّقْوِيمِ بِهَذَا الْمَعْنَى الْعَظِيمِ فَقَصَرُوا التَّقْوِيمَ عَلَى حُسْنِ الصُّورَةِ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَالْكَلْبِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ وَأَبِي الْعَالِيَةِ، أَوْ عَلَى اسْتِقَامَةِ الْقَامَةِ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَوْ عَلَى الشَّبَابِ وَالْجَلَادَةِ، وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ.

وَلَا يُلَائِمُ مَقْصِدَ السُّورَةِ إِلَّا أَنْ يُتَأَوَّلَ بِأَنَّ ذَلِكَ ذِكْرُ نِعْمَةٍ عَلَى الْإِنْسَانِ عَكَسَ الْإِنْسَانُ شُكْرَهَا فَكَفَرَ بِالْمُنْعِمِ فَرُدَّ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، سِوَى مَا حَكَاهُ ابْنُ عَطِيَّةَ عَنِ الثَّعْلَبِيِّ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ طَاهِرٍ أَنَّهُ قَالَ: «تَقْوِيمُ الْإِنْسَانِ عَقْلُهُ وَإِدْرَاكُهُ اللَّذَانِ زَيَّنَاهُ بِالتَّمْيِيزِ» وَلَفْظُهُ عِنْدَ الْقُرْطُبِيِّ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا مَعَ زِيَادَةِ : يَتَنَاوَلُ مَأْكُولَهُ بِيَدِهِ وَمَا حَكَاهُ الْفَخْرُ عَنِ الْأَصَمِّ أَنَّ أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ أَكْمَلُ عَقْلٍ وَفَهْمٍ وَأَدَبٍ وَعِلْمٍ وَبَيَانٍ» .

وَتُفِيدُ الْآيَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَفْطُورٌ عَلَى الْخَيْرِ وَأَنَّ فِي جِبِلَّتِهِ جَلْبَ النَّفْعِ وَالصَّلَاحِ لِنَفْسِهِ وَكَرَاهَةَ مَا يَظُنُّهُ بَاطِلًا أَوْ هَلَاكًا، وَمَحَبَّةَ الْخَيْرِ وَالْحَسَنِ مِنَ الْأَفْعَالِ لِذَلِكَ تَرَاهُ يُسَرُّ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، وَيَنْصَحُ بِمَا يَرَاهُ مَجْلَبَةً لِخَيْرِ غَيْرِهِ، وَيُغِيثُ الْمَلْهُوفَ وَيُعَامِلُ بِالْحُسْنَى، وَيَغَارُ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَيَشْمَئِزُّ مِنَ الظُّلْمِ مَا دَامَ مُجَرَّدًا عَنْ رَوْمِ نَفْعٍ يَجْلِبُهُ لِنَفْسِهِ أَوْ إِرْضَاءِ شَهْوَةٍ يُرِيدُ قَضَاءَهَا أَوْ إِشْفَاءِ غَضَبٍ يَجِيشُ بِصَدْرِهِ، تِلْكَ الْعَوَارِض الَّتِي تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فِطْرَتِهِ زَمَنًا، وَيَهَشُّ إِلَى كَلَامِ الْوُعَّاظِ وَالْحُكَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَيُكْرِمُهُمْ وَيُعَظِّمُهُمْ وَيَوَدُّ طُولَ بَقَائِهِمْ.

فَإِذَا سَاوَرَتْهُ الشَّهْوَةُ السَّيِّئَةُ فَزَيَّنَتْ لَهُ ارْتِكَابَ الْمَفَاسِدِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ رَدَّهَا عَنْ نَفْسِهِ انْصَرَفَ إِلَى سُوءِ الْأَعْمَالِ، وَثَقُلَ عَلَيْهِ نُصْحُ النَّاصِحِينَ، وَوَعْظُ الْوَاعِظِينَ عَلَى مَرَاتِبَ فِي كَرَاهِيَةِ ذَلِكَ بِمِقْدَارِ تَحَكُّمِ الْهَوَى فِي عَقْلِهِ.

وَلِهَذَا كَانَ الْأَصْلُ فِي النَّاس الْخَيْرَ وَالْعَدَالَةَ وَالرُّشْدَ وَحُسْنَ النِّيَّةِ عِنْدَ جُمْهُورٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ".

وقال محمَّد سيِّد طنطاوي(١٤٣١هـ) في"التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم"(١٥/٤٤٦) :"لقد خلقنا الإنسان في أعدل قامة، وأجمل صورة، وأحسن هيئة، ومنحناه بعد ذلك ما لم نمنحه لغيره، من بيان فصيح، ومن عقل راجح، ومن علم واسع، ومن إرادة وقدرة على تحقيق ما يبتغيه في هذه الحياة، بإذننا ومشيئتنا.

والتَّقويم في الأصل: تصيير الشَّيء على الصُّورة التي ينبغي أن يكون عليها في التَّعديل والتَّركيب. تقول: قوَّمت الشَّيء تقويماً، إذا جعلته على أحسن الوجوه التي ينبغي أن يكون عليها في التَّعديل والتَّركيب ، وهذا الحسن يشمل الظَّاهر والباطن للإنسان ...

والمراد بالإنسان هنا: جنسه ، أي: لقد خلقنا- بقدرتنا وحكمتنا- جنس الإنسان في أكمل صورة، وأحكم عقل ..." .

وقال محمَّد علي الصَّابوني(١٤٤٢هـ) في"صفوة التَّفاسير"(٣/ ٥٥١) : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، أي : خلقنا جنس الإِنسان في أحسن شكل، متَّصفاً بأجمل وأكمل الصِّفات، من حسن الصُّورة، وانتصاب القامة، وتناسب الأعضاء، مزيناً بالعلم والفهم، والعقل والتَّمييز، والنُّطق والأدب، قال مجاهد: **﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** أحسن صورة، وأبدع خلق".

وقال الدكتور راتب النَّابلسي في "موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة / آيات الله في الإنسان"(ص٤٧ فما بعدها) في كلامه عن خلق الإنسان في أحسن تقويم : "قال تعالى : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾**﴿التين : ٤-٦﴾ .

إنَّ الله جلَّ جلاله أتقن كلَّ شيء صَنَعَه ، وأحسن كلَّ شيء خَلَقه ، وإنَّك **﴿مَا تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفاوُتٍ﴾**﴿الملك : ٣﴾ ، من حيثُ كمالُ الخلق ، ومع ذلك فقد خصَّ الله الإنسان في هذه الآية ، وفي آيات أخرى بحسن التَّركيب ، قال تعالى : **﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شاءَ رَكَّبَكَ﴾**﴿الانفطار : ٨﴾ ، وبحسن التَّقويم : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾**﴿التين : ٤﴾ ، وبحسن التَّعديل : **﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾**﴿الانفطار : ٧﴾ .

وهذا فضلُ عنايةٍ بهذا المخلوق المكرَّم ، وإشارة إلى أنَّ لهذا الإنسان شأناً عند الله جلَّ جلاله ، وأنَّ له وزناً في نظام الكون .

فهذا الإنسان الذي هو أعقد آلة في الكون ، في خلاياه ، وأنسجته ، وفي أعضائه ، وأجهزته من التَّعقيد ، والدِّقَّة ، والإتقان ما يعجز عن فهم بِنيتِها ، وطريقة عملِها حقَّ الفهم أعلم العلماء .

وفي هذا الإنسان نفسٌ تعتلج فيها المشاعر والعواطف ، وتصطرعُ فيها الشَّهوات والقيم ، والحاجات ، والمبادئ ، حيث يعجز عن إدراك خصائصها تمام الإدراك أعلم علماء النَّفس .

وفي هذا الإنسان عقلٌ ، وفيه من المبادئ ، والمسلَّمات ، والقرى الإدراكيَّة ، والتَّحليليَّة ، والإبداعيَّة ما يؤهِّله ليكون سيِّد المخلوقات وأفضلها ، **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾**﴿الإسراء : ٧٠﴾ .

وممَّا يبيِّن ، ويوضحُ أنَّ الإنسان خلق في أحسن تقويم جهازُ المناعة المكتسب ، أو خطُّ الدِّفاع الثَّالث في جسم الإنسان .

لقد خصَّ المولى جلَّ وعلا الإنسان بأجهزة دفاع بالغة الدِّقَّة ، وأوَّل هذه الأجهزة الجلد ، وهو درعٌ سابغةٌ على البدن ، تردُّ عنه الجراثيم ، والأوبئة ، وهو خطُّ الدفاع الأولُ ، وخصَّ المولى جلَّ وعلا كلَّ عضو في الإنسان ، وكل جهاز ، وكلَّ حاسَّة بجهاز دفاع خاصٍّ به .

فالعين مثلاً خصَّت بالأهداب ، والأجفان ، والدَّمع ، وهذه الأجهزة الخاصة هي خطُّ الدِّفاع الثَّاني .

وأمَّا خطُّ الدِّفاع الثَّالث فهو الدَّم بجنوده من الكريات البيضاء ، وعدد هذه الكريات التي هي جنود خطِّ الدِّفاع الثَّالث خمسة وعشرون مليون كريةٍ في أيَّام السِّلم ، ويتضاعف هذا العدد في حال

الاستنفار ، وقد يصل إلى مئات الملايين في حال القتال ، في فترة لا تتجاوز السَّاعات ، أو الأيَّام ، ولهذه الجيوش الجرَّارة من الكريَّات البيضاء سلاح إشارة مؤلَّف من بضع موادّ كيماوية ، يعدُّ وسيلة الاتِّصال ، والتَّفاهم فيما بينها .

أمَّا خطَّة جهاز المناعة في الدِّفاع عن الجسم فهي من الدِّقَّة ، والتَّنسيق ، والفعاليَّة ، والذَّكاء الخارق ، على نحو عجيب ، إنَّها خلايا الدَّم البيضاء ، التي أدهشت العلماء ؛ إنْ في نظام عملها ، أو في توزيع الأدوار القتاليَّة على أفرادها ، أو في تحقيق المهمَّات المنوطة بها ، فبعد ثوان معدودات من اجتياز أي جسم غريب لخطوط الدِّفاع الأولى والثَّانية ، تتوجَّه إلى الجسم الغريب .

وثمَّة كريات مهمَّتها أخذ الشِّيفرة الكيماويَّة الخاصَّة بهذا العدو ، والاحتفاظ بها ، ثمَّ نقلها إلى المراكز اللمفاويَّة ، حيث تقوم الخلايا المحصَّنة بتفكيك رموز هذه الشِّيفرة تمهيداً لصنع المصل المضادِّ .

وبعد صنع المصل المضادِّ تتوجَّه الخلايا المقاتلة حاملة هذا السَّلاح ، وهو المصل ، لتهاجم به الجسم الغريب ، وبعد أن تصرعه بهذا السَّلاح الفعَّال تأتي الخلايا اللاقمة لتنظيف ساحة المعركة من بقايا جثث الأعداء ، ليعود الدَّم كما كان نقيَّاً سليماً ، وهذه الكرية البيضاء التي هي العنصر الأساسي في جهاز المناعة ؛ لا يزيد قطرها على خمسة عشر ميكروناً ، **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ﴿التين : ٤﴾ .

وهناك فرقة في هذا الجيش اكتشفت حديثاً ، وهي فرقة المغاوير ، التي بإمكان عناصرها اكتشاف الخليَّة السرطانيَّة في وقت مبكِّر جدَّاً ، ثمَّ تلتهمها .

أمَّا قوله سبحانه : **﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾** ﴿التين : ٥﴾ ، فإنَّه يتحقَّق حينما ينحرف الإنسان عن منهج ربِّه ، ويستجيب لنداء غريزته من دون ضابط من شرع ، أو رادع من فطرة ، أو زاجر من عقل ، وعند ذلك يبطل عمل هذا الجهاز ، ويموت الإنسان لأدنى مرض ، وما مرض نقص المناعة المكتسب ؛ الذي يهدِّد العالم المتفلِّت ؛ إلَّا تأكيدٌ لهذه الحقيقة : **﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾** .

ربَّما كان تركيز الآيات على الجانب الرُّوحي من الإنسان ؛ لأَنَّه هُيِّئ – إذا عرف ربَّه ، وسار على منهجه ، وتقرَّب إليه بالعمل الصَّالح – لأن يبلغ من الرِّفعة ما يفوق الملائكة المقرَّبين ، **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، أمَّا إذا أعرض عن ربِّه سبحانه ، وتفلَّت من منهجه ، وأساء إلى خلقه فإنَّه يهوي إلى دركات لا يصل إليها مخلوق قط ، **﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾** ، حيث تصبح البهائم أرفع منه ، وأقوم ، لاستقامتها على فطرتها ، وتسبيحها لربِّها ، وحسن أدائها لوظيفتها" .

الفَصْلُ الخَامِسُ

تَنْزِيْهُ الله تَعَالَى عَنِ الصُّوْرَة

من المعلوم يقيناً أنَّ العديد من العقائد التَّجسيميَّة التي يعتنقها أو بعضها المتسلِّفة مأخــوذة عن عقائد اليهود الذين ينسبون لله الجلوس على العرش ، والجسم ، والجوارح ، والأعضاء ، والصُّورة ، وغير ذلك ... ومع ذلك نسب هؤلاء أنفسهم زوراً وبُهتاناً للسَّلف الصَّالح ، والعياذ بالله تعالى ...ومن تلك العقائد التَّجسيميَّة : نِسْبَتُهُم الصُّورة لله تعالى ، بمعنى أنَّ لله تعالى صورة ... مع العلم أنَّ الصُّورة هي تعبير عن هيئة، أو شَكْل المُصوَّر ، وهي لا تنتج إلَّا عن تأليف وتركيب ، والله تعالى منزَّه عن الصُّور والتَّخطيط والتَّركيب ، وهو مُصوِّر الصُّور وخالقها لا على مثال سبق ...

ومن الأدلَّة على تنزيه الله تعالى عن الصُّورة والشَّكل والتَّخطيط والتَّركيب وسائر المحدثات :

(١) من أسماء الله تعالى الحسنى (المُصَوِّرُ) ، قال تعالى : **﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾**﴿ الحشر : ٢٤ ﴾ ، وجلَّ المصوِّرُ أن يكون مُصَوَّرَاً ، فالهيئة والصُّورة والتَّركيب والتَّأليف ... كلُّ ذلك إنَّما يصحُّ على الأجسام المحدودة والجواهر المخلوقة ، والله تعالى هو الخالق المقدِّر ، تنزَّه عن الحدِّ والمقدار ، والصُّور لا تنتج إلَّا عن تأليف وتركيب ، وصاحب الصُّورة لا يختصُّ بصورة إلَّا بمخصِّص ، والمخصِّص هو الله تعالى المصوِّر ، وهو تعالى يصوِّر مخلوقاته كيف شاء ، وكلّ ما له صورة فهي علامة على كونه مخلوق مصوَّر صوَّره خالقه ، والله تعالى هو (المصوِّر) خالق الصُّور **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** ، وذات الله تعالى وتقدَّس لا يسري عليه قوانين والمادَّة والأجسام ، لأنَّ الذي خلق المادَّة والجسم هو الله تعالى ، وهو الذي قهرها بالصُّور والأشكال ، والله تعالى ليس كمثله شيء ، فلا تسري عليه مفاهيم المواد والأجسام ، ولا الصُّور والأشكال ، لأنَّه ليس كمثله شيء ، وكلُّ ما خطر بالبال فالله خلافه ، والصُّورة تقتضي الكيفيَّة ، وهي عن الله تعالى وعن صفاته منفيَّة ، لذلك فإنَّ الذي يجب علينا وعلى كلِّ مسلم أن يعلمه أنَّ ربّنا ليس بذي صورة ولا هيئة ... وقد أسهبنا في الكلام على ذلك في الفصل الثَّاني من هذا الكتاب ...

(٢) قال الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾﴿الشورى : ١١ ﴾ ، أي : أنَّ الله تعالى لا يشبه شيئًا من خلقه بوجه من الوجوه ، ففي هذه الآية نفي المشابهة والمماثلة، ومن ذلك نفي الصُّورة والشَّكل والتَّخطيط والتَّركيب عن ربِّ العالمين ، وذلك لأنَّ جميع الخلائق لها صورة صورها الخالق البارئ المصوِّر سبحانه ، والله تعالى ليس كمثله شيء ، ومنْ قال في الله تعالى إِنَّ لهُ صورة فقدْ شبّههُ بخلْقِهِ ، والله تبارك وتعالى لو كان ذا صورة وشكل وتخطيط وتركيب لاحتاج إِلى منْ جعلهُ بتلك الصُّورة ، وبذلك الشَّكل والتَّخطيط، ولا يصِحُّ في العقْلِ أنْ يكُون هُو جعل نفْسه بتلك الصُّورة ، لأنَّ الجعل من الخلق والحدوث وهو ضد القدم والأوَّليَّة والإلهيَّة التي لا تكون إلَّا لله وحده لا شريك له ...

ونَفْيُ المِثْلِ فِيْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾﴿الشورى: ١١﴾ ، يُوْهِمُ بِوُجُوْدِ المِثْلِ ، لِأَنَّ الكَافَ بِمَعْنَى مِثْل ، فَيَصِيْرُ المَعْنَى : لَيْسَ مِثَل مِثْلِهِ شَيءٌ ، فَالنَّفْيُ يَكُوْنُ لِـمِثْلِ الْمِثْلِ ، فَمَا رَأْيُكُم ؟

الجواب : الجواب على هذا الإشكال بعدَّة أجوبة :

(أ) أنَّ الكاف صلة ، أي زائدة لتأكيد نفي المثْل ، فالمعنى : انتفى المثْل انتفاء مؤكَّداً .

(ب) أنَّ المثْل بمعنى الصِّفة ، فالمعنى : ليس كصفة الله تعالى شيء .

(ج) أنَّ الآية من باب الكناية ، على حدِّ قولك : (مِثلُكَ لا يجبُن) ، أي : أنت لا تجْبُن . ووجه كونها من باب الكناية أنَّه يلزم من نفي مثْل المثْل نفي المثْل ، وهذا هو المراد . فالقصد نفي مثله تعالى على أبلغ وجه ، إذ الكناية أبلغ من التَّصريح لتضمُّنها إثبات الشَّيء بدليله .

وعليه ، فالآية الكريمة تنفي عن الله تعالى المماثلة لشيء من الحوادث ، ونفي المماثلة يفيد أُموراً عديدة ، من أهمِّها : نفي الجسميَّة والعَرَضيَّة والجوهريَّة : لأنَّ الجسم مؤلَّف من جواهر – الجوهر هو الشَّيء الذي لا يتجزَّأ ولا يقبل القسمة – وأعراض – هو ما يستدعي وجوده جسم ليقوم به ، حيث لا يقوم إلا بغيره – ، وهما حادثان

(٣) قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾﴿النحل : ٦٠﴾ ، أي : الوصف الذي لا يشبه وصف غيره، فلا يوصف ربّنا عزَّ وجلَّ بأيِّ صفة من صفات المخلوقين ...

(٤) قال الله تعالى : **﴿فَلا تَضْرِبُوا للهِ الْأَمْثالَ﴾**﴿النحل : ٧٤﴾ ، أي لا تجعلوا لله الشَّبيهَ والمِثْل ، فإنَّ اللهَ تعالى لا شبيه له ولا مثيل له، فلا ذاتُه يشبه الذَّواتِ ولا صفاتُه تشبه الصِّفات ، فلا يوصف ربّنا عزَّ وجلَّ بصفات المخلوقين من الصُّورة والشَّكل والتَّخطيط والتَّركيب تعالى اللهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا ...

(٥) قال الله تعالى : **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾**﴿مريم : ٦٥﴾ ، أي : مِثلاً، فالله تعالى لا مِثْلَ له ولا شبيه ولا نظير، فمن وصفه بصفة من صفات الخلق كالصُّورة والشَّكل والتَّخطيط والتَّركيب يكون شَبَّهَهُ بهم ، تعالى اللهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا ...

(٦) قال الله تعالى : **﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾**﴿الإخلاص:٤ ﴾ ، أي : لا نظير له بوجه من الوجوه، ، ومنه نستفيد نفي للمثليَّة كقوله تعالى: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**﴿الشورى:١١﴾ ، ولو كان مُصَوَّرا لكان مثلاً لسائر المخلوقات المحدودة المقدَّرة . انظر: موقع د. محمود صبيح .

وقد اجتمعت كلمة علماء الإسلام في الكلام على تنزيه الله تعالى عن الصُّورة ... ومن أقوالهم في ذلك :

قال أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التَّميمي البغدادي الحنبلي(٤١٠هـ) في"اعتقاد الإمام ابن حنبل"(ص٢٩٤) :"وَمذهب أبي عبد الله أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ أَنَّ لله عزَّ وجلَّ وَجهاً لَا كالصُّور المصوَّرة والأعيان المخطَّطة بل وجهه وَصفه بقوله : **﴿كُلُّ شَيْء هَالِكٌ إِلَّا وَجْهه﴾** ، وَمن غيَّر مَعْنَاهُ فقد ألحد عَنهُ ، وَذَلِكَ عِنْده وَجه فِي الْحَقِيقَة دون الْمجَاز ، وَوجه الله بَاقٍ لَا يبْلى وَصفَة لَهُ لَا تفنى ، وَمن ادَّعى أَنَّ وَجهه نَفسه فقد ألحد ، وَمن غيَّر مَعْنَاهُ فقد كفر. وَلَيْسَ معنى وَجْه معنى جَسَد عِنْده وَلَا صُورَة وَلَا تخطيط ، وَمن قَالَ ذَلِك فقد ابتدع" .

وقال أيضاً في"اعتقاد الإمام ابن حنبل"(ص٢٩٨) :"وَأنكر – أي الإمام أحمد– على من يَقُول بالجسم ، وَقَالَ : إِنَّ الْأَسْمَاء مَأْخُوذَة بالشَّريعة واللغة، وَأهل اللُّغَة وضعُوا هَذَا الاسم على كلِّ ذِي طول وَعرض وسمك وتركيب وَصُورَة وتأليف ، وَالله تَعَالَى خَارج عَن ذَلِك كُلِّه فَلم يجز أَن يُسمَّى جسماً لِخُرُوجِهِ عَن معنى الجسميَّة ، وَلم يجِئ فِي الشَّرِيعَة ذَلِك فَبَطل" .

وقال عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ) في"كتاب أصول الدِّين"(ص٣٣٧) :"كلُّ من شبَّه ربَّه بِصُورَة الْإِنْسَان من البيانيَّة والمغيريَّة والجواربيَّة المنسوبة إلى داود الجواربي ، والهشاميَّة المنسوبة إِلَى هِشَام بن سَالم الجواليقي ، فإنَّما يعبد إنْسَاناً مثله ، وَيكون حكمه فِي الذَّبِيحَة وَالنِّكَاح كَحكم عَبدة الْأَوْثَان فِيهَا ، وَكَذَلِكَ من زعم أَنَّ بعض النَّاس إِلَه وادَّعى حُلُول روح الْإِلَه فِيهِ على مَذْهَب الحلوليَّة كَمَا قالته الخطَّابيَّة فِي جَعْفَر الصَّادِق ، وكما قالته الرزاميَّة فِي أبي مُسلم صَاحب دَعْوَة بني الْعَبَّاس ، وكما قالته المبيضة فِي الْمقنع ، فَهُوَ عَابِد وثن ، وأمَّا جسميَّة خُرَاسَان من الكرَّاميَّة فتكفيرهم وَاجِب لقَولهم : بأنَّ الله تَعَالَى لَهُ حدٌّ وَنِهَايَة من جِهَة السّفل" .

وقال أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزالي الطُّوسي(٥٠٥هـ) في"إحياء علوم الدِّين"(١/ ٩٠) :"وأنَّه ليس بجسم مصوَّر ولا جوهر محدود مقدَّر ، وأنَّه لا يماثل الأجسام لا في التَّقدير ولا في قبول الانقسام ، وأنَّه ليس بجوهر ولا تحلُّه الجواهر ، ولا بعَرَض ولا تحلُّه الأعراض ، بل لا يماثل موجوداً ، ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شيء ، ولا هو مثل شيء .

وأنَّه لا يحدُّه المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْجِهَاتُ ، وَلَا تَكْتَنِفُهُ الْأَرَضُونَ ولا السَّموات ، وَأَنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواء منزَّهاً عن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته ، وَهُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالسَّمَاءِ ، وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى تُخُومِ الثَّرَى ، فَوْقِيَّةً لَا تَزِيدُهُ قُرْبًا إِلَى الْعَرْشِ وَالسَّمَاءِ ، كَمَا لَا تَزِيدُهُ بُعْدًا عَنِ الْأَرْضِ وَالثَّرَى ، بَلْ هُوَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ عَنِ الْعَرْشِ وَالسَّمَاءِ ، كَمَا أَنَّهُ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ عَنِ الْأَرْضِ وَالثَّرَى ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْعَبْدِ من حبل الوريد ، وهو على كلِّ شيء شهيد، إِذْ لَا يُمَاثِلُ قُرْبُهُ قُرْبَ الْأَجْسَامِ ، كَمَا لَا تُمَاثِلُ ذَاتُهُ ذَاتَ الْأَجْسَامِ ، وَأَنَّهُ لَا يَحُلُّ فِي شَيْءٍ ، وَلَا يَحُلُّ فِيهِ شَيْءٌ ، تَعَالَى عَنْ أَنْ يَحْوِيَهُ مَكَانٌ ، كَمَا تَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَحُدَّهُ زَمَانٌ ، بَلْ كَانَ قَبْلَ أَنْ خَلَقَ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى ما عليه كان .

وأنَّه بائن عن خلقه بصفاته ، ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته ، وأنَّه مقدَّس عن التَّغيُّر والانتقال ، لا تحلُّه الحوادث ولا تعتريه العوارض ، بل لا يزال في نعوت جلاله منزَّهاً عن الزَّوال ، وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال ، وَأَنَّهُ فِي ذَاتِهِ مَعْلُومُ الْوُجُودِ بِالْعُقُولِ ، مَرْئِيُّ الذَّات بالأبصار ، نعمة منه ولطفاً بالأبرار في دار القرار ، وَإِتْمَامًا مِنْهُ لِلنَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ" .

وأضاف الغزالي في"إحياء علوم الدِّين"(١/١٠٨) :"الأصل التَّاسع : العلم بأنَّه تعالى مع كونه منزَّهاً عن الصُّورة والمقدار ، مقدَّساً عن الجهات والأقطار ، مرئي بالأعين والأبصار في الدَّار الآخرة دار القرار ، لقوله تعالى : **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ * إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾**«القيامة:٢٢-٢٣» ، ولا يُرى في الدُّنيا تصديقاً ، لقوله عزَّ وجلَّ : **﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ﴾**«الأنعام:١٠٣» ، ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السَّلام : **﴿لَنْ تَرانِي﴾**«الأعراف:١٤٣» ، وليت شعري كيف عرف المعتزل من صفات ربِّ الأرباب ما جهله موسى عليه السَّلام ؟ وكيف سأل موسى عليه السَّلام الرُّؤية مع كونها محالاً ؟ ولعلَّ الجهل بذوي البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم . وأمَّا وجه إجراء آية الرُّؤية على الظَّاهر فهو أنَّه غير مؤد إلى المحال ، فإنَّ الرُّؤية نوع كشف وعلم إلَّا أنَّه أتم وأوضح من العلم ، فإذا جاز تعلُّق العلم به وليس في جهة جاز تعلُّق الرُّؤية به وليس بجهة ، وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس في مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة ، وكما جاز أن يعلم من غير كيفيَّة وصورة جاز أن يُرى كذلك" .

وقال طاهر بن محمَّد الأسفراييني، أبو المظفَّر(٤٧١هـ) في"التَّبصير في الدِّين وتمييز الفرقة النَّاجية عن الفرق الهالكين"(ص١٦٠) :"وَأَن تعلم أَنَّ الْحَرَكَة والسُّكون والذَّهاب والمجيء والكون فِي الْمَكَان والاجتماع والافتراق والقُرب والبُعد من طَرِيق الْمسَافَة والاتِّصال والانفصال والحجم والجرم والجثَّة والصُّورة والحيِّز والمقدار والنَّواحي والأقطار والجوانب والجهات ، كلُّهَا لَا تجوز عَلَيْهِ تَعَالَى ، لِأَنَّ جَمِيعهَا يُوجب الْحَدَّ وَالنِّهَايَة ، وَقد دللنا على اسْتِحَالَة ذَلِك على الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وأصل هَذَا فِي كتاب الله تَعَالَى ، وَذَلِكَ أَنَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلام لَمَّا رأى هَذِه العلامات على

الْكَوَاكِب وَالشَّمْس وَالْقَمَر قَالَ : ﴿لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾﴿الأنعام:٧٦﴾ ، فَبيَّن أَّن مَا جَازَ عَلَيْهِ تِلْكَ الصِّفات لَا يكون خَالِقًا .

وَأَن تعلم أَنَّ كلّ مَا تصوَّر فِي الْوَهم من طُول وَعرْض وعُمق وألوان وهيئات مُخْتَلفَة ، يَنْبَغِي أَن تعتقد أَن صانع الْعَالم بخلافة ، وَأَنَّه قَادر على خلق مثله ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنى أَشَارَ الصّديق رَضِي الله عَنهُ بقوله :الْعَجز عَن دَرْك الْإِدْرَاك إِدْرَاك ، وَمَعْنَاهُ : إِذا صَحَّ عنْدك أَنَّ الصَّانِع لَا يُمكن مَعْرفَته بالتَّصوير والتَّركيب وَالْقِيَاس على الْخلق صَحَّ عنْدك أَّنه خلاف الْمَخْلُوقَات ، وتحقيقه : أَنَّك إِذا عجزت عَن مَعْرفَته بِالْقِيَاسِ على أَفعاله صَحَّ معرفتك لَهُ بِدلَالَة الْأَفْعَال على ذَاته وَصِفَاته ، وَقد وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفسه بقوله : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾﴿الحشر:٢٤﴾ ، وَمَا كَانَ مُصَوِّراً لم يكن مُصوَّراً ، كَمَا أَنَّ من كَانَ مخلوقاً لم يكن خَالِقًا" .

وقال محمَّد بن محمَّد بن محمود، أبو منصور الماتريدي(٣٣٣هـ) في"التَّوحيد"(ص٨٥) :"فَإِن قيل : كَيفَ يُرى ؟ قيل : بِلَا كَيفَ ، إِذْ الْكَيْفِيَّة تكون لذي صُورَة ، بل يُرى بِلَا وصف قيام وقعود ، واتِّكاء وَتعلُّق ، واتِّصال وانفصال ، ومقابلة ومدابرة ، وقصير وطويل ، وَنور وظُلمة ، وَسَاكن ومتحرِّك ، ومماس ومباين ، وخارج وداخل ، وَلَا معنى يَأْخُذهُ الْوَهم أَو يقدِّره الْعقل ، لتعاليه عَن ذَلِك" .

وقال أبو بكر الباقلاني المالكي(٤٠٣هـ) في"تمهيد الأوائل في تلخيص الدَّلائل"(ص٣٠٠ فما بعدها) :"بَاب : فَإِن قَالَ قَائِل : فخبِّرونا عَن الله سُبْحَانَهُ مَا هُوَ ؟ قيل لَهُ : إِن أردْت بِقَوْلِك : مَا هُوَ ؟ مَا جنسه ؟ فَلَيْسَ هُوَ بِذِي جنس ، لما وصفناه قبل هَذَا ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : مَا هُوَ ؟ مَا اسْمه ؟ فاسمه الله الرَّحْمَن الرَّحِيم الْحَيّ القيوم ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : مَا هُوَ مَا صنعه ؟ فصنعه الْعدْل وَالْإِحْسَان والإنعام وَالسَّمَوَات وَالْأَرْض وَجَمِيع مَا بَينهمَا ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : مَا هُوَ ؟ مَا الدّلَالَة على وجوده ؟ فالدّلالة على وجوده جَمِيع مَا نرَاهُ ونشاهده من مُحكم فعله وَعَجِيب تَدْبيره ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : مَا هُوَ ؟ أَي أَشِيرُوا إِلَيْهِ حتَّى أرَاهُ ، فَلَيْسَ هُوَ الْيَوْم مرئيَّاً لخلقه ومدركاً لَهُم فنريكه .

بَاب : فَإِن قَالَ قَائِل : وَكَيف هُوَ ؟ قيل لَهُ : إِن أردْت بالكيفيَّة التَّرْكِيب والصُّورة والجنسيَّة فَلَا صُورَة لَهُ وَلَا جنس فنخبرك عَنهُ ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : كَيفَ هُوَ ؟ أَي : على أَي صفة هُوَ ؟ فَهُوَ حَيّ عَالم قَادر سميع بَصِير ، وَإِن أردْت بِقَوْلِك : كَيفَ هُوَ ؟ أَي : كَيفَ صنعه إِلَى خلقه ؟ فصنعه إِلَيْهِم الْعدْل وَالْإِحْسَان .

بَاب : فَإِن قَالَ قَائِل أَيْن هُوَ ؟ قيل لَهُ : الأين سُؤال عَن الْمَكَان ، وَلَيْسَ هُوَ مِمَّن يجوز أَن يحويه مَكَان وَلَا تحيط بِهِ أقطار ، غير أَنَّا نقُول : إِنَّه على عَرْشه لَا على معنى كَون الْجِسْم بالملاصقة والمجاورة ، تَعَالَى عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً .

بَاب : فَإِن قَالَ قَائِل : فَمَتَى كَانَ ؟ قيل لَهُ : سؤالك عَن هَذَا يَقْتَضِي كَونه فِي زمَان لم يكن قبله ، لِأَن مَتى سُؤال عَن الزَّمَان ، وَقد عرفناك أَنَّه قديم كَائِن قبل الزَّمَان ، وَأَنَّه الْخَالِق للمكان وَالزَّمَان ، وموجود قبلهمَا ، وتوقيت وجود الشَّيْء بعام أَو مائَة ألف عَام يُفِيد أَنَّ الموقت وجوده مَعْدُوم قبل الزَّمَان الَّذِي وَقت بِهِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَسْتَحِيل عَلَيْهِ تَعَالَى" .

قال القرطبي في"الجامع لأحكام القرآن"(٤/١٣-١٤) :"قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الْعَبَّاسِ رَحْمَةُ اللهَّ عَلَيْهِ: مُتَّبِعُو الْمُتَشَابِهِ لَا يَخْلُو أَنْ يَتَّبِعُوهُ ويجمعوه طلباً للتَّشكيك فِي الْقُرْآنِ وَإِضْلَالِ الْعَوَامِّ، كَمَا فَعَلَتْهُ الزَّنَادِقَةُ وَالْقَرَامِطَةُ الطَّاعِنُونَ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ طَلَبًا لِاعْتِقَادِ ظَوَاهِرِ الْمُتَشَابِهِ، كَمَا فَعَلَتْهُ الْمُجَسِّمَةُ الَّذِينَ جَمَعُوا مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا ظَاهِرُهُ الْجِسْمِيَّةُ حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّ الْبَارِئَ تَعَالَى جِسْمٌ مُجَسَّمٌ وصورة مصورة ذات وجه وعين وئد وَجَنْبٍ وَرِجْلٍ وَأُصْبُعٍ، تَعَالَى اللهَّ عَنْ ذَلِكَ" .

وعلى كلِّ حال فقد اجتمعت كلمة أهل الحقّ على تنزيه الله تعالى عن سائر المحدثات ، ومنها : الصُّورة ...مع العلم أنَّ الاعتقاد بأنَّ الله تعالى له صورة تُمائل صورة الإنسان ... هو عقيدة يهوديَّة تجسيميَّة بحتة ...

فقد جاء في سفر التَّكوين(١: ٢٦) :" وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا ، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّماءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ».

وجاء في سفر التّكوين(١: ٢٧) :"فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ"

وجاء في سفر التّثنية(٤:١٥-١٦) :"فَإِنَّكُمْ لمْ تَرُوا صُورَةً مَا يَوْمَ كَلمَكُمُ الرَّب فِي حُورِيبَ مِنْ وَسَطِ النَّارِ. لِئَلَّا تَفْسُدُوا وَتَعْمَلُوا لأَنْفُسِكُمْ تِمْثَالاً مَنْحُوتاً صُورَةَ مِثَالٍ مَا شِبْهَ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى".

ومع كلِّ ذلك وللأسف ... فقد سار المتسلِّفةُ على سنن اليهود في وصف الله تعالى بالصُّورة ...

قال ابن تيمية (٧٢٨هـ) :"... فقوله :"فإذا أنا بربِّي في أحسن صورة"، صريحٌ في أنَّ الذي كان في أحسن صورة هو ربُّه". فماذا تقولون في هذا التَّشبيه ؟؟

وقال أيضاً :"... أنَّ حديث أُم الطُّفيل نصٌّ في أنَّ الصُّورة كانت للمرئي ، حيث قال : سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يذكر أنَّه رأى ربَّه في صورة شاب موفّر ، رِجْلاه في خضر ، عليه نعلان من ذهب ، على وجهه فراش من ذهب". انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ٣٥٨) ،(٧/ ٣٦٥) بالترتيب .

وهذا أيضاً ... ألا يُعتبر ما تضمَّنه الحديث تشبيهاً لله تعالى بخلقه ؟!! أم ماذا هو ؟!! وألا يعتبر الحديث تحديداً لله تعالى ؟ وألا يشتمل الحديث على كونه تعالى متحيِّزاً ؟!! لأنَّ الشابَّ الأمرد لا يعيش إلَّا ضمن حيِّزٍ ، ثمَّ أليس الحديث لوناً من ألوان التَّجسيم بأبعاده الثَّلاثة من الطُّول والعَرْض والارتفاع ؟!! . مع العلم أنَّ حديث أُم الطُّفيل هذا حديث باطل منكر ، حكم بضعفه الإمام أحمد ، قال القاضي أبو يعلى (٤٥٨هـ) :"ورأيت فِي مسائل مهنا بن يحيى الشَّامي (٢٦٠هـ) ، قَالَ : سألته يعني أَحْمَد عن حديث رواه ابن وهب ، عن عمرو بن الحرث ، عن سعيد بن أَبِي هلال ، أن مروان بن عثمان حدثه ، عن أُم الطُّفيل امرأة أَبِي بن كعب ، أنَّها قالت : سمعت النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :"يذكر أنَّه رأى ربَّه فِي المنام فِي صورة شابٍّ موفر ، رجلاه فِي خضر ، عليه نعلان من ذهب ، عَلَى وجهه فراش من ذهب"فحوَّل وجهه عنِّي ، وَقَالَ : هَذَا حديث منكر، وَقَالَ : لا نعرف هَذَا رجل مجهول يعني مروان بن عثمان ، فظاهر هَذَا التَّضعيف من أَحْمَد لحديث أُم الطُّفيل". انظر : إبطال

التأويلات لأخبار الصفات (١/ ١٤٠-١٤١) .

فالحديث موضوعٌ تالفٌ كما سبق بيانه ...

ومن العجائب والغرائب والمصائب أن يقوم ابن تيمية بتصحيح رواية الشَّاب الأمرد ، فقد قال في كتابه :"بيان تلبيس الجهميَّة :"كما في الحديث الصَّحيح !!! المرفوع !!! عن قتادة عن عكرمة عن ابن عبَّاس قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :"رأيت ربِّي في صورة شابٍّ أمرد له وفرة جعد قطط في روضة خضراء". انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٧/ ٢٩٠) .

وقام المدعو حمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرَّحْمَن التُّويجري (١٤١٣هـ) ، بتصنيف كتاب سمَّاه :"عقيدة أهل الإيمان في خلق ءادم على صورة الرَّحْمَن"، جاء فيه :"أنَّ الله جلَّ وعزَّ لما خلق السَّماء والأرض ، قال : نخلقُ بشراً بصورتنا ، فخلق آدم ...".

وفي كتابه سالف الذِّكر نقل التُّويجري عن التَّوراة المحرَّفة ، فقال :"وأيضاً فهذا المعنى عند أهل الكتاب من الكتب المأثورة عن الأنبياء كالتَّوراة فإنَّ في السِّفر الأوَّل منها : سنخلق بشراً على صورتنا يشبهها".

وقال أيضاً :"... وكذلك حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما أَنَّ موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ضرب الحجر لبني إسرائيل فتفجَّر ، وقال :"اشربوا يا حمير"، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه :"عمدت إلى خلقٍ من خلقي ، خلقتُهم على صُورتي ، فشبَّهتهم بالحمير"، فما برح حتَّى عُوتب".

وقال أيضاً :"... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :"من قاتل فليجتنب الوجه ، فإنَّ صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرَّحْمَن".

وقال أيضاً :"... وثانيها : حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، قال :"لا تقبِّحوا الوجه ، فإنَّ الله خلق آدم على صورة الرَّحْمَن". أخرجه ابن خزيمه في كتاب التوحيد وإثبات صفات الرَّب عزَّ وجلَّ (١/ ٨٥) ، وقال :"وقد افتتن بهذه اللفظة التي في خبر عطاء عالم ممَّن لم يتحر العلم وتوهموا أن إضافة الصُّورة إلى الرَّحْمَن في هذا الخبر من إضافة صفات الذات ، فغلطوا في هذا غلطاً بيناً ، وقالوا مقالة شنيعة مضاهية لقول المشبهة ، أعاذنا الله وكل المسلمين من قولهم .

والذى عندي في تأويل هذا الخبر إن صح من جهه النقل موصولاً فإن في الخبر عللاً ثلاثاً :

إحداهن : أن الثورى قد خالف الأعمش في إسناده فأرسل الثورى ولم يقل عن ابن عمر .

والثانية : أن الأعمش مدلس لم يذكر أنه سمعه من حبيب بن أبي ثابت .

والثالثة : أن حبيب بن أبي ثابت أيضاً مدلس لم يعلم أنه سمعه من عطاء سمعت إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد يقول ثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش قال قال حبيب بن أبي ثابت لو حدثني رجل عنك بحديث لم أبال أن أرويه عنك يريد لم أبال أن أدلسه . قال أبو بكر ومثل هذا الخبر لا يكاد يحتج به علماؤنا من أهل الأثر لا سيما إذا كان الخبر في مثل هذا الجنس فيما يوجب العلم لو ثبت لا فيما يوجب العمل بما قد يستدل على صحته وثبوته بدلائل من نظر وتشبيه وتمثيل بغيره من سنن النبي من طريق الأحكام والفقه . فإن صح هذا الخبر مسندا بأن يكون الأعمش قد سمعه من حبيب بن أبي ثابت وحبيب قد سمعه من عطاء بن أبي رباح وصح أنه عن ابن عمر على ما رواه الأعمش فمعنى هذا الخبر عندنا أن إضافة الصُّورة إلى الرَّحْمَن في هذا الخبر إنَّما هو من إضافة الخلق إليه".

وهذا نصٌّ صريحٌ في أَنَّ الله تعالى خلق الإنسان على صورة وجهه الذي هو صفة من صفات ذاته . وهذا النَّصُّ لا يحتمل التَّأويل ، وفيه أبلغُ ردٍّ على ابن خزيمة ، وعلى كلِّ من تأَوَّل الحديث بتأويلات الجهميَّة المعطِّلة". انظر : عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرَّحْمَن (ص١٦) ،(ص٣١) ،(ص٧٦) ،(ص٢٧) ،(ص١٢٩) ،(ص٤٠) بالترتيب .

وقال أيضاً :"وفي حديث ابن عبَّاس: إنَّ موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ضرب الحجر لبني إسرائيل فتفجَّر وقال: اشربوا يا حمير ، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: عمدت إلى خلقٍ من خلقي خلقتهم على صورتي فشبَّههم بالحمير ، فما برح حتَّى عوتب" . انظر : عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرَّحْمَن (ص١٧) .

والكتاب المذكور قام بتقريظه الشَّيخ ابن باز – غفر الله له – ، حيث قال في تقريظه له :

بِسْمِ اللهِّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المملكة العربيَّة السعوديَّة ... الرَّقم ٣٨٠/خ

رئاسة إدارات البحوث العلميَّة والإفتاء والدَّعوة والإرشاد ... التَّاريخ (٣٠/ ٣/ ١٤٠٨هـ)

الحمد لله وحده ، والصَّلاة والسَّلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه ، أمَّا بعد :

فقد اطَّلعتُ على ما كتبه صاحب الفضيلة الشَّيخ حمود بن عبد الله التُّويجري وفقه الله وبارك في أعماله ، فيما ورد من الأحاديث في خلق آدم على صورة الرَّحْمَن ، وسمَّى مؤلَّفه في ذلك :"عقيدة

أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرَّحْمَن"، فألفيته كتاباً قيِّماً !!! كثير الفائدة !!! قد ذكر فيه الأحاديث الصَّحيحة الواردة في خلق آدم على صورة الرَّحْمَن ، وفيما يتعلَّق بمجيء الرَّحْمَن يوم القيامة على صورته !!! وقد أجاد وأفاد !!! وأوضح ما هو الحقّ في هذه المسألة !!! وهو أَنَّ الضَّمير في الحديث الصَّحيح في خلق آدم على صورته يعود إلى الله عزَّ وجلَّ !!! وهو موافق لما جاء في حديث ابن عمر : أَنَّ الله خلق آدم على صورة الرَّحْمَن . وقد صحَّحه الإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ، والآجري ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وآخرون من الأئمَّة رحمة الله عليهم جميعاً . وقد بيَّن كثيرٌ من الأئمَّة خطأ الإمام ابن خزيمة رحمه الله في إنكار عود الضَّمير إلى الله سبحانه في حديث ابن عمر ، والصَّواب ما قاله الأئمة المذكورون وغيرهم في عود الضَّمير إلى الله عزَّ وجلَّ ، بلا كيف ، ولا تمثيل ، بل صورة الله سبحانه تليق به وتناسبه كسائر صفاته ، ولا يشابهه فيها شيء من خلقه سبحانه وتعالى ، كما قال عزَّ وجلَّ : **﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾**﴿الإخلاص: ١ – ٤ ﴾ ، وقال عزَّ وجلَّ : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** ﴿الشورى: ١١ ﴾ ، وقال سبحانه : **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾**﴿مريم: ٦٥﴾ ، وقال عزَّ وجلَّ : **﴿فَلا تَضْرِبُوا للهِ الْأَمْثَالَ﴾** ﴿النحل: ٧٤ ﴾ . والآيات في هذا المعنى كثيرة ، والواجب على أهل العلم والإيمان إمرار آيات الصِّفات وأحاديثها الصَّحيحة كما جاءت ، وعدم التَّأويل لها بما يخالف ظاهرها ، كما درج على ذلك سلف الأمَّة وأئمَّتها ، مع الإيمان بأَنَّ الله سبحانه ليس كمثله شيء ، في صورته ، ولا وجهه ، ولا يده ، ولا سائر صفاته ، بل هو سبحانه له الكمال المطلق من جميع الوجوه في جميع صفاته ، لا شبيه له ، ولا مثْل له ، ولا تكيَّف صفاته بصفات خلقه ، كما نصَّ على ذلك سلف الأمَّة وأئمَّتها من أصحاب النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وأتباعهم بإحسان رحمهم الله جميعاً وجعلنا من أتباعهم بإحسان . ومن تأمَّل ما كتبه أخونا العلَّامة الشَّيخ حمود التُّويجري في هذا الكتاب وما نقله عن الأئمَّة اتَّضح له ما ذكرنا ، فجزاه الله خيراً ، وزاده من العلم والإيمان ، وجعلنا وإيَّاه وسائر إخواننا من أنصار السُّنَّة والقرآن ، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه .

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وأصحابه ومن استقام على نهجه إلى يوم الدِّين .

عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرَّئيس العام لإدارات البحوث العلميَّة والإفتاء والدَّعوة والإرشاد . انظر : عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرَّحْمَن (ص٧-٨) .

وأكَّد إمامهم المدعو صالح الشَّيخ على عقيدة المشابهة بين الله وبين خلقه ، فقال :"وأمَّا المشابهة في مطلق المعنى وهو أصله الذي حصل به الاشتراك ، فإنَّ هذا ليس منفيَّاً ؛ لأنَّ هذا أثبته الرَّبُّ عزَّ وجلَّ". انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٥٣) ، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ .

وقال محمَّد خليل هرَّاس:"فالصُّورةُ لا تُضاف إلى الله كإضافة خلقه إليه ، لأنَّها وصفٌ قائمٌ به". انظر : هامش كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (ص٣٩) ، ط١٩٧٨م .

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم ...

الفَصْلُ السَّادِسُ

أَقْوَالُ العُلَمَاءِ فِي الأَحَادِيْثِ الَّتِي تَضَمَّنَت الكَلَامَ عَنِ الصُّوْرَة

جاءت أحاديث كثيرة أضافت الصُّورة لله تعالى ، كما جاءت أحاديث أخرى تُوهمُ بإضافة الصُّورة له تعالى ... من ذلك :

روى أحمد في المسند(٥/٤٣٧ فما بعدها برقم ٣٤٨٤) بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ:"أَتَانِي رَبِّي عزَّ وجلَّ اللَّيْلَةَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ - أَحْسِبُهُ يَعْنِي فِي النَّوْمِ - فَقَالَ: يَا محمَّد هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الْأَعْلَى؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا"قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، حتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ - أَوْ قَالَ: نَحْرِي - فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، ثمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الْأَعْلَى؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، يَخْتَصِمُونَ فِي الْكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ، قَالَ: وَمَا الْكَفَّارَاتُ وَالدَّرَجَاتُ؟ قَالَ: الْمُكْثُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَالْمَشْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِبْلَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ، وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وَقُلْ يَا محمَّد إِذَا صَلَّيْتَ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً، أَنْ تَقْبِضَنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ، قَالَ: وَالدَّرَجَاتُ: بَذْلُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ والنَّاس نِيَامٌ". قال الأرنؤوط في تخريجه :"إسناده ضعيف، أبو قلابة- واسمه عبد الله بن زيد الجرمي- لم يسمع من ابن عباس، ثمَّ إن فيه اضطراباً يأتي تفصيله لاحقاً. وهو في"تفسير عبد الرزاق" ٢/ ١٦٩ بلفظ:"أتاني آت الليلة في أحسن صورة ...".

وأخرجه ابن الجوزي في"العلل المتناهية" ١/ ٣٤-٣٥ من طريق أحمد بن حنبل، بهذا الإسناد.

وأخرجه عبد بن حميد (٦٨٢) ، والترمذي (٣٢٣٣) من طريق عبد الرزاق، قال الترمذي: وقد ذكروا بين أبي قلابة وبين ابن عباس في هذا الحديث رجلًا، وقد رواه قتادة، عن أبي قلابة، عن خالد بن اللجلاج، عن ابن عباس. وقال أبو زرعة فيما نقله عنه المزي في"التحفة" ٤/ ٣٨٣ عن أحمد بن حنبل: حديث قتادة هنا ليس بشيء، والقول ما قال ابن جابر، قلنا: يعني عبد الرَّحْمَن بن يزيد بن جابر، عن خالد بن اللجلاج، عن عبد الرَّحْمَن بن عائش، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال في"التهذيب": عبد الرَّحْمَن بن عائش الحضرمي، ويقال السكسكي: مختلف في صحبته وفي إسناد حديثه، روي عنه حديث:"رأيت ربي في أحسن صورة"(هو في"السنة" (١٤٦٨) لابن أبي عاصم) ، وقيل: عنه، عن رجل من الصحابة (هو في"المسند" ٤/ ٦٦ و٥/ ٣٧٨) ، وقيل: عنه، عن مالك بن يخامر، عن معاذ بن جبل (هو في"المسند" ٥/ ٢٤٣) ، وقيل غير ذلك، روى عنه خالد بن اللجلاج، وأبو سلام الأسود، وربيعة بن يزيد، قال البخاري: له حديث واحد

إلا أنهم يضطربون فيه، وقال أبو حاتم: هو تابعي وأخطأ من قال: له صحبة، وقال أبو زرعة الرازي: ليس بمعروف، وقال الترمذي: لم يسمع من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأخرجه ابن خزيمة في كتاب"التوحيد" (٣٢٠) من طريق محمَّد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن معمر، به.

وأخرجه الآجري في"الشريعة" ص٤٩٦ من طريق أيوب، عن أبي قلابة، عن خالد بن اللجلاج، عن ابن عباس.

وأخرجه بنحوه الترمذي (٣٢٣٤) ، وابن أبي عاصم في"السنة" (٤٦٩) ، وأبو يعلى (٢٦٠٨) ، وابن خزيمة في"التوحيد" (٣١٩) ، والآجري في"الشريعة" ص٤٩٦ من طريق معاذ ببن هشام، عن أبيه، عن قتادة، عن أبي قلابة، عن خالد بن اللجلاج، عن ابن عباس. ورواية ابن أبي عاصم مختصرة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

قال ابن أبي حاتم في"العلل" ١/ ٢٠: سألت أبي عن حديث رواه معاذ بن هشام عن أبيه، عن قتادة، عن أبي قلابة، عن خالد بن اللجلاج، عن ابن عباس، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"رأيت ربي عز وجل"، وذكر الحديث في إسباغ الوضوء ونحوه، قال أبي: هذا رواه الوليد بن مسلم وصدقة عن ابن جابر، قال: كنا مع مكحول، فمر به خالد بن اللجلاج، فقال مكحول: يا أبا إبراهيم، حدثنا، فقال: حدَثني ابن عائش الحضرمي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال أبي: هذا أشبه، وقتادة يقال: لم يسمع من أبي قلابة إلا أحرفاً، فإنه وقع إليه كتاب من كتب أبي قلابة فلم يميزوا بين عبد الرَّحْمَن بن عائش، وبين ابن عباس. قال أبي: وروى هذا الحديث جهضم بن عبد الله اليمامي وموسى بن خلف العمَي، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده ممطور، عن أبي عبد الرَّحْمَن السَّكْسَكي، عن مالك بن يخامر، عن معاذ بن جبل، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال أبي: وهذا أشبه من حديث ابن جابر.

وقال محمَّد بن نصر في"تعظيم قدر الصلاة" فيما نقله الحافظ ابن حجر في"النكت الظراف" ٤/ ٣٨: هذا حديث اضطرب الرواةُ في إسناده، وليس يثبت عن أهل المعرفة.

وقال الدارقطني في"العلل" ٦/ ٥٤-٥٧ وقد سئل عنه: رواه عبد الرَّحْمَن بن يزيد بن جابر، عن خالد بن اللجلاج، قال: سمعت عبد الرَّحْمَن بن عائش قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ذلك الوليد بن مسلم، وحماد بن مالك، وعمارة بن بشير، عن ابن جابر، وكذلك قال الأوزاعي: عن عبد الرَّحْمَن بن يزيد بن جابر: عن خالد بن اللجلاج، وقال يزيد بن يزيد بن جابر، عن خالد بن اللجلاج، عن عبد الرَّحْمَن بن عائش، عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ذلك زهير بن محمد، عنه.

وقال خارجة بن مصعب: عن يزيد بن يزيد، عن خالد بن اللجلاج، عن عبد الرَّحْمَن بن عياش، عن بعض أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّما أراد ابن عائش.

ورواه أبو قلابة عن خالد بن اللجلاج واختلف عنه، فرواه قتادة واختلف عليه فيه أيضاً، فقال يوسف بن عطية الصفار: عن قتادة، عن أنس بن مالك، ووهم فيه.

وقال هشام الدستوائي من رواية المقدمي، عن معاذ بن هشام، عن أبيه: عن قتادة، عن أبي قلابة، عن خالد بن اللجلاج، عن ابن عباس، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووهم في قوله: ابن عباس، وإنَّما أراد ابن عياش عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال القواريري وأبو قدامة وغيرهم عن معاذ بن هشام، عن أبيه: عن قتادة، عن أبي قلابة، عن خالد، عن ابن عباس.

ورواه أيوب عن أبي قلابة، واختلف عن أيوب، فرواه أنيس بن سوار الجرمي، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن خالد بن اللجنن، عن عبد الله بن عائش، ورواه عدي بن الفضل، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس.

ورواه حميد الطويل، عن بكر، عن أبي قلابة، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مرسلا، وروى هذا

الحديث يحيى بن أبي كثير فحفظ إسناده، فرواه جهضم بن عبد الله القيسي، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده أبي سلام واسمه ممطور، عن عبد الرَّحْمَن الحضرمي، وهو عبد الرَّحْمَن بن عائش، قال: حدثنا مالك بن يخامر، قال: حدثنا معاذ بن جبل، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورواه موسى بن خلف العمي، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده أبي سلام، فقال: عن أبي عبد الرَّحْمَن السَّكسَكي، وإنَّما أراد: عن عبد الرَّحْمَن، وهو ابن عائش، وقال: عن مالك بن يخامر، عن معاذ، فعاد الحديث إلي معاذ بن جبل. (ويأتي الكلام عليه في مسند معاذ ٥/ ٢٤٣) .

وروي عن عبد الرَّحْمَن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل نحو هذا، ورواه الحجاج بن دينار، عن الحكم بن عتيبة، عن ابن أبي ليلى، ورواه سعيد بن سويد القرشي الكوفي، عن عبد الرَّحْمَن بن إسحاق، عن ابن أبي ليلى، عن معاذ.

قال: ليس فيها صحيح، وكلها مضطربة. انتهى كلام الدارقطني.

وقال البيهقي في"الأسماء والصفات" ص٣٠٠: وقد روي من أوجه أخَر، وكلها ضعيف.

وقال ابن الجوزي في"العلل المتناهية" ١/ ٣٤: أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة، قال الدارقطني: كل أسانيده مضطربة، ليس فيها صحيح.

وقال الذهبي في ترجمة عبد الرَّحْمَن بن عائش من"الميزان" ٢/ ٥٧١ عن هذا الحديث: حديثه عجيب غريب.

وفي الباب عن جابر بن سمرة عند ابن أبي عاصم في"السنة" (٤٦٥) ، بلفظ:"إن الله تجلى لي في أحسن صورة"، وفيه إبراهيم بن طهمان، وله غرائب، وأكثر ما خرفي له البخاري في الشواهد، وسماك بن حرب ليس بذاك القوي، خاصة في مثل هذا المطلب.

وعن أبي أمامة وهو في"السنة" أيضاً (٤٦٦) ، وفي سنده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

وعن ثوبان عند ابن أبي عاصم (٤٧٠) ، والبزار (٢١٢٨- كشف الأستار) ، وفي سن ابن أبي عاصم عبدُ الله بن صالح، وهو سيئ الحفظ، وفي سنديهما أبو يحيى، ولم نتبينه، وإسناد ابن أبي عاصم فيه انقطاع.

وعن أم الطفيل امرأة أبي بن كعب عند ابن أبي عاصم (٤٧١) ، وإسناده ضعيف جداً، وأشار اليه الحافظ في"تهذيب التهذيب" ١٠/ ١٧٤ وقال: متنه منكر.

وعن أبي رافع عند الطبراني في"الكبير" (٩٣٨) ، قال الهيثمي في"المجمع" ١/ ٢٣٧: فيه عبد الله بن إبراهيم بن الحسين، عن أبيه، ولم أرَ من ترجمهما.

وعن ابن عمر عند البزار (٢١٢٩) ، وإسناده ضعيف لضعف سعيد بن سنان.

قلنا: فهذه الأحاديث كلها تدور على الضعفاء والمجاهيل.

الملأ الأعلى: هم الملائكة، والملأ: الجماعة" .

وروى أحمد في المسند(١٢/ ٢٧٥ برقم ٧٣٢٣) **بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ".** قال الأرنؤوط :) إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وأخرجه الحميدي (١١٢١) ، ومسلم (٢٦١٢) (١١٢) ، وأبو يعلى (٦٢٧٤) ، وابن حبان (٥٦٠٥) ، والآجري في "الشريعة" ص ٣١٤، والبيهقي في "السنن" ٨/ ٣٢٧، وفي "الأسماء والصفات" ص ٢٩٠ من طريق سفيان بن عيينة، بهذا الإسناد.

وأخرج الشطر الأول منه أبو داود (٤٤٩٣) من طريق عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة.

وسيأتي برقم (٩٧٩٩) من طريق محمد بن إسحاق، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة - ولفظه: "إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه".

وسيأتي الحديث -تاما ومقطعا- من طرق أخرى عن أبي هريرة انظر (٧٤٢٠) . و (٨١٢٥) و (٨٢٩١) و (٨٣٣٩) و (٨٥٧٣) و (٩٧٩٩) . والشطر الثاني منه سيأتي ضمن الحديث (٨١٧١) ، ويأتي بيان معناه هناك.

وفي الباب عن أبي سعيد الخدري، سيأتي في "المسند" ٣/ ٣٨ و٩٣.

قال النووي في "شرح مسلم" ١٦/ ١٦٥ : قال العلماء: هذا تصريح بالنهي عن ضرب الوجه، لأنه لطيفٌ بجميع المحاسن، وأعضاؤه نفيسة لطيفة، وأكثر الإدراك بها، فقد يبطلها ضرب الوجه، وقد ينقصها، وقد يشوه الوجه، والشين فيه فاحش، لأنه بارز ظاهر لا يمكن ستره، ومتى ضربه لا يسلم من شين غالبا، ويدخل في النهي إذا ضرب زوجته أو ولده أو عبده ضرب تأديب، فليجتنب الوجه

أَقْوَالُ العُلَمَاءِ فِي الأَحَادِيْثِ الَّتِي أَضَافَتْ وَالَّتِي أَوْهَمَتْ بِإِضَافَةِ الصُّورة لله تَعَالَى

وروى أحمد في المسند (١٢/ ٣٨٢ برقم ٧٤٢٠) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَجَنَّبِ الْوَجْهَ، وَلَا يَقُلْ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ". قال الأرنؤوط : إسناده قوي. وسيأتي مكررا برقم (٩٦٠٤)

وأخرجه ابن أبي عاصم في"السنة" (٥٢٠) ، وابن خزيمة في"التوحيد" ١/ ٨٢-٨٣ و٨٣، والآجري في"الشريعة" ص ٣١٤-٣١٥، واللالكائي في"شرح أصول الاعتقاد" (٧١٥) ، والبيهقي في"الأسماء والصفات" ص ٢٩١، والخطيب في"تاريخ بغداد" ٢/ ٢٢٠-٢٢١ من طريق يحيى بن سعيد القطان، بهذا الإسناد. وليس في رواية الآجري قوله:"ولا تقل: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك".

وأخرجه الحميدي (١١٢٠) ، والبخاري في"الأدب المفرد" (١٧٢) ، وابن أبي عاصم (٥١٩) ، وابن خزيمة في"التوحيد" ١/ ٨١-٨٢ و٨٢، والآجري في"الشريعة" ص ٣١٤ من طرق عن محمَّد بن عجلان، به. ولم يذكر الشطر الأول من الحديث وهو قوله:"إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه" عند الحميدي وابن أبي عاصم وابن خزيمة في موضعه الأول والآجري، وهو عند ابن خزيمة في الموضع الثاني دون الشطر الثاني منه، واقتصر البخاري منه على قوله:"لا تقولوا: قبح الله وجهه".

وأخرجه البخاري في"الأدب" (١٧٣) من طريق سفيان بن عيينة، عن ابن عجلان، به - ووقفه على أبي هريرة.

وأخرج أوله البخاري أيضا (١٧٤) من طريق سليمان بن بلال، عن محمَّد بن عجلان، عن أبيه وسعيد المقبري، عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ:"إذا ضرب أحدكم خادمه، فليجتنب الوجه".

وأخرجه النسائي في"الكبرى" (٧٣٥٠) من طريق يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة - لم يذكر فيه سعيدا، ولم يقل فيه: خادمه.

وأخرجه البخاري في"الصحيح" (٢٥٥٩) من طريق سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، بلفظ:"إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه".

وأخرجه عبد الرزاق في"مصنفه"(١٧٩٥٢) عن يحيى البجلي، عن ابن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي هريرة. كلفظ المصنف.

وانظر ما سلف برقم(٧٣٢٣) .

قوله:"قبح" هو بفتح القاف والباء مخففة، قال أبو عمرو بن العلاء: قبحت له وجهه، مخففة، والمعنى: قلت له: قبحه الله، وهو من قوله تعالى: (ويوم القيامة هم من المقبوحين) ، أي: من المبعدين الملعونين، وهو من القبح: وهو الإبعاد.

"اللسان" ٢/ ٥٥٢ (قبح) .

وقوله:"على صورته"، قال السندي: أي: صورة المضروب والمقول فيه، أي: فينبغي تكريم وجهه لكونه على صورة آدم" .

وَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ - وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ - فَاسْتَمِعْ مَا يُجِيبُونَكَ (٢) ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ"قَالَ:"فَذَهَبَ، فَقَالَ: السَّلام عَلَيْكُمْ فَقَالُوا: السَّلام عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله. فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ الله"، قَالَ:"فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّة عَلَى صُورَةِ آدَمَ، وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمْ يَزَلْ يَنْقُصُ الْخَلْقُ بَعْدُ حتَّى الْآنَ". أخرجه أحمد في المسند(١٣/ ٥٠٤ برقم ٨١٧١) . قال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وهو في"مصنف عبد الرزاق"(١٩٤٣٥) ، ومن طريقه أخرجه البخاري في"صحيحه"(٣٣٢٦) و(٦٢٢٧) ، وفي"الأدب المفرد"(٩٧٨) ، ومسلم(٢٨٤١) (٢٨) ، وابن خزيمة في"التوحيد" ١/ ٩٣-٩٤، وابن حبان(٦١٦٢) ، وابن منده في"الرد على الجهمية" ص ٤١-٤٢، واللالكائي في"شرح أصول الاعتقاد"(٧١١) و(٧١٢) ، والبيهقي في"الأسماء والصفات" ص ٢٨٩-٢٩٠، والبغوي(٣٢٩٨) .

وأخرجه الترمذي(٣٣٦٨) ، والنسائي في"عمل اليوم والليلة"(٢١٨) و(٢٢٠) ، والطبري في"تاريخه" ١/ ٩٦ و١٥٥، وابن خزيمة في"التوحيد" ١/ ١٦٠، وابن حبان(٦١٦٧) ، والحاكم ١/ ٦٤، والبيهقي في"الأسماء والصفات" ٣٢٤-٣٢٥، من طريق الحارث بن أَبي ذباب، عن سعيد بن أَبي سعيد المقبري، عن أَبي هريرة. ورواية الترمذي وابن حبان والطبري والحاكم والبيهقي مطولة. وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، وقال النسائي: هذا خطأ، يعني رواية ابن أَبي ذباب. وصوَّب رواية ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أَبية عن عبد الله بن سلام موقوفاً! وساقها بإسناده برقم(٢١٩) .

وأخرجه أَبو يعلى(٦٥٨٠) من طريق إسماعيل بن رافع، عن المقبري، عن أَبي هريرة. وروايته مطولة. وإسماعيل بن رافع ضعيف منكر الحديث.

وأخرجه النسائي في"عمل اليوم والليلة"(٢٢٠) ، والطبري ١/ ٩٦ و١٥٥ من طريق أبي سلمة، وأَبي صالح، والشعْبي، ويزيد بن هرمز، والحاكم ١/ ٦٤ من طريق الشعبي أربعتهم عن أَبي هريرة. واستنكر النسائي هذه الروايات عن أَبي هريرة!

وانظر ما سلف برقم(٧١٦٥) و (٧٣٢٣) ، وما سيأتي(٨٢٩١) .

قال أَبو حاتم وابن حبان في"صحيحه" ١٤/ ٣٣: هذا الخبر تعلق به من لم يُحكِم صناعة العلم، وأخذ يشنِّع على أهل الحديث الذين ينتحلون السنن، ويذبُّون عنها، ويقمعون من خالفها بأن قال: ليست تخلو هذه"الهاء" من أن تنسب إلى الله، أو إلى آدم، فإن نسبت إلى الله، كان ذلك كفراً، إذ"ليس

كمثله شيء" ﴿الشورى: ١١﴾ ، وإن نسبت إلى آدم، تعرى الخبر عن الفائدة، لأنه لا شك أن كل شيء خلق على صورته، لا على صورة غيره.

ومعنى الخبر عندنا بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"خلق الله آدم على صورته": إبانةُ فضل آدم على سائر الخلق،"والهاءُ" راجعة إلى آدم، والفائدة من رجوع"الهاء" إلى آدم دون إضافتها إلى الباريء جل وعلا -جل ربّنا وتعالى عن أن يشبَّه بشيء من المخلوقين- أنه جل وعلا جعل سبب الخلق الذي هو المتحرك النامي بذاته اجتماع الذكر والأنثى، ثمَّ زوال الماء عن قرار الذكر إلى رحم

الأنثى، ثمَّ تغير ذلك إلى العلقة بعد مدة، ثمَّ إلى المضغة، ثمَّ إلى الصورة، ثمَّ إلى الوقت الممدود، فيه، ثمَّ الخروج من قراره، ثمَّ الرضاع، ثمَّ الفطام، ثمَّ المراتب الأُخر على حسب ما ذكرنا، إلى حلول المنيَّة به، هذا وصف المتحرك النامي بذاته من خلقه، وخلق الله جل وعلا آدم على صورته التي خلقه عليها وطوله ستون ذراعاً من غير أن تكون تقدمة اجتماع الذكر والأنثى، أو زوال الماء،

أو قراره، أو تغيير الماء علقة أو مضغة، أو تجسيمه بعده، فأبان الله بهذا فضله على سائر من ذكرنا من خلقه بأنه لم يكن نطفة فعلقة، ولا علقة فمضغةً، ولا مضغةً فرضيعاً، ولا رضيعاً ففطيماً، ولا فطيماً فشاباً، كما كانت هذه حالةُ غيره" .

وروى ابن خزيمة في كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرَّب عزَّ وجلَّ(ص٣٨) بسنده عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُقَبِّحُوا الْوَجْهَ فَإِنَّ ابْنَ آدَمَ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ» . قال ابن خزيمة :" وَقَدِ افْتُتِنَ بِهَذِهِ اللَّفْظَةِ الَّتِي فِي خَبَرِ عَطَاءٍ عَالمٌ مِمَّنْ لَمْ يَتَحَرَّ الْعِلْمَ، وَتَوَهَّمُوا أَنَّ إِضَافَةَ الصُّورَةِ إِلَى الرَّحْمَنِ فِي هَذَا الْخَبَرِ مِنْ إِضَافَةِ صِفَاتِ الذَّاتِ، فَغَلَطُوا فِي هَذَا غَلَطًا بَيِّنًا، وَقَالُوا مَقَالَةً شَنِيعَةً مُضَاهِيَةً لِقَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ، أَعَاذَنَا اللهُّ وَكُلَّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَوْلِهِمْ وَالَّذِي عِنْدِي فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْخَبَرِ إِنْ صَحَّ مِنْ جِهَةِ النَّقْلِ مَوْصُولًا: فَإِنَّ فِي الْخَبَرِ عِلَلًا ثَلَاثًا :

إِحْدَاهُنَّ: أَنَّ الثَّوْرِيَّ قَدْ خَالَفَ الْأَعْمَشَ فِي إِسْنَادِهِ، فَأَرْسَلَ الثَّوْرِيُّ وَلَمْ يَقُلْ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ .

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ الْأَعْمَشَ مُدَلِّسٌ، لَمْ يُذْكَرْ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ .

وَالثَّالِثَةُ: أَنَّ حَبِيبَ بْنَ أَبِي ثَابِتٍ: أَيْضًا مُدَلِّسٌ، لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ عَطَاءٍ، سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حَبِيبِ بْنِ الشَّهِيدِ يَقُولُ: ثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ: قَالَ حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ: لَوْ حَدَّثَنِي رَجُلٌ عَنْكَ بِحَدِيثٍ لَمْ أُبَالِ أَنْ أَرْوِيَهُ عَنْكَ، يُرِيدُ لَمْ أُبَالِ أَنْ أُدَلِّسَهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمِثْلُ هَذَا الْخَبَرِ، لَا يَكَادُ يَحْتَجُّ بِهِ عُلَمَاؤُنَا مِنْ أَهْلِ الْأَثَرِ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْخَبَرُ فِي مِثْلِ هَذَا الْجِنْسِ،

فِيمَا يُوجِبُ الْعِلْمَ لَوْ ثَبَتَ، وَلَا فِيمَا يُوجِبُ الْعَمَلَ بِمَا قَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى صِحَّتِهِ وَثُبُوتِهِ بِدَلَائِلَ مِنْ نَظَرٍ، وَتَشْبِيهٍ، وَتَمْثِيلٍ بِغَيْرِهِ مِنْ سُنَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِنْ طَرِيقِ الْأَحْكَامِ وَالْفِقْهِ .

فَإِنْ صَحَّ هَذَا الْخَبَرُ مُسْنَدًا بِأَنْ يَكُونَ الْأَعْمَشُ قَدْ سَمِعَهُ مِنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، وَحَبِيبٌ قَدْ سَمِعَهُ مِنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَصَحَّ أَنَّهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَلَى مَا رَوَاهُ الْأَعْمَشُ فَمَعْنَى هَذَا الْخَبَرِ عِنْدَنَا أَنَّ إِضَافَةَ الصُّورَةِ إِلَى الرَّحْمَنِ فِي هَذَا الْخَبَرِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ إِضَافَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ لِأَنَّ الْخَلْقَ يُضَافُ إِلَى الرَّحْمَنِ، إِذِ اللهُ خَلَقَهُ، وَكَذَلِكَ الصُّورَةُ تُضَافُ إِلَى الرَّحْمَنِ، لِأَنَّ اللهَ صَوَّرَهَا، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾**﴿لقمان: ١١﴾ ، فَأَضَافَ اللهُ الْخَلْقَ إِلَى نَفْسِهِ، إِذِ اللهُ تَوَلَّى خَلْقَهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾**﴿الأعراف: ٧٣﴾ ، فَأَضَافَ اللهُ النَّاقَةَ إِلَى نَفْسِهِ، وَقَالَ: **﴿تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾**﴿الأعراف: ٧٣﴾ ، وَقَالَ: **﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾**﴿النساء: ٩٧﴾ ؟ قَالَ: **﴿إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾**﴿الأعراف: ١٢٨﴾ ، فَأَضَافَ اللهُ الْأَرْضَ إِلَى نَفْسِهِ، إِذِ اللهُ تَوَلَّى خَلْقَهَا فَبَسَطَهَا، وَقَالَ: **﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا﴾**﴿الروم: ٣٠﴾ ، فَأَضَافَ اللهُ الْفِطْرَةَ إِلَى نَفْسِهِ إِذِ اللهُ فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا، فَمَا أَضَافَ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ عَلَى مَعْنَيَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إِضَافَةُ الذَّاتِ، وَالْآخَرُ: إِضَافَةُ الْخَلْقِ فَتَفَهَّمُوا هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ، لَا تَغَالَطُوا فَمَعْنَى الْخَبَرِ إِنْ صَحَّ مِنْ طَرِيقِ النَّقْلِ مُسْنَدًا، فَإِنَّ ابْنَ آدَمَ خُلِقَ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهَا الرَّحْمَن، حِينَ صَوَّرَ آدَمَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾**﴿الأعراف: ١١﴾ .

قال السقَّاف في "ذيل كتاب دفع شبه التَّشبيه بأكفِّ التَّنزيه"(ص٢٨١ فما بعدها ببعض التصرف) :

"حديث : " رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ، فَقَالَ لِي: «يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى» مَرَّتَيْنِ؟ قُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ يَا رَبِّ فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ، **﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾** . قَالَ: «فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى يَا مُحَمَّدُ؟» قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ ، قَالَ: مَا هِيَ قُلْتُ: مَشْيٌ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ خِلَافَ الصَّلَوَاتِ ، وَإِبْلَاغُ الْوُضُوءِ أَمَاكِنَهُ فِي الْمَكَارِهِ ، قَالَ: «مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَعِشْ بِخَيْرٍ وَيَمُتْ بِخَيْرٍ ، وَيَكُونُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» ، قَالَ: «وَمَا الدَّرَجَاتُ؟»

قَالَ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَبَذْلُ السَّلَامِ ، وَأَنْ يَقُومَ اللَّيْلَ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، «سَلْ تُعْطَهْ» ، قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الطَّيِّبَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينَ وَأَنْ تَتُوبَ عَلَيَّ ، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ ، فَتَعَلَّمُوهُنَّ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُنَّ الْحَقُّ " .

هذا الحديث لا يثبت من ناحية سنده ومتنه من وجوه :

الأوَّل : رواه التِّرمذي في سننه(٥/ ٣٦٦) ، وحسَّنه والخطيب البغدادي تاريخه (٨/ ١٥٢) ، وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٢٥) ، والطَّبراني في الكبير (١/ ٣١٧) ، وأورده الحافظ السُّيوطي في كتابه "اللالىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة"(١/ ٣١) ، وذكر أنَّ في سنده حمَّاد سلمة، وقد روي الحديث عن حمَّاد بلفظ آخر كما قال السُّيوطي في "اللالىء المصنوعة" (١/ ٣١) ، ذكر هذا اللفظ الحافظ الذَّهبي في الميزان ، وابن عدي في «الكامل في الضُّعفاء»، ففي الميزان - أعني ميزان الاعتدال -(١/ ٥٩٣) ، قال : "رأيت ربِّي جعداً أمرد عليه حلَّة خضراء" .

قلت : أورد الذَّهبي صدر الحديث الذي نحن بصدده ، والذي اضطرب فيه الرُّواة اضطراباً عجيباً في كتابه القيِّم «سير أعلام النُّبلاء» (١٠/ ١١٣ - ١١٤) من طريق حمَّاد هذا ، وقال : وهو بتامه في تأليف البيهقي، وهو خبر منكر، نسأل الله السَّلامة في الدين ... اهـ .

قلت : الامام الحافظ البيهقي قال في كتابه "الاسماء والصِّفات" (ص٣٠٠ بتحقيق المحدِّث الكوثري) : «وقد روي من وجه آخر وكلّها ضعيف». اهـ .

قلت : وهذا تصريح من البيهقي بضعف طرق هذا الحديث ، وقول الذَّهبي معه بأنَّه منكر، مع إيراد الحافظ السُّيوطي وابن الجوزي له في الموضوعات يثبت وضعه بلا شكٍ ولا ريب . كما أنَّ الحافظ ابن خزيمة أطال في ردِّ أحاديث الصُّورة في كتابه في الصِّفات .

فإن قال قائل: قد حسَّن التِّرمذيُ الحديث بل قد صحَّحه في بعض الرِّوايات عنه ، قلنا: هذا لا ينفع لوجوه :

منها: أنَّ التِّرمذيَّ رحمه الله تعالى متساهلٌ في التَّصحيح والتَّحسين، كما هو مشهور مثله مثل الحاكم رحمه الله في «المستدرك» يصحِّح الموضوعات كما هو مشهور عند أهل الحديث .

ومنها: أنَّ تضعيف هؤلاء الحفَّاظ الذين ذكرناهم وهم جهابذة أهل الحديث الذين حكموا على الحديث بأنَّه منكر وموضوع وغير ذلك مقدَّم على تحسين التِّرمذي أو تصحيحه .

ومنها: أنَّ الثَّابت من كلام التِّرمذي رحمه الله من نسخ سننه أنَّه قال: حسن غريب، كا نقل ذلك عنه الحافظ المزِّي في "تحفة الاشراف" (٤/ ٣٨٢) ، والمنذري في "التَّرغيب والتَّرهيب" ، وقد فصَّل القول في المسألة الحافظ ابن حجر العسقلاني حيث قال في كتابه : «النُّكت الظِّراف» المطبوع مع "تحفة الاشراف" معلِّقاً على قول التِّرمذي : حسن غريب ما نصّه : حديث: «أتاني ربِّي في أحسن صورة ...» الحديث . قلت : قال محمَّد بن نصر المروزي في كتاب «تعظيم قدر الصَّلاة»: هذا حديث اضطرب الرُّواة في إسناده، وليس يثبت عند أهل المعرفة . اهـ كلام ابن حجر العسقلاني.

وقال الحافظ ابن حجر في "تهذيب التهذيب"(٦/ ١٨٥ طبعة دار الفكر) : «قال أبوزرعة الدِّمشقي : قلت لأحمد: إنَّ ابن جابر يحدِّث عن ابن اللجلاج عن عبدالرَّحمن بن عائش حديث : رأيت ربي في أحسن صورة، ويحدث به قتادة عن أبي قلابة عن خالد بن اللجلاج عن ابن عبَّاس قال: هذا ليس بشيء .اهـ .

وقال ابن الجوزي في كتابه «العلل المتناهية» (١/ ١٣٤) عقب هذا الحديث : «أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة، قال الدَّارقطني : كلُّ أسانيده مضطربة ليس فيها صحيح اهـ .

قلت: والمضطرب من أقسام الضَّعيف كما هو معلوم .

(تنبيه): حصل أيضاً عند التِّرمذي مزج بين هذا الحديث، وحديث آخر عن سيِّدنا ابن عبَّاس في اثبات أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رأى الله عزَّ وجلَّ ليلة الاسراء ، ولفظ الحديث : «رأيت ربِّي" دون قوله «في أحسن صورة». وهذا الذي جعل الإمام التِّرمذي ينقل تصحيح الحديث أو تحسينه خطأً ، ولذلك لم يوافقه الحفَّاظ . وقد نقل بعض العلماء عن ابن صدقة عن أبي زرعة أنَّه قال : حديث ابن عبَّاس صحيح لا ينكره إلَّا معتزلي اهـ أي حديث ابن عبَّاس في رؤية الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لله تعالى ليلة الاسراء ، وهذا موضوع آخر، وهو مفصَّل في كتاب

«المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» للمحدِّث علي القاري بتحقيق فضيلة العلَّامة الشَّيخ عبدالفتاح أبوغدَّة (ص١٠٢).

(تنبيه آخر): بيَّن الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى اصطلاح التِّرمذي في قوله : حسن غريب في كتابه : "النُّكت على ابن الصَّلاح" (١/ ٣٨٦ وما بعده) أنَّه يعني به الضَّعيف .

وهناك نقاط حديثيَّة عديدة أعرضت عنها ولم أذكرها ههنا خوف التَّطويل والملل .

الوجه الثَّاني : هناك ألفاظ منكرة في متن الحديث تؤكِّد وضعه ، منها :

إثبات الصُّورة الله تعالى، وكذلك إثبات الكفّ له سبحانه وتعالى عن ذلك ، وأنَّها بقدْر ما بين كتفي سيِّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وإثبات علم ما في السَّموات والأرض للنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وغير ذلك ممَّا لا أودّ الآن الإطالة بسرده، فأقول مجيباً عن بعض هذه المسائل:

(١)أمَّا الأولى: فالله عزَّ وجلَّ ليست له صورة، بلا شكٍّ، وذلك لأنَّه بيَّن أنَّ المخلوقات ومنها الإنسان مركَّبة من صورة ، وهو سبحانه **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** ، إذ قال سبحانه: **﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شاءَ رَكَّبَكَ﴾**

وأجمع أهل السُّنَّة على استحالة الصُّورة على الله عزَّ وجلَّ، كما نقل ذلك الإجماع الشَّيخ الامام عبد القاهر البغدادي في كتابه العظيم "الفرق بين الفرق» (ص٣٣٢) ، وقال الشَّافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه كما في «سير أعلام النُّبلاء(١٠/ ٢٠) ، والحلية (٩/ ١٠٥) ، وآداب الشَّافعي لابن أبي حاتم (٢٣١) ، وغير ذلك: «الإجماع أكبر من الحاديث المنفرد" . اهـ. أي أنَّ الإجماع إذا صادمه حديث أحاد أسقط الاحتجاج به ، بل يدلُّ ذلك على وضعه وأنَّه لا أصل له كما يقول الحافظ الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقِّه» (١/ ١٣٢) .

(٢) إثبات الكفّ هنا إثبات جارحة لله تعالى، ويبعد تأويلها بالقدرة، لأنَّ قدرة الله عزَّ وجلَّ شاملة لجسد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الشَّريف، وإثبات أنَّه وجد برد كفّ الله تعالى الله عن ذلك بين ثدييه صلى الله عليه وآله وسلم يبعد التَّأويل بالقدرة ، ويؤكِّد وضع الحديث، لا سيَّما وأنَّ الحفَّاظ كالذَّهبي قالوا عنه منكر لأجل هذه الألفاظ وأشباهها .

كما أنَّ تأويل قوله : "في أحسن صورة "، أي أحسن صورة للنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فيه تكلُّف لا يخفى، والحديث موضوع لا يثبت .

(٣) وقوله فيه «فعلمت ما بين السَّموات والأرض» تنقضه نصوص صحيحة صريحة منها قوله تعالى : **﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾** فالله عزَّ وجلَّ أوضح لنا وبيَّن أنَّ علمه بهذه الأشياء الموجودة في ظلمات الأرض ممَّا لا يعلمها إلَّا هو، وأمَّا الملائكة فكلٌّ منهم موكَّل بشيء محدود معلوم في السَّماء أو في الأرض ، أمَّا علم جميع وظائفهم وما في السَّماء والأرض فهو لله عزَّ وجلَّ .

ومنها قوله سبحانه: **﴿إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُّ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾** .

فلو كان سيِّدنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يعلم ذلك أيضاً لقال : (إنَّ الله ورسوله يعلمان غيب السَّموات والأرض) .

وروى الحاكم في المستدرك (١/ ١٦٧ برقم ٣٠٦) بسنده عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ أَيُّ الْبِقَاعِ خَيْرٌ؟ فَقَالَ: «لَا أَدْرِي» فَقَالَ: أَيُّ الْبِقَاعِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: «لَا أَدْرِي» فَقَالَ: سَلْ رَبَّكَ، قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ جِبْرِيلُ، قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنِّي سُئِلْتُ أَيُّ الْبِقَاعِ خَيْرٌ وَأَيُّ الْبِقَاعِ شَرٌّ؟ فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي " فَقَالَ: جِبْرِيلُ: وَأَنَا لَا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ رَبِّي، قَالَ: فَانْتَفَضَ جِبْرِيلُ انْتِفَاضَةً كَادَ أَنْ يُصْعَقَ مِنْهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ اللهُّ: يَا جِبْرِيلُ يَسْأَلُكَ مُحَمَّدٌ أَيُّ الْبِقَاعِ خَيْرٌ؟ فَقُلْتَ: لَا أَدْرِي، فَسَأَلَكَ أَيُّ الْبِقَاعِ شَرٌّ فَقُلْتَ: لَا أَدْرِي، وَإِنَّ خَيْرَ الْبِقَاعِ الْمَسَاجِدُ، وَشَرَّ الْبِقَاعِ الْأَسْوَاقُ " .

ومن المشهور أنَّ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَّما ذهب إلى اليهود بقرب المدينة المنوَّرة أرادوا أن يمكروا به ويلقوا عليه الصَّخرة ليقتلوه بزعمهم ، فأعلمه سيِّدنا جبريل عليه السَّلام بالأمر فانصرف وتركهم ، ولو كان يعلم ما في السَّموات والأرض كما في حديث : «رأيت ربي في أحسن صورة ...» لما احتاج إلى إعلام سيِّدنا جبريل له بمكر اليهود، وفي حديث الإفك الثَّابت في

الصَّحيحين أنَّ النبيَّ عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام مكث شهراً لا يُوحى إليه ، ولا يدري كيف سيصنع في الأمر حتَّى نزل القرآن فعلم حقيقة الأمر . والشَّواهد على هذا الامر كثيرة، وكلُّها تُبطل هذا الحديث ، نسأل الله أن يعلِّمنا ويلهمنا الصَّواب ونسأله التَّوفيق" .

وقد أوضح العلماء وبيَّنوا في كلامهم على الأحاديث التي أضافت والتي أوهمت بإضافة الصُّورة لله تعالى أنَّ الله تعالى يتنزَّه عن الصُّورة ...ولذا حكموا بضعف بعضها كما تقدَّم معنا ، كما ذهبوا إلى تأويل ما صحَّ منها بما يتوافق مع قواعد اللغة العربيَّة والمسلَّمات العقديَّة ... ومن ذلك :

قال أبو الليث نصر بن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم السَّمرقندي(٣٧٣هـ) في"بحر العلوم"(٣/ ١٧٤) :"وروي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه قال: «لاَ تَقُولُوا فَلاَنٌ قَبِيح فَإِنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق آدم على صورته» . ومن قال: إنَّ لله تعالى صورة كصورة آدم فهو كافر، ولكنَّ المعنى في الخبر، كما روي عن بعض المتقدِّمين أنَّه قال: إنَّ الله تبارك وتعالى اختار من الصُّور صورة، وخلق آدم- عليه السَّلام- بتلك الصُّورة، فمن ذلك قال: «إنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُوَرتِهِ» .

وقال أبو بكر محمَّد بن إسحاق البخاري الكَلاَباذي(٣٨٤هـ) في"بحر الفوائد المسمَّى بمعاني الأخيار"(ص٩٧-٩٨) :"قال الشَّيخ : ومعنى قوله : "خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُوَرتِهِ" التي كان عليها يوم قبض ، أي : لم يكن علقة ، ثمَّ مضغة ، ثمَّ عظماً ، ثمَّ مكسوَّاً لحماً ، ثمَّ طفلاً ، ثمَّ بالغاً أشدّه ، ثمَّ شيخاً ، أي لم يخلق أطواراً ، بل خلق على الصُّورة التي كان بها ، ويقال : خلق على صورته ، فكان في الأرض حين أهبط إليها على صورته التي كان في الجنَّة عليها لم تتغيَّر صورته التي أهبط فيها إلى الأرض ، ولم ينتقص طوله ، ولا سلب نوره ، يدلُّ عليه قوله :" طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا » أي : على هذا الطُّول خُلق ، ولم يكن في الجنَّة أطول منه في الأرض ، ولا أقلّ نوراً ، ولا أدنى حالاً فيها منه في الجنَّة . ويجوز أن يكون معنى صورته : أي صورة حاله ، وأن يكون متفاوت الحال ، متغاير الوصف ، فيوصف مرة بالغواية ، ومرَّة بالهداية وبالعصيان والتَّوبة . قال الله تعالى : **﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى * ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾** ، ووصفه بالعلم مرَّة ، وبالجهل أخرى ، فقال : **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها﴾** ، وقال : **﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾** ، وهذا إلى سائر أحواله

في تباينها ، وأوصافه في تغايرها ، ثمَّ ما أكرمه به من فضله واختصَّه واصطفاه واستخلصه واجتباه وكان خليفته في أرضه ، وقبلة ملائكته ... علَّمه الأسماء وألهمه الحمد والثَّناء ، فكان خلقه عزَّ وجلَّ بهذه الأوصاف ، وعلى صورة هذه الأحوال ، وهذا كما قال الله تعالى : **﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾** ، ولذلك قيل : خلقهم ليكونوا مختلفين . وقال جلَّ جلاله : **﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** . فلذلك خلق الله تعالى آدم ليكون على هذه الأوصاف ، وما لا يحصى من الحكمة فيه ، فكان معنى قوله : "خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُوْرَتِهِ" ، أي : خلقه ليكون صورة حاله هذه الصُّورة ، وخلق سائر الخلائق على حالة واحدة ، خلق الله الملائكة للطَّاعة لا غير ، والشَّياطين للعصيان لا غير ، والبهائم وسائر الحيوان للتَّسخير لا غير ، وفي رواية أخرى أنَّه : «خلق آدم على صورة الرَّحْمَن » .

أخبرنا أبو القاسم عبد الرَّحْمَن بن أحمد البجلي ، قال : ح منصور بن نصر قال : ح أبو جعفر بن محمَّد بن محمَّد عبد الله قال : ح إسحاق بن إسماعيل قال : ح جرير بن عبد الحميد ، عن الأعمش ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عمر ، رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :" «لَا تُقَبِّحُوا الْوَجْهَ، فَإِنَّ ابْنَ آدَمَ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَن» ، فإن كان محفوظاً فيجوز أن يكون معناه : أي خلقه على الصُّورة التي ارتضاها الرَّحْمَن أن تكون صورة لآدم ، إذ لم يكن في خلق الله خلق على صورته في البنية والحال إذ الملائكة على حالة واحدة ، والله أعلم بصورة بنيتهم ، غير أنَّ الأخبار وردت بأنَّه لم يكن قبله شيء من المخلوقين على صورته وخلقته ، قال الله تعالى : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** ، وقيل أنَّ قوله :" خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُوْرَتِهِ» كان عقيب قوله : « لا تقولوا قبَّح الله وجهَك ، فإن آدم خلق على صورته ، فإنَّ الله خلق آدم على صورته » أي : على صورة هذا المقبّح وجهه ، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :"إذا ضرب أحدكم خادمه ، فليتجنب الوجه"، ثمَّ قال :"فإنَّ الله خلق آدم على صورته » ، أي : على صورة هذا المضروب والمقبَّح وجهه" .

وقال الخطَّابي(٣٨٨هـ) في"أعلام الحديث(شرح صحيح البخاري)"(٣/ ٢٢٢٧-٢٢٢٨) :"قوله:"خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُوْرَتِه» " الهاء: وقعت كناية بين اسمين ظاهرين، فلم يصلح أن تصرف إلى الله عزَّ وجلَّ لقيام الدَّليل على أنَّه ليس بذي صورة سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، فكان مرجعها إلى آدم، والمعنى : أنَّ ذريَّة آدم إنَّما خُلقوا أطواراً كانوا في مبدأ الخلقة نطفة، ثمَّ علقة، ثمَّ مضغة، ثمَّ صاروا صوراً أجنَّة إلى أن تتمّ مدَّة الحمل، فيولدون أطفالاً وينشئون صغاراً إلى أن يكبروا، فيتمّ طول أجسامهم. يقول: إن آدم لم يكن خلقه على هذه الصِّفة، لكنَّه أوَّل ما تناولته الخلقة وُجد خلقاً تامَّاً طوله ستُّون ذراعاً، وقد كنَّا ذكرنا في معنى هذا الحديث وجوهاً أربعة أو خمسة، وهذا الوجه كاف بيِّن" .

وقال محمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري (٤٠٦هـ) في"مشكل الحديث وبيانه"(ص٤٦ فما بعدها) :"ذكر خبر مِمَّا يَقْتَضِي التَّأْوِيل ويوهم ظَاهره التَّشْبِيه :

وَهُوَ حَدِيث الصُّورة ، وَبَيَان تَأْوِيله فَمن أَقسَام الرُّتْبَة الأولى من هَذِه الْأَخْبَار مِمَّا يدْخل فِي بَاب المستفيض الَّذِي تَلقَّاهُ أهل الْعلم بِالْقبُولِ وَلم يُنكره مِنْهُم مُنكر وَهُوَ حَدِيث الصُّورة .

وَقد رُوِيَ ذَلِك على وَجْهَيْن فِي بعض الْأَخْبَار ، وَهُوَ قَوْله عَلَيْهِ السَّلام : "إِنَّ الله خلق آدم على صورته" . وَلَا خلاف بَين أهل الْعلم وَالنَّقْل فِي صِحَّة ذَلِك.

وَقد رُوِيَ أَيْضاً :" إِنَّ الله خلق آدم على صُورَة الرَّحْمَن" ، وَأهل النَّقْل أَكْثَرهم على إِنْكَار ذَلِك ، وعَلى أَنَّه غلط وَقع من طَرِيق التَّأْوِيل لبَعض النَّقلَة ، فَتوهَّم أَنَّ الْهَاء يرجع إِلَى الله تَعَالَى ، فَنقل على الْمَعْنى على مَا كَانَ عِنْده فِي أَنَّ الْكِنَايَة ترجع إِلَى الله تَعَالَى .

وَقد رُوِيَ فِي بعض أَحَادِيث عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس ، وَفِي حَدِيث أمّ الطُّفَيْل وَغَيره عَن النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِطْلَاق لفظ الصُّورة على وَجه آخر ، وَهُوَ قَوْله عَلَيْهِ السَّلام : "رَأَيْت رَبِّي فِي أحسن صُورَة". أخرجه التِّرْمِذِيّ .

فَأَمَّا قَوْله عَلَيْهِ السَّلام : "خلق آدم على صورته" ، فقد تَأَوَّلَه المتأوِّلون من أهل الْعلم على وُجُوه كَثِيرَة سنذكرها ثمَّ نزيد فِيهَا مَا وَقع لنا فِي تَأْوِيله مِمَّا يُوَافق تأويلهم ، وَبَين خطأ من ذهب عَن وَجهه الصَّوَاب فِي تَأْوِيله ، وَأظْهر وُجُوه التَّأْوِيل فِي ذَلِك .

وَمِمَّا قيل: إِنَّ هَذَا الْخَبَر خرج على سَبَب ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مرَّ بِرَجُل يضْرب ابْنه أَو عَبده فِي وَجهه لطماً ، وَيَقُول : قبَّح الله وَجهك وَوجه من أشبه وَجهك ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : "ذا ضرب أحدكُم عَبده فليتَّق الْوَجْه فَإِنَّ الله خلق آدم على صورته" .

وَقد نقل النَّاقلون هَذِه الْقِصَّة مَعَ هَذِه اللَّفْظَة من الطُّرق الصَّحِيحَة ، وإِنَّمَا ترك بعض الرُّوَاة بعض الْخَبَر إختصاراً على مَا يذكر مِنْهُ للدّلالة على مَا يحذف إِذا كَانَت الْقِصَّة عِنْده مَشْهُورَة مضبوطة بِنَقْل الْإِثْبَات ، لِأَنَّ أَكثر الْغَرَض عِنْدهم الْأَسَانِيد دون الْمُتُون ، فَلذَلِك ترك بَعضهم ذكر السَّبَب فِيهِ ، فَالْأولى أَن يحمل الْمُخْتَصر من ذَلِك على الْمُفَسّر حتَّى يَزُول الْإِشْكَال ، وإِنَّمَا قَالَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَهُ ذَلِك لِأَنَّهُ سَمعه يَقُول : قبَّح الله وَجهك وَوجه من أشبه وَجهك ، وَذَلِك سبّ للأنبياء وَلِلْمُؤْمنِينَ فزجره عَن ذَلِك .

وَخصّ آدم بِالذِّكر لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي ابتدئت خلقَة وَجهه على الْحَد الَّذِي يحتذى عَلَيْهَا من بعده ، كَأَنَّهُ ينبِّهه على أَنَّك قد سببت آدم وَمن ولد ، مُبَالغَة فِي الرَّدع لَهُ عَن مثله ، وَإِذا كَانَ كَذَلِك فَهَذَا وَجه ظَاهر ، وَالْهَاء كِنَايَة عَن الضَّرْب فِي وَجهه وَلَا شُبْهَة فِيهِ .

وَالْوَجْه الآخر مِمَّا تَأَوَّلَه عَلَيْهِ النَّاس : أَنَّ الْكِنَايَة فِي قَوْله : "صورته" ترجع إِلَى آدم ، وَذَلِكَ يَنْقَسِم إِلَى وُجُوه :

أَحَدُهَا : أَن يكون مَعْنَاهُ وَفَائِدَة تعريفنا نعْمَة الله تَعَالَى على أَبينَا آدم عَلَيْهِ السَّلام ، أَنَّ فَضله بِأَن خلقه بِيَدِهِ وَأَسْكَنَهُ جنَّته ، وأسجد لَهُ مَلَائكَته ، وَعلَّمه مَا لم يُعلمهُ أحداً قبله من الْأَسْمَاء والأوصاف ، ثمَّ عَصَاهُ وَخَالفهُ فَلم يُعَاقِبهُ على ذَلِك بِسَائِر مَا عاقب بِهِ الْمُخَالفين لَهُ فِي نَحوه ...

فَعرفنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بذلك أَنَّ أَبَاكُم آدم عَلَيْهِ السَّلام كَانَ فِي الجنَّة على الصُّورة الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي الدُّنيا لم يُغيِّر الله خلقته ، وَتَكون فَائِدَة ذَلِك تعريفنا الْفرق بَينه وَبَين سَائِر من أخرجه من الجنَّة مَعَه وإبانته مِنْهُم فِي الرُّتْبَة والدَّرجة ، وَهَذِه فَائِدَة لَا يُمكن الْوُقُوف عَلَيْهَا إِلَّا بِخَبَر الصَّادِق .

وَالْوَجْه الثَّانِي مِنْ ذَلِك : إِذا قُلْنَا إِن الْهَاء يرجع إِلَى آدم فسبيله أَنَّ النَّبِي عَلَيْهِ السَّلام أفادنا إِبطَال قَول أهل الذِّمَّة : أَنَّه لم يكن إِنْسَان إِلَّا من نُطْفَة ، وَلَا نُطْفَة إِلَّا من إِنْسَان فِيمَا مضى وَيَأْتِي ، لَيْسَ لذَلِك أوَّل وَلَا آخر ، وَأَنَّ النَّاس إِنَّما ينتقلون من نشوء على تَرْتِيب مُعْتَاد ، وَإِن كَانَ ذَلِك أبداً كَانَ كَذَلِك ، فَعرَّفنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بتكذيبهم ، وَأَنَّ أَوَّل الْبشر آدم عَلَيْهِ السَّلام ، خلق على صورته الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا ، وعَلى الْهَيْئَة الَّتِي شوهد عَلَيْهَا من غير أَن كَانَ من نُطْفَة قبله أَو عَن تناسل أَو تنقُّل من صغر إِلَى كبر ، كالمعهود من أَحْوَال أَوْلَاده ، فَأَمَّا مَا دلّت عَلَيْهِ دَلَائِل الْعُقُول من كَون هَذَا الْعَالم ذَا ابْتِدَاء وإنتهاء .

وَأفَاد بِهِ مَا لَا يُوصل إِلَيْهِ إِلَّا بِالسَّمْعِ ، إِلَّا أَنَّ الأَصْل الَّذِي هُوَ مِنْهُ توالدنا لم يكن عَن توالد قبله بل خلق كَمَا كَانَ عَلَيْهِ وَهُوَ آدم عَلَيْهِ السَّلام ، خلقه الله عزَّ وجلَّ من صلصال كالفخَّار ثمَّ خلق فِيهِ الرُّوح وَلم يكن قطّ فِي صلب وَلَا رحم ، وَلَا كَانَ علقَة وَلَا مُضْغَة ، وَلَا مراهقاً وَلَا طفْلاً ، بل خلق ابْتِدَاء بشراً سويَّاً كَمَا شوهد .

وَالْوَجْه الثَّالِثُ مِنْ وُجُوه هَذَا التَّأْوِيل : فِي الرُّجُوع بِالْهَاءِ إِلَى آدم عَلَيْهِ السَّلام على مَا ذهب إِلَيْهِ بَعضهم فِي تَأْوِيله ، وَهُوَ أَنَّه أفادنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق آدم على الصُّورة الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا من غير أَن كَانَ ذَلِك حَادِثا أَو شَيْئا مِنْهُ عَن توليد عنصر أَو تَأْثِير طبع أَو فلك أَو ليل أَو نَهَار إبطالا لقَوْل الطَّبائعيِّين :

إِنَّ بعض مَا عَلَيْهِ آدم عَلَيْهِ السَّلام من هَيْئَة وَصُورَة لم يخلقه الله عزَّ وجلَّ وإِنَّما كَانَ ذَلِك من فعل الطَّبع أَو تَأْثِير الْفلك .

فنبَّه بذلك على أَنَّ الله تَعَالَى هُوَ الْخَالِق لآدَم عَلَيْهِ السَّلام على مَا كَانَ فِيهِ من الصُّورة والتَّراكيب والهيئات لم يُشَارِكهُ فِي خلق صُورَة من صوره أَو هَيْئَة من هيئاته أحد سواهُ ، فاستفدنا بذلك بطلَان قَول من قَالَ بتوليد الطَّبْع وإيجابه وتأثير الْفلك وتغييره .

وَخصّ آدم عَلَيْهِ السَّلام بِالذِّكر تَنْبِيهاً على أَنَّ من شَاركهُ من الْمَخْلُوقَات فِي مَعْنَاهُ ، وَهَذِه طَرِيقَة للْعَرَب فِي التَّفْهِيم تذكراً على مَا فِي هَذَا الْبَاب للدّلالة على الْأَدْنَى .

فَإِذا عرف أَنَّ صُورَة آدم وتركيبه وهيئته لم يخلقها أحد إِلَّا الله عزَّ وجلَّ علم سَائِر المصوَّرات من أولاده وَغَيرهم فَحكمهَا كَذَلِك .

وَقَالَ بَعضهم : الْهَاء يرجع إِلَى بعض الْمَشَاهِير من النَّاس والفائدة فِي الْخَبَر يعرفنا أَن صُورَة آدم عَلَيْهِ السَّلام كَانَت كهذه الصُّورة إبطالا لقَوْل من زعم أَنَّهَا كَانَت على هَيْئَة أُخْرَى كَمَا رُوِيَ فِي بعض الرِّوَايَات من ذكر طوله وقامته وَذَلِكَ مِمَّا لَا يوثق بِهِ إِذْ لَيْسَ فِي ذَلِك خبر صَحِيح وإِنَّمَا الْمعول فِي مثله على كَعْب أَو وهب من أَحَادِيث التَّوْرَاة وَلَا ثِقَة بِشَيْء من ذَلِك وَلم يثبت من وجهة أُخْرَى أَنَّه قد كَانَت خلقَة آدم عَلَيْهِ السَّلام على خلاف هَذِه الْخلقَة على الْحَد الزَّائِد الَّذِي يخرج عَن الْمَعْهُود من متفاوت الْبشر .

والطَّرِيقة الثَّانِية فِي تَأْوِيل ذَلِك أَن يكون الْهَاء كِنَايَة عَن الله ، وَهَذَا أَضْعَف الْوَجْهَيْنِ من قبل أَنَّ الظَّاهِر أَنَّ الْهَاء ترجع إِلَى أقرب الْمَذْكُور إِلَيْهِ إِلَّا أَن تدلّ دلَالَة على خلاف ذَلِك .

وَإِذا قُلْنَا هَذَا احْتمل وُجُوهًا :

أَحدهَا : أَن يكون معنى الصُّورة على هَذَا ، معنى الصِّفة كَمَا يُقَال : عرفني صُورَة هَذَا الْأَمر ، أَي : صفته وَلَا صُورَة لِلْأَمْرِ على الْحَقِيقَة إِلَّا على معنى الصِّفة ، وَيكون تَقْدِير التَّأْوِيل فِيهِ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق آدم على صفته ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَخْلُوقَات قِسْمَانِ:

جماد ونام .

والنَّامي نَوْعَانِ : حَيَوَان وَمَا لَيْسَ بحيوان .

وَالْحَيَوَان على نَوْعَيْنِ : نَاس وبهائم ، ثمَّ سوى الْجِنّ وَالْملك ، ثمَّ لم يشرف من الْحَيَوَان والجماد شَيْء سوى الْإِنْسَان للإضافة إِلَى النَّامي والبهائم ، وَلم يشرف من نوع الْحَيَوَان النَّاطِق أحد سوى الْأَنْبِيَاء ، وَذَلِكَ أَنَّ نوعاً من الْعُقَلَاء من الْحَيَوَان كالجنّ وَالْملك وَالْإِنْس خصّ بِالْعقلِ والنُّطق وَشرف بِهِ ، وَذَلِكَ من خِصَال كَمَال التَّعالي ، ثمَّ لَمَّا كَانَ أكمل الْأَشْيَاء نعتاً وأتمّها رفْعَة وتعظيما هُوَ الله عزَّ وجلَّ ، وَكَانَ الْحَيّ الْعَالم الْقَادِر السَّمِيع الْبَصِير الْمُتَكَلِّم المريد ، وَذَلِكَ نعوت عَظمَة وَعزة وجلالة ، خلق آدم على صفته ، مِمَّا هِيَ صفة التَّعالي حَيَّاً عَالماً قَدِيرًا سميعاً بَصيرًا متكلِّماً مُخْتَارًا مرِيداً.

فميَّزه من الجماد والنَّامي بِمَا نفخ فِيهِ من الرُّوح .

وميَّزه من الْبَهَائِم بِمَا ركَّب فِيهِ من الْعقل والنُّطق .

وميَّزه من جنسه من وقته بِأَن نبَّأه وأرسله .

وميَّزه من الْمَلَائِكَة بِأَن قدَّمه عَلَيْهِم وأسجدهم لَهُ ، وجعلهم تلاميذه ، وَأمرهمْ أَن يتعلَّموا مِنْهُ ، فحصلت لَهُ رُتْبَة الْجلَال وَالْعَظَمَة ، مِمَّا نَوعه الله عزَّ وجلَّ ، بِأَن حصل سجوداً لَهُ مُخْتَصًّا بِالْعلمِ بِمَا لَا يُشَارِكهُ فِيهِ فِي حَالَة غَيره ، فتميَّز بِهَذِهِ الصِّفات ، وَهِي صِفَات التَّعالي من سَائِر الْعَالمين والمخلوقين فِي وقته ، فَعرفنَا عَلَيْهِ السَّلام بذلك إسباغ نعم الله عزَّ وجلَّ عَلَيْهِ ، وتشريفه إِيَّاه بخصال التَّعالي وَهِي صِفَات مِمَّا فِي صِفَات الله على الإختصاص .

وَالْوَجْه الثَّانِي : من قَوْلنَا أَنَّ الْهَاء رَاجِعَة إِلَى الله ، وَهُوَ أَن يعلم من طرق الإضافات إِلَى الله عزَّ وجلَّ وطرق التَّخْصِيص فِيهَا ، وَذَلِكَ أَنَّ من الْأَشْيَاء مَا يُضَاف إِلَى الله عزَّ وجلَّ من طَرِيق أَنَّه فعله ، كَمَا يُقَال : خلق الله ، وَأَرْض الله ، وسماء الله .

وَقد يُضَاف مثل هَذِه الْإِضَافَة على معنى الْملك ، فَيُقَال : رزق الله ، وعبد الله ، وَقد يُقَال على معنى الإختصاص من طَرِيق التنويه يذكر الْمُضَاف ، إِذا خصّ بِالْإِضَافَة إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ نَحْو قَوْله : **﴿نَاقَةُ الله﴾** ، فَإِنَّهَا إِضَافَة تَخْصِيص وتشريف يُفِيد التَّحذير والورع عَن التَّعَرُّض لَهَا .

وَمن ذَلِك قَوْله تَعَالَى : **﴿وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِن رُوْحِي﴾** .

وَقول الْمُسلمين للكعبة بَيت الله تَخْصِيصًا بِالذّكر فِي الْإِضَافَة إِلَيْهِ تَشْرِيفًا ، وَهُوَ كَقَوْلِه أَيْضاً فِي إِضَافَة الْمُؤمنِينَ إِلَى نَفسه بِلَفْظ الْعُبُودِيَّة فِي قَوْله تَعَالَى : **﴿وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾** ، إِلَى آخر صفاتهم .

وَقَوله : **﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾** .

وَالْوَجْه الآخر من الْإِضَافَة : نَحْو قَوْلك : كَلَام الله ، وَعلم الله ، وقدرة الله ، وَفِي إِضَافَة اخْتِصَاص من طَرِيق الْقيام بِهِ ، كَمَا يُقَال فِي إِضَافَة الأَرْض إِلَى الْمحل ، وَمَا لَا يقوم بِنَفسِهِ إِلَى مَا يقوم بِنَفسِهِ ، وَلَيْسَ ذَلِك من جِهَة الْملك وَالْفِعْل والتَّشريف بل ذَلِك على معنى أَنَّ ذَاته غير منعوتة مِنْهُ قيَاماً بهَا وقعوداً ووجوداً ، ثمَّ نَظرنَا فِي إِضَافَة الصُّورَة إِلَى الله عزَّ وجلَّ ، فَلم يَصح أَن يكون وَجه إضافتها إِلَيْهِ على نَحْو إِضَافَة الصّفة إِلَى الْمَوْصُوف بهَا ، من حَيْثُ تقوم بِهِ لإستحالة أَن يقوم بِذَاتِهِ عزَّ وجلَّ حَادث بِوَجْه ، وَلَا صُورَة وَلَا تأليف ، وَلَا غَيره ، لِأَنَّ مَا قَامَ بِذَات من تأليف وَصُورَة لم يألف غير مَا لم يقم بِهِ ، وَبِذَلِك يمْنَع أَن يكون غَيره قد تصور بهَا ، وَذَلِكَ محَال ، فَبَقيَ من وُجُوه الإضافات كَذَا الْملك وَالْفِعْل والتَّشريف ، فَأَما الْملك وَالْفِعْل فوجهه عَام وَيبْطل فَائِدَة التَّخْصِيص فَبَقيَ أَنَّهَا إِضَافَة تشريف .

وَطَرِيق ذَلِك أَنَّ الله عزَّ وجلَّ هُوَ الَّذِي ابْتَدَأَ تَصْوِير آدم ، لَا على مِثَال بل اخترعه اختراعاً ثمَّ اخترع من بعده على مِثَاله ، فتشرَّفت صورته بِالْإِضَافَة إِلَيْهِ ، من حَيْثُ كَانَت مَخْصُوصَة بهَا على هَذَا الْوَجْه ، ثمَّ سَائِر وُجُوه التَّشريف ، مِمَّا خص بهَا آدم عَلَيْهِ السَّلام ، من فضائله مِمَّا ذكرنَا بعضه .

وَاعْلَم أَنَّا إِذا قُلْنَا إِنَّ الْهَاء يرجع إِلَى الله عزَّ وجلَّ فِي قَوْلهم فِي صورته ، على بعض الْمعَانِي الَّتِي ذكرنَا ، فَإِنَّ تَأْوِيل مَا يرْوى من هَذَا الْخَبَر على إِظْهَار الرَّحْمَن بعد ذكر الصُّورَة على مَا فِيهِ من الضعْف ، وَالْعلَّة عِنْد أهل النَّقْل ، وَأَنَّه يكون مَحْمُولاً على مَا ذَكَرْنَاهُ .

إِذا قُلْنَا إِنَّ الْهَاء ترجع إِلَى الله عزَّ وجلَّ ، وَقد أنكر بعض أَصْحَابنَا صِحَّة هَذِه اللَّفْظَة ، من طَرِيق الْعَرَبيَّة ، وَقَالَ : لَا يجوز فِي اللُّغَة أَن يُقَال مثله ، وَلَو كَانَ الْمُرَاد ذَلِك ، لَكَانَ يَقُول :

إِنَّ آدم خلق على صُورَة الرَّحْمَن ، دون أَن يُقَال : إِنَّ الله خلق آدم على صورته ، لِأَنَّ تقدّم ذكره بإسم الظَّاهِر ، فَإِذا أُعِيد ذكره لكني عَنهُ بِالْهَاءِ ، من غير إِعَادَة اسْمه بِالظَّاهِرِ ، كَقَوْلِك : إِنَّ زيداً ضرب عَبده ، وَلَا يُقَال : إِنَّ زيداً ضرب عبد زيد ، وَالْمرَاد بزيد الثَّانِي هُوَ الْمُرَاد بِالْأَوَّلِ .

قَالُوا وَإِذا لم يكن ذَلِك سائغا من جِهَة الْعَرَبيَّة ، وَلَا ثَابتاً من جِهَة النَّقْل ، لم يكن للإستعمال بِهِ وَجه.

وَمن أَصْحَابنَا من قَالَ :

إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِمَّا يُمكن أَن يدْفع بِهِ هَذَا الْخَبَر ، على هَذَا الْوَجْه ، وإِنَّما طَرِيق دفع ذَلِك من جِهَة النَّقْل ، وتعليل أَمر رُوَاته ، لِأَنَّ مثله قد يَصحُّ فِي الْعَرَبيَّة ، وَقد وَردت بذلك أشعار الْعَرَب ، فَمن ذَلِك قَول عدي بن زيد :

لَا أرى الْمُوْت يسْبق الْمُوْت شَيْء   نقض الْمُوْت ذَا الْغنى والفقيرا

فَأَعَادَ ذكر الْمُوْت بِلَفْظِهِ وَلم يكن عَنهُ بِالْهَاءِ ، وَلم يقل: لَا أرى الْمُوْت يسْبقهُ شَيْء ، وَمثله فِي الْقُرْآن : **﴿يَوْم نحْشر الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَن وَفْدًا﴾** .

وَلم يقل إِلَيْنَا وَإِلَيْهِ ، فَإِذا كَانَ مثله سائغاً لم يكن لإنكاره من هَذَا الْوَجْه معنى ، دون أَن يُقَال : إِنَّ الْأَثْبَات من أهل النَّقْل لم يرووه على هَذَا الْوَجْه ، بل كلُّهم أَجمعُوا على نقل قَوْله على صورته بِالْهَاءِ ، كِنَايَة لَا إِظْهَارًا ، وَذَلِكَ مُحْتَمل للوجوه الَّتِي ذَكرنَاهَا ، إِن رَجَعَ بِهِ إِلَى آدم ، فَيحْتَمل وَهُوَ الْأَقْرَب ، وَإِن رَجَعَ بِهِ إِلَى الْمَضْرُوب ، على مَا روى فِي السَّبَب فِيهِ مَعَه فَظَاهر أَيْضاً ، وَإِن رَجَعَ بِهِ إِلَى الله عزَّ وجلَّ وَهُوَ الْأَبْعَد ، كَانَ طَرِيق تَأْوِيله مَا بيَّنَّاهُ ، لِأَنَّهُ أُرِيد بِهِ إِثْبَات صُورَة الله تَعَالَى ، على التَّحْقِيق وَهُوَ بهَا مصوراً ومتصوراً ، لِأَنَّ صورته هِيَ التَّأْلِيف والهيئة ، وَذَلِكَ لَا يَصحُّ إِلَّا على الْأَجْزَاء المتألِّفة والأجسام المركَّبة ، وَقد تَعَالَى الله عزَّ ذكره عَن أَن يكون جسماً أَو جوهراً أَو مؤلَّفاً مركَّباً .

وَمن أَصْحَابنَا من قَالَ : إِنَّ الْهَاء ترجع إِلَى آدم ، وَيكون مَعْنَاهُ وَفَائِدَته : تَكْذِيب القهرية لما زعمت أَنَّ من صُورَة آدم وَصِفَاته مَا لم يخلقه الله عزَّ وجلَّ .

وَذَلِكَ أَن الْقَدَرِيَّة على أَن صِفَات آدم على نَوْعَيْنِ :

مِنْهَا مَا خلقه الله وَمِنْهَا مَا خلقهَا آدم لنَفسِهِ ، فَأخْبر النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بتكذيبهم ، وَأَنَّ الله تَعَالَى خلق آدم على جَمِيع صوره وَصِفَاته ومعانيه وأعراضه ، وَمثله فِي الْكَلَام أَن يُقَال : عرفني هَذَا الْأَمر على صورته إِذا أردْت أَن يعرفك على الإستيفاء والإستقصاء دون الإستبقاء .

وكما أفادنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بذلك : تَكْذِيب الطَّبَائعيِّين فِي كَون بعض هيئات الْبشر من توليد الطَّبْع وإيجابه ، كَذَلِك أفادنا تَكْذِيب الْقَدَرِيَّة حَيْثُ زعمت أَن من مَعَاني آدم عَلَيْهِ السَّلام وأعراضه وَكثير من هيئاته لم يخلقه الله عزَّ وجلَّ ، وإِنَّما خلقه آدم وأبدعه هُوَ من دون الله عزَّ وَجلَّ .

وَوجه آخر مِمَّا يحمل عَلَيْهِ تَأْوِيل هَذَا الْخَبَر ، إِذا قُلْنَا إِنَّ الْهَاء ترجع إِلَى آدم وَهُوَ أَن يكون مَعْنَاهُ إِشَارَة إِلَى مَا نقُول على أصولنا : إِنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق السَّعيد سعيداً والشَّقيَّ شقيّاً ، فَلَمَّا خلق آدم وَقد علم أَنَّه يَعْصِي وَيُخَالف أمره وَكتب ذَلِك عَلَيْهِ ، وَأَنَّه عزَّ ذكره هَكَذَا خلقه ، على مَا علم ، وَأَرَادَ أَن يكون عَلَيْهِ ، وَشهد لذَلِك حَدِيث مُحَاجَّة مُوسَى لآدَم عَلَيْهِمَا السَّلام ، لما قَالَ مُوسَى لآدَم لَمَّا التقيا فِي السَّمَاء : أَلَسْت الَّذِي خلقك الله بِيَدِهِ ، وأسجد لَك مَلَائِكَته ، وأسكنك جنَّته ، ثمَّ عصيته وخالفت أمره ؟ فَقَالَ آدم عَلَيْهِ السَّلَام : أكَانَ ذَلِك شَيْء منِّي أَو أَمر كتبه الله عزَّ وجلَّ عَليَّ قبل أَن يخلقني ؟

فَقَالَ مُوسَى : ذَلِك مِمَّا كتبه عَلَيْك قبل خلقك ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : فحجَّ آدم مُوسَى ثَلَاثًا ، فدلَّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بقوله : " إِنَّ الله خلق آدم على صورته " على مثل هَذَا الْمَعْنى ، وَإِنَّهُ خلق مِمَّن سبق الْعلم بِحَالِهِ ، أَنَّه يَعْصِي ثمَّ يَتُوب فيتوب الله ، تَنْبِيهاً على وجوب جَرَيَان قَضَاء الله على خلقه ، وَأَنَّه إِنَّما يحدث الْأُمُور ويغير الْأَحْوَال على حسب مَا يخلق عَلَيْهِ الْمَرْء ويتيسَّر لَهُ ، وَهَذَا أَيْضاً تأييد لمذهبنا فِي إِضَافَة تَقْدِير الْأُمُور كلِّهَا إِلَى الله عزَّ وجلَّ .

فصل :

"اعْلَم أَنَّ بعض أَصْحَابنَا الْمُتَكَلِّمين فِي تَأْوِيل هَذَا الْخَبَر حاد على وَجه الصَّوَاب ، وسلك طَرِيق الْخَطَأ والمحال فِيهِ ، وَهُوَ ابْن قُتَيْبَة توهَّماً أَنَّه مستمسك بِظَاهِرِهِ غير تَارِك لَهُ ، فَقَالَ : إِنَّ لله عزَّ وجلَّ

صُورَة لَا كالصُّور ، كَمَا أَنَّه شَيْء لَا كالأشياء ، فَأثْبت لله تَعَالَى صُورَة قديمَة ، زعم أَنهَا لَا كالصُّور ، وَأَنَّ الله خلق آدم على تِلْكَ الصُّورة ، وَهَذَا جهل من قَائِله ، وتوغُّل فِي تَشْبِيه الله تَعَالَى بخلقه .

وَالْعجب مِنْهُ أَنَّه تَأَول الْخَبَر ثمَّ زعم أَنَّ الله صُورَة لَا كالصُّور ، ثمَّ قَالَ : إِنَّ آدم مَخْلُوق على تِلْكَ الصُّورة ، وَهَذَا كَلَام متناقض متهافت يدْفع أَوَّله آخِره ، وَذَلِكَ أَنَّ قَوْله : لَا كالصُّور ينْقض قَوْله : إِنَّ الله خلق آدم عَلَيْهَا ، لِأَن الْمَفْهُوم من قَول الْقَائِل : فعلت هَذَا على صُورَة هَذَا ، أَي : ماثلته بِهِ واحتذيت فِي فعله بِهِ ، وَهَذَا يُوجب أَنَّ صُورَة آدم عَلَيْهِ السَّلام كصورته جلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَيمْنَع تَأْوِيله أَنَّ لَهُ صُورَة لَا كالصُّور ، وليت شعري إِلَى أَيّ وَجه ذهب فِي إِضَافَة الصُّورة إِلَى الله عزَّ وجلَّ أَرَادَ بِهِ إِثْبَات الرَّب تَعَالَى مصوَّراً بِصُورَة لَا تشبه الصُّور ، أم إِثْبَاته مصوَّراً بأمثال هَذِه الصُّور ، أم أَرَادَ بِهِ أَنَّ لَهُ هَيْئَة مَخْصُوصَة وَصُورَة مُعينَة مَعْلُومَة ، أم رَجَعَ بذلك إِلَى إِثْبَات صفة لَهُ سَمَّاهَا صُورَة لَا على معنى وَجه الْهَيْئَة والتَّأليف ، وَلَيْسَ يَخْلُو مَا ذهب إِلَيْهِ من هَذِه الْأَقْسَام ، وكلُّ ذَلِك فَاسد لَا يَلِيق بِاللهَّ عزَّ وجلَّ لاقتضائه أَن يكون مؤلَّفاً مركَّباً ، ذَا حدٍّ وَنِهَايَة وَبَعض وَغَايَة ، وكلُّ ذَلِك يُؤَدِّي إِلَى القَوْل بنفيه تَعَالَى ...

فصل :

فَأَمَّا مَا رُوِيَ فِي غير هَذَا الْخَبَر من ذكر الصُّورة كنحو حَدِيث ابْن عَبَّاس ، وَأمّ الطُّفَيْل أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ : "رَأَيْت رَبِّي فِي أحسن صُورَة" .

فَإِنَّ طَرِيق مخرج ذَلِك على الْوَجْه الَّذِي يَصح لَا يَخْلُو من أحد وَجْهَيْن:

أَحَدُهُمَا : أَن يكون قَوْله : فِي أحسن صُورَة ، يرجع إِلَى النَّبِي صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وَيكون الْمَعْنى : رَأَيْت أبي وَأَنا فِي أحسن صُورَة ، كَمَا يَقُول الْقَائِل :

رَأَيْت الْأَمِير فِي أحسن زِيّ ، وَمرَاده وَأَنا فِي أحسن زِيّ ، وَيكون فَائِدَة ذَلِك تعريفنا أَنَّ الله عزَّ وجلَّ زَيَّن خلقته وجمل صورته عِنْد رُؤْيَته ، زِيَادَة إكرام وتعظيم ، وَيحْتَمل أَن يكون معنى الصُّورة معنى الصِّفة ، كَقَوْل الْقَائِل : صُورَة الْأَمر كَذَا وَكَذَا ، أَي : صفته كَذَا ، فَتكون الْفَائِدَة على هَذَا الْوَجْه فِيهِ الْإِخْبَار عَن حسن حَاله عندالله عزَّ وجلَّ ، وتوقير الرَّب بإنعامه عَلَيْهِ وإعظامه ، وَذَلِكَ

أَنَّ الرَّائِي قد يرى المرئيَّ وَيكون حَال الرَّائِي عَن المرئي محمودة مَقْبُولَة ، فيتلقاه المرئي بالإكرام والإجلال ، وَقد يُخَالف ذَلِك فيتلقَّاه بخِلَافِهِ .

فَعرفنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وجود زوائده ، وَحُصُول فَوَائده عِنْد لِقَاء الله عزَّ وجلَّ ، وَأَنه كَانَ عِنْده فِي أحسن صُورَة وأجمل حَال .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَن تكون الصُّورة بِمَعْنى الصِّفة ، وَيرجع ذَلِك إِلَى الله ، وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلك " رَأَيْت الْأَمِير رَاكِبًا يحْتَمل مَعْنيين :

أَحَدُهُمَا : أَن يكون الرّكُوب حَال الرَّائِي .

وَالثَّانِي : أَن يكون الرّكُوب حَال المرئي .

وكلا الْوَجْهَيْنِ سَائِغ مُحْتَمل .

فَإِذا قُلْنَا : إِنَّ قَوْله : "فِي أحسن صُورَة" يرجع إِلَى الله تَعَالَى ، فَإِن فَائِدَته على نَحْو مَا ذكرنَا أَيْضا قبل ، وَهُوَ أَن يفيدنا أَنَّه رأى الله عزَّ وجلَّ ، وَهُوَ على أحسن صِفَاته مَعَه فِي إنعامه عَلَيْهِ ، والإقبال والإفضال إِلَيْهِ ، والإجلال ، وَيكون حسن الصِّفة يرجع إِلَى حسن الْإِحْسَان وَالْإِكْرَام ، وَمَا تَلقاهُ بِهِ من الرَّحْمَة والرِّضوان والجود والإمتنان .

وَقد يُقَال فِي صفة الله تَعَالَى : أَنَّه جميل ، وَأَنَّ لَهُ جمالاً وجلالاً ، وَالْمرَاد بوصفنا أَنَّه جميل : أَنَّه مُجمّل فِي أَفعاله ، والإجمال فِي الْفِعْل هُوَ فعل الْجمال لمن يجمّلهم بِهِ ، وَذَلِكَ نوع الْإِحْسَان وَالْإِكْرَام ، فَكَذَلِك حسن صفة الله تَعَالَى ، يرجع إِلَى مَا يظْهر من فعل النِّعم والإبتداء بالمنن .

وَقد يكون حُسن الصُّورة وجمالها ، مِمَّا يرجع إِلَى الرَّب عزَّ ذكره من نفي التَّناهي فِي العظمة والكبرياء ، والعلو والرِّفعة ، حتَّى لَا مُنْتَهى وَلَا غَايَة وَرَاءه .

وَيكون معنى الْخَبَر على ذَلِك : تعريفنا مَا تزايدت من معارفه عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام ، وَعند رُؤْيَته لرَبِّه ، عزَّ ذكره ، لعظمته وكبريائه ، وبهائه ، وَبعده من شبه خلقه ، وتنزيهه من صِفَات النَّقْص وتعريه من كلِّ عيب .

فَإِذا كَانَ كَذَلِك فَحمل الْخَبَر على أحد هَذِه الْوُجُوه هُوَ الْأَلْيَق بتوحيد الله ، وَالْأولَى بصفاته وَبِقَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير﴾** .

فصل آخر :

وَقد ذكر بعض المتأوِّلين لهَذِهِ الْأَخْبَار ، فِي تَأْوِيل مَا رُوِيَ عَنهُ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام فِي قَوْله : "رَأَيْت رَبِّي فِي أحسن صُورَة"، أَنَّ ذَلِك كَانَ رُؤْيا مَنَام ، وَقد ذكر فِي حَدِيث أم الطُّفَيْل حَدِيث الْمنَام نصَّاً ، وَفِي بعض أَحَادِيث ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنهُ قَالَ : وَإِذا كَانَ كَذَلِك مَنْصُوصاً ، فقد زَالَ الشَّك فِيهِ ، وَإِن لم يكن مَنْصُوصاً فَإِنَّ الْأَمر فِيهِ مَحْمُول على ذَلِك ، وَهُوَ أَنَّ الْجَمِيع من مثبتي الرُّؤْيَة ونفاتها قد قَالُوا بِجَوَاز رُؤْيَة الله عزَّ وجلَّ فِي الْمنَام ، وَقَالُوا : إِنَّ رُؤْيا النَّوم وهمٌ قد جعله الله تَعَالَى دلَالَة للرَّائي على أَمر يكون ، أَو كَانَ ، من طَرِيق التَّعْبِير والأوهام قد يتَعَلَّق بالموهوم على خلاف مَا عَلَيْهِ الموهوم ، فَلَا يُنكر أَن يُقَال مثله فِيهِ من طَرِيق الرُّؤْيَا ، إِلَّا أَنَّه سُبْحَانَهُ بِبَعْض تِلْكَ الْأَوْصَاف الَّتِي تعلّقت بهَا الرُّؤْيَا مُتَحَقّق ، وَذَلِكَ مَعْهُود مثله فِي أَحْوَال الرُّؤْيَا .

إِنَّ الرَّائِي قد يرى فِي الْمنَام مَا لَا يكون على مَا يرَاهُ ، كمن يرى فِي الْمنَام كَأَنَّهُ يطير أَو كَأَنَّهُ انْقَلب حماراً ، وَهُوَ فِي مَوضِع آخر غير الْموضع الَّذِي هُوَ فِيهِ ، فَيكون ذَلِك توهُّماً مِنْهُ لَا رُؤْيَة حَقِيقَة ، وَقد يَصحُّ مثله على الْأَنْبِيَاء والأولياء إِذْ قد وَردت الْأَخْبَار برؤيا الْأَنْبِيَاء وَالصَّالِحِينَ أَنَّهم رَأَوْا فِي منامهم أَشْيَاء كَانَت أَحْكَامهَا بِخِلَاف مَا رَآهَا ، وَصَحَّ ذَلِك ، لِأَنَّهَا أَوْهَام تجْرِي مجْرى الدّلالات بإختلاف طَرِيق التَّأويلات .

وَقد ذكر بعض أَصْحَاب التَّعْبِير ذَلِك فِي كتبهمْ الْمَوْضُوعَة لذَلِك ، وعبَّروا ذَلِك بتأويله ، كَمَا عبَّروا أَيْضاً من يرى النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي الْمنَام أَو يرى الْقِيَامَة أَو الجنَّة والنَّار فِي سَائِر مَا يرى فِي الْمنَام مِمَّا لَهُ تَعْبِير قَالَ :

وَإِذا كَانَ ذَلِك سائغاً – وَقد ذكره نصَّاً بعض الرُّوَاة – وَجب أَن يكون التَّأْوِيل مَحْمُولا عَلَيْهِ ، لإستحالة كَون الْبَارِي مصورا بالصُّورة والهيئة والتركيب وَالْحَد وَالنِّهَايَة" .

وقال ابن فورك في"مشكل الحديث وبيانه"(ص٩٠-٩٤) :"أَمَّا قَوْله :"غير الصُّورة الَّتِي يعرفونها" ، فَيحْتَمل أَن يكون الْمَعْنى فِي ذَلِك : أَنَّه يَأْتِيهم يَوْم الْقِيَامَة بِصُورَة على خلاف ذَلِك الشَّكل ، وَتلك الْهَيْئَة ، الَّتِي كَانَت الصُّورة عَلَيْهَا فِي الدُّنيا ، مَا لم يعرفوه وَلم يعهدوه ، لَيْسَ ذَلِك مُنْكراً ، لِأَنَّ عادات أهل الْقِيَامَة ، وَمَا يظْهر لَهُم من الْأَهْوَال وعجائب الْخلق من صُورَة الْمَلَائِكَة وزبانية الْعَذَاب ، وخزنة الْجنان ، مِمَّا لم يعهدوا على شكلها وهيئتها فِي الدُّنيا .

وَأَمَّا قَوْله :"فَيَقُول أَنا ربُّكُم" ، فقد قَالَ بعض أهل الْعلم :

إِنَّ هَذَا آخر محنة الْمُؤمن ، وَأَنَّه يظْهر هَذَا القَوْل فعلاً ، من الله عزَّ وجلَّ فِي بعض هَذِه الصُّور ، محنة للمكلَّفين فِي الدُّنيا ، من أهل الْإِيمَان ، فَيظْهر مِنْهُم - عَن صدق توحيدهم وَصِحَّة إِيمَانهم - مَا يكون إنكاراً لذَلِك ، وَتَكون الْفَائِدَة فِيهِ : يعرفنا تأييد الله تَعَالَى لأهل الْإِيمَان بِهِ فِي الدُّنيا وَالْآخِرَة ، وتثبيته لَهُم ، كَمَا قَالَ عزَّ وجلَّ : **﴿يُثبِّتُ الله الَّذينَ آمَنُوا بالْقَوْل الثَّابِتِ فِي الْحَيَاة الدُّنيا وَفِي الْآخِرَة﴾** ، أَي : يثبتهم فِي الدُّنيا على الْحقِّ عِنْد ظُهُور القَوْل والمحن ، ويثبتهم فِي العقبى أَيْضاً فِي مَوَاضِع المحن.

وإِنَّما قيل للدُّنيا دَار محنة وتكليف مُطلقًا ، وَإِن كَانَ من نوعها قد يَقع مِنْهَا فِي العقبى ، فَلَا يُطلق عَلَيْهَا أَنَّهَا دَار تَكْلِيف ومحنة ، بل يُقَال : إِنَّهَا دَار جَزَاء ، لِأَنَّ الْغَالِب ذَلِك عَلَيْهَا ، وَهَذَا كَمَال يقعل فِي الدُّنيا جَزَاء ، وَلَا يُضَاف إِلَيْهَا ، لِأَنَّهُ لَا يغلب عَلَيْهَا إِذا لم يكن بِهِ .

وَأَمَّا قَوْله :"أَنَّهم يَقُولُونَ إِذا جَاءَ ربّنا عَرفْنَاهُ" ، فَيحْتَمل أَن يكون مَعْنَاهُ : مجيئاً بِإِظْهَار فعل يبديه فِي قُلُوبهم من زَوَائِد يَقِين ، وَعلم ، وبصر ، عِنْدَمَا يحدث لَهُم من إِدْرَاكه ومعانيه ، لِأَنَّ سَائِر مَا أضيف إِلَى الله تَعَالَى من إِتْيَان ومجيء فَهُوَ لظُهُور نوع من تَدْبيره فِي فضل أَو عدل .

وَأَمَّا قَوْله"فيأتيهم فِي الصُّورة الَّتِي يعرفونها" ، فَإِنَّ معنى الْإِتْيَان متأوَّل على الْوَجْه الَّذِي مضى بَيَانه ، وَيكون تَقْدِير تَأْوِيله : إِنَّه إِذا ظهر لَهُم نوع الصُّور الْمَعْهُودَة لَهُم شكلاً وهيئه وَخلق إدراكهم بِهِ ، وخاطبهم بِأَن أسمعهم كَلَامه ، وأفهمهم مُرَاده ، تثبَّتوا وأيقنوا أَنَّ المكلِّم لَهُم هُوَ ربّهم عَّز ذكره ، وَتَكون الْفَائِدَة فِي ذَلِك : تعريفنا مَا يَفْعَله الله عزَّ وجلَّ فِي العقبى من أَلطافه بأوليائه فِي عصمتهم

وحراستهم وتثبيتهم وتأييدهم ، حتَّى لَا يستفزّهم مُشَاهدَة تِلْكَ الْأَهْوَال الْعَظِيمَة ، وَلَا يستخفّهم أَمر تِلْكَ الصُّور الْمُنكرَة الَّتِي لم يعهدوا مثلهَا .

وَأمَّا قَوْله :"إِنَّه يَقُول لَهُم إِذا رَأَيْتُمُوهُ عرفتموه ، فَيَقُولُونَ : نعم ، بَيْننَا وَبَينه عَلامَة"الْخَبَر ، فَإِنَّ معنى ذَلِك : إنباؤنا بِحسن ثباتهم أَوَّلاً وآخراً ، وَذَلِكَ بِمَا وجده من فَضله عزَّ وجلَّ فِي إدامة معرفتهم وبصيرتهم ، وَإِزَالَة قبُول الْخَطَأ والزَّيغ عَنْهُم .

وَأمَّا تَفْسِير الْعَلامَة وَذكر مَا بَينهَا ، فَمن أهل الْعلم من قَالَ : إِنَّ تِلْكَ الْعَلامَة الَّتِي أشاروا إِلَيْهَا إِنَّا نعرفه بهَا هُوَ مَا بَينه وَبَين خلقه فِي الصُّور والأجسام من الْمُخَالفَة والمباينة ، وَأَنَّه لَا يشبه شَيْئًا مِنْهَا ، وَلَا يُشبههُ شَيْء مِنْهَا .

وَمِنْهُم من قَالَ : إِنَّ تِلْكَ الْعَلامَة مَا مَعَهم من الْمعرفَة بِهِ ، وَأَنَّهُمْ عبدوه فِي الدُّنيا من معرفَة بمعبود لَا يشبه شَيْئا مِمَّا عرفوه ، وَلَا يجوز أَن يشبه شَيْئاً وَلَا أَن يُشبههُ شَيْء ، فَإِذا رَأَوْا مَا عرفوه بِمثل هَذِه الْمعرفَة ، علمُوا أَن الَّذِي رَأَوْهُ هُوَ الَّذِي عرفوه .

فكون علامتهم عَن الرُّؤْيَة معرفتهم ، فَإِذا كَانَ مرئيّهم فِي العقبى معروفهم فِي الدُّنيا أيقنوا أَنَّه معبودهم .

وَحكي عَن ابْن أبي عَاصِم النَّبِيل ، أَنَّه كَانَ يَقُول فِي تَأْوِيل الحَدِيث : إِنَّ ذَلِك تَغْيِير يَقع فِي عُيُون الرَّائين كنحو مَا يتخيَّل للإِنْسَان الشَّيْء بِخِلَاف مَا هُوَ بِهِ ، فيتوهَّمه الشَّيْء على الْحَقِيقَة .

وَاعْلَم أَنَّه لَا بُدَّ أَن يحمل هَذَا الحَدِيث على نوع مِمَّا قُلْنَا ، لاستحالة أَن يكون الله تَعَالَى ذكره على صور كَثِيرَة ، يجهلونه مرَّة ويعرفونه مرَّة ، أَو يكون مِمَّن يحل الصُّور ، فتنتقل الصُّورة لاستحالة أَن يكون الله عزَّ وجلَّ حَالاً ومحلاً صُورَة أَو مصوَّراً ، وإِنَّمَا إِتْيَانه بالصُّورة بعد الصُّورة من طَرِيق الْفِعْل ، كَمَا يحدث الشَّيْء بعد الشَّيْء ، ويغير الْجِسْم من حَال إِلَى حَال بإحداث تَغْيِير .

وَإِضَافَة الصُّورة إِلَيْهِ فِي هَذِه الْأَحَادِيث ، فَهِيَ بِمَعْنى الْملك وَالْفِعْل ، لَا بِمَعْنى التَّصَوُّر بالشَّيْء من الصُّور ، تَعَالَى الله عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً ، لِأَنَّ الْهَيْئَة والصُّورة والتَّركيب والتَّأليف ، كلُّ ذَلِك إِنَّمَا

يَصِحُّ على الْأَجْسَام المحدودة ، والجواهر المخلوقة ، وتعاقب الْحَوَادِث وَتغَير مَا تقوم بِهِ فِيهَا عَلامَة حدث مَا تقوم بِهِ .

وَيحْتَمل أَيْضاً وَجهاً آخر ، وَهُوَ أَنَّ الصُّورة هَا هُنَا بِمَعْنى الصِّفة ، فَيكون تَقْدِير الْمَعْنى فِيهِ مَا يظْهر لَهُم من بطشه وَشدَّة بأسه يَوْم الْقِيَامَة ، وَإِظْهَار معايب الْخلق ومساويهم ، وفضائحهم ، وإنَّما عرفوه ساتراً حَلِيمًا غفَّارًا كَرِيمًا ، فَيظْهر لَهُم مِنْهَا أَنَّ ذَلِك مِنْهُ ، وَهُوَ معنى قَوْله :"فَيَقُول أَنا ربُّكُم" ، على معنى قَول الْقَائِل : قَالَت رجْلي فخذك وأذني فطنت ، على معنى ظُهُور ذَلِك فيهمَا ، فَيَقُولُونَ عِنْد ظُهُور ذَلِك مِنْهُ مستعيذين بِاللهَّ :"هَذَا مَكَاننَا"، أَي : نَلْبَث وَنَصْبِر حتَّى تظهر رَحمته وَكَرمه ، وَهُوَ إتْيَان الرَّب لَهُم بِإِظْهَار جوده لَهُم ، وَعطفه عَلَيْهِم ، فيأتيهم بعد ذَلِك عِنْد ثباتهم ، وَفِي الصُّورة الَّتِي يعرفونها ، على معنى إبداء عَفوه ومغفرته ، وحلمه ، على الصِّفة الَّتِي يعرفونه فِي الدُّنيا من ستره ومغفرته وحلمه .

وَإِذا كَانَ لفظ الصُّورة مُسْتَعْملاً فِي معنى الصِّفة - كَمَا ذكرنَا فِي قَول الْقَائِل - عرفني صُورَة من هَذَا الْأَمر ، أَي : صفته ، لم يُنكر أَن تكون الْفَائِدَة فِي هَذَا الْخَبَر مَا قُلْنَا ، وَأَن يكون هَذِه الْأَلْفَاظ من متشابه أَلْفَاظ الْأَحَادِيث ، جَارِيَة مجْرى متشابه أَلْفَاظ آي الْكتاب ، امتحاناً بهَا أهل الْعلم لاستنباط الصَّحِيح من مَعَانِيهَا ، وَالْوُقُوف على الْحَدِّ الْوَاجِب فِيهَا ، وافتتان أهل الْبَاطِن بهَا ، وخروجهم عَن الْهدى والرُّشد ، وَالْحق فِيهَا على النَّحْو الَّذِي جرى عَلَيْهِ حكم متشابه آي الْكتاب ومحكمها" .

وفي كلامه على حديث رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم الذي رواه البخاري(٩/ ١٢٨ برقم ٧٤٣٧) : «هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟» ، قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللهَّ، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ، لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» ، قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللهَّ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ» ، يَجْمَعُ اللهُّ النَّاس يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا - شَكَّ إِبْرَاهِيمُ -، فَيَأْتِيهِمُ اللهُّ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَنَا ربّنا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُّ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ ربّنا فَيَتْبَعُونَهُ،

وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمِ السَّعْدَانَ؟"، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِّ، قَالَ:"فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُّ، تَخْطَفُ النَّاس بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ المُوبَقُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ – أَوِ المُوثَقُ بِعَمَلِهِ –، وَمِنْهُمُ المُخَرْدَلُ، أَوِ المُجَازَى، أَوْ نَحْوُهُ، ثمَّ يَتَجَلَّى، حتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُّ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ المَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ، مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بِاللهَّ شَيْئًا، مِمَّنْ أَرَادَ اللهُّ أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُّ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّار بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّار ابْنَ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللهُّ عَلَى النَّار أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ تَحْتَهُ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثمَّ يَفْرُغُ اللهُّ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّار دُخُولًا الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللهَّ بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَهُ، ثمَّ يَقُولُ اللهُّ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟، فَيَقُولُ: لاَ، وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ، فَيَصْرِفُ اللهُّ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الجنَّة وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُّ أَنْ يَسْكُتَ، ثمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللهُّ لَهُ: أَلَسْت قَدْ أَعْطَيْت عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَدًا؟ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، وَيَدْعُو اللهَّ، حتَّى يَقُولَ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَعِزَّتِكَ، لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الجَنَّةِ، انْفَهَقَتْ لَهُ الجَنَّةُ، فَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ الحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللهُّ أَنْ يَسْكُتَ، ثمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِي الجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللهُّ: أَلَسْت قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، لاَ أَكُونَنَّ أَشْقَى خَلْقِكَ فَلاَ يَزَالُ يَدْعُو حتَّى يَضْحَكَ اللهُّ مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ، قَالَ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللهُّ لَهُ: تَمَنَّهْ، فَسَأَلَ رَبَّهُ

وَتَمَنَّى، حتَّى إِنَّ اللهَّ لَيُذَكِّرُهُ، يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، حتَّى انْقَطَعَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ، قَالَ: اللهُّ ذَلِكَ لَكَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ".

وقال محمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر في"مشكل الحديث وبيانه"(ص٤٠٩- ٤١٦) :" اعلم إِنَّما ذكرنَا أَلْفَاظ هَذِه الْأَخْبَار وانتقيناها من مَجْمُوع كَلَامه ، لنرى لَا حجَّة لَهُ فِيهِ على مَا قَالَ ، ثمَّ نبين بعد ذَلِك تَأْوِيل مَا كَانَ فِيهِ مُشكلاً من اللَّفْظ وَتظهر صِحَة مَعْنَاهُ على الْوَجْه الَّذِي يَلِيق بِاللهَّ جلّ ذكره ، وَلَا يُؤَدِّي إِلَى تَشْبِيه بخلقه .

وَقد ذكرنَا فِيمَا قبل بعض هَذِه الْأَلْفَاظ ، وَبينَّا تَأْوِيله وَطَرِيق تَخْرِيجه ، وَتَفْسِيره على الْوَجْه الصَّحِيح ، وَلَكنَّا نذْكر الْآن مالم يضمنهُ كلامنا قبل ، ليَكُون مَا نذْكر مَعَ مَا سبق ذكره جَامعا لما يهْتَدي بِهِ إِلَى تَأْوِيله على الْوَجْه الصَّحِيح .

فَأَمَّا مَا ذكره هَذَا الْقَائِل من أَنَّ بعض أهل الْكتاب وَالْمُنَافِقِينَ يرَوْنَ الله عزَّ وجلَّ يَوْم الْقِيَامَة رُؤْيَة إمتحان وإختبار ، لَا رُؤْيَة فَرح وإبتهاج ، إحتجاجاً بِهَذَا الْخَبَر فَلَا دَلِيل فِيهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَلْفَاظ هَذَا الحَدِيث تَدور على ثَلَاثَة أوجه :

أَحَدُهَا : مَا قيل فِيهِ فكشف عَن سَاق ، ويخرُّون لَهُ سجَّداً ، وَلَيْسَ فِي ذَلِك ذكر اللِّقَاء ، وَلَا إِثْبَات رُؤْيَة الْمُنَافِقين ، وَقد فسَّرنا معنى قَوْله : ﴿**يكْشَفُ عَنْ سَاق**﴾ على مَا رُوِيَ عَن ابْن عَبَّاس أَنَّه قَالَ : ﴿**يكْشَفُ عَنْ سَاق**﴾ عَن شدَّة ، أَو يكْشف عَن أَمر عَظِيم يُرِيد بِهِ هَؤُلَاءِ من أهوال الْقِيَامَة ، وَلم يذكر فِي هَذَا الْخَبَر رُؤْيَة الْكفَّار لله عزَّ وَجلَّ.

فَأَمَّا الْوَجْه الثَّانِي : فَهُوَ مَا قيل فِيهِ : فَيطَّلع الله عَلَيْهِم ، فَلَيْسَ ذَلِك مِمَّا يخْتَص بِمَعْنى الرُّؤْيَة ، لِأَنَّ الاطِّلاع عَلَيْهِم ، قد يكون بِغَيْر أَن يروه ، بِأَن يظْهر لَهُم فعلاً من أَفعاله ، وعلماً من أَعْلَامه ، وَآيَة من آيَاته .

وَأَمَّا قَوْله : فَيَقُولُونَ أَلا تتبعون النَّاس ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذ بِاللهَّ مِنْك .

أَي : من هَذَا القَوْل الَّذِي تدعونا إِلَيْهِ فِيهِ إِلَى إتباع النَّاس .

وَهَذَا يدلُّ على أَنَّ ذَلِك لم يكن رُؤْيَة ، إِذْ لَو كَانَ ذَلِك رُؤْيَة عين لقالوا : نَعُوذ بك مِنْك من هَذَا القَوْل ، وَلم يَقُولُوا : نَعُوذ بِاللهَّ مِنْك ، فَدلَّ على أَنَّ هَذَا الإطلاع على الْوَجْه الَّذِي ذكرنَا ، وَلَيْسَ هُوَ مِمَّا يخْتَص معنى الرُّؤْيَة ، فَلَا دلَالَة فِيهِ على ان الْكَافرين يرَوْنَ ربّهم الله يَوْم الْقِيَامَة ، وَذَلِكَ : معنى قَوْله بعد ذَلِك ثمَّ يتَوَارَى ثمَّ يطلع ، فَيَقُول : أَلا تتبعون النَّاس فِي أَنَّ ذَلِك يرجع إِلَى خلق من خلقه ، وَملك من مَلَائكَته ، يناديهم بِأَمْر الله عزَّ وجلَّ ، ويخاطبهم عَن وحيه ، فَيكون التَّوارِي والإطِّلاع رَاجعاً إِلَيْهِ دون أَن يكون رَاجعاً إِلَى الله عزَّ وَجلَّ .

فَأَمَّا قَوْله : ثمَّ يَقُول أنا ربُّكم فاتَّبعوني ، فَلَيْسَ فِيهِ أَيْضاً مَا يدلُّ على رُؤْيَة الْكفَّار لله عزَّ وجلَّ ، لِأَنَّ هَذَا خطاب وَلَيْسَ فِيهِ معنى الرُّؤْيَة ، وَلَا ذكر فِيهِ أَنَّهم يرونه ، بل فِيهِ أَنَّه يخاطبهم بذلك ، وَقد يجوز أَن يُخَاطب الْخلق من غير أَن يروه .

فَأَمَّا مَا قيل فِي الْخَبَر الآخر ، ثمَّ يتَمَثَّل الله لِلْخلقِ فَيلقى الْيَهُود فَيَقُول : من تَعْبدُونَ .

وَأعلم أَنَّه لَا يجوز أَن يكون لله تَعَالَى مِثَال يتَمَثَّل بِهِ لِلْخلقِ لإستحالة أَن يكون لَهُ شبه أَو مثل بِوَجْه من الْوُجُوه . وَإِذا لم يجز ذَلِك احْتمل معنى هَذَا الْكَلِمَة أَن يُقَال فِيهِ : إِنَّه أَرَادَ أَنَّ خلقاً من خلقه يتَصَوَّر لَهُم من الْمَلَائِكَة يخاطبهم بِأَمْر الله تَعَالَى .

وَيُقَال على التَّوَسُّع : تمثل الله بخلقه وَالْمرَاد بِهِ مَلَائكَته ووليه ، كَمَا أَنَّهم يَقُولُونَ فِي اللُّغَة : ضرب الْأَمِير اللص ، وإِنَّما أَمر بِهِ فنسب إِلَيْهِ الْفِعْل ، إِذا كَانَ عَن أمره ، وَإِذا كَانَ كَذَلِك وأستحال أَن يكون لله تَعَالَى من خلقه مِثَال ، وَجب أَن يحمل على مَا قُلْنَا ، وَأَن يكون التَّمْثِيل لِلْخلقِ هُوَ الَّذِي يلقِي الْيَهُود ويخاطبهم عَن الله بقوله من تَعْبدُونَ .

فَأَمَّا معنى قَوْله فِي الْخَبَر الآخر : فيأتيهم الله فِي صورته الَّتِي يعْرفُونَ فَيَقُولُونَ : أَنْت ربّنا ، فقد تقدَّم تَأْوِيل ذَلِك ، وَبينَّا أَنَّه نَظِير مَا فِي الْآيَة من قَوْله جلَّ ذكره : **﴿هَل يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** .

فَروِيَ عَن ابْن عَبَّاس فِي تَأْوِيله : أَنَّ مَعْنَاهُ بظلل من الْغَمَام ، وَأَنَّ فِي بِمَعْنى الْبَاء ، وَكَذَلِكَ قَوْله فيأتيهم فِي غير صورته ، بِمَعْنى بِغَيْر صورته ، وَإِضَافَة الصُّورَة إِلَيْهِ من طَرِيق الْملك .

وَقيل أَيْضاً أَنَّ الْآتِي فِي غير صورته غير الله جلّ ذكره بِدلَالَة قَوْله : إِنَّهُم يَقُولُونَ نَعُوذ بِاللهَّ مِنْك ، وَلَو كَانَ الْآتِي هُوَ الله لَكَانَ قَوْلهم نَعُوذ بك ، وَلم يَقُولُونَ نَعُوذ بِاللهَّ مِنْك ، حتَّى يأتينا ربّنا هَذَا مَكَاننَا.

وَأمَّا قَوْله : وَيَقُولُونَ فَإِذا جَاءَ ربّنا عَرفْنَاهُ ، فَتَأْوِيل مَجِيء الرَّب على مَا تقدَّم ذكره فِي تَأْوِيل الْآيَة من قَوْله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** ، وَأَنَّ ذَلِك بِظُهُور فعل لَا بتحويل من مَكَان إِلَى مَكَان .

وَأَمَّا قَوْله : فيأتيهم الله فِي صورته الَّتِي يعْرفُونَ ، فَمَعْنَاه : يَأْتِيهم بصورته الَّتِي يعْرفُونَ ، فَيَقُولُونَ : أَنْت ربُّنا ، وَمعنى ذَلِك : أَنَّ الْإِتْيَان فعلٌ من أَفعَال الله عزَّ وجلَّ ، أَو فعل بعض مَلَائكَته فيضاف إِلَيْهِ من طَرِيق أَنه يَقع بأَمْره .

فَأَمَّا قَوْلهم : أَنْت ربُّنا ، فَيحْتَمل وَجْهَيْن :

أَحدهمَا : أَن يُقَال : إِنَّ مَعْنَاهُ : أَنْت ربُّنا يخاطبنا صدقاً فيتحقَّقون نداءه وخطابه أَنَّه عَن الله تَعَالَى.

وَيحْتَمل أَن يكون ذَلِك عَن تجلِّي الله للْمُؤْمِنين من خلقه ، فَيَقُولُونَ عِنْد رُؤْيَتهمْ لَهُ وَظُهُور تِلْكَ الصُّورة الَّتِي يعْرفُونَ مِمَّا أضيف إِلَى الله تَعَالَى ملكاً وخلقاً أَنْت ربُّنا إعترافاً بالرُّبوبيَّة وفصلاً بَين حَالهم وأحوال الْكفَّار الجاحدين ، فَأَمَّا مَا رتّب عَلَيْهِ هَذَا الْقَائِل هَذَا الْخَبَر مَعَ الْآيَة فِي قَوْله : **﴿كَلَّا إِنَّهُم عَن رَبِّهِم يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون﴾** .

وَأَنَّ ذَلِك يرجع إِلَى الْكَافِر الجاحد ، وَأَنَّ الْمُنَافِق وَإِن كَانَ بِقَلْبِه مُكَذباً فَهُوَ بِلِسَانِهِ مقرّاً ، وَأَنَّ الله تَعَالَى ذكره يُرِيهم نَفسه رُؤْيَة إمتحان وإختبار ليَكُون عجبه إِيَّاهُم بعد ذَلِك رُؤْيَة حسرة عَلَيْهِم ، وندامة ، فَهَذَا مِمَّا لَا حَاجَة إِلَى ترتيبه على هَذَا الْوَجْه من قبل أَن مَا ذكر من الْأَخْبَار لَيْسَ فِيهَا مَا يدلُّ على إِثْبَات رُؤْيَة الْمُنَافِقين ، والآي ناطقة بتخصيص النَّظر إِلَى الرَّب يَوْم الْقِيَامَة للْمُؤْمِنين وبحجب الْكَافرين ، وَإِذا كَانَ كَذَلِك – وَلَيْسَ للنَّاس فِي هَذِه الْمَسْأَلَة إِلَّا قَولَانِ على الْوَجْه الَّذِي بَينا – بَان لَك أَنَّ هَذِه مقَالَة محدثة لم يسْبق هَذَا الْقَائِل إِلَيْهَا ، حتَّى فصل بَين الْكَافرين من أهل الْكتاب وَغَيرهم وَبَين الْمُنَافِق وَالْمقرّ وَبَين الجاحد .

وَإذا كَانَ كَذَلِك علمت أَنَّ مَا ذكر من أَلْفَاظ هَذِه الْأَخْبَار فمعناها مَحْمُولَة على مَا ذكرنَا على الْوَجْه الَّذِي لَا يُؤَدِّي إِلَى تَمْثِيل الله عزَّ وجلَّ بخلقه مَعَ قبُول الْخَبَر إِفَادَة مَعْنَاهُ ، وَبَان لَك فَسَاد مَا اخْتَار هَذَا الْقَائِل من إِثْبَات رُؤْيَة الْكَافِر لله تَعَالَى ذكره ، وَأَن لَا تعلُّق فِيمَا احْتج بِهِ" .

وقال محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن موسى بن خالد بن سالم النَّيسابوري، أبو عبد الرَّحْمَن السُّلمي(٤١٢هـ) في"حقائق التَّفسير"(٢/ ٣٣٠) :"قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :"إنَّ الله خلق آدم على صورته"، أي : صورته التي صوره عليها فأحسن صورته" .

وقال ابن بطَّال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك(٤٤٩هـ) في شرح صحيح البخارى"(٩/ ٥-٨) :"قال المهلَّب: هذا الحديث يدلُّ أنَّ الملائكة في الملأ الأعلى يتكلَّمون بلسان العرب، ويحيُّون بتحيَّة الله، وأنَّ التَّحية بالسَّلام هي التي أراد الله أن يتحيَّا بها.

وفيه: الأمر بتعليم العلم من أهله والقصد إليهم فيه، وأنَّه من أخذ العلم ممَّن أمره الله بالأخذ عنه فقد بلغ العذر في العبادة وليس عليه ملامة، لأنَّ آدم أمره الله أن يأخذ عن الملائكة ما يحيُّونه، وجعلها له تحيَّة باقية، وهو تعالى أعلم من الملائكة، ولم يعلمه إلَّا لتكون سُنَّة .

وقوله:(فلم يزل الخلق ينقص حتَّى الآن) فهو في معنى قولى تعالى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾** ، ووجه الحكمة في ذلك : أنَّ الله خلق العالم بما فيه دالَّاً على خالق حكيم، وجعل في حركات ما خلق دليلاً على فناء هذا العالم وبطلانه خلافًا للدَّهريَّة التى تعبد الدَّهر وتزعم أنَّه لا يفنى، فأبقى الله هذا النَّقص دلاله على بطلان قولهم، لأنَّه إذا جاز النَّقص في البعض جاز الفناء في الكلّ.

وأمَّا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : (خلق الله آدم على صورته) فإنَّ العلماء اختلفوا في رجوع الهاء من(صورته) إلى من ترجع الكناية بها. قال ابن فورك: فذهب طائفة إلى أنَّ الهاء من(صورته) راجعة إلى آدم عيله السَّلام ، وأفادنا بذلك عليه السَّلام : إبطال قول الدَّهريَّة أنَّه لم يكن قط إنسان إلَّا من نطفة، ولا نطفة إلَّا من إنسان فيما مضى ويأتى، وليس لذلك أوَّل ولا آخر، فعرفنا عليه السَّلام تكذيبهم، وأنَّ أوَّل البشر هو آدم خلق على صورته التى كان عليها من غير أن كان نطفه

قبله أو عن تناسل، ولم يكن قط في صلب ولا رحم، ولا خلق علقه ولا مضغة، ولا طفلاً، ولا مراهقًا، بل خلق ابتداء بشرًا سويًّاً كما شوهد.

وقد قال آخرون: المعنى في رجوع الهاء إلى آدم تكذيب القدريَّة، لما زعمت أنَّ من صور آدم وصفاته ما لم يخلقه الله، وذلك أنَّ القدريَّة تقول: إنَّ صفات آدم على نوعين : منها ما خلقها الله، ومنها ما خلقها صورته وصفاته وأعراضه.

وقال آخرون: يحتمل أن يكون رجوع الهاء إلى آدم وجهًا آخر على أصول أهل السُّنَّة : أنَّ الله خلق السَّعيد سعيدًا والشَّقيَّ شقيًّاً، فخلق آدم ، وقد علم أنَّه يعصيه ويخالف أمره، وسبق العلم بذلك ، وأنَّه يعصي ثمَّ يتوب، فيتوب الله عليه ، تنبيهًا على وجوب جريان قضاء الله على خلقه، وأنَّه إنَّما تحدَّث الأمور وتتغيَّر الأحوال على حسب ما يخلق عليه المرء وييسِّر له.

وذهب طائفة إلى أنَّ الحديث إنَّما خرج على سبب، وذلك: (أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلام مرَّ برجل يضرب ابنه أو عبده في وجهه لطخًا ويقول: قبَّح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك ، فقال عليه السَّلام: إذا ضرب أحدكم فليتَّق الوجه، فإنَّ الله خلق آدم على صورته) ، فزجره النَّبيُّ عن ذلك، لأنَّه قد سبَّ الأنبياء عليهم السَّلام والمؤمنين ، وخصّ آدم بالذِّكر، لأنَّه هو الذي ابتدئت خلقه وجهه على الحدّ الذي تخلق عليها سائر ولده، فالهاء على هذا الوجه كناية عن المضروب في وجهه. وذهب طائفة إلى الهاء كناية عن الله تعالى وهذا أضعف الوجوه، لأنَّ حكم الهاء أن ترجع إلى أقرب المذكور، إلَّا أن تدلّ دلالة على خلاف ذلك، وعلى هذا التَّأويل يكون معنى الصُّورة معنى الصِّفة كما يقال: عرِّفني صورة هذا الأمر ، أي : صفته ، ولا صورة للأمر على الحقيقة إلَّا على معنى الصِّفة، ويكون تقدير التَّأويل : أنَّ الله خلق آدم على صفته ، أي : خلقه حيًا عالمًا سمعيًا بصيرًا متكلِّمًا مختارًا مريدًا، فعرفنا بذلك إسباغ نعمه عليه وتشريفه بهذه الخصال.

ونظرنا في الإضافات إلى الله فوجدناها على وجوه:

منها إضافة الفعل، كما يقال: خلق الله، وأرض الله، وسماء الله، وإضافة الملك ، فيقال: رزق الله، ووعيد الله، وإضافة اختصاص وتنويه بذكر المضاف إليه، كقولهم: الكعبة بيت الله، وكقوله:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ ، ووجه آخر من الإضافة نحو قولهم: كلام الله، وعلم الله، وقدرة الله، وهى إضافة اختصاص من طريق القيام به، وليس من وجهة الملك والتَّشريف بل ذلك على معنى إرادته غير متعرية منها قيامًا بها ووجودًا.

ثم نظَرْنا إلى إضافةِ الصُّورة إلى الله، فلم يصحَّ أن يكونَ وجه إضافتها إليه على نحوِ إضافة الصِّفة إلى الموصوف بها مِن حيثُ تقوم به؛ لاستحالةِ أن يقومَ بذاته تعالى حادثٌ، فبقِي من وجوه الإضافة المُلك والفِعل والتشريف، فأمَّا الملك والفِعل فوجهه عامٌّ، وتبطل فائدةُ التَّخصيص، فبقِي أنَّها إضافة تشريف، وطريق ذلك أنَّ الله هو الذي ابتدأ تصويرَ آدم على غير مثالٍ سبَق، بل اخترعَه، ثمَّ اخترع من بعده على مثالِه، فتشرَّفَتْ صُورته بالإضافةِ إليه، لا أنَّه أُريد به إثباتُ صورة لله تعالى على التَّحقيقِ هو بها مصوَّر؛ لأنَّ الصُّورة هي التألُّف والهيئة، وذلك لا يصحُّ إلَّا على الأجسامِ المؤلَّفة، والله تَعالَى عن ذلك" .

وقال ابن بطَّال أيضاً في" شرح صحيح البخاري"(١٠/٤٦٢-٤٦٣) :"وأمَّا وصفه تعالى بالصُّورة في قوله: "فيأتيهم الله في صورته" ، ففيه إيهام للمجسِّمة أنَّه تعالى ذو صورة، ولا حجَّة لهم فيه؛ لأنَّ الصُّورة هاهنا يحتمل أن تكون بمعنى العلامة ، وضعها الله تعالى دليلاً لهم على معرفته والتَّفرقة بينه وبين مخلوقاته، فسمَّى الدَّليل والعلامة صورة مجازًا ، كما تقول العرب: صورة حديثك كيت وكيت، وصورة أمرك كذا وكذا، والحديث والأمر لا صورة لهما، وإنَّما يريدون حقيقة حديثك وأمرك كذا وكذا.

قال المهلَّب: وأمَّا قوله: (فإذا رأينا ربَّنا عرفناه) ، فإنَّما ذلك أنَّ الله تعالى يبعث إليهم مَلَكًا ليفتنهم ويختبرهم في اعتقاد صفات ربّهم الذي ليس كمثله شيء ، فإذا قال لهم الملك: أنا ربُّكم، رأوا عليه دليل الخلقة التى تشبه المخلوقات فيقولون: هذا مكاننا حتَّى يأتينا ربُّنا ، فإذا جاءنا عرفناه ، أي : أنَّك لست ربّنا، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون ، أي : يظهر إليهم في ملك لا ينبغى لغيره وعظمة لا تشبه شيئًا من مخلوقاته، فيعرفون أنَّ ذلك الجلال والعظمة لا تكون لغيره، فيقولون: أنت ربّنا لا يشبهك شيء. فالصُّورة يعبر بها عن حقيقة الشَّئ. وأمَّا قوله: (فيقال: هل

بينكم وبينه آية تعرفونها؟ فيقولون: السَّاق) فهذا يدلُّ والله أعلم أنَّ الله عرَّف المؤمنين على ألسنة الرُّسل يوم القيامة أو على ألسنة الملائكة المتلقِّين لهم بالبشرى أنَّ الله قد جعل علامة تجلبه لكم السَّاق ، وعرَّفهم أنَّه سيبتلى المكذبين بأن يرسل إليهم من يقول: أنا ربُّكم. فتنة لهم ، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: **﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾**«إبراهيم: ٢٧» ، في سؤال القبر، وفى هذا الموطن ...".

وقال أبو محمَّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظَّاهري(٤٥٦هـ) في"الفصل في الملل والأهواء والنِّحل"(١٢٨/٢-١٢٩) :"...وَكَذَلِكَ القَوْل فِي الحَدِيث الثَّابِت :"خلق الله آدم على صورته" ، فَهَذِهِ إِضَافَة ملكٍ ، يُرِيد الصُّورة الَّتِي تخيره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليَكُون آدم مصوَّراً عَلَيْهَا ، وكلّ فَاضل فِي طبقته ، فَإِنَّهُ ينْسب إِلَى الله عزَّ وجلَّ ، كَمَا يَقُول : بَيت الله تَعَالَى عَن الْكَعْبَة ، والبيوت كلُّهَا بيُوت الله تَعَالَى ، وَلَكِن لَا يُطلق على شَيْء مِنْهَا هَذَا الِاسْم كَمَا يطبق على الْمَسْجِد الْحَرَام ، وكما نقُول فِي جِبْرِيل وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلام روح لله ، والأرواح كلهَا لله عزَّ وجلَّ ملك لَهُ وكالقول فِي نَاقَة صَالح عَلَيْهِ السَّلام بِأَنَّهُ لله ، والنُّوق كلُّهَا لله عزَّ وجلَّ ، فعلى هَذَا الْمَعْنى قيل : على صُورَة الرَّحْمَن ، والصُّور كلُّهَا لله تَعَالَى هِيَ ملك لَهُ وَخلق لَهُ .

وَقد رَأَيْت لِابْنِ فورك وغيره من الأشعريَّة فِي الْكَلَام فِي هَذَا الحَدِيث أَنَّهم قَالُوا فِي معنى قَوْله عَلَيْهِ السَّلام : "أَنَّ الله خلق آدم على صورته" : إِنَّمَا هُوَ على صفة الرَّحْمَن من الْحَيَاة وَالْعلم والاقتدار واجتماع صِفَات الْكَمَال فِيهِ وأسجد لَهُ مَلَائكَته كَمَا أسجدهم لنَفسِهِ وَجعل لَهُ الْأَمر وَالنَّهْي على ذُريَّته كَمَا كَانَ لله كلّ ذَلِك" .

وقال البيهقي(٤٥٨هـ) في"الأسماء والصِّفات"(٦٦/٢) :"وَأَمَّا ذِكْرُ الصُّورة فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فَإِنَّ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْلَمَهُ: أَنَّ ربّنا لَيْسَ بِذِي صُورَةٍ وَلَا هَيْئَةٍ، فَإِنَّ الصُّورة تَقْتَضِي الْكَيْفِيَّةَ وَهِيَ عَنِ اللهَّ وَعَنْ صِفَاتِهِ مَنْفِيَّةٌ، وَقَدْ يُتَأَوَّلُ مَعْنَاهَا عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ الصُّورة بِمَعْنَى الصِّفة، كَقَوْلِ الْقَائِلِ: صُورَةُ هَذَا الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا، يُرِيدُ صِفَتَهُ فَتُوضَعُ الصُّورة مَوْضِعَ الصِّفة. وَالْوَجْهُ الْآخَرُ: أَنَّ الْمَذْكُورَ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ فِي أَوَّلِ الْحَدِيثِ إِنَّمَا هِيَ صُوَرٌ وَأَجْسَامٌ كَالشَّمسِ

وَالْقَمَرِ وَالطَّوَاغِيتِ وَنَحْوِهِمَا، ثمَّ لَمَّا عَطَفَ عَلَيْهَا ذِكْرُ اللهَّ سُبْحَانَهُ خَرَجَ الْكَلَامُ فِيهِ عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْمُطَابَقَةِ فَقِيلَ: يَأْتِيهِمُ اللهُّ فِي صُورَةِ كَذَا إِذْ كَانَتِ الْمَذْكُورَاتُ قَبْلَهُ صُوَرًا وَأَجْسَامًا، وَقَدْ يُحْمَلُ آخِرُ الْكَلَامِ عَلَى أَوَّلِهِ فِي اللَّفْظِ وَيُعْطَفُ بِأَحَدِ الِاسْمَيْنِ عَلَى الْآخَرِ. وَالْمَعْنَيَانِ مُتَبَايِنَانِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ، كَالْعُمَرَيْنِ وَالْأَسْوَدَيْنِ وَالْعَصْرَيْنِ، وَمِثْلُهُ فِي الْكَلَامِ كَثِيرٌ.

وَمِمَّا يُؤَكِّدُ التَّأْوِيلَ الْأَوَّلَ هُوَ أَنَّ مَعْنَى الصُّورة الصِّفة، قَوْلُهُ مِنْ رِوَايَةِ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: «فَيَأْتِيهِمُ اللهُّ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا» . وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا رَأَوْهُ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ الصِّفة الَّتِي عَرَفُوهُ بِهَا، وَقَدْ تَكُونُ الرُّؤْيَةُ بِمَعْنَى الْعِلْمِ، كَقَوْلِهِ : **﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾**﴿البقرة: ١٢٨﴾ ، أَيْ: عَلِّمْنَا. قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: «وَمِنَ الْوَاجِبِ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَسْتَشْنِعُهَا النُّفُوسُ إِنَّمَا خَرَجَتْ عَلَى سَعَةِ مَجَالِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَمَصَارِفِ لُغَاتِهَا، وَأَنَّ مَذْهَبَ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَكْثَرِ الرُّوَاةِ مِنْ أَهْلِ النَّقْلِ الِاجْتِهَادُ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى دُونَ مُرَاعَاةِ أَعْيَانِ الْأَلْفَاظِ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَرْوِيهِ عَلَى حَسْبِ مَعْرِفَتِهِ وَمِقْدَارِ فَهْمِهِ وَعَادَةِ الْبَيَانِ مِنْ لُغَتِهِ، وَعَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَلْزَمُوا أَحْسَنَ الظَّنِّ بِهِمْ، وَأَنْ يُحْسِنُوا التَّأَنِّي لِمَعْرِفَةِ مَعَانِي مَا رَوَوْهُ، وَأَنْ يُنْزِلُوا كُلَّ شَيْءٍ مِنْهُ مَنْزِلَةَ مِثْلِهِ، فِيمَا تَقْتَضِيهِ أَحْكَامُ الدِّين وَمَعَانِيهَا، عَلَى أَنَّكَ لَا تَجِدُ بِحَمْدِ اللهَّ وَمَنِّهِ شَيْئًا صَحَّتْ بِهِ الرِّواية عَنْ رَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَّا وَلَهُ تَأْوِيلٌ يَحْتَمِلُهُ وَجْهُ الْكَلَامِ وَمَعْنًى لَا يَسْتَحِيلُ فِي عَقْلٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ» .

وقال البيهقي في"الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرَّشاد على مذهب السَّلف وأصحاب الحديث "(ص٧١) :"وَأَمَّا السَّمْعِيُّ: فهُوَ مَا كَانَ طَرِيقُ إِثْبَاتِهِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَقَطْ، كَالْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالْعَيْنِ، وَهَذِهِ أَيْضًا صِفَاتٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ لَا يُقَالُ فيهَا: إِنَّهَا هِيَ الْمُسَمَّى، وَلَا غَيْرُ الْمُسَمَّى، وَلَا يَجُوزُ تكْيِيفُهَا، فَالْوَجْهُ لَهُ صِفَةٌ وَلَيْسَتْ بِصُورَةٍ، وَالْيَدَانِ لَهُ صِفَتَانِ وَلَيْسَتَا الْجَارِحَتَيْنِ، وَالْعَيْنُ لَهُ صِفَةٌ وَلَيْسَتْ بِحَدَقَةٍ، وَطَرِيقُ إِثْبَاتِهَا لَهُ صِفَاتُ ذَاتٍ وَرَدَ خَبَرُ الصَّادِقِ بِهِ" .

وقال محمود بن مزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدِّين الكرماني، ويعرف بتاج القرَّاء(المتوفى: نحو ٥٠٥هـ) في"غرائب التَّفسير وعجائب التَّأويل"(١/ ٥٣٥) :"وقيل: حسن الصُّورة، فإنَّ الله خلق كلَّ

شيء على صورة شيء آخر إلَّا بني آدم فإنَّه خلقه على صورته، وهذا معنى قوله: عليه السَّلام : "خلق الله آدم على صورته". وقال بعضهم: أضاف الصُّورة إلى الله تعالى تعظيماً لها كإضافة النَّاقة والبيت، ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ ، وبيت الله، وصورة الله" .

وقال أبو عبد الله محمَّد بن علي بن عمر التَّمِيمي المازري المالكي(٥٣٦هـ) في"المُعْلم بفوائد مسلم"(٣/ ٢٩٩-٣٠٣) :"قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :"إذَا قَاتَل أحَدكم أخَاه فَلْيَجتَنِبِ الوجهَ ، فإنَّ الله خَلقَ آدمَ عَلىَ صُورَتِه" .

قال الشَّيخ - وفَّقه الله- : هذا الحديث ثابت عِند أهل النَّقل. وقد رَوَاه بَعضهم:"أنَّ الله خلق آدمَ على صورة الرَّحْمَن" ، وَلاَ يثبت هذا عند أهل النَّقل. ولعلَّه نَقْل من راويه بالمعنى الذي توهَّمه: وظنَّ أنَّ (الضَّمير عائد) على الله سبحانه فأظهره وقال على صورة الرَّحْمَن.

واعلم أنَّ هذا الحديث غلِط فيه ابن قتيبة وأجراه على ظاهره، وقال: فإنَّ الله سبحانه له صورة لا كالصُّور وأجرى الحديث على ظاهره، والذي قاله لا يخفى فساده ، لأنَّ الصُّورة تفيد التَّركيب ، وكلّ مركَّبٍ محدث ، والباري سبحانه وتعالى ليس بمحدَث فليس بمركَّب ، وما ليس بمركَّب فليس بمصوَّر. وهذا من جنس قول المبتدعة : إنَّ الباري عزَّ وجلَّ جسم لا كالأجسام ، لما رأوا أهل السُّنَّة يقولون: البارىء سبحانه شيء لا كالأشياء ، طرَّدوا هذا فقالوا : جسم لا كالأجسام ، وقال ابن قتيبة صورة لا كَالصُّوَر.

والفَرق بَين مَا قلنَاه وَمَا قَالوه : أنَّ لفظة شيء لا تفيد الحدوث ولا تتضمَّن ما يقتضيه .

وقولنا: جسم وصورَة يتضمَّنَان التَّأليف والتَّركيب ، وذلك دليل الحدوث. وعجبًا لابن قتيبة في قوله: صورة لا كالصُّوَر، مع كون هذا الحديث يَقتضي ظاهره عنده خَلق آدم على صورته ، فقد صارت صورة الباري سبحانه على صورة آدم عليه السَّلام على ظاهر هذا على أصله ، فكيف يكون على صورة آدم ، ويقول: إنَّها لا كالصُّور. هذا تناقض.

ويقال له أيضاً: إن أردت بقولك: صورة لا كالصُّور أنَّه ليس بمؤلَّف ولا مركَّب فليس بصورة على الحقيقة ، وأنت مثبت تَسمِيَةً تفيد في اللّغة معنى مستحِيلاً عليه تعالى مع نفي ذلك المعنى ، فَلم

تعط اللفظ حقَّه ، وَلمَ تجرِه على ظاهره ، فإذا سلمت أنَّه ليس على ظاهره ، فقد وافقت على افتقاره إلى التَّأويل.

وهذا الذي نقول به ، فإذا ثَبَت افتقاره إلى التَّأويل ، قلنا : اختلف النَّاس في تأويله ، فمنهم من أعاد الضَّمير إلى المَضروب ، وذكر أنَّ في بعض طرق الحديث أنَّه سمعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقول: قبَّح الله وجهك ووجه من أشبهك ، أو نحو هذا ، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ما قال ، أمَّا عَلَىَ هذه الرِّواية وهي شتم من أشبهه ، فبينَّ وجه هذا التَّعليل ، لأنَّه إذا شتم من أشبهه فكأنّه شتم آدم وغيره من الأنبياء عليهم السَّلام ، وإنَّما ذكر الأوَّل تنبيهاً عليه وعلى بنيه ، وأمَّا على هذا الذي وقع في كتاب مسلم فيحتمل أن يكون تعبّد الله سبحانه بتخصيص الوجه بهذه الكرامة لشبهه بآدم إجلالاً لآدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، ولا يبقى على هذا إلَّا أن يقال، فيجب أن يجتنب ما سواه من الأعضاء المشبهة لآدم. وجواب هذا: أنَّه لاَ يبعد أن يكون الله سبحانه يتعبَّد بما شاء ، ولم يجعل هذه العلَّة جارية مطَّردة، وقد اختصَّ الوجه بأمور جليلة ليست في غيره من الأعضاء ، لأنَّ فيه السَّمعَ والبصر، وبالبصر يُدرك العالمَ وُيرَى ما فيه من العجائبَ الدَّالَّة على عظم الله سبحانه، وبالسَّمع تُدرَك الأقوال، وتسمع أوامِر الرَّسول عليه السَّلام ونواهيه ويتعلمَّ بهم سائر العلوم التي منها معرفة الله عزَّ وجلَّ ومعرفة رسله عليهم السَّلام ، وفيه النُّطق الذي يتميَّز به عن البهائم ويشرف به الإنسان على سائر الحيوان ، ومثل هذا التَّميُّز لا يبعد أن يجعل سبباً في تمييزه بهذا الحكم.

وقال آخرون: إنَّ الضَّمير عائد على آدم نَفسِه. وَعُورِض هؤلاء بأنَّ هذا يجعل الكَلاَمَ غثاً لغواً لا فائدة تحته ، وأي فائدة في قولك: خلق زيد على صورة نفسه ، والشَّجرة على صورتها نَفسِها. وهذا معلوم بالعقول ولا يفتقر إلى خبر منقول.

وأجاب أصحاب هذا التَّأويل عن هذا الاعتراض بِأنَّ الفائدة فِيه التَّنبيه على من خالف الحقَّ من أصحاب المذاهب كالطَّبائعيِّين القائلين بأنَّ تصوير آدم كان عن بعض تأثيرات النُّجوم أو العناصر أو غير ذلك ممَّا يهَذون به ، فأكذبهم النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وأخبر أنَّ الله سبحانه خلق آدم على صورته أو أكذَب الدَّهريَّة في قولهم: ليس ثمَّ إنسان أوَّل ، وإنَّما الإنسان من نطفةٍ ونطفة من

إنسان هكذا أبداً إلى غير أوَّل ، فأخبر النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّ الله سبحانه اخترع صورة آدم ولم يكن مصوَّرا عن أب ولاكائناً عن تناسل، أو يكون أكذب القدريَّة في قولهم: إنَّ كثيراً من أعراض آدم وصفته خلق لآدم فأخبر النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه مخلوق بجملة صورته.

وهذا التَّأويل الذي ذهب إليه هؤلاء من إعادة الضَّمير إلى آدم بِنَفسِه إنَّما يحسن إذا روي لفظ النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مجرَّداً من السَّبَبِ مقتصراً منه عَلىَ قَوله:"إنَّ الله خَلَقَ آدَمَ على صورته" ، وأمَّا ذكر السَّبب أو ذكر جميعِ مَا حَكَاه مسلِم عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : "إذا قَاتَل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه ، فإنَّ الله خلق آدم على صورته"، فإنَّه لا يحسن صرف الضَّمير لآدَمَ ، لأنَّه ينفي أن يكون بين السَّبَب أو صَدرِ الكلام وآخره ارتباط ويصيرَ الكلام وما وقع في كتاب مسلم من معنى المتنافر. وقد روي أنَّه روي مختصراً مقتصراً فيه على ما قلناه ، فقال فيه بعض أئمَّتنا : هو من اختصار بعض الرُّواة.

وقال اَخرون : فإنَّ الضَّمير يعود إلى الله سبحانه ، ويكون له وجهان:

أَحَدُهُمَا : أن يراد بالصُّورة الصِّفة ، كما يقال: صورة فلان عند السُّلطان كذا بمعنى صِفَته كذا. ولَّما كان آدم عليه السَّلام امتاز بصفات من الكمال بتميزٍ بالعقل والنُّطق عن البهائم وبالنُّبوَّة عن سائر بَنِيه سوى النَّبيئين منهم (وله فضائل اختصَّ بها ، فكأنَّه شبَّهه من هذه الجهة باختصاص الله سبحانه) بالرِّفعة والجلال لا سيَّما وقد أمر الملائكة بالسُّجود له ، والسُّجود لا يكون إلاَّ لله ، وإن كانت الملائكة إنَّما سجدت له طاعة لله عزَّ وجلَّ. هذا المعنى ذكره بعض أصحابنا وفي التَّشبيهِ بُعْدٌ.

وَالوَجْهُ الثَّاني عِنْدَ أَصْحَابِ هَذَا التَّأْوِيْل : أن تكون إضافة الصُّورة إضافةَ تشريفٍ واختصاصٍ ، كما قيل في الكعبةِ : بيت الله ، وإن كانت البيوت كلّها لَه عزَّ وجهه ، وكما قال تعالى : **﴿نَاقَةُ اللهِ﴾** إلى غير ذلك ممَّا وقع في الشَّريعة من أمثال هذا .

وقد تميَّز آدَم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِأن خلقه الله جلَّت قدرته بيده ولم يقَلّبه في الأصلاب ولا درَّجه من حالٍ إلى حال ، فتكون الإضافة إضافة اختصاصٍ لهذا المعنى ولغيره.

وأمَّا مَن صرَّح بهذا الضَّمير وأخرجه : الرَّحْمَن ، فإنَّه يرد من جهة النَّقل وأنَّه ضعيف عند المحدِّثين.

واختلف أصحابنا في ردِّه من جهة اللّسان ، فقال بعضهم: ما يحسن مثل هذا في الكلام ، لأنَّ اللفظ الظَّاهر إذا افتتح به وأعيد ذكره ، فإنَّه إنَّما يعاد بالضَّمير ، ولهذا يقال: ضربَ زَيد عَبدَه، ولا يقال: ضَرَب زيد عَبدَ زيد ومرادهم بزيد الثَّاني زيدًا الأوَّل ، قالوا : فلو كان ما قالوه صحيحاً لكانت العبارة عنه"خلق آدم على صورته" كما وقع في الطُّرق الثَّابتة.

وقال بعض أصحابنا: لا يستبعد هذا في اللِّسان ، وقد قال سبحانه وتعالى : **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾** ، ولم يقل : يوم نحشر المتَّقين إلينا، وقال بعض النُّحاة أيضاً : من هذا أيضاً قوله تعالى : **﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾** ، وأنشد في ذلك قول عدي بن زيد :

لا أرَى الموت يسبق الموت شيء　　نغَّص الموت ذا الغنى والفقيرا".

وقال أبو عبد المازري المالكي في"المُعْلم بفوائد مسلم"(٣/٤٢٨-٤٢٩) :"إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَن" .

فتَّشت عن هذه الرِّواية المذكورة هنا ، وهي"أنَّ الله خلق آدم على صورة الرَّحْمَن" في جملة وافرة من كتب الحديث فلم أجدها. ولهذا قال المازري: ولا يثبت هذا عند أهل النَّقل.

وغلط المازري ابن قتيبة في إجراء هذه الرِّواية عند تفسيرها على ظاهرها ، وجاءت في فتح الباري إشارة إلى هذه الرِّواية: وقيل الضَّمير لله -أي لا لآدم- وتمسَّك قائل ذلك بما ورد في بعض طُرقه (على صورة الرَّحْمَن)".

وقال القاضي عياض(٥٤٤هـ) في"إكمال المعلِّم شرح صحيح مسلم"(٨/ ٨٧-٩١) :"قوله:"إذا قاتل أحدكم أخاه"، وفى رواية أخرى:"إذا ضربه فليتجنب الوجه"، وفى رواية:"فلا يلطمنَّ الوجه": فيه تشريف هذه الصُّورة عن الشَّين؛ إذ الضَّرب فيها واللطم ممَّا يظهر الشَّين فيها سريعاً؛ ولأنَّ فيها المحاسن وأعضاء نفيسة، وأكثر الإدراكات، فقد يبطلها بفعله والتَّشويه فيها أشدّ؛ لأنَّها شيما

الإنسان والبادى منه والمتميّز به من أمثاله، والصُّورة التى خلقه الله عليها وكرَّم بها بنى آدم وفضلهم على كثير من خلقه تفضيلاً.

قوله آخر الحديث:"فإنَّ الله خلق آدم على صورته"، قال الإمام: هذا حديث ثابت عند أهل النَّقل، وقد رواه بعضهم:"أنَّ الله خلق آدم على صورة الرَّحْمَن" ، ولا يليق هذا عند أهل النَّقل، ولعلَّه نقل من رواه بالمعنى الذي يوهمه، وظنَّ أنَّ الضَّمير عائد على الله سبحانه فأظهره وقال:"على صورة الرَّحْمَن".

واعلم أنَّ هذا الحديث غلط فيه ابن قتيبة وأجراه على ظاهره، وقال: فإنَّ الله سبحانه له صور لا كالصُّور، وأجرى الحديث على ظاهره، والذى قال لا يخفى فساده؛ لأنَّ الصُّورة تفيد التَّركيب، وكلُّ مركَّب محدث، والبارى سبحانه وتعالى ليس بمحدث فليس بمركَّب، وما ليس بمركَّب فليس بمصوَّر، وهذا من جنس قول المبتدعة: إنَّ البارى جلَّ وعزَّ جسم لا كالأجسام، لَّما رأوا أهل السُّنَّة قالوا: شيء لا كالأشياء طرد واحد، فقالوا: جسم لا كالأجسام. وقال ابن قتيبة: صورة لا كالصُّور.

والفرق بين ما قلناه وما قالوه: أنَّ لفظة"شيء"لا تفيد الحدوث ولا تتضمَّن ما يقتضيه، وقولنا: جسم وصورة يتضمَّن التَّأليف والتَّركيب، وذلك دليل الحدوث. وعجباً لابن قتيبة في قوله: صورة لا كالصُّور، مع كون هذا الحديث يقتضى ظاهره عنده خلق آدم على صورته، فقد صارت صورة البارى سبحانه على صورة آدم عليه السَّلام على ظاهر هذا على أصله، فكيف يكون على صورة آدم، ويقول: إنَّها لا كالصُّور. وهذا يناقض.

ويقال له أيضاً: إن أردت بقولك: صورة لا كالصُّور أنَّه ليس بمؤلَّف ولا مركَّب، فليس بصورة على الحقيقة، وأنت مثبت تسمية تفيد في اللغة معنى مستحيلاً عليه تعالى، مع نفى ذلك، فلم يعطِ اللفظ حقَّه ولم يجره على ظاهره.

فإذا سلَّمت أنَّه ليس على ظاهره فقد وافقت على افتقاره إلى التَّأويل ، وهذا الذي نقول به، فإذا ثبت افتقاره إلى التَّأويل قلنا: أختلف النَّاس في تأويله، فمنهم من أعاد الضَّمير إلى المضروب، وذكر

أنَّ في بعض طرق الحديث أنَّه سمعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقول:"قبَّح الله وجهك ووجه من أشبهك"أو نحو هذا، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ما قال، أمَّا على هذه الرِّواية - وهى شتم من أشبهه - فبيَّن وجه هذا التَّعليل؛ لأنَّه إذا شتم مَن أشبهه وآدم يشبهه فكأنَّه شتم آدم وغيره من الأنبياء عليهم السَّلام ، وإنَّما ذكر الأوَّل تنبيهًا عليه وعلى نبيِّه.

وأمَّا على هذا الذي وقع في كتاب مسلم فيحتمل أن يكون تعبُّدًا لله سبحانه بتخصيص الوجه لهذه الكرامة لشبهه بآدم هنا إجلالاً لآدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا يبقى على هذا إلَّا أن يقال: فيجب أن يجتنب ما سواه من الأعضاء المشبهة لآدم، وجواب هذا: أنَّه لا يبعد أن يكون الله سبحانه يتعبَّد بما شاء الله، ولا تجعل هذه العلَّة جارية مطَّردة.

وقد اختصّ الوجه بأمور جليلة ليست في غيره من الأعضاء؛ لأنَّ منه السَّمع والبصر، وبالبصر يدرك العالم ويرى ما فيه من العجائب الدالَّة على عظم الله سبحانه ، وبالسَّمع يدرك الأقوال ويسمع أوامر النَّبيِّ عليه السَّلام ونواهيه، ويتعلَّم به سائر العلوم التى منها معرفة الله عزَّ وجلَّ ومعرفة رسله عليهم السَّلام ، وفيه النطق الذي يميز به عن البهائم، وشرف به الإنسان عن سائر الحيوان، ومثل هذا التَّمييز لا يبعد أن يجعل سبباً في تمييزه بهذا الحكم.

وقال آخرون: إنَّ الضَّمير عائد على آدم نفسه. وعُورض هؤلاء بأنَّ هذا يجعل الكلام عيَّاً لا فائدة تحته، وأي فائدة في قولك: خلق زيد على صورة نفسه، والشَّجرة على صورتها نفسها؟ وهذا معلوم بالعقول ولا يقتصر إلى خبر منقول. وأجاب أصحاب هذا التَّأويل عن هذا الاعتراض بأنَّ الفائدة فيه: التَّنبيه على من خالف الحقَّ من أصحاب المذاهب كالطَّبائعيِّين القائلين بأنَّ تصوير آدم كان عن بعض تأثيرات النُّجوم أو العناصر أو غير ذلك بما يهزؤون به، فأكذبهم النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. واحتراز الله - سبحانه - خلق آدم على صورته، أو أكذب الدَّهريَّة في قولهم: ليس ثمَّ إنسان أوَّل، وإنَّما إنسان من نطفة ونطفة من إنسان هكذا أبداً إلى غير أوَّل، فأخبر النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّ الله سبحانه اخترع صورة آدم ولم يكن مصوَّراً عن أب ولا كائناً عن تناسل، أو يكون

أكذب القدريَّة في قولهم: إنَّ كثيراً من أعراض آدم وصفاته خلق لآدم، وأخبر النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه مخلوق بجملة صورته.

وهذا التَّأويل الذي ذهب إليه هؤلاء - من إعادة الضَّمير إلى آدم بنفسه - إنَّما يحسن إذا روى لفظ النَّبيَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مجرَّداً من السَّبب، مقتصراً منه على قوله:"إنَّ الله خلق آدم على صورته"، وأمَّا ذكر السَّبب، أو ذكر جميع ما حكاه مسلَّم عنه عليه السَّلام :"إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإنَّ الله خلق آدم على صورته" ، فإنَّه لا يحسن صرف الضَّمير لآدم؛ لأنَّه ينفى أن يكون بين السَّبب أو صدر الكلام وآخره ارتباط وتميز الكلام. وما وقع في كتاب مسلم في معنى المسافر، وقد ذكر أنَّه روى مختصراً مقتصراً فيه على ما قلناه. وقال بعض أئمَّتنا: هو من اختصار بعض الرُّواة.

وقال آخرون: إنَّ الضَّمير يعود إلى الله سبحانه ، ويكون له وجهان :

أَحَدُهُمَا: أن يراد بالصُّورة الصِّفة، كما يقال: صورة فلان عند السُّلطان كذا، بمعنى صفته كذا. ولَمَّا كان آدم عليه السَّلام امتاز بصفات من الكمال تميَّز بالعقل والنُّطق عن البهائم، والنبوَّة على سائر بنيه سوى النَّبيين منهم، وله فضائل اختصّ بها، فكأنَّه شبهه من هذه الجهة باختصاص الله سبحانه بالرِّفعة والجلال، لاسيَّما وقد أمر الملائكة بالسُّجود له طاعة لله عزَّ وجلَّ. هذا المعنى ذكره بعض أصحابنا في التَّشبيه بعد.

وَالوَجْهُ الثَّاني عِنْدَ أَصْحَابِ هَذَا التَّأويْل :: أن تكون إضافة الصُّورة إضافة تشريف واختصاص، كما قيل في الكعبة: بيت الله، وإن كانت البيوت كلُّها له عزَّ وجلَّ ، وكما قال تعالى: **﴿نَاقَةُ اللهِ﴾** إلى غير ذلك ممَّا وقع في الشَّريعة من أمثال هذا. وقد تميَّز آدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بأن خلقه الله - جلَّت قدرته - بيده، ولم يقلبه في الأصلاب، ولا درجه من حال إلى حال، فتكون الإضافة إضافة اختصاص لهذا المعنى ولغيره.

وأمَّا من صرَّح بهذا الضَّمير وخرجه للوجود، فإنَّه يرد من جهة النَّقل، وأنَّه ضعيف عند المحدِّثين.

واختلف أصحابنا في ردّه من جهة اللسان، فقال بعضهم: ما يحسن مثل هذا في الكلام؛ لأنَّ اللفظ الظاهر إذا افتتح به، وأُعيد ذكره فإنَّما يعاد بالضَّمير، ولهذا يقال: زيد ضرب عبده، ولا يقال: ضرب زيد عبد زيد، ومرادهم بزيد الثَّانى زيد الأوَّل، قالوا: فلو كان ما قالوه صحيحاً لكانت العبارة عنه:"خلق آدم على صورته"كما وقع في الطُّرق الثَّابتة.

وقال بعض أصحابنا: لا يستبعد هذا في اللسان، وقد قال سبحانه وتعالى: **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ﴾** ، ولم يقل: يوم يحشر المتَّقين إلينا. وقال بعضِ النُّحاة: من هذا أيضاً قوله تعالى: **﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾** ، وأنشد في ذلك قول عدى بن زيد:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء   نغَّص الموت ذا الغنى والفقير

وفي هذا كفاية.

قال القاضى: قد جاء في هذا الحديث نفسه ما أغنى عمَّا ذكر في بعض الأحاديث، بأنَّ مسلماً قد ذكر في هذا:"إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإنَّ الله خلق آدم على صورته"، فالهاء هاهنا عائدة على الأخ المنهي أن يضرب وجهه ويستقيم الكلام، وتظهر فائدة الحديث ويزول الإشكال.

وإنَّما يبقى الإشكال كلّه في الحديث الآخر الذي لم يذكر فيه هذا السَّبب مثل حديث البخارى في باب السَّلام:"إنَّ الله لما خلق آدم على صورته قال: اذهب فسلِّم على أولئك النَّفر من الملائكة" ، وخرَّجه مسلم – أيضاً – بعد هذا بنصِّه فى"باب خلق آدم" ، ومثل هذا، لكن قد تقدَّم فيه من التَّأويلات ما يكفى بعضها.

وإذا نزَّهنا الله تعالى عن الصُّورة الجثمانيَّة فلا يبالى بعد وسلمنا معنى مشكل الحديث للعالم بعينه، على مذهب أكثر السَّلف من الإيمان بها والتَّسليم إلى الله في معناها، وتنزيهه عن ظاهرها، أو تأويله على ما عليه مَنْ رأى التَّأويل، وعلى مقتضى كلام النَّبى العربى ولغته العربيَّة، وكلام العرب ومجازاة كلامها ومقاصدها في استعاراتها وتمثيلاتها التى خوطبنا بها، وجاء الشَّرع والقرآن بها وعلى تصرّف وجوهها".

وقال القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي في"مشارق الأنوار على صحاح الآثار"(٢/٣٢٣) :"قوله في حديث الشَّفاعة أيضاً من رواية زهير : "فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون " ، كذا للسَّمرقندي والسّجزّي وابن ماهان والطَّبري ، وعند العذري في صورة لا يعرفونها ، وهو أصوب الكلام وأصحّ في المعنى ، وعلى الصَّواب جاء في صحيح البخاري في كتاب القيامة والحشر من غير إضافة الصُّورة إلى الله تعالى ، وتكون في هنا بمعنى الباء ، أي : بصورة يختبرهم ويفتنهم بها من صورة المخلوقين ، وهي آخر محن المؤمنين ، ألا تراه قال في الحديث : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتَّى يأتينا ربُّنا ، فإذا أتانا عرفناه .

وفي الحديث الآخر : "كيف تعرفونه ؟ قالوا : إنَّه لا شبيه له" ، وقد جاء في البخاري في كتاب التَّوحيد في حديث عبدة بن عبد الله :" في صورته التي يعرفون" ، وفي حديث ابن بكير : "في صورة غير صورته التي رأوه فيها" ، وقيل الصُّورة هنا بمعنى الصِّفة ، كما يقال : صورة هذا الأمر كذا ، أي : صفته وهو يرجع إلى المعنى الأوَّل من صفة بعض مخلوقاته أو أهوال عظيمة ..." .

وقال القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي في"إكمال المعلِّم شرح صحيح مسلم"(١/٥٤٧-٥٤٨) :"قوله:"فيأتيهم في صورته التى يعرفون مقابلة لفظة الصُّورة هنا التى المراد بها في حق الله الصِّفة على ما تقدم للفظة الصُّورة الحقيقية الواردة في صفة الملك والمخلوق، وتجنيس اللفظ باللفظ، كما قال تعالى: **﴿مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾** ، **﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾** ، وقد جاءت هذه اللفظة في البخارى:"فيأتيهم في الصُّورة التى لا يعرفونها وفى الصُّورة التى يعرفون" ××××××××

من غير إضافةٍ، وهى أبين وأقرب لتأويل الصِّفة.

والصُّورة قد ترجع في اللسان إلى معنى الصِّفة ومعنى الحقيقه، كقولهم: صُورَةُ هذا الأمرِ وصورة الحديث كذا، أي : حقيقته وصفته، وإليه يرجعُ قولهُ:"الصُّورة التى رأوه فيها أوَّلاً" ، أي : علموه من تنزيهِهِ وتقديسه، واعتقدوه من أنَّه لا يشبُهُهُ شيء. وقد زلَّ من لم يُحصِّل كلامه مِمَّن تقدَّم في هذا الباب فأثبت صورةٌ لا كالصُّور، وهذا تناقضٌ وتجسيم محض، نعوذ بالله. وكذلك يرجعُ معنى قوله في الحديث الآخر : في أدنى صورةٍ من التى رأوه فيها أوَّلاً.

قال الخطَّابي: ويحتمل أن يكون إنَّما حجبهم في المرَّة الأولى لأجل من كان معهم من المنافقين حتَّى يُميَّزوا عنهم، قال: ويحتمل أن يكون الاستعاذةُ من المنافقين وهم المُراد، وإن كان اللفظُ عموماً كما قال تعالى: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاس إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾** ، وإنَّما قاله المنافقون. قال: وفحوى الكلام يدُلُّ أنَّه قول المنافقين، يعني في الحديث.

قال القاضي: لا يصحُّ أن يكون من قول المنافقين، ولا يستقيم الكلامُ به ، فتأمَّله وعوِّل على ما ذكرناه.

وقوله:"فيرفعون رؤوسهم وقد تحوَّل في صُورته التى رأوه فيها أوَّلاً:"فيقولون أنت ربُّنا" كلّه إن شاء الله راجع إلى عظيم ما أراهم من عجائب قدرته وباهر سلطانِه، فأراهم أوَّلاً ما امتحنهم به حتَّى ظهر صحَّةُ إيمانهم ويقينهم ومعرفَتِهم، ثمَّ قلب لهم ذلك وحوَّل محنتهم بأمانِهِم وفتنتهُم بتثبيتهم، وأظهر لهم من حقيقة سلطانه وباهر آياته وعظيم ملكوتهِ ما لا يشكُّون في صحَّتِه، ويستدلُّون على أنَّ ذلك الذي عرفوه وحققوه قبل له ولا يليق بغيره، فيتجلَّى لهم عند ذلك فيقولُ: أنا ربُّكُم، فيقولون: أنت ربّنا" .

وقال القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي في"إكمال المعلِّم شرح صحيح مسلم"(١٨٦/٨) :"وقوله هنا :" (طوله ستُّون ذراعاً) يبيِّن الإشكال ، ويزيح التَّشابه ، ويوضِّح أنَّ الضَّمير راجعٌ إلى آدم نفسه ، وأنَّ المراد على هيئته التى خلقه عليها ، لم ينتقل في النَّشأة أحوالاً ، ولا تردَّد في الأَرحام أطوارًا .

وقد مرّ من هذا ، ويكون معناه : على الصُّورة التى كان بها في الأرض ، وأنَّه لم يكن في الجنَّة على صورة أخرى ، ولا اختلفت صفاته وتصوُّراته اختلاف تصوُّرات الملائكة في أْصول صورهم ، وفى الصُّور التى يتراءون فيها غالباُ للخلق" .

وقال ابن الجوزي الحنبلي(٥٩٧هـ) في"دفع شبه التَّشبيه بأكفِّ التَّنزيه"(ص١٤٣-١٤٧) :"ذكر الأحاديث التي سمُّوها أخبار الصِّفات :"اعلم أنَّ للأحاديث دقائق وآفات لا يعرفها إلَّا العلماء الفقها ،ء تارة في نظمها وتارة في كشف معناها ، وسنوضح بعض ذلك إن شاء الله تعالى :

الحَدِيْثُ الأَوَّلُ : روى البخاري، ومسلم في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : خلق الله آدم على صورته".

قلت : للنَّاس في هذا مذهبان : أحدهما : السُّكوت عن تفسيره ، والثَّاني : الكلام في معناه ، واختلف أرباب هذا المذهب في"الهاء"على من تعود على ثلاثة أقوال :

أَحَدُهَا : تعود على بعض بني آدم ، وذلك أنَّ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مرَّ برجل يضرب رجلاً ، وهو يقول : قبَّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فقال :"إذا ضرب أحدكم فليتَّق الوجه ، فإنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته" ، قالوا : وإنَّما اقتصر بعض الرُّواة على بعض الحديث ، فيحمل المقتصر على المفسّر ، قالوا : فوجه من أشبه وجهك يتضمَّن سبّ الأنبياء والمؤمنين ، وإنَّما خصَّ آدم بالذِّكر لأنَّه هو الذي ابتدأت خلقة وجهه على هذه الصُّورة التي احتذي عليها من بعده ، وكأنَّه نبَّه على أنَّك سببت آدم وأنت من أولاده ، وذلك مبالغة في زجره ، فعلى هذا تكون الهاء كناية عن المضروب ، ومن الخطأ الفاحش أن ترجع إلى الله عزَّ وجلَّ بقوله : "ووجه من أشبه وجهك" ، فإنَّه إذا نسب إليه شبه سبحانه وتعالى كان تشبيهاً صريحاً .

وفي صحيح مسلم من حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه قال : «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» .

القَوْلُ الثَّانِي : أنَّ الهاء كناية عن اسمين ظاهرين ، فلا يصحُّ أن يُضاف إلى الله عزَّ وجلَّ لقيام الدَّليل على أنَّه ليس بذي صورة ، فعادت إلى آدم ، ومعنى الحديث : أنَّ الله خلق آدم على صورته التي خلقه عليها تامَّاً لم ينقله من نطفة إلى علقة كبنيه ، هذا مذهب أبي سليمان الخطَّابي ، وقد ذكره ثعلب في أماليه .

القَوْلُ الثَّالِثُ : أنَّها تعود إلى الله تعالى ، وفي معنى ذلك قولان :

أَحَدُهُمَا : أن تكون صورة مَلَك ، لأنَّها فعله فتكون إضافتها إليه من وجهين :

أَحَدُهُمَا : التَّشريف بالإضافة ، كقوله تعالى : ﴿**أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ**﴾﴿البقرة:١٢٥﴾ .

وَالثَّانِي : لأنَّه ابتدعها على غير مثال سابق ، وقد روي هذا الحديث من طريق ابن عمر عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه قال : لا تقبِّح الوجه ، فإنَّ آدم خلق على صورة الرَّحْمَن .

قلت : هذا الحديث فيه ثلاثة علل :

أَحَدُهَا : أنَّ الثَّوري والأعمش اختلفا فيه فأرسله الثَّوري ورفعه الأعمش .

وَالثَّانِي : أنَّ الأعمش كان يدلِّس ، فلم يذكر أنَّه سمعه من حبيب بن أبي ثابت .

وَالثَّالِثَةُ : أنَّ حبيباً كان يدلِّس ، فلم يعلم أنَّه سمعه من عطاء .

قلت : وهذه أدلَّة تُوجب وَهْنَاً في الحديث ، ثمَّ هو محمول على إضافة الصُّورة إليه ملكاً .

وَالقَوْلُ الثَّانِي : أن تكون صورة بمعنى الصِّفة تقول : هذا صُورة هذا الأمر ، أي : صفته ، ويكون المعنى : خلق آدم على صفته من الحياة والعلم والقدرة والسَّمع والبصر والإرادة والكلام ، فميَّزه بذلك على جميع الحيوانات ، ثمَّ ميَّزه على الملائكة بصفة التَّعالي حين أسجدهم له ، وقال ابن عقيل : إنَّما خصَّ آدم بإضافة صورته إليه لتخصيصه وهي السَّلطنة التي تشاكلها الرُّبوبيَّة استعباداً وسجوداً وأمراً نافذاً وسياسات تعمر بها البلاد ويصلح به العباد ، وليس في الملائكة والجنّ من تجمع على طاعة نوعه وقبيلته سوى الآدمي ، وإنَّ الصُّورة ها هنا معنويَّة لا صورة تخاطيط ، وقد ذهب أبو محمَّد بن قتيبة في هذا الحديث إلى مذهب قبيح ، فقال : لله صورة لا كالصُّور ، فخلق آدم عليها ، وهذا تخليط وتهافت ، لأنَّ معنى كلامه أنَّ صورة آدم كصورة الحقّ .

وقال القاضي أبو يعلى : يطلق على الحقِّ تسمية الصُّورة لا كالصُّور ، كما أطلقنا اسم ذاته .

قلت : وهذا تخليط لأنَّ الذَّات بمعنى الشَّي ،ء وأمَّا الصُّورة فهي هيئة وتخاطيط وتأليف وتفتقر إلى مصوِّر ومؤلِّف ، وقول القائل لا كالصُّور نقض لما قاله ، وصار بمثابة من يقول : جسم لا كالأجسام ، فإنَّ الجسم ما كان مؤلَّفاً ، فإذا قال : لا كالأجسام نقض ما قال" .

وقال ابن الجوزي الحنبلي في"دفع شبه التَّشبيه بأكفِّ التَّنزيه" (ص١٤٨ فما بعدها) :"

الحَدِيْثُ الثَّانِي : روى عبد الرَّحْمَن بن عائش رضي الله عنه عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه قال : رأيت ربِّي في أحسن صورة، فقال لي : فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمَّد ؟ قلت : أنت أعلم يا ربّ ، فوضع كفَّه بين كتفي حتَّى وجدت برْدها بين ثديي فعلمت ما في السَّموات والأرض.

قال أحمد رضي الله عنه : أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة ، يرويه معاذ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وكلُّ أسانيده مضطربة ليس فيها صحيح ، ورواه قتادة عن أنس ، واختلف على قتادة فرواه يوسف بن عطيَّة عن قتادة ، ووهم فيه ورواه هشام عن قتادة عن أبي قلابة عن خالد بن اللجلاج عن ابن عبَّاس ، ووهم في قوله عن ابن عبَّاس ، وإنَّما رواه خالد عن عبد الرَّحْمَن بن عائش ، وعبد الرَّحْمَن لم يسمعه من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وإنَّما رواه عن مالك بن يخامر عن معاذ .

قلت : قد ذكرنا أنَّه لا يصحُّ . وقال أبو بكر البيهقي : فقد روي من أوجه كلُّها ضعيفة ، وأحسن طرقه تدلُّ على أنَّ ذلك كان في النَّوم .

وقد روي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :"أتاني آت في أحسن صورة ، فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : لا أدري ، فوضع كفَّه بين كتفي ، فوجدت بردها بين ثديي ، فعرفت كلَّ شيء يسألني عنه .

وروي من حديث ثوبان قال : خرج علينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعد صلاة الصُّبح ، فقال : إنَّ ربي أتاني الليلة في أحسن صورة ، فقال لي : يا محمَّد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري يا رب ، فوضع كفَّه بين كتفي حتَّى وجدت برد أنامله في صدري ، فتجلَّى لي ما بين السَّماء والأرض".

وروي عن أبي عبيدة بن الجرَّاح عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه قال : لَمَّا كنت ليلة أُسري بي رأيت ربِّي في أحسن صورة .

قلت : وهذه أحاديث مختلفة وليس فيها ما يثبت ، وفي بعضها :"أتاني آت" ، وذلك يرفع الأشكال ، وأحسن طرقها يدلُّ على أنَّ ذلك كان في النَّوم ، ورؤيا المنام وهْمٌ ، والأوهام لا تكون

حقائق ، وأنَّ الإنسان يرى كأنَّه يطير أو كأنَّه قد صار بهيمة ، وقد رأى أقوام في منامهم الحقَّ سبحانه على ما ذكرنا ، وإن قلنا إنَّه رآه في اليقظة ، فالصُّورة إن قلنا ترجع إلى الله تعالى فالمعنى : رأيته على أحسن صفاته من الإقبال عليَّ والرِّضى عنِّي ، وإن قلنا ترجع إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فالمعنى : رأيته وأنا على أحسن صورة .

قلت : والعجب مع اضطراب هذه الأحاديث وكون مثلها لا يثبت به حكم في الوضوء ، كيف يحتجُّون بها في أصول الدِّين والعقائد ؟ وروى ابن حامد من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه قال : ولمَّا أسرى بي رأيت الرَّحْمَن تعالى في صورة شاب أمرد ، له نور يتلألأ ، وقد نهيت عن وصفه لكم ، فسألت ربِّي أن يكرمني برؤيته ، وإذا هو كأنَّه عروس حين كشف عن حجابه مستو على عرشه".

قلت : هذا الحديث كذب قبيح ، ما روي قطُّ لا في صحيح ولا في كذب ، فأبعد الله من عمله ، فقد كنَّا نقول ذلك في المنام ، فذكر الوضَّاع هذا في ليلة الإسراء ، كافأهم الله ، وجزاهم النَّار ، يشبِّهون الله سبحانه بعروس ، لا يقول هذا مسلم .

وأمَّا ذكر البرد في الحديث الماضي ، فإنَّ البرد عَرَضٌ ، لا يجوز أن ينسب إلى الله تعالى ، وقد ذكر القاضي أبو يعلى في كتاب"الكفاية" عن أحمد : رأيت ربِّي في أحسن صورة ، أي : في أحسن موضع.

الحَدِيْثُ الثَّالِثُ :

روت أمُّ طفيل امرأة أُبي بن كعب رضي الله عنهما أنَّها سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يذكر أنَّه رأى ربَّه عزَّ وجلَّ في المنام في أحسن صورة ، شابَّاً موفراً ، رِجْلاه في خضرة ، عليه نعلان من ذهب ، على وجهه فراش من ذهب .

قلت : هذا الحديث يرويه نعيم بن حماد بن معاوية المروزي ، قال ابن عدي : كان يضع الحديث ، وقال يحيى بن معين : ليس نعيم بشيء في الحديث . وفي إسناده مروان بن عثمان عن عمارة بن عامر قال أبو عبد الرَّحْمَن النَّسائي : ومن مروان حتَّى يصدق على الله عزَّ وجلَّ ؟!! وقال مهنى بن يحيى : سألت أحمد عن هذا الحديث فأعرض بوجهه ، وقال : هذا حديث منكر مجهول يعني مروان بن

عثمان ، قال : ولا يعرف أيضاً عمارة ، وقد روى عبيد الله بن أبي سلمة ، قال : بعث ابن عمر إلى عبد الله بن عبَّاس يسأله : هل رأى محمَّد ربَّه ، فأرسل إليه : أن نعم ، قد رآه ، فرد الرَّسول إليه كيف رآه ؟ قال : رآه على كرسي من ذهب يحمله أربعة من الملائكة في صورة رجُل .

قلت : وهذا الحديث تفرَّد به ابن إسحاق وكذَّبه جماعة من العلماء ، وفي رواية عن ابن عبَّاس رآه ، كأنَّ قدميه على خضرة دونه ستر من لؤلؤ .

قلت : وهذا يرويه إبراهيم بن الحكم بن أبان ، وقد ضعَّفه يحيى بن معين وغيره ، وفي رواية ابن عبَّاس رضي الله عنه عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، قال : رأيت ربي أجعد أمرد ، عليه حلَّة خضراء". قلت : وهذا يُروى من طريق حمَّاد بن سلمة ، وكان ابن أبي العوجاء الزَّنديق ربيب حمَّاد يدسُّ في كتبه هذه الأحاديث ، على أنَّ هذا كان مناماً والمنام خيال .

ومثل هذه الأحاديث لا ثبوت لها ، ولا يحسن أن يحتجّ بمثلها في الوضوء !!! وقد أثبت بها القاضي أبو يعلى لله تعالى صفات ، فقال : قوله : شاب ، وأمرد ، وجعد ، وقطط ، والفراش ، والنَّعلان ، والتَّاج ، قال ثبت ذلك تسمية لا يعقل معناها ، وليس في إثباتها أكثر من تقريب المحدث من القديم ، وذلك جائز ، كما روي يدني عبده إليه يعني يقرِّبه إلى ذاته .

قلت : ومن يثبت بالمنام وبما لا يصحُّ نقله صفات ، وقد عرفنا معنى الشَّاب والأمرد ما هو ؟ ثمَّ يقول ما هو كما نعلم كمن يقول : قام فلان وما هو قائم ، وقعد وليس بقاعد ، قال ابن عقيل : هذا الحديث مقطوع بأنَّه كذب ، ثمَّ لا تنفع ثقة الرُّواة إذا كان المتن مستحيلاً ، وصار هذا كما لو أخبرنا جماعة من المعدّلين بأنَّ جمل البزَّاز دخل في خرم إبرة الخيَّاط، فإنَّه لا حكم لصدق الرُّواة مع استحالة خبرهم .

الحديث الرَّابعُ :

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ،قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : انتهيت ليلة أسري بي إلى السّماء ، فرأيت ربِّي ، فرأيت كلَّ شيء من ربِّي ، حتَّى لقد رأيت تاجاً مخوَّصاً من لؤلؤ".

قلت : هذا يرويه أبو القاسم عبد الله بن محمَّد بن اليسع عن القاسم بن إبراهيم ، قال الأزهري : كنت أقعد مع ابن اليسع ساعة فيقول : قد ختمت الختمة منذ قعدت !!! وقاسم ليس بشيء ، قال الدَّارقطني : هو كذَّاب .

قلت : كافأ الله من عمل مثل هذا الحديث .

الحَدِيْثُ الخَامِسُ :

روى البخاري ومسلم في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه قال :"يَجْمَعُ اللهُ النَّاس يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا – شَكَّ إِبْرَاهِيمُ –، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَنَا ربّنا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ" .

وفي الصَّحيحين من حديث أبي سعيد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه قَالَ :"... فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلاَ يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ ...

قلت : اعلم أنَّه يجب على كلِّ مسلم أن يعتقد أنَّ الله سبحانه وتعالى لا تجوز عليه الصُّورة التي هي هيئة وتأليف ، قال أبو سليمان الخطَّابي : معنى"فيأتيهم الله"، أي : يكشف الحجاب لهم حتَّى يرونه عياناً ، كما كانوا عرفوه في الدُّنيا استدلالاً ، فرؤيته بعد أن لم يكونوا رأوه بمنزلة إتيان الآتي ، ولم يكن شوهد من قبل ، وأمَّا الصُّورة فتتأوَّل على وجهين :

أحدهما : أنَّها بمعنى الصِّفة ، يقال : صورة الأمر كذا .

والثَّاني : أنَّ المذكورات من المعبودات في أوَّل الحديث صور يخرج الكلام على نوعين من المطابقة ، وقوله : في غير الصُّورة التي رأوه فيها ، دليل على أنَّ المراد بالصُّورة الصِّفة ، لأنَّهم ما رأوه قبلها ، فعلم أنَّ المراد الصِّفة التي عرفوه فيها .

وقال غيره من العلماء : يأتيهم بأهوال القيامة وصور الملائكة ممَّا لم يعهدوا مثله في الدُّنيا ، فيستعيذون من تلك الحال ، ويقولون : إذا جاء ربُّنا عرفناه ، أي : أتى بما يعرفونه من لطفه ، وهي الصُّورة التي يعرفون فيكشف عن ساق ، أي : عن شدَّة ، كأنَّه يرفع تلك الشَّدائد المهولة ، فيسجدون شكراً ، وقال بعضهم : صورة يمتحن إيمانهم بها كما يبعث الدَّجَّال ، فيقولون : نعوذ بالله منك .

وفي حديث أبي موسى عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : أنَّ النَّاس يقولون : إنَّ لنا ربًّا كنَّا نعبده في الدُّنيا ، فيقال: أوَتعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون : نعم ، فيقال: كيف تعرفونه ولم تروه ؟ فيقولون : إنَّه لا شبيه له ، فيكشف الحجاب ، فينظرون إلى الله عزَّ وجلَّ ، فيخرُّون سجَّداً .

قال ابن عقيل : الصُّورة على الحقيقة تقع على الأشكال والتَّخاطيط ، وذلك من صفات الأجسام ، والذي صرفنا عن كونه جسماً الأدلَّة القطعيَّة كقوله : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء**﴾﴿الشورى ١١ ﴾ .

ومن الأدلَّة العقليَّة : أنَّه لو كان جسماً لكان صورة وعَرَضاً ، ولو كان حاملاً الأعراض جاز عليه ما يجوز على الأجسام وافتقر إلى صانع ، ولو كان جسماً مع قِدَمه جاز قِدَم أحدنا ، فأحوجتنا الأدلَّة إلى تأويل صورة تليق أضافتها إليه ، وما ذاك إلَّا الحال الذي يوقع عليه أهل اللغة اسم صورة ، فيقولون : كيف صورتك مع فلان ؟ وفلان على صورة من الفقر !! والحال التي أنكروها الغضب والتي يعرفونها اللطف ، فيكشف عن الشدَّة ، والتَّغيرات أليق بفعله ، فأمَّا ذاته فتعالى عن التَّغيُّر ، نعوذ بالله أن يُحمل الحديث على ما قالته المجسِّمة : إنَّ الصُّورة ترجع إلى ذاته ، فإنَّ في ذلك تجويز التَّغيُّر على صفاته ، فخرجوه في صورة إن كانت حقيقيَّة فذلك استحالة ، وإن كانت تخيُّلاً فليس ذلك هو إنَّما يريهم غيره".

وقال ابن الجوزي في"كشف المشكل من حديث الصَّحيحين"(٣/٤٩٨) :"أما قَوْله: (خلق الله آدم على صورته) فللنَّاس فِيهِ ثَلَاثَة مَذَاهِب:

أَحَدُهَا: مَذْهَب جُمْهُور السّلف وَهُوَ السُّكُوت عَن تَفْسِير هَذَا وَأَمْثَاله.

وَالثَّانِي: أَن الْهَاء رَاجِعَة إِلَى آدم، فَيكون الْمَعْنى: أَنه خلقه على تِلْكَ الْحَال وَلم يَنْقُلهُ من نُطْفَة إِلَى علقَة، وَهَذَا مَذْهَب أبي سُلَيْمَان الْخطابِيّ.

وَالثَّالِث: أَنَّهَا ترجع إِلَى الله سُبْحَانَهُ، فَهِيَ مُضَافَة إِضَافَة ملك لَا إِضَافَة ذَات، كَمَا أَضَاف الرُّوح الَّتِي نفخت فِي آدم إِلَيْهِ ، فَقَالَ: **﴿ونفخت فِيهِ من روحي﴾**﴿ص: ٧٢﴾ ، وَهَذَا مَذْهَب ابْن عقيل. قَالَ: وإِنَّمَا خص آدم بِإِضَافَة الصُّورَة إِلَيْهِ لخصيصة فِيهِ، وَهِي السَّلطنة الَّتِي تشاكل الإلهيَّة استعباداً وسجوداً واستخداماً وأمراً نَافِذاً وسياسات يعمر بهَا الْبِلَاد وَيصْلح بهَا من أَمر الْعباد، وَلَيْسَ فِي الْجِنّ وَالْمَلَائِكَة من يجْتَمع على طَاعَته نَوعه وقبيله سوى الْآدَمِيّ، وَهَذِه الصُّورَة هِيَ حَال، والصُّورة قد تقع على الْحَال، فَهَذَا مَوضِع حمل الصُّورة على الصُّورَة، وَهِي حمل حَال الْخلَافَة والمملكة والسَّلطنة على حَال الإلهيَّة".

وقال الرَّازي في"مفاتيح الغيب"(١/١١٨) :"فَقَوْلُهُ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ» ، أَيْ: خَلَقَهُ عَلَى صِفَتِهِ فِي كَوْنِهِ خَلِيفَةً لَهُ فِي أَرْضِهِ مُتَصَرِّفًا فِي جَمِيعِ الْأَجْسَامِ الْأَرْضِيَّةِ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى نَافِذُ الْقُدْرَةِ فِي جميع العالم" .

وفي كلامه عن تنزيه الله تعالى عن الصُّورة قال الرَّازي في"أساس التَّقديس"(ص١٦٣ فما بعدها) :"اعلم أنَّ هذه اللفظة ما وردت في القرآن ، لكنَّها واردة في الأخبار :

الخَبَرُ الأَوَّلُ : ما روي عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه قال : أنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته" ، وروى ابن خزيمة عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه قال ، لا يقولنَّ أحدكما لعبده : قبَّح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإنَّ الله خلق آدم على صورته".

والجواب : اعلم : أنَّ الهاء في قوله :"على صورته" يحتمل أن يكون عائداً إلى شيء غير صورة آدم عليه السَّلام ، وغير الله تعالى ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى آدم ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى الله تعالى ، فهذه طرق ثلاث :

الطَّريق الأوَّل : أن يكون هذا الضَّمير عائداً إلى غير آدم ، وإلى غير الله تعالى ، وعلى هذا التَّقدير ففي تأويل الخبر وجهان :

الأَوَّلُ : هو أنَّ من قال لإنسان : قبَّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فهذا يكون شتماً لآدم عليه السَّلام ، فإنَّه لَمَّا كانت صورة هذا الإنسان مشابهة لصورة آدم كان قوله : قبَّح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك : شتماً لآدم عليه السَّلام ، ولجميع الأنبياء عليهم السَّلام ، وذلك غير جائز ، فلا جرم نهى النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عن ذلك ، وإنَّما خصَّ آدم بالذِّكر ، لأنَّه عليه السَّلام هو الذي ابتدئت خلقة وجهه على هذه الصُّورة .

الثَّانِي : أنَّ المراد منه : إبطال قول من يقول : أنَّ آدم كان على صورة أخرى ، مثل ما يقال أنَّه كان عظيم الجثَّة ، طويل القامة ، بحيث يكون رأسه قريباً من السَّماء ، فالنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أشار إلى إنسان معيَّن ، وقال :"إنَّ الله خلق آدم على صورته" ، أي : كان شكل آدم ، مثل شكل هذا الإنسان ، من غير تفاوت البتَّة ، فأبطل هذا البيانُ : وَهْمَ من توهَّم أنَّ آدم عليه السَّلام كان على صورة أخرى غير هذه الصُّورة .

الطَّرِيْقُ الثَّانِي : أن يكون الضَّمير عائداً إلى آدم عليه السَّلام ، وهذا أولى الوجوه الثَّلاثة ، لأنَّ عود الضَّمير إلى أقرب المذكورات واجب ، وفي هذا الحديث : أقرب الأشياء المذكورة هو آدم عليه السَّلام ، فكان عود الضَّمير إليه أولى ، ثمَّ على هذا الطَّريق ففي تأويل الخبر وجوه :

الأَوَّلُ : أنَّه تعالى لما عظَّم أمر آدم ، بجعله مسجود الملائكة ، ثمَّ إنَّه أتى بتلك الزلَّة ، فالله تعالى لم يعاقبه بمثل ما عاقب به غيره ... بل تركه على الخِلقة الأولى إكراماً له وصوناً له على عذاب المسخ ، فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :"إنَّ الله تعالى على صورته"، معناه : خلق آدم على (هذه الصُّورة) التي هي الآن باقية من غير وقوع التَّبديل فيها ، والفرق بين هذا الجواب ، والذي قبله : أنَّ المقصود

من هذا : بيان أنَّه عليه السَّلام كان مصوناً عن المسخ ، والجواب الأوَّل : ليس فيه إلَّا بياناً أن هذه الصُّورة الموجودة ، ليست إلَّا هي التي كانت موجودة من قبل ، من غير تعرُّض لبيان أنَّه جعل مصوناً عن المسخ ، بسبب زلَّته مع أنَّ غيره صار ممسوخاً .

الثَّاني : المراد منه : إبطال قول الدَّهريَّة ، الذين يقولون : أنَّ الأنسان لا يتولَّد إلا بواسطة النُّطفة ، ودم الطَّمث ، فقال عليه السَّلام : إنَّ الله خلق آدم على صورته ابتداء من غير تقدّم نطفة وعلقة ومضغة .

الثَّالِثُ : إنَّ الإنسان لا يتكوَّن إلَّا في مدَّة طويلة وزمان مديد ، بواسطة الأفلاك والعناصر ، فقال عليه السَّلام :"إنَّ الله خلق آدم على صورته" ، أي : من غير هذه الوسائط ، والمقصود منه : الرَّد على الفلاسفة .

الرَّابِعُ : المقصود منه بيان أنَّ هذه الصُّورة الإنسانيَّة إنَّما حصلت لتخليق الله تعالى وإيجاده ، لا بتأثير القوَّة المصوّرة والمولودة ، على ما تذكره الأطبَّاء والفلاسفة ، ولهذا قال الله تعالى : **﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾**﴿الحشر:٢٤﴾، فهو الخالق ، أي : فهو العالم بأحوال الممكنات والمحدثات ، و"البارئ" ، أي : هو المحدث للأجسام والذَّوات بعد عدمها ، و"المصوِّر" ، أي : هو الذي يركِّب تلك الذَّوات على صورها المخصوصة وتركيباتها المخصوصة .

الخَامِسُ : قد تذكر الصُّورة ويُراد بها الصِّفة ، يقال بها : شرحتُ له صورةَ هذه الواقعة ، وذكرت له صورة هذه المسألة ، والمراد من الصُّورة في كلِّ هذه المواضع : الصِّفة ، فقوله عليه السَّلام :"إنَّ الله خلق آدم على صورته"، أي : على جملة صفاته ، وأحواله ، وذلك لأنَّ الإنسان حين يحدث ، يكون في غاية الجهل والعجز ، ثمَّ لا يزال يزداد علمه وقدرته ، إلى أن يصل إلى حدِّ الكمال ، فبيَّن النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّ آدم خلق من أوَّل الأمر كاملاً تماماً في علمه وقدرته ، وقوله :"خلق آدم على صورته" ، معناه : أنَّه خلقه في أوَّل الأمر على صفته التي كانت حاصلة له في آخر الأمر .

وأيضاً : لا يبعد أن يدخل في لفظة الصُّورة كونه سعيداً أو شقيَّاً ، كما قال عليه السَّلام :"السَّعيد من سعد في بطن أمِّه ، والشَّقيُّ من شقى في بطن أمِّه"، فقوله عليه السَّلام :"إنَّ الله خلق آدم على صورته"، أي : على جميع صفاته من كونه سعيداً أو عارفاً أو تائباً أو مقبولاً من عند الله تعالى.

الطَّريق الثَّالث : أن يكون ذلك الضَّمير عائداً إلى الله تعالى ، وفيه وجوه :

الأَوَّلُ : المراد من الصُّورة : الصِّفة – كما بينَّاه – فيكون المعنى : أنَّ آدم امتاز على سائر الأشخاص والأجسام بكونه عالماً بالمعقولات ، قادراً على استنباط الحرف والصِّناعات ، وهذه صفات شريفة مناسبة لصفات الله تعالى من بعض الوجوه ، فصحَّ قوله عليه السَّلام :"أنَّ الله خلق آدم على صورته" ، بناء على هذا التَّأويل ، فإن قيل : المشاركة في صفات الكمال تقتضى المشاركة في الإلهيَّة ، قلنا : المشاركة في بعض اللوازم البعيدة مع حصول المخالفة في الأمور الكثيرة ، لا تقتضى المساواة في الإلهيَّة ، ولهذا المعنى ، قال تعالى : ﴿**وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى**﴾«الروم:٢٧» ، وقال عليه السَّلام :"**تخلَّقوا بأخلاق الله**" . لم أجده في أيٍّ من دواوين السُّنَّة ، ووجدت الغزالي يقول في "إحياء علوم الدين" (٦/ ٣٥٤) : " حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التى هى من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى" .

الثَّانِي : أنَّه كان يصحُّ إضافة الصِّفة إلى الموصوف ، فقد يصحُّ إضافتها إلى الخالق والموجد ، فيكون الغرض من هذه الإضافة : الدّلالة على أنَّ هذه الصُّورة ممتازة عن سائر الصُّور بمزيد الكرامة والجلالة .

الثَّالِثُ : قال الشَّيخ الغزالي رحمه الله : ليس الإنسان عبارة عن هذه البنية ، بل هو موجود ، ليس في جسم ولا بجسماني ، ولا تعلُّق له بهذا البدن ، إلَّا على سبيل التَّدبير أو التَّصرُّف فقوله عليه السَّلام :"أنَّ الله خلق آدم على صورته" ، أي : أنَّ نسبة ذات آدم عليه السَّلام إلى هذا البدن كنسبة البارئ تعالى إلى العالم ، من حيث أنَّ كلَّ واحد منهما غير حالٍّ في هذا الجسم ، وإن كان مؤثِّراً فيه بالتَّصرُّف والتَّدبير ، والله أعلم .

الخَبَرُ الثَّاني : ما رواه بن خزيمة في كتابه الذي سمَّاه بـ"التَّوحيد" بإسناده عن بن عمر ـ رضى الله عنه ـ عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :"لا تقبِّحوا الوجه ، فإنَّ الله خلق آدم على صورة الرَّحْمَن" .

وعلم : أنَّ ابن خزيمة ضعَّف هذه الرِّواية ، ويقول : إن صحَّت هذه الرِّواية فلها تأويلان :

الأَوَّلُ : أن يكون المراد من الصُّورة : الصِّفة على ما بيَّنَّاه .

الثَّانِي : أن يكون المراد من هذه الإضافة : بيان شرف هذه الصُّورة كما في قوله : بيت الله ، و﴿**نَاقَةُ الله**﴾ .

الخَبَرُ الثَّالِثُ : ما روى صاحب شرح السُّنَّة رحمه الله في كتابه ، في باب آخر من يخرج من النَّار عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل ، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، أنَّه قال : فيأتيهم الله في غير الصُّورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربّكم ، فيقولون : نعوذ بالله هذا مكاننا ، حتَّى يأتينا ربّنا ، فإنَّ بيننا وبينه علامة ، فإذا أتانا ربّنا عرفناه ، فيأتيهم الله في الصُّورة التي يعرفون ، فيقولون أنت ربّنا ، فيتبعونه .

واعلم : أنَّ الكلام على هذا الحديث من وجهين :

الأَوَّلُ : أن تكون في بمعنى الباء ، والتَّقدير فيأتيهم الله بصورة غير الصُّورة التي عرفوه بها في الدُّنيا وذلك بأن يريهم مَلَكَاً من الملائكة ، ونظيره : قول بن عبَّاس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ**﴾﴿البقرة:٢١٠﴾ ، أي : بظلل من الغمام ، ثمَّ أنَّ تلك الصُّورة تقول أنا ربُّكم ، وكأنَّ ذلك آخر محنة تقع للمكلَّفين في دار الآخرة وتكون الفائدة فيه تثبيت المؤمنين على القول الصَّالح ، وإنَّما يقال : الدُّنيا دار محنة ، والآخرة دار الجزاء : على الأعم والأغلب ، وإن كان يقع في كلِّ واحدة منهما ما يقع في الأخرى نادراً .

أمَّا قوله عليه السَّلام :"أنَّهم يقولون : إذا جاء ربُّنا عرفناه" ، فيحمل على أن يكون المراد : فإذا جاء إحسان ربّنا عرفناه، وقوله : فيأتيهم الله في الصُّورة التي يعرفونها ، فمعناه : يأتيهم بالصُّورة التي يعرفون أنَّها من إمارات الإحسان .

وأمَّا قوله عليه السَّلام :"فيقولون : بيننا وبينه علامة"، فيحتمل أن تكون تلك العلامة : كونه تعالى في حقيقته مخالفاً للجواهر والأعراض ، فإذا رأوا تلك الحقيقة عرفوا أنَّه هو الله .

التَّأويل الثَّاني : أن يكون المراد من الصُّورة : الصِّفة ، والمعنى : أن يظهر لهم من بطش الله وشدَّة بأسه ، ما لم يلقوه ولم يعتادوه من معامله الله تعالى معهم ، ثمَّ تأتيهم بعد ذلك أنواع الرَّحمة والكرامة ، على الوجه الذي اعتادوه وألفوه .

الخَبَرُ الرَّابعُ : ما روي عنه عليه السَّلام أنَّه قال :"رأيت ربِّي في أحسن صوة". واعلم : أنَّ قوله عليه السَّلام في أحسن صورة يحتمل أن يكون من صفة الرَّائي ، كما يقال : دخلت على الأمير على أحسن هيئة ، أي : وأنا كنت على أحسن هيئة ، ويحتمل أن يكون ذلك من صفات المرئي .

فإن كان ذلك من صفات الرَّائي ، كان قوله :"على أحسن صوة" عائداً إلى الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وفيه وجهان :

الأَوَّلُ : أن يكون المراد من الصُّورة : نفس الصُّورة ، فيكون المعنى : أنَّ الله تعالى زيَّن خلقه وجمَّل صورته عندما رأى ربَّه ، وذلك يكون سبباً لمزيد الإكرام في حقِّ الرَّسول عليه السَّلام .

الثَّانِي : أن يكون المراد من الصُّورة : الصِّفة ، ويكون المعنى : الأخبار عن حسن حاله عند الله ، وأنَّه أنعم عليه بوجوه عظيمة من الأنعام كما كان ، وذلك لأنَّ الرَّائي قد يكون بحيث يتلقَّاه المرئي بالإكرام والتَّعظيم ، وقد يكون بخلافه : فعرَّفنا الرَّسول عليه السَّلام أنَّ حالته كانت من القسم الأول .

وأمَّا إن كان عائداً إلى المرئي ففيه وجوه :

الأَوَّلُ : أن يكون عليه السَّلام رأى ربَّه في المنام ، في صورة مخصوصة وذلك جائز ، لأنَّ الرُّؤيا من تصرُّفات الخيال ، ولا ينفكَّ ذلك عن صورة متخيَّلة .

الثَّانِي : أن يكون المراد من الصُّورة : الصِّفة ، وذلك لأنَّه تعالى لَمَّا خصَّه بمزيد الإكرام والإنعام في الوقت الذي رآه ، صحَّ أن يقال في العرف المعتاد : إنِّي رأيته على أحسن صورة وأجمل هيئة .

الثَّالِثُ : لعلَّه عليه السَّلام لَّما رآه اطلع على نوع من صفات الجلال والعزَّة والعظمة ، ما كان مطلعاً عليه قبل ذلك .

الخَبَرُ الخَامِسُ : ما روي عن ابن عبَّاس رضي الله عنه عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّه قال : رأيت ربِّي في أحسن صورة ، قال : فوضع يده بين كتفي ، فوجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما بين السَّماء والأرض ، ثمَّ قال : يا محمَّد ، قلت : لبَّيك وسعديك ، قال : فيما يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : يا ربّ لا أدري ، فقال : في أداء الكفَّارات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء فِي الْمُكْرُوهَاتِ ، وانتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة .

واعلم : أنَّ قوله :"رأيت ربِّي في أحسن صورة"، قد تقدم تأويله .

وأمَّا قوله :"وضع يده بين كتفي"، ففيه وجهين :

الأَوَّلُ : المراد منه : المبالغة في الاهتمام بحالة ، والاعتناء بشأنه ، يقال : لفلان يد في هذه الصَّنعة ، أي هو كامل فيها .

الثَّانِي : أن يكون المراد من اليد : النِّعمة : يقال ، لفلان يد بيضاء ، ويقال : إنَّ أيادي فلان كثيرة ، وأمَّا قوله :"بين كتفي"، فإن صحَّ ، فالمراد منه أنَّه أوصل إلى قلبه من أنواع اللطف والرَّحمة ، وقد روي"بين كنفي" ، والمراد منه : مثل ما يقال : أنا في كنف فلان ، وفي ظلِّ انعامه .

وأمَّا قوله :"فوجدت بردها" ، فيحتمل أنَّ المعنى : برد النعمة وروحها وراحتها ، من قولهم : عيش بارد ، إذا كان رغداً ، ويحتمل كمال المعارف ، والذي يدلُّ على أنَّ المراد منه : كمال المعارف : قوله عليه السَّلام في آخر الحديث :"فعلمت ما بين المشرق والمغرب"، وما ذلك إلَّا لأنَّ الله تعالى أنار قلبه وشرح صدره بالمعارف ، وفي بعض الرِّوايات :"فوجدت بَرْد أنامله"، وسيأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى".

وقال شمس الدِّين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله المعروف بـ «سبط ابن الجوزي»(٦٥٤هـ) في"مرآة الزمان في تواريخ الأعيان"(١/٢٤٣) :"وقد تكلَّموا على قوله:"خلق آدم

على صورته"، قال قوم: الهاء عائدة إلى آدم، ومعناه: على صورته التي خلقه عليها، ومنهم من حمل الصُّورة على الصِّفة، وصفات الله ثابتة من السَّمع والبصر ونحوه.

فإن قيل: فقد ورد في حديث"على صورة الرَّحْمَن"، فالجواب: أنَّه لا تصحُّ هذه الرِّواية" .

وقال أبو العبَّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي(٦٥٦ هـ) في"المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"(٧/ ١٨٣-١٨٤) :"و(قوله: خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُوْرَتِه) هذا الضَّمير عائد على أقرب مذكور، وهو آدم، وهو أعمّ، وهذا الأصل في عود الضَّمائر، ومعنى ذلك: أنَّ الله تعالى أوجده على الهيئة التي خلقه عليها لم ينتقل في النشأة أحوالاً، ولا تردَّد في الأرحام أطواراً؛ إذ لم يخلقه صغيراً فكبر، ولا ضعيفاً فقوي، بل خلقه رجلاً كاملاً سويَّاً قويَّاً، بخلاف سُنَّة الله في ولده، ويصحُّ أن يكون معناه للإخبار عن أنَّ الله تعالى خلقه يوم خلقه على الصُّورة التي كان عليها بالأرض، وأنَّه لم يكن في الجنَّة على صورة أخرى، ولا اختلفت صفاته، ولا صورته، كما تختلف صور الملائكة والجنّ، والله تعالى أعلم.

ولو سلَّمنا أنَّ الضَّمير عائد على الله تعالى لصحَّ أن يقال هنا: إنَّ الصُّورة بمعنى الصِّفة، وقد بينَّاه فيما تقدَّم. وقد ذكرنا في قوله:"أوَّل زمرة يدخلون الجنَّة على صورة القمر"، فإنَّ معناه على صفته من الإضاءة، لا على صورته من الاستدارة" .

وقال فضل الله بن حسن بن حسين بن يوسف أبو عبد الله، شهاب الدِّين التُّورِبِشْتِي(٦٦١هـ) في"الميسَّر في شرح مصابيح السُّنَّة"(٣/ ٨٢٤) :"ذهب بعض أهل العلم في تأويل"خلق آدم على صورته" إلى أن الضَّمير راجع إلى آدم وفائدته: أنَّ أحدًا من خلق الله لم يخلق على ما هو عليه من تمام الصُّورة غير آدم، فأمَّا غيره فإنَّه منقلب في أطوار الخِلقة من نطفة إلى علقة إلى مضغة، ثمَّ إلى غير ذلك من تارات الحالات يصير من صغر إلى كبر، حتَّى يبلغ أشدَّه.

وهذا الكلام وإن كان صحيحًا، فإنَّ التَّأويل عليه فاسد لوجهين :

أَحَدُهُمَا: لما صحَّ من طرق هذا الحديث"فإنَّ الله خلق آدم على صورة الرَّحْمَن" .

وَالثَّانِي: أنَّ الكلام يبقى خالياً عن الفائدة؛ لأنَّ كون آدم مخلوقاً على صورته التي كان عليها لا يقتضي الاجتناب عن الوجه في المقابلة مع الاشتراك الذي كان بين آدم وحواء في تلك الصِّفة، وإنَّما الوجه فيه: أن يكون الضَّمير راجعًا إلى الله سبحانه رجوعاً إليه في : بيت الله، و**﴿نَاقَةُ اللهِ﴾** ، وما يشبه ذلك من إضافة التَّكريم. والمعنى: أنَّ الله تعالى أكرم هذه الصُّورة بإضافتها إليه؛ لأنَّه أبدعها إبداعًا عجيبًا لم يشارك الإنسان فيها أحد، فهي أحسن الصُّورة، كما قال سبحانه: **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** ثمَّ أكرمها بسجود ملائكته، فمن حقّ هذه الصُّورة أن تكرَّم فلا يستهان بها، فإنَّ الله أكرمها وليس لأحد أن يستخفَّ بما أله الله لباس الكرامة، فيكره أن يقصد الوجه بالضَّرب؛ لأنَّ الله خلق آدم على صورته التي أكرمها بالإضافة إلى نفسه للمعاني التي ذكرناها" .

وقال التُّورِبِشْتِي في"الميسَّر في شرح مصابيح السُّنَّة"(٣/١٠٢٢) :"(خلق الله آدم على صورته) ذهب بعض أهل العلم أنَّ الضَّمير من الصُّورة راجع إلي آدم لمعنى خصّ به، وذلك أنَّ النَّاس كلّهم خلقوا على أطوار سبعة: نطفة ثمَّ علقة إلى تمام ما فصَّله نصُّ الكتاب، ثمَّ إنَّهم كانوا يتدرَّجون من صغر إلى كبر حتَّى تسمو سنّ النَّماء ويبلغوا سنَّ النُّشوء سوى آدم، فإنَّه خُلق أوَّلاً على ما كان عليه آخراً، فهذا وجه التَّخصيص، وهذا كلام صحيح في موضعه، وأمَّا في تأويل هذا الحديث فإنَّه غير سديد؛ لما في حديث آخر (خلق آدم على صوره الرَّحْمَن) لما في غير هذه الرِّواية أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رأى رجلاً يضرب وجه غلامه فقال :(لا تضرب الوجه، فإنَّ الله خلق آدم على صورته) ، والمعنى الذي ذهب إليه هذا الموؤل لا يلائم هذا القول، وأهل الحقّ في تأويل ذلك على طبقتين:

أَحَدُهُمَا : المتنزِّهون عن التَّأويل، مع نفي التَّشبيه، وعدم الرُّكون إلى مسمَّيات الجنس، وإحالة المعنى فيه إلى علم الله الذي أحاط بكلِّ شيء علماً، علي ما ذكرنا في غير موضع، وهذا أسلم الطَّريقين .

وَالطَّبَقَةُ الأُخْرَى: يرون الإضافة فيها إضافة تكريم وتشريف، وذلك أنَّ الله تعالى خلق آدم أوَّل البشر على صورة لم يشاكلها شرف الصُّور، في الجمال والكمال، وكثرة ما احتوت عليه من الفوائد الجليلة، فاستحقَّت الصُّورة البشريَّة أن تكرَّم ولا تهان ، إتِّباعاً لسنَّة الله فيها تكريماً لما كرَّمه" .

وقال القرطبي (٦٧١هـ) في "الجامع لأحكام القرآن" (٥/ ٣٩٢) :" وَقَدْ مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِرَجُلٍ يَضْرِبُ عَبْدَهُ فَقَالَ: (اتَّقِ الْوَجْهَ ، فَإِنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ). أَيْ عَلَى صُورَةِ الْمَضْرُوبِ، أَيْ وَجْهِ هَذَا الْمَضْرُوبِ يُشْبِهُ وَجْهَ آدَمَ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْتَرَمَ لِشَبَهِهِ . وَهَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَأْوِيلِهِ وَاللهُّ أَعْلَمُ".

وقال النَّووي (٦٧٦هـ) في "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج" (٣/ ١٩-٢٠) :"اعْلَمْ أَنَّ لِأَهْلِ الْعِلْمِ فِي أَحَادِيثِ الصِّفات وَآيَاتِ الصِّفات قَوْلَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : وَهُوَ مَذْهَبُ مُعْظَمِ السَّلَفِ أَوْ كُلِّهِمْ أَنَّهُ لَا يُتَكَلَّمُ فِي مَعْنَاهَا ، بَلْ يَقُولُونَ : يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا وَنَعْتَقِدَ لَهَا مَعْنًى يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهَّ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ ، مَعَ اعْتِقَادِنَا الْجَازِمِ أَنَّ اللهَّ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ التَّجَسُّمِ وَالِانْتِقَالِ وَالتَّحَيُّزِ فِي جِهَةٍ وَعَنْ سَائِرِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ مَذْهَبُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَاخْتَارَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ مُحَقِّقِيهِمْ ، وَهُوَ أَسْلَمُ .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : وَهُوَ مَذْهَبُ مُعْظَمِ الْمُتَكَلِّمِينَ : أَنَّها تتأوَّل على مايليق بِهَا عَلَى حَسَبِ مَوَاقِعِهَا وإنَّما يَسُوغُ تَأْوِيلُهَا لِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ بِأَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَقَوَاعِدِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ ، ذَا رِيَاضَةٍ فِي الْعِلْمِ ، فَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ يُقَالُ فِي قوله صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم : فيأتيهم الله : أَنَّ الْإِتْيَانَ عِبَارَةٌ عَنْ رُؤْيَتِهِمْ إِيَّاهُ ، لِأَنَّ الْعَادَةَ أَنَّ مَنْ غَابَ عَنْ غَيْرِهِ لَا يمكنه رؤيته إلَّا بالاتيان ، فعبَّر بالإتيان والمجئ هُنَا عَنِ الرُّؤْيَةِ مَجَازًا .

وَقِيلَ : الْإِتْيَانُ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ اللهَّ تَعَالَى ، سَمَّاهُ إِتْيَانًا . وَقِيلَ : المراد بـ يأتيهم اللهُّ ، أَيْ : يَأْتِيهِمْ بَعْضُ مَلَائِكَةِ اللهَّ .

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللهُّ : هَذَا الْوَجْهُ أَشْبَهُ عِنْدِي بِالْحَدِيثِ ، قَالَ : وَيَكُونُ هَذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَهُمْ فِي الصُّورة الَّتِي أَنْكَرُوهَا مِنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الْمَلَكِ وَالْمَخْلُوقِ ، قَالَ : أَوْ يَكُونُ

مَعْنَاهُ : يَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَةٍ ، أَيْ : يَأْتِيهِم بِصُورَةٍ وَيُظْهِرُ لَهُمْ مِنْ صُوَرِ مَلَائِكَتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ الَّتِي لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ الْإِلَهِ لِيَخْتَبِرَهُمْ ، وَهَذَا آخِرُ امْتِحَانِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِذَا قَالَ لَهُمْ هَذَا الْمَلَكُ أَوْ هَذِهِ الصُّورة : أَنَا ربُّكم ، رَأَوْا عَلَيْهِ مِنْ عَلَامَاتِ الْمَخْلُوقِ مَا يُنْكِرُونَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ ربّهم ، وَيَسْتَعِيذُونَ بِاللهِ مِنْهُ .

وأمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: (فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ) ، فَالْمُرَادُ بالصُّورة هُنَا الصِّفة ، وَمَعْنَاهُ : فَيَتَجَلَّى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُمْ عَلَى الصِّفة الَّتِي يَعْلَمُونَهَا وَيَعْرِفُونَهُ بِهَا ، وإنَّما عَرَفُوهُ بِصِفَتِهِ وَإِنْ لَمْ تكُنْ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ رُؤْيَةٌ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ربّهم ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ ربُّنا ، وإنَّما عَبَّرَ بالصُّورة عَنِ الصِّفة لِمُشَابَهَتِهَا إِيَّاهَا وَلِمُجَانَسَةِ الْكَلَامِ ، فَإِنَّهُ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الصُّورَةِ" .

وقال النَّووي في"المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج"(١٧/١٧٨) :" قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :(خَلَقَ اللهُ آدمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا) هَذَا الْحَدِيثُ سَبَقَ شَرْحُهُ وَبَيَانُ تَأْوِيلِهِ ، وَهَذِهِ الرِّواية ظَاهِرَةٌ فِي أَنَّ الضَّمير فِي صورته عائد إلى آدم ، وأنَّ المراد : أنَّه خُلِقَ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي الْأَرْضِ ، وَتُوُفِّيَ عَلَيْهَا ، وَهِيَ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ، وَلَمْ يَنْتَقِلْ أَطْوَارًا كَذُرِّيَّتِهِ ، وَكَانَتْ صُورَتُهُ فِي الجنَّة هِيَ صُورَتُهُ فِي الْأَرْضِ ، لَمْ تَتَغَيَّرْ .

قَوْلُهُ :(قَالَ اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ ، فَذَهَبَ فَقَالَ : السَّلام عَلَيْكُمْ ، فَقَالُوا : السَّلام عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ) فِيهِ أَنَّ الْوَارِدَ عَلَى جُلُوسٍ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّ الْأَفْضَلَ أَنْ يَقُولَ : السَّلام عَلَيْكُمْ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ ، وَلَوْ قَالَ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَفَاهُ ، وَأَنَّ رَدَّ السَّلام يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ زِيَادَةً عَلَى الِابْتِدَاءِ ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ فِي الرَّدِّ أَنْ يَقُولَ : السَّلام عَلَيْكُمْ ، وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَقُولَ : وَعَلَيْكُمُ السَّلام ، وَاللهُ أَعْلَمُ".

وقال النَّووي في"المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج"(١٦/١٦٦) :"قَالَ الْمَازِرِيُّ : هَذَا الْحَدِيثُ بِهَذَا اللَّفْظِ ثَابِتٌ ، وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ :"إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ" ، وَلَيْسَ بِثَابِتٍ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ ، وَكَأَنَّ مَنْ نَقَلَهُ رَوَاهُ بِالْمَعْنَى الَّذِي وَقَعَ لَهُ ، وَغَلِطَ فِي ذَلِكَ .

قَالَ الْمَازِرِيُّ : وَقَدْ غلط بن قُتَيْبَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَأَجْرَاهُ عَلَى ظَاهِرِهِ ، وقال : للهِ تَعَالَى صُورَةٌ لَا كَالصُّوَرِ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ظَاهِرُ الْفَسَادِ ، لِأَنَّ الصُّورة تُفِيدُ التَّرْكِيبَ ، وكلُّ مركَّب محدَث ، والله تعالى ليس بمحدَث ، فليس هُوَ مُرَكَّبًا ، فَلَيْسَ مُصَوَّرًا ، قَالَ : وَهَذَا كَقَوْلِ الْمُجَسِّمَةِ : جِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ ، لَمَّا رَأَوْا أَهْلَ السُّنَّة يقولون : الباري سبحانه وتعالى شيء لَا كَالْأَشْيَاءِ ، طَرَدُوا الِاسْتِعْمَالَ فَقَالُوا : جِسْمٌ لَا كالأجسام ، والفرق أنَّ لفظ شيء لَا يُفِيدُ الْحُدُوثَ ، وَلَا يَتَضَمَّنُ مَا يَقْتَضِيهِ ، وأمَّا جِسْمٌ وَصُورَةٌ فَيَتَضَمَّنَانِ التَّأْلِيفَ وَالتَّرْكِيبَ ، وَذَلِكَ دليل الحدوث .

قال : العجب من بن قُتَيْبَةَ فِي قَوْلِهِ : صُورَةٌ لَا كَالصُّوَرِ ، مَعَ أَنَّ ظَاهِرَ الْحَدِيثِ عَلَى رَأْيِهِ يَقْتَضِي خَلْقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ ، فَالصُّورَتَانِ عَلَى رَأْيِهِ سَوَاءٌ ، فَإِذَا قَالَ : لَا كَالصُّوَرِ تَنَاقَضَ قَوْلُهُ ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا : إِنْ أَرَدْتَ بِقَوْلِكَ : صُورَةٌ لَا كَالصُّوَرِ : أَنَّهُ لَيْسَ بِمُؤَلَّفٍ وَلَا مُرَكَّبٍ فَلَيْسَ بصورة حقيقة ، وَلَيْسَتِ اللَّفْظَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ مُوَافِقًا عَلَى افْتِقَارِهِ إِلَى التَّأْوِيلِ .

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهِ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : الضَّمِيرُ فِي صُورَتِهِ عَائِدٌ عَلَى الْأَخِ الْمَضْرُوبِ ، وَهَذَا ظَاهِرُ رِوَايَةِ مُسْلِمٍ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَعُودُ إِلَى آدَمَ ، وَفِيهِ ضَعْفٌ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَعُودُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَيَكُونُ الْمُرَادُ إِضَافَةَ تَشْرِيفٍ وَاخْتِصَاصٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿**نَاقَةُ اللهِ**﴾ ، وَكَمَا يُقَالُ فِي الْكَعْبَةِ بَيْتُ اللهِ وَنَظَائِرُهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ" .

وقال القاضي ناصر الدِّين عبد الله بن عمر البيضاوي(٦٨٥هـ) في"تحفة الأبرار شرح مصابيح السُّنَّة"(٢/٤٨٨-٤٩٠) :" قيل: الضَّمير لآدم، ومعناه على هذا أمران:

أَحَدُهُمَا: أنَّه خلق على صورته التي كان عليها من مبدأ فطرته إلى منقرض عمره لم تتفاوت قامته، ولم تتغيَّر هيئتة، بخلاف سائر النَّاس، فإنَّ كلّ واحد منهم يكون أوَّلاً نطفة، ثمَّ علقة، ثمَّ مضغة، ثمَّ عظاماً وأعصاباً عارية، ثمَّ عظاماً وأعصاباً مكسوَّة لحماً، ثمَّ حيواناً مجتنَّاً في الرَّحم، لا يأكل ولا يشرب، بل يتغذَّى من عرق كالنَّبات، ثمَّ يكون مولوداً رضيعاً، ثمَّ طفلاً مترعرعاً، ثمَّ مراهقاً، ثمَّ شابَّاً، ثمَّ كهلاً، ثمَّ شيخاً.

وَثَانِيْهِمَا: أنَّه خلق على صورة حال يختصّ به، لا يشاركه نوع آخر من المخلوقات، فإنَّه يوصف مرَّة بالعلم، وأخرى بالجهل، وتارة بالغواية والعصيان، وأخرى بالهداية والاستغفار، فلحظة يقرن بالشَّيطان في استحقاق اسم العصيان والإخراج من الجنان، ولحظة يتسم بسمة الاجتباء، ويتوَّج بتاج الخلافة والاصطفاء، وبرهة يستعمل بتدبير الأرضيين، وساعة يصعد بروحه إلى أعلى عليين، وطورا يشارك البهائم في مأكله ومشربه ومنكحه، وطورا يسابق الكروبيين في فكره وذكره وتسبيحه وتهليله.

وكلّ من المعنيين سديد مستقيم في تأويل ما روي عن هذا الرَّاوي: أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال:"خلق الله آدم على صورته طوله ستُّون ذراعاً"من غير هذه المقدِّمة، فأمَّا معها فلأنَّه ناسب، لأنَّ سياقها سياق التَّعليل للمنع عن ضرب الوجه ووجوب الاجتناب عنه.

بل إن صحَّت الرِّواية في هذا الحديث بأنَّه قال:"فإنَّ الله خلق آدم على صورة الرَّحْمَن"تعيَّن أن يكون الضَّمير لله، ويكون المعنى: خلق آدم على صورة اجتباها جعلها نسخة من جميع مخلوقاته، إذ ما من موجود إلَّا وله مثال في صورته، ولذلك قيل: الإنسان عالم صغير. ثمَّ إنَّ مجمع محاسنه ومظهر لطائف الصُّنع فيه هو الوجه، فبالحري أن يحافظ عليه، وتحرز عمَّا يشوشه، فلا يناسب أن يجرح ويفتح، وإن لم يصح احتمل ذلك، فاحتمل أن يكون الضَّمير للقرن الذي دلَّ عليه المقاتلة، أو الوجه، أي: فليجتنب الوجه، فإنَّه تعالى كرَّمه وشرفه بأحسن صورة، وخلق آدم عليه الصَّلاة والسَّلام على تلك الصُّورة، فلا يضربه تكرياً لصورة آدم عليه الصَّلاة والسَّلام".

وقال الحسين بن محمود بن الحسن، مظهر الدِّين الزَّيْدَانيُّ الكوفي الضَّريرُ الشِّيرازيُّ الحَنَفيُّ المشهورُ بالمُظْهِري(٧٢٧ هـ) : في"المفاتيح في شرح المصابيح"(٥/١١٩-١٢٠) :"خلقَ الله آدمَ على صورته"، قال الخطَّابي: الضَّمير يعود إلى آدم، يعني: ذُرِّيَّةُ آدمَ، نطفةٌ ثمَّ كان علقةً، وهكذا صارت حالًا بعد حالٍ إلى أن يكمل، ولم يكن خلقُ آدمَ كذلك، بل خُلِقَ أولَ ما خُلِقَ تامَّ الصُّورة طولُه ستُّون ذراعًا.

ويحتمل أن يكون المراد من هذا الكلام: أنَّ الله خلقَ آدمَ على صورةِ آدمَ؛ بحيث لا يشبه أحدًا؛ لأنَّه لم يكن في السَّماء والأرض في ذلك الوقت إلَّا الملائكةُ والجنُّ، ولم يشبه آدمُ واحدًا من هؤلاء" .

وقال محمَّد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشَّافعي، بدر الدِّين(٧٣٣هـ) في"إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التَّعطيل"(ص١٥٣-١٥٥) :"عَن أبي هُرَيْرَة رَضِي الله عَنهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : إِذا قَاتل أحدكُم أَخَاهُ فليجتنب الْوَجْه . رَوَاهُ البُخَارِيّ ، وَزَاد مُسلم : فَإِنَّ الله خلق آدم على صورته" .

وَفِي كتاب ابْن خُزَيْمَة : لَا يَقُولَن أحدكُم لعَبْدِهِ قبَّح الله وَجهك وَوجه من أشبهك ، فَإِنَّ الله خلق آدم على صورته ، وَاخْتلف الْعلمَاء فِيمَن يعود الضَّمِير فِي صورته إِلَيْهِ :

فَقيل : هُوَ عَائِد إِلَى الْمَضْرُوب أَو المشتوم ، وَهُوَ الْأَقْرَب ، وَأَصله أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مرَّ بِرَجُل يضْرب آخر على وَجهه ، فَقَالَ ذَلِك حثّاً على احترام الْوَجْه لما فِيهِ من الْمَنَافِع والحواس ، وَخَّص آدم عَلَيْهِ السَّلام بِالذِّكر لِأَنَّهُ أوَّل من خلق على هَذِه الصُّورة .

وَقيل : أَشَارَ بذلك إِلَى أَنَّ آدم على صُورَة بنيه ، لَا كَمَا يُقَال عَنهُ من عظم الجثَّة وَطول الْقَامَة إِلَى السَّمَاء ، وَشبه ذَلِك .

وَقيل : الضَّمِير عَائِد إِلَى آدم ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ الله تَعَالَى ابْتَدَأَ خلقه بشراً تَامّاً على صورته من غير نقل من نُطْفَة إِلَى علقَة إِلَى مُضْغَة كَغَيْرِهِ من بنيه ، فَيكون المُرَاد : الْحَث على حرمتهَا ، وَيُؤَيّد هَذَا التَّأْوِيل قَوْله تَعَالَى : ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾﴿آل عمران:٥٩﴾ .

وَقيل : إِشَارَة إِلَى أَنَّ آدم وَإِن خَالف وَعصى بعد كَرَامَة الله تَعَالَى لَهُ ، فَإِنَّ الله لم يُغيِّر صورته لمَّا أهبطه من الجنَّة ... بل أبقاه على صورته رَحْمَة ولطفاً بِهِ وكرامة .

فَإِن قيل : فقد رُوِيَ فِي بعض طرق الحَدِيث على صُورَة الرَّحْمَن ، قُلْنَا : هَذِه الرِّواية ضَعِيفَة جدّاً ، وضعَّفها الْأَئِمَّة ، وأرسلها الثَّوْريّ ، ورفعها الْأَعْمَش ، وَكَانَ يُدَلِّس أَحْيَانًا إِذا لم يُصَرح بِالسَّمَاعِ ، وَأَيْضاً فَيحْتَمل أَن يكون بعض الرُّوَاة توهَّم عود الضَّمِير إِلَى الله تَعَالَى ، فَرَوَاهُ بِالْمَعْنَى على زَعمه واعتقاده ، فَأَخْطَأَ ، وَأَيْضًا فَفِي رُوَاته حبيب بن أبي ثَابت ، وَكَانَ يُدلس ، وَلم يُصَرح بِسَمَاعِهِ عَن

عَطاء ، وَبِتَقْدِير صِحَّته وعود الضَّمير إِلَى الله تَعَالَى ، فَقيل : الْمُرَاد بالصُّورة الصِّفة ، أَي : على صفته من الْعلم والإرادة والسُّلطة بِخِلَاف سَائِر حيوانات الأَرْض ، وميَّزه بهَا ، وميَّزه على الْمَلَائِكَة بسجودهم لَهُ ، فَيكون الْمُرَاد بذلك تشريف آدم ، كَمَا تقدَّم ذَلِك .

وَفِي هَذَا الْجَواب نظر ، لِأَنَّ ذَلِك لَا يخْتَصُّ بِالْوَجْهِ ، وَقيل وَهُوَ الْأَقْرَب : إِنَّ الْإِضَافَة إِضَافَة الْملك والخلق ، لِأَنَّهُ الَّذِي خلق صُورَة آدم ، وَهُوَ مَالِكهَا ومخترعها ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : **﴿هَذَا خَلْقُ الله﴾** ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الصِّفة كَمَا يَصحُّ إضافتها إِلَى الْمَوْصُوف يَصحُّ إضافتها إِلَى خَالِقهَا وموجدها تَشْرِيفًا لَهَا وتكريماً ، وَمن قَالَ بِأَنَّ لله تَعَالَى صُورَة وَخلق آدم عَلَيْهَا فمردود عَلَيْهِ لما فِيهِ من التَّجسيم ، وَكَذَلِكَ من قَالَ : صُورَة لَا كالصُّور" .

وقال أيضاً في"إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التَّعطيل" (ص١٥٦-١٥٧) :"حَدِيث الْقِيَامَة الطَّوِيل فِي جمع الله النَّاس إِلَى قَوْله : فيأتيهم الله فِي غير الصُّورة الَّتِي يعْبدُونَ ، فَيَقُول : أَنا ربُّكم ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذ بِاللهَّ مِنْك ، هَذَا مَكَاننَا حتَّى يأتينا ربُّنا ، الحَدِيث إِلَى قَوْله : فيأتيهم الله فِي الصُّورة الَّتِي يعْرفُونَ ، فَيَقُول : أَنا ربُّكم ، فَيَقُولُونَ : أَنْت ربُّنا ، الحَدِيث .

اعْلَم أَنَّ الْأَدِلَّة الْعَقْلِيَّة والنَّقليَّة تحيل الصُّورة الَّتِي هِيَ التَّخطيط على الله تبَارك وَتَعَالَى كَمَا تقدم ، فَوَجَبَ صرفهَا على ظَاهرهَا إِلَى مَا يَلِيق بجلاله تبَارك وَتَعَالَى مِمَّا هُوَ مُسْتَعْمل فِي لُغَة الْعَرَب وَهُوَ الصِّفة وَالْحَالة ، يُقَال : كَيفَ صُورَة هَذِه الْوَاقِعَة ؟ وَكَيف صُورَة هَذِه الْمَسْأَلَة ؟ وَفُلَان من الْعلم على صُورَة كَذَا وَكَذَا ، فَالْمُرَاد بِجَمِيع ذَلِك الصِّفة لَا الصُّورة الَّتِي هِيَ التَّخطيط .

فعلى هَذَا الصُّورة هُنَا بِمَعْنى الصِّفة ، وَتَكون فِي بِمَعْنى الْبَاء ، فَمَعْنَى الصُّورة الَّتِي أنكروها :

أَوَّلاً : أَنَّه أظهر لَهُم شدَّة الْبَطْش والبأس وَالْعَظَمَة والأهوال والجبروت ، وَكَانَ وعدهم فِي الدُّنيا يلقاهم فِي الْقِيَامَة بِصفة الْأَمْن من المخاوف والبشرى وَالْعَفو وَالْإِحْسَان واللطف ، فَلَمَّا أظهر لَهُم غير الصِّفة الَّتِي هِيَ مُسْتَقِرَّة فِي نُفُوسهم أنكروها واستعاذوا مِنْهَا .

وَقَوله :"فَإِذا أَتَانَا ربُّنا عَرفْنَاهُ" ، أَي : بِمَا وعده من صفة اللطف وَالرَّحْمَة وَالْإِحْسَان" .

وقال شرف الدِّين الحسين بن عبد الله الطِّيبي(٧٤٣هـ) في"الكاشف عن حقائق السُّنن"(٨/ ٢٤٩١-٢٤٩٣) :"الحديث السَّادس عشر : عن أبي هريرة رضي الله عنه: قوله: (خلق آدم على صورته) فيه أقوال :

الأَوَّلُ: أنَّ الضَّمير راجع إلى آدم، وهو اختيار ابن الجوزي، وفيه وجوه:

أَحَدُهُمَا: أنَّه خلق علي صورته التي كان عليها من مبدأ فطرته إلي منقرض عمره ، ولم تتفاوت قامته ، ولم تتغيَّر هيئته، بخلاف سائر النَّاس؛ فإنَّ كلّ واحد منهم يكون أوَّلاً نطفة ثمَّ علقة ثمَّ مضغة، ثمَّ عظاماً وأعصاباً عارية، ثمَّ عظاماً وأعصاباً مكسوَّة لحماً، ثمَّ حيواناً مجتنّاً في الرَّحم ، لا يأكل ولا يشرب، بل يتغذَّى من عرق كالنَّبات، ثمَّ يكون مولوداً رضيعاً، ثمَّ طفلاً ثمَّ مترعرعاً، ثمَّ مراهقاً ثمَّ شابّاً ثمَّ كهلاً ثمَّ شيخاً.

وَثَانِيْهِمَا: أنَّه خلق على صورة حال تختصُّ به لا يشاركه نوع أخر من المخلوقات؛ فإنَّه يوصف مرَّة بالعلم وأخرى بالجهل، وتارة بالغواية والعصيان والإخراج من الجنان، ولحظة يتَّسم بسمة الاجتباء ، ويتوَّج بتاج الخلافة والاصطفاء، وبرهة يستعمل بتدبير الأرضين، وساعة يصعد بروحه إلى أعلى عليِّين، وطوراً يشارك البهائم في مأكله ومشربه ومنكحه، وطوراً يسابق الكروبيِّين في فكره وذكره وتسبيحه وتهليله.

وَثَالِثُهُمَا: أنَّه تعالى اخترعها اختراعاً عظيماً في خلقها؛ إذ كلّ مخلوق قد تقدَّم أمثال له، فيخلقون على صور أمثالهم المتقدِّمة، وأمَّا آدم فاخترع خلقاً جديداً عجيباً ، ملكي الرُّوح ، حيوإني الجسم ، منتصب القامة، فلم يوجد على مثال له تقدَّم، وكأنَّه قال: ارتجل صورته اختراعاً لا تشبيهاً بتقدّم ولا محاذياً لخلق آخر، بل تولَّى القديم بنفسه خلق هذه الصُّورة إبداعاً جديداً وخلقاً عجيباً، لم يسبقه ما يشبهه بصفة ما. وتعظيم وجه الإنسان إمَّا لأنَّه أشرف جزء من الإنسان إذ أكثر الحواس فيه؛ أو لأنَّه إذا عدم عدم الكلّ بخلاف بقيَّة الأعضاء.

وفي هذا التَّأويل إضمار، كأنَّه قيل: هذا المضروب من أولاد آدم، فاجتنبوا ضرب العضو الأشراف منه احتراماً له؛ لأنَّه يشبه وجه آدم.

وَالثَّانِي : أنَّ الضَّمير راجع إلى المضروب. قال الشيَّخ محيي الدِّين: وهو رواية مسلم. ويحتمل أن يرجع إلى (الوجه) يعني فليجتنب الوجه؛ فإنَّه تعالى كرَّمه وشرَّفه بأحسن صورة، وجمع فيه المحاسن والحواس والإدراكات، والضَّرب في الوجه قد ينقصها ، ويشوّه الحسن ، ويظهر الشَّين الفاحش ، ولا يمكن ستره، وخلق آدم عليه السَّلام على تلك الصُّورة ، فلا تضربه تكريماً لصورة آدم؛ فإنَّك إن ضربتها فقد أهنتها.

ونظيره ما روي أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال: (تُسَمُّونَ أَوْلادَكُمْ مُحَمَّدًا ثُمَّ تَلْعَنُونَهُمْ) . ذكره الاصبهاني في التَّرغيب والتَّرهيب (١/ ٣٥٠ برقم ٥٩٨) ، ابن حجر في إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة (١/ ٤٥٣ برقم ٤٣٤) ونسبه للبزار .

أنكر اللعن إجلالاً لاسمه، كما الضَّرب على الوجه تعظيماً لصورة آدم عليه السَّلام.

وَالثَّالِثُ: أنَّ الضَّمير راجع إلى الله تعالى، وهو اختيار الشَّيخ التُّوربشتي، قال: وإنَّما الوجه فيه أنَّ يكون الضَّمير فيه راجعاً إلى الله سبحانه وتعالى تشريفاً وتكريماً، وكالإضافة في : بيت الله و﴿**نَاقَةُ اللهِ**﴾ ؛ لما صحَّ من طرق هذا الحديث: فإنَّ الله تعالى خلق آدم على صورة الرَّحْمَن.

قال الشَّيخ محيي الدِّين: هذا الحديث بهذا اللفظ ثابت، ورواه بعضهم : أنَّ الله خلق آدم على صورة الرَّحْمَن، وهو ليس بثابت عند أهل الحديث، كأنَّ من رواه نقله بالمعنى الذي وقع له ، وغلط في ذلك ، انتهى كلامه.

وفي هذا القول وجوه:

أَوَّلُهَا : أن يُجرى على ظاهره وهو قول ابن قتيبة.

قال المازري: وقد غلط ابن قتيبة فيه، وقال: إنَّ لله تعالى صورة لا كالصُّور، وهو ظاهر الفساد؛ لأنَّ الصُّورة تفيد التَّركيب، وكلّ مركَّب محدث، وتعالى الله عن ذلك.

وقالت المجسِّمة: جسم ليس كالأجسام؛ لَمَّا سمعوا من أهل السُّنَّة أنَّه تعالى شيء لا كالأشياء طرَّدوا هذا الاستعمال. والفرق ظاهر، من ابن قتيبة في قوله: (صورة لا كالصُّور)، مع أنَّ ظاهر

الحديث على رأيه يقتضي خلق آدم على صورته، فالصُّورتان على رأيه سواء، فإذا قال: لا كالصُّور ناقض. انتهى كلامه.

وَثَانِيْهَا: قول القاضي: إن صحَّت هذه الرِّواية تعيَّن أن يكون الضَّمير لله تعالى، ويكون المعنى : أنَّ الله تعالى خلق آدم على صورة اجتباها وجعلها نتيجة من جملة مخلوقاته؛ إذ ما من موجود إلَّا وله مثال في صورته؛ ولذلك قيل: الإنسان عالم صغير، ثمَّ إنَّ مجمع محاسنه ومظهر لطائف الصُّنع فيه هو الوجه، فبالحري أنَّه يحافظ عليه، ويتجوَّز عمَّا يشوهه فلا يناسب أن يجرح ويقبح. وإن لم يصح يحتمل ذلك.

وَثَالِثُهَا: قال بعضهم: إنَّ الصُّورة بمعنى الأمر والشَّأن ، أي : خلق آدم على حاله وشأنه في كونه مسجوداً للملائكة، مالكاَ للحيوانات في كونها مسخرة له، تحقيقاً لقوله تعالى: **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيْفَةً﴾** تعظيماً واحتراماً لشانه، كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الحجر الأسود يمين الله في الأرض) . قال العجلوني في "كشف الخفا"(١/٣٤٨-٣٤٩ برقم ١١٠٩) : " رواه الطبراني في معجمه وأبو عبيد القاسم بن سلام عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه، وذكر ابن أبي الفوارس في تاسع مخلصياته عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا أنه قال : الحجر يمين الله عز وجل في الأرض فمن لم يدرك بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله، وكذا أخرجه الأزرقي في تاريخه، وأخرجه أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الركن يمين الله في الأرض يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه، وفي لفظ: إن هذا الركن الأسود يمين الله عز وجل في الأرض يصافح بها عباده مصافحة الرجل أخاه، ورواه القضاعي أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا عليه، لكنه صحيح بلفظ : الركن يمين الله عز وجل يصافح بها خلقه والذي نفس ابن عباس بيده ما من مسلم يسأل الله عنده شيئا إلا أعطاه إياه ، ومثله مما لا مجال للرأي فيه، وله شواهد فالحديث حسن وإن كان ضعيفا بحسب أصله كما قال بعضهم ، منها : ما رواه الديلمي عن أنس بلفظ الحجر يمين الله فمن مسحه بيمينه فقد بايع الله، ومنها: ما رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن جابر بلفظ الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده، ومعناه كما قال المحب الطبري أن كل ملك إذا قدم عليه قبلت يمينه، ولما كان الحاج والمعتمر يسن لهما تقبيله نزل منزلة يمين الملك على سبيل التمثيل ولله المثل الأعلى، ولذلك من صافحه كان له عند الله عهد كما أن الملك يعطي العهد بالمصافحة، لطيفة: نقل المناوي عن السيوطي أنه قال في الساجعة ورد في الأثر ما بعث الله قط ملكا ولا سحابا إلا طاف بالبيت أولا ثم مضى انتهى".

لأنَّه مخصوص بالتَّقبيل والاستلام تعظيماً ، كيمين الملك في حقِّ من يتقرَّب إليه. فإذن الإضافة فيه ليست كالإضافة في بيت الله و **﴿نَاقَةُ اللهِ﴾** للتَّشريف، بل الكلام وارد على التَّمثيل والاستعارة.

وسئل سهل بن عبد الله عن عبد الله عن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ، قال: صورة الملك الذي تولَّاها فخلق آدم عليها وملكه من ملكه ما تولى، وسئل عن معنى ذلك فذكر (خلق آدم على صورته). هذا أقصى ما يمكن أن يقال في هذا المقام ، والله أعلم بالصَّواب" .

وقال في"الكاشف عن حقائق السُّنن"(١٠/ ٣٠٣٥-٣٠٣٦) :"قوله: (على صورته) الهاء مرجعها إلى آدم عليه السَّلام، والمعنى: أنَّ ذريَّة آدم خلقوا أطواراً في مبدأ الخلق، نطفة، ثمَّ علقة، ثمَّ مضغة، ثمَّ صاروا صوراً أجنَّة إلى أن تتمّ مدَّة الحمل، فيولدون أطفالاً وينشئون صغاراً إلى أن يكبروا، فيتمّ طول أجسادهم . يقول: إنَّ آدم لم يكن خلقه على هذه الصِّفة، ولكنَّه أوَّل ما تناولته الخلقة وجد خلقاً تامَّاً طوله ستُّون ذراعاً.

وقال الشَّيخ التُّوربشتي: هذا كلام صحيح في موضعه، فأمَّا في تأويل هذا الحديث إنَّه غير سديد، لما في حديث آخر: (خلق آدم على صورة الرَّحْمَن)، ولما في غير هذه الرِّواية: (أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رأى رجلاً يضرب وجه غلام، فقال: (لا تضرب الوجه؛ فإنَّ الله خلق آدم على صورته). والمعنى الذي ذهب إليه هذا المؤول لا يلائم هذا القول.

وأهل الحق في تأويل ذلك على طبقتين:

إحداهما: المتنزِّهون عن التَّأويل مع نفي التَّشبيه ، وعدم الرُّكون إلى مسمَّيات الجنس، وإحالة المعنى فيه إلى علم الله تعالى الذي أحاط بكلِّ شيء علماً، وهذا أسلم الطَّريقين. والطَّبقة الأخرى يرون الإضافة فيها إضافة تكريم وتشريف.

وذلك أنَّ الله تعالى خلق آدم أباً البشر على صورة لم يشاكلها شيء من الصُّور والجمال والكمال وكثرة ما احتوت عليه من الفوائد الجليلة، فاستحقَّت الصُّورة البشريَّة أن تكرم ولا تهان، اتِّباعاً لسنَّة الله تعالى فيها وتكريماً لما كرمه.

أقول: تأويل أبي سليمان للحديث في هذا المقام سديد يجب المصير إليه؛ لأنَّ قوله: (طوله) بيان لقوله: (على صورته) كأنَّه قيل: خلق آدم على ما عرف من صورته الحسنة وشكله وهيئته من الجمال والكمال وطول القامة، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ .

وإنَّما خصّ الطُّول منها؛ لأنَّه لم يكن متعارفاً بين النَّاس. وورد أيضاً في رواية أبي هريرة من التِّرمذي في الفصل الثَّالث: لما خلق الله آدم ونفخ فيه الرُّوح عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه إلى قوله: اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس فقل: السَّلام عليكم.

وتخصيص الحمد بالذِّكر إشارة إلى بيان قدرته الباهرة ونعمته المتظاهرة؛ لأنَّ الحمد هو الثَّناء على الجميل من الفضل والإفضال؛ وذلك أنَّ الله تعالى أبدعه إبداعاً جميلاً، وأنشأه خلقاً سويَّاً صحيحاً فعطس، فإنَّه مشعر بصحَّة المزاج فوجب الحمد على ذلك. ولا ارتياب أنَّ وقوفه على قدرة الله تعالى وإفضاله عليه لم يكن إلَّا بتوفيقه وتيسيره.

وفي فاء التَّعقيب إشارة إلى هذا المعنى، ثمَّ إنَّه تعالى لما وفقه لقيام الشُّكر على نعمه السَّابقة، وأوقفه على قدرته الكاملة البالغة، علمه كيفيَّة المعاشرة مع الخلق، حتَّى يفوز بحسن الخلق مع الخلق بعد تعظيم الحقّ. وأمَّا تخصيص السَّلام بالذِّكر، فإنَّه فتح باب المودَّات، وتأليف قلوب الإخوان المؤدِّي إلى استكمال الإيمان كما ورد: "لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ إِفْشَاءُ السَّلَامِ بَيْنَكُمْ". أخرجه أحمد في المسند (١٦/ ٣٨١ برقم ١٠٦٥٠).

قوله: (فكلُّ) بالفاء في البخاري وجميع نسخ المصابيح، وهو مرتَّب على ما تقدَّم من قوله: (خلق الله آدم على صورته) وذلك يؤيِّد ما ذكرنا في تأييد قول الخطَّابي من قولنا: خلق آدم على ما عرف من صورته الحسنة، وشكله وهيئته من الجمال والكمال وطول القامة ثمَّ إنَّ أولاده لم يزالوا ينقصون في الجمال والطُّول حتَّى الآن. فإذا دخلوا الجنَّة عادوا إلى ما كان عليه أبوهم من الحسن والجمال وطول القامة".

وقال أبو العبَّاس، شهاب الدِّين، أحمد بن يوسف بن عبد الدَّائم المعروف بالسَّمين الحلبي(٧٥٦ هـ) في"" (٢/ ٣٦٠-٣٦١) :"وفي الحديث: (أنَّ الله خلق آدم على صورته) الهاء عائدةٌ على آدم، أي : على هيئته التي عرفتموها بالسَّماع لا كما يتوهَّمه الأغتام ومن لا فهم له. وقيل: أراد بالصُّورة ما خصّ به الإنسان من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة، وبها فضَّله على كثير من خلقه. قيل: وإضافته إليه على

سبيل الملك لا على سبيل البعضيَّة والتَّشبيه بل على سبيل التَّشريف، كقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ اللهِ﴾ ﴿الشمس: ١٣﴾ ، وبيت الله" .

وقال محمَّد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدِّين الكرماني(٧٨٦هـ) في"الكواكب الدَّراري في شرح صحيح البخاري"(٢٢/ ٧٢-٧٣) :" قوله (صورته) فإن قلت : ما مرجع الضَّمير ؟ قلت : آدم ، لأنَّه أقرب ، أي : خلقه في أوَّل الأمر بشرًا سويَّاً ، كامل الخلقة ، طويلاً ستِّين ذراعاً ، كما هو المشاهد ، بخلاف غيره ، فإنَّه يكون أوَّلاً نطفة ثمَّ علقة ثمَّ مضغة ثمَّ جنيناً ثمَّ طفلا ثمَّ رجلاً حتَّى يتمّ طوله ، فله أطوار.

قال ابن بطَّال: أفاد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بذلك إبطال قول الدَّهريَّة : إن لم يكن قطّ إنسان إلَّا من نطفة ، ولا نطفة إلَّا من إنسان . وقول القدريَّة : إنَّ صفات آدم عليه السَّلام على نوعين : ما خلقها الله ، وما خلقها آدم بنفسه ، قال : وقيل : أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مرَّ برجل يضرب عبده في وجهه لطماً فزجره عن ذلك ، وقال : خلق الله آدم على صورته ، قال : وقد يقال هو عائد إلى الله تعالى ، لكن الصُّورة هي الهيئة ، وذلك لا يصحُّ إلى على الأجسام ، فمعنى الصُّورة الصِّفة ، كما يقال : عرفني صورة هذا الأمر ، أي : صفته يعني خلق آدم على صفته ، أي : حيَّاً عالماً سميعًا بصيرًا متكلِّماً أو هو إضافة تشريفيَّة ، نحو : بيت الله ، وروح الله ، لأنَّه ابتدأها على غير مثال سابق ، بل بمحض الاختراع ، فشرَّفها بالإضافة إليه .

قوله: (نفر) بفتح الفاء وسكونها : عدَّة رجال من ثلاثة إلى عشرة ، وهو بالرَّفع خبر مبتدأ محذوف وبالجر ، و (على صورة) خبر لكلّ ، و (ينقص) ، أي : طوله . قال بعضهم : هو في معنى ما قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾ ، وفيه الإشعار بجواز فناء العالم كلّه كما جاز فناء بعضه ، وفيه أنَّ الملائكة في الملأ الأعلى يتكلَّمون بلسان العرب ، ويتحيّون بتحيَّة الله تعالى والأمر ...".

وقال في"الكواكب الدَّراري في شرح صحيح البخاري"(٢٥/ ١٤٢) :"القاضي عياض : أي يأتيهم بعض ملائكته أو يأتيهم الله في صورة الملك ، وهذا آخر امتحان المؤمنين ، فإذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصُّورة : أنا ربُّكم رأوا عليه من علامة الحدوث ما يعلمون به أنَّه ليس ربّهم.

فإن قلت : الملك معصوم ، فكيف يقول : أنا ربُّكم وهو كذب ، قلت : لا نسلِّم عصمته من مثل هذه الصَّغيرة وإن كانت هذه صغيرة فما وقع فرعون إلَّا في صغيرة بقوله : أنا ربُّكم ، وما هذه إلَّا ورطة يستعاذ منها.

قوله : "في صورته" ، أي : صفته ، أي : يتجلَّى الله لهم على الصِّفة التي عرفوه بها" .

وقال ابن الملقِّن سراج الدِّين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشَّافعي المصري(٨٠٤هـ) في"التَّوضيح لشرح الجامع الصَّحيح"(٢٩/ ١٠-١٤) :" قوله: ("خلق الله آدم على صورته") الهاء في صورته تعود على آدم، وقيل: على مَضْرُوب في وجهه، وقيل: على الله، فمن قال بالأوَّل احتجَّ بأنَّه أقرب مذكور إلى الضَّمير، ويكون فائدة ذلك: إتمام نعم الله على أبينا آدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ؛ لما فضله الله به من خلقه بيده، وسجود الملائكة له وأنَّه لم يعاتبه كغيره ... ففائدة التَّعريف: الفرق بينه وبين المخرج معه، وقيل: فيه إبطال قول الدَّهريَّة أنَّه لم يكن إنسان إلَّا من نطفة، ولا نطفة إلَّا من إنسان، ليس لذلك أوَّل ولا آخر، فعرَّفنا الشَّارع تكذيبهم، وأنَّ أوَّل البشر آدم خلق على صورته لم يخلق من نطفة، ولا من تناسل، ولا كان طفلاً، ولا سكن رحمًا، وقيل: لأنَّ الله خلقه من غير أن كان ذلك على تأثير طبع ولا عنصر؛ إبطالاً لقول الطَّبائعيِّين: أنَّ آدم خلق من فعل الطَّبع وتأثيره.

وذكر ابن فورك أنَّ أظهر التَّأويل في ذلك أنَّ الحديث خرج على سبب، وذلك أنَّه – عليه السَّلام – مرَّ على رجل يضرب ابنه أو عبده في وجهه لطمًا، ويقول: قبَّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك. فقال – عليه السَّلام –:"إذا ضرب أحدكم عبده فليتَّق الوجه؛ فإنَّ الله خلق آدم على صورته"، فزجره عن ذلك؛ لأنَّه قد يسبّ الأنبياء والمؤمنين، وخصَّ آدم بالذِّكر؛ لأنَّه الذي ابتدئت خلقة (وجهه) على الحدّ الذي يخلق عليها سائر ولده، قالها على هذا الوجه كناية عن المضروب في وجهه، فنقل بعضهم هذِه القصَّة مع هذِه اللفظة .

وأضعف الوجوه أن تكون الهاء كناية عن الله من قبل أنَّ الضَّمير يعود إلى أقرب مذكور إليه، إلَّا أن تدلّ دلالة على خلاف ذلك، وعلى هذا التَّأويل معنى الصُّورة معنى الصِّفة، كما يقال: عرفني صورة هذا (الآدمي)، أي: صفته ولا صورة للأمر على الحقيقة، (إلَّا على معنى الصِّفة)، ويكون تقدير التَّأويل: أنَّ الله خلق آدم على صفته، أي: خلقه حيًّا عالماً سميعًا بصيرًا متكلِّمًا مختارًا مريدًا، فعرفنا بذلك إسباغ نعمة الله عليه وتشريفه بهذِه الخصال.

ونظرنا في الإضافة إلى الله فوجدناها على وجوه:

منها: إضافة الفعل كما يقال: خلق الله، وأرض الله، وسماء الله. وإضافة الملك كما يقال: رزق الله، وعبد الله. وإضافة اختصاص وتنويه بذكر المضاف إليه كقولهم: الكعبة بيت الله. وكقوله: **﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾**﴿الحجر: ٢٩﴾ ووجه آخر من الإضافة نحو قولهم: كلام الله وعلمه وقدرته. وهي إضافة اختصاص من طريق القيام به، وليس من جهة الملك والتَّشريف، بل ذلك على معنى أنَّ ذاته غير متعرِّية منها قيامًا بها ووجودًا، ثمَّ نظرنا إلى إضافة الصُّورة إلى الله تعالى، فلم يصح أن يكون وجه إضافتها إليه على نحو إضافة الصِّفة إلى الموصوف بها، من حيث تقوم به؛ لاستحالة أن يقوم بذاته حادث، فبقي من وجوه الإضافة: الملك والفعل والتَّشريف.

فأمَّا الأوَّلان فوجهه عامٌ ، وتبطل فائدة التَّخصيص فبقي الثَّالث، وطريق ذلك: أنَّ الله هو الذي ابتدأ تصوير آدم لا على مثال سبق، بل اخترعه ثمَّ اخترع من بعده على مثاله، فشرفت صورته بالإضافة إليه، لا أنَّه أُريد به إثبات صورة لله على التَّحقيق هو بها مصوَّر؛ لأنَّ الصُّورة هي التَّأليف والهيئة، وذلك لا يصحُّ إلَّا على الأجسام المؤلَّفة، والباري تعالى عن ذلك.

وقيل: المعنى في رجوع الهاء إلى آدم تكذيب القدريَّة لما زعمت أنَّ من صورة آدم وصفاته ما لم يخلقه الله تعالى، وذلك أنَّهم يقولون: إنَّ صفات آدم على نوعين: منها ما خلقها الله، ومنها ما خلقها آدم لنفسه، فأخبر عليه السَّلام بتكذيبهم ، وأنَّ الله خلقه على جميع صورته وصفاته وأعراضه، ويحتمل أن يكون رجوع الهاء إليه أيضًا من وجه آخر على أصول أهل السُّنَّة: أنَّ الله خلق السَّعيد سعيدًا والشَّقيَّ شقيًّا، وخلق آدم وعلم أنَّه يعصيه ويخالف أمره، وسبق العلم بذلك، وأنَّه يعصي ثمَّ

يتوب تنبيهًا على وجوب جريان قضاء الله على خلقه، وأنَّه إنَّما تحدث الأمور وتتغيَّر الأحوال على حسب ما يخلق عليه المرء وييسر له.

وقال بعضهم: الهاء تعود على بعض الشَّاهدين من النَّاس.

فالفائدة في ذلك تعريفنا أنَّ صورة آدم كانت كهذه الصُّورة؛ إبطالًا لقول من زعم أنَّها كانت على هيئة أخرى من ذكر طوله وقامته، وذلك ممَّا لا يوثق به؛ إذ ليس في ذلك خبر صحيح وإنَّما القول في مثله على نقل وهب من أحاديث التَّوراة ولا بيِّنة في شيء من ذلك، ولم يثبت من جهة أخرى أن خلقة آدم مخالفة لهذِه الخلقة، وهذا خلاف نصّ هذا الحديث.

وروي عن مالك أنَّه نهى أن يتحدَّث بمثل هذا الحديث، فذكر له فيه ابن عجلان، فقال: لم يكن من أهل العلم. وذكر له أبو الزِّناد ، فقال: ما زال عاملًا لهؤلاء حتَّى مات.

فصل:

قال المهلَّب: الحديث يدلُّ على أنَّ الملائكة في الملأ الأعلى يتكلَّمون بلسان العرب، ويتحيّون بتحيَّة الله، وأنَّ التَّحية بالسَّلام، هي التي أراد الله أن يتحيَّا بها.

فصل:

وفيه الأمر بتعلُّم العلم من أهله، والقصد إليهم فيه، وأنَّه من أخذ العلم ممَّن أمره الله بالأخذ عنه، فقد بلغ العذر في العبادة وليس عليه ملامة؛ لأنَّ آدم أمره الله أن يأخذ عن الملائكة ما يحيُّونه، وجعلها له تحيَّة باقية، وهو تعالى أعلم من الملائكة، ولم يعلمه إلَّا ليكون سنَّة.

فصل:

وقوله:"فلم يزل الخلق ينقص حتَّى الآن" هو في معنى قوله تعالى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾**﴿التين: ٤-٥﴾ .

ووجه الحكمة في ذلك: أنَّ الله تعالى خلق العالم بما فيه دالًّا على خالق حكيم، وجعل في حركات ما خلق دليلًا على فناء هذا العالم وبطلانه، خلافًا للدَّهريَّة التي تعبد الدَّهر وتزعم أنَّه لا يفنى،

فأبقى الله هذا النَّقص دلالة على بطلان قولهم؛ لأَنَّه إذا جاز النقص في البعض، جاز الفناء في الكلّ".

وقال ابن الملقِّن في"التَّوضيح لشرح الجامع الصَّحيح"(٣٣/ ٣٣٠-٣٣١) :"وقوله:"فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون". ليس الإتيان على المعهود فيما بيننا الذي هو انتقال حركة؛ لاستحالة وصفه تعالى نفسه بما توصف به الأجسام، فوجب حمله على أَنَّه تعالى يفعل فعلًا يسمِّيه إتيانًا وصف تعالى به نفسه، ويحتمل أن يكون الإتيان المعهود فيما بيننا خلقه الله تعالى لغيره من ملائكته ،فأضافه إلى نفسه، كقولك: قطع الأمير اللصَّ. وهو لم يلِهِ بنفسه، وإنَّما أمر به.

والحاصل أنَّ الإتيان هنا مثل قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ، وأن ذلك بظهور فعل لا بتحرُّك ذاته، أو أَنَّه فعل من أفعال ملائكته، فيضاف إليه من طريق أَنَّه تابع أمره، أو أَنَّه عبارة عن رؤيتهم الله تعالى؛ لأنَّ العادة جارية أنَّ من نحا لا يتوصَّل إلى رؤيته إلَّا بمجيء، فعبَّر عن رؤيته بالمجيء جوازًا.

فصل:

وأمَّا وصفه تعالى بالصُّورة، ففيه إيهام للمجسِّمة أَنَّه تعالى ذو صورة ، ولا حجَّة لهم فيه؛ لأنَّ الصُّورة هنا تحتمل أن تكون بمعنى العلامة،وصفها تعالى دليلًا لهم على معرفته، أو التَّفرقة بينه وبين مخلوقاته، فسمَّى الدَّليل والعلامة صورة مجازًا ، كما تقول العرب: صورة حديثك كيت وكيت وصورة أمرك كذا وكذا.

وقال ابن التِّين: اختلف في معنى الصُّورة، فقيل: صورة اعتقاد كما تقول: صورة اعتقادي في هذا الأمر. فالمعنى: يرونه تعالى على ما كانوا يعتقدون من الصفات. وقيل: معناها: الصِّفة وهو نحو الأوَّل.

وقال ابن قتيبة: لله تعالى صورة لا كالصُّور، كما أَنَّه شيء لا كالأشياء، فأثبت لله تعالى صورة فعليَّة. قال ابن فورك: وهذا جهل من قائله.

وقال الدَّاودي: إن كانت محفوظة، فيحتمل أن تكون صورة الأمر والحال الذي يأتي فيه، فقال: أنا أصف لك صورة هذا الأمر، وذلك أنَّ الله تعالى أخبر أَنَّه يأتيهم في ظلل من الغمام والملائكة،

فقد يرونه ولا يرون الملائكة والغمام، أو يرون بعض ذلك؛ لأنَّه يخفي من ذلك ما شاء في وقت ويظهره في وقت آخر، فإذا رأوا غير ما قيل لهم وقفوا .

فصل:

وقولهم: ("أنت ربُّنا"). أي: أنت عين ربّنا تخاطبنا صدقا.

فيتحقَّقون نداءه وخطابه أنَّه عن الله تعالى، ويحتمل أن يكون ذلك عند تجلِّي الله للمؤمنين من خلقه، فيقولون عند رؤيتهم له وظهور تلك الصُّورة التي لا يعرفون ممَّا أضيفت إلى الله تعالى ملكًا وخلقًا: أنت ربُّنا. اعترافًا بالرُّبوبيَّة، وفصلًا من حالهم وحال الكفرة.

قال المهلب: وأمَّا قولهم:"فإذا جاء ربّنا عرفناه" فإنَّما ذلك أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يبعث إليهم ملكًا؛ ليفتنهم ويختبرهم في اعتقاد صفات ربِّهم الذي ليس كمثله شيء، فإذا قال لهم الملك: أنا ربُّكم، رأوا عليه دليل الخِلقة التي تشبه المخلوقات فيقولون: هذا مكاننا حتَّى يأتينا ربُّنا فإذا جاءنا عرفناه أي: إنَّك لست ربّنا، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون. أي: يظهر إليهم في ملكه لا ينبغي لغيره، وعظمته لا يشبه شيئًا من مخلوقاته، فيعرفون أنَّ ذلك الجلال والعظمة لا تكون لغيره، فيقولون: أنت ربّنا الذي لا يشبهك شيء، فالصُّورة يعبَّر بها عن حقيقة الشَّيء" .

وقال أبو الفضل زين الدِّين عبد الرَّحيم بن الحسين بن عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي(٨٠٦هـ) في"طرح التَّثريب في شرح التَّقريب"(٨/ ١٠٤-١٠٥) :"فَوَائِدُ:

(الْأُولَى) : اتَّفَقَ عَلَيْهِ الشَّيْخَانِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ هَمَّامٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .

(الثَّانِيَةُ) : قَوْلُهُ «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ:» الضَّمير فِيهِ عَائِدٌ إلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، وَهُوَ آدَم – عَلَيْهِ السَّلام – وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي عَوْدِ الضَّمَائِرِ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَدَهُ عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي خَلَقَهُ عَلَيْهَا لَمْ يَنْتَقِلْ فِي النَّشْأَةِ أَحْوَالًا وَلَا تَرَدَّدَ فِي الْأَرْحَامِ أَطْوَارًا كَذُرِّيَّتِهِ يُخْلَقُ أَحَدُهُمْ صَغِيرًا فَيَكْبُرُ وَضَعِيفًا فَيَقْوَى وَيَشْتَدُّ بَلْ خَلَقَهُ رَجُلًا كَامِلًا سَوِيًّا قَوِيًّا وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ الْإِخْبَارَ عَنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ يَوْمَ خَلَقَهُ عَلَى الصُّورة الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا بِالْأَرْضِ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِالْجَنَّةِ عَلَى صُورَةٍ

أُخْرَى وَلَا اخْتَلَفَتْ صِفَاتُهُ وَلَا صُورَتُهُ كَمَا تَخْتَلِفُ صُوَرُ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَمِمَّا يُؤَكِّدُ عَوْدَ الضَّمِيرِ عَلَى آدَمَ تَعْقِيبُهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا وَمَنْ قَالَ مِنَ الْمُشَبِّهَةِ إِنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ خِلَافُ ظَاهِرِ اللَّفْظِ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا يَحْصُلُ مَقْصُودُهُمْ مِنَ التَّشْبِيهِ تَعَالَى اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّ ذَلِكَ عِنْدَ الَّذِينَ يُؤَوِّلُونَ مِثْلَ هَذَا أَمَّا عَلَى أَنَّ الْإِضَافَةَ هُنَا لِلتَّشْرِيفِ وَالِاخْتِصَاصِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾﴿الشمس: ١٣﴾ ، وَكَمَا يُقَالُ فِي الْكَعْبَةِ (بَيْتُ اللَّهِ) : وَنَحْوُ ذَلِكَ وأَمَّا عَلَى مَعْنَى أَنَّ الصُّورة بِمَعْنَى الصِّفة أَيْ عَلَى الصِّفة الَّتِي يَرْضَاهَا وَهِيَ الْعِلْمُ وَجُمْهُورُ السَّلَفِ عَلَى الْإِمْسَاكِ عَنْ تَأْوِيلِ أَحَادِيثِ الصِّفات وَالْإِيمَانِ بِأَنَّهَا حَقٌّ وَأَنَّ ظَاهِرَهَا غَيْرُ مُرَادٍ وَلَهَا مَعَانٍ تَلِيقُ بِهَا فَوُكِّلَ عِلْمُهَا إِلَى عَالِمِهَا وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي بَابِ اتِّقَاءِ الْوَجْهِ فِي الْحُدُودِ وَالتَّعْزِيرَاتِ.

(الثَّالِثَةُ) : قَوْلُهُ «طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا:» قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ أَيْ مِنْ ذِرَاعِ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ".

وقال محمَّد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمَّد، المخزومي القرشي، بدر الدِّين المعروف بالدَّماميني، وبابن الدَّماميني (٨٢٧ هـ) في"مصابيح الجامع"(٢٠٨/١٠) :"(في صورته التي يعرفون): أي: في علامةٍ جعلَها الله دليلًا على معرفته، والتَّفرقةِ بينه وبين مخلوقاته، فسمَّى الدَّليل والعلامةَ صورةً مجازاً؛ كما تقول العرب: صورةُ أمرِك كذا، وصورةُ حديثِكَ كذا، والأمرُ والحديثُ لا صورةَ لهما، وإنَّما يريدون: حقيقة أمرِك وحديثِك، وكثيراً ما يجري على ألسنة الفقهاء: صورةُ هذهِ المسألة كذا" .

وقال شمس الدِّين البِرْماوي، أبو عبد الله محمَّد بن عبد الدائم بن موسى النَّعيمي العسقلاني المصري الشَّافعي(٨٣١هـ) في"اللامع الصَّبيح بشرح الجامع الصَّحيح"(٢٦٧/١٥-٢٦٩) :"(على صورَتِهِ) ليس الضَّمير عائدًا إلى الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى منزَّه عن الصُّورة، وصفاتِ الأجسام؛ بل عائدٌ على آدم؛ باعتبار أنَّ الله تعالى خلقه بهيئته تامًّا؛ ستُّون ذراعًا، لا يتغيَّر عن حاله؛ بخلاف أولاده؛ فإنَّه، خلقهم أطوارًا: من تراب، ثمَّ من نطفة، ثمَّ من علقة، ثمَّ من مضغة، ثمَّ يكون صغيرًا، ثمَّ يكبر حتَّى يتكامل، ويؤيِّده قوله بعده: (سِتُّونَ ذِرَاعًا)، هذا أولى ما قيل فيه.

قال (ط): أفاد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بذلك إبطالَ قولَ الدَّهريَّة: إنَّه لم يكن قط إنسانٌ إلَّا من نطفة، ولا نطفَةَ إلَّا من إنسان، وقولَ القدريَّة: إنَّ صفات آدم على نوعين: ما خلقها الله، وما خلقها آدمُ بنفسه؛ قال: وقيل: إنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مرَّ برجل يضرب عبده في وجهه لطمًا، فزجره عن ذلك، وقال ذلك، قالها كناية عن المضروبِ وجهُه.

قال (ش): رواه مسلم، فهذه الصُّورة التي شرفها الله تعالى، وخلق عليها آدم وذريته.

قال (ط): وقد يقال: الضَّمير عائد على الله تعالى؛ لكن الصُّورة غير الهيئة، وذلك لا يصحُّ إلَّا على الأجسام، فمعنى الصُّورة هنا: الصِّفة؛ كما تقول: عَرِّفني صورة هذا الأمر؛ أي: صفته؛ أي: خلقَ آدمَ على صفته؛ أي: حيًّا عالمًا سميعًا بصيرًا متكلِّمًا، أو هي إضافة تشريف؛ نحو: بيت الله، وروح الله؛ لأنَّه ابتدأها لا على مثال سابق؛ بل بمحض الاختراع، فشرَّفها بالإضافة إليه.

(نَفَر) -بفتح الفاء وسكونها-: عدة من ثلاثة إلى عشرة، مجرور بدلًا، أو مرفوع خبر مبتدأ محذوف.

(على صورة) خبر لـ (كل).

(ينقص)؛ أي: طوله، وحمل بعضهم على ذلك قولَه تعالى: ﴿رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾﴿التين: ٥﴾ .

وفيه: إشعار بفناء العالم كلّه؛ كما جاز فناءُ بعضه.

وفيه: أنَّ الملائكة في الملأ الأعلى يتكلَّمون بلسان العرب، ويتحيّون بتحية الله.

وفيه: الأمرُ بتعلُّم العلم من أهله" .

وقال نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمِّي النَّيسابوري(٨٥٠هـ) في"غرائب القرآن ورغائب الفرقان" (١/ ٦٧) :" ورد في الخبر «أنَّ الله خلق آدم على صورته» .

فقيل: معناه : خلق آدم على صورته التي كان عليها ، يعني : ما تولَّد من نطفة ودم ، وما كان جنيناً، ورضيعاً ، بل خلقه الله تعالى رجلاً كاملاً دفعة واحدة.

وقيل في حديث آخر :«لا تقبِّحوا الوجه ، فإنَّ الله تعالى خلق آدم على صورة الرَّحْمَن»

المراد من الصُّورة الصِّفة ، كما يقال: صورة هذه المسألة كذا ، أي : خلقه على صفته في كونه خليفة في أرضه متصرِّفاً في جميع الأجسام الأرضيَّة ، كما أنَّه تعالى نافذ القدرة في جميع العالم. ويمكن أن يقال: الصُّورة إشارة إلى وجه المناسبة التي ينبغي أن تكون بين كلِّ علَّة ومعلولها، فإنَّ الظُّلمة لا تصدر عن النُّور وبالعكس" .

وقال ابن حجر العسقلاني(٨٥٢هـ) في"فتح الباري شرح صحيح البخاري"(٥/ ١٨٣) :"... وَاخْتُلِفَ فِي الضَّمِيرِ عَلَى مَنْ يَعُودُ ؟ فَالْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الْمَضْرُوبِ ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِإِكْرَامِ وَجْهِهِ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْمُرَادَ التَّعْلِيلُ بِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ ارْتِبَاطٌ بِمَا قَبْلَهَا . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَعَادَ بَعْضُهُمُ الضَّمِيرَ عَلَى اللَّهِ مُتَمَسِّكًا بِمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ :"إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ" ، قَالَ وَكَأَنَّ مَنْ رَوَاهُ أَوْرَدَهُ بِالْمَعْنَى مُتَمَسِّكًا بِمَا تَوَهَّمَهُ ، فَغَلِطَ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ أَنْكَرَ الْمَازِرِيُّ وَمَنْ تَبِعَهُ صِحَّةَ هَذِهِ الزِّيَادَةِ ثُمَّ قَالَ : وَعَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهَا فَيُحْمَلُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِالْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى" .

وقال ابن حجر العسقلاني في"فتح الباري شرح صحيح البخاري"(٦/ ٣٣٦) :"... وَقَدْ رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ ، فَقَالَ : خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ، وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ تَأْتِي فِي أَوَّلِ الِاسْتِئْذَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَعْنَى هَذِهِ اللَّفْظَةِ فِي أَثْنَاءِ كِتَابِ الْعِتْقِ ، وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ تُؤَيِّدُ قَوْلَ مَنْ قَالَ : إِنَّ الضَّمِيرَ لِآدَمَ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَدَهُ عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي خَلَقَهُ عَلَيْهَا لَمْ يَنْتَقِلْ فِي النَّشْأَةِ أَحْوَالًا وَلَا تَرَدَّدَ فِي الْأَرْحَامِ أَطْوَارًا كَذُرِّيَّتِهِ بَلْ خَلَقَهُ اللَّهُ رَجُلًا كَامِلًا سَوِيًّا مِنْ أَوَّلِ مَا نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ ، ثُمَّ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ، فَعَادَ الضَّمِيرُ أَيْضًا عَلَى آدَمَ ، وَقِيلَ : مَعْنَى قَوْلِهِ :"عَلَى صُورَتِهِ"، أَيْ : لَمْ يُشَارِكْهُ فِي خَلْقِهِ أَحَدٌ إِبْطَالًا لِقَوْلِ أَهْلِ الطَّبَائِعِ ، وَخُصَّ بِالذِّكْرِ تَنْبِيهًا بِالْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ" .

وقال ابن حجر العسقلاني في"فتح الباري شرح صحيح البخاري"(١١/ ٣) :"... وَقِيلَ الضَّمِيرُ لِلَّهِ وَتَمَسَّكَ قَائِلُ ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ وَالْمُرَادُ بالصُّورة الصِّفة وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ عَلَى صِفَتِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ صِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ" .

وقال ابن حجر في"فتح الباري"(١٣/٤٢٧-٤٢٨) :"وَقَوْلُهُ فِيهِ :"فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَة"، اسْتدلَّ بن قُتَيْبَةَ بِذِكْرِ الصُّورة عَلَى أَنَّ للهَّ صُورَةً لَا كَالصُّوَرِ ، كَمَا ثَبَتَ أَنَّهُ شَيْءٌ لَا كالأشياء ، وتعقَّبوه ، وَقَالَ بن بَطَّالٍ : تَمَسَّكَ بِهِ الْمُجَسِّمَةُ فَأَثْبَتُوا للهَّ صُورَةً ، وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ ، لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْعَلَامَةِ وَضَعَهَا اللهُّ لَهُمْ دَلِيلًا عَلَى مَعْرِفَتِهِ ، كَمَا يُسَمَّى الدَّلِيل وَالْعَلَامَةُ صُورَةً ، وَكَمَا تَقُول : صُورَةُ حَدِيثِكَ كَذَا ، وَصُورَةُ الْأَمْرِ كَذَا ، وَالْحَدِيثُ وَالْأَمْرُ لَا صُورَةَ لَهُمَا حَقِيقَةً ، وَأَجَازَ غَيْرُهُ أَنَّ الْمُرَادَ بالصُّورة الصِّفة ، وَإِلَيْهِ مَيْلُ الْبَيْهَقِيّ ، وَنقل بن التِّينِ أَنَّ مَعْنَاهُ : صُورَةُ الِاعْتِقَادِ ، وَأَجَازَ الْخَطَّابِيُّ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ خَرَجَ عَلَى وَجْهِ الْمُشَاكَلَةِ ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالطَّوَاغِيتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَسْطُ هَذَا هُنَاكَ ، وَكَذَا قَوْلُهُ :"نَعُوذُ بِكَ" .

قَالَ غَيْرُهُ فِي قَوْلِهِ فِي الصُّورة الَّتِي يَعْرِفُونَهَا : يَحْتَمِلُ أَنْ يُشِيرَ بِذَلِكَ إِلَى مَا عَرَفُوهُ حِينَ أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ ثمَّ أَنْسَاهُمْ ذَلِكَ فِي الدُّنيا ، ثمَّ يُذَكِّرُهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَقَوْلُهُ : "فَإِذَا رَأَيْنَا ربّنا عَرَفْنَاهُ"، قَالَ بن بَطَّالٍ عَنِ الْمُهَلَّبِ : إِنَّ اللهَّ يَبْعَثُ لَهُمْ مَلَكًا لِيَخْتَبِرَهُمْ فِي اعْتِقَادِ صِفَاتِ ربّهم الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، فَإِذَا قَالَ لَهُمْ :"أَنَا رَبُّكُمْ" ، رَدُّوا عَلَيْهِ لِمَا رَأَوْا عَلَيْهِ مِنْ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ . فَقَوْلُهُ : "فَإِذَا جَاءَ ربّنا عَرَفْنَاهُ" ، أَيْ : إِذَا ظَهَرَ لَنَا فِي مُلْكٍ لَا يَنْبَغِي لِغَيْرِهِ ، وَعَظَمَةٍ لَا تُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَحِينَئِذٍ يَقُولُونَ : أَنْتَ ربّنا ، قَالَ : وأمَّا قَوْلُهُ :"هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ عَلَامَةٌ تَعْرِفُونَهَا ؟ فَيَقُولُونَ : السَّاقُ"، فَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنَّ اللهَّ عَرَّفَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوِ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّ اللهَّ جعَلَ لَهُمْ عَلَامَةً تَجَلِّيهِ السَّاقُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَمْتَحِنُهُمْ بِإِرْسَالِ مَنْ يَقُولُ لَهُمْ : أَنَا ربّكم ، وَإِلَى ذَلِكَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : **﴿يُثَبِّتُ اللهُّ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾**﴿إبراهيم:٢٧﴾ ، وَهِيَ وَإِنْ وَرَدَ أَنَّهَا فِي عَذَابِ الْقَبْرِ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَتَنَاوَلَ يَوْمَ الْمَوْقِفِ أَيْضًا .

قَالَ : وأمَّا السَّاق فجَاء عَن بن عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : **﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾**﴿القلم:٤٢﴾ ، قَالَ : عَنْ شِدَّةٍ مِنَ الْأَمْرِ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ : قَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقٍ إِذَا اشْتَدَّتْ ، وَمِنْهُ :

قَدْ سَنَّ أَصْحَابُكَ ضَرْبَ الْأَعْنَاقِ وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقِ

وَجَاءَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فِي تَفْسِيرِهَا : عَنْ نُورٍ عَظِيمٍ ، قَالَ بن فَوْرَكٍ : مَعْنَاهُ مَا يَتَجَدَّدُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَلْطَافِ ، وَقَالَ الْمُهَلَّبُ : كَشْفُ السَّاقِ لِلْمُؤْمِنِينَ رَحْمَةٌ وَلِغَيْرِهِمْ نِقْمَةٌ ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : تَهَيَّبَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّيُوخِ الْخَوْضَ فِي مَعْنَى السَّاقِ ، وَمَعْنَى قَوْلِ بن عَبَّاسٍ : إِنَّ اللَّهَ يَكْشِفُ عَنْ قُدْرَتِهِ الَّتِي تَظْهَرُ بِهَا الشِّدَّةُ ، وَأَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ الْأَثَرَ الْمَذْكُورَ عَن بن عَبَّاسٍ بِسَنَدَيْنِ كُلٌّ مِنْهُمَا حَسَنٌ ، وَزَادَ : إِذَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فَأَتْبِعُوهُ مِنَ الشِّعْرِ ، وَذَكَرَ الرَّجَزَ الْمُشَارَ إِلَيْهِ .

وَأَنْشَدَ الْخَطَّابِيُّ فِي إِطْلَاقِ السَّاقِ عَلَى الْأَمْرِ الشَّدِيدِ :

فِي سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا

وَأَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ من وَجه آخر صَحِيح عَن بن عَبَّاسٍ ، قَالَ : يُرِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ الْخَطَّابِيُّ : وَقَدْ يُطْلَقُ وَيُرَادُ النَّفْسُ ، وَقَوْلُهُ فِيهِ :"وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً ، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدُ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا" ، ذَكَرَ الْعَلَّامَةُ جَمَالُ الدِّين بْنُ هِشَامٍ فِي الْمُغْنِي أَنَّهُ وَقَعَ فِي الْبُخَارِيِّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ كَيْمَا مُجَرَّدَةً وَلَيْس بَعْدَهَا لَفْظُ يَسْجُدُ ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَكَى عَنِ الْكُوفِيِّينَ : إِنَّ كَيْ نَاصِبَةٌ دَائِمًا ، قَالَ : وَيَرُدُّهُ قَوْلُهُمْ كَيْمَهْ ، كَمَا يَقُولُونَ : لِمَهْ ، وَأَجَابُوا بِأَنَّ التَّقْدِيرَ : كَيْ تَفْعَلَ مَاذَا ، وَيَلْزَمُهُمْ كَثْرَةُ الْحَذْفِ وَإِخْرَاجُ مَا الِاسْتِفْهَامِيَّةُ عَنِ الصَّدْرِ وَحَذْفُ أَلِفِهَا فِي غَيْرِ الْجَرِّ وَحَذْفُ الْفِعْلِ الْمَنْصُوبِ مَعَ بَقَاءِ عَامِلِ النَّصْبِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَثْبُتْ ، نَعَمْ وَقَعَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي تَفْسِيرِ : **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾**«القيامة:٢٢» ، فَيَذْهَبُ كَيْمَا فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا ، أَيْ : كَيْمَا يَسْجُدُ ، وَهُوَ غَرِيبٌ جِدًّا لَا يَحْتَمِلُ الْقِيَاسُ عَلَيْهِ ،انْتَهَى كَلَامُهُ . وَكَأَنَّهُ وَقَعَتْ لَهُ نُسْخَةٌ سَقَطَتْ مِنْهَا هَذِهِ اللَّفْظَةُ ، لَكِنَّهَا ثَابِتَةٌ فِي جَمِيعِ النُّسَخِ الَّتِي وَقَفْتُ عَلَيْهَا حَتَّى أَنَّ بن بَطَّالٍ ذَكَرَهَا بِلَفْظِ : كَيْ يَسْجُدَ بِحَذْفِ مَا ، وَكَلَام بن هِشَامٍ يُوهِمُ أَنَّ الْبُخَارِيَّ أَوْرَدَهُ فِي التَّفْسِيرِ ، وَلَيْس كَذَلِكَ ، بَلْ ذَكَرَهَا هُنَا فَقَطْ ، وَقَوْلُهُ فِيهِ : فَيَعُود ظَهره طبقًا وَاحِدًا" .

وقال محمّد بنُ عزِّ الدِّين عبدِ اللطيف بنِ عبد العزيز بن أمين الدِّين بنِ فِرِشْتَا، الرُّوميُّ الكَرمانيّ، الحنفيُّ، المشهور بـ ابن المَلَك(٨٥٤ هـ) في"شرح مصابيح السُّنَّة للإمام البغوي"(٥/١٥٣-١٥٤) :"قيل الضَّمير فيه لآدمَ: لأنَّ ذريتَه خُلِقُوا على سبعةِ أَطْوَار؛ لأنهم كانوا في مبدأ الفطرة نُطْفَةً،

ثمَّ عَلَقة، ثمَّ مُضْغَة، ثمَّ صارُوا صُوَراً أَجِنَّةً إلى تمام مُدَّةِ الحَمْل، فيُوْلَدُون أطفالاً، وينشؤون صغارًا إلى أن يكبروا، فيتمُّ طولِ أجسامهم، وهذا بخلافِ آدمَ، فإنَّ خَلْقَه لم يكن على هذه، بل أَولَ ما تناولته الخِلْقَة وُجِدَ خَلْقاً تاماً.

"طولُه سِتُّون ذراعاً"، وقيل: الضَّمير عائدٌ إلى الله تعالى لَمِا في رواية أخرى: (خُلِقَ آدمُ على سورة الرَّحْمَن)، والأَوْلَى أن يحالَ المرادُ منه إلى عِلْمِ الله تعالى كما هو مذهبُ السَّلَف، أو يقال: إن الإضافةَ فيها إلى الله تعالى إضافةُ تكريمٍ وتشريفٍ كخلقه تعالى إياه على سورة لا يشاكِلُها صورةٌ أخرى كَمالاً وجَمالاً، ويحتمل أن يكونَ المرادُ من الصُّورة الصِّفة.

"فلمَّا خَلقَه قال: اذهبْ فسلِّمْ على أولئك النَّفَر"؛ أي: الجماعة ..." .

وقال أبو محمَّد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدِّين العينى(٨٥٥هـ) في"عمدة القاري شرح صحيح البخاري"(١٣/ ١١٥-١١٦) :"(بابٌ إِذَا ضَرَبَ الْعَبْدَ فلْيَجْتَنِبِ الوَجْهَ) ، أَي: هَذَا بَاب يذكر فِيهِ: إِذا ضرب الرجل عَبده لأجل التَّأْدِيب، فليجتنب وَجهه إِكْراما لَهُ، قَالَ الْمُهلب: لِأَن الله خلقه بِيَدِهِ. قلت: يَعْنِي: بقدرته الْبَالِغَة الْكَامِلَة، وَسَيَجِيءُ مزِيد الْكَلَام فِيهِ، إِن شَاءَ الله تَعَالَى.

حدَّثنا محمَّد بنُ عُبَيْدِ الله قَالَ حدَّثنا ابنُ وهْبٍ قَالَ حدَّثني مالكُ بنُ أَنَسٍ قَالَ وأخبرَنِي ابنُ فُلانٍ عنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عنْ أَبِيهِ عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله تَعَالَى عنهُ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وحدَّثنا عبْدُ الله بنُ محمَّد قَالَ حدَّثنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ أخبرنَا مَعْمَرٌ عنْ هَمَّامٍ عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله تَعَالَى عنهُ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إذَا قاتَلَ أَحَدُكُمْ فلْيَجْتَنِبِ الوَجْهَ.

مطابقته للتَّرْجَمَة من حَيْثُ إِنَّه إِذا وَجب احتناب الْوَجْه عِنْد الْقِتَال مَعَ الْكَافِر، فاجتناب وَجه العَبْد الْمُؤمن أوجب.

وَأخرج هَذَا الحَدِيث من طَرِيقين:

أَحَدُهُمَا: عَن محمَّد بن عبيد الله أبي ثَابت الْمدنِي، مولى عُثْمَان بن عَفَّان، وَهُوَ من أَفْرَاده، وَابْن وهب هُوَ عبد الله بن وهب. قَوْله: (قَالَ وَأَخْبرنِي ابْن فلَان) ، أَي: قَالَ ابْن وهب: حَدثنِي مَالك

وَابْن فلَان، كِلَاهُمَا عَن سعيد المَقْبُري، قيل: لم يُصَرح باسم ابْن وهب لضَعْفه، قَالَ الْمزي: يُقَال: هُوَ ابْن سمْعَان، يَعْنِي: عبد الله بن زِيَاد بن سُلَيْمَان بن سمْعَان الْمدنِي، وَكَذَا قَالَ أَبُو نصر الكلاباذي وَغَيره، وروى عَن أبي ذَر الْهَرَوِيّ فِي رِوَايَته عَن الْمُسْتَمْلِي، كَذَلِك، وَقد أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ فِي (غرائب مَالك) من طَرِيق عبد الرَّحْمَن بن خرَاش، بِكَسْر الْخَاء الْمُعْجَمَة، عَن البُخَارِيّ قَالَ: حَدثنَا أَبُو ثَابت مُحَمَّد بن عبيد الله الْمدنِي، فَذكر الحَدِيث، لَكِن قَالَ بدل قَوْله ابْن فلَان ابْن سمْعَان، فَكَأَنَّهُ لم يُصَرح باسمه فِي الصَّحِيح، بل كنى بِهِ لأجل ضعفه. وَقَالَ الْكرْمَانِي: وَيُقَال: إِن مَالِكًا كذبه، وَهُوَ أحد المتروكين. قلت: كذبه أَحْمد وَغَيره أَيْضا وَمَاله فِي البُخَارِيّ شيىء إلاَّ هَذَا الْموضع.

الطَّرِيْقُ الثَّانِي: عَن عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد الله الْجعْفِيّ البُخَارِيّ، الْمَعْرُوف بالمسندي عَن عبد الرَّزَّاق بن همام عَن همام بن مُنَبّه الْأَنْبَارِي، وَلم يسق الحَدِيث على لفظ هَذَا الطَّرِيق. وَأخرجه مُسلم من طَرِيق أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة بِلَفْظ: فليتق، بدل: فليتجنب، وَله من طَرِيق الْأَعْرَج عَن أبي هُرَيْرَة بِلَفْظ: إِذا ضرب، وَكَذَا فِي رِوَايَة النَّسَائِيّ من طَرِيق عجلَان، وَلأبي دَاوُد من طَرِيق أبي سَلمَة، كِلَاهُمَا عَن أبي هُرَيْرَة، رَضِي الله تَعَالَى عَنهُ، وَقَالَ بَعضهم: هَذَا يُفِيد على أَن لفظ: قَاتل، بِمَعْنى: قتل، وَأَن المفاعلة لَيست على ظَاهرهَا. قلت: لَا نسلِّم ذَلِك، بل بَاب المفاعلة على حَالهَا ليتناول مَا يَقع عِنْد أهل الْعدْل مَعَ الْبُغَاة، وَعند دفع الصَّائِل، فيجتنبون عِنْد ذَلِك عَن الضَّرْب على الْوَجْه، فَإِذا وَجب الاجتناب فِي مثل هَذَا الْموضع، فَفِي بَاب التَّعْزِير والتأديب وَالْحُدُود بطرِيق الأولى فِي الْوُجُوب، وَقد روى أَبُو دَاوُد وَغَيره فِي حَدِيث أبي بكرَة فِي قصَّة الَّتِي زنت فَأمر رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برجمها، وَقَالَ: إرموا وَاتَّقوا الْوَجْه، فَإِذا كَانَ ذَلِك فِي حق من تعين إهلاكه، فَمن دونه أولى.

وَقَالَ النَّوَوِيّ: قَالَ الْعلمَاء، إِنَّمَا نهى عَن ضرب الْوَجْه لِأَنَّهُ لطيف يجمع المحاسن، وَأَكْثر مَا يَقع الْإِدْرَاك بأعضائه فيخشى من ضربه أَن يبطل أَو يتشوه كلهَا أَو بَعْضهَا، والشين فِيهِ فَاحش لبروزه وظهوره، بل لَا يسلم إِذا ضرب غَالِباً من شين. انْتهى.

وَهَذَا تَعْلِيل حسن، وَلَكِن روى مُسلم، وَفِي رِوَايَته تَعْلِيل آخر، فَإِنَّهُ روى الحَدِيث من طَرِيق أبي أَيُّوب المراعي عَن أبي هُرَيْرَة، وَزَاد: « فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» .

وَاخْتلف فِي مرجع هَذَا الضَّمِير، فَعِنْدَ الْأَكْثَرين: يرجع إِلَى الْمَضْرُوب، وَهَذَا حسن، وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ: أعَاد بَعضهم الضَّمير على الله، متمسِّكاً بِمَا ورد من ذَلِك فِي بعض طرقه أَنَّ الله تَعَالَى خلق آدم على صُورَة الرَّحْمَن، وَأنكر الْمَازرِيّ وَغَيره صِحَة هَذِه الزِّيَادَة ، ثمَّ قَالَ: وعَلى تَقْدِير صِحَّتهَا يحمل على مَا يَلِيق بالباري سُبْحَانَهُ، عزَّ وجلَّ . قيل: كَيفَ يُنكر هَذِه الزِّيَادَة وَقد أخرجهَا ابْن أبي عَاصِم فِي السُّنَّة، وَالطَّبَرَانِيّ من حَدِيث ابْن عمر بِإِسْنَاد رِجَاله ثِقَات، وأخرجها أَيْضاً ابْن أبي عَاصِم من طَرِيق أبي يُوسُف عَن أبي هُرَيْرَة بِلَفْظ يرد التَّأْوِيل الأوَّل؟ قَالَ: من قَاتل فليجتنب الْوَجْه ، فَإِنَّ صُورَة وَجه الْإِنْسَان على صُورَة وَجه الرَّحْمَن، فَإِذا كَانَ الْأَمر كَذَلِك تعيَّن إجراؤه على مَا تقرَّر بَين أهل السُّنَّة من إمراره، كَمَا جَاءَ من غير اعْتِقَاد تَشْبِيه أَو يؤول على مَا يَلِيق بالرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى" .

وقال العيني في"عمدة القاري شرح صحيح البخاري"(٢٢/ ٢٢٩) :"قَوْله: (على صورته) أَي : على صُورَة آدم لِأَنَّهُ أقرب ، أَي: خلقه فِي أوَّل الْأَمر بشراً سويَّاً كَامِل الْخلقَة طَويلاً سِتِّينَ ذِرَاعاً كَمَا هُوَ الْمُشَاهد، بِخِلَاف غَيره فَإِنَّهُ يكون أَوَّلاً نُطْفَة ثمَّ علقة ثمَّ مُضْغَة ثمَّ جَنِيناً ثمَّ طفْلاً ثمَّ رجلاً حتَّى يتم طوله فَلهُ أطوار، وَقَالَ ابْن بطَّال: أَفَادَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بذلك إِبْطَال قَول الدَّهريَّة: إِنَّه لم يكن قطّ إِنْسَان إلاَّ من نُطْفَة، وَلَا نُطْفَة إلاَّ من إِنْسَان، وَقَول الْقَدَرِيَّة: إِنَّ صِفَات آدم على نَوْعَيْنِ: مَا خلقهَا الله تَعَالَى وَمَا خلقهَا آدم بِنَفسِهِ، قَالَ: وَقيل: إِنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مرَّ بِرَجُل يضْرب عَبده فِي وَجهه لطماً فزجره عَن ذَلِك، وَقَالَ: خلق الله آدم على صورته، فالهاء كِنَايَة عَن الْمَضْرُوب وَجهه، قَالَ: وَقد يُقَال: هُوَ عَائِد إِلَى الله تَعَالَى، لَكِن الصُّورة هِيَ الْهَيْئَة وَذَلِكَ لَا يَصحّ إلاَّ على الْأَجْسَام، فَمَعْنَى الصُّورة الصِّفة كَمَا يُقَال: عرفني صُورَة هَذَا الْأَمر ، أَي: صفته، يَعْنِي: خلق آدم على صفته ، أَي : حَيَّاً عَالماً سميعاً بَصيرًا متكلِّماً، أَو هُوَ إِضَافَة تشريفية نَحْو: بَيت الله وروح الله، لِأَنَّهُ ابتدأها لَا على مِثَال سَابق بل بمحض الاختراع فشرفها بِالْإِضَافَة إِلَيْهِ ..." .

وقال العيني في"عمدة القاري شرح صحيح البخاري"(١٢٥/٢٥) :"قَوْله: فِي صورته أَي: فِي صفته أَي: يتجلَّى لَهُم الله على الصِّفة الَّتِي عرفوه بهَا، وَقَالَ ابْن التِّين: اخْتلف فِي معنى الصُّورَة، فَقيل: صُورَة اعْتِقَاد كَمَا تَقول: صُورَة اعتقادي فِي هَذَا الْأَمر، فَالْمَعْنى يرونه على مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ من الصِّفَات، وَقَالَ ابْن قُتَيْبَة: لله صُورَة لَا كالصُّور ، كَمَا أَنَّه شَيْء لَا كالأشياء، فَأثْبت لله صُورَة قديمَة، وَقَالَ ابْن فورك: وَهَذَا جهل من قَائِله، وَقَالَ الدَّاوديّ: إِن كَانَت الصُّورة مَحْفُوظَة فَيحْتَمل أَن يكون المُرَاد صُورَة الْأَمر وَالْحَال الَّذِي يَأْتِي فِيهِ، وَقَالَ الْمُهلَّب: أَمَّا قَوْلهم :" فَإِذا جَاءَ ربّنا عَرفْنَاهُ " ، فإِنَّمَا ذَلِك أَنَّ الله تَعَالَى يبْعَث إِلَيْهِم ملكاً ليفتنهم ويختبرهم فِي اعْتِقَاد صِفَات ربّهم الَّذِي لَيْسَ كمثله شَيْء، فَإِذا قَالَ لَهُم الْملك: أَنا ربُّكُم، رَأَوْا عَلَيْهِ دَلِيل الْخلقَة الَّتِي تشبه الْمَخْلُوقَات ، فَيَقُولُونَ : هَذَا مَكَاننَا حتَّى يأتينا رَبُّنَا، فَإِذا جَاءَنَا عرفنَا ، أَي: إِنَّك لست ربّنا فيأيتهم الله فِي صورته الَّتِي يعْرفُونَ ، أَي: يظْهر إِلَيْهِم فِي ملكه الَّذِي لَا يَنْبَغِي لغيره، وعظمته الَّتِي لَا تشبه شَيْئاً من مخلوقاته ، فيعرفون أَنَّ ذَلِك الْجلَال وَالْعَظَمَة لَا يكون لغيره، فَيَقُولُونَ: أَنْت ربّنا الَّذِي لَا يشبهك شَيْء، فالصُّورة يعبّر بهَا عَن حَقِيقَة الشَّيْء" .

وقال أحمد بن إسماعيل بن عثمان بن محمَّد الكوراني الشَّافعي ثمَّ الحنفي(٨٩٣هـ) في"الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري"(١٠/ ٥-٦) :"الضَّمير في:"صورته" عائد إلى آدم؛ لأَنَّه أقرب مذكور. والمعنى أنَّه خلقه على هذه الحالة والصِّفة طوله سِتُّون ذراعًا لا على طريقة النَّاس بأن يكون أوَّلًا طفلًا ثمَّ ينشأ ويكبُر.

فإن قلت: قد روى مسلم أنَّ إنسانًا ضرب غلامه في وجهه فقال:"لا يضرب على وجهه ، فإنَّ الله خلق آدم على صورته" ، أي: على صورة المضروب. قلت: المعنى ما ذكرنا ، فإنَّ المضروب لمَّا كان شبيهًا بآدم والوجه أشرف الأعضاء فيجب إكرامه. ومن النَّاس من يجعل الضَّمير لله ، وهو وإن كان مخالفًا لما ذكرناه من قانون العربيَّة من رجوع الضَّمير إلى أقرب المذكورين ، لا دليل فيه للمجسِّمة ، لأنَّ الصُّورة يطلق على الصِّفة بلا خفاء في العرف العام ، كما تقول: صورة المسألة كذا ،

مع كون المعنى الحقيقي محالًا ، والذي حمل هؤلاء على هذا ما ورد في بعض طرق الحديث:"إنَّ آدم خُلق على صورة الرَّحْمَن .

فإن قلت: ما المُراد بالصِّفة؟ قلت: العلم وسائر الصِّفات والشّبه في أصل المعنى، فإن كانت صفاته تعالى لا تشبه صفات المخلوق ، "اذهب فسلِّم على أولئك النفر من الملائكة" النَّفر من الثَّلاثة إلى العشرة من الرِّجال خاصَّة، والظَّاهر أنَّه أُريد به مطلق الجماعة، أو كانوا دون العشرة، والله أعلم بذلك ."فقالوا: السَّلام عليك ورحمة الله" زادوه رحمة الله ، عملًا بقوله تعالى: **﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾**﴿النساء: ٨٦﴾.

فإن قلت: السَّلام عليك ليس جوابًا للسَّلام ، قلت: جواب، ألا ترى إلى أنَّ قول الخليل لما: **﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾**﴿هود: ٦٩﴾. واعلم أنَّ ابتداء السَّلام سُنَّة من الكفاية وهذا من الغرائب لأنَّ الابتداء مع كونه سُنَّة أفضل من الرَّدِّ مع كونه فرضًا ، والأفضل الابتداء من الجميع وكذا الرَّدُّ، وإن كان الذي سلَّم واحدٌ فالأحسن الرَّدُّ عليه بلفظ الجمع ليكون سلامًا عليه وعلى من معه من الملائكة "فكل من يدخل الجنَّة على صورة آدم" ، أي: طوله مثلُ طوله سواء كان مات طفلًا أو شيخًا. "فلم يزل الخلق بعد حتَّى الآن" ولفظ حتَّى دلَّ على أنَّ النُّقصان قد انتهى فلا نقصان في هذه الأمَّة".

وقال السُّيوطي(٩١١) في"الدِّيباج على صحيح مسلم بن الحجَّاج"(٥٨/١) وبحاشيته : الحلُّ المفهم لصحيح مسلم :"خلق آدم على صورته"، هذا من أحاديث الصِّفات التي يؤمن بها ويمسك عن الخوض فيها أو تؤوَّل بحسب ما يليق بتنزيه الله تعالى ، وأحسن ما قيل في تأويله : أنَّ الإضافة للتَّشريف كـ **﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾** ، وبيت الله ، أي : الصُّورة التي اختارها لآدم".

وقال السُّيوطي في"الدِّيباج على صحيح مسلم بن الحجَّاج"(١/ ٢٣٢) :"فيأتيهم الله إِلَى آخِره ، هَذَا من أَحَادِيث الصِّفات ، فإمَّا أَن يُوقف عَن الْخَوْض فِي مَعْنَاهُ ويعتقد لَهُ معنى يَلِيق بِجلَال الله تَعَالَى مَعَ الْجَزْم بِأَنَّ الله تَعَالَى لَيْسَ كمثله شَيْء وَأَنَّه منزَّه عَن التَّجسيم والانتقال والتَّحيُّز فِي جِهَة وَعَن سَائِر صِفَات المخلوقين ، أَو يؤوَّل على مَا يَلِيق بِهِ ، فَيجْعَل الْإِتْيَان عبارَة عَن رُؤْيَتهمْ إِيَّاه ، وَلِأَنَّ الْعَادة أَنَّ من غَابَ عَن غَيره لَا يُمكنهُ رُؤْيَته إِلَّا بالإتيان ، وَقيل : الْمُرَاد يَأْتِيهم بعض مَلَائِكَته .

قَالَ القَاضِي : وَهَذَا الْوَجْه أشبه عِنْدِي بِالْحَدِيثِ ، قَالَ : وَيكون هَذَا الْملك الَّذِي جَاءَهُم فِي الصُّورة الَّتِي أنكروها من سمات الْحُدُوث الظَّاهِرَة على الْملك الْمَخْلُوق ، قَالَ : أَو يكون مَعْنَاهُ : يَأْتِيهم الله بِصُورَة وَيظْهر لَهُم فِي صُورَة مَلَائِكَته ومخلوقاته الَّتِي لَا تشبه صِفَات الْإِلَه ليختبرهم ، وَهَذَا آخر امتحان للْمُؤْمنين . فَإِذا قَالَ لَهُم هَذَا الْملك أَو هَذِه الصُّورة : أَنا ربُّكُم وَعَلَيهِ من عَلامَة الْمَخْلُوق مَا ينكرونه ويعلمون بِهِ أَنَّه لَيْسَ ربّهم استعاذوا بِاللهِّ مِنْهُ .

وَأَمَّا قَوْله : "فيأتيهم الله فِي صورته الَّتِي يعْرفُونَ" ، فَالْمُرَاد : الَّتِي يعلمونها ويعرفونه بهَا ، وإنَّما عرفوه بِصفتِهِ وَإِن لم تكن تقدَّمت لَهُم رُؤْيَة لَهُ سُبْحَانَهُ ، لأَنَّهم يرونه لَا يشبه شَيْئاً من مخلوقاته ، فيعلمون أَنَّه ربّهم ، وإنَّما عبَّر عَن الصِّفة بالصُّورة لمجانسة الْكَلَام ، فَإِنَّهُ تقدَّم ذكر الصُّورة فيتبعونه ، أَي : يتبعُون أمره إِيَّاهُم بذهابهم إِلَى الجنَّة أَو مَلَائِكَته الَّذين يذهبون بهم إِلَى الجنَّة بَين ظَهْري جَهَنَّم" .

وقال السُّيوطي في"التَّوشيح شرح الجامع الصَّحيح"(٨/ ٣٧-٣٩) :" (خلق الله آدم على صورته)، قيل: الضَّمير لآدم، أي: على الصُّورة التي استمرَّ عليها إلى أن أهبط وإلى أن مات دفعًا لتوهُّم من يظن أنَّه كان في الجنَّة على صفة أخرى.

وقيل: لله، والمراد بالصُّورة الصِّفة من: العلم، والحياة، والسَّمع، والبصر، وإن كانت صفاته تعالى لا يشبهها شيء.

وقيل: الضَّمير للعبد المحذوف من السِّياق، وأنَّ سبب الحديث:"أنَّ رجلًا ضرب عبده، فنهاه عن ذلك، وقال: إنَّ الله خلق آدم على صورته".

"يحيونك" : من التَّحية، لأبي ذر:"يجيبونك" من الجواب".

وقال أحمد بن محمَّد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العبَّاس، شهاب الدِّين(٩٢٣هـ) في"إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري"(٥/ ٣١٩-٣٢٠) :"(خلق الله) عزَّ وجلَّ (آدم) عليه الصَّلاة والسَّلام ، زاد عبد الرزَّاق عن معمر على صورته ، والضَّمير لآدم ، أي : أنَّ الله أوجده على الهيئة التي خلقه الله عليها ، لم ينتقل في النِّساء أحوالاً ، ولا تردَّد في الأرحام

أطوارًا ، بل خلقه كاملاً سويًّاً، وعورض هذا التَّفسير بقوله في حديث آخر خلق آدم على صورة الرَّحْمَن ، وهي إضافة تشريف وتكريم ، لأنَّ الله تعالى خلقه على صورة لم يشاكلها شيء من الصُّور في الكمال والجمال (وطوله ستون ذراعًا) بقدر ذراع نفسه أو بقدر الذِّراع المتعارف يومئذ عند المخاطبين، ورجَّح الأوَّل بأنَّ ذراع كلّ أحد مثل ربعه ، فلو كان بالذِّراع المعهود لكانت يده قصيرة في جنب طول جسده، وزاد أحمد من حديث سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة مرفوعًا في سبعة أذرع عرضًا (ثمَّ قال) تعالى له (اذهب فسلِّم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيُّونك) من التَّحيَّة وهذه (تحيَّتك وتحيَّة ذرِّيتك) من بعدك.

وفي التِّرمذي (٥/ ٣١٢ برقم ٣٣٦٨) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ : لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ، فَحَمِدَ اللهَ بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: رَحِمَكَ اللهُ يَا آدَمُ . الحديث إلى قوله: اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ الْمَلاَئِكَةِ ، إِلَى مَلَإٍ مِنْهُمْ جُلُوسٍ ، (فقال السَّلام عليكم. فقالوا: السَّلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله) ، وهذا أوَّل مشروعيَّة السَّلام وتخصيصه بالذِّكر ، لأنَّه فتح لباب المودَّة وتأليف لقلوب الإخوان المؤدِّي إلى استكمال الإيمان ، كما في حديث مسلم (١/ ٧٤ برقم ٥٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوْعَاً : «لَا تَدْخُلُونَ الجنَّة حتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ» .

(فكلُّ من يدخل الجنَّة) يدخلها وهو (على صورة آدم) عليه السَّلام في الحسن والجمال والطُّول ولا يدخلها على صورته من السَّواد أو بوصف من العاهات (فلم يزل الخلق ينقص) في الجمال والطُّول (حتَّى الآن) فانتهى التَّناقص إلى هذه الأمَّة ، فإذا دخلوا الجنَّة عادوا إلى ما كان عليه آدم من الجمال وطول القامة.

وفي كتاب : "مثير الغرام في زيارة القدس والخليل عليه السَّلام " لتاج الدِّين التَّدمري ممَّا نقله عن ابن قتيبة في المعارف: أنَّ آدم عليه السَّلام كان أمرد ، وإنَّما نبتت اللحية لولده بعده ، وكان طوالاً كثير الشَّعر جعدًا أجمل البريَّة.

وحديث الباب أخرجه أيضًا في الاستئذان ، ومسلم في صفة الجنَّة ، وصحَّحه ابن حبَّان ، ورواه البزَّار والتِّرمذي والنَّسائي حديث سعيد المقبري وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوْعَاً : " إِنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ طِينًا، ثُمَّ تَرَكَهُ حتَّى إِذَا كَانَ حَمَأً مَسْنُونًا، خَلْقَهُ وَصَوَّرَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ حتَّى إِذَا كَانَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ، قَالَ: " فَكَانَ إِبْلِيسُ يَمُرُّ بِهِ، فَيَقُولُ: لَقَدْ خُلِقْتَ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ نَفَخَ اللهُّ فِيهِ رُوحَهُ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ جَرَى فِيهِ الرُّوحُ بَصَرُهُ وَخَيَاشِيمُهُ، فَعَطَسَ فَلَقَّاهُ اللهُّ حَمْدَ رَبِّهِ، فَقَالَ الرَّبُّ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ ... " الحديث. أخرجه أبو يعلى في المسند (١١/ ٤٥٣ برقم ٦٥٨٠).

وفي حديث أبي موسى أخرجه أبو داود(٤/ ٢٢٢ برقم ٤٦٩٣) وصحَّحه ابن حبَّان (١٤/ ٢٩ برقم ٦١٦٠) مرفوعًا: «إِنَّ اللهَّ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ...» ، ففي هذا أنَّ الله تعالى لَمَّا أراد إبراز آدم من العدم إلى الوجود قلبه في ستَّة أطوار: طور التُّراب ، وطور الطِّين اللازب ، وطور الحمأ ، وطور الصَّلصال ، وطور التَّسوية ، وهو جعل الخزقة التي هي الصَّلصال عظمًا ولحمًا ودمًا ثمَّ نفخ فيه الرُّوح، وقد خلق الله تعالى الإنسان على أربعة أضرب: إنسان من غير أب ولا أم وهو آدم، وإنسان من أب لا غير وهو حواء، وإنسان من أمٍّ لا غير وهو عيسى، وإنسان من أب وأمٍّ ، وهو الذي خلق من ماء دافق يخرج من بين الصُّلب والتَّرائب ، يعني من صلب الأب وترائب الأمِّ، وهذا الضّرب يتمُّ بعد ستَّة أطوار أيضًا. النَّطفة ثمَّ العلقة، ثمَّ المضعة، ثمَّ العظام، ثمَّ كسوة العظام لحمًا، ثمَّ نفخ الرُّوح فيه، وقد شرَّف الله تعالى هذا الإنسان على سائر المخلوقات فهو صفوة العالم وخلاصته وثمرته ، قال الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾**﴿الإسراء: ٧٠﴾ ، **﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾**﴿الجاثية: ١٣﴾ ".

وقال القسطلاني في"إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري"(٩/ ١٣٠) :"... وإنَّ أوَّله قصَّة الذي ضرب عبده فنهاه النَّبي صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم عن ذلك وقال له:"إنَّ الله خلق آدم على صورته"... وللبخاري في الأدب المفرد ، وأحمد من طريق ابن عجلان عن سعيد عن أبي هريرة مرفوعًا:"لا يقولن قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فإنَّ الله خلق آدم على صورته"، وهو ظاهر في عود الضَّمير على المقول له ذلك، وقيل الضَّمير لله لما في بعض الطُّرق على صورة الرَّحْمَن ،

أي : على صفته من العلم والحياة والسَّمع والبصر ، وغير ذلك، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء .

وقال التُّوربشتي: وأهل الحقِّ في ذلك طبقتين.

إحداهما : المتنزِّهون عن التَّأويل مع نفي التَّشبيه ، وإحالة العلم إلى علم الله تعالى الذي أحاط بكلِّ شيء علمًا ، وهذا أسلم الطَّريقتين.

والطَّبقة الأخرى يرون الإضافة فيها إضافة تكريم وتشريف ، وذلك أنَّ الله تعالى خلق آدم على صورة لم يشاكلها شيء من الصُّور في الجمال والكمال وكثرة ما احتوت عليه من الفوائد الجليلة.

وقال الطِّيبي: تأويل الخطَّابي في هذا المقام حسن يجب المصير إليه ، لأنَّ قوله :"طوله"، بيان لقوله :"على صورته" ، كأنَّه قيل خلق آدم على ما عرف من صورته الحسنة وهيئته من الجمال والكمال وطول القامة، وإنَّما خصَّ الطُّول منها ، لأنَّه لم يكن متعارفًا بين النَّاس .

وقال القرطبي: كأنَّ من رواه على صورة الرَّحْمَن أورده بالمعنى متمسّكًا بما توهَّمه فغلط في ذلك، وقوله :"ستُّون ذراعًا"، يحتمل أن يريد بقدر ذراع نفسه أو الذِّراع المتعارف يومئذ عند المخاطبين ، والأوَّل أظهر ، لأنَّ ذراع كلّ أحد ربعه، فلو كان بالذِّراع المعهود كانت يده قصيرة في جنب طول جسده" .

وقال القسطلاني في"إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري"(١٠/٤٠٠) :"(في صورته التي يعرفون) ، أي : التي هو عليها من التَّعالي عن صفات الحدوث بعد أن عرَّفهم بنفسه المقدَّسة ، ورفع عن أبصارهم الموانع . وقال في المصابيح: في صورته التي يعرفون ، أي : في علامة جعلها الله دليلاً على معرفته والتَّفرقة بينه وبين مخلوقاته ، فسمَّى الدَّليل والعلامة صورة مجازًا ، كما تقول العرب: صورة أمرك كذا ، وصورة حديثك كذا، والأمر والحديث لا صورة لهما ، وإنَّما يريدون حقيقة أمرك وحديثك ، وكثيرًا ما يجري على ألسنة الفقهاء صورة هذه المسألة كذا".

وقال شمس الدِّين، محمَّد بن أحمد الخطيب الشَّربيني الشَّافعي(٩٧٧هـ) في"السِّراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربّنا الحكيم الخبير"(٤/٥٥٨) :"قال ابن العربي: ليس لله تعالى

خلق أحسن من الإنسان، فإنَّ الله تعالى خلقه حيَّاً عالماً قادراً مريداً متكلِّماً سميعاً بصيراً مدبِّراً حكيماً ، وهذه صفات الله تعالى ، وعبَّر عنها بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: «إن الله تعالى خلق آدم على صورته» يعني: على صفاته المتقدِّم ذكرها.

وفي رواية : على صورة الرَّحْمَن ، ومن أين يكون للرحمن صورة شخصية فلم تكن إلا معاني. وروي أنّ عيسى بن يوسف الهاشميّ كان يحب زوجته حباً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقتني فبات بليلة عظيمة فلما أصبح غدا إلى دار المنصور فأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستشارهم، فقال جميع من حضر قد طلقت إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة فإنه كان ساكتاً، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم، فقال الرجل: بسم الله الرَّحْمَن الرحيم **﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾** إلى قوله تعالى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** يا أمير المؤمنين فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه، فقال المنصور لعيسى: الأمر كما قال الرَّجل ، فأقبل على زوجتك، فأرسل المنصور إليها أطيعي زوجك فما طلَّقك. وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان أحسن خلق الله تعالى ، ولذلك قيل: إنَّه العالم الأصغر ، إذ كلّ ما في المخلوقات اجتمع فيه".

وقال عبد الحق بن سيف الدِّين بن سعد اللهَّ البخاري الدِّهلوي الحنفي(١٠٥٢ هـ) في"لمعات التَّنقيح في شرح مشكاة المصابيح"(٦/ ٣٣٥-٣٣٦) :"وقوله: (فإنَّ اللهَّ خلق آدم على صورته) اختلفوا في بيان معنى هذا الكلام، فقيل: إنَّ الضَّمير راجع إلى آدم عليه السَّلام، إمَّا بمعنى أنَّه خُلق على صورته التي كان عليها من مبدأ فطرته إلى منقرض عمره ، بخلاف سائر النَّاس، وإمَّا بمعنى أنَّه خُلق على صورة وحالّ مختصّ به لا يشاركه نوع آخر من المخلوقات ، يتطوَّر ، وينقلب في أحوال مختلفة ، والكمال والنُّقصان والتَّرقي والتَّنزُّل من خصيص البهيمة إلى ذروة الملائكة، وإمَّا بمعنى أنَّه تعالى اخترع صورته لم يتقدَّم مثلها، وسائر المخلوقات لها مثال وشبه، وآدم خلق على صورة بديعة عجيبة لم يشبه شيئًا.

وقيل: الضَّمير راجع إلى المضروب، وقد جاء أنَّ أحدًا كان يضرب أخاه على وجهه فنهاه رسول اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم عن ذلك، وقال: وعلَّله بأنَّ اللهَّ خلقَ آدمَ على صورته.

وقيل: الضَّمير للهَّ سبحانه؛ فإنَّه قد جاء في رواية: إنَّ اللهَّ خلقَه على صورةِ الرَّحْمَن، وقد تُكُلِّم في صحَّة هذه الرِّواية، ولفظه لا يخلو عن ركاكة، واللهَّ أعلم. ولا يجوز إجراؤه على الظَّاهر.

وقد أخطأ فيه بعض المحدِّثين وذهب مذهبَ المجسِّمة وإن كانوا يقولون: اللهَّ جسم ليس كالأجسام ، وله صورة ليست كالصُّور، فإنَّهم إن أرادوا به حقيقة الصُّورة المركَّبة لكن صورة تباين سائر الصُّور فذاك، وإن أرادوا أنَّا نعتقد أنَّ له صورة ولا نعرف كُنهَ ما أراد به ، كاليد والعين كما هو مذهب من لم يؤوِّلها ويفوّض علمه إلى اللهَّ ، فذاك مذهب المتقدِّمين من السَّلف، لكن لا يعقل خلق آدم عليها كما لا يخفى، فافهم.

وقيل: إضافة الصُّورة إلى اللهَّ من جهة التَّشريف والتَّكريم كما في بيت اللهَّ وروح اللهَّ، أو من جهة أنَّ المراد صورة اجتباها واختارها حيث جعلها نسخة لجميع مخلوقاته.

والحقُّ أنَّ المراد بـ(صورة): الصِّفة كما يقال: صورة المسألة كذا، وصورة الحال كذا؛ فإنَّه سبحانه وتعالى جعل آدم مظهرًا لصفاته وكمالاته، لا بمعنى أنَّه أدخل فيه صفاته العليَّة وكمالاته الغير المتناهية، بل جعله متَّصفًا بمعانٍ يشبه ويماثل صفاته لا من كل الوجوه بل بشيء مماثل لها من حيث الصُّورة والمجاز وبادئ النَّظر، وجعله مستعدًّا لأن يتخلَّق بأخلاقه بالمعنى المذكور، هذا ولكن لا يلائم شيء من هذه الوجوه سياق الكلام النَّاطق بالنَّهي عن ضرب وجه الإنسان من بين بقيَّة أجزائه، بل يصلح أن يجعل علَّة للنَّهي عن ضربه مطلقًا، اللهمَّ إلَّا أن يضمر ههنا مقدِّمة، وهي وجهه أشرف أجزائه، فحاصله أنَّ الإنسان أشرف أجناس المخلوقات، ووجهه أشرف أنواع أعضائه، فليجتنب ضربه، وقد يقال: إنَّ الضَّمير راجع إلى الوجه بمعنى أنَّ اللهَّ خلق آدم مشتملًا على صورة الوجه المشرف المكرم بإبداعه فيه المحاسن والحواس؛ فلا ينبغي أن يضرب، ولا يخلو عن تكلُّف، واللهَّ أعلم".

وقال عبد الحق الدِّهلوي الحنفي في"لمعات التَّنقيح في شرح مشكاة المصابيح"(٨/٨-٩) :"قوله: (خلق اللهَّ آدم على صورته) اختلف العلماء، فمنهم من أمسك عن تأويله، قال: هو من حديث الصِّفات فتمسك عن تأويلها، ومنهم من أوَّله فقال: الصُّورة بمعنى الصِّفة كما يقال: صورة المسألة هكذا، أي: خلقه مظهرًا لصفاته وجعله موصوفًا بصفات هي آثار صفاته الكريمة، أو الإضافة للتَّشريف، كبيت اللهَّ وروح اللهَّ، وقيل: الضَّمير لآدم، أي: خلقه أوَّل أمره بشرًا سويًّا بطول ستِّين، لا كغيره نطفة في الأطوار فصبيًّا فرجلًا، أو على صورته التي لا يشاركه فيها نوع آخر من الحيوانات؛ فإنَّه يوصف مرَّة بالعلم، ومرَّة بالجهل، ومرَّة بالاجتباء، ومرَّة بالعصيان، والظَّاهر أنَّ الصُّورة على هذا الوجه بمعنى الصِّفة، أو على الصُّورة الخاصَّة التي أبدعها، وجعلها نسخة جامعة من جملة المخلوقات، إذ ما من مخلوق إلَّا وله مثال في صورته، ولهذا قيل: هو عالم صغيرٌ.

ويمكن أن تكون الصُّورة على هذا التَّقدير أيضًا بمعنى الصِّفة، يعني خلقه على صفات جامعة لصفات العالم كلِّه، أو الصُّورة بمعنى الأمر والشَّأن في كونه مسجود الملائكة، مالكًا للحيوانات، مسخَّرًا لها، وقيل: الضَّمير للأخ في قوله: (إذا ضرب أحدكم أخاه فليجتنب الوجه) .

وجاء في رواية أخرى: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّم رأى رجلًا يضرب وجه غلام، فقال: (لا تضرب الوجه؛ فإنَّ اللهَّ تعالى خلق آدم على صورته)، كأنَّه قيل : هذا المضروب من أولاد آدم ، فاجتنبوا ضرب أشرف أجزائه؛ إذ أكثر الحواس فيه، ويضعف هذين الوجهين أنَّه قد جاء في حديث آخر: (خلق آدم على صورة الرَّحْمَن)، وقيل: لم يثبت هذا عند المحدِّثين، واللهَّ أعلم.

وقوله: (طوله ستُّون ذراعًا) أي: هذا أنسب بجعل الضَّمير (لآدم) المفيد لكونه مخلوقًا من أوَّل أمره كما هو، فيكون كالبيان لخلقه على صورته، وأمَّا على تقدير كون الضَّمير للهَّ يكون بيانًا لوصف آخر له بعد ذكر كونه مخلوقًا على صفته تعالى، وأمَّا على تقدير كون الضَّمير للأخ؛ فلا يخلو ربطه بما قبله عن بعد، وإنَّما خص بيان الطُّول بالذكر لكونه ممَّا لا يتعارف بخلاف سائر صفاته التي كانت عليها" .

وقال محمَّد بن علَّان الصدِّيقي الشَّافعي الأشعري المكِّي(١٠٥٧هـ) في"الفتوحات الرَّبَّانيَّة على الأذكار النَّواويَّة"(٥/ ٢٧١-٢٧٣) :" قوله: (خلق الله آدم على صورته) قال المصنِّف: هذا من أحاديث الصِّفات وفيه للعلماء طريقان:

فالأوَّل: يمسك عن تأويلها ويقال: نؤمن بها حقًّا وأن ظاهرها غير مراد ولها معنى يليق بها وهذا مذهب جمهور السَّلف وهو أحوط وأسلم .

والثَّاني: أن يؤوَّل على حسب ما يليق بتنزيه الله تعالى ، وأنَّه ليس كمثله شيء، قلت : وقد سبق في باب : ما يقول إذا قام من الليل بسط لهذا المعنى في حديث ينزل ربُّنا إلى سماء الدُّنيا .

واختلف العلماء في تأويل هذا الحديث ، فقالت طائفة : الضَّمير: يعود على آدم، قال المصنِّف: وهذه الرِّواية ظاهرة في ذلك ، والمعنى أنَّه تعالى خلق آدم في أوَّل نشأته على صورته التي كان عليها في الجنَّة وهي صورته في الأرض لم يتغيَّر ، أي : لم يتطوَّر من النُّطفة إلى العلقة الخ، بل أوجده هكذا ابتداء ولم يتغيَّر عن صورته حال نزوله إلى الأرض بل استمرَّ على صورته التي كان عليها في الجنَّة وهو في الأرض، قال التُّوربشتي: هذا كلام صحيح في موضعه ، فأمَّا في تأويل هذا الحديث ، فإنَّه غير سديد لما في حديث آخر خلق آدم على صورة الرَّحْمَن ، ولما في غير هذه الرِّواية أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رأى رجلًا يضرب وجه غلام ،فقام فقال:"لا تضرب الوجه ، فإنَّ الله خلق آدم على صورته" ، فالمعنى الذي ذهب إليه هذا المؤوِّل لا يلائم هذا القول ، وأهل الحق في ذلك على طبقتين :

إِحْدَاهُمَا : المنزِّهون عن التَّأويل مع نفي التَّشبيه الخ .

وَالطَّبَقَةُ الأُخْرَى : يرون الإضافة فيها إضافة تكريم وتشريف ، أي : كقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ ، وكما يقال: الكعبة بيت الله ، وذلك أنَّ الله تعالى خلق آدم أبا البشر على صورة لم يشاكلها شيء من الصُّور في الجمال والكمال وكثرة ما احتوت عليه من الفوائد الجليلة ، فاستحقَّت الصُّورة البشريَّة أن تكرَّم ولا تهان اتِّباعًا لسنَّة الله تعالى فيها ، وتكريمًا لما كرَّمه اهـ.

وقال القرطبي: لو سلَّمنا أنَّ الضَّمير عائد على الله تعالى فالتَّأويل فيه وجه صحيح ، هو أنَّ الصُّورة قد تطلق بمعنى الصِّفة ، ومنه : صورة المسألة ، أي : صفتها ، فيكون معنى الخبر : إنَّ الله خلق آدم على صورته ، أي : خلقه موصوفًا بالعلم الذي فصل به بينه وبين جميع الحيوانات ، وخصَّه منه بما لم يخص به أحدًا من ملائكة الأرضين والسَّموات اهـ.

وفي التَّوشيح بناء على كون الضَّمير لله ، المراد بالصُّورة الصِّفة من الحياة والعلم والسَّمع والبصر ، وإن كانت صفاته تعالى لا يشبهها شيء اهـ.

وقيل المراد منه الكناية عن صورة الكمال ، كما أشار إليه العاقولي .

وقيل: الضَّمير للعبد المحذوف من السِّياق ، لما تقدَّم في سبب الحديث من أنَّ رجلًا ضرب وجه غلام الخ، قال ابن جماعة : ومن قال بأنَّ لله تعالى صورة خلق آدم عليها فمردود عليه لما فيه من التَّجسيم ، وكذا من قال: صورة لا كالصُّور ، أي : كابن قتيبة ، وقد ردَّ عليه ذلك المصنِّف نقلًا عن المازري ، والله أعلم" .

وقال علي بن الشَّيخ أحمد بن الشَّيخ نور الدِّين بن محمَّد بن الشَّيخ إبراهيم الشَّهير بالعزيزي(١٠٧٠هـ) في"السِّراج المنير شرح الجامع الصَّغير في حديث البشير النَّذير"(٣/ ١٢٠) :" (خلق الله آدم على صورته) ، أي : على صورة آدم التي كان عليها من مبدأ فطرته إلى موته لم تتفاوت قامته ، ولم تتغيَّر هيئته ، وقيل : الضَّمير لله ، وتمسك قائله بما في بعض طرقه على صورة الرَّحْمَن ، والمراد الصُّورة الصِّفة ، والمعنى : أنَّ الله خلقه على صفته من العلم والحياة والسَّمع والبصر وغير ذلك ، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء.

(وطوله ستُّون ذراعاً) بذراع نفسه أو الذِّراع المتعارف ، ولم ينتقل أطواراً كذريَّته.

(ثمَّ قال) له: (اذهب فسلِّم على أولئك النَّفر ، وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع) في رواية فاسمع (ما يحيُّونك) بالحاء المهملة من التَّحيَّة ، وفي رواية بكسر الجيم وسكون التِّحتانيَّة بعده موحَّدة من الجواب ، (فإنَّها تحيَّتك وتحيَّة ذريَّتك) من جهة الشَّرع ، وأراد بالذريَّة بعضهم وهم المسلمون.

(فذهب فقال: السَّلام عليكم) يحتمل أن يكون الله تعالى علَّمه كيفيَّة ذلك تنصيصاً ، ويحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله : "فسلِّم" ، ويحتمل أن يكون ألهمه ذلك .

(فقالوا : السَّلام عليك ورحمة الله) ، وهذا أوَّل مشروعيَّة السَّلام.

(فزادوه) ، أي : آدم (ورحمة الله) ، فلو زاد المبتدي ورحمة الله استحبّ أن يزاد وبركاته ، فلو زاد وبركاته فحاصل ما في الفتح أنَّه تشرع الزِّيادة على وبركاته.

(فكلُّ من يدخل الجنَّة من بني آدم على صورة آدم) ، أي : على صفته في الحسن والجمال والطُّول ، ولا يدخلها على صورة نفسه من نحو سواد أو عاهة.

(طوله ستُّون ذراعاً) ، وعند أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً : كان طول آدم ستِّين ذراعاً في سبعة أذرع عرضاً.

(فلم يزل الخلق ينقص بعده) في الجمال والطُّول.

(حتَّى الآن) ، أي : أنَّ كلّ قرن تكون نشأته في الطذُول أقصر من الذي قبله ، فانتهى تناقص الطُّول إلى هذه الأمَّة واستقر الأمر على ذلك ، فإذا دخلوا الجنَّة عادوا إلى ما كان عليه آدم من الجمال وامتداد القامة ".

وقال علي بن (سلطان) محمَّد، أبو الحسن نور الدِّين الملا الهروي القارّي(١٠١٤هـ) في"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح"(٦/٢٣٠٢-٢٣٠٤) :" (وَعَنْهُ) : أَيْ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ) : أَيْ: ضَارَبَ غَيْرَهُ (فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ) : أَيْ: فَلْيَحْتَرِزْ عَنْ ضَرْبِ الْوَجْهِ، قِيلَ: الْأَمْرُ لِلنَّدْبِ ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَ حَالِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ قِتَالُهُ مَعَ الْكُفَّارِ، وَالضَّرْبُ فِي وُجُوهِهِمْ أَنْجَحُ لِلْمَقْصُودِ وَأَرْجَحُ لِلْمَرْدُودِ.

(فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ) : أَيْ: صُورَةِ الْوَجْهِ، لِأَنَّهُ أَشْرَفُ أَعْضَائِهِ وَمَعْدِنُ جَمَالِهِ وَمَنْبَعُ حَوَاسِّهِ، فَلَا تُغَيِّرُوهُ أَوْ عَلَى صُورَةِ آدَمَ أَيْ عَلَى صُورَةٍ مُخْتَصَّةٍ بِهِ لَمْ يَخْلُقْ عَلَيْهَا غَيْرَهُ أَيِ اللَّهُ، وَالْإِضَافَةُ لِلتَّكْرِيمِ كَمَا فِي: بَيْتِ اللَّهِ وَ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ ، أَيْ: إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَ هَذِهِ الصُّورة لِأَنَّهُ خَلَقَهَا بِيَدِهِ، وَأَمَرَ مَلَائِكَتَهُ بِالسُّجُودِ لَهَا، فَأَكْرِمُوهَا .

وَيُؤَيِّدُهُ مَا فِي رِوَايَةِ: عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ، وَقِيلَ: الضَّمِيرِ رَاجِعٌ إِلَى الْمَضْرُوبِ هَذَا مُجْمَلُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، وأَمَّا تَفْصِيلُ الْمَرَامِ فَقَالَ الطِّيبِيُّ: فِيهِ أَقْوَالٌ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الضَّمِيرِ رَاجِعٌ إِلَى آدَمَ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ الْجَوْزِيِّ وَفِيهِ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ: وَمَعْنَى الْإِضَافَةِ وَكُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ نَفْسِهِ، بِأَنَّهُ خُلِقَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا مِنْ مَبْدَأِ فِطْرَتِهِ إِلَى مُنْقَرَضِ عُمْرِهِ وَلَمْ تَتَفَاوَتْ قَامَتُهُ وَلَمْ تَتَغَيَّرْ هَيْئَتُهُ بِخِلَافِ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَكُونُ أَوَّلًا نُطْفَةً، ثُمَّ عَلَقَةً، ثُمَّ مُضْغَةً، ثُمَّ عِظَامًا وَأَعْصَابًا عَارِيَةً، ثُمَّ عِظَامًا وَأَعْصَابًا مَكْسُوَّةً لَحْمًا، ثُمَّ حَيَوَانًا مُخْتَبِيًا فِي الرَّحِمِ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ بَلْ يَتَغَذَّى مِنْ عِرْقٍ كَالنَّبَاتِ، ثُمَّ يَكُونُ مَوْلُودًا رَضِيعًا، ثُمَّ طِفْلًا مُتَرَعْرِعًا ثُمَّ مُرَاهِقًا ثُمَّ شَابًّا ثُمَّ كَهْلًا ثُمَّ شَيْخًا.

ثَانِيهَا: أَنَّهُ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ حَالٍ يَخْتَصُّ بِهِ لَا يُشَارِكُهُ نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَإِنَّهُ يُوصَفُ مَرَّةً بِالْعِلْمِ، وَأُخْرَى بِالْجَهْلِ وَتَارَةً بِالْغِوَايَةِ وَالْعِصْيَانِ وَأُخْرَى بِالْهِدَايَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ فَلَحْظَةً يُقْرَنُ بِالشَّيْطَانِ فِي اسْتِحْقَاقِ اسْمِ الْعِصْيَانِ وَالْإِخْرَاجِ عَنِ الْجِنَانِ وَلَحْظَةً يَتَّسِمُ بِسِمَةِ الِاجْتِبَاءِ وَيُتَوَّجُ بِتَاجِ الْخِلَافَةِ وَالِاصْطِفَاءِ وَبُرْهَةً يُسْتَعْمَلُ بِتَدْبِيرِ الْأَرَضِينَ وَسَاعَةً يَصْعَدُ بِرُوحِهِ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ وَطَوْرًا يُشَارِكُ الْبَهَائِمَ فِي مَأْكَلِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَنْكَحِهِ وَطَوْرًا يُسَابِقُ الْكُرُوبِيِّينَ فِي فِكْرِهِ وَذِكْرِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَتَهْلِيلِهِ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى اخْتَرَعَهَا اخْتِرَاعًا عَظِيمًا فِي خَلْقِهِ، إِذْ كُلُّ مَخْلُوقٍ قَدْ تَقَدَّمَ أَمْثَالٌ لَهُ، فَيُخْلَقُونَ عَلَى صُورَةِ أَمْثَالِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ، وأَمَّا آدَمُ فَاخْتُرِعَ خَلْقًا جَدِيدًا عَجِيبًا مَلَكِيُّ الرُّوحِ، حَيَوَانِيُّ الْجِسْمِ، مُنْتَصِبُ الْقَامَةِ، فَلَمْ يُوجَدْ عَلَى مِثَالٍ لَهُ تَقَدَّمَ كَأَنَّهُ قَالَ: ارْتَجَلَ صُورَتَهُ اخْتِرَاعًا لَا تَشْبِيهًا بِمُقَدَّمٍ، وَلَا مُحَاذِيًا بِخَلْقٍ آخَرَ، بَلْ تَوَلَّى الْقَدِيمُ بِنَفْسِهِ خَلْقَ هَذِهِ الصُّورة إِبْدَاعًا جَدِيدًا لَمْ يَسْبِقْهُ مَا يُشْبِهُهُ بِصِفَةٍ مَا، وَتَعْظِيمُ وَجْهِ الْإِنْسَانِ أَمَّا لِأَنَّهُ أَشْرَفُ أَجْزَائِهِ مِنَ الْإِنْسَانِ، إِذْ أَكْثَرُ الْحَوَاسِّ فِيهِ، أَوْ لِأَنَّهُ إِذَا عُدِمَ عُدِمَ الْكُلُّ بِخِلَافِ بَقِيَّةِ الْأَعْضَاءِ وَفِي هَذَا التَّأْوِيلِ إِضْمَارٌ كَأَنَّهُ قِيلَ: هَذَا الْمَضْرُوبُ مِنْ أَوْلَادِ آدَمَ، فَاجْتَنِبُوا ضَرْبَ الْعُضْوِ الْأَشْرَفِ احْتِرَامًا لَهُ، لِأَنَّهُ يُشْبِهُ وَجْهَ آدَمَ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الضَّمير رَاجِعٌ إِلَى الْمَضْرُوبِ قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ: وَهُوَ رِوَايَةُ مُسْلِمٍ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْوَجْهِ يَعْنِي فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى كَرَّمَهُ وَشَرَّفَهُ بِأَحْسَنِ صُورَةٍ، وَجَمَعَ فِيهِ الْمَحَاسِنَ وَالْحَوَاسَّ وَالْإِدْرَاكَاتِ، وَالضَّرْبُ فِي الْوَجْهِ قَدْ يَنْقُصُهَا وَيُشَوِّهُ الْحُسْنَ وَيُظْهِرُ الشَّيْنَ الْفَاحِشَ وَلَا يُمْكِنُ سَتْرُهُ، وَخُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ، فَلَا تَضْرِبْهُ تَكْرِيمًا لِصُورَةِ آدَمَ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ ضَرَبْتَ فَقَدْ أَهَنْتَهَا وَنَظِيرُهُ مَا رُوِيَ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ: («تُسَمُّونَ أَوْلَادَكُمْ مُحَمَّدًا فَتَلْعَنُونَهُ أَنْكَرَ اللَّعِينَ إِجْلَالًا لِاسْمِهِ») . كَمَا مَنَعَ الضَّرْبَ عَلَى الْوَجْهِ تَعْظِيمًا لِصُورَةِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلَامُ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّ الضَّمير رَاجِعٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ اخْتِيَارُ الشَّيْخِ التُّورِبِشْتِيِّ قَالَ: وَالْوَجْهُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ الضَّمير رَاجِعًا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا كَالْإِضَافَةِ فِي بَيْتِ اللهِ وَ﴿**نَاقَةُ اللهِ**﴾ ، لِمَا صَحَّ مِنْ طُرُقِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ .

قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ: هَذَا الْحَدِيثُ بِهَذَا اللَّفْظِ ثَابِتٌ، وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ أَنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ لَيْسَ بِثَابِتٍ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَكَانَ مَنْ نَقَلَهُ رَوَاهُ بِالْمَعْنَى الَّذِي وَقَعَ لَهُ وَغَلِطَ فِي ذَلِكَ اهـ كَلَامُهُ. وَفِي هَذَا الْقَوْلِ وُجُوهٌ.

أَوَّلُهَا: أَنْ يَجْرِيَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ قُتَيْبَةَ قَالَ الْمَازِرِيُّ: وَقَدْ غَلِطَ فِيهِ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَقَالَ: إِنَّ للهِ تَعَالَى صُورَةً لَا كَالصُّوَرِ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْفَسَادِ ؛ لِأَنَّ الصُّورة تُفِيدُ التَّرْكِيبَ وَكُلُّ مُرَكَّبٍ مُحْدَثٌ، وَتَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ.

قُلْتُ: الْعِلَّةُ وَالْمَعْلُولُ مَدْفُوعَانِ بِقَوْلِهِ: لَا كَالصُّوَرِ، فَهُوَ نَظِيرٌ لِكَلَامِ السَّلَفِ فِي إِثْبَاتِ الْيَدِ وَالْعَيْنِ لَهُ تَعَالَى مَعَ التَّنْزِيهِ عَنِ الْجَارِحَةِ لَهُ سُبْحَانَهُ .

قَالَ: وَقَالَتِ الْمُجَسِّمَةُ: جِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ لِمَا سَمِعُوا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُ تَعَالَى شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ طَرَدُوا هَذَا الِاسْتِعْمَالَ، وَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ. أَقُولُ: إِنَّ الْيَدَ وَالْعَيْنَ وَالشَّيْءَ، وَكَذَا الصُّورة عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِهَا ثَبَتَ إِطْلَاقُهَا عَلَيْهِ تَعَالَى، فَيُحَبُّ إِثْبَاتُهَا وَتَنْزِيهُهُ تَعَالَى عَمَّا يُرَادِفُهَا بِخِلَافِ الْجِسْمِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ إِطْلَاقَهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى، لَا فِي كِتَابٍ، وَلَا فِي سُنَّةٍ، فَلَا يَجُوزُ إِثْبَاتُهُ لَهُ سُبْحَانَهُ.

قَالَ: الْعَجَبُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ قُتَيْبَةَ فِي صُورَةٍ لَا كَالصُّوَرِ، مَعَ أَنَّ ظَاهِرَ الْحَدِيثِ عَلَى رَأْيِهِ يَقْتَضِي خَلْقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، فَالصُّورَتَانِ عَلَى رَأْيِهِ سَوَاءٌ، فَإِذَا قَالَ: لَا كَالصُّوَرِ نَاقَضَ كَلَامَهُ. قُلْتُ: قَدْ تَقَدَّمَ وَجْهُ عَدَمِ الْمُنَاقَضَةِ فِي كَلَامِهِ عَلَى مُقْتَضَى مَرَامِهِ فَإِنَّهُ أَرَادَ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ آدَمَ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ، صُورَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ حَيْثُ اتَّصَفَ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ، مَعَ أَنَّ الْحَقَائِقَ مُخْتَلِفَةٌ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ مَحَلَّهُ.

وَثَانِيهَا: قَوْلُ الْقَاضِي إِنْ صَحَّتْ هَذِهِ الرِّوَايَة تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الضَّمِير للهِ تَعَالَى، وَيَكُونُ الْمَعْنَى خُلِقَ آدَمُ عَلَى صُورَةٍ اجْتَبَاهَا وَجَعَلَهَا نُسْخَةً مِنْ جُمْلَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، إِذْ مَا مِنْ مَوْجُودٍ إِلَّا وَلَهُ مِثَالٌ فِي صُورَتِهِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ: الْإِنْسَانُ عَالَمٌ صَغِيرٌ أَقُولُ: بَلْ قِيلَ: إِنَّهُ عَالَمٌ كَبِيرٌ لِحَدِيثِ: «لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَلَكِنْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ» . ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٢٣٠ -٢٣١) ، وقال : " ذكره في "الإحياء" بلفظ: "قال الله: لم يسعني سمائي ولا أرضي، ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع".

قال العراقي في تخريجه: لم أر له أصلًا، ووافقه في الدرر تبعًا للزركشي، ثم قال العراقي: وفي حديث أبي عتبة عند الطبراني بعد قوله: "وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها". انتهى.

وقال ابن تيمية: هو مذكور في الإسرائيليات، وليس له إسناد معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال في "المقاصد" تبعًا لشيخه في "اللآلئ": ليس له إسناد معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومعناه وسع قلبه الإيمان بي ومحبتي ومعرفتي؛ وإلا فمن قال: إن الله يحل في قلوب الناس فهو أكفر من النصارى الذين خصوا ذلك بالمسيح وحده؛ وكأنه أشار بها في الإسرائيليات إلى ما أخرجه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: "إن الله فتح السماوات لحزقيل حتى نظر إلى العرش، فقال حزقيل: سبحانك ما أعظمك يا رب، فقال الله: إن السماوات والأرض ضعفن عن أن يسعنني ووسعني قلب عبدي المؤمن الوادع اللين".

ونقل عن خط الزركشي أن بعض العلماء قال: إنه حديث باطل وإنه من وضع الملاحدة، وأكثر ما يرويه المتكلم على رؤوس العوام علي بن وفا لمقاصد يقصدها ويقول عند الوجد والرقص: طوفوا ببيت ربكم.

قال: وقد روى الطبراني عن أبي عتبة الخولاني رفعه: إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها، وفي سنده بقية بن الوليد يدلس؛ لكنه صرح بالتحديث. " .

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ مَجْمَعَ مَحَاسِنِهِ وَمَظْهَرَ لَطَائِفِ الصُّنْعِ فِيهِ هُوَ الْوَجْهُ، فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ وَيَتَحَرَّزَ عَمَّا يُشَوِّهُهُ فَلَا يُنَاسِبُ أَنْ يُجْرَحَ وَيُقَبَّحَ وَإِنْ لَمْ تَصِحَّ احْتَمَلَ ذَلِكَ. وَثَالِثُهَا. قَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّ الصُّورة بِمَعْنَى الْأَمْرِ وَالشَّأْنِ أَيْ: خُلِقَ آدَمُ عَلَى حَالِهِ وَشَأْنِهِ فِي كَوْنِهِ مَسْجُودًا لِلْمَلَائِكَةِ، مَالِكًا لِلْحَيَوَانَاتِ فِي كَوْنِهَا مُسَخَّرَاتٍ لَهُ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ ﴿البقرة: ٣٠﴾ تَعْظِيمًا

وَاحْتِرَامًا بِشَأْنِهِ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ لِأَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِالتَّقْبِيلِ وَالِاسْتِسْلَامِ تَعْظِيمًا، كَيَمِينِ الْمَلِكِ فِي حَقِّ مَنْ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، فَإِذَا الْإِضَافَةُ فِيهِ لَيْسَتْ كَإِضَافَةِ بَيْتِ اللهِ وَ﴿**نَاقَةُ اللَّهِ**﴾ تَعَالَى لِلتَّشْرِيفِ بَلِ الْكَلَامُ وَارِدٌ عَلَى التَّمْثِيلِ وَالِاسْتِعَارَةِ.

وَسُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾﴿البقرة: ٣٠﴾ ، قَالَ: صُورَةُ الْمَلَكِ الَّذِي تَوَلَّاهَا فَخُلِقَ آدَمُ عَلَيْهَا وَمُلْكُهُ مِنْ مُلْكِهِ مَا تَوَلَّى، وَسُئِلَ عَنْ مَعْنَى ذَلِكَ؟ فَذَكَرَ خَلْقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، وَهَذَا أَقْصَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي هَذِهِ الْمَقَامِ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالْمَرَامِ. (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)".

وقال علي بن سلطان القاري في"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح"(٧/ ٢٩٣٥-٢٧٣٦) :" «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» أَيْ: عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي اسْتَمَرَّ عَلَيْهَا إِلَى أَنْ أُهْبِطَ، وَإِلَى أَنْ مَاتَ دَفْعًا لِتَوَهُّمِ أَنَّ صُورَتَهُ كَانَتْ فِي الجنَّة عَلَى صِفَةٍ أُخْرَى.

وَقِيلَ: الضَّمير للهِ، وَالْمُرَادُ بالصُّورة الصِّفة مِنَ الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَإِنْ كَانَتْ صِفَاتُهُ تَعَالَى لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ.

وَقِيلَ: الضَّمير لِلْعَبْدِ الْمَحْذُوفِ مِنَ السِّيَاقِ، وَإِنَّ سَبَبَ الْحَدِيثِ أَنَّ رَجُلًا ضَرَبَ وَجْهَ غُلَامٍ فَنَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ: إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ. كَذَا فِي حَاشِيَةِ الْبُخَارِيِّ لِلسُّيُوطِيِّ.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْهَاءُ مَرْجِعُهَا إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالْمَعْنَى: أَنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ خُلِقُوا أَطْوَارًا فِي مَبْدَأِ الْخَلْقِ نُطْفَةً، ثمَّ عَلَقَةً، ثمَّ مُضْغَةً، ثمَّ صَارُوا صُوَرًا أَجِنَّةً إِلَى أَنْ تَتِمَّ مُدَّةُ الْحَمْلِ، فَيُولَدُونَ أَطْفَالًا وَيُنْشَئُونَ صِغَارًا إِلَى أَنْ يَكْبَرُوا، فَيَتِمُّ طُولُ أَجْسَادِهِمْ، يَقُولُ: إِنَّ آدَمَ لَمْ يَكُنْ خَلْقُهُ عَلَى هَذِهِ الصِّفة، وَلَكِنَّهُ أَوَّلَ مَا تَنَاوَلَتْهُ الْخِلْقَةُ وُجِدَ خَلْقًا تَامًّا. (طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا) .

وَقَالَ الشَّيْخُ التُّورِبِشْتِيُّ: هَذَا كَلَامٌ صَحِيحٌ فِي مَوْضِعِهِ، فَأَمَّا قِي تَأْوِيلِ هَذَا الْحَدِيثِ، فَإِنَّهُ غَيْرُ سَدِيدٍ لِمَا فِي حَدِيثٍ آخَرَ: خُلِقَ آدَمُ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ، وَلِمَا فِي غَيْرِ هَذِهِ الرِّواية «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رَأَى رَجُلًا يَضْرِبُ وَجْهَ غُلَامٍ، فَقَالَ:"لَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»"فَالْمَعْنَى الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ هَذَا الْمُؤَوِّلُ لَا يُلَائِمُ هَذَا الْقَوْلَ. وَأَهْلُ الْحَقِّ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ عَلَى

طَبَقَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا: الْمُنَزَّهُونَ عَنِ التَّأْوِيلِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ، وَعَدَمِ الرُّكُونِ إِلَى مُسَمَّيَاتِ الْجِنْسِ وَإِحَالَةِ الْمَعْنَى فِيهِ إِلَى عِلْمِ اللهِ تَعَالَى الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَهَذَا أَسْلَمُ الطَّرِيقَيْنِ. وَالطَّبَقَةُ الْأُخْرَى: يَرَوْنَ الْإِضَافَةَ فِيهَا إِضَافَةَ تَكْرِيمٍ وَتَشْرِيفٍ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى، خَلَقَ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ عَلَى صُورَةٍ لَمْ يُشَاكِلْهَا شَيْءٌ وَالصُّوَرُ فِي الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ، وَكَثْرَةِ مَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْجَلِيلَةِ، فَاسْتَحَقَّتِ الصُّورة الْبَشَرِيَّةُ أَنْ تُكَرَّمَ وَلَا تُهَانَ اتِّبَاعًا لِسُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِيهَا وَتَكْرِيمًا لِمَا كَرَّمَهُ اهـ. وَهُوَ فِي غَايَةِ الْبَهَاءِ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾﴿التين: ٤﴾ ، وَأَغْرَبَ الطِّيبِيُّ فِي تَعْقِيبِهِ عَلَيْهِ، وَفِي قَوْلِهِ: إِنَّ تَأْوِيلَ أَبِي سُلَيْمَانَ سَدِيدٌ يَجِبُ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ، وَفِي ذِكْرِ مَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ وَلَا مَنْفَعَةَ لَدَيْهِ.

(فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ) أَيِ: الْجَمَاعَةِ (وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ) : أُفْرِدَ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ أَوْ مُرَاعَاةً لِلَفْظِ "نفر"أَوْ جَمْعُ جَالِسٍ، أَوْ تَقْدِيرُهُ ذَوُو جُلُوسٍ، أَوْ مِنْ قَبِيلِ رَجُلٍ عَدْلٍ مُبَالَغَةً (فَاسْتَمِعْ) أَيْ: فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ فَاسْتَمِعْ (مَا يُحَيُّونَكَ) : بِتَشْدِيدِ التَّحْتِيَّةِ، أَيِ: الَّذِي يُحَيُّونَكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾﴿النساء: ٨٦﴾ وأمَّا مَا وَقَعَ فِي بَعْضِ نُسَخِ الْمَصَابِيحِ بِالْجِيمِ وَالتَّحْتِيَّةِ وَالْمُوَحَّدَةِ فَتَصْحِيفٌ وَتَحْرِيفٌ وَيَرُدُّهُ قَوْلُهُ: (فَإِنَّهَا) أَيْ: تَحِيَّتُهُمْ إِيَّاكَ (تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ) أَيْ: لِمَنْ يُسَلِّمُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ (فَقَالَ: السَّلام عَلَيْكُمْ. فَقَالُوا: السَّلام عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ قَالَ) أَيِ: النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَزَادُوهُ) أَيْ: آدَمَ فِي رَدِّ جَوَابِهِ عَلَى أَصْلِ سَلَامِهِ بِقَوْلِهِمْ (وَرَحْمَةُ اللهِ) : قِيلَ: يَدُلُّ هَذَا عَلَى جَوَازِ الزِّيَادَةِ.

قُلْتُ: بَلِ الزِّيَادَةُ هِيَ الْأَفْضَلُ، كَمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَيْضًا، نَعَمْ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ تَقْدِيمِ السَّلام فِي الْجَوَابِ، بَلْ عَلَى نَدْبِهِ ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ التَّعْلِيمِ، لَكِنَّ الْجُمْهُورَ عَلَى أَنَّ الْجَوَابَ بِقَوْلِهِ: وَعَلَيْكُمُ السَّلام أَفْضَلُ سَوَاءٌ زَادَ أَمْ لَا. وَلَعَلَّ الْمَلَائِكَةَ أَيْضًا أَرَادُوا إِنْشَاءَ السَّلام عَلَى آدَمَ، كَمَا يَقَعُ كَثِيرًا فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ، لَكِنْ يُشْتَرَطُ فِي صِحَّةِ الْجَوَابِ أَنْ يَقَعَ بَعْدَ السَّلَامِ، لَا أَنْ يَقَعَا مَعًا، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فَاءُ التَّعْقِيبِ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ أَكْثَرُ النَّاس عَنْهَا غَافِلُونَ، فَلَوِ الْتَقَى رَجُلَانِ وَسَلَّمَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً يَجِبُ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا الْجَوَابُ.

(قَالَ) أَيِ: النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَكُلُّ) : كَذَا فِي الْأُصُولِ الْمُعْتَمَدَةِ مِنَ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، وَجَمِيعِ نُسَخِ الْمَصَابِيحِ بِالْفَاءِ، وَهُوَ مُتَرَتِّبٌ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ قَوْلِهِ: خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَحَاصِلُهُ أَنَّ جَمِيعَ (مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ) أَيْ: مِنْ أَوْلَادِهِ (عَلَى صُورَةِ آدَمَ) أَيْ: يَدْخُلُ عَلَى صُورَتِهِ، أَوْ فَهُوَ عَلَى صُورَتِهِ، وَهِيَ تَحْتَمِلُ النَّوْعِيَّةَ وَالشَّخْصِيَّةَ (وَطُولُهُ) أَيْ: وَالْحَالُ أَنَّ طُولَ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّة مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَيْضًا (سِتُّونَ ذِرَاعًا) : بِنَاءً عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ، وَفِي الْجَامِعِ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فِي طُولِهِ سِتُّونَ ذِرَاعًا (فَلَمْ يَزَلْ) : هَذِهِ الْفَاءُ لِلتَّرْتِيبِ عَلَى قَوْلِهِ: طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي صَدْرِ الْحَدِيثِ مُتَضَمِّنًا لِجَوَابِ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ تَقْدِيرُهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ آدَمُ طُولَهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا وَذُرِّيَّتُهُ يَدْخُلُونَ الجنَّة أَيْضًا، وَطُولُهُمْ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَمَا بَالُهُمْ نَقَصَ طُولُهُمْ عَنْ طُولِ أَبِيهِمْ عَلَى مَا نُشَاهِدُ فِي الدُّنْيَا، أَهُوَ نُقْصَانٌ تَدْرِيجِيٌّ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَلَمْ يَزَلِ (الْخَلْقُ) أَيْ: غَالِبُهُمْ مِنْ أَوْلَادِ بَنِي آدَمَ (يَنْقُصُ) أَيْ: طُولُهُمْ، وأَمَّا قَوْلُ الطِّيبِيِّ: وَجَمَالُهُمْ فَمَا أَظُنُّهُ صَحِيحًا مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَا رَمْزًا وَلَا صَرِيحًا (بَعْدَهُ) أَيْ: بَعْدَ آدَمَ لِحِكْمَةٍ اقْتَضَتْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِهَا.

(حَتَّى الْآنَ) : بِالنَّصْبِ ظَرْفُ يَنْقُصُ، أَيْ: حتَّى وَصَلَ النَّقْصُ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْحَدِيثَ، الظَّاهِرُ أَنَّ النُّقْصَانَ انْتَهَى إِلَى ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَإِلَّا فَلَمْ يُحْفَظْ تفَاوُتٌ فِي طُولِ الْقَامَةِ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ إِلَى مُدَّتِهَا الْآنَ. (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) : وَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ" .

وقال زين الدِّين محمَّد المدعو بعبد الرَّؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدَّادي ثمَّ المناوي القاهري(١٠٣١هـ) في"التَّيسير بشرح الجامع الصَّغير"(١/٥١٧) :"(خلق الله آدم على صورته) أَي على صُورَة آدم الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا من مبدأ فطرته إِلَى مَوته لم تَتَفَاوَت قامته وَلم تَتَغَيَّر هَيئته (وَطوله سِتُّونَ ذِرَاعا) بِذِرَاع نَفسه أَو بالذراع الْمُتَعَارف وَلم ينْتَقل أطوارا كذريته (ثمَّ قَالَ) لَهُ (اذْهَبْ فَسلم على أُولَئِكَ النَّفر من الْمَلَائِكَة فاستمع مَا يحيونك) بِمُهْملَة من التَّحِيَّة وَفِي رِوَايَة بجيم (فَإِنَّهَا تحيتك وتحية ذريتك) من جِهَة الشَّرْع أَو أَرَادَ بالذرية بَعضهم وهم مُسلمُونَ (فَذهب فَقَالَ السَّلام عَلَيْكُم فَقَالُوا السَّلام عَلَيْك وَرَحْمَة الله) وَهَذَا أول مَشْرُوعِيَّة السَّلَام (فزادوه) أَي آدم (وَرَحْمَة الله) فَزِيَادَة الرَّد مَنْدُوبَة (فَكل من يدْخل الْجنَّة) من بني آدم يدخلهَا وَهُوَ (على صُورَة

آدم) أَي : على صفته فِي الْحسن وَالْجمال والطُّول ، وَلَا يدخلهَا على صُورَة نَفسه من نَحْو سَواد أَو عاهة (فِي طوله سِتُّونَ ذِرَاعا فَلم ينزل الْخلق تنقص) فِي الْجمال والطُّول (حَتَّى الْآن) فَانْتهى التَّناقص إِلَى هَذِه الْأمَّة ، فَإِذا دخلُوا الجنَّة عَادوا إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ آدم من الْجمال وامتداد الْقَامَة".

وقال المناوي في"فيض القدير شرح الجامع الصَّغير"(١/ ٣٩٧) :" (إذا ضرب أحدكم خادمه) أو مواليه أو حليلته أو نحو ولده ، وذكر الخادم في بعض الرِّوايات والعبد في بعضها ليس للتَّخصيص ، وإنَّما خصّ لأنَّ سبب ذكره أنَّ إنساناً ضرب خادمه وآخر عبده على وجهه ، فالسَّبب خاصّ والحكم عامّ ، فشمل الحكم إذا ضرب حدَّاً أو تعزيراً لله أو لآدمي ونحو ولي وسيِّد وزوج (فليتَّق) ، في رواية لمسلم فليتجنَّب ، وهي مبينة لمعنى الإتقاء (الوجه) من كلِّ مضروب معصوم وجوباً ، لأنَّه شَين ، ومثله له للطافته وتشريفه على جميع الأعضاء الظَّاهرة ، لأنَّه الأصل في خلقة الإنسان وغيره من الأعضاء خادم ، لأنَّه الجامع للحواس التي بها تحصل الإدراكات المشتركة بين الأنواع المختلفة ، ولأنَّه أوَّل الأعضاء في الشخوص والمقابلة والتَّحدث والقصد ، ولأنَّه مدخل الرُّوح ومخرجه ، ومقرّ الجمال والحسن ، وبه قوام الحيوان كلّه ، ناطقه وصامته ، فلمَّا كان بهذه المثابة احترمه الشَّرع وأمر بعدم التَّعرُّض له في عدَّة أخبار بضرب أو إهانة أو تقبيح أو تشويه ، ومثل الوجه في عدم الضّرب المقاتل لا الرَّأس ، كما قال بعض الشَّافعيَّة .

وجاء في رواية لمسلم تعليله بأنَّ الله خلق آدم على صورته ، أي : على صورة المضروب ، وقيل : الضَّمير لله ، بدليل رواية الطَّبراني بإسناد رجاله ثقات ، كما قال ابن حجر : على صورة الرَّحْمَن ، وفي رواية لابن أبي عاصم عن أبي هريرة مرفوعاً :"من قاتل فليتجنب الوجه ، فإنَّ صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرَّحْمَن". فيتعيَّن إجراء ذلك على ما تقرَّر بين أهل السُّنَّة من إيراده على ما جاء بغير إعتقاد تشبيه أو تأويله على ما يليق بالرَّحمن جلَّ وعلا.

وفيه أنَّه يحرم ضرب الوجه وما ألحق به في الحدِّ والتَّعزير والتَّأديب. وألحق بالآدمي كلّ حيوان محترم ، أمَّا الحربيُّون فالضَّرب في وجوههم أنجح للمقصود وأردع لأهل الجحود في الحدود . (عن

أبي هريرة) وظاهر صنيع المصنِّف أنَّه ليس في أحد الصَّحيحين ، وهو ذهول عجيب ، فقد خرجه مسلم من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ بعينه. قال ابن حجر: رواه البخاري بلفظ آخر".

وقال المناوي في"فيض القدير شرح الجامع الصَّغير"(٣/٥٩٣-٥٩٥) :"(خلق الله آدم على صورته) أي على صورة آدم التي كان عليها من مبدأ فطرته إلى موته ، لم تتفاوت قامته ، ولم تتغيَّر هيئته ، بخلاف بنيه ، فإنَّ كلا منهم يكون نطفة ثمَّ علقة ثمَّ مضغة ثمَّ عظاماً وأعصاباً عارية ثمَّ مكسوة لحماً ثمَّ حيواناً مجنناً لا يأكل ولا يشرب ثمَّ يكون مولوداً رضيعاً ثمَّ طفلاً مترعرعاً ثمَّ مراهقاً ثمَّ شاباً ثمَّ كهلاً ثمَّ شيخاً أو خلقه على صورة حال يختصّ به لا يشاركه أنواع أخر من المخلوقات ، فإنَّه يوصف مرَّة بالعلم ، وأخرى بالجهل ، وتارة بالغواية والعصيان ، وطوراً بالهداية والاستغفار ، ولحظة يقرن بالشَّيطان في استحقاق اسم العصيان والإخراج من الجنان ، ولحظة يتَّسم بسمة الاجتباء ويتوَّج بتاج الخلافة والاصطفاء ، وبرهة يستعمل بتدبير الأرضين ، وساعة يصعد بروحه إلى عليِّين ، وطوراً يشارك البهائم في مطعمه ومنكحه ، وطوراً يسابق الكروبيِّين في ذكره وفكره وتسبيحه وتهليله .

وقيل : الضَّمير لله تعالى بقرينه رواية خلق آدم على صورة الرَّحْمَن، والمعنى : خلق آدم على صورة اجتباها وجعلها من جميع مخلوقاته ، إذ ما من موجود إلَّا وله مثال في صورته ، ولذلك قيل : الإنسان عالم صغير...

(وطوله ستُّون ذراعاً) بذراع نفسه أو بالذِّراع المتعارف يومئذ للمخاطبين أو بالذِّراع المعروف عندنا ، ورجّح الأوَّل بأنَّ حسن الخلق يقتضي اعتدال الأعضاء وتناسبها ، ومن قصرت ذراعه عن ربع قامته أو طالت خرج عن الاعتدال ، ومن قامته ستُّون ذراعاً بذراع نفسه فذراعه سدس من عشر قامته ، فيخرج عن الاعتدال .

وزاد أحمد في روايته بعد ما ذكر في سبعة أذرع عرضاً ، ولم ينتقل أطواراً كذريَّته (ثمَّ قال له: اذهب فسلِّم على أولئك النَّفر) فيه إشعار بأنَّهم كانوا على بعد ، ولا حجَّة فيه لمن أوجب ابتداء السَّلام لأنَّها واقعة حال لا عموم لها (وهم نفرٌ من الملائكة جلوس) ، قال ابن حجر : لم أقف على

تعيينهم (فاستمع) في رواية فاسمع (ما يحيُّونك) بمهملة من التَّحيَّة ، وفي رواية بجيم من الجواب (فإنَّها تحيَّتك وتحيَّة ذريَّتك) من جهة الشَّرع أو أراد بالذُّريَّة بعضهم وهم المسلمون (فذهب فقال : السَّلام عليكم) يحتمل أنَّه تعالى علَّمه كيفيَّة ذلك نصَّاً ، وكونه فهمه من قوله له : "سلِّم" ، وكونه ألهمه ذلك (فقالوا : السَّلام عليك ورحمة الله) ، وهذا أوَّل مشروعيَّة السَّلام وتخصيصه ، لأنَّه فتح باب المودَّة وتأليف لقلوب الأخوان المؤدِّي إلى استكمال الإيمان كما في خبر مسلم : لا تدخلوا الجنَّة حتَّى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، ألا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السَّلام بينكم "، واستأنس بهذا من أجاز حذف الواو في الرَّد ، ووجهه : أنَّ المسلَّم عليه مأمور بمثل تحيَّة المسلم عدلاً ، وأحسن منها فضلاً ، فإذا ردَّ بالمثل أتى بالعدل (فزادوه) الضَّمير لآدم ، والزِّيادة تتعدَّى إلى مفعولين ، ومفعوله الثَّاني قوله: (ورحمة الله) ، وفيه مشروعيَّة زيادة الرَّد ، واتَّفقوا على وجوب الرَّد ، لأنَّ السَّلام الآمان ، فإذا ابتدأ به المسلم فلم يحيِّه أوهم الشَّر .

قال القرطبي : وقد دلَّ هذا الخبر على تأكُّد السَّلام ، وأنَّه من الشَّرائع القديمة الذي كلِّف بها آدم ثمَّ لم تنسخ في شريعة أهـ .

لكن في خبر : «مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ» . أخرجه ابن ماجه (١/ ٢٧٨ برقم ٨٥٦) .

يدلُّ على أنَّه من خصوصيَّاتنا (فكلُّ من يدخل الجنَّة) من بني آدم يدخلها وهو (على صورة آدم) أي على صفته في الحسن والجمال والطُّول ، ولا يدخلها على صورة نفسه من نحو سواد وعاهة ، وهو يدلُّ على عفَّة البعض من نحو سواد ينتفي عند دخولها (في طوله ستُّون ذراعاً) بذراع نفسه أو بقدر الذِّراع المتعارف يومئذ عند المخاطبين أو بذراع الشَّرع المعروف الآن ، على ما تقرَّر فيما قبله .

وروى ابن أبي الدُّنيا عن أنس مرفوعاً : يدخل أهل الجنَّة على طول آدم ستِّين ذراعاً بذراع الملك ، على حُسن يوسف ، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين أهـ .

وقال ابن حجر : وروى عبد الرزَّاق أنَّ آدم لَمَّا هبط كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السَّماء فحطَّه الله إلى ستِّين ذراعاً" . قلت : ونص الأثر في مصنَّف عبد الرزَّاق (٥/ ٩١ برقم ٩٠٩٠) هو : " عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ قَالَ:

حَدَّثَنِي سَوَّارٌ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: " لَمَّا أَهْبَطَ اللهُ آدَمَ كَانَ رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ وَرَأْسُهُ فِي السَّمَاءِ، يَسْمَعُ كَلَامَ أَهْلِ السَّمَاءِ وَدُعَاءَهُمْ، فَأَنِسَ إِلَيْهِمْ، فَهَابَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُ حتَّى شَكَتْ إِلَى اللهِ فِي دُعَائِهَا وفِي صَلَاتِهَا فَأَخْفَضَهُ اللهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَمَّا فَقَدَ مَا كَانَ يَسْمَعُ مِنْهُم اسْتَوْحَشَ، حتَّى شَكَى إِلَى اللهِ فِي دُعَائِهِ وَفِي صَلَاتِهِ، فَوَجَّهَهُ إِلَى مَكَّةَ، فَكَانَ مَوْضِعَ قَدَمِهِ قَرْيَةً، وَخُطْوَتِهِ مَفَازَةً حتَّى انْتَهَى إِلَى مَكَّةَ، وَأَنْزَلَ اللهُ يَاقُوتَةً مِنْ يَاقُوتِ الْجَنَّةِ، فَكَانَتْ عَلَى مَوْضِعِ الْبَيْتِ الْآنَ، فَلَمْ يَزَلْ يُطَافُ بِهِ حتَّى أَنْزَلَ اللهُ الطُّوفَانَ فَرُفِعَتْ تِلْكَ الْيَاقُوتَةُ، فَبَعَثَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ فَبَنَاهُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾﴿ الحج: ٢٦﴾ ".

فظاهره أنَّه كان مفرط الطُّول في ابتداء فطرته ، وظاهر هذا الحديث أنَّه خلق ابتداء على طول ستِّين ذراعاً ، وهو المعتمد (فلم تزل الخلق تنقص بعده) في الجمال والطُّول (حتَّى الآن) فانتهى التَّناقص إلى هذه الأمَّة ، واستقر الأمر على ذلك ، فإذا دخل الجنَّة عادوا إلى ما كان آدم عليه من الكمال والجمال وامتداد القامة وحسن الهامة . وفي "مثير الغرام في زيارة القدس والشَّام" أنَّ آدم كان أمرد ، وإنَّما حدثت اللحية لولده ، وكان أجمل البريَّة.

(تنبيه) قال السّمهودي : ما ذكر من الصِّفات من طول آدم وغيره ثابت لكلِّ من دخل الجنَّة ، كما تقرَّر ، فيشمل من مات صغيراً ، بل جاء ما يقتضي ثبوت جميع ذلك للسّقط ، فروى البيهقي بسند حسن الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدِي كَرِبٍ حَدَّثَهُمْ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ سِقْطًا وَلَا هَرِمًا - وإنَّما النَّاس فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ - إِلَّا بُعِثَ ابْنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَانَ عَلَى مَسْحَةِ آدَمَ، وصُورَةِ يُوسُفَ، وَقَلْبِ أَيُّوبَ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عُظِّمُوا وَفُخِّمُوا كَالْجِبَالِ» . أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٨٠ برقم ٦٦٣) ، مسند الشاميين (٣/ ٨٢ برقم ١٨٣٩) ، البيهقي في البعث والنشور (ص٦٣٦ برقم ١٠٠٠) .

والآن بالنَّصب ظرف يعني حتَّى وصل النُّقصان إلى الوقت الذي ذكر النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فيه الحديث . قيل : هذا مقدَّم في التَّرتيب على قوله :" فكل من يدخل الجنَّة " إلخ .

(تنبيه) : قال ابن حجر : يشكل على هذا ما يوجد الآن من آثار الأمم السَّابقة كديار ثمود ، فإنَّ مساكنهم تدلُّ على أنَّ قاماتهم لم تكن مفرطة الطُّول على حسب ما يقتضيه التَّرتيب المارّ ، وعهدهم قديم ، والزَّمن الذي بينهم وبين آدم دون ما بينهم وبين أولاد هذه الأمَّة ، ولم يظهر لي إلى الآن ما يزيل هذا الإشكال (حم ق عن أبي هريرة) ورواه عنه الطَّبراني وغيره.

والمراد بالصُّورة : الصِّفة ، والمعنى أنَّ الله خلقه على صفته من العلم والحياة والسَّمع والبصر وغير ذلك ، وإن كانت صفات الله لا يشبهها شي".

وقال مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي(١٠٣٣هـ) في"أقاويل الثِّقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات"(ص١٣٥) :"وغلت طَائِفَة أُخْرَى فِي الْإِثْبَات فشبَّهته ، فأثبتت لَهُ الصُّورة والجوارح ، حتَّى إِنَّ الهشاميَّة من غلاة الرَّافضة زَعَمُوا كَمَا قَالَ الْقُرْطُبِيّ : أَنَّ معبودهم سَبْعَة أشبار بشبر نَفسه ، وَقَالَت الكرَّاميَّة إِنَّه جسم ، قَالَ : وَقد بَالغ بعض أهل الإغواء ، فَقَالَ : إِنَّه على صُورَة الْإِنْسَان ، ثمَّ اخْتلفُوا ، فَمنهمْ من قَالَ : إِنَّه على صُورَة شيخ أشمط الرَّأْس واللحية ، وَمِنْهُم من قَالَ : إِنَّه على صُورَة شَاب أَمْرَد جعد قطط ، وَمِنْهُم من قَالَ : إِنَّه مركَّب من لحم وَدم ، وَمِنْهُم من قَالَ : إِنَّه على قدر مَسَافَة الْعَرْش ، لَا يفضل من أَحدهمَا عَن الْأُخَر شَيْء ، تَعَالَى الله عَن أَقْوَالهم علوَّاً كَبِيراً ، وَعَن مثله نهى الله تَعَالَى بقوله : **﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾**﴿النِّساء: ١٧١﴾ .

وقال مرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى في"أقاويل الثِّقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات" (ص١٦٤-١٧٣) :"وَأَمَّا الْكَفّ والأنامل والصُّورة ، فقد روى التِّرْمِذِيّ (٥/ ٢٢١ برقم ٣٢٣٥) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: احْتُبِسَ عَنَّا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذَاتَ غَدَاةٍ مِنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ حتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى عَيْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ سَرِيعًا فَثُوِّبَ بِالصَّلاَةِ، فَصَلَّى رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَتَجَوَّزَ فِي صَلاَتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِهِ فَقَالَ لَنَا: عَلَى مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ ثمَّ انْفَتَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ: أَمَّا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الغَدَاةَ: أَنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلاَتِي فَاسْتَثْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا محمَّد قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: لاَ أَدْرِي رَبِّ، قَالَهَا ثَلاَثًا قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَتجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ ...الحَدِيث . قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح .

وَقَالَ : سَأَلت محمَّد بن إِسْمَاعِيل عَن هَذَا الحَدِيث ، فَقَالَ : هَذَا حَدِيث حسن صَحِيح .

قَالَ ابْن فورك : قَوْله"وضع كَفَّه بَين كَتِفي" ، وَرُوِيَ"بَين كَنَفي بالنُّون" ، فَأَما الْكَفُّ ، فَقيل : هُوَ بِمَعْنى الْقُدْرَة كَقَوْلِه :

هوِّن عَلَيْك فَإِنَّ الْأُمُور بكفِّ الْإِلَه مقاديرها

يُرِيد : فِي قدرته تقديرها وتدبيرها .

وَقيل : الْمُرَاد بالكف النِّعْمَة والْمِنَّة وَالرَّحْمَة ، وأَمَّا قَوْله :"بَين كَتِفي"فَالْمُرَاد بِهِ مَا وصف إِلَى قلبه من لطفه وبرِّه وفوائده ، لِأَنَّ الْقلب بَين الْكَتِفَيْنِ ، وَهُوَ مَحل الْأَنْوَار والعلوم والمعا رف ، وَرِوَايَة"بَين كنفي" ، يُرَاد بِهِ كَقَوْل الْقَائِل : أَنا فِي كنف فلَان وفنائه ، أَرَادَ بذلك أَنَّه فِي ظلِّ نعْمَته وَرَحمته ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : أفادني الرَّب من رَحمته وإنعامه بِملكه وَقدرته حتَّى علمت مَا أعلمهُ ، وَقَوله :"فَوجدت برد أنامله" ، يحْتَمل أَن يكون الْمَعْنى برد نعمه ، فَإِنَّ تَأْوِيل الأنامل على معنى الإصبع على مَا تقدَّم ، فَيكون الْمَعْنى : حتَّى وجدت آثَار إحسانه وَنعمته وَرَحمته فِي صَدْرِي ، فتجلَّى لي عِنْد ذَلِك علم مَا بَين السَّمَاء وَالْأَرْض برحمة الله وَفضل نعْمَته .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ : وَقَوله :"فَإِذا أَنا بربي تبَارك وَتَعَالَى فِي أحسن صُورَة أَو رَأَيْت رَبِّي فِي أحسن صُورَة "، هَذَا رَاجع إِلَى النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، أَي : رَأَيْته وَأَنا فِي أحسن صُورَة ، كَقَوْل الْقَائِل : رَأَيْت الْأَمِير فِي أحسن صُورَة وَمرَاده وَأَنا فِي أحسن زيي ، وَحِينَئِذٍ فَالْمُرَاد : أَنَّ الله تَعَالَى زيَّن خلقته عَلَيْهِ السَّلام وكمَّل صورته عِنْد رُؤْيَته لرَبَّه زِيَادَة إكرام وتعظيم

وَقَالَ بعض الْمُحَقِّقين مَا ملخَّصه : يجوز أَن يكون قَوْله"فِي أحسن صُورَة" رَاجعاً إِلَى محمَّد ، أَي : رَأَيْته وَأَنا فِي أحسن صُورَة ، بِمَعْنى أَنَّ الله حسَّن صورته وَنَقله إِلَى هَيْئَة يُمكنهُ مَعهَا رُؤْيَته إِذْ كَانَ الْبشر لَا يُمكنهُم رُؤْيَته تَعَالَى على صورتهم الَّتِي عَلَيْهَا حتَّى ينقلوا إِلَى صور أخر غير صورهم ، كَمَا أَنَّ أهل الجنَّة ينقلهم الله عَن صفاتهم إِلَى صِفَات أُخر أَعلَى وأشرف ، فَعجَّل الله لنَبيه هَذِه الْكَرَامَة فِي الدُّنيا ، وَيجوز أَن يكون رَاجعاً إِلَى الله ، بِمَعْنى أَنَّه رَأى ربَّه على أحسن مَا وعده بِهِ من إنعامه وإحسانه وإكرامه ، كَمَا تَقول للرَّجل : كَيفَ كَانَت صُورَة أَمرك عِنْد لِقَاء الْملك ، فَيَقُول : خير صُورَة أَعْطَانِي ، وأنعم عَليَّ ، وأدناني من محَلِّ كرامته ، فهذان تَأْوِيلَانِ صَحِيحَانِ جاريان على

أساليب كَلَام الْعَرَب ، قَالَ : وَقد جَاءَ فِي بعض الحَدِيث أَنَّه كَانَت رُؤْيَة فِي الْمَنَام ، فَإِذا كَانَ الْأَمر كَذَلِك كَانَ التَّأْوِيل وَاضحاً ، لِأَنَّهُ لَا يُنكر رُؤْيَة الله تَعَالَى فِي الْمَنَام كَذَلِك ، انْتهى .

وروى أَحْمد وَالْبُخَارِيّ وَمُسلم أَنَّه عَلَيْهِ السَّلام قَالَ : خلق الله آدم على صورته وَطوله سِتُّونَ ذِرَاعاً"الحَدِيث ، وَفِيه :"وكلُّ من يدْخل الجنَّة على صُورَة آدم طوله سِتُّونَ ذِرَاعاً ، فَلم تزل الْخلق تنقص بعده حتَّى الْآن" .

وَفِي لفظ آخر :"إِذا قَاتل أحدكُم أَخَاهُ فليجتنب الْوَجْه ، فَإِنَّ الله خلق آدم على صورته" .

قَالَ النَّوَوِيّ :"هَذَا من أَحَادِيث الصِّفات ، وَمذهب السَّلف أَنَّه لَا يتكَلَّم فِي مَعْنَاهَا بل يَقُولُونَ : يجب علينا أَن نؤمن بهَا ، ونعتقد لَهَا معنى يَلِيق بِجلَال الله تَعَالَى من اعتقادنا أَنَّه **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** ، وَهَذَا القَوْل اخْتَارَهُ جمَاعَة من محقِّقي الْمُتَكَلِّمين ، قَالَ : وَهُوَ أسلم ، وَالثَّانِي : أَنَّهَا تؤول على مَا يَلِيق على حسب مواقعها .

قَالَ الْمَازرِيّ :"وَقد غلط ابْن قُتَيْبَة فِي هَذَا الحَدِيث فأجراه على ظَاهره ، وَقَالَ : لله صُورَة لَا كالصُّور ، قَالَ : وَهَذَا كَقَوْل المجسِّمة : جسم لَا كالأجسام ، لَمَّا رَأَوْا أهل السُّنَّة يَقُولُونَ : الله تَعَالَى شَيْء لَا كالأشياء ، وَالْفرق أَنَّ لَفْظَة شَيْء لَا تفِيد الْحُدُوث وَلَا تَتَضَمَّن مَا يَقْتَضِيهِ ، وأمَّا جسم وَصُورَة فيتضمَّنان التَّأْلِيف والتَّركيب ، وَذَلِكَ دَلِيل الْحُدُوث .

وَقَالَ أهل التَّأْوِيل : مَا قَالَه الْخطابِيّ أَنَّ الضَّمير فِي صورته يعود على آدم، بِمَعْنى أَنَّ الله تَعَالَى خلقه ابْتِدَاء على صورته الَّتِي أوجده عَلَيْهَا ، وَلم يردده فِي أطوار الْخلقَة كبنيه ، نُطْفَة ثمَّ علقَة ثمَّ مُضْغَة ثمَّ أجنة ثمَّ أطفالاً ، وَفِي الحَدِيث الْأُخَر الضَّمير يعود على الْمَضْرُوب .

وَقَالَ بعض الْمُحَقِّقين مَا ملخَّصه : يجوز عود الضَّمير على آدم وعَلى الله ، فَإِن عَاد على آدم فالغرض مِنْهُ الرَّدُّ على الدَّهريَّة وَالْيَهُود ، وَهُوَ من جَوَامِع الْكَلم ، فَإِنَّ الدَّهريَّة قَالَت : إِنَّ الْعَالم لَا أَوَّل لَهُ ، فَلَا حَيَوَان إِلَّا من حَيَوَان آخر قبله ، وَلَا زرع إِلَّا من بذر قبله ، فأعلمنا عَلَيْهِ السَّلام أَنَّ الله خلق آدم على صورته الَّتِي شوهد عَلَيْهَا ابْتِدَاء .

وَقَالُوا أَيْضاً : إِنَّ للطَّبيعة وَالنَّفس الْكُليَّة فعلاً فِي المحدثات المتكوّنة غير فعل الله ، فأعلمنا أَنَّه أوجده كَذَلِك دون مُشَاركَة من طبيعة أَو نفس ، وَالْيَهُود قَالَت : إِنَّ آدم فِي الذَّنب كَانَ على خلاف صورته فِي الجنَّة ، فَلَمَّا خرج مِنْهَا نقص قامته وَغير خلقته ، فأعلمنا بكذبهم وَأَنَّه خلق فِي أوَّل أمره على صورته الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا عِنْد هُبُوطه ، وَإِن عَاد الضَّمير على الله فإضافة صُورَة آدم إِلَيْهِ على وَجه التَّشريف والتَّخصيص لَا على مَا يسْبق للوهم من مَعَاني الْإِضَافَة ، كَقَوْلِهِم : الْكَعْبَة بَيت الله ، وإِنَّما خصَّصه بِالْإِضَافَة إِلَى الله دون غَيره ، لِأَنَّ الله خلقه دفْعَة وَاحِدَة من غير ذكر وَأُنْثَى ، وَلَا ضمَّته الْأَرْحَام ، وخلقه بِيَدِهِ ، وأسجد لَهُ مَلَائكَته ، وَهُوَ أَبُو الْبشر ، فنبَّهنا عَلَيْهِ السَّلام بِإِضَافَة صورته إِلَى الله على ذَلِك ، وَهُوَ نَظِير قَوْله تَعَالَى : **﴿ونَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوْحِي﴾**﴿الحجر: ٢٩﴾ ، وَقَوله : **﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِك﴾**﴿المائِدَة ١١٦﴾ ، وَقَوله : **﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَي﴾**﴿ص ٧٥﴾ .

فَكَمَا لَا تدل هَذِه الْإِضَافَة على أَنَّ لَهُ نفساً وروحاً ويدين ، فَكَذَلِك إِضَافَة الصُّورة إِلَيْهِ تَعَالَى لَا تدلُّ على أَنَّ لَهُ صُورَة ، قَالَ : وَأَيْضًا فالعرب تسْتَعْمل الصُّورة على وَجْهَيْن :

أَحَدُهُمَا : الصُّورة الَّتِي هِيَ شكل مخطط مَحْدُود بالجهات .

وَالثَّانِي : بِمَعْنى صفة الشَّيْء ، كَقَوْلِهِم : مَا صُورَة أَمرك فَكيف كَانَت صُورَة نَفسك ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَاد هُنَا ، فَإِن الله جعله خَليفَة فِي أرضه يعلم وَيَأْمُر وَيَنْهى ويسوس وَيُدبر وسخر لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض ، انْتهى .

وَاعْترض بَعضهم هَذِه الْأَجْوِبَة ، وَقَالَ : الْوَاجِب أَن تمرّ الْأَحَادِيث كَمَا جَاءَت بِلَا تَأْوِيل وَلَا تكييف ، فَإِنَّ الضَّمير إِذا كَانَ عَائِدًا على آدم لَا فَائِدَة فِيهِ ، إِذْ لَيْسَ يشكُّ أحدٌ أَنَّ الله خَالق الْإِنْسَان على صورته وَالسِّبَاع والأنعام على صورها ، فَأَي فَائِدَة فِي الْحمل على ذَلِك ؟ وَلَا جَائِز أَن يُقَال : عَائِد على الْمَضْرُوب ، إِذْ لَا فَائِدَة فِيهِ ، لِأَنَّ الْخلق عالمون بِأَنَّ آدم خلق على خلق وَلَده ، وَوَجهه على وُجُوههم .

قلت : وَفِي هَذَا الاعتراض نظر ، فَإِنَّهُ لَا يرد بعد إبراز مَا تقدَّم من النُّكات وَالْحكم ، نعم مِمَّا يُقَوي الاعتراض قَوْله عَلَيْهِ السَّلام فِي حَدِيث آخر :"لا تقبِّحوا الْوَجْه ، فَإِن ابْن آدم خُلق على

صُورَة الرَّحمان" ، وَقَول الْمَازرِيّ فِي هَذَا الحَدِيث : إِنَّه لَيْسَ بِثَابِت عِنْد أهل الحَدِيث فِيهِ مَا فِيهِ ، فقد رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة عَن جرير عَن الْأَعْمَش عَن حبيب بن أبي ثَابت عَن عَطاء بن أبي رَبَاح عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وَهَذَا غَايَة مَا قَالَ الْبَيْهَقِيّ يحْتَمل أَن لفظ هَذَا الحَدِيث كَمَا فِي الحَدِيث الآخر ، فأدَّاه بَعْض الرُّواه على مَا وَقع فِي قلبه من مَعْنَاهُ ، وَالله أعلم .

ثمَّ رَأَيْت الْحَافِظ ابْن حجر قَالَ : وَقد أنكر الْمَازرِيّ وَمن تبعه صِحَّة هَذِه الرِّواية ، وَقد أخرجهَا ابْن أبي عَاصِم فِي السُّنَّة وَالطَّبَرَانِيّ من حَدِيث ابْن عمر بِإِسْنَاد رِجَاله ثِقَات ، وأخرجها ابْن أبي عَاصِم أَيْضاً من طَرِيق أبي هُرَيْرَة بِلَفْظ يرد التَّأْوِيل الأوَّل ، قَالَ :"من قَاتل فليجتنب الْوَجْه ، فَإِنَّ صُورَة وَجه الْإِنْسَان على صُورَة وَجه الرَّحمان" ، قَالَ : فَتعين إِجْرَاء ذَلِك على مَا تقرَّر بَين أهل السُّنَّة من إمراره كَمَا جَاءَ من غير اعْتِقَاد تَشْبِيه ، قَالَ : وَزعم بَعضهم أَنَّ الضَّمير يعود على آدم ، أَي : على صفته ، أَي : خلقه مَوْصُوفاً بِالْعلمِ الَّذِي فضّل بِهِ على الْحَيَوَان ، قَالَ : وَهَذَا مُحْتَمل ، وَقيل : الضَّمير لله ، وَتمسَّك قَائِله بِمَا فِي بعض طُرقه :"على صُورَة الرَّحمان" ، فَالْمُرَاد بالصُّورة الصِّفة ، أَي : إِنَّ الله خلقه على صفته من الْعلم والحياة والسَّمع وَالْبَصَر وَغير ذَلِك ، وَإِن كَانَت صِفَات الله لَا يشبهها شَيْء ، انْتهى .

قلت : لَكِن التَّعْلِيل باتِّقاء الْوَجْه يردُّ جَمِيع التَّأْوِيل ، وَلم يبْق إِلَّا التَّعويل على مَذْهَب من سلف من أَئِمَّة السَّلف .

وروى ابْن عَبَّاس إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام ضرب الْحجر لبني إِسْرَائِيل فتفجَّر ، فَقَالَ : اشربوا يَا حمير ، فَأوحى الله إِلَيْهِ عَمَدت إِلَى خلق من خلقي على صُورَتي فشبهتهم بالحمير ، فَمَا برح حتَّى عُوقِبَ .

قَالَ الْقُرْطُبِيّ : ذكره القتيبي فِي"مُخْتَلف الحَدِيث" ، وَقَالَ القتيبي : وَالَّذِي عِنْدِي وَالله أعلم : أَنَّ الصُّورة لَيست بِأَعْجَب من الْيَدَيْنِ وَالْيَمِين وَالْعين، وإِنَّمَا وَقعت الألفة لتِلْك لمجيئها فِي الْقُرْآن ، وَوَقعت الوحشة من هَذِه لِأَنَّهَا لم تأت فِي الْقُرْآن ، وَنحن نؤمن بِالْجَمِيعِ ، وَلَا نقُول فِي شَيْء مِنْهُ بكيفيَّة وَلَا حدٍّ ، انْتهى .

وَفِي البُخَارِيّ وَمُسلم حَدِيث :"هَل نرى ربّنا يَوْم الْقِيَامَة" ، وَفِيه :"فيأتيهم الله فِي صُورَة غير صورته الَّتِي يعْرفُونَ ، فَيَقُول : أَنا ربّكم ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذ بِاللهَّ مِنْك ، هَذَا مَكَاننَا حتَّى يأتينا ربّنا ، فَإِذا أَتَانَا عَرَفْنَاهُ ، فيأتيهم الله فِي الصُّورة ، وَفِي لفظ آخر :"فِي صورته الَّتِي يعْرفُونَ ، فَيَقُول : أَنا ربّكم ، فَيَقُولُونَ : أَنْت ربّنا فيتبعونه" ، الحَدِيث .

وَقَالَ بعض أهل التَّأْوِيل : إِنَّ فِي بِمَعْنى الْبَاء ، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ**﴾«البَقَرَة ٢١٠» ، أَي :بظلل ، فَيكون معنى الْإِتْيَان هُنَا أَنَّه يحضر لَهُم تِلْكَ الصُّورَ ، وَيذكر أَنَّه مَلَك عَظِيم يَقُولُ لَهُم بِأَمْر الله : أَنا ربّكم .

وَأمَّا الصُّورة الثَّانية فَهِيَ صفته تَعَالَى لَا يُشَارِكهُ فِيهَا شَيْء ، وَهُوَ الْوَصْف الَّذِي كَانُوا عرفوه فِي الدُّنيا بقوله : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾«الشورى:١١» ، وَلذَلِك قَالُوا : إِذا جَاءَنَا ربّنا عَرفْنَاهُ .

قَالَ الْقُرْطُبِيّ : وَلَا يستبعد إِطْلَاق الصُّورة بِمَعْنى الصِّفة ، فَمن المتداول أَن يُقَال : صُورَة هَذَا الْأَمر كَذَا ، أَي : صفته ، وَقيل : الْكَلَام خرج مخرج المشاكلة للفظ الصُّورة ، وَالله أعلم ، وَمذهب السَّلف أسلم" .

وقال الحسين بن محمَّد بن سعيد اللاعيّ، المعروف بالمَغرِبي(١١١٩ هـ) في"البدرُ التَّمام شرح بلوغ المرام" (١٠/ ٢٩٠-٢٩١) :"قوله:"إذا قاتل". وفي رواية لمسلم :"إذَا ضَرَبَ أَحَدُكم". وفي رواية :"فلا يلطمنَّ الوجه". وفي رواية :"إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه ، فإنَّ الله خلق آدم على صورته".

الحديث فيه دلالة على حرمة الوجه زيادة على سائر البدن، وأنَّه يترقَّى عن أن يصاب بضرب أو لطم ولو في حدّ، وذلك لأنَّ الوجه لطيف مجمع المحاسن، وأعضاؤه نفيسة لطفة، وأكثر الإدراك بها، فقد يبطلها ضرب الوجه، وقد ينقصها، وقد يشوه الوجه، والشَّين فيه فاحش؛ لأنَّه بارز ظاهر لا يمكن ستره، ومتى أصابه ضرب لا يسلم من شين غالبًا، ويدخل في النَّهي ما إذا أراد تأديب الولد أو الزَّوجة أو العبد؛ فإنَّه يجب اجتناب الوجه.

والتَّعليل بقوله:"فإنَّ الله خلق آدم على صورته". أي: صورة هذا المضروب، كما هو ظاهر عبارة مسلم. يعني أنَّ الوجه الذي في المضروب هو على نحو ما خلق آدم عليه، وآدم خلق في أكمل الأحوال وأشرف الصِّفات، فينبغي احترامه، والضَّمير في:"صورته". يعود إلى المضروب. وقالت طائفة: يعود إلى آدم. والمعنى غير مناسب. وقالت طائفة: يعود إلى الله تعالى. ويكون المراد بالإضافة التَّشريف والاختصاص، كقوله: ﴿نَاقَةُ اللهِ﴾ . وكما يقال في الكعبة: بيت الله. وبعضهم جعله من أحاديث الصِّفات التي قال فيها جمهور السَّلف: نؤمن بأن ظاهرها غير مراد، ولها معنى يليق بها في حقِّ الله تعالى وإن خفي علينا، وأنَّه ليس كمثله شيء. وهو أسلمُ من التَّكلُّف.

قال المازري : هذا الحديث بهذا اللفظ ثابت، ورواه بعضهم:"إنَّ الله خلق آدم على صورة الرَّحْمَن". وهذا ليس بثابت عند أهل الحديث، وكأنَّ من رواه رواه بالمعنى الذي وقع له، وغلط في ذلك. واللهُ أعلم".

وقال إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء(١١٢٧هـ) في"روح البيان"(١/٨٦) :"قال عليه السَّلام (إنَّ الله خلق آدم على صورته) ، أي : على صفته ، فعلى قدر ضعف الإنسان أعطاه الله تعالى من كلِّ صفة من صفات جماله وجلاله أنموذجاً ليشاهد في مرآة صفات نفسه كمال صفات ربِّه ، كما قال :(مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّه) . ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة (ص٦٥٧ برقم ١١٤٩) ، وقال :" قال أبو المظفر ابن السمعاني: في الكلام على التحسين والتقبيح العقلي من القواطع أنه لا يعرف مرفوعا، وإنَّما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي يعني من قوله، وكذا قال النووي: إنه ليس بثابت، وقيل في تأويله: من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء " .

وليس لشئ من المخلوقات هذه الكرامة المختصَّة بالإنسان ، كما قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾**.

وقال محمَّد بن إسماعيل بن صلاح بن محمَّد الحسني، الكحلاني ثمَّ الصَّنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير(١١٨٢هـ) في"التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ"(٥/٤٩٦) :"(خلق الله آدم على صورته) أي على صورة آدم التي كان عليها من مبدأ فطرته إلى موته ، لم يتفاوت هيئته

بخلاف بنيه ، فإنَّ كلَّاً منهم يكون نطفة ثمَّ علقة ثمَّ مضغة ثمَّ عظاماً وأعصاباً عارية ثمَّ يكسوها لحماً ثمَّ حيواناً مخبأ لا يأكل ولا يشرب ثمَّ يكون مولودًا رضيعاً ثمَّ طفلاً مترعرعاً ثمَّ مراهقاً ثمَّ شابا ثمَّ كهلا ثمَّ شيخا، والمعنى: خلق الله آدم أي صوّره أو نفخ فيه الرُّوح حال كونه على صورته التي هو عليها .

وفي قوله: (وطوله ستُّون ذراعًا) ما يدلُّ على ذلك، ويدلُّ له أيضاً ما في رواية أحمد : ولم ينتقل أطواراً كذريَّته ، والمراد بذراع نفسه، قال ابن حجر: وروى عبد الرزاق"أنَّ آدم لمَّا أهبط إلى الأرض كان رجلاه في الأرض ورأسه في السَّماء ، فحطَّه الله إلى ستِّين ذراعاً" .

فظاهره أنَّه كان مفرط الطُّول في ابتداء فطرته، وظاهر هذا الحديث أنَّه خلق ستّين ذراعاً ابتداء وهو المعتمد.

(ثمَّ قال: اذهب فسلِّم على أولئك النَّفر) ، وذلك بعد أن علَّمه تعالى السَّلام" .

وقال الصَّنعاني في"التَّحبير لإيضَاح مَعَاني التَّيسير"(٦/ ٥٩١-٥٩٢) :"...هذا اللفظ في بعض الرِّوايات التي ساق ألفاظها ابن الأثير، والضَّمير لآدم، أي: على الصُّورة التي استمرَّ عليها إلى أن أهبط، وإلى أن مات دفعاً لمن يتوهَّم أنَّه كان في الجنَّة على صورة أخرى.

وقيل: والمراد من الصُّورة: الصِّفة من العلم والحياة والسَّمع والبصر، وإن كانت صفاته لا يشبهها شيء.

وقيل: الضَّمير للعبد المحذوف من السِّياق، وأنَّ سبب الحديث: أنَّ رجلاً ضرب عبده فنهاه عن ذلك، وقال: إنَّ الله خلق آدم على صورته...".

وقال محمَّد ثناء الله النَّقشبندي المظهري(١٢٢٥هـ) في"الَّتفسير المظهري"(٩/ ٢٥٧) :"وقال عليه الصَّلاة والسَّلام :"أنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته" ، فالصُّورة أراد بها ما خصَّ الإنسان به من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة ، وبها فضَّله على كثير من الخلق ، وأضافه إلى الله على سبيل الملك لا على سبيل البعضيَّة والتَّشبيه ، تعالى عن ذلك . وذلك على سبيل التَّشريف كقوله : بيت الله ، و **﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾** .

قلت : ويمكن أن يراد به خلقه تعالى على صفاته من العلم والقدرة والإرادة ونحو ذلك التي بها لبس خلعة الخلافة وامتاز به عمَّا عداه ، واحتمل ثقل الأمانة ، وجاز أن يكون ضمير صورته راجعاً إلى آدم ، يعنى خلقه على صورة لم يعط أحداً غيره ، والله تعالى أعلم" .

وقال أحمد بن عبد الرَّحْمَن بن محمَّد البنَّا السَّاعاتي(١٣٧٨هـ) في"الفتح الرَّبَّاني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشَّيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرَّبَّاني"(١٩/ ٣٣٢-٣٣٣) :"عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَجَنَّبِ الْوَجْهَ، وَلَا يَقُلْ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ" . أخرجه أحمد في المسند(١٢/ ٣٨٢ برقم ٧٤٢٠) ، قال الأرنؤوط :"إسناده قوي. وسيأتي مكررا برقم(٩٦٠٤). وأخرجه ابن أبي عاصم في"السنة"(٥٢٠) ، وابن خزيمة في"التوحيد" ١/ ٨٢-٨٣ و٨٣، والآجري في"الشريعة" ص ٣١٤-٣١٥، واللالكائي في"شرح أصول الاعتقاد"(٧١٥) ، والبيهقي في"الأسماء والصفات" ص ٢٩١، والخطيب في"تاريخ بغداد" ٢/ ٢٢٠-٢٢١ من طريق يحيى بن سعيد القطان، بهذا الإسناد. وليس في رواية الآجري قوله:"ولا تقل: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك".

وأخرجه الحميدي(١١٢٠) ، والبخاري في"الأدب المفرد"(١٧٢) ، وابن أبي عاصم(٥١٩) ، وابن خزيمة في"التوحيد" ١/ ٨١-٨٢ و٨٢، والآجري في"الشريعة" ص ٣١٤ من طرق عن محمد بن عجلان، به. ولم يذكر الشطر الأول من الحديث وهو قوله:"إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه" عند الحميدي وابن أبي عاصم وابن خزيمة في موضعه الأول والآجري، وهو عند ابن خزيمة في الموضع الثاني دون الشطر الثاني منه، واقتصر البخاري منه على قوله:"لا تقولوا: قبح الله وجهه".

وأخرجه البخاري في"الأدب"(١٧٣) من طريق سفيان بن عيينة، عن ابن عجلان، به - ووقفه على أبي هريرة.

وأخرج أوله البخاري أيضا(١٧٤) من طريق سليمان بن بلال، عن محمد بن عجلان، عن أبيه وسعيد المقبري، عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ:"إذا ضرب أحدكم خادمه، فليجتنب الوجه".

وأخرجه النسائي في"الكبرى"(٧٣٥٠) من طريق يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة - لم يذكر فيه سعيدا، ولم يقل فيه: خادمه.

وأخرجه البخاري في"الصحيح"(٢٥٥٩) من طريق سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، بلفظ:"إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه".

وأخرجه عبد الرزاق في"مصنفه"(١٧٩٥٢) عن يحيى البجلي، عن ابن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي هريرة. كلفظ المصنف" .

على صورة الرَّحْمَن ، أي : على صفته من العلم والحياة والسَّمع والبصر ، وغير ذلك ، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء .

وجاء في رواية البخاري بعد قوله على صورته (طوله ستُّون ذراعاً) (قال التُّوربتشي) : وأهل الحقِّ في ذلك على طبقتين:

(إحداهما) : المتنزِّهون عن التَّأويل مع نفي التَّشبيه وإحالة العلم إلى علم الله تعالى الذي أحاط بكلِّ شيء علماً ، وهذا أسلم الطَّريقتين.

(والطَّبقة الأخرى) : يرون الإضافة فيها إضافة تكريم وتشريف ، وذلك أن الله تعالى خلق آدم على صورة لم يشاكلها شيء من الصُّور في الجمال والكمال وكثرة ما احتوت عليه من الفوائد الجليلة.

(وقال الطِّيبي) : تأويل الخطَّابي في هذا المقام حسن يجب المصير إليه ، لأنَّ قوله : "طوله" بيان لقوله : "على صورته" ، كأنَّه قيل : خلق آدم على ما عرف من صورته الحسنة وهيئته من الجمال والكمال وطول القامة ، وإنَّما خصّ الطُّول منها ، لأنَّه لم يكن متعارفاً بين الناس.

(وقال القرطبي) : كأنَّ من رواه على صورة الرَّحْمَن أورده بالمعنى متمسِّكاً بما توهَّمه ، فغلط في ذلك. وقوله :"ستون ذراعاً" يحتمل أن يريد بذراع نفسه أو الذِّراع المتعارف يومئذ عند المخاطبين ، الأوَّل أظهر ، لأنَّ ذراع كلّ أحد ربعه ، فلو كان بالذِّراع المعهود كانت يده قصيرة في جنب طول جسده ، والله أعلم".

وقال سعيد حوَّى(١٤٠٩ هـ) في"الأساس في التَّفسير"(١/١٢٩) :"في الحديث الصحيح «إن الله خلق آدم على صورته» وبعضُ الشُّرَّاح قالوا في تفسير هذا الحديث: أي على صورة الإنسان المضروب الذي بسببه قيل الحديث، وعلى هذا الاتِّجاه فحتماً إنَّ آدم وذريَّته لهم سمت خاصٌّ بهم، مع ملاحظة أنَّ هناك نصوصاً تذكر: أنَّه عند ما خلق آدم في الجنَّة كان طويلاً جداً ، وعلى هذا، فالصُّورة واحدة، والضَّخامة مختلفة، وقد ذكر الدُّكتور حسن زينو المختصّ بالجيولوجيا في كتابه «التَّطوُّر والإنسان» كيف أنَّه عثر على جثَّة ما يسمَّى بالإنسان العملاق، وكيف أنَّ بعض الهياكل التي عثر عليها كان ضرس الواحد منهم يعدل ستَّة أضعاف ضرس إنساننا الحالي، فهو إذن يعدل ستَّة أضعاف إنساننا الحالي.

إنَّ هذا الاكتشاف وحده يقلب كلَّ التَّعليلات الماديَّة رأساً على عقب. إنَّ آدم خلق خلقاً مباشراً بقدرة الله، أمَّا وجود أنواع من المخلوقات تشبه إنساننا الحالي فلا يعني هذا أنَّ ذلك قد تحدَّر عنه آدم، وإنَّما المسألة على الشَّكل التَّالي : أمَّا أن نعتبر تلك الهياكل هياكل بشر، خلقوا قبلنا ثمَّ انتهوا، وأمَّا أن نعتبرها هياكل لمخلوقات غير بشريَّة مندثرة.

أمَّا النُّصوص فقطعيَّة في أنَّ آدم خلق مباشرة بيد الله، وأمَّا العلم فإنَّه يرفض رفضاً قاطعاً نظريَّة داروين، ولتراجع ظاهرة الحياة في كتابنا «الله جلَّ جلاله» ، ثمَّ إنَّ علينا أن نذكر نقطة مهمَّة جدَّاً وهي أنَّ نصوص الكتاب والسُّنَّة لا تحدِّد تاريخاً لوجود آدم عليه الصَّلاة والسَّلام" .

وقال محمَّد متولي الشَّعراوي(١٤١٨هـ) في"تفسير الشَّعراوي (الخواطر)"(١٢/ ٧٦٩٣) :"وهناك حديث يقول فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : «خلق الله عزَّ وجلَّ آدم على صورته، ستُّون ذراعاً».

واختلف العلماء في مرجع الضَّمير في هذا الحديث؛ أيعود إلى صورة آدم؟ أم يعود إلى آدم؟

فمن العلماء من قال: إنَّ الضَّمير يعود إلى آدم؛ بمعنى أنَّ الله لم يخلقه طفلاً، ثمَّ كبر؛ بل خلقه على الصُّورة النَّاضجة؛ وتلفَّت آدم فوجد نفسه على تلك الصُّورة النَّاضجة؛ وأنَّه لم يكُنْ موجوداً من قبل ذلك بساعة؛ لذلك تلفَّت إلى المُوجِد له.

والذين قالوا: إنَّ الحق سبحانه خلق الإنسان على صورته، وأنَّ الضَّمير يعود إلى الله؛ فذلك لأنَّ الحقَّ قد جعل الإنسان خليفة له في الأرض؛ وأعطاه من قدرته قدرةً؛ ومن عِلْمه علماً؛ ومن حكمته حكمة، ومن قاهريَّته قهراً" .

وقال الأستاذ الدُّكتور موسى شاهين لاشين في"فتح المُنعم شرح صحيح مسلم"(ص٦١٦-٦١٧) :"يقول الإمام النَّووي: اعْلَمْ أَنَّ لِأَهْلِ الْعِلْمِ فِي أَحَادِيثِ الصِّفات وَآيَاتِ الصِّفات قَوْلَيْنِ أَحَدُهُمَا وَهُوَ مَذْهَبُ مُعْظَمِ السَّلَفِ أَوْ كُلِّهِمْ أَنَّهُ لَا يُتَكَلَّمُ فِي مَعْنَاهَا بَلْ يَقُولُونَ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا وَنَعْتَقِدَ لَهَا مَعْنًى يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهَّ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ مَعَ اعْتِقَادِنَا الْجَازِمِ أَنَّ اللهَّ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ التَّجَسُّمِ وَالِانْتِقَالِ وَالتَّحَيُّزِ فِي جِهَةٍ وَعَنْ سَائِرِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ مَذْهَبُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَاخْتَارَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ مُحَقِّقِيهِمْ وَهُوَ أَسْلَمُ وَالْقَوْلُ الثَّانِي وَهُوَ مَذْهَبُ

مُعْظَمِ الْمُتَكَلِّمِينَ أنها تتأول على مايليق بِهَا عَلَى حَسَبِ مَوَاقِعِهَا وإِنَّمَا يَسُوغُ تَأْوِيلُهَا لِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ بِأَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَقَوَاعِدِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ ذَا رِيَاضَةٍ فِي الْعِلْمِ فَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ يُقَالُ فِي قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فيأتيهم الله أَنَّ الْإِتْيَانَ عِبَارَةٌ عَنْ رُؤْيَتِهِمْ إِيَّاهُ لِأَنَّ الْعَادَةَ أَنَّ مَنْ غَابَ عَنْ غَيْرِهِ لَا يمكنه رؤيته الا بالاتيان فعبر بالاتيان والمجيء هُنَا عَنِ الرُّؤْيَةِ مجَازًا وَقِيلَ الْإِتْيَانُ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ اللهَّ تَعَالَى سَمَّاهُ إِتْيَانًا وَقِيلَ المراد بيأتيهم اللهُ أَيْ يَأْتِيهِمْ بَعْضُ مَلَائِكَةِ اللهَّ .

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللهُ هَذَا الْوَجْهُ أَشْبَهُ عِنْدِي بِالْحَدِيثِ قَالَ وَيَكُونُ هَذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَهُمْ فِي الصُّورَةِ الَّتِي أَنْكَرُوهَا مِنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الْمَلَكِ وَالْمَخْلُوقِ قَالَ أَوْ يَكُونُ مَعْنَاهُ يَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَةٍ أَيْ يَأْتِيهِمْ بِصُورَةٍ وَيُظْهِرُ لَهُمْ مِنْ صُوَرِ مَلَائِكَتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ الَّتِي لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ الْإِلَهِ لِيَخْتَبِرَهُمْ وَهَذَا آخِرُ امْتِحَانِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِذَا قَالَ لَهُمْ هَذَا الْمَلَكُ أَوْ هَذِهِ الصُّورَةُ أَنَا رَبُّكُمْ رَأَوْا عَلَيْهِ مِنْ عَلَامَاتِ الْمَخْلُوقِ مَا يُنْكِرُونَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ ربّهم وَيَسْتَعِيذُونَ بِاللهَّ مِنْهُ وأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : (فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ) فَالْمُرَادُ بالصُّورة هُنَا الصِّفة ، وَمَعْنَاهُ فَيَتَجَلَّى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُمْ عَلَى الصِّفة الَّتِي يَعْلَمُونَهَا وَيَعْرِفُونَهُ بِهَا وإِنَّمَا عَرَفُوهُ بِصِفَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ رُؤْيَةٌ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ربّهم فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا ، وإِنَّمَا عَبَّرَ بالصُّورة عَنِ الصِّفة لِمُشَابَهَتِهَا إِيَّاهَا وَلِمُجَانَسَةِ الْكَلَامِ ... (فَيَتَّبِعُونَهُ) فَمَعْنَاهُ يَتَّبِعُونَ أَمْرَهُ إِيَّاهُمْ بِذَهَابِهِمْ إِلَى الجنَّة أَوْ يَتَّبِعُونَ مَلَائِكَتَهُ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ بِهِمْ إِلَى الجنَّة ، وَاللهُ أَعْلَمُ . اهـ.

وقال ابن بطَّال: تمسَّك المجسِّمة بهذا الحديث، فأثبتوا لله صورة، ولا حجَّة لهم فيه، لاحتمال أن يكون بمعنى العلامة، وضعها الله لهم دليلاً على معرفته، كما يسمَّى الدَّليل والعلامة صورة، وكما تقول: صورة حديثك كذا، وصورة الأمر كذا، والحديث والأمر لا صورة لهما حقيقة. اهـ.

وقال ابن الجوزي: معنى الخبر: يأتيهم الله بأهوال يوم القيامة ومن صور الملائكة بما لم يعهدوا مثله في الدُّنيا، فيستعيذون من تلك الحال، ويقولون: إذا جاء ربُّنا عرفناه، أي إذا أتانا بما نعرفه من لطفه، وهي الصُّورة التي عبر عنها بقوله: ﴿**يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ**﴾ ، أي : عن شدَّة. اهـ.

وقال القرطبي: هو مقام هائل، يمتحن الله به عباده يميز الخبيث من الطيِّب، وذلك أنَّه لَّما بقي المنافقون مختلطين بالمؤمنين زاعمين أنَّهم منهم، ظانِّين أنَّ ذلك يجوز في ذلك الوقت، كما جاز في الدُّنيا، امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة هائلة، قالت للجميع: أنا ربُّكم. فأجابه المؤمنون بإنكار ذلك، لما سبق لهم معرفته سبحانه ، وأنَّه منزَّه عن صفات هذه الصُّورة، فلهذا قالوا: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً، حتَّى إنَّ بعضهم ليكاد ينقلب أي يزل، فيوافق المنافقين. اهـ.

وقد فهم بعضهم من قوله:"وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أوَّل مرَّة" أنَّهم رأوه أوَّل ما حشروا.

وقال آخرون: إنَّهم عرفوا صورته بناء على ما عرفوه به حين أخرج ذريَّة آدم من صلبه، ثمَّ أنساهم ذلك في الدُّنيا، ثمَّ يذكِّرهم بها في الآخرة.

وقال آخرون: إنَّ العلامة التي عرفوه بها، وهي السَّاق، يحتمل أنَّ الله عرَّفهم على ألسنة الرُّسل من الملائكة أنَّ الله جعل لهم علامة تجلِّيه سبحانه كشف السَّاق.

وقال الكلاباذي: عرفوه بأن أحدث فيهم لطائف عرفهم بها نفسه، ومعنى كشف السَّاق: زوال الخوف والهول. والله أعلم" .

وقال محمَّد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشَّافعي في الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج)(٤/ ٢٨٧) :"(في صورته) أي بصفته (التي يعرفون) ـــه بها في الدُّنيا (فيقول) لهم (أنا ربكم) فاتَّبعوني (فيقولون أنت ربّنا فيتبعونه) إلى موقف الحساب، وهذه الصُّورة الثَّانية التي يعرفونها عندما يتجلَّى لهم الحق بها هي صفته تعالى التي لا يشاركه فيها شيء من الموجودات ولا يشبهه بشبهها شيء من المصوَّرات، وهذا الوصف هو الذي كانوا قد عرفوه في الدُّنيا وهو المعبَّر عنه بقوله تعالى: **﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** ، ولذلك قالوا : إذا جاء ربُّنا عرفناه وفي حديث آخر يقال لهم : (وكيف تعرفونه؟ قالوا إنَّه لا شبيه له ولا نظير) ولا يستبعد إطلاق الصُّورة بمعنى الصِّفة ، فمن المتداول أن يقال : صورة هذا الأمر كذا أي صفته، والإتيان والمجيء المضاف إلى الله تعالى ثانيًا هو عبارة عن تجلِّيه لهم ، فكأنَّه كان بعيدًا فقرب أو غائبًا

فحضر ، وكلٌّ ذلك خطابات مستعارة جارية على المتعارف من توسُّعات العرب ، فإنَّهم يسمُّون الشَّيء باسم الشَّيء إذا جاوره أو كان منه بسبب اهـ".

فِهْرِسُ المَوْضُوْعَات